أحمد ابراهيم الشريف

دور الحجاز في الحياة السياسية العامة

في القرنين الأول والثاني للهجرة

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دكتور أحمد ابراهيم الشريف
كلية الآداب — جامعة عين شمس

دور الحجاز في الحياة السياسية العامة
في القرنين الأول والثاني للهجرة

الطبعة الأولى
١٩٦٨

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي


مطبعة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم الكتاب

إذا ذكر الحجاز هشت لذكره نفوس المسلمين ، وهوت إليه قلوبهم ، وتفجرت عواطفهم الدينية نحو منزل الوحي ومهبط النور . وانبعثت مشاعر العرب جميعاً نحو هذا المكان المبارك الذي شهد أمجد فترات حياتهم على التاريخ ، حيث تم لهم الهدى ، والتأمت لهم الوحدة ، وقامت على أيديهم أعظم دولة حققت مبادىء الإخاء والعدالة والمساواة بين الناس تحت راية الإسلام ، وكانت أول دولة إنسانية على الأرض ، وتحقق بقيامها ما وصف الله به المسلمين إذ يقول « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

ولعل عاطفتي ارتبطت بهذا كله ، فكان ذلك دافعي منذ نلت حظا من المعرفة إلى القراءة في التاريخ الإسلامي بعامة ، وفي تاريخ الصدر الأول من حياة المسلمين بخاصة . فكانت تعرض لي تساؤلات في كثير من مواقف هذا التاريخ الحافل لا أجد عنها جوابا شافيا .

— ما حقيقة حال العرب قبل الإسلام ، وكيف تهيئوا لتلقي أسمى رسالات السماء ؟ وكيف تسنى لهم أن يستوعبوا أفكارها ، ويدركوا أهدافها ، ثم يحملوها إلى الدنيا من حولهم ؟

— وما حال مكة حيث نزل الوحي وهبط النور ؟ وما شأن قريش قبيلة النبي وأهله ، ولم كان توجيه الدعوة إليهم أول ما وجهت الدعوة ، حيث أمر الله نبيه أن ينذر عشيرته الأقربين ، ثم لينذر أم القرى ومن حولها ؟ .

وما شأن يثرب ، ولماذا كانت دار الهجرة والمكان الصالح لقيام دولة الإسلام حيث طبقت مبادىء الرسالة ؟ . وكيف نجح النبي صلى الله عليه وسلم في إقامة دولته ، وعلى أي أساس من السياسة ؟ وكيف تم توحيد العرب تحت راية الإسلام لأول مرة في تاريخهم الطويل ؟

- ثم ما ردة العرب ؟.

- ثم ما شأن الخلافة ، وما عناصر الحكم فى دولة الإسلام ؟

- ولماذا وكيف خرج العرب إلى العالم من حولهم ، فأقاموا هذا الملك العريض ؟ وعلى أى الأسس نظموه وحكموه ؟ .

ثم ما بال الثورة تضطرم فى أقاليم الدولة وحاضرتها ، فتودى بخليفة هو من السابقين الأولين ، له من تقدمه فى الإسلام ، وصحبته وصهره من الرسول أكبر الحرمة ؟

- ولم كان الانتكاس بالوحدة الإسلامية ، وتفرق المسلمين إلى فرق وأحزاب متصارعة ؟ وما بال رجال من صحابة النبي الأولين ممن أسهموا فى إقامة الوحدة وبناء الأمة ، وكانوا زملاء الجهاد وإخوة الإيمان ، يحارب بعضهم بعضا ، وينقسم بينهم المسلمون يهريق بعضهم دماء بعض ؟ ثم كيف تحولت حكومة المسلمين من خلافة قائمة على الشورى ، يحكمها الضمير الدينى اليقظ القوى ، إلى ملك تسيطر عليه نوازع النفوس ؟

هذه تساؤلات تناولت نقاطا منها بحوث متخصصة من قبل ، ومع القيمة الكبيرة لبعضها فإنها لم تلمس الجوانب المؤثرة فى التفاعل التاريخى للأحداث ، كما أن دوافع الكيان التاريخى لهذه الفترة لا نستطيع تلمسها فى الكتب العامة التى تنهج السرد التقليدى فى تناول التاريخ . ومن ثم يبرز تساؤل لم يحظ بإجابة بل ذهب فى ثنايا التعميم ولم يلمسه التخصيص وهو : ما دور الحجاز فى سياق هذه الأحداث ، فإن ذكر الحجاز لم يعد يرتبط فى تصورنا إلا على أنه منزل الرسالة وبلد الرسول .

ولعل هذا كله جعلنى أتجه للقيام بدراسة متخصصة للحجاز ، فكان الكتاب الذى أصدرته من قبل عن مدينتى الحجاز « مكة والمدينة فى الجاهلية وعصر الرسول » ، وقد أجاب البحث فيه عن بعض ما ذكرت من تساؤلات . ثم كان هذا الكتاب الذى أقدمه عن « دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة فى القرنين الأول والثانى للهجرة » وعلى وجه التحديد حتى سنة ١٧٠ هـ .

فالحجاز هو البيئة التى نبتت فيها بذرة النهضة العربية ، ونمت فشملت الجزيرة العربية

كلها ، ثم امتدت بفروعها وظلالها فشملت العالم المتحضر القديم من حولها . وقبيلة قريش في مكة هي التي أنبتت هذه البذرة قبل ظهور الإسلام ، ثم بعث النبي صلى الله عليه وسلم من قريش ، وكان من أبنائها كبار صحابته الذين جاهدوا معه فأقاموا دولة الإسلام ، وكان منهم الخلفاء والقواد الذين ثبتوا الدولة وحموا النهضة ، وحملوا الرسالة الإسلاميه إلى المجال العالمي . فقريش هي قائدة النهضة العربية التي بدأت تباشيرها قبل الإسلام . وحين انتصرت دولة الإسلام كان رجال قريش هم قادة الأمة ، وتحت قيادتهم قام هذا البناء الضخم ، ثم من حول قريش ومن أجلها وقعت الأحداث الخطيرة التي أثرت في حياة العالم الإسلامي . وإذا كنا قد حددنا الفترة الزمنية لدور الحجاز في الحياة السياسية العامة هذا التحديد الزمني ، فإن ذلك لأن الحجاز مضى في خط صاعد فكان صاحب التجمع العربي ، ثم صاحب القيادة والتوجيه والتنظيم حتى إذا ما أدى هذا الدور العظيم ، كان قد بدأ يفقد مقدرته على الاستمرار ، لأن الدولة الإسلامية تكونت لها مراكز أخرى في بيئات أقوى من الحجاز اقتصاداً ، وقد انتقلت إليها قوى العرب البشرية ، فلم يعد الحجاز لذلك صالحا لأن يظل مركزاً للدولة ، فانتقلت عنه الحاضرة ، وتداولتها أهم أقاليم الدولة في العراق والشام . ومن ثم أخذ دور الحجاز يتراجع في المجال السياسي شيئاً فشيئاً حتى فقد فعاليته السياسية ، وإن كان قد استمر في أداء دوره في الطليعة في مجال آخر هو المجال الحضاري .

ونظراً إلى أن هذه الفترة تحوي أحداثاً ضخمة جليلة ، ينصرف الإحساس إلى معانيها الكامنة وراءها والدافعة إليها ، ولما كانت مصادرنا العربية قد اهتمت بوحدة الخبر أكثر من اهتمامها بالوحدة الموضوعية ، فقد رأينا أن إسناد النصوص إسناداً زمنياً فحسب ، لا يؤدي إلى استنباط الأحداث استنباطا موضوعيا ، وإنما يؤدي إليه المنهج التحليلي في استيعاب النصوص والتعمق في فهمها . وكذلك الدراسة النفسية للأشخاص الذين تفاعلوا مع الأحداث وانفعلوا بها انفعالا دفعها إلى أن تأخذ مسيرها الهائل في تشكيل تاريخ هذه الفترة ، وجعل منه وحدة مترابطة الحلقات متداخلة النتائج والأسباب . وقد كشف لنا هذا المنهج عن حقائق

أثارت فى بحثنا أحكاما جديدة ، وألقت أضواء على نصوص لم يكن لمعانيها صدى لدى الباحثين .

كانت منطقة الحجاز ذات أهمية كبيرة فى التاريخ القديم من الناحية الاقتصادية ؛ إذ كانت معبراً رئيسيا من معابر التجارة العالمية بين الشرق والغرب . ثم هى ذات أهمية كبيرة كذلك من وجهة الدراسة الحضارية ، إذ فيها تلاقت فى الماضى الوثنية واليهودية والنصرانية ، وقد كان للاحتكاك بين هذه الديانات أثره من غير شك قبل ظهور الإسلام وعند ظهوره .

وقد برزت أهمية الحجاز فى الحياة العربية فى نهاية القرن السادس الميلادى ، حين سقطت الممالك والإمارات العربية على أطراف شبه الجزيرة العربية تحت النفوذ الأجنبى ، ولم يبق غير نجد والحجاز اللتين ظلتا سالمتين من أى تسلط أجنبى ، فكان طبيعياً أن تكونا ملجأ للقومية العربية التى بدأت تعبر عن نفسها حين قامت فى اليمن ثورة قومية على الحكم الحبشى ، وتمرد الغساسنة على طغيان الروم ، واشتبكت العرب فى الشمال الشرقى مع الفرس فى معركة ذى قار فى بداية القرن السابع . ولم تقم فى نجد والحجاز دولة متسلسلة المراتب كدولة التبابعة فى اليمن ، وإنما كانت تملكها قبائل مستقلة راضية بأن تدبر أمورها بنفسها مضحية بكل غال لوقاية حريتها . ومع أنه لم تربط بينها وحدة سياسية واحدة فإنه ربط بينها شعور مشترك ومصلحة موحدة ، وكانت مكة ببيتها الحرام وأسواقها العامة وقوافلها التجارية هى مناط هذا الرباط ؛ وأصبحت لذلك عاصمة الجزيرة العربية من الوجهة الأدبية . وأصبحت قريش القبيلة المسيطرة على مكة والتى أظهرت قدرة على التنظيم الحكومى والتجارى فى مركز الزعامة الحقيقية بين القبائل العربية . ومع أن القبائل حتى فى نجد والحجاز لم تقر بسلطان سياسى لقريش ، إلا أن العرب تطلعوا إلى هذه المدينة المستقلة لتتولى زعامة النهضة العربية وتقودها ، وكان لا بد أن ينظر إلى قريش إذا ما أريد قيام وحدة عربية .

وفى نفس هذا الوقت كان الميل الروحى لدى العرب يتجه نحو غاية موحدة ، فقد بدأ التبرم واضحاً بالوثنية فى كل مكان ، ولما كان العرب قد بدأوا نهضة قومية ، وكانت الديانات الأخرى من حولهم قد لحقها كثير من التفرق والخلافات بين طوائفها ، فإن عقلاء العرب

أخذوا يبحثون عن الحنيفية دين إبراهيم الذى كانوا يعدونه أبالهم ، وتندر العرب بأصحاب الديانات ونعوا عليهم اختلافهم « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم » وراح ذوو المواهب منهم يعلنون قومهم بأن نبيا قد أظل زمانه سيظهر من بين العرب يهدى الناس إلى الصراط المستقيم . ولم يكن ينقص الوحدة العربية لكى تتم إلا الزعامة الدينية التى تضيف إلى وحدة الجنس ووحدة اللغة والاتحاد فى الشعور وحدة الدين لتنطلق النفوس نحو غاية واحدة . فإن العرب كما يقول ابن خلدون « لخلق التوحش الذى فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض للغلظة وبعد الهمة والمنافسة فى الرياسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم . فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم ، وذهب خلق الكبر والمنافسة فيهم ؛ فسهل انقيادهم واجتماعهم » . ولما كان كل أمر تحمل عليه الكافة لا بد له من عصبية قوية تنصره ؛ كان لا بد من أن يكون النبى المنتظر من قوم ذوى منعة ، وقد ورد فى الحديث الصحيح « ما بعث الله نبيا إلا فى منعة من قومه » « وكانت شوكة العرب فى مضر ، وكانت قريش عصبية مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم ، وكان لها على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف ، وكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ، فإذا انتظمت كلمة قريش انتظمت بانتظامها كلمة مضر فأذعن لهم سائر العرب » .

بعث النبى صلى الله عليه وسلم برسالة جوهرها الإقرار بألوهية إله واحد هو الله الذى تنزه عن المشاركة والمصاحبة وتفرد بالربوبية ، وأن الناس كلهم أبناء أب واحد وأم واحدة . فهم سواء أمام الله مهما اختلفت أجناسهم أو مراكزهم ؛ ويجب لذلك أن يتساووا فى الحقوق والواجبات بصفتهم إخوة فى الإنسانية وبصفتهم عبادا لرب واحد ، وأن النبى جاء ليقيم العدالة ويتمم مكارم الأخلاق .

وقد سارت دعوة النبى كما رسمها القرآن الكريم متدرجة بحسب الفطرة الإنسانية إلى عشيرته ثم إلى قبيلته ومن معهم ، ثم إلى العرب ، ثم إلى الناس كافة « وأنذر عشيرتك الأقربين » ثم « لتنذر أم القرى ومن حولها » ثم « لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم من قبل » ، ثم « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا » وإذا كانت رسالة النبى إنسانية عامة ومن ثم كان لزاما أن تحطم العصبية الضيقة ، فإنه لم يكن من المستطاع فى بادىء الأمر تجاهل ما لها من قوة ورسوخ فى المجتمع العربى ، بل كان

من المفيد الانتفاع بما فيهامن روابط تجمل أفراد الوحدة الواحدة كالجسد الحى فى ترابطهم، وكان من الأفضل الانتفاع بقوة هذه الروابط لتوسيع دائرة الأمة الجديدة .

لكن هذه الروابط التى كان من شأنها أن تدعو قوم النبى لمتابعته وقفت فى وجهها عصبية أخرى ممرقة هى عصبية التقاليد والعادات الموروثة . ثم إن التنظيم السياسى فى مكة وقف فى وجه الدعوة ، لتعلق رجال الملأ بمراكزهم ، ثم ماخشيته قريش من أن يذهب الإسلام بمركزها الدينى والأدبى فيضيع مركزها الاقتصادى « وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا » . ولذلك قاومت قريش الدعوة بكل الوسائل حتى اضطر النبى إلى عرض نفسه على القبائل للخروج من دائرة مكة

وكانت يثرب تفتقر إلى الظروف الجامعة التى توفرت فى مكة لعدم الوحدة الجنيسة بين سكانها من العرب واليهود ، ثم لما شب بين طوائفها من صراع دموى على تملك الأراضى الخصيبة فيها ، حتى ذهب بأمن الناس وهدد الحياة ، وأحس سكانها بضرورة وضع حد لهذا الصراع الخطير ، وكان لابد من عنصر خارجى يسمو فوق منازعات أهل المدينة ليقيم بينهم الوحدة ويقر النظام .

وقد وجد أهل المدينة هذا العنصر فى شخص النبى حين قدم رهط من الخزرج إلى مكة فالتقى بهم النبى فى موسم الحج ، فما عكموا أن أسلموا وأطلعوه على حال بلدهم ، ثم زادت الروابط بين النبى وعرب يثرب واتسع بينهم انتشار الإسلام ، وتوج ذلك ببيعة العقبة الكبرى التى دعا فيها أهل يثرب النبى إلى بلدهم وتعهدوا بحمايته ، كما رضى هو بأن يكون واحدا منهم ، وعلى ذلك هاجر والمسلمون إلى يثرب . وبدأ بالهجرة دور جديد فى حياة الدعوة الإسلامية وفى حياة الأمة العربية .

وفى المدينة استطاع النبى أن يُحل رابطة العقيدة محل رابطة الدم التى فشلت فى أن تكون رباطا يؤلف بين الناس ، وتمكن من أن يكون جماعة موحدة على أساس الدين،

ويقيم دولة ذات سلطة مطاعة ، وكان الله هو ومز رياسة هذه الدولة ، فالملك لله والسيادة للشرع الذى أنزله الله على رسوله ، ومعنى سيادة الله هنا هى سيادة العدل والحق الذى يقف أمامه الناس جميعاً سواسية .

ولما كان الله رب جميع البشر ، وعد له يشمل الناس جميعا ، فإنه كان حتما أن تتسع أمة الله للناس جميعا ، ولذلك لم يقصر النبى الأمة على طائفة معينة وإنما جعلها مفتوحة لكل من يدخل تحت لوائها من الناس بصرف النظر عن قبيلته أو جنسه أو عقيدته ، وكفل للجميع حق الرعوية فى ظل العدالة والحق ، ماداموا يرتبطون بالدولة ويخضعون لقانونها . وهذه الدولة من نوع جديد أصيل ؛ فقد كان نظامها فى إطاره العام دينيا يرتكز على الأوامر والأحكام العامة المنزلة ، ولكنه فى تفاصيله وتطبيق أحكامه إنسانى شورى . وبالرغم من قيام الدولة على أسس دينية فإنها أقرت مبدأين لا وجود لها إلا فى دولة غير دينية : أولها حرية الأديان التى لا تسمح بها الدولة فحسب بل تتعهد برعايتها ، وثانيهما هو مبدأ تعريف الوطن والدولة فى أوسع معانيها تسامحا وإنسانية .

وقد أخذت الدولة تنمو وتتغلب شيئا فشيئا على معارضة مكة من ناحية ، وعلى نفور القبائل من الخضوع واستمساكها بعصبياتها من ناحية أخرى ، وانتهى الأمر باستسلام قريش حين ظهرت لها قوة المبادىء الجديدة لا من الناحية الروحية والاجتماعية فحسب ولكن من الناحية العملية والسياسية كذلك ، واستسلمت باستسلامها كل قوى المعارضة فى الجزيرة العربية ، وبمرونة كبيرة أعانتها عليها طبيعتها التجارية انضمت قريش إلى جانب النبى بكل طاقتها للانتصار للدولة ، وبذا قامت فى الجزيرة العربية لأول مرة دولة موحدة على أسس جديدة مركزها الحجاز وعاصمتها يثرب .

وحين خلت رياسة الدولة بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم واجه المسلمون مشكلة لم يكونوا قد استعدوا لها وكان يتحتم عليهم حلها . ولما لم يكن النبى قد رسم نظاما معينا للحكم من بعده ولم يعهد

لأحد بعهد مكتوب أو غير مكتوب ، فإنه كان عليهم أن يتصرفوا مستوحين المبادىء الإسلامية ومتوخين المصلحة العامة . وفى اجتماع عام فى سقيفة بنى ساعدة تناظر المهاجرون والأنصار على أيهم تسند إليه رئاسة الدولة ، واستطاع أبو بكر أن يقنع المجتمعين بأن الرئاسة يجب أن تكون فى المهاجرين من قريش ؛ لسابقتهم فى الإسلام وما تحملوا من أذى وما حملوا من عبء الجهاد الأول ، وهم أهل النبى وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده . ثم هم من قريش ولا تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش . وبويع أبو بكر وقام نظام الخلافة على أساس البيعة أى على رضا الرعية ؛ فأصبحت الخلافة بذلك عقداً بين الحاكم والمحكومين . وتقرر باجتماع السقيفة مبدأ ، هو أن الخلافة انتخابية فى المهاجرين من قريش . وأن الحكم شورى .

ونظام الخلافة الذى أقامه المسلمون كان جديداً أصيلا لم يقلدوا فيه غيرهم ، وإنما أخذوا خطوطه من الحدود العامة التى رسمها الإسلام ومن بيئتهم العربية التى عاشوا فيها ؛ فهو نظام إسلامى خالص .

ومع أن اجتماع السقيفة قصد أن تكون الخلافة على التحديد فى المهاجرين السابقين من قريش ، إلا أن قريشاً فيما بعد حولت الخلافة إليها باعتبارها الحى الذى ينتسب إليه النبى ، واستأثرت بها ، وكانت فى ذلك خاطئة متكافئة مخالفة لتعاليم الإسلام الذى جعل التفاضل بالتقوى . ثم أتبعت ذلك بتفضيل العرب على غيرهم من بقية المسلمين . وقد جر استئثار قريش بالخلافة على المسلمين كثيرا من الفتن ، كما أن إيثار العرب بالفضل والسلطان أدال من بنى أمية لبنى العباس بفضل من ناصرهم من الموالى .

وإذا كانت القبائل العربية قد أقرت لقريش بزعامة أدبية ودينية واقتصادية قبل الإسلام ، فإنها لم تقر لها برئاسة سياسية . ولذلك فإنه ما كاد النبى يلقى ربه وتقوم الخلافة فى يثرب وتسند إلى قريش ، حتى ثارت القبائل العربية على الدولة الجديدة ورفضت

الخضوع لسلطان قريش السياسى ، وحاولت بعض القبائل الكبيرة ذات الشوكة أن تقلد قريشا وأن يقلد زعماؤها النبي ؛ فظهر كثير من المتنبئين فى مناطق مختلفة من الجزيرة العربية ، واضطرمت ثورة عامة عرفت فى المصادر باسم الردة . والردة فى رأيى ليست ردة عن الإسلام ، ولكنها ارتداد عن الوحدة الجديدة التى أقامها الإسلام إلى النظام القديم ، وثورة على سلطان قريش ومنافسة لها فى الزعامة ، ذلك أن بعض القبائل لم ترفض من أركان الإسلام إلا أداء الزكاة التى اعتبرتها إتاوة . ثم إن إسلام كثير من القبائل وبخاصة البعيدة منها كان عن طريق المحالفات والانضمام إلى دولة النبى بواسطة وفودها . ثم إن أحدا لم يقل بالعودة إلى أديان العرب القديمة ، ولم ينكر المتنبئة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام بل قلدوا النبى حيث ادعوا نزول الوحى عليهم واتخذ كثير منهم لنفسه مؤذنا للصلاة ، وكان مؤذن مسيلمة يشهد فى أذانه بأن محمدا رسول الله وأن مسيلمة رسول الله . والمنافسة على السلطان واضحة من كلام المتنبئين إلى أقوامهم يعلنونه لهم ويعدونهم الملك والسلطان .

واستطاع أبو بكر أن يخمد هذه الثورة ، واستطاع قواد قريش أن يضربوا قوة القبائل وأن يعيدوها إلى الطاعة ؛ فتدعمت الوحدة التى تمت فى عهد النبى وثبتت على يد أبى بكر .

ثم خرج العرب إلى المجال الخارجى فاصطدموا بالفرس والروم ، فكانت الفتوح العربية . وقد انتهيت فى بحثى إلى أن دواعى خروج العرب لم تكن هجرة كالهجرات السابقة ولا كانت بغرض اقتصادى ، ولم تكن سياسة من أبى بكر لدفع القبائل المتمردة إلى عمل خارجى يشغلها وتنفس فيه عن روحها القتالية ، ولا كانت لنشر الإسلام بقوة السيف . وإنما كانت لكى تستكمل الوحدة العربية كيانها بضم العناصر العربية التى كانت ساخطة على الفرس والروم ، راغبة فى التخلص من سلطانهم ، والتى بدأ بعضها الالتحام معهم مستجيبة لدافع الوحدة فى داخل شبه الجزيرة ، وكانت كذلك بقصد أن

تؤمن الدولة حدودها وتمنع الفرس والروم من استخدام هذه القبائل للاغارة عليها ، فالحروب فى الواقع كانت بدوافع سياسية وقومية ، ثم استتبع ذلك نشر الإسلام فى أمن من القوى التى كان من المحتمل أن تصد الدعوة وتقف فى وجهها .

ثم أدت الظروف الحربية إلى استمرار الاشتباك حتى يتقرر مصير الاشتباك . وقد يبدو انتصار العرب على أقوى دول ذلك الزمان فى وقت واحد أمراً عجيبا ، ولكن الحقيقة أن العرب كانوا فى وضع أفضل من خصومهم . فإن عوامل الضعف الداخلى فى الدولتين الكبيرتين كانت شديدة ، فقد أتى الصراع القاسى بينهما على إمكانياتهما المادية والعسكرية ، فضلا عما لحقهما من تمزق وفساد اجتماعى وسياسى ودينى ، بينما كان العرب فى فتاء واعتزاز قوى جديد وحماس دينى ملأ جوانحهم ، إلى قدرة طبيعية فى المحارب العربى اكتسبها من حياته الخاصة فى بيئته الصحراوية . وأدال العرب من دولة الفرس وطردوا الروم عن خير ما فى أيديهم من الشام والجزيرة ومصر وبعض الشمال الأفريقى . وقد تقرر مصير هذا الصراع فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب الذى اضطلع بأعباء الفتوح . وكانت قيادة الجيوش الإسلامية بصفة عامة فى يد رجال قريش الذين أظهروا صفات ممتازة وعبقرية فذة .

وقد قام عمر بتنظيم الحكم فى البلاد المفتوحة ، فأنشأ القواعد العسكرية فى العراق والشام ومصر . تلك القواعد التى ما لبثت أن صارت مدنا عربية كبرى ومراكز للقوة العربية ثم للحضارة الإسلامية ثم وضع الديوان وقرر فرض العطاء . وأبرز ما ظهر فى إقامة القواعد العسكرية أنها قسمت خططاً بين القبائل . ولم يوزع فيها الناس من حيث هم أفراد فى هذا المجتمع المدنى الناشىء ليكون خطوة فى امتزاج القبائل العربية وصهرها فى كل واحد ، بعد الخطوة التى جاء بها الإسلام فى توحيد العرب فى دولة واحدة على أساس الأخوة الدينية ، وبعد الخطوة التى تمت بخروجهم وتجمع قبائلهم فى الجيش فى نسق واحد من النظام . وأدى هذا إلى أنهم انتقلوا من قبيلة الصحراء إلى قبيلة المدينة . وقد

ساعد ذلك على نشوب العصبية بين القبائل فيما بعد فى أمصار الدولة . وأظهر ما وضح فى تنظيم عمر المالى هو أنه جعل الأرض المفتوحة فيئا أى جعلها ملكا عاما للأمة الإسلامية بجميع أجيالها ، ووضع عليها الخراج وأقرها فى أيدى القائمين عليها من أهل البلاد يزرعونها ويأخذون حاصلها ، على أن يؤدوا الخراج الذى يذهب إلى بيت المال . وبذلك غير عمر من نظام الغنائم وأدخل الدولة بين الجيش وبين الأمم المغلوبة ، فحمى الرعية من سطوة الجيش ، وفى الوقت نفسه قوى الحكومة على الجيش ، ونزل الجيش إلى مرتبة الافتقار إلى الحكومة والاعتماد عليها عن طريق الأعطيات التى قررتها الدولة وبالمقدار الذى فرضته ، بفضل الخراج الذى يعود من الأرض التى كانت فى الأصل غنيمة للفاتحين بحكم الفتح . ثم إن عمر فى فرض العطاء فاضل بين الناس بحسب القرب من رسول الله والسبق فى الإسلام وحضور المشاهد وقد أدى هذا إلى تذمر القبائل وإن كان هذا التذمر لم يظهر إلا فى عهد عثمان . ثم إن عمر كان فى سياسته وحزمه وتجرده ونزاهته مثلا عاليا جعل لذلك مهمة خلفة عسيرة . فقد ألف الناس الحياة العمرية ورضوا عنها ، وإن كانت قريش بذاتها قد برمت بها لشدة عمر عليها وضربه الحدود لطموحها .

وخولفت السياسة العمرية فى عهد عثمان الذى لم يكن له من الشخصية والحزم ما كان لعمر ، وبدأت تظهر عوامل الاستئثار فى قريش بعامة وأهله بخاصة . الأمر الذى أغضب منه كبار الصحابة من أهل الشورى ، وأسخط عليه أهل الورع والتقوى من المسلمين ، وأثار أهل البرم بسلطان قريش واستئثارها من باقى القبائل ، فشبت ثورة على عمال عثمان وعلى قريش راح ضحيتها الخليفة عثمان وانصدع شمل الجماعة الإسلامية ووقعت الحروب الأهلية .

وإذا كانت بعض القبائل العربية فى الأمصار قد ثارت على النفوذ القرشى ، فإن

إحداها لم تكن تملك من أسباب الرئاسة ما يمكنها من جمع القبائل حولها ، ولذلك انقسمت القبائل بين زعماء قريش الذين انشقوا على بعضهم ، وتكونت أحزاب سياسية حول الشخصيات القرشية ، وشبت الحروب بين المتنازعين .

ولم تكن قضية مقتل عثمان إلا ذريعة تعلل بها الذين خرجوا على خلافة على ، وكانت الحجة الظاهرة التي اختفت وراءها المطامع ، وكان مدار الصراع كله حول منصب الخلافة بصورة عامة . وفى مجال هذه الحروب انقسمت الأقاليم ودخلت فى نزاع إقليمى على تصدر العالم الإسلامى .

وكانت الخلافة فى أول أمرها شورى ، لكن الطموح من ناحية ، وأحداث الصراع من ناحية أخرى غير من المبدأ الإسلامى الأصيل إلى مبدأ الوراثة الذى تحولت إليه كل الفرق الإسلامية ما عدا الخوارج الذين كانوا حزب أقلية ، فلم يستطيعوا برغم ثوراتهم العنيفة أن يغيروا من واقع الأمر شيئا .

وفى مجال هذه الحروب التى انقسمت فيها أقاليم الدولة بدأ الحجاز يتراجع عن مركز الصدارة لخلوه من القوة ، وفقد مركزه فعلا حين انتقلت عنه الحاضرة إلى مراكز القوة العربية فى الأمصار . ولم يستطع أن يعيد إليه العاصمة ، ذلك لأن محاولته لاسترداد مركزه كانت تعتمد على قوة الأمصار الأخرى التى كانت بذاتها منافسة له ولغيره ، ومن ثم لم يستطع أن يستعيد مركزه السياسى ، ولا أن يستمر فى الصراع ، فخضع لغيره من الأقاليم التى انتقلت إليها العاصمة فى الشام أو فى العراق على السواء . وتراجعت إليه العناصر التى أقصيت عن شئون الحكم من قريش والأنصار بعد أن استأثر بنو أمية ومن بعدهم العباسيون بالخلافة . وقد أغدق الخلفاء على هذه العناصر الأموال حتى يصرفوها عن التفكير فى شئون الخلافة .

وإذا كان الحجاز قد أصبح أعظم ثروة مما كان عليه من قبل ، فإن ذلك يرجع إلى هذه

الأموال المتدفقة من أمصار الدولة الأخرى ، الأمر الذى جعله تحت رحمة السلطة المهيمنة على هذه الأمصار ، فقلت بذلك فعاليته من الناحية السياسية وفقد مقدرته على التأثير الفعال فى شئون الدولة . وانصرف أهله إلى ألوان من المتاع شغلوا بها عن شئون السياسة وفترت همتهم عن المشاركة فى أحداث الدولة ، كما انصرف بعضهم إلى الزهد وانصرف بعضهم إلى تحصيل العلم وتعليمه . وانصراف أهل الحجاز إلى حياتهم بشقيها اللاهى منها والزاهد هو الذى يفسر لنا قلة الحركات السياسية التى نشأت فى الحجاز وضعفها .

ولم يصبح للحجاز إلا مركزه الأدبى الذى هيأه له دوره فى التجميع والتوجيه والقيادة ، ثم على اعتباره مركز الإسلام ، وإن ظل يؤدى دوره فى الطليعة فى الناحية الحضارية ، حتى نافسته فيما بعد الأقاليم الأخرى وانتقل إليها على الأيام مركز الحضارة الأول .

وبعد فآمل أن أكون قد وفقت ، فى أن أضع أمام القارىء صورة واضحة لهذه الفترة الهامة من التاريخ ، وأن أكون قد أسهمت فى الإجابة عما يعرض له من تساؤلات .

والله وحده ولى التوفيق ؟

القاهرة فى فبراير ١٩٦٨

أحمد إبراهيم الشريف

الباب الأول

السيادة القرشية فى الحجاز قبل الهجرة

الفصل الأول

تعريف عام بالحجاز

يقول الجغرافيون العرب إن الحجاز هو الجبال الحاجزة بين الأرض العالية فى شرقيه وهى نجد وبين الساحل الواطىء فى غربيه وهى تهامة ، فهو إذن الجبال الممتدة من خليج العقبة إلى عسير . لكن اسم الحجاز فى العرف يشمل تهامة أيضا ، وقد عد العلماء تبوك وفلسطين من أرض الحجاز[1] ، فهو بهذا يشمل قسمين من أقسام الجزيرة العربية الخمسة ، فقد قسم الجغرافيون العرب[2] الجزيرة إلى خمسة أقسام : تهامة ـ الحجاز ـ نجد ـ العروض ـ اليمن . والحجاز بشموله على تهامة يكون المنطقة الغربية من الجزيرة العربية .

وقد كان لهذه المنطقة أهمية بالغة ، إذ كان فيها شريان رئيسى من شرايين التجارة العالمية ، وهو الطريق البرى الذى يصل ما بين جنوب الجزيرة وشمالها ، ومنه تتفرع طرق تتجه صوب الشرق والشمال الشرقى . وفى موازاته شريان رئيسى آخر كان له خطره فى عالم التجارة العالمية . وإذا كان الشريان الأول قد ضاق فى العصر الحديث وتقلص ، فإن الثانى هو عرق نابض تسير فيه الدماء بقوة وغزارة ، ويمثل فرعا حساسا من فروع السياسة العالمية ، ذلك هو ما نسمية الآن بالبحر الأحمر ، وكان يسمى فى الماضى بحر القلزم .

فالمنطقة ذات أهمية كبيرة من الناحية العسكرية والاقتصادية ، لكونها جسرا يصل بين بلاد الشام وحوض البحر المتوسط واليمن والمحيط الهندى ، وما يقع على سواحله من أرضين كلها غنية بمحصولاتها الثمينة ، ولذلك صارت أرضها منذ القدم طريقا للتجار والتجارات ، وصارت مرافئها منازل للبحارة وملاجىء لسفنهم المحملة بالأموال .

---

(١) البلدان : (المجلد الثانى طبعة طهران ١٩٦٥) ص ٢٠٥ ـ ٣٠٦ . الاصطخرى : ٢٠ ـ ٢١ . القلقشندى : صبح الأعشى : ٤/٢٤٥ .

(٢) الهمدانى : صفة جزيرة العرب : ٤٧ ـ ٤٨ .

والمنطقة كذلك ذات أهمية كبيرة من وجهة الدراسة الحضارية ، إذ فيها تلاقت في الماضي الوثنية واليهودية والنصرانية ، وقد عاشت على أرضها هذه المعتقدات المتناقضة جنبا إلى جنب في مواضع معينة ، وقد وردت اليهودية والنصرانية من الشمال ، ووردت بعض الأصنام والطقوس الوثنية من الشمال كذلك كما يحدثنا الأخباريون [١] . وقد غلبت اليهودية على قرى ومواضع في المنطقة ، وعلى قبائل دخلت في دين اليهودية ، كما دخل في النصرانية كثير من القبائل . وظلت الكتلة العظمى تدين بالوثنية وقد كان لهذا الاحتكاك الديني أثره في المنطقة من غير شك قبل ظهور الإسلام ، وعند ظهوره ، وعند امتداد الفتوح العربية بعد ذلك . كما أوجد الاحتكاك التجاري والتعامل بين سكان هذه المنطقة وبين من يتعاملون معهم من أهل الجنوب أو أهل الشمال آثاراً فكرية وحضارية من غير شك .

ولأهمية هذه المنطقة ، حاول اليونان والرومان بعد استيلائهم على الشام ومصر مراراً الاستيلاء على الحجاز ، ليتمكنوا بذلك من الوصول إلى اليمن ، غير أن محاولاتهم لم تفلح [٢] فلما أيسوا وضعوا مشروعا حربيا آخر ، هو احتلال الحجاز من الجنوب عن طريق الحبشة حليفة البيزنطيين ، فسار القائد الحبشي أبرهة من اليمن — بعد احتلال الأحباش لها — بجيش كبير لاحتلال مكة ثم السير شمالا للاتصال بحلفائه الروم ، ولكن الحملة أخفقت ، وأخفق معها هذا المشروع الحربي الخطير [٣] .

وقبيل ظهور الإسلام ، قلت أهمية البحر الأحمر من الناحية التجارية لانشغال الروم بالصراع الشديد بينهم وبين الفرس ، ذلك الصراع الذي كان هدفه السيطرة على منطقة الشرق الأوسط ذات الأهمية الاقتصادية الكبرى ، لمرور التجارة العالمية عبرها . وتبعا

---

(١) اليعقوبي : ١/١٨٧ . ابن كثير : ٢/١٨٣ — ١٨٧ .

(٢) جواد علي : ٢/ ٣٧٠ — ٣٩٩ . حتى : تاريخ العرب : ٦٧ — ٧٢ . جرجي زيدان : العرب : قبل الإسلام : ١١٥ .

(٣) الطبري : ٢/١٢٣ — ١٤٢ . الدينوري : ٦١ — ٦٤ . حتى : ٧٣ — ٧٥ جواد علي : ٤/١٦٥ . Huzayyen, Arabia and the Far East, PP. 142—143.

لذلك برزت أهمية الطريق البرى الذى سيطر عليه العرب فى نهاية القرن السادس، وقام القرشيون بالدور الأول فى نقل هذه التجارة ، مما أبرز أهمية الحجاز ، وأهمية مكة فى المقام الأول .

وقد ارتفع شأن الحجاز ارتفاعا كبيرا بعد ظهور الإسلام ، إذ قامت به الدولة الإسلامية فى يثرب فى عهد النبى ، فاستطاعت أن توحد الجزيرة العربية تحت سلطانها ، ثم اندفع العرب منها إلى المجال الخارجى ، فتكونت دولة عظيمة غيرت مجرى التاريخ العام . وأنهت الصراع القديم فى المنطقة ، ووجهت الأحداث وجهة أخرى .

ولما كان هذا البحث يتناول دور الحجاز فى السياسة العامة بعد ظهور الإسلام ، فإنه يبدو من اللازم أن نعرف بالحجاز من الناحية الجغرافية والبشرية من ناحية عامة ، ثم نفرد دراسة خاصة لمدينتيه الكبيرتين مكة ويثرب باعتبارهما قاعدتى النهضة العربية ومركز الانطلاق العربى .

الناحية الجغرافية :

يمتد الحجاز من الشمال إلى الجنوب ٧٠٠ ميل طولا ، ويمتد عرضه من الشرق إلى الغرب ٢٥٠ ميلا [١] . وتمد جبال السراة العمود الفقرى لشبه جزيرة العرب ، ولذلك جعلها الجغرافيون العرب قاعدة لتقسيماتهم [٢] ، وتتصل هذه السلاسل الجبلية بسلسلة جبال الشام المهيمنة على البادية ، وتبلغ جبال الحجاز أقصى ارتفاعها فى الجنوب حيث تتساقط الثلوج على قممها ، [٣] بينما تبلغ أقل ارتفاع لها عند دنوها من مكة ، ويبلغ ارتفاع جبل « كرا » بين مكة والطائف مائتى متر ، بينما تبلغ جبال الطائف ستمائة متر . ومن جبال الحجاز المشهورة جبل رضوى بين المدينة وينبع ، وقد قال عنه ياقوت إنه جبل منيف ذو شعاب وأودية ، وإنه كثير المياه والأشجار [٤] وقد نال هذا الجبل

---

(١) وهبة : جزيرة العرب : ١٤ .
(٢) الهمدانى : ٤٧ ــ ٤٨ .
(٣) حتى : ٢١ . الواسعى : تاريخ اليمن : ٨٠ .
(٤) ياقوت : ٩/١٥ . الأصطخرى : ٢٥ .

حظا من الذكر عند الشعراء ، واتخذه العرب مثلا للعزة والرسوخ (١) . ويقال للقسم الشمالى من الحجاز أرض مدين وحِسْمَى نسبة إلى الجبال المسماة بهذا الاسم وهو مايلى أيلة إلى الجنوب (٢) .

أما منطقة السهول الواقعة بين جبال السراة والبحر الأحمر ، فهى سهول ضيقة فى الغالب تعرف بتهامة ، وهى تتغير فى الاتساع بحسب قرب الجبال وبعدها عن البحر فتتسع فى الجنوب حتى تبلغ ٤٠ ميلا عند اليمن ، وتضيق كلما اتجهنا نحو الشمال حتى تبلغ أقصى ضيق لها عند العقبة (٣) .

وفى الحجاز أودية ، تسيل من الحرار (٤) صوب الشرق والغرب إلى نجد من ناحية وإلى تهامة فبحر القلزم (البحر الأحمر) من ناحية أخرى . وأعظم أودية الحجاز وادى « إضم » ويسمى اليوم وادى « الحمض » وهو يسيل من الجنوب الشرقى لحرة خيبر ، ويسير نحو الجنوب حتى يقارب يثرب حيث تتصل به أودية فرعية منها وادى العقيق ، ويتصل به كذلك وادى القرى ، وهو يستمد مياهه من السيول التى تنحدر إليه من العيون التى عند خيبر ، ثم يتجه غربا حيث يصب فى البحر الأحمر عند قرية الوجه (٥) .

ويبدأ وادى الرمة عند حرة فدك من القفاء بضعة أودية ، ثم يتجه نحو الشرق حتى يصل إلى القصيم ، ويبلغ طوله أكثر من ٩٥٠ كيلو متراً (٦) .

---

(١) قال حسان :

لنا حاضر فعم وماض كأنه ... شماريخ رضوى عزة وتكرما

(٢) ياقوت : ٥/٦٣ ، ١٤/٢١٧ .

(٣) Twitchell, Saudi Arabia, P. 11.

(٤) الحرة أرض بركانية وجمعها حرار ويقال لها اللابة أو اللوبة ، وقد تكونت من فعل البراكين . وقد وصفها العلماء بأنها أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار ، ويكون ما تحتها أرض غليظة من قاع ليس بأسود (ياقوت : ٣/١٧ . لسان العرب : ٢/٢٤٢) .

(٥) ياقوت : ٢/٢١٥ ، ٧/٣٠٥ : وهبة : ١٩ Twitchell, p. 11 .

(٦) ياقوت : ٩/٧٣ . الهمدانى : ١٤٤ . وهبه ٢٠ .

ومن أودية الحجاز وادى الصفراء ، وهو واد كثير النخل والزرع ، وبينه وبين بدر مرحلة ، وعليه قرية الصفراء الغنية بنخلها وزروعها ، وماؤها عيون تجرى إلى ينبع(١) .

ووادى القرى وادمهم يقع بين تيماء وخيبر ، ويمر به طريق القوافل القديم ، الذى كان شريانا من شرايين الحركة التجارية فى العالم القديم ، ويقال له وادى « الديدبان »(٢) . وكان عامراً جداً بالمدن والقرى التى تشاهد آثارها إلى اليوم(٣) .

المناخ :

تختلف مناطق الحجاز من الناحية المناخية كما تختلف من الناحية الطبيعية . فهناك مناطق جدباء شديدة الحرارة شحيحة المياه ، محاطة بالجبال ، يعيش أهلها على ما يجلب إليها من الخارج ، ومن هذه المناطق منطقة مكة التى تقوم فى واد غير ذى زرع(٤) ، والتى كان أهلها يهرعون إلى أكنان الجبال وظلالها يحتمون بها من الحر ، الأمر الذى أعطى أهمية كبرى لجبال مكة(٥) . كما أن قلة مائها جعلت من توفير الماء للحجاج فضيلة عظمى فى نظر أهلها(٦) ، وهـذا يجعلنا ندرك سبب الحفاوة البالغة التى أسبغت على حفر بئر زمزم بهـا(٧) .

---

(١) ياقوت : ٤١٢/١٢ . الهمدانى : ١٤٤ وهبه : ١٥ .

(٢) Daughty, Travels in Arabia Deserta, Vol. I. p. 189.

(٣) ياقوت : ٣٣٨/١٠ ، ٣٤٥/١٩ .

(٤) سورة إبراهيم : ٣٧ .

(٥) سورة النحل : ٨١ .

(٦) التوبة : ١٩ .

(٧) ابن هشام : ١٢١/١ — ١٢٣ ، ١٤٥ — ١٦٤ .

على أنه كانت هناك أجزاء أخرى تجود فيها التربة وتنزل الأمطار التى قد يبلغ من غزارتها أن تتوالى الصواعق وتتهدم البيوت وتتخرب الطرق[١] ، وتنبت من كل زوج وصنف من الزرع والأشجار. وقد تحدث القرآن الكريم فى آيات عديدة[٢] منوها بما ينزل الله من الأمطار ويفجر من العيون ، وما ينبت من الزرع والأشجار ، من أعناب ونخيل ورمان وزيتون وحبوب . والآيات وإن لم تعين هذه المناطق ، فإنها تخاطب أهل الحجاز وأهل مكة بالدرجة الأولى ، وهى تشير إلى ما كان فى الحجاز نفسه وفى الأنحاء التى حول مكة ، وهذه المناطق معينة واقعيا وهى : الطائف وأرباضها ، والوديان التى بين مكة وجدة ، ويثرب وأرباضها ، وهذه المناطق لا تزال تحتفظ إلى الآن بكثير من الينابيع والوديان ، وتتمتع بخضرة السهـــول وجنات النخيل والأعناب ومختلف الفواكه والزروع[٣] .

إلا أن الجفاف الذى لحق جزيرة العرب جميعا — والحجاز جزء منها — قد جعل أغلب أراضيها صحراء جرداء ، وباعد بين مراكز الاستقرار فيها ، وقد أثر ذلك على الحياة الاجتماعية والسياسية ، فعاق نشوء المجتمعات الكبرى بها ، ومن ثم اعتمدت على النظام القبلى سواء فى البادية ، أو فى البلاد التى قامت بها ممالك وحكومات منظمة ، أو فى المدن التى نشأت على طرق التجارة أو فى الواحات الخصيبة .

الناحية البشرية:

انقسمت حياة السكان فى منطقة الحجاز إلى نوعين ، شأنها فى ذلك شأن باقى أجزاء الجزيرة العربية ، وهما حياة البدو وحياة الحضر ، ولما كانت معظم الأراضى صحراوية ، فإن الحياة البدوية كانت تطبع الحياة العامة بطابعها ، ولم تقم المدن والقرى إلا فى الواحات

---

(١) البخارى : ٤/١٩٥ . الأغانى : ٢/٣٢٣،٣٢٧ . هيكل : فى منزل الوحى : ٤١٣ .

(٢) الأنعام : ٩٩ ، ١٤١ : النحل : ١٠ — ١١ ، المؤمنون : ١٨ — ١٩ الروم : ٤٨ — ٥١ . يس : ٣٣—٣٤ . ق : ٧ — ١١ . الواقعة : ٦٣ — ٧٠ — عبس : ٢٤ — ٣٢ .

(٣) عن الطائف : انظر ياقوت : ١٣/١٩ . وعن يثرب : ١٧/٨٢ وما بعدها والبلاذرى: ١٦ ، ١٧ وانظر، عن مكة ، أسد الغابة : ١/١٠١ .

الخصيبة المنتشرة هنا وهناك فى أماكن متفرقة ، أو فى المحطات التجارية التى تقوم فى منازل اتخذها رجال القوافل محطات لهم فنمت وقامت فيها مدن ، ولم تستطع مدن الحجاز وقراه أن تنفصل عن الحياة البدوية القائمة حولها ، بل تأثرت بها إلى حد كبير فى حياتها ونظمها ، فليست حواضر الحجاز إلا مدنا صغيرة تمتزج فيها حياة البادية وحياة الحضر ، فهى وإن كانت مواطن استقرار إلا أنها لم تستطع أن تنعزل عن الحياة المحيطة بها ، ولم تستطع أن تؤثر فيها وإنما تأثرت بها فى نظم حياتها التى سيطر عليها النظام القبلى بأوضاعه السياسية والاجتماعية .

وللتعريف بالسكان فى منطقة الحجاز يقتضى أن نلقى نظرة على القبائل المقيمة فى المنطقة وأماكن انتشارها . ومن المهم أن نذكر أن القبائل المتبدية لم تكن تعيش فى كتل متجمعة ، وإنما كانت تتفرق بطونها وعشائرها فى مناطق واسعة تتنقل فيها بحثا عن المرعى وارتياداً لمواقع الماء ، وكثيراً ما كانت القبائل تتداخل فيما بينها ، فليست لأرض القبائل حدود واضحة محددة . ولم تكن بطون القبيلة وعشائرها تتجمع إلا إذا قامت الحرب بينها وبين غيرها ، وكثيراً ما كانت تقوم الحروب بين القبائل لتنازعها على مواطن المرعى ، أو لما كان يحدث بينها من تنافس ومفاخرات ، وليست الحروب قاصرة على القبائل بعضها وبعض ، وإنما تكون أحيانا بين البطون فى القبيلة الواحدة ، وكانت علاقات القبائل والبطون بعضها ببعض متغيرة متقلقلة ، تدفعها المنازعات إلى التجمع والتحالف ، كما أنها فى نفس الوقت تفرق بينها وتقطع علائقها .

وقد عاشت فى منطقة الحجاز مجموعة كبيرة من القبائل ، نعدد أشهرها مبتدئين من الشمال إلى الجنوب .

وأول مجموعة من القبائل كانت تعيش فى المنطقة الشمالية من الحجاز هى مجموعة قبائل « قضاعة » . وأهمها :

١ — قبائل كلب ، وتنسب إلى كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحافى بن قضاعة ، وهى بطون كثيرة منها ثعلبة وفهد ودب والسرحان ، وثور ورفيدة

وعوذى وعرنية . وكانت هذه القبائل تعيش فى بادية الشام وتمتد إلى أعالى الحجاز[١] .
وقد انتشرت النصرانية بين قبائل كلب كما انتشرت بين أكثر القبائل النازلة بالشام ،
وكانوا على المذهب القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح وهو المذهب المعروف بـ « المونوفيسيتى
Monophysities » .

٢ — بنو عذرة ، وتنسب إلى عذرة بن سعد بن زيد بن ليث بن الحاف بن قضاعة ،
وكانت ديارها فى وادى القرى وتبوك ، ولكنها امتدت حتى بلغت أيلة ، ويذكر
الأخباريون[٢] أنها هاجرت مع قبائل قضاعة بعد حربها مع حمير ، فنزلت فى هذه الديار ،
وكانت تجاور ديار قبائل أخرى من قضاعة مثل كلب وجهينة وبلى ، كما جاورتها من الشمال
قبيلة غطفان ، وكان لعذرة حلف مع جهينة ، كما كانت لها صلات بقريش منذ أيام قصى
ابن كلاب[٣] .

٣ — جهينة : وتنسب إلى جهينة بن زيد بن الحاف بن قضاعة[٤] ، وكانت ديارها
فى نجد ، ثم هاجرت إلى الحجاز ، فسكنت على مقربة من يثرب فى المنطقة التى بين البحر
الأحمر ووادى القرى . وكانت جهينة حليفة للخزرج من أهل المدينة فى الجاهلية ، كما
كانت حليفة لقريش ، وقد بقيت لذلك على الحياد فى الصراع الذى دار بعد الهجرة بين مكة
والمدينة[٥] ، كما أنها وادعت النبى ، ثم تحولت نهائيا إلى الإسلام بعد موقعة الأحزاب ،
ولم ترتد بعد وفاته[٦] .

٤ — بلى : وتنسب إلى بلى بن عمرو بن الحافى بن قضاعة ، وتقع ديارها على مقربة

---

(١) جمهرة أنساب العرب . ٤٢٥ وما بعدها . ابن دريد : الاشتقاق : ٣١٤ وما بعدها ، جواد
على : ٤/١٦٨ — ١٦٩ .

(٢) البكرى : معجم ما استعجم : ١٨ ، ٢٢ ، ٢٧ .

(٣) جمهرة : ٤١٩ — ٤٢٠ . الاشتقاق : ٣٢٠ .

(٤) جمهرة : ٤١٥ — ٤١٧ .

(٥) ابن سعد : ٣/٤٤ .

(٦) الواقدى : ١٥٥ . جواد على : ٤/١٧٥ .

من تيماء بين ديار جهينة وديار جذام ، وكان بطن من بلى يعيش فى يثرب ودخل فى الإسلام منذ وقت مبكر بعد الهجرة(١) ، لكن قبيلة بلى اشتركت مع القبائل النصرانية فى جانب الروم ضد المسلمين(٢) .

وغير قبائل قضاعة توجد قبائل أخرى يمانية وأهمها :

٥ — جذام ، وهم أبناء جذام شقيق « عاملة و « لخم » أبناء عدى بن الحارث بن مرة . . . بن كهلان بن سبأ ، وكانت مواطنهم عند ظهور الإسلام فى منطقة مهمة جداً تقع بين الحجاز وبلاد الشام ومصر ، وتمتد من منازل كلب فى الشمال حتى منطقة المدينة ، وكانت بطونها منتشرة فى وادى القرى وحول تبوك وعند أيلة وفى طور سيناء . وقد دخل بعض جذام فى النصرانية ، وكانوا مع « المستعربة » أى نصارى العرب يقاتلون فى صفوف الروم ضد المسلمين عند فتوح الشام(٣) .

ثم توجد قبائل تنتسب إلى قيس عيلان أهمها :

٦ — غطفان ، وتنتسب إلى غطفان بن سعد بن قيس عيلان . وتقع مواطنها فى شرق خيبر وتمتد إلى شمالها ، وتمتد كذلك إلى جبل أجأ وسلمى مساكن طيئ . وتنقسم غطفان إلى « ريث » و « أشجع » وتسكن الأرض المجاورة ليثرب ، وبغيض وتقع منازلها فى أرضين تقع عند شربة والربذة فى شرق المدينة . ومن بغيض ذبيان وعبس وأنمار ، ومن ذبيان فزارة ومنازلها بنجد ووادى القرى(٤) ، وعند الإسلام كان زعيم فزارة عيينة بن حصن وكان جده حذيفة بن بدر يلقب « رب معد »(٥) .

---

(١) جمهرة : ٤١٣ ـ ٤١٥ .

(٢) الطبرى : ٣/٣٧ .

(٣) جمهرة : ٣٩٥ ـ ٣٩٩ . الاشتقاق : ٢٢٥ . المعارف . ٥٠ . جواد على : ٤/١٦٧ــ ١٦٨ .

(٤) الهمدانى : ١٧٤ ، ١٧٧ . البكرى : ١/٦٣ ، ١٦٠ ، ٢٣٣ ، ٢٥٦ . جمهرة : ٢٣٧ ـ ٢٤٧ .

(٥) المحبر : ٤٦١ .

٧ — سليم وهوازن : وهما من خصافة بن قيس عيلان ، وتقع ديارهم فى جنوب غطفان ، سليم ثم هوازن ، وكانت منازل هوازن قريبة من الطائف ولها حلف مع ثقيف ظهر أثره فى غزوة حنين بعيد فتح مكة . أما سليم فكانت تجاور غطفان ، وبلادهم حرار ذات مياه ومعادن عرفت بمعدن بنى سليم ، ولغنى أرضهم ، صارت سليم من القبائل الغنية ، وكانت صلاتهم حسنة بيهود يثرب كما كانت صلاتهم وثيقة بقريش ، وقد تحالف كثير من رجالات مكة مع بنى سليم ، واشتغلوا معهم فى الاستفادة من المعادن والثروة الموجودة فى أرضهم . وبنو سليم قبائل منها : بنو ذكوان ، وبنو بهثة ، وبنو سما ، وبنو الشريد ، وبنو عصية ، وقد ظهر من هذه القبائل رجال عرفوا فى الجاهلية والإسلام ، منهم العباس ابن مرداس الشاعر المعروف ممن شهدوا حنين مع الرسول(١) ومجاشع بن مسعود من قادة الجيوش وهو من المهاجرين(٢) . ومن سليم بنو مازن إخوتهم(٣) .

ومن قبائل مضر مجموعة كبيرة أهمها :

٨ — كنانة : وتنتسب إلى خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وهى من قبائل تهامة . ومن كنانة : قريش ، والقين ، وغفار ، وبكر ، وبلحارث ، ومدلج ، وضمرة بن بكر ، وليث بن بكر ، والديل بن بكر ، وكلها تنتمى إلى مجموعة كنانة عند ظهور الإسلام(٤) ، وكانت كنانة تقيم فى أطراف مكة بين قبائل هذيل وأسد بن مدركة(٥) .

٩ — هذيل : وتنتسب إلى هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر ، وهى أخت قبيلة « خزيمة » بن مدركة ، وكانت تجاور قبائل سليم وكنانة ، وتعيش بين مكة والمدينة

---

(١) ابن هشام : ٤/٦٩ وما بعدها .
(٢) أسد الغابة : ٤/٣٠٠ .
(٣) الاشتقاق : ١٨٧ — ١٨٩ . جمهرة : ٢٤٩ — ٢٥٢ .
(٤) جمهرة . ١٠ — ١٧٩ . الاشتقاق : ١٠٥ وما بعدها . صبح الأعشى : ١/٣٠٠ .
(٥) جواد على : ٤/٢١١ .

ومنطقتهم عرفت باسم « سراة هذيل » ومن بطونها بنو لحيان وبنو دهمان وبنو عادية وبنو طاعنة وبنو خناعة[١] .

١٠ — بنو عامر بن صعصعة وبنو هلال بن عامر بن صعصعة من قيس عيلان كانوا يعيشون فى مواطنهم بين منازل هوازن وسليم وثقيف[٢] .

١١ — كما كانت خزاعة تعيش فى مر الظهران بعد أن أجلاها قصى بن كلاب عن مكة[٣] .

هذه هى أهم القبائل المتبدية فى الحجاز . أما أهم المدن التى كانت قائمة فهى مدن وقرى وادى القرى فى شمال يثرب : خيبر وفدك وتيماء ومعظم أهلها كانوا من اليهود أو من العرب المتهودة . ثم مدينة « يثرب » وكانت تسكنها قبائل الأوس والخزرج وهم فرع من قبائل الأزد اليمانية ، ويعيش معهم اليهود من بنى قينقاع والنضير وقريظة ، وإلى جانب الطرفين بطون أخرى صغيرة عربية ويهودية .

ومدينة « مكة » وهى فى يد قبيلة قريش ، ثم مدينة الطائف فى يد قبيلة ثقيف .

وترجع أهمية الحجاز إلى مدنه أكثر مما ترجع إلى بواديه ، وقد قادت مدينتا مكة ويثرب النهضة العربية قبيل ظهور الإسلام ثم قادتا العرب بعد ظهوره ، ولذلك يقتضى أن نخصص لكل منهما فصلا من هذا البحث .

---

(١) الاشتقاق : ١٠٨ وما بعدها . جمهرة . ١٨٥ — ١٨٧ . ابن خلدون : ٣١٩/٢ .

(٢) جمهرة . ٢٦١ وما بعدها . جواد على : ٣٢٥/٤ .

(٣) الأزرقى : ٥٥/١ . نسب قريش : ٨ .

الفصل الثانى

مكة قبل الإسلام

فى بداية القرن السادس الميلادى ، كانت مكة قد أضحت مدينة ذات كيان مالى وسياسى مستقل ، ومركزاً دينياً مرموقا أقيم حول الكعبة التى كانت محط أنظار كثير من الحجاج الذين يؤمونها لزيارة البيت الحرام والتقرب للأصنام المنصوبة هناك . وكان أهل مكة قد أجروا الترتيبات المفصلة التى تتضمن سلامة طرق الحج المؤدية إلى مدينتهم ، وبيع المؤن والتجهيزات للوافدين إليها ، وتكفل حفظ الأمن ومراعاة الآداب العامة أثناء تأدية الشعائر الدينية عند الكعبة . ولما كانت العناية بالحج وتصريف المعاملات التجارية هما المهنتان الرئيسيتان عند أهل مكة ، فإن البلد كانت تحت حكم طبقة من المتنفذين الأكفاء — رجال لم يؤمنوا بالعنف واعتمدوا على حل كل المشاكل بالطرق السلمية .

وظلت مكة مدينة ذات كيان مالى وسياسى مستقل ، لأن شبه الجزيرة العربية لم تقع فى يوم ما — بصورة فعالة — تحت حكم سلطة مركزية ، فإن تأثير البيئة الجغرافية كان يقف دائماً فى وجه نمو الإشراف المركزى فى شبه الجزيرة العربية . وكانت الخصائص الأساسية لتلك البيئة هى العلاقات الزعزعة بين مجتمع متوطن يسوده الاستقرار ، وآخر لا يزال بدويا رحالا ، والتغلغل المتداخل بين ذينك المجتمعين . فإن الجماعات التى تم استيطانها تتأثر — إلى حد كبير — بما يحدث لجيرانها من البدو الرحل . وقد انحدرت هذه الجماعات — عادة — من تلك القبـــائل الرحل التى رأت أن تستوطن يوما ما ، وكانت بعد أن تستوطن بصفة تجار أو مزارعين تحاول فرض سيطرتها على جيرانها من القبائل البدوية بالقوة أو بالاستمالة ، محاولة منها اتخاذ بعض الإجراءات لحفظ السلم والأمن . وربما نجحت فى ذلك أحيانا .

ومن المهم أن نذكر أن البدو حين يستوطنون ويتخذون لهم نمطا جديدا فى الحياة ، كانوا يحتفظون بالكثير من عاداتهم القديمة ويتمسكون بها ، ولا يفارقهم حنينهم إلى حياتهم الصحراوية الأولى ، فكانت الصحراء تجذبهم إليها دائماً ، فيميلون إلى الخروج إليها للترويح عن أنفسهم وأجسامهم ، كما يرسلون أبناءهم إلى البادية ليعيشوا فى أحضانها وبين خيامها صيانة لهم من أوضار أهل المدن . كما كانت أحاديث الصحراء وأساطيرها تشغل جزءا كبيرا من أحاديث أسمارهم .

ومكة مثل طيب لظاهرة التداخل هذه . ولكن علينا حين نحاول أن نفهم مركز مكة أن نأخذ بعين الاعتبار لادور القبائل الرحل وبطونها فحسب ، وإنما ينبغى أن نلم بالعلاقات الخارجية لشبه الجزيرة العربية ، فإن شبه الجزيرة العربية كانت تزود المناطق المجاورة لها بالمنتجات المرغوب فيها من حاصلات شبه الجزيرة نفسها ، كما كانت موانيها حلقات اتصال للتجارة الدولية ، كما أن الحركة التجارية كانت قائمة على قدم وساق تروح وتغدو بين مناطق البحر المتوسط والشرق الهندى عبر الطرق التجارية التى تتخلل شبه الجزيرة العربية والكثير منها يخترق مكة . ومكة نفسها وقعت فى دائرة التنازع الدولى الذى كان قائماً بين الامبراطورية الفارسية والامبراطورية البيزنطية . وقد بذلت محاولات من جانب الأحباش والبيزنطيين للسيطرة عليها ، لكن رجال مكة ــ الحريصين على الحياد ــ عارضوا كل تدخل فى شئونهم واستطاعوا أن يتعاملوا مع رجال الدولة من الفرس والروم على السواء . كما كانوا يحذقون التعامل مع الأعراب من أهل البادية .

وتقع مدينة مكة فى منتصف الطريق بين اليمن والشام ، وتقوم فى واد منبسط من أودية جبال السراة ، تحيط به الجبال الجرداء من كل جانب[١] ، وتكاد تحجبه إلا من ثلاثة منافذ ، يصله أحدها بطريق اليمن ، ويصله الثانى بطريق قريب من البحر الأحمر عند مرفأ جدة ، ويصله الثالث بالطريق المؤدية إلى فلسطين[٢] .

(١) ياقوت : ١٨/١٨٧ .
(٢) هيكل : حياة محمد : ٨٤ .

وكان أساس الحياة فى هذا الوادى يقوم على قبول الهجرة من القبائل القادمة من الجنوب . وقد دخلت مكة فى طور النظام الاجتماعى بعد أن مرت بطور من الاضطراب والرحلات والغزوات والقتال على السيادة[1] لكن تاريخ مكة الحقيق يبدأ من أيام قصى بن كلاب بن مرة القرشى الذى تولى أمر مكة حوالى منتصف القرن الخامس الميلادى[2] وبحكم قصى استقرت قبيلته قريش فى مكة ونهضت بها وجعلت منها مدينة ذات مركز اقتصادى ودينى وأدبى ممتاز ، وأصبحت فى عهدها تتمتع بتوجيه عربى عام فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع حين ظهر الإسلام .

وقد أظهرت قريش قدرة على التنظيم ، فاستطاعت أن تقيم نوعا من التنظيم الحكومى فى مكة ، هو فى جوهره تنظيم قبلى تطور بحسب مقتضيات ظروف الاستقرار فى مكة ، وبحسب اتصالات قريش الواسعة وقيامها على التجارة واحتكاكها بالعالم المتحضر . وقد تميزت الوظائف الحكومية فى مكة إلى نوعين رئيسيين : الأول هى الوظائف المتعلقة بالكعبة وهى السدانة والسقاية والرفادة . وكلها تهدف إلى رعاية البيت الحرام وإعداده للزائرين ، وتوفير الراحة للوافدين عليه فى موسم الحج . والثانى متعلق بإدارة الشئون العامة فى البلد الحرام وتنظيم الحكم فيها . وقد تفرعت هذه الوظائف فى مكة — سواء منها ما هو متصل بالكعبة أو ما هو متصل بالحكم فى مكة — إلى مجموعة من الوظائف بلغت ست عشرة وظيفة ، وذلك إرضاء للبطون القرشية وتفاديا لما يمكن أن يحدث بينها من تنافس على الحكم من ناحية ، وضمانا لإسهامها فى رعاية شئون مكة من ناحية أخرى . ولكى يتجنب أهل مكة كل ما من شأنه أن يثير التنافس فقد جعلوا لكل بطن من البطون وظيفة معينة ، يختار البطن لها من رجاله من يشغلها على أساس العرف القبلى الذى يعتبر الكفاية الشخصية أساساً للتصدر ، كما ألغوا الرياسة العامة وهى وظيفة شيخ القبيلة ، واستعاضوا

---

(١) انظر ابن هشام: ١/١٢٣ — ١٣٠ . اليعقوبى : ١/١٨١ — ١٩٨ . الطبرى : ٢/٢٥٥ — ٢٨٦ ، ابن كثير : ٢/١٨٥ — ١٩٠ .

(٢) سديو : ٥٠ .

عن ذلك بمجلس رياسى هو « مجلس الملأ » الذى يجمع زعماء البطون والعشائر ، وهم مجموعة من الرجال النظراء الذين تميزوا بالكفاية والذين حفلت بهم مكة قبل الإسلام ، وقد وضع هؤلاء الرجال نصب أعينهم دائماً المحافظة على وحدة مكة وحل جميع مشاكلها بالطرق السلمية . وبذلك ارتضت مكة نوعا من الحكم نستطيع أن نسميه «حكومة الملأ» .

ولم يكن هذا التنظيم الحكومى الذى استقر فى مكة فى عهد قبيلة « قريش » إلا تنظيما قبلياً فى جوهره وإن بدا نظاماً جمهوريا من حيث أنه لم يخضع لرئيس أو متنفذ يلقب بالملك أو بالأمير ، وبالرغم من أن الحكم كان شورياً يخضع لرأى الجماعة ورقابتها . ولا ينبغى أن نبالغ مبالغة « الأب لامانس Lammens »(١) فنظن أن مكة كانت جمهورية بالمعنى الكامل للجمهورية ، فالواقع أنه مع نمو العلاقات الاقتصادية فى مكة ، فإن مجتمعها كان مجتمعا قبليا ، فهو لا يعدو أن يكون اتحاد عشائر ارتبط بعضها ببعض لغرض سدانة الكعبة من جهة ، والقيام على تجارة القوافل من جهة أخرى ، ولا سلطان لعشيرة على أخرى ، بل كانت كل عشيرة تتمتع بالحرية التامة ولا طاعة مفروضة عليها لأحد ، وكل ما فى الأمر أن اشتراكهم جميعا فى مصلحة واحدة خفف من غلواء هذه الحرية ، ولكنه تخفيف لم يخرج بقريش عن النظام المعروف لدى القبائل العربية فى الجاهلية . ووجود « الملأ » فيها لا ينقض هذه الحقيقة ، فإن عمله لم يكن يعدو عمل « مجلس القبيلة » ولم يكن رأيه ملزما إلا حين توافق عليه العشائر كلها ، ومع ذلك فإن العشائر كان يمكنها التخلص من قراراته حتى بعد موافقتها عليها إذا رأت ذلك ، وحتى الأفراد كان يمكنهم الخروج على هذه القرارات إذا رأوا أن مصلحتهم تقتضيهم الخروج عليها ، ولم تكن هناك عقوبة مقررة توقع على هؤلاء الخارجين(٢) . وبالرغم من أن مجلس الشيوخ « الملأ » كان وسيلة الحكم فى مكة ينظم شئونها السياسية والاقتصادية

---

(١) Lammens, La Repiblique Marchand de la Meque.

(٢) انظر ابن هشام : ٢/٢٥٨ . الواقدى : مغازى رسول الله : ٣٠ — ٣١ ، الطبرى : ٢/ ٤٣٨ — ٤٣٩ .

والاجتماعية ، فإنه لم يخضع لقانون مكتوب وإنما كان يفطر في هذه الشئون حسب دستور العرف والعادة وهو القانون العام الذي كانت تسير عليه جميع القبائل في الجزيرة العربية ، وفي ظل هذا القانون العرفي كان كل فرد متمتعاً بحريته مع شعوره بحقوق الجماعة أو حقوق القبيلة ، فللفرد حريته وللجماعة حقوقها التي لا تتناقض مع هذه الحرية . وعلى ذلك كانت القرارات الحاسمة في « الملأ » هي القرارات الجماعية . ويرجع الفضل الأول في قوة مكة إلى قوة زعمائها وقدرتهم على تكوين رأي عام ، وعلى حل المنافسات الداخلية التي تنشأ بين العشائر على أساس المصلحة العامة ، والمحافظة على وحدة القبيلة القرشية التي كانت تتطلبها ظروفها كقبيلة تجارية مستقرة في بلد يعتمد في حياته على التجارة ، كما يعتمد على قدسية البيت الحرام الذي يقوم فيه ويجلب إليه الحجاج من كافة أطراف الجزيرة العربية ، وما يترتب على ذلك من حصول القبيلة على مركز أدبي ممتاز بين القبائل ، مما يمكن لقوافلها أن تمر آمنة في أرض هذه القبائل ، فتنشط تجارتها الخارجية ، كما تقوم بها تجارة داخلية واسعة تدر على سكان البلد الحرام أسباب الرزق والثراء . وكان أي تفكك داخلي يعرض مركز مكة للانهيار ، ولذلك كان لا بد أن يضع لها أهلها من الأنظمة والقوانين ما ينظم حياتها ويقر الأمن فيها ، ويحفظ الحقوق ويضمن حماية من يفد إليها من الأذى ، لضمان مجيء الحجاج لزيارة الكعبة ولغشيان الأسواق العامة التي تقوم في منطقة مكة . وكما نجحت حكومة الملأ في المحافظة على تماسك القبيلة بحل جميع الخلافات بالطرق السلمية وبالتوسع في قاعدة الحكم بإنشاء الوظائف لكل بطن من البطون ، كذلك نجحت في توفير الأمن الداخلي فيها سواء لأهلها أو القادمين عليها ، ووقف الحكيمون بحزم في وجه كل من تحدثه نفسه من أهلها أو من غيرهم بالاعتداء على حرية الناس وأمنهم أو ظلم القادمين إليها للمتاجرة والمبادلة(١) .

وكان مركز الحكم في مكة هو «دار الندوة» التي بناها قصي بن كلاب وجعلها مقراً

(١) انظر : ابن هشام ١/١٤٢ — ١٤٥ ، ٤١٦ . اليعقوبي : ٢/١٢ — ١٣ . ابن الأثير : ٢/٢٦ — ٢٧ . ابن كثير : ٢/٢٩٢ . Watt, Muhammad at Mecca, P. 13—14

رياسة مكة . وأهم خصائصها أنها كانت دار مشورة قريش : فيها يجتمع رجال « الملأ » للتشاور فى أمورها . وفيها كانت قريش تعقد لواءها إذا خرجت للحرب ، ومن دار الندوة كانت ترحل القوافل للتجارة وفى فنائها كانت تحط هذه القوافل حمولتها إذا رجعت . وإذا بلغ غلام لقريش عذر « ختن » فيها ، وإذا بلغت جارية جاء بها أهلها إلى دار الندوة فشق عليها قيم الدار درعها « قميصها » ثم درعها إياه ثم انقلبت إلى أهلها فحجبوها ، والظاهر أن الغرض من الأمرين الأخيرين كان مجرد التعريف بالبالغين من قريش الذكور والإناث[١] . ودار الندوة فى مكة تشبه الإكليزيا Ekklisia ، فى أثينا ، إلا أن الملأ المكى كان أكثر تعقلا وشعورا بالمسئولية من الإكليزيا اليونانية وأقل تأثيرا بالانفعالات العاطفية ، ذلك لأن الملأ كان يتكون من رؤساء العشائر وأولى الرأى والحكمة فيها ، وعلى حين كان الأثينيون يقبلون فى الإكليزيا كل رجل أمين مستقيم ، كان أهل مكة حريصين على أن يكون للشخص مهارته العملية وقدرته على القيادة[٢] . وإنشاء دار الندوة وتخصيصها لهذه الوظيفة يعتبر بداية لمرحلة جديدة تبلورت فيها النظم القبلية القديمة .

وقد حرص رجال الملأ دائما على مصلحة القبيلة القرشية ، وحفظوا على مكة وحدتها وجنبوها كل ما كان يقع فى القبائل والمدن العربية الأخرى من حروب عشائرية ، واستطاعوا أن يقفوا بحزم ضد كل طيش ونزق ، ونجحوا حتى فى أحرج الظروف فى صيانة الدماء ، فلم تقع أى ثارات بين بيوتاتها المختلفة[٣] .

وكما حافظوا على وحدة مكة الداخلية ، كذلك حافظوا على حسن الصلة بينها وبين القبائل

---

(١) انظر ابن هشام : ١/١٢٧ . الطبرى : ٢/٢٥٨ — ٢٥٩ . ياقوت : ٨/٤٢٣ ، ١٩/٢٧٩ . الأغانى : ٤/٣٨٤ ح . الألوسى : ١/٢٤٨ . العبادى : العصر العربى : ٨ — ٩ .

(٢) Watt, op. cit., p. 9.

(٣) انظر : ابن هشام : ١/٢٧٢ ، ٢٧٨ ، ٣١٢ ، ٣١٥ ، ٣٢٦ ، ٣٨١ ، ٣٩٧ — ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٢/٢٨ — ٣١ ، ٤٢ — ٤٦ ، ٥٠ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٧٦ — ٨٩ ، ٩٣ — ٩٥ ، ٩٧ . اليعقوبى : ٢/١٨ . ابن سعد ١/١٩٠—١٩٢ . القرآن الكريم سورة التوبة ٤٠ .

الأخرى فى أنحاء الجزيرة العربية ، وبخاصة القبائل الضاربة حول مكة وتلك التى تنتشر على جانبي طرق القوافل ، الأمر الذى مكن قريشا من القيام على تنظيم القوافل وتسييرها آمنة بين هذه القبائل .

ولما كانت مكة تعيش وسط جو بدوى فإنه لا بد لها من قوة تدافع عنها وترد عادية القبائل البدوية التى يغريها ثراء الحضر وخيراته للاغارة عليه وسلب ما تصل إليه أيديها من خيراته ، فإن الخصائص العامة للصلة بين البيئات الحضرية وجيرانها من البدو الرحل ، هى العلاقات المزعزعة التى تتسم عادة بالحذر والتربص ؛ فالبدو دائما يطمعون فى خيرات الحضر وينتهزون كل فرصة للاغارة عليها . ولذلك كثيرا ما كان أهل القرى يلقون عنتا كبيرا وتصاب زراعاتهم وممتلكاتهم بأضرار فادحة من جراء سطو هؤلاء البدو وغاراتهم الجريئة . وحتى الدول الكبرى ذات القوة كثيرا ما كانت تتعرض حدودها المجاورة للقبائل البدوية لتارات رجال هذه القبائل المدمرة ، فكانت لذلك تتخذ من الإجراءات السلمية والحربية ما تكف به عادية هؤلاء الطامعين الجريئين ، فهى فى بعض الأحيان تصطنع وسائل الاستمالة عن طريق الحلف ، أو دفع إتاوات لرؤساء القبائل ، ولكنها دائما تمد من وسائل القوة ما يخيفهم ويكبح جماحهم ، إذ أن أى بادرة من بوادر الضعف تبدو فى نظر هؤلاء البدو كانت تغريهم بالانقلاب على حلفائهم والإغارة عليهم .

وإذا كانت مكة تقوم فى واد غير ذى زرع ، وليس لها حاصلات زراعية يطمع البدو فيها ، فإن لها إبلها وقطعان أغنامها التى ترعى فى الوديان المجاورة لها وفى شعاب الجبال المحيطة بها [1] وهى معرضة لإغارة الأعراب عليها واقتطاعها ، بل إن الاستيلاء على الماشية أسهل وأنفع للقبائل البدوية . كما أن لمكة قوافلها التجارية التى تغدو وتروح عبر طرق التجارة محملة بالأموال وبكل عروض التجارة . ومع أن منطقة مكة كانت قد أصبحت حرما آمنا نظرا لوجود البيت الحرام بها ، ومع أن قريشا كانت تستقبل الحجاج من أهل القبائل وتضيفهم فى موسم الحج ،

---

(١) انظر ابن هشام : ١/٤٩ . البخارى : ٣/٦٢ . ابن سعد : ١/١٠٧ — ١٠٨ . ابن عبد البر الاستيعاب : ٣/١٥٧ . ابن الأثير : ١/٣٤٤ . أسد الغابة : ١/١٠٠ .

فإن ذلك وحده لا يكفى لرد عادية القبائل ، وبخاصة البعيدة منها ، وتلك التى كثيراما كانت تقصر على الحرمات أمام حاجتها وأمام إغراء المال الذى يتدفق عبر الطرق التجارية . وكل ذلك يحتم أن يكون لمكة قوة عسكرية تستخدمها عند اللزوم دفاعا عن أموالها ومصالحها ، وتشعر القبائل بقدرتها على الضرب إذا هدد أمنها أو حدث اعتداء على قوافلها .

ولم يكن لمكة جيش نظامى ثابت ، فهى مجتمع قبلى يستغنى بالتشكيل الحربى القبلى عما تعرفه المجتمعات الكبيرة من الجيوش النظامية ، ولذلك فإن قوتها العسكرية كانت تتألف من رجال القبيلة أنفسهم ومن ينضم إليهم من رجال القبائل الأخرى التى ترتبط معها برباط الحلف . وهى كمدينة تجارية لم يكن أهلها يميلون إلى استخدام وسائل العنف وقد حرصوا دائما على حل مشا كلهم سلميا ، إذا أن سلامة تجارتها تتوقف إلى حد كبير على حسن صلاتها بالقبائل المجاورة لها أو الضاربة على جنبات الطرق التى تسير قوافلها فيها ، كما كان من مصلحتها أن يستقر السلم فى منطقتها حيث تعقد الأسواق التجارية ، لتستطيع فى جو السلم أن تصرف بضائعها التى تجلبها من الجهات المختلفة بين الوافدين إلى هذه الأسواق من سكان البادية .

وبالرغم من أن رجال قريش — وبخاصة أصحاب الأموال منهم — كانوا دائما ضد استعمال القوة المسلحة وتسيير الحملات العسكرية ، فإن ذلك لا يعنى أنهم كانوا جبناء ، فقد أثبت رجال قريش شجاعة فائقة ، وقاتلوا ببسالة كبيرة حينما اضطرتهم الظروف إلى القتال سواء فى الجاهلية أو الإسلام . لكن النفوذ الكبير الذى نالته قريش بين قبائل المنطقة الوسطى والغربية من الجزيره العربية ، والمركز الممتاز الذى بلغ أوج قوته فى أواخر القرن السادس وأوائل السابع ، لم يكن يرجع إلى شجاعة محاربيها فى المقام الأول ، وإنما يرجع إلى القوة العسكرية التى كانت تستطيع أن تجمعها وتضرب بها ، ونعنى بذلك قوة الحلف الذى بنته على أساس ارتباطاتها التجارية وقيامها فى الوقت نفسه بأمر تنظيم الحج وسدانة الكعبة . فقد كانت قوافل قريش التى تسير بين الشمال والجنوب فى حاجة إلى خدمات البدو باتخاذهم أدلاء وحراسا وجمالين ، وكانت القوافل تدفع إتاوات لرؤساء القبائل على أن يمدوها بالماء وبالتموينات الأخرى . ومن هنا فإن قبائل البدو كانت تشارك فى تجارة مكة على نحو ما . كما أن رجال

مكة وضعوا نظاما لتأمين مرور القوافل بين القبائل العربية ؛ وذلك بإشراك زعماء القبائل فى قوافلهم ، فيحملون لهم بضائعهم ليتاجروا لهم فيها دون أن يتحملوا فى نقلها شيئا أو أنه يقتطعوا من أرباحها شيئا[١] ، وبذلك كانت القبائل الضاربة على جنبات الطرق التجارية ترى مصالحها المادية مرتبطة بمصلحة مكة ، ومن هنا كان فى استطاعة قريش أن يستأجروا المحاربين للدفاع عنهم[٢] ، ولكن ليس معنى ذلك أن هؤلاء كانوا جنودا مرتزقة ، بل إنهم كانوا حلفاء ، دخلوا فى محالفات مع قريش على أساس التكافؤ ، وكان أبرز هؤلاء الحلفاء أولئك الذين عرفوا بالأحابيش ، وهم ليسوا زنوجا من بلاد الحبشة كما ذهب إلى ذلك « لامانس Lammens »[٣] وإنما هم بطون ـ كما قال العبادى ـ[٤] من القبائل العربية الضاربة حول مكة من كنانة وخزيمة بن مدركة وخزاعة ، تجمعوا وتحالفوا معا ، وأخذوا فى التكتل والاندماج فى طريقهم إلى تكوين قبيلة عربية بواسطة الحلف الذى كان سببا فى تكوين كثير من القبائل العربية القديمة ، ثم تحالفوا مع قريش فى النصف الثانى من القرن السادس[٥] . كما كان لقريش عدد كبير من العبدان والموالى يقاتلون فى صفوفها[٦] . وكذلك كانت قريش حليفة قديمة لبنى كنانة وبنى بكر[٧] ، وقد ساندت قريش كنانة فى حروبها ضد قيس وهوازن فى حرب الفجار فى الجاهلية ، ووقفت كنانة إلى جانب قريش عند ظهور الإسلام وفى حروبها ضد يثرب بعد الهجرة[٨] كما كانت قريش على علاقات ودية مع القبائل الضاربة على جنبات الطريق التجارى نحو الشمال مثل جهينة ومزينة وغطفان وأشجع وسليم وبنى أسد ، وكان لها من هذه القبائل حلفاء يعيشون فى مكة ويعتبرون أنفسهم من القبيلة

---

(١) انظر ابن سعد : ١/٥٨ . اليعقوبى ١/٢٠٢ بودلى : الرسول ص ٣٥ — ٣٨ .

(٢) ابن هشام : ٢/٤ — ٥ ، ٢٣٠ : الواقدى : ٢٩٠ ؛ O'leary, P. 184

(٣) Lammens, Les Ahabéch et L'orgonisotion Militaire de la Mecque (Journal asiatique. V. II. 1916. P. 425—482) O'leary, P.185;

(٤) صور من التاريخ الإسلامى : العصر العربى : ١٣ — ٢١ .

(٥) انظر : ابن الأثير : ١/٣٥٨ ، ٣٦٢ . العقد الفريد : ٣/٣٤٠ . المصعب الزبيرى : نسب قريش ص ٤ .

(٦) البخارى : ٣/١٤٧ .

(٧) ابن هشام : ٤/٥ . ابن حزم : ٢٢٣ .

(٨) البخارى : ٢/١٨٤ ، ٤/٧١ :

القرشية جريا على النظام القبلي [١] . كما كانت صلات القرشيين طيبة وقوية بالقبائل التى تعيش إلى الجنوب مثل قبيلة خثعم التى كانت تعيش فى الهضبة الممتدة من الطائف إلى نجران عند طريق القوافل الممتد من اليمن ، وقد وقفت هذه القبيلة فى وجه الحملة الحبشية التى توجهت لاحتلال مكة سنة ٥٧٠ م [٢] وكذلك قوى الشعور بالتضامن مع مكة المحالفات القائمة على المصاهرة بين أبرز رجال قريش ومختلف القبائل العربية [٣] .

على أن الاحتفاظ بود القبائل البدوية والحلف معها أمر يحتاج إلى حنكة ومهارة ودراية بنوازع نفوس البدو الحساسة وأنفتها التى قد تثيرها أمور بسيطة يعدها الحضرى تافهة ، ولكنها فى نظر البدوى عظيمة ، قد تثير أحقاداً وحروبا تتفانى فيها القبائل . فلم يكن المال وحده ، أو القوة العسكرية ، أو الحلف فى ذاته ، كافيا للحفاظ على حسن الصلات بهذه القبائل البدوية ، وإنما هى السياسة الحكيمة الصبور التى اشتهرت بها قريش وضمنت بها ولاء القبائل لها ، بل ضمنت بها تفوقها عليها واعترافها بسيادتها .

وكما حالفت قريش قبائل البادية ، فإنها كانت على علاقات طيبة مع المدن الأخرى الموجودة فى الحجاز ، فكانت الصلات قوية بين مكة والطائف ، تجمع بينهما روابط قوية من المصالح المشتركة ، فالأسواق العربيه الكبرى تقوم فى المنطقة الواقعة بين المدينتين ، ويستفيد منها أهل المدينتين على السواء ، كما كانت الطائف تسد النقص الذى تعانى منه مكة وهو افتقارها إلى الزراعة وشدة حرارة جوها فى الصيف . وقد كانت الطائف خصيبة التربة تنمو فيها مختلف الفواكه والزروع ، إلى جانب جوها اللطيف فى فصل الصيف لقيامها على ربوة عالية يبلغ ارتفاعها خمسة آلاف قدم على ظهر جبل غزوان ، وتحف بها

---

(١) انظر الذهبي : سير أعلام النبلاء : ١/٢٢١ — ٢٢٣ : ابن حزم : ١١٤ — ١٢٣ .

(٢) ابن هشام : ١/٤٧ — ٤٨ . الأغانى : ٢/٢٤٢ — ٢٤٣ ، ٣١٦ .

(٣) عن هذه المصاهرات انظر : نسب قريش للمصعب الزبيرى ص ١٤ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٢٣ ، ١٢٦ ، ٢٢٩ ، ٣٠٢ ، ٣١١ ، ٣١٢ وغيرها .

وديان كثيرة تسيل فيها المياه عند سقوط الأمطار ، وحولها عيون وآبار كثيرة[١] ، فلذلك كانت الطائف مصيف أهل مكة ، وكان لأغنياء مكة بها بساتين وزروع[٢] . وكان أهل مكة يستهلكون كثيراً من أعناب الطائف ورمانها ، ويجلبون منها الخمور والزبيب والأدم (الجلود المدبوغة)[٣] كما كان الثقفيون يشاركون فى قوافل مكة التجارية ، وكان كثير من رجالهم حلفاء للقرشيين ، وقد بلغ بعضهم مبلغ السيادة فى البطون القرشية ، كالأخنس بن شريق حليف بنى زهرة الذى كان مسموع الكلمة فيهم مطاعا[٤] ، كما كانت قريش تستشير رجال الطائف وتشركهم فيما يهمها من الأمور الكبيرة[٥] ، وتشير آيات القرآن الكريم[٦] إلى ما كان بين مكة والطائف من ترابط ، كما تشير إلى خطورة شأن رجال الطائف وأنهم كانوا يماثلون أهل مكة قوة وجاها عند القرشيين .

كما كانت صلات قريش طيبة بمدينة يثرب ، ولهم مع أهلها نسب وصهر وصداقات قوية[٧] . وظلت العلاقات الطيبة بين المدينتين قائمة على الرغم من وقوعهما على نفس الطريق التجارى المار بين اليمن والشام مما كان يمكن أن يحدث بينهما تنافسا على التجارة .

وكذلك كانت صلات مكة طيبة باليهود جميعا فى يثرب وتيماء ووادى القرى ، وكان القرشيون يحترمون اليهود ويرون أنهم أهل العلم والكتاب الأول[٨] كما كان

---

(١) الاصطخرى : ٢٤ . ياقوت : ٩/١٣ .
(٢) انظر ابن هشام . ٣٠/٢ . الواقدى : ٢٤٢ .
(٣) ابن هشام : ٢٤١/٢ . الواقدى : ٨ . الطبرى : ٤١١/٢ .
(٤) ابن هشام : ٢٥٨/٢ .
(٥) انظر ابن هشام : ٣٦١/٣ — ٣٦٢ .
(٦) سورة الزخرف : ٣١ .
(٧) انظر اليعقوبى : ٢٠٢/١ — ٢٠٣ . الطبرى ٢٤٧/٢ . البخارى : ٧٢/٥ . الذهبى : ٢٠٣/١ — ٢١٩ .
(٨) ابن هشام : ٣٣٠/١ .

اليهود يجلون القرشيين ويعتبرونهم سادة العرب وملوك الناس[١] .

بهذه الصلات الحسنة أمنت مكة عادية القبائل العربية كما أمنت خصومات المدن الحجازية . ولما كانت قريش قد استطاعت المحافظة على وحدة القبيلة الداخلية ، وتوطيد السلام فى مكة ، فقد نالت تفوقا كبيراً ، وحظيت باحترام عام من كافة أنحاء الجزيرة العربية . وأصبحت مكة تنافس صنعاء فى زعامة الجزيرة العربية ، بل إنها تفوقت عليها فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، وأصبحت العاصمة العربية التى تتجه إليها نفوس العرب وعواطفهم القومية وبخاصة بعد أن فقدت اليمن استقلالها ، وكذلك تضعضعت مملكة الحيرة ومملكة غسان .

ولا شك أن نهضة مكة تتصل فى المقام الأول بقيام الكعبة البيت الحرام فيها ، وقد وجد فى بلاد العرب بيوت كثيرة عرفت بالبيوت الحرام ، يقصدها الحجيج فى مواسم معلومة تشترك فيها القبائل من سكان البقاع العربية ويتعاهدون على المسالمة فى جوارها . وكان أشهرها فى الجزيرة العربية بيت « الأقيصر » فى مشارف الشام[٢] ، لقبائل قضاعه ولخم وجذام وعامله . وبيت « ذى الخلصة » بتبالة بين مكة والطائف لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب[٣] ، وبيت « رئام » بصنعاء لحمير وأهل اليمن[٤] ، وبيت « رضاء » لبنى ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم[٥] ، كما كانت « العزى » بنخلة لقريش وبنى كنانة[٦] ، وكانت « اللات » لثقيف بالطائف[٧] ، وكانت « مناة » للأوس والخزرج ومن دان بدينهم من أهل المدينة على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد[٨] ، وكان « القلس » لطيء ومن يليها بجبلى طيء : أجا وسلمى[٩] ، وكان

(١) ابن هشام : ٢/٤٣١ .
(٢) ياقوت : ٢/٢٣٨ .
(٣) ياقوت : ٧/٣٨٣ — ٣٨٤ ؛ الأغانى ٢/٥ ص ١٧٢ . ابن كثير : ٢/١٩٢ .
(٤) ياقوت : ٩/٣٨٣ — ٣٨٤ . ابن كثير : ٢/١٩٢ .
(٥) ياقوت : ٩/٥٠ . ابن كثير : ٢/١٩٢ .
(٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) ابن كثير : ٢/١٩٢ .

ذو الكعبات لبكر وتغلب بن وائل وإياد بسنداد[١] ، كما كان فى نجران بيعة بنوها على بناء الكعبة وعظموها مضاهاة لها وسموها « كعبة نجران »[٢] .

إلا أنه لم يجتمع لبيت من هذه البيوت الحرام ما اجتمع لبيت مكة ، لأن مكة كانت ملتقى طرق القوافل بين الجنوب والشمال والشرق والغرب ، وكانت محطة لازمة لرجال هذه القوافل . وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها ، وقد رغب القبائل فيها أن مكة لم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل فى باديتها أو رحلاتها ، فليست فى مكة دولة كدولة التبابعة فى اليمن أو مملكة المناذرة فى الحيرة أو الغساسنة فى الشام ، وليس من وراء أصحاب الرياسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو الفرس أو الحبشة من وراء الإمارات المتفرقة على أطراف شبه الجزيرة العربية ، فهى مثابة عبادة وتجارة ، وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش ولا يبالى من عداه ، فلم تكن قيصرية ولا كسروية ولا نجاشية ، وإنما كانت مكة عربية لجميع العرب ، ولهذا تمت لها الخصائص التى كانت لازمة لمن يقصدونها ، ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة العامة المشتركة لا على حكم القهر والإكراه .

ومما كان له أبعد الأثر فى إعظام شأن الكعبة أنها المفخرة القومية والحرم الإلهى الذى بقى للعرب بعد سيادة الروم على غسان وتغلب الحبشة ثم الفرس على اليمن ، وشعور اللخميين — سادة الحيرة — أنفسهم بمناعة الكعبة ومناعة الطريق فى أيدى مضر ومن واليها[٣] ، ثم هوان سلطان هؤلاء اللخميين حتى آل بهم الأمر إلى الدثور . ثم جاءت وقعة ذى قار التى انتصر فيها العرب على الفرس بعد زوال دولة اللخميين وقضاء الفرس عليها[٤] ، فهزت الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، ونمت على نخوة قومية

---

(١) ابن كثير : ٢/١٩٢ .

(٢) ياقوت : ١٩/٢٦٨ .

(٣) انظر ابن الأثير : ١/٢٥٩ — ٢٦٠ . النويرى : نهاية الأرب : ١٥/٤٢٥ . ابن كثير : ٢/٢٨٩ .

(٤) ابن الأثير : ١/٢٨٩ — ٢٩١ . النويرى : ١٥/٤٣٢ .

عربية تمكنت من نفوس القبائل جميعاً ، فاشرأبت أعناقها زمنا إلى كل ملاذ تقصر عنه أيدى فارس والروم .

ولقد كانت الكعبة منذ القديم كما هى معروفة فى عهد قريش مثابة للناس جميعا وأمنا لا يمنع أحد من زيارتها والتعبد فيها ، وقد سمحت قريش لكل الناس على اختلاف نحلهم بالطواف حولها والتعبد فيها على أنها بيت الله ، فالوثنيون على اختلاف أربابهم ، واليهود والنصارى والصائبون كان يمكنهم زيارتها والتعبد فيها حكمهم فى ذلك حكم القبائل البادية التى وجدت فيها محلا للتقرب لأوثانها فى موسم الحج والإحرام[١] . ولقد حاولت بعض الدول أن تهدم هذا البيت وتحول أنظار العرب عنه فلم تفلح[٢] ، وبقيت للكعبة مكانتها وقداستها كما كانت من أقدم عهودها .

والكعبة وقد احتوت ساحتها أصنام العرب — التى هى قوى تابعة — عدت مشتملة على جميع الآلهة وغدت « زون » الأمة[٣] ، وكان ما حام حولها من الأحاديث عزيزاً على العرب أجمعين . ولكن الأساس المهم الذى قامت عليه قدسية البيت الحرام ، هو أن البيت بجملته هو المقصود بالقداسة غير منظور إلى الأصنام والأوثان التى اشتمل عليها . فالعرب كانوا يعرفون إلهاً أعظم من سائر الآلهة يتوجهون إليه بالدعاء ، وهى حقيقة لا يعتورها الشك فقد سجلها القرآن الكريم فى آياته[٤] ، وكان العرب يلبون فيقولون « لبيك اللهم لبيك » ولا يدعون أحداً من الأصنام « رب البيت » فإذا قالوا « رب البيت » أرادوا به رباً فوق الأرباب . وهذه الحقيقة هى التى كتبت لبيت مكة التفوق على البيوت كلها فى الجزيرة العربية ، فإنها بيوت أصنام وكان بيت مكة بيتاً لله الذى يرى فيه العرب الإله الخالق المبدع ، وإنما عبادة الأصنام تقربهم إلى الله زلفى[٥] .

---

(١) سديو : ٥٨ .
(٢) انظر ابن هشام ١٠/١ . ٤٣ . الطبرى : ١٣٢/٢ .
(٣) « الزون » : الموضع تجمع فيه الأصنام (سديو : ٥٨) .
(٤) سورة : العنكبوت ٦١ ، ٦٣ . يونس ٣١ .
(٥) سورة : الزمر ٣ . يونس ١٨ .

ولم تكن الكعبة ملتقى عواطف العرب الروحية فحسب ، وإنما جعلوا منها خزانة شرفهم ومجدهم ، فقد وضعوا فيها خير ما أنتجت قرائح رجالهم لتكون شاملة لكل شرف وتمجيد « وذلك أن العرب كانوا إذا عمل أحدهم قصيدة عرضها على قريش فإن أجازوها علقوها على الكعبة تعظيماً لشأنها[١] » ، ولذلك كان لسدنتها (قريش) سلطان ديني معترف به من الجميع وكانوا أصحاب التشريع ، وكان لزاماً أن تتجه الأفكار إلى قريش إذا ما أريد قيام وحدة عربية .

وقد عملت قريش على الاستفادة من مكانة البيت الحرام فى نفوس العرب ومن قيامها على أمره لتقوى مركزها الأدبى لدى القبائل ولتنشط تجارتها ، فأجرت من الترتيبات وابتدعت من النظم والتقاليد ما يحقق لها السيادة الأدبية والنفع المادى .

وأول هذه الترتيبات ما نظمته من السقاية والرفادة وجعلها من أهم الوظائف فى مكة وإسنادها إلى أعظم البيوت القرشية . وقد جلبت السقاية والرفادة لقريش كثيراً من الفوائد الأدبية والمادية . وذلك أن منطقة مكة حارة شحيحة المياه ، وهى لكى تستقبل عدداً كبيراً من الحجاج لابد أن يتوفر فيها المياه بحالة منظمة حتى لايلقى الحاج من قلة الماء ما يضطره إلى الخروج منها أو العزوف عن القدوم إليها ، لذلك نالت عملية السقاية عناية كبيرة من قريش وصارت عملا رسمياً ، فعملت على الإكثار من حفر الآبار[٢] ، لتواجه الزيادة المطردة فى عدد الحجيج ، وإقامة الأحواض حول البيت الحرام لتملأ بالماء فيستقى منها الناس . وأصبحت السقاية من الوظائف التى تفاخر بها وتراها من أجل الأعمال إلى جانب عمارة البيت الحرام والقيام على سدانته وإعداده للزائرين ، حتى لقد نوه القرآن الكريم بذلك فقال[٣] « أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر » . وحين فتح النبى مكة فى سنة ٨ هـ ألغى كل المناصب بها ، ولم يبق إلا على وظيفتى السدانة والسقاية تقديراً لأهميتها[٤] .

---

(١) ابن كثير : ٢/٢١٩ .
(٢) ابن هشام : ١/١٥٩ — ١٦٢ .
(٣) التوبة : ١٩ .
(٤) ابن هشام : ٤/٣٢ . الطبرى : ٣/٦١ .

وكذلك جعلت قريش استضافة الحاج وظيفة هامة عرفت « بالرفادة » وذلك بأن تخرج خرجاً من أموالها تدفعه إلى متولى هذه المهمة ليصنع به طعاماً للحاج استضافة لهم على أنهم ضيفان بيت الله الحرام . وهذا أمر هام فى بيئة فقيرة كبيئة الصحراء ، وكثير من الحجاج يقدم من بلاد بعيدة ويكابد سفراً طويلا يصعب معه حمل الزاد ، وقد وكلت قريش هذه الوظيفة إلى البطون القوية القادرة عليها ، إذ أن صاحب الرفادة قد يتحمل جزءاً من ماله الخاص ، لذلك كان يعهد بالقيام بها إلى الرجال الأغنياء[١] وقد جلبت « الرفادة » لقريش كثيراً من الفوائد الأدبية والمادية ، فالمؤاكلة تعتبر عقد جوار وحلف عند العرب ، فوق أن الضيافة وإطعام الطعام كان يعتبر أكبر المحامد فى المجتمع العربى . وبإطعام الحاج من كافة قبائل شبه الجزيرة تكون قريش كأنما عقدت جواراً مع هذه القبائل فضلا عن أنها نالت احتراماً وفضلا بينها ، وهذا ما سهل لها المرور بتجاراتها آمنة بين هذه القبائل التى تعتبر قد ارتبطت معها برابطة الجوار مادامت قد أكلت من طعامها . وقد استغلت قريش هذه الوظيفة فيما بعد استغلالا كفل لها رواج تجارة داخلية هامة فى موسم الحج ، وهى بيع الطعام للحجاج من غير أهل الحرم ، ضمن ما ابتدعت من سنن للاستفادة المادية .

والأمر الهام الثانى الذى عملت قريش على اقراره هو توفير الأمن فى منطقة مكة ، وتوفير الأمن أمر ضرورى فى بيئة تغلى بالغارات وطلب الثأر ، وتعتبر الغارة للحصول على المال وسيلة مشروعة من وسائل العيش . لذلك حرصت على إقرار حرمة المنطقة المحيطة بالبيت كأمر لازم لحرمة البيت نفسه وجعله ملاذاً للناس جميعا وأمنا(٢) . ثم لم تكتف بتقرير حرمة المدينة فى داخلها ، بل جعلت لها مجالا فى خارجها ، وجعلت هذا المجال حرماً كحرمة المدينة نفسها ، وأقامت لهذا الحرم علامات يعرف بها(٣) . ولتمكين العرب من

---

(١) انظر ابن هشام : ١/١٤٧ . ابن سعد : ١/٥٨ .

(٢) البخارى : ٣/١٤ — ١٥ .

(٣) القلقشندى : ٤/٢٥٥ (ومقادير الحرم تتفاوت فى القرب والبعد عن مكة ، فهى من التنعيم على طريق سرف إلى مر الظهران خمسة أو ستة أميال . ومن طريق جدة عشرة أميال . ومن طريق اليمن ستة أميال . ودوره سبعمائة وثلاثون ميلا) .

القدوم إلى هذه المنطقة الحرام شنت هدنة الأشهر الحرم وهي أربعة أشهر يحرم فيها القتال[١] منها ثلاثة متصلة هي ذو القعدة وذو الحجـة والمحرم[٢] وشهر مفرد هو شهر رجب ، والثلاثة الأولى هي أشهر الحج ، وشهر رجب كان خاصا بقبائل مضر ثم ما لبث أن صار جزءا لا يتجزأ من الأشهر الحرم[٣] . ولقد كان لهذه الهدنة التي فرضتها الأشهر الحرم قيمة عظيمة في حياة العرب ، إذ كانت تمكنهم من التحرك والاتصال والتبادل مطمئنين آمنين ، مما ييسر لهم القدوم إلى الحج وإقامة الأسواق في منطقة مكة ، الأمر الذي يحقق لهم التقارب الاجتماعي والفكري والنفع المادي . حتى لقد عبر القرآن[٤] عن أهمية هذه الهدنة هذا التعبير البليغ الموجز « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدى والقلائد » ومن أجل ذلك أسبغ العرب على هذه الهدنة صفة القدسية ، وكان الرأي العام العربي يثور لأي خرق لهذه الهدنة التي أصبحت جزءاً من حياة الناس ومن كيانهم الاقتصادي والاجتماعي والأدبي . وتشير الآيات القرآنية[٥] إلى أن هدنة الأشهر الحرم قديمة سابقة على عهد البعثة النبوية بزمن طويل ، والأرجح أنها تقررت وأصبحت مرعية بعد وجود موسم الحج وتقاليده وأسواقه ، وبعد وجود الموسم الديني لمضر في الحجاز بالنسبة لشهر رجب . والأرجح أنها كانت من عمل الأحماس الذين صار لهم بعض الامتيازات الدينية والتشريعية والذين كان الناس يسيرون على ما يسنونه لهم ويعتبرونه سنناً دينية واجبة التنفيذ[٦] ، ويساعد على تصويب هذا الرأي ما كان لمكة من مركز ديني محترم في نظر سائر العرب ، وما كان من اهتمام عظيم لتقرير حرمة الحرم

---

(١) البقرة : ١٩٧ . التوبة : ٥ ، ٣٦ .

(٢) البخاري : ٦٦/٦ . تفسير الطبري : ٢٩٩/٤ . ابن سعد : ٧٢/٢ .

(٣) تفسير الطبري : ٢٢٩/٤ . الخازن : ٢٣٠/٢ .

(٤) المائدة : ٩٧ .

(٥) التوبة : ٣٦ . وانظر البخاري : ٦٦/٦ .

(٦) دروزة : عصر النبي : ٢١١ .

وحرمة الأشهر الحرم عند زعماء مكة وما كانوا يقومون به من أعمال فى سبيل رعايتها[١].
ويرجح أن السعى الأول كان منهم لأن فوائد الحج تعود عليهم فى المقام الأول ، إذ أن البيت الحرام فى بلدهم والأسواق العامة تقوم فى منطقتهم أو حولها . وقد دانت العرب كلها بذلك لقريش وأقرتها عليه ، لأن الناس كانوا محتاجين إلى مثل هذه المنطقة الحرام يغشونها لتأدية شعائرهم الدينية ، ولتبادل المنافع العامة من بيع وشراء ، وبخاصة بعد أن أصبحت مكة تقوم على أمر التجارة ، وبعد أن أصبحت مستودعاً تجارياً كبيراً لحاصلات الجزيرة العربية والمجلوبات الخارجية . وليجد من تضيق به الحياة ويتعرض للطلب ملاذاً يجد فيه الأمن .

وكما أقرت قريش حرمة المدينة وحفظت لها مجالا فيما حولها ، كذلك أقرت حقوق المواطنة لأهل هذا الحرم وسمت المتمتعين بهذه الحقوق باسم « الحمس » .

ولفظ الحمس جمع « أحمس » ومعناه ابن البلد ، وابن الحرم ، والوطنى المقيم ، والذى ينتمى إلى الكعبة والحرم فهو امتياز لأبناء الوطن ولأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنيها فقال القرشيون « نحن بنو إبراهيم ، وأهل الحرمة ، وولاة البيت ، وقاطنوا مكة وساكنوها ، فليس لأحد من العرب مثل حقنا ولا مثل منزلتنا ،ولا تعرف له العرب مثل ما تعرف لنا »[٢] . ثم جعلوا للحمس علامة وهى ألا يعظم الأحمس شيئاً من الحل — أى الأرض التى وراء الحرم — كما يعظم الحرم . وقالوا « إن فعلتم استخفت العرب بحرمكم »[٣] ولذلك ترك الحمس الوقوف بعرفة — لأنه خارج الحرم — والإفاضة منها ، مع إقرارهم بأنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم ، ويرون لسائر الناس أن يقفوا عليها ويفيضوا منها[٤] . إلا أنهم قالوا « نحن أهل الحرم فلا ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة ولا

(١) ابن هشام . ١٤٤/١ .
(٢) ابن هشام : ٢١٦/١ . تفسير الطبرى : ١٨٨/٤ .
(٣) ابن هشام : ٢١٦/١ .
(٤) البخارى : ١٦٣/٢ .

نعظم غيرها كما نعظمها . نحن الحمس — والحمس أهل الحرم — »(١) . فأظهروا بذلك شدة تعصبهم لبقعة من الأرض وترفعوا أن يخرجوا عنها ولو كان فى خروجهم إتمام لمشاعر الحج .

أقرت قريش هذا التقليد وأدخلت فيه كنانة وخزاعة ، كما منحت هذا الحق لمن ولد من العرب فى الحرم واعتبرته مستحقا للشرف بحق المولد كما استحقته قريش بحق الدم والأصل . وكذلك منحوا هذا الحق لمن ولد منهم ، أى من ولدمن بناتهم المتزوجات من غيرهم ، وقد كانوا يشترطون على من تزوج منهم أن ينتقل إليهم ، يرون أن ذلك لا يحل لهم ولا يجوز لشرفهم حتى يدان إليهم وينقاد ويتبع مبدأهم(٢) . وذلك ليوطدوا صلاتهم بأصهارهم وحلفائهم .

ففكرة الحمس إذن إقرار لحق المواطنة بالانتساب للبقعة ، وامتياز لمن له هذا الحق . وليس معنى الحمس التحمس فى الدين كما ورد فى القاموس ، فإن قريشا تركت فرضا من فروض الحج تعصبا للحرم ، مع أن هذا يتنافى مع دين إبراهيم . وإن كان الحمس قد ابتدعوا أمورا من الدين تميزهم عن غيرهم ، وتشير إلى ارتباطهم بالكعبة ، وتمسكهم بحرمة البيت الحرام وتعظيم الحج إليه ، ليزيد ذلك من شرفهم وشرف البيت ، فقالوا « لا ينبغى للحمس أن يأقطوا الأقط ، ولا يسلأوا السمن ، ولا يدخلوا بيتا من الشعر ، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ما كانوا حرما»(٣) . وهذه أمور داخلة فى باب التزهد ، إلا أنهم اختصوا أنفسهم بالقباب الحمر تضرب لهم فى الأشهر الحرم (٤) . وكانت القباب الحمر علامة الشرف والرياسة .

وكانت فكرة الحمس فكرة صائبة لأنها ترمى إلى إعزاز أهل الحرم ، وتضمن سلامة

---

(١) ابن هشام : ٢١٦/١ .
(٢) الأزرق : ١١٥/١ . العقد الفريد : ٣٢٠/٣ وما بعدها . الألوسى : ٢٤٢/١ .
(٣) ابن هشام : ٢١٩/١ .
(٤) الألوسى : ٢٤٤/١ .

القاصدين إليهم ، وتحجز ما بين الأعداء وتشل أيدى المنتقمين والمتربصين . فنشأ حق الالتجاء إلى الحرم من حق الحمس ، فكان الرجل لو جر جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يقرب ، وكان الرجل لو لقى قاتل أبيه فى الشهر الحرام أو فى الحرم لم يتعرض له . وإذا أراد رجل البيت وخشى الاعتداء عليه تقلد قلادة من شعر فأحمته أى حماته حتى لا يقرب .

ثم إن الحمس فرضوا على العرب فروضا حملوها عليها فدانت لهم بها وأخذت بما شرعوه لهم من ذلك ، وقالوا « لا ينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل فى الحرم إذا جاءوا حجاجا أو عمارا ، ولا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس ، فإن لم يجدوا طافوا بالبيت عراة ، فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ولم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ، ألقاها إذا فرغ من طوافه ثم لا ينتفع بها ، ولا يمسها هو ولا أحد غيره أبدا ، فكانت العرب تسمى تلك الثياب « اللقى » [١] . ولكن فى أخبار التاريخ ما يدل على أن الطواف مع العرى كان مبالغة فى التقديس والتطهر ، فبنت قريش فرضها هذا الذى فرضته على العرب على تلك العادة القديمة . وما زال حق الحمس يتطور حتى صار دينا متبعا .

ولقد جنت قريش من وراء هذه السنن التى فرضتها على العرب جميعا فوائد جمة ، فهى إلى جانب تأكيد سيادتها الأدبية والدينية ، كانت فى الحقيقة ترمى إلى غرض مادى متصل بنشاطها التجارى ، فإن الناس يطرحون أزواد الحل قبل الدخول فى الحرم ، حتى يبتاعوا أزوادهم من أهل مكة ، وكذلك عدم السماح لهم بالطواف بأثوابهم وإنما عليهم أن يلبسوا المآزر الأحمسية ، حتى يشتروا ما يلزمهم من ذلك من قريش . وبذلك كانت توجد سوق نشيطة فى مكة فى موسم الحج لبيع الملابس ، كما تخصص بعض التجار فى بيع الأطعمة[٢] وإلى جانب ذلك كانت قريش تأخذ ضريبة تسمى « الحريم » من كل من نزل عليها ، تأخذ بعض ثيابه أو بعض بدنته [٣] .

---

(١) ابن هشام : ١/٢١٩ . البخارى : ٢/١٦٣ .
(٢) الذهبى : سير أعلام النبلاء : ٢/٢٩ .
(٣) جواد على : ٤/٣١٨ . شوقى ضيف : العصر الجاهلى : ٥٠ .

كل هذا يعنى أن قريشا نظمت الحج والقدوم إلى مكة حسب ما تقضتيه مصلحتها الأدبية والمادية ، وكانت تبتدع من الأمور ما يحقق لها الاحترام ولبلدها القدسية عند العرب ، وما يحقق لها الكسب المادى .

وإذا كانت حياة مكة المادية والأدبية مرتبطة بالحج ، فإن له كذلك ارتباطا كبيرا بالحياة الاجتماعية والاقتصادية عند العرب بعامة ، فقد كان لكثير من تقاليده علاقة قوية بكيان العرب الاجتماعى ، وكان له من أجل ذلك أثر كبير فى حياتهم الاجتماعية ، فقد كان شاملا للعرب جميعا على اختلاف عقائدهم وعباداتهم وبيئاتهم ، وكانوا يتخذونه وسيلة من وسائلهم الاجتماعية ، حيث يفدون على منطقة مكة — البلد الحرام — من كل صوب فيلتقون فى موسم الحج وأسواقه ويجتمعون ، فيتعارفون ويتبادلون المنافع من بيع وشراء ومبادلة . ويعقدون المجالس المفاخرات والمشاورات وحل المشاكل ، وكان كل صاحب دعوة يريد أن يعلن عنها يجد فى أسواق الحج مجالا صالحا ، حتى لنستطيع أن نقول إن هذه الأسواق كانت منبرا عاما تتلقى فيه الأفكار من كل لون ، فالعرب يأتون من كل جهة ثم يتفرقون ، وقد امتلأت جعباتهم بالأخبار وذاكرتهم بالأشعار والخطب والكلمات الممتازة ، واكتظت أذهانهم بمختلف الصور والمشاهد . الأمر الذى ساعد على تقريب العرب بعضهم من بعض ، واستقرار معنى القومية المشتركة فى أذهانهم ، وتوحيد اللغة وتصفيتها ، ونمت حركة نشيطة بدت تباشيرها وتطورها التقدمى قبل الإسلام فيما كان من تطور الوثنية إلى الشرك ، ثم اعتبار الشركاء شفعاء عند الله ، ثم اقتباس العرب كثيراً مما عند الكتابيين وغيرهم من معارف دينية وغير دينية ، واستنكار العرب لما بين هؤلاء من تنازع وخلاف ، وتنديدهم بهم وتوقع بعثة نبى من العرب يهدى الناس إلى الصراط المستقيم ، ثم ظهور طبقة الموحدين الذين أخذوا يشمئزون مما يعبد قومهم ويطوفون الأرض ينشدون ملة إبراهيم ويتعبدون عليها أو على ما يظنون أنه هى[1] .

ونستطيع أن ندرك ما استفادته قريش من هذا الاحتكاك والاتصال بين العرب الوافدين من مختلف الجهات العربية ، ومنهم من عرف الفرس ، ومنهم من عرف الروم ،

---

(١) ابن هشام : ١ / ٢٤٢ — ٢٥١ . المسعودى : ١/ ٦٧ — ٧٠ . ابن كثير : ٢/ ٢٣٨ .

ومنهم من كان من اليمن وعرف الأحباش ، فى تطوير نظمها والأخذ بأسباب التقدم الأدبى والمادى .

وإذا كانت قريش قد قوت صلاتها بالقبائل العربية على النحو الذى أوضحناه ، فإنها لم تكن فى عزلة عن المجال الخارجى ، فقد بدأت تطرق هذا المجال فى القرن السادس الميلادى ، وقامت لها صلات تجارية كبيرة بالدول المحيطة بالجزيرة من بيزنطيين وفرس وأحباش . ولقد هيأت لها الظروف هذه الفرصة ، فقد شهد القرن السادس صراعا حادا بين الامبراطورية البيزنطية ومن لف فى فلكها كدولة الحبشة ، وبين الامبراطورية الفارسية ، وكان ميدان هذا الصراع بلاد الشرق الأدنى ، وهدفه بسط نفوذ الدولتين على ربوع هذا الشرق بغية السيطرة على طرق التجارة العالمية التى تمر بها . وقد دخلت أطراف الجزيرة العربية الجنوبية والشمالية فى مجال هذا الصراع ، بل إن الاستيلاء عليها كان هدفا رئيسيا من أهداف هذا التطاحن بين الدولتين الكبيرتين . وقد شهد القسم الشمالى من الجزيرة العربية أعنف المعارك الحربية بينهما[1] ، كما شهد القسم الجنوبى أنواع الصراع الدينى والحربى والسياسى[2] . أما داخل شبه الجزيرة العربية فلم يدخل فى دائرة الصراع إلا فى النصف الثانى من القرن السادس ، إذ أن التجارة المارة ببلاد العرب كانت فى يد اليمنيين الذين قاموا عليها منذ زمن مبكر جدا ، ولم يكن داخل شبه الجزيرة العربية الصحراوى مطمعا لفاتح ، لقلة خيراته وصعوبة تسير الجيوش إليه ، والحملة الوحيدة التى اخترقت الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب هى حملة أليوس جالوس سنة ٢٤ ق . م ووصلت إلى مأرب[3] وقد باءت بالفشل ، ولم يذكر أنها توقفت عند يثرب أو مكة أو الطائف ، فلم تكن هذه المدن فى ذلك الوقت غير محطات تجارية تنزلها

---

(١) أومان : الامبراطورية البيزنطية : ١٠١ — ١٠٩ . كريستنسن : إيران فى عهد الساسانيين ٣٥٧ — ٣٥٩ ، ٤٣٠ — ٤٣٣ .

(٢) الحيمى : سيرة الحبشة : ٢٤ . كريستنسن : ٣٥٨ .

(٣) جواد على : ٢/٣٨٤ — ٣٩٦ .

القوافل للراحة والتزود . ويبدو أن هذه الحملة كانت درساً لم ينس ، فلم يتقبل الروم أن يسيروا جيوشهم لنجدة نصارى نجران ضد الملك اليمنى الذى نكل بهم[1] ، وكذلك تردد كسرى فى إجابة ملتمس سيف بن ذى يزن حين طلب إليه أن يسير جيوشه لتخليص اليمن من الأحباش ، بالرغم من أن «سيف» عرض حكم بلاده على كسرى[2] ، وقد تحالفت بيزنطة مع الحبشة القريبة من بلاد العرب واتخذت منها أداة لبسط نفوذها على اليمن ، وقد أدى إلحاح الأحباش عليها بالغزو إلى سقوطها فى أيديهم سنة ٥٢٥ م ، ولكن بعد نحو خمسين سنة قامت باليمن ثورة وطنية بقيادة سيف بن ذى يزن فجلا الأحباش عن اليمن لتسقط بعد ذلك تحت الحكم الفارسى سنة ٥٧٥م[3] .

وبسقوط اليمن تحت الاحتلال الحبشى ثم الفارسى ، وقيام الخلافات الداخلية فيها ، فقدت قدرتها على النهوض بدورها الذى اضطلعت به قروناً طويلة فى نقل التجارة العالمية . ولما كان النزاع بين الفرس والروم قد أدى إلى قفل طريق التجارة الشرقى المار ببلاد العراق إلى الشام ، وكان الطريق البحرى عبر البحر الأحمر قد خلا من سفن الروم ، ولم تقو البحرية الحبشية على سد هذا الفراغ فيه ، فإن الطريق البرى عبر تهامة والحجاز أصبح هو الطريق الوحيد المفتوح أمام التجارة ، وكان لابد بعد زوال النشاط اليمنى أن يوجد من يسد الفراغ ويقوم بدور الوسيط المحايد بين المتنازعين لنقل هذه التجارة[4] .

وقد وجد هذا الوسيط المحايد ممثلا فى مدينة مكة التى حظيت بنوع من التنظيم والاستقرار على يد قبيلة قريش التى نالت مكانة سامية بين عرب الشمال .

وبقيام مكة على نقل التجارة بدأت تطرق المجال الخارجى ، وبدأت تتخذ لها علاقات مع الدول المحيطة بالجزيرة العربية والتى أصبحت تقوم بدور الوسيط فى نقل التجارة منها

---

(١) إبن هشام : ١/٣٦ .

(٢) الطبرى : ٢/١٤٠ . إبن هشام : ١/٧٣ .

(٣) الطبرى : ٢/١٢٣ — ١٤٢ . الدينورى : ٦١ — ٦٤ . حق : ٧٣ — ٧٥ .

(٤) Huzayyen : Arabia and The Far East. P. 142—143.

حولها . وقد عمل رجال مكة القرشيون على ألا يزجوا بأنفسهم فى مجال الصراع الدولى ، بل حرصوا على اتخاذ موقف الحياد ، وقد أعانهم على اتخاذ هذا الموقف رغبة المعسكرين المتنازعين فى وجود مثل هذا الوسيط المحايد من ناحية ، وبعد مكة وصعوبة الوصول إليها من ناحية أخرى . ومع ذلك فلم تسلم مكة من محاولات حربية وسياسية بذلت للسيطرة عليها باءت كلها بالفشل .

وقد توسعت قريش فى علاقاتها التجارية مع الجنوب والشمال والشرق : فأما علاقة مكة بالجنوب فإنها قديمة ترجع إلى أيام المعينيين ، وكانت القبائل اليمنية هى أول من سكن مكة[1] ، وفى عهد قريش اتصل أحد رجال مكة وهو « المطلب بن عبد مناف » بإقبال اليمن الحميريين وعقد معهم اتفاقاً على أن تقوم قريش بالمتاجرة فى أرضهم ، وقد اتصلت تجارة مكة باليمن منذ ذلك الوقت — بداية القرن السادس — ثم سيطرت قوافلها التجارية على نقل هذه التجارة شيئاً فشيئاً ، وتضاءل شأن التجار اليمنيين واكتفوا بالتجارة مع قريش ، وكان قصاراهم أن ييمموا لتجار مكة إذا قدموا إلى الشمال[2] . »

وكما حظيت مكة وبيتها الحرام بنفوذ كبير بين عرب الشمال ، كذلك أصبح لها مكانة عظيمة فى نفوس عرب الجنوب الذين فقدوا استقلالهم وتطلعوا إلى هذا البلد العربى المستقل ، حتى لقد غضبوا حين جهز أبرهة الحبشى حملة لغزو مكة ، وتصدت له بعض القبائل اليمنية وقاتلته[3] .

وقد قامت علاقات صداقة ومودة بين زعماء مكة ورجالات اليمن ، فتتحدث الروايات عن صداقات بين عبد المطلب بن هاشم وبعض أشراف اليمن ووفاداته عليهم ، وقد ذهب وفد من رجال مكة لتهنئة سيف بن ذى يزن بعد انتصاره على الأحباش ، وربما كان قدوم

---

(١) وجدت نقوش معينية وسبئية فى معان والعلا شمال الحجاز (جواد على ١/٣٨ ، ٣٨٤ ، ٣٩٣ ، ٩٨ . حتى : ٣٤٩ . القلقشندى : نهاية الأرب : ٢٤٤ — ٢٤٥ .

Jerald de Goury, Rulers of Mecca. P. 24.

(٢) ابن هشام : ١/١٤٤ — ١٤٥ ، ٤١٦ . ابن كثير : ٢/٢٩٢ .

(٣) الطبرى : ٢/١٣٢ — ١٣٣ . ابن كثير : ٢/١٧١ — ١٧٢ .

هذا الوفد تعبيراً عن الابتهاج بهزيمة الحبشة التي كانت قد غزت مكة من قبل ، ولكنه كان على كل حال تعبيراً عن الغبطة بانتصار رجل عربي على أعدائه ودليلا على حسن الصلة والمودة ، وقد أكرم سيف الوفد وحباه وحظي عبد المطلب بن هاشم زعيم الوفد بعظيم عطف الملك وكرمه(١) .

أما علاقة مكة بالحبشة ، فإنها بدأت منذ خرجت مكة بتجارتها إلى المجال الخارجي ، فإنه في الوقت الذي اتصل فيه عبدالمطلب بن عبد مناف بأقيال اليمن ، اتصل أخوه عبد شمس بالنجاشي وأبرم معه اتفاقاً مماثلا ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحبشة لقريش وجهاً ومتجراً[٢] . وكانت الحبشة مصدراً هاماً من مصادر التجارة الشرقية ، وبخاصة الرقيق الأسود الذي كانت منطقتها المصدر الأول له . ولما استولت الحبشة على اليمن لم تستطع أن تقوم بدور كبير في التجارة التي أصبح نقلها يتم على أيدي التجار المكيين الذين أصبحوا الوسطاء المسيطرين على قوافل التجارة الخارجية المارة عبر تهامة والحجاز ، كما كفل لهم قيام البيت الحرام وإقرار هدنة الأشهر الحرم وقيام الأسواق العامة في منطقة مكة السيطرة على تجارة شبه الجزيرة العربية . وقد فكر حاكم اليمن الحبشي أن ينافس مكة في مكانتها الدينية لعله ينتزع منها التجارة الداخلية ، فأقام كنيسة في صنعاء حرص على أن تكون غاية في الفخامة ليجلب إليها العرب للحج والمتاجرة[٣] ، ولكن عمله هذا لم يأت بنتيجة ، لأن البيت الحرام في مكة كان محل تعظيم العرب جميعاً ، وكان الحج إليه والتجمع حوله مرتبطاً بالقومية التي أخذت تظهر في أفق الحياة العربية في ذلك الوقت ، لذلك فإن العرب حين سمعت بنية أبرهة في صرف الحاج إلى كنيسته أعظمت الأمر وكبر عليها ، واستبانت نية أبرهة الحقيقية في مد نفوذه السياسي على الجزيرة العربية حين توج رجلا يدعى « محمد بن خزاعى » وأمّره على مضر ، وأمره أن يسير في الناس يدعوهم

---

(١) ابن كثير : ٣١٩/٢ . ابن خلدون : المقدمة : ١٩٨ .
(٢) الأغاني : ٥٢/٨ .
(٣) الطبري : ١٣٠/٢ — ١٣١ .

إلى الحج إلى « القليس » كنيسته التى بناها ، فمدت قبائل كنانة على هذا الرجل فقتلوه ، ثم أرسلوا إلى الكنيسة من أحدث فى هيكلها تعبيراً عن احتقارهم لها ومعارضتهم لمشروعات أبرهة . وقد دعا ذلك أبرهة للقيام بحملة عسكرية ضد مكة لتدمير بيتها الحرام فتسقط مكانتها الدينية بين العرب من ناحية ، وليضع يده على هذه المحطة التجارية من ناحية أخرى ؛ ليتم اتصال الحبشة عبر الطريق البرى بحليفتها بيزنطة التى كانت تسيطر على الشام ، والتى كانت وراء كل التحركات الحبشية فى بلاد العرب[1] ، وقد تصدت القبائل العربية للحملة وقاتلها وإن لم تكن من القوة بحيث تستطيع التغلب عليها إذ كان ينقصها الاتحاد فيما بينها ، ولم تستطع مكة تهيئة قوة لصدها ، ولما تفشى المرض فى جيش أبرهة وهو على أبواب مكة واضطر إلى الارتداد زاد ذلك من مكانة مكة الأدبية وأكد زعامتها الروحية ، فقد قال الناس عن قريش « أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم »[2] .

وعلى الرغم من إخفاق حملة أبرهة ، فإن العلاقات ظلت قائمة بين مكة والحبشة لاحتياج كل منهما للآخر ، ولأن الحبشة لم تفكر بعد ذلك فى تكرار هذا العمل العدوانى ، وبخاصة بعد أن تغيرت الظروف وطردت الحبشة من اليمن ، ولم يصبح أمامها إلا التعامل مع هذا الوسيط العربى الذى يقوم على التجارة ، فإنه لم يكن من المستطاع أن تخلق تجارة مع الفرس أعدائها وأعداء حلفائها الروم . وفى أيام البعثة النبوية كانت علاقة مكة مع الحبشة علاقة وطيدة ، وكان تجار قريش على صلة دائمة وعلاقات طيبة مع الأحباش ، وعلى معرفة بأحوال هذه البلاد[3] .

أما علاقة مكة بالشمال فهى قديمة ترجع إلى أيام النبطيين الذين كانوا يقومون على

---

(١) ارشيبلد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط : ١٨ — ١٩ (مقدمة بقلم شفيق غربال) .

(٢) ابن هشام : ١/٥٩ وانظر الطبرى : ٢/١٢٤ — ١٣٩ . جواد على ٤/١٦٥ .

(٣) ابن هشام : ١/٢٤٣ ، ٣٥٦ ، ٣٦١ O'Leary : P 184

التجارة فى شمال بلاد العرب ، وقد عمل الحجازيون على تعظيم شأن الحجاز بين النبطيين ، فوضعوا فى الكعبة تماثيل أرباب كان يعبدها النبطيون ، كما استقدموا إلى الحجاز آلهة أخرى منها اللات والعزى ومناة[1] . ولا شك أن نقل الأصنام من بلاد النبط إلى الكعبة كان وسيلة من الوسائل لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال ، وإيناسهم بها كلما رحلوا إلى الحجاز ، وتقريب ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام .

وحين ورثت بيزنطة سلطان الرومان فى الشرق ورث معه البيزنطيون رغبة الرومان فى الاستيلاء على طريق التجارة عبر الحجاز ، إذ أن الطريق عبر العراق كان فى يد خصومهم الفرس . وفى الوقت الذى حصلت فيه مكة على عهود من الحميريين والأحباش على غشيان بلادهم للمتاجرة ، حصل أحد زعماء مكة « هاشم بن عبد مناف » على عهد من الغساسنة والروم يسمح لقريش بالمتاجرة فى أرض الدولة البيزنطية[2] . لكن البيزنطيين عملوا من ناحية أخرى على أن يضعوا أيديهم على الرأس الجنوبى لهذا الطريق والاتصال مباشرة بمنابع التجارة الشرقية ، واستخدموا لذلك حليفتهم الحبشة التى استولت على اليمن وسعت للاستيلاء على مكة وبسط نفوذها على الحجاز[3] . ولما فشلت الحملة الحبشية على مكة قام الروم بمحاولة سياسية ، وذلك بتمليك سيد من قريش على مكة يدين بالولاء للروم ، فارتضى قيصر لملك مكة « عثمان بن الحويرث الأسدى القرشى » الذى كان قد تنصر واتصل بقيصر وحسنت منزلته عنده ، ومنحه براءة بذلك[4] .

وقد عاد عثمان إلى مكة وأخذ يرغب قومه فى قبول ملكه ويتهددهم بغضب قيصر عليهم وتقفلة الشام فى وجوههم[5] . وقد يبدو غريباً أن علك الروم رجلا على مكة وليس لهم نفوذ فى هذه الجهات ، فإن نفوذهم الفعلى لم يتجاوز فى وقت من الأوقات أعالى الحجاز ،

---

(١) ابن الكلبى : الأصنام : ٢٨ . الأزرقى : ١/٦٨ وما بعدها . ابن هشام : ١/٦٢ — ٦٣ (هامش الروض) جواد على : ٥/٨٩ — ١٠٤ .

(٢) الطبرى : ٢/٢٥٢ . اليعقوبى : ١/٢٠١ .

(٣) أرشيبلد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط : ٥٢ـ٥٣ .

(٤) ابن هشام : ١/٢٤٣ . السهيلى : ١/١٤٦ . الأغانى : ٣/١١٣

Lammens : La Mecque. PP. 270-279, 366-367,

(٥) المحبر : ١٧١ . Watt : Muhammed at Mecca. P. 1o

ولكن ذلك لا يمنع من حصول عثمان أو غيره على براءات وأوراق اعتراف من الروم يملك سيد على قبيلة أو أرض ليس لهم عليها سلطان ، فقد كان حصول المشايخ والأمراء على أمثال هذه الأوراق وبراءات الاعتراف نوعا من أنواع الإكرام والتقدير الأدبى يكسب حاملها قوة معنوية ، ثم هى تجعله فى جملته أصدقاء الروم وحلفائهم والحائزين على تقديرهم ومنحهم . وقد كان الروم يشجعون هذا النوع من التودد السياسى لكسب العرب وجرهم إلى جانبهم ، إذ به يتمكنون من بسط نفوذهم على القبائل . ولا شك أن هذه المحاولة السياسية كان غرضها كغرض المحاولة التى قامت بها الحبشة من قبل .

لكن القرشيين كانوا قد ارتضوا لحكم مكة نوعا من الحكومة ألغوا فيها الرياسة الفردية ، وكانوا قد اختطوا لارتباطاتهم مع الدول خطة الحياد ، فلم يقبلوا زعامة عثمان عليهم ، كما رأوا أنه ليس من مصلحة بلدهم أن ترتبط ارتباطاً خاصاً بأى من المعسكرين المتعاديين فى هذه الأوقات التى وصل فيها الصراع بين الدولتين إلى مرحلة حادة مما يبرز أهمية الحياد ، وبخاصة وأن أهل مكة كانوا يرون الغلب فى هذه المرحلة معقوداً لفارس على الروم ، ويعتقدون أن النتيجة النهائية ستكون فى مصلحة الفرس(١) ، ولم يترتب على رفض العروض البيزنطية أى نتائج خطيرة بالنسبة لمكة باستثناء السجن المؤقت لبعض المكيين فى الشام(٢) .

أما علاقات مكة بالفرس والحيرة ، فإنه فى الوقت الذى حصل فيه رجال مكة على عهود من اليمنيين والحبشة والروم للمتاجرة فى بلادهم حصل أحد زعماء قريش « نوفل ابن عبد مناف » على عهد مماثل من كسرى للمتاجرة فى بلاد الدولة الفارسية(٣) ، ولذلك اتصلت تجارة مكة بالعراق(٤) ، وإن لم يكن بنفس القوة التى كانت بين مكة والبلاد

---

(١) سورة الروم : ١ — ٢ .
(٢) السهيلى : ١٤٦/١ .
(٣) الطبرى : ٣٥٢/٢ .
(٤) ابن هشام : ١٥٥/١ . نسب قريش : ١٣٦ .

الأخرى ، وذلك لأن الفرس كانوا يتصلون اتصالا مباشراً بالتجارة الشرقية ، كما أن تجارة الفرس مع الجزيرة العربية كانت بيد الحيرة التى كانت تتسلمها ثم تجيزها إلى أسواق العرب نظير جعل تدفعه لرؤساء القبائل لحماية هذه التجارة ، كما أن ملوك الحيرة كانوا يرسلون متاجرهم إلى أسواق مكة كل عام فى حماية بعض القبائل العربية[١] ، ومع ذلك فقد كانت قوافل قريش تتصل بالحيرة ويقال إن قريشا تعلمت الكتابة من أهلها[٢] . وقد ازداد نشاط التجارة القرشية نحو هذه البلاد بعد أن تضعضع ملوك الحيرة وكثرت اعتداءات القبائل على تجارة الفرس المارة عن طريقها ، وعلى تجارة المناذرة أنفسهم ، ثم ما تلى ذلك من سقوط الحيرة بعد مقتل النعمان بن المنذر وهزيمة الفرس أمام العرب فى موقعة ذى قار[٣] .

بهذه العلاقات التجارية الواسعة خرجت مكة من عزلتها إلى المجال الخارجى ، واستطاعت أن تحتل دور الوسيط التجارى بين الدول المجاورة للجزيرة العربية . وقامت قريش على ترتيب القوافل التجارية فجعلت لها رحلتين فى السنة : رحلة فى أشهر الصيف إلى الشمال ، ورحلة فى أشهر الشتاء إلى الجنوب . وقد ذكر القرآن الكريم خبر هاتين الرحلتين فى معرض تعداد فضل الله على قريش[٤] . وقد عملت على تأمين طرق القوافل بما عقدته من محالفات مع رؤساء القبائل الضاربة على جنبات هذه الطرق ، كما ربطت مصالح هذه القبائل الاقتصادية بمصلحة مكة ، وكونت بذلك شبكة تجارية تربط مكة بما حولها . وبذلك أخذت قريش تسيطر شيئاً فشيئاً على التبادل التجارى بين الشمال والجنوب ، وعظمت قوافلها حتى لتبلغ القافلة الواحدة خمسمائة وألفى بعير تحمل عروض التجارة المختلفة ، وقد بلغ قيمة ما تحمله قافلة عدد جمالها خمسمائة وألف بعير خمسين ألف دينار[٥] ، وهو

(١) ابن الأثير : ١/٢٥٩ — ٢٦٠ . النويرى : ١٥/٤٢٥ .
(٢) ابن هشام : ١/١٩٠ (هامش الروض) نسب قريش : ١٣٦ .
(٣) ابن الأثير : ١/٢٩١ . النويرى : ١٥/٤٣٣ . ابن كثير ٤/٤ — ٥
(٤) سورة قريش : ابن هشام : ١/١٤٧ .
(٥) الواقدى : ١٧٠ . السمهودى : ١/٢٠٠ .

مبلغ كبير جداً إذا قسناه بقيمة العملة فى ذلك الزمان . وكانت القوافل تحمل حاصلات الشرق ، فتحمل المنتجات التى ترد من موانى الجنوب ، وأهمها الذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل والأفاوية ، والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتانية ، والأرجوان والميعة والزعفران ، والآنية من الفضة والصفر والحديد ، كما تحمل من حاصلات أفريقيا الشرقية العطور والأطياب وخشب الأبنوس وريش النعام والذهب والعاج والرقيق[١] . كما تحمل من حاصلات اليمن البخور واللبان والمر واللاذن والعطور والحجارة الكريمة كاليشب والعقيق والجلود ذات الرائحة الطيبة[٢] ، ومن حاصلات جزيرة سقطرة العود والند ، ومن البحرين اللؤلؤ .

وتحمل من حاصلات الشمال القمح والدقيق والزيت والخمر ومصنوعات فينيقيا[٣] هذا بالإضافة إلى ما تحمله من حاصلات بلاد العرب نفسها من البلح والقرظ والصوف والشعر والوبر والسمن[٤] ، وإلى جانب القوافل التجارية لابد أن قريشا كانت تستخدم البحر فى نقل تجارتها من الحبشة ، فالروايات تتحدث عن رحلات بحرية كثيرة إلى الحبشة[٥] ، ولعل من مؤيدات اتساع هذا الأفق التجارى البحرى الهجرة التى قام بها المسلمون إلى الحبشة[٦] . والآيات القرآنية الكثيرة التى تشير إلى البحر وعواصفه ، وما يجرى فوقه

---

(١) جورج فضلو حورانى :العرب والملاحة : ٧٦ .

(٢) انظر الطبرى : ٢ / ٣١٢ . الواقدى : ٦٥ . الأغانى : ١ / ٦٤ — ٦٥ . جورجى زيدان . العرب قبل الإسلام : ١٥١ .

(٣) انظر ابن هشام : ١ / ١٤٧ . أنساب الأشراف : ١ / ٥٨ — ٥٩ .

(٤) المحبر : ١٧١ .

(٥) انظر الطبرى : ٣٢٨/٢ — ٣٢٩ ، ٣٣٥ . ٦٣/٣ الأغانى : ٥٢/٨ .

(٦) سورة النحل : ٤١ ، انظر الطبرى : ٣٢٨/٢ ، ٣٢٩ .

وما يستخرج من جوفه[١] والتي تمتاز بوضوحها وجلائها الرائع ليست إلا صدى للنشاط التجاري والاتصالات البحرية بين الحجاز والحبشة وغيرها ، إذ يدل طابع الخطاب القريب فيها على أن الكلام موجه إلى المخاطبين القريبين وهم أهل الحجاز بعامة وأهل مكة بنوع خاص ، وتدل على ما كان لهؤلاء من صلة بالأعمال البحرية المتنوعة ، وما كان يقوم في ثغور الحجاز وسواحله من حركة وملاحة وصيد وغوص ، وما كان لأهل الحجاز وبخاصة مدنه وتجاره من منافع عظيمة . كما أن الحفاوة البالغة من القرآن في الإشارة إلى البحار وما يجرى فوقها وما يعود منها من المنافع العظيمة ، يمكن أن تدل على أن حركة الملاحة والصيد والغوص لم تكن ضعيفة ، وأنها كانت مما يعول عليه أهل الحجاز في معاشهم وحياتهم التجارية والاقتصادية تعويلا غير يسير ، وأنهم كانوا يعرفون البحر وركوبه ويستخدمونه في أغراضهم المختلفة .

ولم تكن قريش حين سيطرت على التجارة تملك سفنا في البحر الأحمر ، ولكنها من غير شك كانت تنقل تجارتها من الحبشة وإليها عبر هذا البحر ، ولابد أن المكيين كانوا يستخدمون سفنا تعمل لحسابهم[٢] .

وكانت التجارة التي تحمل من الجنوب أو من الشمال أو من الشرق تفرغ في مكة حيث تستهلك البيئة المحلية منها ما تحتاج إليه ، ثم يحمل الباقي إلى الجهات المختلفة ، فتحمل حاصلات الشمال إلى الجنوب وحاصلات الجنوب إلى الشمال ، فوق ما يحمل معها مما تجمعه قريش من حاصلات الجزيرة العربية نفسها من تجارة أهل البادية والمدن الحجازية ، مما يحمل إلى مكة أو إلى الأسواق القريبة منها في عكاظ ومجنة وذي المجاز في موسم الحج .

---

(١) الأنعام : ٩٧ . التوبة : ٩٦ . يونس : ٤٢ . النحل : ١٤ : الإسراء : ٦٦ النور : ٤٠ . فاطر : ١٢ . الشورى : ٣١ ـ ٣٢ . الرحمن : ١٩ ـ ٢٤ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين : ٢٠٧/١ .

وكانت فى مكة سوق دائمة للتبادل التجارى وخاصة مع القبائل القريبة منها[١] . كما كانت تمج بالتجار من كل ناحية وبخاصة من أهل الشام والروم والفرس ما كنوا المكيين وتحالفوا مع أثريائهم ، وقد اتخذوا فيها مستودعات لخزن بضائعهم وتصريفها وكان تجار الشام يجلبون إلى مكة القمح والزيوت والخمر الجيدة[٢]. وقد ذكر المستشرق « أوليرى O'leary »[٣] أن مكة أصبحت مركزاً للصيرفة يمكن أن يدفع فيها التجار أثمان السلع ترسل إلى بلاد بعيدة ، كما كانت عملية الشحن والتفريغ تتم هناك وكذلك كان يتم التأمين على المتاجر وهى تجتاز الطرق المحفوفة بالمخاطر . وقد ساعد قريشا على تأمين تجارتها ما كانت تتمتع به من حرمة عند العرب وما كان لها من ارتباطات قوية مع القبائل الضاربة على طول الطرق التجارية .

على أن قوافل مكة لم تكن تجارة أفراد ، وإنما كانت تجارة مدينة ، وكانت قريش كلها تشارك فيها ، وكان كبار التجار يقومون على هذه القوافل التى تضم أموالا لأفراد متعددين ، منهم من يسافر على تجارته ، ومنهم من يستأجر آخرين ومنهم من يقرض ماله للمتاجرة على النصف ، ومنهم من يرسل تجارته نظير نسبة من الربح . وأحيانا كانت القافلة تحمل أموالا لأهل مكة جميعا[٤] . ولم تكن التجارة خاصة بالرجال دون النساء ، فكان ثريات قريش يشتغلن بالتجارة ويسهمن فى قوافل قريش[٥] . وعلى ذلك فتجارة مكة الخارجية ليست تجارة أفراد وإنما هى تجارة جماعية .

وقد أدى نشاط بعض الأسر القرشية فى التجارة إلى حصولها على ثروات طائلة ،

---

(١) ابن الأثير : ١/٢٤١ . ابن كثير : ٣/٤٥ .
(٢) أسد الغابة : ٤/٢٥٨ O'leary. p. 184
(٣) O, leary ,P 182
(٤) الواقدى : ١٨ . ابن كثير : ٢/٢٢٣ . الطبرى : ٢/٤٢١ — ٤٢٢ .
(٥) سورة النساء : ٣٢ . أسد الغابة : ١/١٦ . ابن كثير : ٢/٢٩٣ — ٢٩٤ . الأغانى : ٩/٦٤ — ٦٥ .

فقد أسهم رجل واحد من قريش هو « أبو أحيحة سعيد بن العاص بن أمية » بثلاثين ألف دينار فى القافلة التى كان يقودها أبو سفيان سنة ٢ هـ(١) ، ومبلغ كهذا ليس بالشىء القليل بالنسبة للوضع المالى فى تلك الأيام . كذلك بلغ من غنى « عبد الله بن جدعان التيمى » أنه كان يشرب فى كأس من الذهب حتى سمى « حاسى الذهب »(٢) ، وكان يبلغ به الأمر أن يرسل قافلة إلى الشام مكونة من ألفى بعير تحمل البر والشهد والسمن ليطعم الناس بمكة(٣) . وقد اشتهر بنو مخزوم بالثروة والمال حتى كان أحدهم وهو « عبد الله بن أبى ربيعة » يلقب بعدل قريش ، وكان تاجرا غنيا متجره إلى اليمن(٤) .

وهكذا نرى مكة قد نالت حظا كبيرا من التقدم الأدبى والمادى ، وأصبحت زعامة قريش بين العرب زعامة حقيقية لا شك فيها قبل الإسلام ، وأبرز مثل يوضح هذه الزعامة القرشية هو أنه حين وقفت قريش موقف المعارضة للنبى لم يجد استجابة لدعوته بين العرب فلما ألقت قريش لواء المعارضة بعد فتح مكة سنة ٨ هـ لم يلبث العرب أن دخلوا فى الإسلام طائعين .

ومما أكد الزعامة القرشية أن مكة كانت البلد الوحيد الذى حظى بنوع من الاستقرار والتنظيم ، والذى كان يتمتع باستقلاله فلم يخضع لحاكم أجنبى قط ، فى الوقت الذى كانت فيه الممالك العربية الأخرى قد تدهورت ووقعت تحت الاحتلال أو النفوذ الأجنبى . وقد وافق هذا الوقت بدء نهضة عربية بين قبائل الشمال التى بدأت تتحرر من نفوذ الجنوب وبدأت تأخذ بيدها زمام حركة التحرر الجديدة ، التى بدت تباشيرها بالشعور بالذات والإحساس بالقومية العربية التى عبرت عن نفسها فى بداية القرن السابع حين اشتبك العرب مع الفرس فى معركة ذى قار حوالى سنة ٦١١ م وانتصروا عليهم ، وحين تمرد الغساسنة على طغيان الروم وثار اليمنيون على الأحباش(٥) .

---

(١) الواقدى : ١٨ .
(٢) البيان والتبيين : ١/٣٢ — ٣٣ .
(٣) ابن كثير : ١٢٨ .
(٤) الأغانى : ١/٦٤ .
(٥) ابن الأثير . ١/٢٥٣ — ٢٥٤ ، ٢٦٥ . الحبيبى : سيرة الحبشة : ٢٤ . جواد على : ٤/١٠٤ ، ١٤٠ . سديو ٥٣ — ٤٥ .

وإذا كان العرب قد تمردوا على السيادة الأجنبية ، فإنهم قد تطلعوا إلى منطقة عربية مستقلة تتولى زعامة هذه النهضة العربية وتقودها . ولما كانت نجد والحجاز قد ظلتا سالمتين من أى تسلط أجنبى ، فإنه كان طبيعيا أن تكونا ملجأ القومية العربية . ولم تقم فى نجد والحجاز دولة متسلسلة المراتب كدولة التبابعة فى اليمن ، وإنما كانت تملكها قبائل مستقلة راضية بأن تدبر أمورها بنفسها ، مضحية بكل غال لوقاية حريتها . ومع أنه لم تربط بينها وحدة سياسية واحدة ، فإنه ربط بينها شعور مشترك ومصلحة واحدة ، وكانت مكة ببيتها الحرام وأسواقها العامة وقوافلها التجارية هى مناط هذا الرباط وأصبحت لذلك عاصمة الجزيرة العربية من الوجهة الأدبية . ومع أن القبائل العربية حتى فى نجد والحجاز لم تقر بسلطان سياسى لقريش ، إلا أن العرب تطلعوا إلى هذه المدينة المستقلة لتتولى زعامة النهضة العربية وتقودها . فقد كان الأمر يتطلب بيئة عربية خالصة بعيدة عن متناول الدول الكبرى ، وبعيدة عن التأثر بالحضارات الأجنبية ، ولكن من غير أن تفقد الاتصال بها ، بحيث يتاح لها أن تأخذ عنها دون أن تفقد شخصيتها ، حتى تستطيع أن تعبر عن روح العروبة تعبيراً دقيقاً قادراً على جمع العرب . وقد كانت مكة مدينة الحجاز الكبرى خير مكان توفرت له هذه الشروط ، فقد كانت على صلة بدول ذلك الزمان من بيزنطيين وفرس وأحباش بحكم ظروفها الاقتصادية ، وكانت تعرف من أمور هذه الدول وحضارتها قدراً يكفى للتعامل معها والاستفادة منها ، إلا أنها لم تكن تعرف هذه البلاد المعرفة التى تفقدها شخصيتها ولا تترك لها إلا مجال التقليد . وهذا الاتصال المحدود بالعالم الخارجى هو الميزة التى جعلت البيئة الحجازية قادرة على الأصالة والحيوية الأمر الذى لم يكن موجوداً فى غيرها من أنحاء الجزيرة العربية ، ولذلك كانت أصلح بيئة للنهضة بالعرب ، وأصلح وسط يخرج للناس نهضة جديدة ونظاما جديدا .

وهكذا حظيت قريش برياسة عامة بين القبائل العربية وأصبحت أهلا لأن تكون موضع النواة فى قيام نهضة عربية قومية .

* * *

الفصل الثالث

مدينة يثرب قبل الإسلام

إذا كانت مدينة مكة قد تمتعت بالنظام وسادها جو من الهدوء والاستقرار ، وكانت العوامل التى تربط بين الجماعة فيها تؤدى وظيفتها على نحو مرض نتيجة لوحدة السكان فيها ، واجتماعهم على غاية واحدة هى رعاية الكعبة والقيام على تنظيم التجارة الداخلية والخارجية التى كانت أهم موارد الرزق فى البلد الحرام ، فإن مدينة يثرب التى تقع على بعد حوالى ثلاثمائة ميل فى شمال مكة كانت تفتقر إلى هذه الظروف الجامعة ، فسكانها من عنصرين مختلفين ، فمنهم العرب ومنهم اليهود ، وكذلك لم تكن لهم غاية مشتركة يحرصون على الترابط بينهم من أجلها كما كانت الحال فى مكة . ولذلك سادها الاضطراب وعمتها المنازعات ، وكان سكان يثرب فى أشد الحاجة إلى من يستطيع أن يوجد نوعا من النظام يقر الأمن ، ويوجد رابطة يجتمع عليها الناس غير الروابط القبلية التى فشلت فى أن تكون فيها رباطا يؤلف بين الناس .

تقوم يثرب فى واحة خصيبة التربة غزيرة المياه بين لابتين بركانيتين تعرفان بالحرتين حرة واقم فى الشرق وحرة الوبرة فى الغرب ، ويحدها من الشمال جبل أحد ، كما يقع على حدها الجنوبى جبل عير . وتكتنف الوديان الحرتين من الشرق والغرب منحدرة من الجنوب والشرق محيطة بالمدينة من جهاتها الجنوبية والشمالية والغربية حتى تتجمع فى شمالها الغربى ، وتسير فى انحدارها مياه الأمطار فتجعل من أرض المدينة جنات ذات زروع زاهية الخضرة ، وبساتين تنبت أشجار الفاكهة والنخيل[1] ، ولذلك كانت حياة السكان فيها تعتمد فى المقام الأول على تملك الأراضى الزراعية واستثمارها .

---

(١) عن وصف للمدينة . أنظر ياقوت : ٨٢/١٧ — ٨٨ . السمهودى : ١١٢/١ — ١٠٢ . البتنونى : ٢٥٢ — ٢٥٩ هيكل : فى منزل الوحى ٥٧١ — ٥٨١ .

وحياة الزراعة من طبيعتها أن تربط الناس بالأرض وتفرض عليهم الاستقرار ، ولكنها في مجتمع قبلي تكون مثارا للنزاع الدائم ، فإنه في مثل هذا المجتمع لاتوجد قوة فوق قوة القبائل والعشائر تستطيع أن تقر الحقوق وتفرض السلم وتعاقب من يخل به من الناس . بل كانت القوة الذاتية عن طريق الأفراد أو الجماعات هي الضمان الوحيد لحفظ الحقوق — ولذلك كان مامن شأنه أن يؤدي إلى الاستقرار هو في ذاته عامل من عوامل التقلقل والنزاع . فقد كان كل فريق يتطلع إلى أن تكون في يده أخصب البقاع وأغناها . ولما لم يكن هناك قانون غير القوة ينظم العلاقة بين الناس ، كان السعي عن طريقها هو السبيل المألوف لتوسيع الأملاك والحصول على أفضل البقاع الزراعية . ولما كانت المدينة مكونة من عنصرين من السكان ، فقد انقسمت إلى معسكرين متعاديين يترقب كل منهما الفرصة ، لقهر الآخر ، والحصول على مافي يده أو على خير مافي يده . على أن كلا من المعسكرين لم يسلم من النزاع الداخلي لنفس الغاية ، وانقسم كل بدوره إلى وحدات متصارعة . ولم يربط بين الوحدات في المعسكر الواحد إلا ما كان يربطها من تقاليد العصبية القبلية والشعور بأن الفرد وحده عاجز عن حماية نفسه ضد الآخرين . لذلك ساد المدينة جو من عدم الأمن جعل الحياة فيها أمراً عسيراً(١) .

ومن أجل المحافظة على النفس والمال اتجه ميل السكان بصفة عامة إلى إقامة الحصون والآطام للاحتماء بها عند الحاجة ، حتى أصبحت المدينة ممتلئة بهذه الحصون لدرجة لاتكاد توجد في مدينة أخرى . فقد ذكر بعض المؤرخين أنه كان لليهود وحدهم تسعة وخمسون أطما ، وأن العرب لم يكونوا أقل رغبة في بناء الآطام حتى لقد كان لبطن واحد من بطونهم تسعة عشر أطما(٢) .

ومع أن الحياة الزراعية تفرض الاستقرار والاندماج ، فإن الحياة القبلية ظلت تفرض نفسها في يثرب بصورة واضحة ، فلم تكن حياة البطون اليثربية تتميز بشيء عن حياة

(١) انظر الأغاني : ٣/٤٢ .

(٢) انظر السمهودي : ١/١١٦ — ١٤٥ .

القبائل البدوية ، وحتى اليهود الذين كانوا قد وصلوا فى وطنهم الأصلى إلى درجة من المدنية وانمحى من بينهم نظام القبائل وانصهروا فى أمة واحدة ، لم يلبثوا حين هاجروا إلى المدينة واستقروا فيها أن زالت منهم هذه الصفات وتغلبت عليهم العقلية البدوية حتى صارت صاحبة السلطان على أفكارهم ونفسياتهم[١] وتميزوا إلى ثلاث قبائل كبرى هى قينقاع وقريظة والنضير ، وحولها عشائر كثيرة عاشت متفرقة دون أن تتكتل فى قبيلة واحدة . ومع ذلك فإن الروابط القبلية بما فيها من لحمة الدم والنسب فشلت فى أن تكون رباطاً يؤلف بين الناس وأن تقيم مجتمعاً أكبر من مجتمعات البطون ، ولذلك فإن يثرب انقسمت إلى عدة دوائر زراعية ، وكل دائرة كانت تابعة لبطن من البطون . وكان كل بطن من البطون الكبيرة يضم طائفة من البطون الصغيرة تعد مواليه ، يشرف على مزارعها ومتاجرها ، ويرعى حقوقها ، وإذا وقعت إغارة عدها واقعة على رعاياه وطالب بالثأر أو دفع الدية[٢] ومع ذلك فإن البطون الصغيرة حافظت على شخصيتها ولم تسمح للبطون الكبيرة بأن تحد من حريتها ، ومن أجل ذلك تجنبت البطون الكبيرة كل ما من شأنه أن يهيج البطون الصغيرة[٣] . ومن ثم أصبح هناك شبه توازن فى نظام الحكم بين البطون الكبيرة فى يثرب ، فكانت البطون تثور إذا هم بطن كبير بالاستئثار بالنفوذ[٤] . ولما كانت المصالح متضاربة فإنه لم يكن من المستطاع إقامة أى نوع من الحكم يهيمن على الشئون العامة للمدينة أو حتى على القبائل كوحدات كبيرة كما هو الشأن فى القبائل العربية الأخرى[٥] .

وسكان يثرب وقت الهجرة كانوا من اليهود والعرب . والطرفان كانا من الجماعات المهاجرة التى وفدت إلى منطقة يثرب فى فترات مختلفة ، ولذلك لم يكن لها روابط

---

(١) ولفنسون . ١٢ ، ١٥ .

(٢) السمهودى : ١٥٢/١ — ١٥٥ . ابن الأثير : ٤٠٢/١ — ٤١٨ .

(٣) السمهودى : ١٣٦/١ _ ١٣٧ ، ١٤٦ _ ١٤٧ .

(٤) ولفنسون : ١١٨ .

(٥) انظر السمهودى : ١٨٣/١ _ ١٨٧ .

مع القبائل المحيطة بالمدينة من نوع الروابط التي تربط بين قبائل ترد أنسابها إلى أصل واحد .

واليهود الذين كانوا بالمدينة كانوا أقدم عهدا بها من العرب . وقد انفردوا بشئونها فترة من الزمن ، إذ لم يكن بسا كنيها إلا بطون عربية صغيرة لم تكن على جانب من القوة فعاشت موالى لليهود . وقد وفد اليهود إلى منطقة الحجاز من فلسطين منذ القرن الأول الميلادى بعد أن هاجت الدولة الرومانية بلاد فلسطين وقوضت أركان الدولة اليهودية المستقلة ، ثم قمت الثورات التي قام بها اليهود بشدة وقسوة فتشتت اليهود فى أصقاع العالم ، ولجأت جموع كبيرة منهم إلى بلاد العرب لبعدها عن متناول يد الرومان ، نظراً لطبيعتها الصحراوية التي تعوق سير القوات الكبيرة المنظمة وتمنع توغلها ، فضلا عن أن هذه البلاد كانت تسودها الأنظمة البدوية الحرة . وقد استقرت بعض الجماعات اليهودية فى منطقة يثرب وسكنت أخصب بقاعها(١) ، ولما كانوا غرباء على المنطقة التي استقروا فيها ، فقد لجأوا إلى حماية أنفسهم بإقامة الحصون والآطام ، كما كان من مصلحتهم أن يكونوا على علاقات طيبة فيما بينهم حتى يقووا على حماية أنفسهم فى بيئتهم الجديدة ، وهم مع ذلك يعملون لاستثمار الأراضى الخصيبة التي نزلوا فيها ، وقد نجحوا فى كلا الأمرين نجاحا كبيرا ، فاستقروا وتجمعت فى أيديهم الثروة وعلا شأنهم حتى أصبحوا أصحاب الكلمة العليا فى يثرب .

ولكنهم حين استقرت أمورهم ، وتم لهم الغلب بدأ الدافع على التضامن يضعف فيهم ، فلم يحافظوا على الروح الجامعة بينهم ، بل انحدروا إلى الروح القبلية وأخذت روح الانفصالية والتنافس تظهر بين جماعاتهم . ولابد أن أحداثا وحروبا وقعت بين طوائفهم كان من نتيجتها ذلك التفكك الذى بدا واضحا بينهم حين وقع النزاع بينهم وبين الأوس والخزرج بعد ذلك ، فلم يستطيعوا أن يجمعوا كلمتهم ويوحدوا صفوفهم فى وجه خصومهم ،

(١) الأغانى : ١٩/٩٥ (طبعة مصر) . السمهودى : ١١٢/٢ — ١١٦ . ولفنسون : ٦٥ — ٧٥ .

كما أنهم لم يحتفظوا بكيانهم فيما تلا ذلك من أحداث فتفرقت بطونهم ودخل بعضها في محالفات مع الأوس ودخل بعضها في محالفات مع الخزرج ، وشارك كل فريق في القتال إلى جانب حلفائه حين تصارع الأوس والخزرج ، وكانوا في القتال أقسى على بني جنسهم من العرب[١] ، فقد قسمت قريظة والنضير على بني قينقاع فأثخنوا فيهم وشتتوا شملهم في حرب بعاث ، ولا علة لهذه القسوة إلا أن عداء كان قد استحكم بين بني قينقاع وبين قريظة والنضير نتيجة صراع وقع بينهم جعل بني قينقاع يتركون أرضهم وزروعهم ويقتصرون على الصناعة ، فإنهم حين أجلاهم النبي بعد ذلك عن يثرب لم يكن لهم بها أرض ولا مزارع[٢] . وليس من المحتمل أن يكون بطن كبير مثلهم قد رغب عن الزراعة كلية . ومما يؤيد ما كان يقع بين اليهود من قتال وسفك دماء وإخراج بعضهم بعضاً من ديارهم جريا وراء المصالح والمنافع الخاصة ، ما ذكرته آيات القرآن الكريم من وصفهم والتنديد بأعمالهم هذه مع مخالفتها لشريعتهم « وإذا أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم ولاتخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم ها أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم ، وهو محرم عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب »[٣] .

وبعد الهجرة كانت قبائل اليهود وبطونهم في حالة واضحة من التفكك ، وكان إحساسهم بالترابط منعدما ، وقد سيطرت عليهم المنفعة الشخصية وأهدروا في سبيلها كل مصلحة مشتركة .

* * *

(١) الأغاني : ١٩/٩٥ (طبعة مصر) . ولفنسون : ٦٩ .

(٢) الواقدى : ١٤٠ .

(٣) البقرة : ٨٤ ـ ٨٥ . انظر تفسير الطبرى : ٢/٣٠٥ .

أما العرب فى وقت الهجرة النبوية فقد كانوا أصحاب الكلمة العليا فى يثرب ، وبيدهم كان توجيه الأمور بها . وتنتسب جموع العرب بالمدينة — فيما عدا بعض العشائر الصغيرة — إلى قبيلتين كبيرتين هما الأوس والخزرج . ويرد النسابون أصلهم إلى فرع واحد من قبائل الأزد اليمنية ، وكانت كل قبيلة من القبيلتين تنقسم إلى خمسة أبطن كبرى انقسمت بدورها إلى بطون أصغر منها وإلى عشائر ، حتى بلغت البطون المعروفة من القبيلتين أكثر من أربعين بطناً عدا من كان يعايشها من عشائر عربية أخرى اتصلت بها برابطة الولاء . وقد سكنت بطون الأوس المنطقة الجنوبية والشرقية وهى منطقة العوالى من يثرب ، بينما سكنت بطون الخزرج المنطقة الوسطى والشمالية وهى سافلة المدينة ، وليس وراءهم فى الغرب إلا خلاء حرة الوبرة . وكانت مساكن الأوس فى المناطق الزراعية الغنية وكان يجاورهم بها أهم قبائل اليهود من بنى قريظة والنضير . أما مساكن الخزرج فكانت فى مناطق أقل خصبا وقد جاورهم قبيلة يهودية كبيرة واحدة هى قينقاع ، وعشائر يهودية أقل عدداهم اليهود الذين نزلوا فى الشمال الغربى من المدينة عند المكان المعروف « بيثرب » شمال جبل سلع . وقد كان لهذا أثره الكبير فى العلاقات بين العرب واليهود من ناحية ثم بين الأوس والخزرج من ناحية أخرى (١) .

وقد هاجر الأوس والخزرج من موطنهم فى اليمن فى الهجرة التى قامت بها قبائل الأزد نتيجة لاضطراب أحوال اليمن بسبب التنازع السياسى بين الأقيال ، وإلحاح الأحباش عليها بالغزو منذ القرن الثالث الميلادى ، مما أدى إلى إهمال أمر الإرواء وتهدم السدود التى كان أهمها سد مأرب ، الأمر الذى تسبب عنه العسر الاقتصادى لإهمال الزراعة ، فأخذت القبائل تهاجر كلما ضاق بها الحال : وكانت الأوس والخزرج ضمن هذه القبائل المهاجرة ، وكانت هجرتها متأخرة عن غيرها من بطون الأزد ، ونرجح أنهم وصلوا إلى منطقة يثرب فى

---

(١) عن أنساب الأوس والخزرج وبطونهم : انظر جمهرة أنساب العرب : ٣١٢ — ٣٤٧ . وعن توزيع مساكنهم انظر السمهودى : ١ / ١٣٦ ـ ١٥٢ . وانظر : أحمد الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول : ٢٩٣ ـ ٣١٣ .

خلال القرن الرابع (١) وعلى هذا فهم أحدث عهدا بالمدينة من اليهود ، ويقول صاحب الأغانى (٢) « إن الأوس والخزرج توجهوا بعد هجرتهم إلى المدينة ، وحين وردوها نزلوا فى حرار ، ثم تفرقوا وكان منهم من لجأ إلى عفاء من الأرض لا ساكن فيه ، ومنهم من لجأ إلى قرية من قراها فكانوا مع أهلها : فأقامت الأوس والخزرج فى منازلهم التى نزلوها بالمدينة فى جهد وضيق فى المعاش ليسوا بأصحاب نخل وزرع ، وليس الرجل منهم إلا الاعذاق اليسيرة والمزرعة يستخرجها من أرض موات . والأموال لليهود . فلبثوا بذلك حينا » .

وقد قنع الأوس والخزرج أول الأمر بأن سمح لهم اليهود بالإقامة فى منطقة المدينة ، ولعلهم لم يكونوا من كثرة العدد والقوة بحيث يخشى اليهود عاديتهم ، ثم تقارب الطرفان حتى رأوا أن يعقدوا بينهم حلفا يأمن به بعضهم من بعض ، ويمتنعون به ممن سواهم ، فتعاقدوا وتحالفوا ، واشتركوا وتعاملوا (٣) . وقد أتاح هذا الحلف للعرب أن يثبتوا مركزهم ويوسعوا دائرة أعمالهم ، فازدادت ثروتهم وكثر عددهم وأخذوا فى تنظيم أنفسهم . وتنبهت اليهود إلى ماطرأ على حلفائهم ، وأحسوا بخطورتهم ، وأدركوا أن الحلف إنما يسير إلى مصلحة جيرانهم ، فخافوا أن يتطور الأمر إلى أن يغلبوهم على دورهم ، فغيروا مسلكهم نحوهم وأساءوا معاملتهم وانتهوا إلى قطع الحلف معهم : عند ذلك ظهرت الفتن والعداوات بين الطرفين .

ولما كان اليهود أعد وأكثر فإن الأوس والخزرج أقاموا فى منازلهم خائفين أن تجليهم يهود ، ولم يكن أمامهم إلا أن يبحثوا لهم عن حليف ينصرهم إن ثارت الثائرة بينهم وبين اليهود . ولما كانوا فى بيئة ليس لهم فيها عصبية ؛ فقد اتجهوا إلى الغساسنة الذين

(١) محمد سديو (ص ٥١) هجرة الأوس والخزرج بسنة ٣٠٠ م واستيلاؤهم على يثرب سنة ٤٩٢ م .

(٢) الأغانى : ٩٦/١٩ (طبعة مصر) .

(٣) السمهودى : ١٢٥/١ — ١٢٦ .

كانوا مثلهم فرعا من الأزد وكان أمرهم قد علا فى الشام ، يستنصرونهم ، فأرسل الغساسنة قوة ضربت اليهود ، فتغير ميزان القوى فى يثرب ، وصار الأوس والخزرج أعز أهل المدينة ، فتفرقوا فى عالية يثرب وسافلتها ، يتبوؤون منها حيث شاءوا ، واتخذوا الديار والأموال والآطام (١) : واضطرت بطون اليهود إلى الدخول فى حلف مع جيرانهم من الأوس والخزرج ، ولم يبق إلا بنو قريظة والنضير الذين يبدو أنهم كانوا أصحاب قوة وأن حصونهم كانت منيعة فاعتمدوا عليها ولم يحالفوا أحدا منهم (٢) .

لبث الأوس والخزرج بعد تغلبهم على اليهود زمنا وكلمتهم واحدة وأمرهم جميع . لكن هذا الاتفاق بين قبيلتى العرب لم يكن ليستمر طويلا ، فإن العرب بعد أن أحرزوا النصر على اليهود وانتشروا فى منطقة يثرب يتبوؤون منها حيث شاءوا ، لم يسيروا على خطة مرسومة فى تملك الأراضى الزراعية ، وإنما جاء الأمر — فيما يبدو — على غير تقدير مرسوم ، فحدث أن احتل الأوس بقاعا أغنى وأخصب من الجهات التى نزلها الخزرج ، ولذلك كان حتما أن يقع الخلاف بينهم ، وحصل التنازع على نفس الغاية التى حدث عليها بين العرب واليهود من قبل . ولما كان من مصلحة اليهود ألا تظل كلمة العرب واحدة ، فيستمروا فى الضغط عليهم حتى يجلوهم نهائيا عن منطقة يثرب ، فإننا نرجح أنهم عملوا من جانبهم على الدس بينهم وتشجيع عوامل الفرقة ، وإذكاء روح التحاسد التى بدأت تظهر بين الأوس والخزرج حتى يشغلوهم بأنفسهم عنهم (٣) .

وقد بدأ التنازع بين الأوس والخزرج — بحسب الروايات — تنافسا قبليا على الرياسة وعلى احتلال مركز الصدارة فى يثرب (٤) . لكن الدوافع الحقيقية للنزاع كان مردها إلى الناحية

---

(١) انظر الأغانى : ١٩/٩٦ — ٩٧ (طبعة مصر) ابن خلدون : ٢/٢٨٧—٢٨٩ ابن الأثير : ١/٤٠٢ . السمهودى : ١/١٢٢ .

(٢) الأغانى : ٣/٢٤ .

(٣) انظر ابن هشام : ٢/١٨٣ — ١٨٤ .

(٤) انظر الأغانى : ٣/١٩ — ٢٦ ، ٤١ — ٤٢ ؛ ابن الأثير : ١/٤٠٢— ٤١٨ .

الاقتصادية ، وزادها تعقيدا وقوع الدماء بين الطرفين حتى شبت البغضاء فى نفوسهم وعمكنت العداوة بينهم ، فتتالت الوقائع بين الطرفين فى مظهر من التنافس القبلى ، وقد شاركت فيها كل البطون اليثربية من العرب ومن اليهود على السواء، ويقول أصحاب الأخبار(١)، إن هذا الصراع استمر أكثر من مائه عام ، وقد بدأ بحرب على تأكيد السيادة عرفت بحرب «سمير» بين الأوس والخزرج ، وكانت آخر الوقاع حربا عامة بين كل طوائف المدينة عرفت بحرب «بعاث» قبل الهجرة بخمس سنوات . وقد بدت فى هذه الحرب الأخيرة الدوافع الاقتصادية واضحة . وحتى بين بطون القبيلة الواحدة أو بين عشائر البطن الواحد لم تستطع لحمة الدم أن تتغلب على الدوافع الاقتصادية . وإذا كانت بطون الأوس أو بطون الخزرج تتجمع كل منها تحت راية قبيلته فى النزاع العام بحكم رابطة الدم ، فإنه كثيرا ما كانت بطون من الطرفين ترى أن مصلحتها الاقتصادية تقتضيها التزام جانب الحياد ، كما أن عشائر البطن الواحد كثيرا ما كانت تتازع فيما بينها ، فيحاول بعضها أن يستولى على ما فى يد الآخر من الأراضى والدور(٢) .

وهكذا كانت مدينة يثرب تغلى بالخلافات وتضارب المصالح والأهواء ، لكن حرب «بعاث» أصابت الفريقين بأضرار كبيرة ، فقد قتل فيها عدد كبير من سروات القوم جميعا ورؤسائهم ، وأصيبت الممتلكات بأضرار فادحة نتيجة ما كان يستتبع الحرب من تقطيع الأشجار وتحريق النخيل والبيوت . الأمر الذى جعل الناس يفكرون فى وضع حد لهذه المنازعات ، فبدأت الأفكار تتجه إلى إيجاد جو من السلام ينصرف فيه الناس لأعمالهم ويتذوقون لذة الراحة وهناء العيش . لذلك سعى كثير من الزعماء وذوى النفوذ من الطرفين لكف كل من تحدثه نفسه بمحاولة إثارة الفتنة وإيقاد نار العداوة ، وبدا فى البطون اليثربية ميل عام نحو الاتحاد حتى ليقال إنها اتجهت إلى تكوين نوع من الحكم تجعل على رأسه رجلا من الخزرج ، هو عبد الله ابن أبى بن سلول الذى وقف فى النزاع الأخير موقف

---

(١) انظر ابن الأثير : ٤٠٢/١ — ٤١٨ . السمهودى : ١٥٢/١ .

(٢) انظر السمهودى : ١٣٦/١ ، ١٤٦ .

الحياد ، حتى اتجهت إليه الأنظار كرجل يمكن أن يكون واسطة التجميع وحل النزاع ، كما يحدثنا ابن إسحاق[1] « وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وسيد أهلها عبدالله بن أبي ابن سلول العوفي ثم أحد بني الحبلي ، لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان ، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين . فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله صلى الله عليه وسلم وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استلبه ملكا ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرا على نفاق وضغن » .

فكأن أهل يثرب على اختلاف قبائلهم وكثرة نزعاتهم قد سئموا حالة العداوة ، وأحسوا بالحاجة إلى من يخرجهم منها ويوجه نشاطهم إلى ما هو أجدى عليهم وأنفع .

وإذا كانت يثرب قد اختلفت عن مكة في ظروفها الداخلية فإنها كذلك كانت تختلف عنها في علاقاتها الخارجية وفي وضعها الاقتصادي .

فأما علاقات يثرب بجيرانها من القبائل العربية فإنها كانت تخضع للخصائص العامة للصلة بين البيئات الزراعية وبين جيرانها من البدو الرحل ، وهي العلاقات المزعزعة التي تتسم عادة بالحذر والتربص ، فالبدو دائما يطمعون في خيرات هذه المناطق الخصيبة ، وهم ينتهزون كل فرصة تسنح للاغارة عليها لسلب ما تقع عليه أيديهم من حاصلاتها ومواشيها . وقد انطبعت علاقات المدينة مع جيرانها بهذا الطابع ، وما الإكثار من إقامة الحصون والآطام في كل أنحاء منطقة يثرب إلا مظهر من مظاهر هذه العلاقات بين هذه المنطقة الزراعية وبين جيرانها من القبائل البدوية الضاربة حولها ، وهو إجراء دفاعي فرضه ما كان يقع على منطقة يثرب من غارات على الممتلكات والحاصلات . وإذا كانت المصادر لم تحدثنا عن هذه الغارات ، فإننا نستطيع أن نستشفها من خلال الروايات التي ذكرها المؤرخون[2] عن الأحداث التي وقعت في عهد الاسلام والتي يتحدث فيها أهل يثرب عما كانت تلقاه بلدهم من غارات الأعراب عليها ، وكان أهل المدينة يصدونها

---

(١) ابن هشام : ١/ ٢١٦ .

(٢) انظر ابن هشام : ٣/ ٧ ، ٢٣٩ . الواقدي : ١٦٤ — ١٦٦ ابن سعد : ٣/ ١١١ . إمتاع الأسماع : ١/ ١١٦ ، ٢٣٦ .

بقوة السلاح وبالاعتماد على الحصون والآطام يحتمون بها ويتخذونها مخازن لحفظ حاصلاتهم وكانت الآطام هى عزهم ومنعتهم ، وحصونهم التى بها يتحرزون فيها من عدوهم [١] .
وكان أهل يثرب أهل قوة وجلد وبصر بالحروب ، عرسوا عليها فيما وقع بينهم من صراع وأيام ، وفيما حدث بينهم وبين جيرانهم من احتكاك ، وقد عرفت لهم العرب أن مدينتهم دار منعة ، وهم قوم أهل حلقة وبأس ، وقد كانوا يعتدون بأنفسهم حتى لا يبالون بعداوة من عاداهم ، يشهد بذلك إقدامهم على مخالفة النبى ودعوته للخروج إلى بلدهم فى الوقت الذى خشيت فيه قبائل العرب الإقدام على هذا الموقف ؛ إشفاقا من عداوة قريش وما يترتب عليها من عداوة العرب معها [٢] .

ولقد كانت يثرب تملك من القوة الحربية ما تستطيع به فعلا أن تحمى نفسها وأن ترد عادية القبائل عنها ، ومن المعارك التى خاضها الأنصار بعد الهجرة نستطيع أن نعرف عدد محاربيها ، فعند فتح مكة كان المحاربون من عرب المدينة أربعة آلاف [٣] ، وكان عدد الرجال البالغين من قبائل اليهود الثلاثة الكبرى حوالى الألفين [٤] . هذا بالإضافة إلى أعداد البطون الصغيرة من اليهود ؛ فكأن يثرب كانت تستطيع أن توجه إلى ميدان القتال عند الضرورة ستة آلاف محارب ، وإن لم يتحقق هذا العدد فى معركة من معاركها وذلك للصراع الداخلى بين بطونها ، ولأن موقفها بالنسبة لجيرانها كان موقفاً دفاعيا ، فلم تذكر المصادر أن أهل يثرب قاموا فى الجاهلية بغزو خارجى .

وقد كان رجال يثرب مرهوبى القوة على جانب عظيم من الشجاعة وقوة البأس تشهد بذلك مواقفهم فى معارك الإسلام ، كما يشهد بذلك تقدير قريش لبأسهم وخوف زعمائها منهم فى معركة بدر على الرغم من قلة عددهم فيها [٥] . وكان لديهم من عدة الحرب

---

(١) الأغانى . ١٣/١١٨ (طبعة مصر) .
(٢) انظر ابن سعد : ١/٢٠٦ — ٢١٢ .
(٣) إمتاع : ١/٣٦٤ .
(٤) نفس المصدر : ١/١٠٥ ، ١٨٦ ، ٢٤٩ .
(٥) انظر الواقدى : ٤٤ ، الطبرى : ٢/٤٤٢ .

وسلاحها ما يستطيعون به تسليح قوة مرهوبة ، فقد كانت المدينة موطنا من مواطن صناعة الأسلحة وبخاصة صناعة الدروع التى اشتهر بصناعتها اليهود وروجوا لها بأنهم ورثوا صناعتها عن داود النبى[١] ، كما كانت يثرب مشهورة بصناعة السهام حتى قالوا إن أجود السهام سهام يثرب[٢] ، وكانت عدة الحرب عزيزة عند أهل يثرب من يمتلكها لا يبيعها ولا يراها تفضل عنه[٣] ، لشدة حاجتهم إليها فى الدفاع عن أنفسهم حتى ليرونها عديل الولد[٤] . ولولا خلافات يثرب الداخلية التى مزقت وحدتها وشتت جهودها لكان من الممكن أن يكون لها شأن خطير فى الجاهلية ، ولكان من الممكن أن تكون منافساً خطيراً لمكة ، ولربما تغلبت عليها كما حدث بعد الهجرة .

ولما كانت العلاقات بين يثرب وجيرانها من البدو تتسم بسمة الحذر والتربص ، ولما كان أهلها يعيشون فى جو ليس لهم فيه عصبية نسبية ، فإن علاقاتها بالقبائل كانت محدودة ، لا يربطها معها إلا ظروف الأخذ والعطاء من بيع وشراء مع القبائل المجاورة لها . ولم نر ليثرب محالفات واسعة مع القبائل العربية البعيدة عنها ، مما يدل على أن نشاط يثرب كان محدودا فى الجزيرة العربية ، وأنها كانت مشغولة بظروفها الداخلية وبنشاطها الزراعى فلم تتوسع فى نشاطها الخارجى .

وكانت علاقة أهل يثرب بالمدن الحجازة جميعاً طيبة ، فكانت علاقتهم حسنة مع مكة والطائف وخيبر ، حيث كانوا يتبادلون المنافع .

وكما كانت علاقة يثرب محدودة مع قبائل الجزيرة العربية ، كذلك كانت علاقاتها ضعيفة أو منعدمة مع الممالك والدول على أطراف الجزيرة وخارجها ، فلم تحدثنا المصادر بشىء عن علاقات قامت بين أهل يثرب وبين الفرس والروم ، ويرجع ذلك إلى

---

(١) المفضليات : ١/٥٧ .
(٢) ديوان الأعشى : ٩٨ .
(٣) الأغانى : ١٣/١٢٠ (طبعة مصر) .
(٤) انظر ابن هشام : ٢/٤٣٧ .

أن نشاط يثرب فى التجارة الخارجية كان غير محسوس ، وعلاقة يثرب باليمن وإن كانوا ينتمون فى نسبهم إليها — قد توقف بعد زوال النفوذ اليمنى واحتلال عرب الشمال مركز الصدارة ، أما علاقاتها بالغساسنة فقد كانت ضئيلة ولم نر لهذه العلاقة أثراً بعد استنجاد الأوس والخزرج بهم ، وإن كانت المصادر[1] تحدثنا عن وفادات لشاعر المدينة حسان ابن ثابت على ملوك غسان ومدحه لهم وصلاتهم له .

وكما أن يثرب أختلفت عن مكة فى ظروفها الداخلية وعلاقاتها الخارجية ، فإنها اختلفت عنها فى حالتها الاقتصادية ، فبينما كانت مكة تعتمد اعتماداً كليا على التجارة كانت الحالة الاقتصادية فى يثرب متعددة الجوانب . فالمدينة تقع فى منطقة خصيبة تسيل فيها الوديان بما يغذيها بالمياه الكافية لقيام زراعة جيدة فيها ، إلى جانب الآبار التى كثرت فى منطقتها والتى حفرها السكان للانتفاع بمياهها للشرب والسقى ، ولذلك عمل أهلها بالزراعة واتخذوا منها حرفتهم الرئيسية ، فقد كانت خصوبة التربة تغنيهم عن الضرب فى الأرض ابتغاء الرزق بوجه الإجمال . وأهم مزروعات المدينة أشجار النخيل يزرعونها فى مغارس كبيرة ، وقد يحيطونها فتكون حدائق ، وعلى إنتاج النخيل كان السكان يعتمدون فى طعامهم ، كما كان به التعامل بينهم ، فتدفع منه الأجور وتسدد الديون[2] ، كما كان يقوم على النخيل صناعة محلية تسد كثيراً من أغراض السكان فى بيوتهم وأعمالهم[3] . وتمر المدينة متعدد الأنواع يبلغ بعضه حداً كبيراً من الجودة[4] . والشعير هو الغلة الثانية بعد التمر ، وبينما كان محصول التمر يكفى حاجة السكان ويسمح ببيع الفائض ، كان أهل يثرب يستوردون بعض الحنطة لسد حاجتهم[5] . وإلى جانب هاتين الغلتين الرئيسيتين كان

---

(١) الأغانى : ١٤/٢ — ٣ (طبعة مصر) .

(٢) انظر البخارى : ٣/٦٣ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٧١ ، ١١٧ ، ١٣٧ التراتيب الإدارية : ١/٤٠٠ — ٤٠٣ .

(٣) الدلالات السمعية : ٦٦٩ .

(٤) انظر البخارى : ٣/٥٧ — ٥٨ ، ٦٧ ، ٧٨ ، الواقدى : ٢٨٩ .

(٥) انظر البخارى : ٣/٥٥ — ٦٦ .

يزرع قليل من القمح والكرم وبعض أنواع الفاكهة الأخرى ، كما كانت تزرع بعض الخضراوات والبقول .

وإلى جانب الزراعة كان يقوم الرعى ، ولكن على نطاق ضيق ، إذ لم تكن أرض المدينة أرض رعى ، وكانت المناطق الخارجة عنها فى حوزة القبائل المتبدية ، ولذلك قلت ثروة المدينة الحيوانية .

وإلى جانب الزراعة فى يثرب كانت التجارة ، وإذا كان أهلها يعيشون على غلات الأرض والبساتين ، وكانت خصوبة التربة تغنيهم عن الضرب فى مناكب الأرض ابتغاء الرزق ، فإن طبيعة كون بلدهم مدينة وحولها القرى والأعراب لا بد أن تجعل فيها حركة تجارية ، وأن يكون من أهلها من تفرغوا لأعمال التجارة . وقد وردت فى القرآن الكريم[1] آيات مدنية كثيرة فيها بعض الأوامر والنواهى والتشريعات مما يلهم أنه كان فى المدينة حركة تجارية غير ضعيفة قبل الإسلام .

وقد كانت التجارة الداخلية فى يثرب نشيطة وكان الأخذ والعطاء والتعامل فيها كبيرا سواء بين أهلها أنفسهم ، أو بينهم وبين جيرانهم من الأعراب الذين يفدون على المدينة للامتيار منها ، ولتصريف منتجات البادية من إبل وغنم وخيل ، وصوف ووبر وسمن وأقط وغير ذلك . وكان بالمدينة عدة أسواق للبيع والشراء فى منتجات المدينة ومجلوبات أهل البادية[2] كما كانت بها سوق عظيمة لبيع الحلى التى تخصص يهود بنى قينقاع فى صناعتها[3] .

وإذا كان سكان يثرب قد عملوا بالزراعة وكانت موردهم الرئيسى ، وإذا كانوا قد شغلوا بحروبهم وخلافاتهم الداخلية ، فليس معنى ذلك أنهم أهملوا التجارة ، وقد قلنا إنه كانت لهم تجارة نشيطة فى الداخل ، ومن المحتمل أنهم زاولوا التجارة الخارجية وإن لم يضربوا فيها بسهم وافر مثل أهل مكة الذين كانت المورد الأساسى للرزق عندهم . فقد كانت يثرب على طريق القوافل التجارية ، فمن المستبعد أن يبقى تجارها فى غفلة عن الأسفار

---

(١) البقرة : ٢٨٣ . النساء : ٢٩ . التوبة : ٢٤١ . النور : ١٦ . الجمعة : ٩ — ١١ .

(٢) انظر السمهودى : ١/٥٤٠ ، ٥٤٤ — ٥٤٥ . ياقوت : ١٢٨/١٣ البخارى: ٦٢/٣ .

(٣) الأغانى : ٢١ / ٦٢ (طبعة مصر) .

التجارية ، وإذا كانت المصادر لم تحدثنا عن قوافل تجارية المدينة اتجهت إلى الشام أو إلى اليمن ، فمن المؤكد أن قوافل مكة كانت تمر بالمدينة وأن أهل المدينة كانوا يتعاملون مع هذه القوافل المكية(١) . كما كانوا يرحلون إلى الأسواق العربية فى عكاظ ومجنة وذى المجاز فى موسم الحج يبيعون فيها ويشترون(٢) ، كما كانو يستوردون ما يلزمهم من الملابس وأدوات الزينة ، وما يحتاجون إليه من الزيت والزبيب والنبيذ من الشام ومن اليمن ، كما يستوردون المطرز والمسك من دارين فرضة البحرين التى كان يحمل إليها المسك من الهند(٣) ، ثم هم كانوا فى حاجة إلى تصريف مالديهم من صناعات وبخاصة صناعة الحلى فى أسواق العرب أو فى الأسواق الخارجية ، ثم يستجلبون ما يلزمهم من خامات الذهب والحديد وغيره مما يلزم لصناعاتهم .

وكان أنباط الشام يأتون إلى المدينة بقوافلهم تحمل الحنطة والزبيب والزيوت ، وكثيرا ما كان أهل يثرب يدفعون لهم مقدما ثمن البضائع ليضمنوا ورودها(٤) .

والأرجح أن أهل المدينة كانوا يرحلون لجلب مايلزمهم من الشمال أو من الجنوب ، وكما كانوا يسافرون بالبر كذلك كانوا يتاجرون عن طريق البحر عن طريق فرضة المدينة « الجار » التى كانت ميناء هاما حتى سمى الجزء من البحر الأحمر من جدة إلى أيلة باسمها(٥) .

وإذا كانت يثرب — نظراً لظروفها الداخلية — لم تستطع منافسة مكة فى مجال التجارة بوجه عام فى الفترة التى سبقت الإسلام ، فإنها مالبثت أن نافستها منافسة خطيرة بعد الهجرة وقيام الدولة الإسلامية بها .

والمدينة كانت أظهر من مكة فى مجال النشاط الصناعى ، فقد كانت تقوم بها صناعة معتمدة على الانتاج الزراعى ، كما كانت أيضاً ضرورية للأعمال الزراعية ، فأعمال الحدادة

(١) انظر ابن هشام : ١ / ١٤٨ ، ١٧٩ .
(٢) البخارى : ٣ / ٦٢ .
(٣) الدلالات السمعية : ٦٤٣ .
(٤) انظر البخارى : ٣ / ٥٥ — ٥٦ ، ٨٥ — ٨٧ .
(٥) انظر البخارى : ٣ / ٥٦ . ياقوت : ٥ / ٩٢ — ٩٣ .

والتجارة والخواصة كانت نشيطة فى المدينة[١] . كما كانت تقوم صناعة الحلى التى احترفها اليهود من بنى قينقاع وتخصصوا فيها ، ولم يحترفها معهم أحد من العرب[٢] وكانوا يصنعون أنواعا كثيرة منها من الذهب والفضة والجوهر والجزع ، ويبيعون هذه الحلى فى سوق عرفت بهم يأتيها الناس يأخذون ما يلزم لنسائهم ، سواء فى ذلك أهل المدينة أو أهل البادية أو المدن الحجازية .

كما كانت صناعة الأسلحة قائمة بالمدينة ، من دروع احترف اليهود صناعتها وروجوا لها ترويجا كبيراً[٣] ، وسيوف ونبال ، وقد تخصص بعض الصناع فى جلاء الأسلحة وصقل السيوف[٤] ، ثم كانت هناك أدوات الصيد يصنعونها من فخاخ وشباك وشراك من الحديد وغير ذلك[٥] وإلى جانب هذه الصناعات الهامة كانت صناعة النسيج يقوم عليها النساء ، كما كانت الخياطة والدباغة من الصناعات التى يحترفها الناس[٦] . كما كان يوجد بناءون وعمال يقومون على النحت وضرب الطوب ، وصناع يصنعون آنية المنازل وأدواتها مما هى من مستعملات الناس وحاجاتهم اليومية .

وهكذا كانت الصناعة كثيرة فى المدينة . ولولا ظروف المدينة الداخلية التى عوقتها وحدت من نشاطها لكانت مدينة ذات شأن خطير ، ولربما تفوقت على مكة وسيطرت على الحجاز كله . وقد أحس أهلها مدى أثر هذه الخلافات المعوقة وسعوا إلى إصلاح شأنهم . ولما لم يكن من زعماء المدينة من يستطيع أن يكسب رضاء الأطواف المختلفة بها ، فقد رغبوا فى إدخال عنصر أجنبى محايد لم يتورط فى منازعات المدينة وخلافاتها العصبية ، فكانت الهجرة النبوية التى تغير بها الوضع فى يثرب تغيرا كاملا .

---

(١) انظر : البخارى : ٣/٦٠ ، ٦٣ — ٦٤ ، ١١٤ . أسد الغابة : ١/٣٨—٣٩، ٤٣ . إمتاع : ٥/٢٤٥ . الدلالات السمعية : ٦٥٧ — ٦٥٨ . الاستيعاب : ١/٥٥ .

(٢) انظر الواقدى : ١٣٨ — ١٤٠ .

(٣) السمهودى : ١/١٩٨ .

(٤) الدلالات السمعية : ٤٠١ .

(٥) نفس المصدر : ٦٧٦ — ٦٧٧ .

(٦) ابن سعد : ١/٢١٢ . البخارى : ٣/٦١ .

الفصل الرابع

ظهور الإسلام وموقف قريش من الدعوة الإسلامية

استطاع الحجاز أن يجعل من نفسه إقليما مرموقا تتجه إليه أنظار العرب ، بما قام فيه من حركة قوية قوامها التجارة التى انتقلت إلى يد الحجازيين بعد سقوط اليمن واضطراب أحوالها الداخلية ، ثم قيام التجمعات الكبرى فى الحجاز بقيام الأسواق العامة فى منطقة مكة فى موسم الحج إلى البيت الحرام ، وهو البيت الذى التفت قلوب العرب حوله واتجهت إليه عواطفهم وأصبح الحجاز بذلك مركزا للتجمع العربى ، الأمر الذى وجه أطماع الدول الكبرى إليه . وقد استطاع الحجاز أن يحبط مشروعات هذه الدول حين أحبط الحملة الحبشية على مدينة مكة فى عام ٥٧٠ م(١) ، وحين رفض رجال هذه المدينة قبول أى نوع من التبعية لإحدى الدول برفضهم المحاولة التى قام بها الروم لبسط نفوذهم الأدبى عليها(٢). وحين نجح الحجاز فى ذلك كان أكبر قدوة ، فاتجهت أنظار العرب إليه ، وعلت منزلة قريش — وهى القبيلة المسيطرة على مكة — الأدبية علوا كبيرا بين القبائل العربية(٣) ، وكان على قريش أن تدعم هذا المركز وتعمل على ربط جميع القبائل حوله .

وقد أدى قيام التجمعات العربية الكبيرة فى الأسواق العامة التى كانت تعقد حول مكة فى موسم الحج إلى أن أخذ اللسان العربى يتسم بسمة الاستقرار على لهجة واحدة يتغلب بها على ما كان فى مختلف أجزاء الجزيرة العربية من اللهجات الخاصة ، ذلك أن هذه الأسواق التى كان أشهرها وأعظمها سوق عكاظ بين مكة والطائف ، لم يكن يقتصر فيها على البيع

---

(١) القرآن الكريم : سورة الفيل . : ابن هشام : ١/٥١ ، ٥٩ اليعقوبى : ١/٢٠٩ — ٢١٠ ، ٢/٧ — ٨ .

(٢) انظر ابن هشام : ١/٢٤٣ . الروض الأنف : ١/١٤٦ . الأغانى : ٣/١١٢ . ابن كثير : ٢/٢٤٣ . المحبر : ١٧١ .

Lammens, La Mecque. PP. 270—279, 366—375. Watt, Muhammad at Mecca, P. 15.

(٣) ابن هشام : ١/٥٩ :

والشراء كما يفهم من كلمة السوق ، وإنما تعدت ذلك إلى أمور أخرى لا علاقة لها بالسوق التجارية ، وهى المفاخرات والمباهاة والمسابقات فى قول الشعر وإلقاء الخطب والمواعظ ، فكان كل صاحب رأى أو فكرة يجد فى مجالها فرصة لعرض رأيه أو الدعاية لفكرته ، وإلى جانب ذلك كثيراً ما كانت تعقد فيها مجالس الصلح والتحكيم بين القبائل فتحل المشاكل المعقدة والناس مطمئنون إلى حرمة الأشهر الحرم التى تعقد فيها السوق ، فهى مجتمعات سياسية ذات أهمية ، ومؤتمرات تقرر فيها كثير من الأمور التى لها صلة بسياسة القبائل وبصلاتها بعضها ببعض ، إلى جانب أنها مؤتمرات فكرية وأدبية ، كما كانت ساحاتها حلقات رياضية للسباق والفروسية والمصارعة والمناضلة ، فكانت فى الحقيقة منتدى عاما يحوى كل النشاط الإنسانى فى الجزيرة العربية . ولابد لهذا الجمع العام من لغة موحدة يتفاهم بها الجميع ، ولما كانت قبيلة قريش هى صاحبة المقام الأول فى هذه الاجتماعات الحاشدة بصفتها القبيلة التى تمسك بزمام الحركة التجارية ، فإن طبيعيا أن تكون لهجة قريش هى اللهجة التى يمكن أن تكون وسيط التخاطب بين الجميع ، ومن ثم نظم بها الشعراء قصائدهم . ولما كان الشعراء ذوى سلطان لا يبارى فى الحياة العربية فقد بدوا قادة الرأى فى القبائل العربية ، يستطيعون بقصائدهم أن يرفعوا أقواما ويخفضوا آخرين ، فيخشاهم الناس ويجلونهم ، وأصبحت قصائد الشعر سجلا لتاريخ القبائل العربية وفعالها ، يتغنى بها الناس فى أنديتهم الخاصة وأحيائهم ويحفظها أو يحفظ بعضا منها الكبير والصغير ، ومن ثم أخذت قصائد الشعر تطبع اللغة العربية بطابع الوحدة وتعين على استقرار اللسان العربى على لهجة يفهمها الجميع .

وفى نفس هذا الوقت كان الميل الروحى لدى العرب يتجه نحو غاية واحدة ، ذلك أن العرب كانوا وثنيين ، فلما اتصلوا بالأمم ذات الأديان الراقية ، اكتشفوا ما فى الوثنية من عجز عن إشباع الشعور الدينى فى الإنسان . والأديان السماوية قد دخلت الجزيرة العربية منذ وقت مبكر ، فكانت النصرانية منتشرة فى شمال شبه الجزيرة وشمالها الشرقى كما كانت منتشرة فى اليمن وكان لها مركز هام فى نجران ، وقد اتسع نطاقها بعد

الفتح الحبشى[1] . وكانت اليهودية معروفة فى القسم الشمالى من الجزيرة ولها مراكز فى شمال الحجاز ، فيثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى كانت يهوديه ، كما كانت كذلك معروفة فى اليمن وكانت تصارع المسيحية هناك حتى الفتح الحبشى[2] . وكان من المتوقع أن يدخل العرب فى أحد الدينين ، لولا أنهم بدأوا نهضة قومية ، وكانوا ينظرون إلى الوثنية على أنها رمز لقوميتهم ، وقد كان من عادة الأمم فى تلك العصور أن تعتبر ملتها أو نحلتها موضع كبريائها ورمزاً لشخصيتها وعنوانا على ثقافتها . ومن أجل ذلك بحث عقلاؤهم عن الحنيفية دين إبراهيم الذى كانوا يعدونه أبا لهم[3] . هذا إلى ما لحق الديانات الأخرى من تفرق واختلاف بين طوائفها ، ولا بد أن العرب كانوا على صلة بأهل هذه الديانات وعلى معرفة بالخلافات بين طوائفها ، الأمر الذى جعلهم يتندرون بأصحابها وينعون عليهم اختلافهم . ويتطلعون إلى ظهور نبى منهم ، ويقسمون أنهم لو جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم[4] . وفى هذا الوقت الذى تبدو فيه الوحدة الدينية مفقودة بين العرب والمعتقدات تتداعى فى كل ناحية ، ينطلق ذوو المواهب من المصلحين يدعون قومهم إلى نبذ عبادة الأصنام والبحث عن الحنيفة دين إبراهيم عليه السلام ، ولكنهم حين يدركون العجز فى أنفسهم عن تحقيق ما أرادوا يعلنون قومهم بأنه سيظهر نبى — قد أظل زمانه — من بين العرب يهدى الناس إلى الصراط المستقيم[5] .

وبينما كانت النفوس تميل إلى الوحدة فى داخل الجزيرة العربية ميلا عاما ، كانت

---

(١) سورة البروج : ٤ — ٨ . ابن هشام : ١/٣٥ ، ٤٣ . جواد على : ٦/٥٧ — ٦٠ صديو ٥٦ — ٥٧ .

(٢) سديو : ٥٦ — ٥٧ .

(٣) ابن هشام : ١/٢٤٢ — ٢٥٠ . أسد الغابة : ٢/٢٣٦ . الروض الأنف : ١/١٤٦ ، المحبر : ١٦٥ — ١٧٠ .

(٤) سورة فاطر : ٤٢ .

(٥) المسعودى : ١/٦٢ — ٧٥ .

الظروف الخارجية تسير فى صالح العرب ، فإن الصراع القاسى الذى كان محتدما بين الدولتين الكبيرتين المتحكمتين فى سياسة العالم وقتذاك — الفرس والرم — على حدودهم أنهك الطرفين على السواء[1] ، وشغل أنظارهما عما يجرى فى داخل الجزيرة العربية ، فأعطى الوحدة العربية فرصة طيبة لكى تتم بعيداً عن كل تدخل خارجى . ولم يكن ينقص هذه الوحدة لكى تتم إلا وجود الزعامة الدينية التى تستطيع أن تجمع عناصرها ، فتضيف إلى وحدة الجنس ووحدة اللغة والاتحاد فى الشعور ، وحدة الدين ، لتنطلق النفوس إلى تحقيق غاية واحدة .

فالأمر إذن يتطلب زعامة دينية ؛ إذ أن العرب « لخلق التوحش الذى فيهم أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض ، للغلظة وبعد الهمة والمنافسة فى الرياسة فقلما تجتمع أهواؤهم . فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم ، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم ، فسهل انقيادهم واجتماعهم ، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة ، الوازع عن التحاسد والتنافس ، فإذا كان فيهم النبى أو الولى الذى يبعثهم على القيام بأمر الله ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق ، ويأخذهم بمحامدها ، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق ، تم اجتماعهم وحصل لهم التغلب والملك . وهم مع ذلك أسرع الناس قبولا للحق والهدى ، لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتها من ذميم الأخلاق ، إلا ما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المتهيء لقبول الخير ببقائه على الفطرة الأولى ، وبعده عما ينطبع فى النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات »[2] .

وقد أدرك العرب فى الجاهلية ضرورة قيام النبوة فيهم حينما ظهرت فيهم عوامل النهضة وتطلعوا إلى الوحدة ، والدليل على ذلك أنهم كانوا — حسب تفكيرهم — يتحدثون عن علامات ونذر تنبيء عن قرب ظهور نبى منهم ، وقد روى القدماء معجزات ونذرا

---

(١) أومان : الامبراطورية البيزنطية : ٩٤ ، ١٠٠ — ١٠٩ ، ١٢٤ . كرستنسن : إيران فى عهد الساسانيين : ٣٠٨ ، ٤٣١ .

(٢) ابن خلدون : المقدمة : ١٦٨ .

قالوا إنها وقعت قبل ظهور الإسلام إرهاصا به ومنبئة بقرب ظهوره[١] ، وتلك الروايات إن صحت كانت دليلا على أن الجاهليين تطلعوا إلى الإصلاح وإلى ظهور مصلح من بينهم يأتى فى شخص نبى . ومع وجود الديانات السماوية فى جزيرة العرب إلا أنهم كانوا يريدون نبيا منهم يأتى بديانة جديدة تخالف الديانات التى دب الخلاف بين طوائفها . ومن أجل ذلك بحث عقلاؤهم عن الحنيفية دين إبراهيم ، وتطلعوا إلى ظهور نبى منهم ، وقد ظهرت حركة التحنف قبل الإسلام مباشرة ، فكانت رمزا إلى أن الروح العربى كان يتلمس يومئذ دينا آخر غير الوثنية ، والإسلام حين جاء كان معبراً عن شعور العرب بالوحدة ، ومعبراً عن ميلهم الروحى ، وكان دليلا على نضوج دينى فلسفى استعد له العرب فى القرون المتطاولة السابقة .

ولما كان كل أمر تحمل عليه الكافة لا بد له من عصبية قوية تنصره ، كان لا بد أن يكون النبى المنتظر من قوم ذوى منعة ، وقد ورد فى الحديث الصحيح « ما بعث الله نبيا إلا فى منعة من قومه »[٢] ، «وكانت قريش عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم وكان لها على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف ، وكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكينون لغلبهم ، فإذا انتظمت كلمة قريش انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع فأذعن لهم سائر العرب »[٣] . ولهذا تطلع الناس إلى هذه القبيلة التى اكتمل لها هذا الوضع ، وترقبوا ظهور الزعيم النبى منها .

فى هذه البيئة العربية الخالصة ، وفى هذه الظروف المواتية ، ومن بين رجال تلك القبيلة التى تعظمها العرب ، ظهر ذلك النبى الذى كانت تتطلع إليه النفوس ، فى مكة ومن قريش ظهر محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم نبيا يدعو إلى رسالة جديدة جوهرها الإقرار بألوهية إله واحد ، هو الله الخالق المبدع الذى تنزه عن المشاركة والمصاحبة وتفرد

---

(١) انظر ابن هشام : ١/٢٢١ — ٢٤٢ . ابن سعد : ١/١٤٣ — ١٥١ .

(٢) المقدمة : ١٧٦ . البخارى : ١/٥ .

(٣) المقدمة : ٢١٦ — ٢١٧ .

بالربوبية(١) . ونبذ ماعدا ذلك من أصنام وأوثان وكل ما يلقى ظلا من المشاركة مع الله .
وأن الناس كلهم أبناء أب واحد وأم واحدة ، لا فضل بينهم إلا بما يقدم أحدهم
من عمل صالح يرضى الله ويعود على الإنسانية بالخير(٢) فالناس جميعا سواء أمام الله مهما
اختلفت أجناسهم أو مراكزهم الاجتماعية ، ويجب لذلك أن يتساووا فى الحقوق والواجبات
بصفتهم إخوة فى الإنسانية ، وبصفتهم عباداً لرب واحد . وأن النبى جاء ليقيم العدالة
ويتمم مكارم الأخلاق .

وقد بدأت الدعوة إلى الإسلام ذات صفة دينية فى الدور المكى من حياة النبى ،
أما الصفة السياسية فلم تظهر إلا فى الدور المدنى ، وهذا أمر طبيعى ، إذ أنه لا بد من أن
يبدأ بتقرير العقيدة ، ثم بث المثل العليا فى النفوس ، حتى إذا ما تهيأت لذلك أمكن
تنظيم المجتمع على هذا الأساس .

وقد بدأت دعوة النبى فترة من الزمن محصورة فى نطاق ضيق من أسرته وأصدقائه
الأقربين ، ولكن ما لبث نطاقها أن اتسع شيئا فشيئا بين أهل مكة ، فقد أخذ الذين
أسلموا من أصدقاء النبى يكتسبون أصدقاءهم حتى أصبحت الدعوة عامة علنية . وإذا كان
النبى قد بدأ بضم أفراد إلى دعوته ، فإنه فى الحقيقة كان يرمى إلى ضم الجماعة المكية
كلها ، حتى إذا ما أسلمت قريش كانت نواة لحركة شاملة تضم العرب جميعا ، ثم تتجه
إلى اتساع دوائرها حتى تشمل الناس كافة ، وكان لزاما أن تساير الرسالة فى ظروف الدعوة
إليها ، ظروف التكوين العربى ، الذى كان أساسه قبليا تقوم الروابط فيه على أساس
لحمة الدم والنسب ، وإذا كانت الرسالة التى جاء بها النبى عامة ومن ثم كان لزاما أن تحطم
رابطة الدم بما لها من عصبية ضيقة ، فإنه لم يكن من المستطاع تجاهل ما لها من قوة
ورسوخ فى المجتمع العربى ، ولم يكن من المفيد الإعراض عما فيها من روابط قوية
تجعل أفراد الوحدة الواحدة كالجسد الواحد فى ترابطهم ، بل كان من الأفضل الانتفاع
بقوة الروابط القبلية لتوسيع دائرة الأمة الجديدة بضم عناصر متكاملة إليها .

---

(١) سورة : الاخلاص .
(٢) سورة الحجرات : ١٣ .

ولذلك فقد أمر النبي أن يدعو عشيرته الأقربين[١] ، لأنهم بحكم عصبية القرابة والرحم سيؤازرونه ويكونون عونا له وحماية فى وجه العصبيات الأخرى ، ثم أمر بعد ذلك أن يدعو مكة ومن حولها[٢] ، وحين نقول مكة نعنى قريشا ومن معها من مواليها وأتباعها . فالانتقال من عصبية العشيرة إلى عصبية القبيلة أمر جرى عليه التكوين الاجتماعى عند العرب . ثم أمر أن يدعو من حول مكة من قبائل أى أن ينتقل إلى عصبية التحالف القبلى وعصبية الشعب ، ثم يخرج إلى المجال العالمى فيدعو الناس جميعا . وكان من المنتظر أن تؤمن به العشيرة ثم القبيلة ، لكن الذى حدث كان غير ذلك ، فإن العصبية الرحمية والقبلية وقفت فى طريقها عصبية أخرى هى عصبية التقاليد والعادات الموروثة ، وكان الناس فى ذلك الوقت يتعصبون تعصبا شديدا لموروث عاداتهم وتقاليد آبائهم ، ويرونها دينا من أمر الله « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها »[٣] ، فكانت هذه العصبية للعادات والتقاليد ، حائلا بين الناس وبين متابعة النبي ، وحتى بنى هاشم بالرغم من وقوفهم إلى جانب النبي يحمونه بدافع عصبية العشيرة ، غلبتهم عصبية التقاليد على أنفسهم فلم يؤمنوا .

ثم إن التنظيم السياسى فى مكة وقف فى وجه انتشار الرسالة والإيمان بها ، ذلك أن مكة ارتضت نوعا من التنظيم ألغت فيه الرياسة العامة ، وكان يحكم مكة رؤساء العشائر والبطون ويتكون منهم ما عرف بالملأ ، وهو مجلس الرياسة فى قريش ، وقد كان هؤلاء الزعماء حريصين على مبدأ التناظر بينهم كزعماء ، وعلى ألا يسودهم أحدهم ، ويرون التكافؤ فيما بينهم ، فالصفات العامة فى أحدهم من الممكن أن ينالها كلهم ، أما أن يكون واحد فيها فأمر ليس بمدرك لعامتهم ، وعندئذ تكتب له الزعامة بلا منازع ، ويرون أنفسهم مضطرين للخضوع له ، وتبعا لسيادته المطلقة تسود عشيرته بين بطون قريش وعشائرها ، ومن أجل ذلك عارض رجال الملأ محمداً ونفسوا عليه مقام الرياسة الذى توصله له الرسالة[٤] ، وتبعا لذلك عارضت البطون القرشية الدعوة وتابعها عامة الناس .

(١) الشعراء : ٢١٤ — ٢١٦ .

(٢) الشورى : ٧ .

(٣) الأعراف : ٢٨ .

(٤) انظر الواقدى : ٢٠ .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ يهاجم الدين الوثنى هجوما شديدا ، ويسب الأصنام ويحقرها ، ويتهم قريشا فى أحلامها ويسفهها ، ورأت قريش أنه بهذا يهدم مكانتها بين القبائل العربية ، ثم هو ينتقص من الدين الذى تقوم على رعايته ومنه أخذت زعامتها الروحية بين العرب ، وعلى أساس هذه الزعامة يقوم مركزها الاقتصادى ، لذلك فقد رأت فى الدعوة الجديدة خطرا يتهدد مركزها الأدبى والمادى على السواء .

فالمصلحة المادية كانت عاملا من العوامل التى دفعت قريشا إلى الوقوف فى وجه النبى ، وكذلك الاستمساك بالقديم سبب آخر دعا قريشا إلى المعارضة وأيدها الرأى العام الوثنى فلجت فيها . وعلى الرغم من وقوف العصبية العشائرية لحماية النبى ومن آمن به من قريش ، فإنه لم يكن يستطيع أن يعتمد على العصبية فى دعوته الدينية ، لأن دعوته بطبيعتها إنسانية عامة تسمو على التعصب من ناحية ، ولأن التورط فى مجال العصبية يجعله يدور فى دائرة العصبية المقفلة التى يريد أن يخرج منها بطبيعة دعوته العامة من ناحية أخرى .

ولقد سلكت قريش كل الوسائل للوقوف فى وجه الدعوة المحمدية ، من إهمال ثم إحراج بالأسئلة والإنكار وطلب المستحيلات ، ثم الإغراء والوعيد ، ثم الضغط الأدبى والمادى عليه وعلى أهله ، ثم سلكت آخر الأمر طريق العنف معه ومع من تابعه حتى لقوا عنتا كبيراً وأوذوا فى أموالهم وأنفسهم ، حتى لقد دفع بعض الموالى ممن لا عصبية له تحميه حياته ثمنا لعقيدته(١) ، واضطر النبى إلى أن يأمر أصحابه بالهجرة إلى أرض الحبشة فراراً بدينهم ، وقد أمر النبى أصحابه بالهجرة إلى هذا البلد البعيد لأنه لم يكن فى الإمكان أن يلجأوا إلى أى قبيلة من القبائل العربية ، فقد كانت القبائل مرتبطة بقريش ارتباطا قويا تجاريا ودينيا ، وكان لبعضها محالفات وعهود معها ، وهى لذلك حريصة على حسن العلاقة مع قريش حرصها على مصالحها المادية ، فلم تكن لذلك تستطيع إيواء الخارجين عليها ، ثم هى تؤمن بزعامة قريش وتخضع لتشريعها الدينى .

---

(١) انظر اليعقوبى : ٢/١٧–٢٦ . ابن هشام : ١/٢٧٨–٤٠٠ . ابن سعد : ١/١٨٤–١٩٥ . الطبرى : ٢/٣٢٢–٣٤٤ .

ولم تكن الممالك العربية فى أطراف شبه الجزيرة مستعدة فى ذلك الوقت لتلقى هؤلاء المهاجرين أصحاب الدين الجديد . فاليمن كانت الأحوال فيها غير مستقرة ، والخلافات الداخلية تمزقها بعد أن وقعت فى مجال الصراع الدولى الذى تعدى السياسة إلى الدين ، فكان التنافس شديداً بين المسيحية واليهودية فيها(١) ، وهى بذلك غير صالحة لأن يجد فيها المهاجرون المأوى الأمين . كما كانت الحال كذلك فى مملكة الحيرة ومملكة غسان .

ولم تكن مدن الحجاز مهيأة فى ذلك الوقت لقبول هجرة هؤلاء المسلمين ، فيثرب تغلى بالخلافات بين قبائلها وبطونها . وخيبر ومدن وادى القرى كانت يهودية . وكانت صلات اليهود بعامة طيبة مع قريش ، فضلا عن أن اليهود كانوا منصرفين إلى مصالحهم راغبين عن الدخول فى عداء مع القبائل العربية .

وإذن فقد كانت الحبشة هى أقرب إقليم هادىء إلى مكة يمكن أن يجد فيه المهاجرون الأمن على حياتهم ، والوسيلة لمعاشهم ، فقد كانت الحبشة معروفة للمكيين يغشونها للتجارة . كما كانت تكمن وراء الهجرة إليها حكمة ، لعلها لم تبعد عن ذهن النبى ، كما لم تغب عن إدراك القرشيين ، فإن الحبشة كانت تطمع منذ أجيال فى فتح الأقاليم العربية ، وكانت قد أرسلت حملة لفتح مكة بعد استيلائها على اليمن ، ومع أن الحبشة خرجت عن الجزيرة العربية كلها ، إلا أن الصراع الدولى لم ينته بعد . فالهجرة إلى الحبشة تؤدى إلى غرضين : الأول أن المهاجرين يلقون ترحيبا من ملك الحبشة أملا فى أن يتمكن بمساعدتهم من التدخل فى شئون مكة ، وفعلا لقى المهاجرون من النجاشى ترحيبا وحسن معاملة(٢) . والغرض الثانى هو إشعار قريش بأن عدوانها على المسلمين قد يضطرهم إلى الالتجاء إلى قوة خارجية ربما تتدخل لحمايتهم ، فتتعرض مكة لغزو خارجى أو تتعرض مصالحها الاقتصادية للضرر . ولكى تتجنب هذا فإنه يجب أن تكف عدوانها عن المسلمين .

وقد أوجست قريش خيفة من هذه الهجرة ، وحسبت لها حسابا كبيراً . فأرسلت

---

(١) الطبرى : ٢/١١٩ وما بعدها .

(٢) ابن سعد : ١/١٨٩ .

بعثة تحمل الهدايا إلى النجاشى وتطلب رد هؤلاء المهاجرين ، ولعل من أغراض البعثة القرشية محاولة معرفة موقف الحبشة من الوضع فى مكة . ولكن البعثة فشلت فى مهمتها وبقى المسلمون فى الحبشة يتمتعون بعطف النجاشى ورعايته(١) .

وتبع الهجرة إلى الحبشة ، وفشل سفارة قريش لدى النجاشى ، حادث آخر حفز قريشا على القيام بعمل قوى تجاه الدعوة النامية ، ذلك هو دخول عناصر قوية من القرشيين فى الإسلام ، فقد أسلم رجلان اشتهرا بالبأس والقوة ، هما حمزة بن عبد المطلب(٢) وعمر ابن الخطاب(٣) ، وكان كلاهما قويا جريئا فى إظهار رأيه والوقوف فى وجه مخالفيه ، وكان من اليسير أن يشتبك مع مناوئى الإسلام ، فتسيل الدماء وتقع الحرب الأهلية بين بطون قريش ، وهو أمر حرصت قريش على تجنبه دائما . وقد اضطرت قريش أمام تحدى هذين الرجلين إلى أن تهاون بعض الوقت حتى تدبر موقفها إزاء هذا الوضع الجديد .

وكان تدبيرها أن تقوم بعمل جماعى تجبر به المسلمين ومناصريهم من بنى هاشم ، عشيرة النبى التى وقفت على حمايته ، على الحد من نشاطهم وتضطرهم للكف عن نصرة النبى أو تسليمه لقريش . فقامت بمشاورات عامة انتهت بعقد كتاب بين كل بطون قريش ، يتعاقدون فيه على بنى هاشم وبنى المطلب : « ألا ينكحوا إليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم » . وقد وضعوا هذه الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم(٤) . ثم حصروا بنى هاشم والمسلمين فى شعب خارج مكة يسمى « شعب أبى طالب » وقامت قريش على هذا الحصار الاقتصادى ثلاث سنين .

لكن هذا التدبير جاء بنتيجة عكسية ، فإنه على الرغم من أن المحاصرين أجهدوا أيما إجهاد وكادوا يهلكون من الجوع ، فإنهم ثبتوا على موقفهم فى بطولة ، وظل النبى يدعو

---

(١) انظر ابن هشام : ١/٣٥٦ ، ٣٦١ . الطبرى : ٢/٣٢٨ — ٣٣٥ .
(٢) ابن هشام : ١/٣١٢ . الطبرى : ٢/٣٣٤ .
(٣) ابن هشام : ١/٣٦٤ — ٣٧١ . الطبرى : ٢/٣٣٥ .
(٤) ابن هشام : ١/٣٧٢ .

إلى دينه بين العرب ، كما حفل القرآن بالآيات التى تشدد النكير على قريش[١] . وكان لهذا العمل العدوانى من قريش وللموقف البطولى الذى وقفه المحاصرون أثر فى أن يتسامع العرب فى كافة أنحاء الجزيرة العربية بأنباء هذا الدين الجديد ، حتى أحست قريش بفشل هذا الحصار ، كما أحست بسوء نتائجه على الوضع الداخلى فى مكة حين حركت شجاعة المحصورين عاطفة الرحم فى بعض القرشيين ، فأخذوا يمدونهم ببعض الطعام ، ولما حاول بعض زعماء قريش منع هذا المدد حدثت مشاحنات كادت تؤدى إلى فتنة[٢] ولم يجد رجال الملأ بداً من فك الحصار وتمزيق صحيفة المقاطعة ، فعاد بنو هاشم والمسلمون إلى دورهم وإلى مزاولة حياتهم العادية فى مكة[٣] ، وإن كانت قريش قد استمرت فى سياسة العدوان والمقاومة .

لكن النبى أدرك أن بيئة مكة المتمسكة أشد التمسك بتقاليدها ، الحريصة على مصالحها المادية ، لم تعد صالحة لنشر المبادىء الجديدة ، لذلك خفف نشاطه فى الدعوة بين أهل مكة ، وفكر تفكيراً جديا فى الخروج بنفسه إلى مكان آخر يكون أصلح لدعوته . فأخذ ينتهز كل فرصة من الفرص التى يجتمع فيها الناس فى المواسم العامة التجارية والدينية ، ليعرض على رؤساء القبائل دعوته الجديدة ، ويدعوهم لقبولها ، ويعرض عليهم الانتقال إلى أرضهم[٤] .

ولم يفد النبى من عرضه نفسه على القبائل شيئا ، إذ كانت هذه القبائل الوافدة على مكة فى المواسم مرتبطة بقريش ارتباطات قوية ، وهى حريصة على مصالحها وارتباطاتها ، ثم إن قريشا كانت تقوم بدعاية مضادة قوية تعارض بها دعوة النبى وتحذر الناس من متابعته ، وكان من رجال قريش ممن يدعو ضده ويحذر منه من هو شديد القرابة للنبى مثل عمه أبى لهب بن عبد المطلب[٥] ، وكان لهذا أثره الشديد على هذه

---

(١) الأنبياء : ٩٨ — ١٠٠ . الفرقان : ٢٧ — ٢٩ . الدخان : ٤٣ — ٤٨ . القلم : ١٠ — ١٥ الهمزة : ١ — ٩ .

(٢) انظر ابن هشام : ٣٧١/١ .

(٣) انظر ابن هشام : ٣٩٧/١ — ٤٠٠ .

(٤) ابن هشام : ٣١/٢ — ٣٢ .

(٥) نفس المصدر : ٣٢/٢ .

القبائل المتمسكة بالعصبية ، إذ أنها ظنت أن لو كان فى دعوة محمد خيراً لتابعه عليها أهله .
وقد نال النبى من وراء ذلك أذى فى نفسه وفى أصحابه ، حتى لقد تحرج مركزه فى مكة حرجا شديداً حين خرج إلى الطائف يدعو قبيلة ثقيف إلى متابعته ويعرض عليهم الانتقال إلى بلدهم ، وحين ردت ثقيف عرضه فى قسوة غير كريمة ، لم يستطع أن يدخل مكة حين عاد إليها إلا فى جوار أحد ساداتها وهو المطعم بن عدى زعيم بنى نوفل ، لأن القبيلة القرشية اعتبرته قد خلع نفسه منها [١] .

وفى هذا الوقت الحرج كانت الظروف قد تهيأت فى مدينة أخرى هى « يثرب » لتقبل الوضع الجديد ، فقد كان الصراع فيها قد بلغ ذروته بين قبائلها ، ووصل أهلها إلى الحد الذى رأوا فيه أن ظروفهم تقتضيهم البحث عن مخرج لهم من سوء الحالة التى وصلوا إليها ، وإعادة الهدوء إلى مدينتهم التى أصبحت الحياة فيها أمرا عسيراً ، ولكى يحققوا هذا كان لا بد من وجود عنصر خارجى لم يتورط فى الصراعات الداخلية ، يدخل هذه المدينة ليسد الفرجة بين الأطراف المتنازعة ، ويكون له من الميزة ما يجعل الجميع يقبلون زعامته ويجتمعون عليه .

وقد وجد اليثربيون ما يرغبون فيه فى شخص النبى ، حين التقى به جماعة منهم فى مكة ، فقد قدم الموسم ستة نفر من الخزرج ، فلما لقيهم النبى وعرض عليهم دعوته لم يبطئو أن أسلموا ، وقد قال بعضهم لبعض : « ياقوم ، تعلموا ، والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود ، فلا تسبقنكم إليه [٢] » وكانت اليهود تهدد الأوس والخزرج حين غلبوهم فى يثرب بقرب ظهور نبى ينضمون إليه فيغلبونهم به . وكانت استجابة أهل يثرب لذلك إلى الإسلام سريعة ، فلما عاد الخزرجيون إلى بلدهم نشروا ذكر النبى فيها . ولم يكد العام ينصرم حتى وافى الموسم اثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج ، عاقدوا النبى عقدا عرف « ببيعة العقبة الأولى » ، بايعوه فيه على ألا يشركوا بالله شيئا ، ولا يسرقوا ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصوه

---

(١) انظر ابن هشام : ١/٤٠٦ ، ٢/٢٨ — ٣١ .
(٢) نفس المصدر : ٢/٣٨ .

فى معروف . فإن وفوا فلهم الجنة ، وإن غشوا من ذلك شيئا فأمرهم إلى الله إن شاء غفر وإن شاء عذب[1] . ولم يكن فى الشروط عداء لأحد ولا منابذة أحد بالحرب ، وإنما كانت شروطا دينية خلقية . وقد سميت هذه البيعة فيما بعد « بيعة النساء » لأن نصوصها وردت فى الآية (١٢) من سورة الممتحنة حين بايع النبى نساء قريش حين أسلمن بعد فتح مكة .

وحين عاد اليثربيون إلا مدينتهم أرسل النبى معهم أحد رجاله وهو مصعب بن عمير من بنى عبد الدار ، ليقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين[2] وقد نجح مصعب نجاحا كبيرا وكسب للاسلام أكبر زعيمين فى قبيلة الأوس هما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ، اللذان كان لإسلامهما أثر كبير فى دخول بطن كبير — هو بطن بنى عبد الأشهل — برمته فى حظيرة الإسلام ، ثم كانا بعد ذلك من أشد أنصار النبى إخلاصا وتفانيا وأثرا فى نصرة الدولة الإسلامية فى يثرب[3] . وبذلك مهد مصعب بكفايته وحسن تأتيه للأمور السبيل فى يثرب لدار يهاجر إليها المسلمون من مكة ، ولتكون بعد ذلك داراً يطمئن فيها الإسلام ويعتز المسلمون .

ولم يمض عام آخر حتى تطور الأمر إلى حلف كامل بين النبى وبين أهل يثرب ، فقد وفد عليه ثلاثة وسبعون رجلا ، اجتمعوا به فى العقبة — وهى مكان بين منى ومكة ، بينها وبين مكة ميلان (٤) — فعقد النبى معهم حلفا ، استوثق فيه كل من الطرفين لنفسه . فأما النبى فقد طلب أن يبايعوه على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم ، وأما أهل يثرب ، فقد سألوه أتراه تاركهم وراجع إلى قومه إن هم فعلوا ونصره الله ؟ وطمأنهم النبى بأن ذكر صيغة العهد التى كانت تقولها العرب عند الحلف « بل الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم » (٥) .

وتسمى هذه البيعة « بيعة العقبة الثانية » أو « بيعة العقبة الكبرى » أو « بيعة

---

(١) ابن هشام : ٢/ ٤١ .
(٢) أسد الغابة : ٤/ ٣٦٨ — ٣٦٩ .
(٣) انظر ابن هشام . ٢/ ٤٢ — ٤٦ .
(٤) ياقوت : ١٤/ ١٣٤ .
(٥) ابن هشام : ٢/ ٥٠ .

الحرب » وقد حددت هذه البيعة الوضع القانونى للنبى بين أهل يثرب ، فقد صار بمقتضاها واحدا من أهل يثرب دمه كدمهم وحكمه كحكمهم . وقضت ضمنا بخروجه من عداد أهل مكة . وبذلك انتقلت تبعية النبى من مكة إلى يثرب ، وهذا نوع من تغيير الجنسية فى تعبيرنا الحديث .

وكانت الفترة التى تلت عقد البيعة حرجة بالنسبة للنبى ، إذ فيها كان النبى بحسب العرف القبلى محروما من كل حماية قبلية ، وكان فى استطاعة أهل مكة أن ينالوه بأى أذى، بعد أن نبذهم وخرج من عدادهم . وكان اليثربيون لا يستطيعون تقديم أى حماية له لأنه بعيد عنهم ، وقد اشترطوا فعلا أن تبدأ حمايتهم له بعد وصوله إلى يثرب لا قبل ذلك . ومن أجل هذا حرص المسلمون على إخفاء أمر هذه البيعة عن قريش .

ولكن قريشا مالبثت أن علمت بها ، وحاولت مهاجمة اليثربيين ، ففاتوها إلا سعداً بن عبادة الخزرجى الذى لحقته فقبضت عليه وكادت تفتك به ، لولا أن أجاره بعض رجال مكة ممن كان يجير لهم تجاراتهم عند مرورها ببلده[(١)]

وأحست قريش بمقدار التهديد الموجه إليها من وراء تنفيذ هذا الحلف ، وخاصة بعد أن أخذ المسلمون يتلاحقون مهاجرين إلى يثرب ، فلو هاجر النبى إلى يثرب واستطاع أن ينظم من أهلها ومن المهاجرين معه قوة ، لأمكنه أن يهدد تجاراتها إلى الشام لو وقف منها موقف الخصومة، وهو لابد فاعل لما ألحقت به وبالمسلمين من أذى . ثم لو اتخذ من يثرب القوية بمواردها وبحصونها قاعدة لنشر الإسلام . فانه من غير شك سيهدد مركز مكة الدينى بين العرب ، لأن الإسلام يحارب الوثنية ويسعى لتحطيمها ، ويقضى بذلك على زعامة قريش الروحية . ولذلك رأت أن خير وسيلة للتخلص من هذا الموقف هى قتل النبى نفسه ، ولكى لا يجر قتله إلى حرب أهلية فى مكة ؛ لوقوف عصبية بنى هاشم وربما عصبية بنى عبد مناف كلها للدفاع عنه ، عقدت اجتماعا عاما فى دار الندوة ، وناقشت فيه الأمر كله ، ثم خرجت بقرار ، هو أن تعهد إلى فتيان من كل البطون القرشية بأن يقتلوا محمداً معا ، فيكون دمه بذلك

---

(١) انظر ابن هشام : ٢/٥٦ — ٥٩ .

مفرقا بين كل البطون ، فلا يقوى بنوهاشم على حربها جميعا ، فيرضون بالدية ، وتتخلص مكة من هذا الوضع الشديد[١] .

لكن النبي استطاع أن يفلت من مكة قبل أن تحكم القبيلة استعدادها وأن تناله بأذى كما استطاع بمهارة أن يفلت من مطاردتها ، وكانت عناية الله معه من غير شك . وقد سجل القرآن الكريم هذا الحادث إذ يقول « إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا »[٢] .

وكان هذا هو الهجرة ، وقد نزل القرآن بهذه المناسبة ، يفرض على الناس أن يقاوموا الباطل بكل قوة ، فإن لم يجدوا مخرجا فعليهم أن يهاجروا إلى حيث يجدون العدل والحرية « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها »[٣] فالهجرة بذلك أصبحت سنة إسلامية ، وكان الناس يتداعون إلى الهجرة فى حياة النبى وبعده .

وبالهجرة بدأ دور جديد فى حياة الدعوة الإسلامية ، وفى حياة الأمة العربية .

* * *

(١) انظر ابن هشام : ٢/٩٣ — ٩٥ .
(٢) التوبة : ٤٠ .
(٣) النساء : ٩٧ .

الباب الثانى

قيام الحكومة الإسلامية فى المدينة

وتوحيد العرب فى ظل الإسلام

الفصل الأول

قيام الدولة الإسلامية فى حياة النبى

فى الوقت الذى كان النبى عليه السلام يبحث فيه عن مكان آخر غير مكة يكون مجالا صالحا لدعوته التى وقفت قريش فى وجهها بكل طاقاتها المادية والأدبية ، كان أهل يثرب من ناحية أخرى يبحثون عن حل لمشكلاتهم العويصة ، التى بدا أن حلها لا يأتى إلا على يد عنصر خارجى يدخل فى الفرجة المفتوحة بين معسكريها المتناحرين ، وكان الالتجاء إلى عنصر خارجى يشرف على شئون الطوائف المختلفة فى القبائل العربية أمرا مألوفا تلجأ إليه الجماعات القبلية إذا عجزت عن الاتفاق فيما بينها[1] . لكن اتصال أهل يثرب بالنبى لم يأت نتيجة تدبير سابق ، وإنما كان حادثا عارضا وجد فيه الطرفان حلا لمشكلتها ، فأما النبى فقد انفتح أمامه مجال جديد ينشر فيه دعوته فى حرية وأمن له ولأصحابه ، وأما أهل يثرب فقد وجدوا فى النبى وأصحابه ذلك العنصر الذى تتطلبه الحالة الحرجة فى بلدهم ، وقد عبر اليثربيون الذين التقوا بالنبى عن الموقف فى بلدهم وعن متطلباته بقولهم « إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقوم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك »[2] . وكانت استجابة اليثربيين سريعة ، وقد أعان عليها أن اليهود فى المدينة حين كانوا يحسون بضغط العرب عليهم كانوا ينذرونهم بأن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه يتبعونه فيقتلونهم معه قتل عاد وارم[3] .

---

(١) ابن الأثير : ١/٣٠٤ (كان سفهاء بكر قد غلبوا على عقلائها وغلبوهم على الأمر ، وأكل القوى الضعيف ، فنظر العقلاء فى أمرهم ورأوا أن يملكوا عليهم ملكا يأخذ للضعيف من القوى ، فتهاهم العرب ، وعلموا أن هذا لا يستقيم بأن يكون الملك منهم ، لأنه يطيعه قوم ويخالفه آخرون ، فساروا الى بعض تبابعة اليمن . وطلبوا منهم أن يملكوا عليهم ملكا ...)

(٢) ابن هشام : ٢/٣٨ .

(٣) نفس المصدر .

وحين قدم النبى إلى يثرب كان الوقت مهيأ له ، ولما كانت لحمة الدم فى المدينة قد فشلت فى أن تكون رباطا يؤلف بين الناس ، فقد أحل النبى محلها رابطة العقيدة ، واستطاع أن يكون فى المدينة جماعة موّحدة على أساس الدين من حيث أنها « أمة الله » وكان الأمر اللازم إذا ذاك ، كواجب أولى ، ينحصر فى إقامة النظام والقانون وإقرار السلام . ولما لم تكن فى المدينة دولة ولا رياسة على الإطلاق ، فقد أخذت السلطة الدينية مكان الصدارة ، وصارت لها القوة وتوطدت أركانها بفضل أنها حققت ما رجى منها . ومن حسن الحظ أنه وجد إلى جانبه ، من القرشيين الذين هاجروا معه وكونوا أقرب دائرة تحيط به ، رجالا يعتمد عليهم ويستطيع أن يثق بهم .

وفى هذه الأحوال تجلت قوة الدين التى أصبح لها طابع سياسى غالب ، فأنشأ دولة وأوجد فوقها سلطة مطاعة ، وكان الله هو رمز رياسة هذه الدولة ، والشىء الذى كان يحدث فى الدول باسم الملك كان يحدث فى هذه الدولة باسم الله ، وصارت النظم كلها تنسب إلى الله ، وحتى الجيش نفسه كان يسمى « جيش الله » . وهكذا ظهرت بين العرب فكرة الرياسة عن طريق الإيمان بالله بعد أن كانت حتى ذلك الحين بعيدة عن أذهانهم . وقد ظهرت بظهور ذلك فكرة أخرى ، هى أن الحق فى السيادة لا ينبغى أن يكون لقوة إنسانية تفرض نفسها على الناس من خارج ، بل هو إنما يكون لسلطة فوق الناس يعترف بها الإنسان فى قرارة نفسه ، وعلى ذلك فليست السلطة المخولة للحاكم قنية خاصة يتصرف فيها صاحبها على النحو الذى يعود عليه بالنفع ، ويجعل منها شيئا يورث ، بل الملك لله ، والسيادة للشرع الذى أنزله الله على رسوله . ومعنى سيادة الله هنا هو سيادة الحق والعدل التى يقف أمامها الناس جميعا سواسية .

ولما كان النبى فى هذه الفترة هو المبعوث الذى تنزل عليه أحكام الشريعة ليقوم على تنفيذها ، فإنه أنشأ دولة تقوم على تنفيذ هذه الشريعة ، وأصبح هو الرئيس السياسى الشرعى لها ، ومن السلطة المخولة له تتفرع جميع أنواع السلطات[1] . ومع ذلك فليس

---

(١) أنظر فلهوزن : تاريخ الدولة العربية : ٧ — ٩ .

النبي مستبدا يجرى فى تصريف الأمور العامة بصفة انفرادية ، وإنما كان إلى جانبه مستشاروه ممن رجحت عقولهم وكثرت تجاربهم ، وهم ليسوا موظفين معينين ، وإنما كانوا أصدقاء اصطفاهم وجعلهم خاصته ، وليس باب الشورى مقصورا عليهم وحدهم وإنما هو مفتوح للناس جميعا ، فالنصيحة واجب مقدس على جميع المسلمين ، إذ « الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » (١) .

ولما كان الله فوق جميع البشر ، وعدله يشمل جميع الناس ، كان حتما أن تتسع أمة الله للناس جميعا . ولذلك فإن النبي لم يقصر الأمة على طائفة معينة ، وإنما جعلها مفتوحة لكل من يدخل تحت لوائها من الناس بصرف النظر عن قبيلته أو جنسيته أو عقيدته ، وكفل للجميع حقوق الرعوية فى ظل العدالة والحق ، مادامو يرتبطون بالدولة ويخضعون لقانونها. وعلى ذلك كان نظام الدولة التى أقامها النبى فى المدينة من نوع أصيل جديد ، فلقد كان ذلك النظام فى إطاره دينيا مطلقا يرتكز على الأوامر والأحكام العامة المنزلة ، ولكنه فى تفاصيله وتطبيق أحكامه استشارى . وهذه الدولة فذة فى تاريخ البشرية ، لأنها ، بالرغم من قيامها فى الأصل على أسس دينية ، أقرت مبدأين لا وجود لهما إلا فى دولة غير دينية - وأول هذين المبدأين هو حرية الأديان ، وهى حرية لا تقرها الدولة الإسلامية وتسمح بها فحسب ، بل هى تتعهد برعايتها - وثانيهما هو مبدأ تعريف فكرة الوطن والدولة فى أوسع معانيها تسامحا وإنسانية ، وهو مبدأ يكفل المساواة فى الحقوق والواجبات الوطنية بين جميع أفراد الدولة على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعقائدهم الدينية .

ولقد مارس النبى سلطته السياسية فى المدينة منذ وصوله إليها ، وإذا كانت مهمته فى مكة قد اقتصرت على الدعوة للدين الجديد وإمداد المسلمين بالثبات والصبر واليقين ، فإنه لم يكن عليه فى المدينة أن يكتفى بتبليغ الوحى الذى ينزل عليه ، بل كان

---

(١) البخارى : ١/١٧ .

عليه أن ينظم الحياة فى المدينة نفسها ، فقد دعى منذ أول الأمر ليكون زعيما سياسيا إلى جانب كونه نبى . فسكان المدينة الأصليون هم الأوس والخزرج وهما قبيلتان وقع الشر بينهما كما رأينا من قبل — واليهود وهم أحياء تحالف بعضها مع الأوس وتحالف بعضها مع الخزرج . وهذه الجماعة الأصلية فى حاجة إلى التوفيق بينها حتى يمكن أن تعيش معيشة منسجمة . وقد انضاف إليهم المهاجرون من أهل مكة ، وهؤلاء ولو أنهم استقبلوا من إخوانهم مسلمى يثرب استقبالا حسنا ، إلا أنه يجب أن يكفل لهم العيش وأن يحتاط لإقامتهم فى المدينة . ثم إن النبى قد خلف وراءه عدوا متربصا هو قريش وهذا العدو قادر على العدوان ، ولمقاومة عدوانه يلزم الاستعداد والحيطة ، وبناء الجبهة الداخلية بناء سليما قادرا على مواجهة كل خطر يأتى من الخارج . ومع عظم هذه المهمة التى ألقيت على كاهل النبى ، فإن عوامل النجاح فيها كانت كبيرة ، إذ كان فى أسس التنظيم القبلى دعائم يمكن أن يرتكز عليها فى تطوير الأمور الداخلية فى يثرب ، كما كان فى موقع المدينة وحصانتها ومواردها المادية والبشرية ما يعينها على الصمود أمام أى خطر خارجى ، بل يحقق لها إذا كفل لها التنظيم ، الفوز والتفوق . وقد استفاد النبى من كلا الأمرين ، وأظهر من قوة الفهم وسلامة الإدراك ودقة التنظيم ما كفل لهذه الجماعة الاستقرار والترابط والقدرة على النمو ، ومواجهة الاحتمالات الخارجية كلها بنجاح كبير .

وليقيم الجماعة ويوحد القوى والعناصر فيها لجأ النبى إلى أمرين ضروريين ، أولهما هو إيجاد مقر للرياسة الجديدة ، تباشر منه مهمتها ، وثانيهما هو ربط العناصر المختلفة برباط يقرب بينها ويزيل الجفوة بين أطرافها . ولتحقيق الأمر الأول قام النبى ببناء المسجد بعد وصوله إلى المدينة بقليل ؛ ليكون مقرا للرياسة الجديدة[1]، فيه تبرم كل الأمور ، ومن منبره تلقى التعليمات والقرارات التى تتخذها الرياسة فى المسائل العامة ، وليكون فى الوقت نفسه دار ندوة للجماعة الاسلامية تبحث فيه كل شئونها العامة ، إلى جانب أنه مكان لتأدية

---

(١) انظر ابن هشام : ٢/١٤٤ . الطبرى : ٢/٣٩٦ — ٣٩٧ . السمهودى : ١/٢٣٠ — ٢٤٠ .

الصلاة ولتلقى التعاليم الدينية . وقد استقرت مهمة المسجد هذه زمنا طويلا فى الدولة الإسلامية ، وأصبح من السنة أن تبنى المساجد فى الأمصار ، فكان فى كل مصر مسجد جامع يباشر فيه والى المصر مهمته السياسية إلى جانب أنه يؤم الناس فى الصلاة ، وقد جعلت إمامة الناس فى الصلاة مظهرا مميزا للرياسة أو للولاية .

ولتحقيق الأمر الثانى أحل النبى رابطة العقيدة محل رابطة الدم التى فشلت فى المدينة فى أن تؤلف بين الناس ، فأصلح بين الأوس والخزرج على أساس أنهم أصبحوا إخوة تحت ظل الإسلام ، ولكى يزيل كل مامن شأنه أن يذكر بالعداء القديم بينهما جمعهما فى اسم واحد هو «الأنصار» ليذكرهما دائما بالتآلف لغرض أسمى وهو نصرة المبدأ الإسلامى والاندماج فى غاية أكبر من الغايات القبلية . وقد صار هذا الاسم علما عليهما جميعا ، واعتزوا به وأخلصوا لغايته إخلاصا شديدا . ثم كان على النبى بعد ذلك أن يدعم موقف الذين جاءوا معه من مكة وعرفوا بالمهاجرين ، ويضمن لهم الاستقرار ، فعمد إلى التأليف بينهم وبين أولئك الأنصار ، ولتحقيق ذلك لجأ إلى النظام المعروف عند القبائل العربية وهو نظام الحلف ، ولكنه أسبغ عليه تسمية إسلامية فسماه « المؤاخاة » فارتفع به عن علاقة الولاء الناتجة عن طريق الحلف والتى قد يطرأ عليها مايفصمها ، إلى رابطة الأخوة الرحمية التى لاانفصام لها ، فجعل كل رجل من المهاجرين يؤاخى رجلا من الأنصار فيصير الرجلان أخوين بينهما من الروابط ما بين الأخوين من قرابة الدم ، وأنزلت هذه القرابة الحكمية منزلة الأخوة الطبيعية ، فصار المتآخيان يتوارثان، وقد ظل المهاجرون والأنصار يتوارثون بهذا النظام إلى أن استقرت الدولة الإسلامية فى يثرب ووضع نظام الثورات الإسلامى على أساس القرابة الطبيعية(١). فهذا فى الحقيقة كان نظاما مؤقتا والغرض منه سياسى وهو الربط والتأليف بين

---

(١) انظر ابن هشام : ٢/١٢٣-١٢٤ . الحليف فى الجاهلية رجل حر انضم إلى قبيلة غير قبيلته فركزه الاجتماعى فى القبيلة التى ينتمى اليها يلى مركز الحر الصميم فيها ، وإن كان عليه من التبعات ماعلى أفراد القبيلة الصرحاء . وكان الحليفان يتوارثان بهذا الحلف . وقد استمر هذا فى الإسلام حتى نسخ آيات الميراث (أنظر تفسير الطبرى : ٨/٢٧٥ — ٢٧٦) ولعل هذا ماجعل النبى يرفع علاقة الحلف إلى الأخوة بين المهاجرين والأنصار حتى لا يكون بينهم تفاوت فى المركز الاجتماعى فى المدينة .

المهاجرين إلى المدينة وبين أهلها الأصليين . أما اليهود فقد بقوا على حالهم حتى انتظمهم الوضع الجديد فى الدولة بعد أن وضع النبى الصحيفة التى أقرت الأمور العامة فى المدينة ، وذلك أن النبى لم يكن يخشى جانب اليهود ، فإن الأوس والخزرج كانوا فى هذا الوقت أصحاب الكلمة العليا فى يثرب ، وكانوا قد أصبحوا سادة الموقف بها وأصبح اليهود يعتبرون كالموالى لهم ، وكان فى مقدورهم أن يدخلوا فى المدينة من شاءوا دون أن يخشوا اعتراض اليهود عليهم .

بعد ذلك وضع النبى دستورا لتنظيم الحياة العامة فى المدينة ، وتحديد العلاقات بينها وبين جيرانها ، وقد عرف هذا الدستور باسم « الصحيفة »[1]، وقد كتب النبى هذه الصحيفة بعد عام من هجرته ، وجعل طرفها الأول المهاجرين والطرف الثانى الأنصار ، والطرف الثالث اليهود من أهل يثرب ، وبذلك انتظمت الأطراف المختلفة فى المدينة فى جماعة واحدة . وقد بدا كأنما ابتلعت هذه الجماعة القائمة على أساس الدين تلك الجماعات القديمة القائمة على أساس رابطة الدم ، ولكن تلك الجماعات فى الحقيقة بقيت كما هى ، وإن كان الشأن الأول قد انتقل منها إلى الجماعة الكبرى ، فدخلت الطوائف التى كانت موجودة فى ذلك الحين — ونعنى بها القبائل والبطون والعشائر — فى الجماعة الكبرى ، واحتفظ لها الدستور بشخصيتها ، ولكنه نقل منها اختصاصاتها كوحدات قبلية إلى الدولة ، وإن أبقى لها كل ما من شأنه أن يحفظ على الناس الروابط فيما بينهم . وبذلك تكونت فى المدينة جماعة موحدة من حيث أنها « أمة الله » ولكن ذلك لم يتم دفعة واحدة ، فقد ظل يتحقق بخطى مستمرة ثابتة .

وقد بينت هذه الصحيفة الأسس الكبرى فى القانون الذى ينظم الحياة العامة والسياسية ، والتى كان معمولا بها فى المدينة فى أول الأمر ، ويتجلى من هذا الكتاب إلى أى حد قد تغيرت الأحوال القديمة وإلى أى حد لم تتغير .

وأول هذه الأسس أن الصحيفة أعطت صفة للجماعة الإسلامية ، فقد قررت أن المؤمنين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس . وكلمة

---

(١) أنظر نص هذه الصحيفة فى سيرة ابن هشام : ٢/١١٩ — ١٢٣ .

الأمة هنا ليست اسما للجماعة العربية القديمة التي تربطها رابطة النسب ، بل هي تدل على الجماعة بالمعنى المطلق ، وبهذا التقرير ألغى النبي الحدود القبلية ، أو على الأقل لم يجعل لها وجودا رسميا بالنسبة للدولة . وبهذا التقدير أصبحت الدولة مفتوحة لمن يريد أن يلتحق بها وأصبح الإسلام ملكا لمن دخل فيه ، فدخل بناء على هذه القاعدة شعوب كثيرة في الإسلام ، كما دخل في الدولة الإسلامية طوائف كثيرة من غير المسلمين على أساس التبعية للمسلمين والالحاق بهم ، دون أن تكون هناك عقبات تحول بينهم وبين الاشتراك في حياة العالم الإسلامي . وللأمة في هذه الصحيفة مع ذلك صبغة دينية ، فهي جماعة الله التي ترعى مبادىء السلام ومبادىء حماية الجار ونصرة المظلوم ، والله هو الشهيد الذي يشرف عليها ، ومحمد يشرف عليها باسمه ، فالإيمان هو رباط الاتحاد ، والمؤمنون هم ممثلو معناه ، وهم لذلك أول من يجب عليهم الوفاء لهذا الاتحاد ، وهم في الوقت نفسه أول من يتمتع بالحقوق التي يخولها لهم .

والأمة لها منطقة من الأرض إجمالية ، وهي منطقة المدينة ، وكل هذه المنطقة ينبغي أن تكون حرما وأرض سلام لا يعتدى فيها أحد على أحد ، ولذلك فهي لا تشتمل على المؤمنين وحدهم بل هي تتألف من كل أهل المدينة . وكان بين الانصار — حين وضعت الصحيفة — قوم لم يسلموا ولكنهم لم يستبعدوا من الأمة بل أدمجوا فيها بنص صريح[1] وكذلك اليهود شملتهم الأمة ، وإن كانوا لا ينتمون إليها انتماء وثيقا كالمهاجرين والأنصار ، ولذلك لم تقع عليهم نفس الواجبات وليس لهم نفس الحقوق . وقد ألحق بعضهم بنص صريح تمشيا مع الروابط الحلفية بينهم وبين الأنصار ، ووضع بند عام لكل من يتبع الأمة بعد ذلك منهم ، ثم عزز هذا البند بمحالفات خاصة بعد ذلك[2]. وعلى هذا فدرجة الانتماء

---

(١) ابن هشام . ٢/٤٦ « لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلا ما كان من دار بني أمية ابن زيد وخطمة ووائل وواقف ، وتلك أوس الله وهم من الأوس بن حارثة ، وذلك أن كان فيهم أبو قيس بن الأسلت وكان شاعرا قائدا يسمعون منه ويطيعونه ، فوقف بهم عن الإسلام حتى مضى بدر وأحد والخندق » .

(٢) لم تذكر الصحيفة اسماء قبائل اليهود : قينقاع ، وقريظة ، والنضير ولكن النبي وقع معها بعد ذلك عهودا أشار اليها المؤرخون ولم يذكروا نصها : ابن هشام : ٢/٤٢٧ ، ٣/٢٣٦ — ٢٣٧ . الواقدي : ١٣٨ ، ١٥٠ ، ٢٨٧ ، ٢٩٢ ابن سعد : ٣/٦٨ ، ٧٣ ، ٩٩ ، ١٠٩ .

للأمة لم تكن واحدة . بحيث بقى مايشبه التمايز العربى القديم بين أصحاب الحق الكامل وبين غيرهم من تابع ونزيل .

والأمة برغم أنها ضمت كل طوائف المدينة فإنها لم تكن تتكون من أفراد ، وإنما كانت تتكون من جماعات ، فالفرد إنما ينتمى إلى الأمة عن طريق العشيرة والقبيلة ، فقد جاء فى الصحيفة أن تبقى القبائل كما هى وأن تدخل فى الأمة كما هى ، وبذلك بقى التشكيل القبلى كما هو ، ومع أن الإسلام أنكر نظريا فكرة امتيازات المجتمع الوثنى فى العصر الجاهلى ، إلا أن نظام القبيلة بقوته الداخلية وأسلوبه فى معاملة الغرباء كان أمراً مفيداً بحيث لم يكن بالإمكان نبذه أو الاستغناء عنه . وكذلك ترك رؤساء القبائل كما هم ولم يحل محلهم موظفون دينيون . ومن وجهة النظر العملية كان إدخال القبائل برمتها أمراً مفيداً ، إذ كان يؤدى إلى انضمام أعداد كبيرة إلى الدولة دفعة واحدة ، فإن انضمام القبيلة لم يكن يترك للأفراد فرصة المعارضة ، لأن الفرد فى المجتمع القبلى كان يخضع لاتجاه القبيلة ؛ فهو مع اعتزازه بشخصيته وحريته كان يعيش للقبيلة وتحت إطارها . وإذا كانت الدولة قد لقيت من معارضات القبائل ما حد من انتشار الإسلام ، فإنها مالبثت أن شملت القبائل العربية كلها فى شبه الجزيرة حين كسرت المعارضة ، ولم تبذل فى ذلك جهداً كبيراً من وسائل المحاجة والإقناع كما لو كان الأمر يتعلق بالأفراد .

أما فيما يتعلق بالعلاقة بين الأمة والقبائل وبتحديد سلطة كل منهما وواجباتها ، فقد بقيت على القبائل النفقات التى ليست ذات صبغة خاصة محضة وخصوصا دفع الدية وفداء الأسرى ، ذلك أنه لم تكن قد وجد بعد خزينة للدولة . وكذلك بقى للعشيرة والقبيلة مسألة الولاء ، فلا يجوز لأحد أن يحالف أحداً دون مولاه ، وكذلك بقى حق الإجارة لم يقيد ، فلكل فرد الحق فى أن يجير شخصا غريبا وهو بذلك يلزم الجماعة كلها ، ولكن استثنى من هذا إجارة قريش ومن نصرها فإن ذلك كان محرما على كل المشتركين فى هذه الصحيفة .

وكذلك أوضحت الصحيفة أن أول غاية هو منع نشوب حرب فى الداخل ، فإذا قام نزاع وجب أن يعرض على القضاء ، فقد جاء فى الصحيفة « وأنكم مهما اختلفتم

فيه من شيء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم» ، «أنه ما كان من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم » . فإذا تعكر السلام فى الداخل بسبب القتل وجب لا على ولى الدم أو على قبيلته أو على الجماعة كلها فحسب ، بل على أقرباء الجانى أن يهبوا متكاتفين عليه وأن يسلموه لصاحب الثأر لكى يقتاد منه بالعدل .

وبمقتضى ذلك أصبح على القبائل أن تتنازل عن حق الأخذ بالثأر على الطريقة القبلية التى كانت متبعة حيث لم تكن هناك سلطة لها قوة القهر ، وعلى هذا لم يصبح الثأر أمراً يتحول إلى ثأر يجر ثأراً ويؤدى إلى الحرب ، وإنما أصبح ينفذ فى المدينة مبدأ العقاب بالمثل تنفيذاً صارما ، لأن الله فى المدينة فوق رابطة الدم . لكن العقاب بالمثل لم يكن قد صار عقابا بالمعنى الحقيق ، بمعنى أنه حق من حقوق الدولة ، لأن تنفيذه كان متروكا للمجنى عليه أو وليه ، وكان له أن يثأر لنفسه أو يتنازل ويأخذ الدية أو يعفو . ومع ذلك فإن هذه الخطوة صارت نقطة انتقال من مبدأ الأخذ بالثأر إلى مبدأ العقاب بالمثل ، فإن انتقال حق التأديب من الفرد إلى الجماعة كان خطوة هامة فى سبيل جعل الأخذ بالثأر من شئون الدولة ، وكانت الخطوة كافية لتفادى الترات الداخلية وليسود السلام فى منطقة المدينة ويكون شاملا لا استثناء فيه ، وعلى هذا لم تصبح هناك جماعات متعددة بتعدد القبائل تراعى السلام ، الأمر الذى يجعل حمايتها غير كافية أو على الأقل غير فعالة على الوجه المرضى خارج حدود القبيلة ، بل أصبح هناك سلام واحد شامل هو سلام الأمة .

والغرض الثانى الذى أوضحته الصحيفة هو اتحاد القبائل لرد كل عدوان من الخارج ، وعلى المؤمنين أن ينصر بعضهم بعضا « دون الناس » وهم يتعاقلون بينهم ، ويدهم على من سواهم ، وليس واجب الثأر من الأعداء واقعا على أقرباء المقتول بحكم رابطة الدم ، وإنما هو واقع على كاهل المؤمنين ليثأر للمؤمن . وبذلك خرجت الحرب من أن تكون داخلة ضمن الثأر للدم ، كما كانت قبل هى والثأر للدم شيئاً واحدا ، وإنما صارت الحرب حربا فحسب ، وكذلك صار السلام مع قوم أجانب أمراً يعم المؤمنين جميعا شأنه

شأن الحرب ، بحيث لا يستطيع أحد منهم أن يعقد سلاما منفردا لا يكون سلاما للجميع .

وهكذا رسمت الصحيفة التخطيط العام للأمة ، وإذا كانت هناك بعض الثغرات متمثلة فى حق المجنى عليه فى الأخذ بالثأر أو العفو ، وفى حق الإجارة الذى يجب أن يكون من حقوق سيادة الأمة ورئيسها ، فإن ذلك لم يكن خاليا من مبرر مقبول ، وهو أن العربى بمركوز عاداته كان يرى فى الانتقام لنفسه شفاء لغيظة ، ولم يكن يرضيه أن يكون الثأر له بغير يده ولو جاء عن طريق الدولة ، ولا تزال لهذه العادة بقايا فى بعض المجتمعات العربية حتى الآن ، فإعطاؤه حق تنفيذ حكم صادر من الدولة كان يشفى نفسه ، سواء اقتاد من خصمه أو عفا عنه ، وكان العفو نفسه عند العربى عديل القود فى شفاء الصدر . وكذلك ترك حق الإجارة للأفراد لأن الدولة كانت راغبة فى ضم الناس إلى حظيرتها ، وقد كان الجوار فى النظام القبلى يلحق الفرد بقبيلة المجير عن طريق الولاء ويلزمه بتبعات القبيلة كأحد أفرادها ، وكان هذا الأمر مفيدا فى حالة الدولة الأولى . إلا أن نظام الأمة أخذ يكتمل شيئاً فشيئاً ، وكان المؤمنون وعلى رأسهم النبى هم روح هذه الأمة والعنصر الناهض الذى كانت تصدر عنه الحركة ، وكلما كان الدين ينتشر كانت أركان الأمة تقوى وتتوطد(١) .

وكانت مهمة النبى السياسة بعد ذلك تنحصر فى الدفاع عن حدود دولته وضمان الأمن لها . والأساس الذى نفسر به كل تصرفاته السياسية هو أن المدينة ومن انضم إليها دولة واحدة غير متصلة بما عداها إلا بالشروط الجديدة التى حددها النبى فى الصحيفة ، فلاصلة بين يثرب وغيرها إلا عن طريق الإسلام وعن طريق الالتحاق بها والتبعية لها . ولتقوية جبهة المدينة وبخاصة فى الفترة الأولى اعتبرت الهجرة إليها أساسا للحصول على حق الرعوية للدولة الجديدة ، فعلى من يدخل فى الإسلام ويريد أن يكون مواطنا فى يثرب أن يهاجر إليها ، وقد نزل القرآن بنص صريح فى ذلك ، فقال « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم

(١) انظر فلهوزن : تاريخ الدولة العربية : ص ١١ — ١٥ .

من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا ، وإن استنصركم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق »(١) ، فالإسلام في هذه الفترة لم يكن وحده كافيا لنيل حق الرعوية بل اشترط معه الهجرة إلى المدينة ، فقد ربط الإيمان بالالحاق بالدولة والجهاد في سبيلها ، والقرآن صريح في هذا إذ يقول « والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا لهم مغفرة ورزق كريم . والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم »(٢) أما الذين آمنوا ولم يهاجروا فقد جعلهم بالنسبة للدولة في مرتبة أقل من الحلفاء الذين لم يؤمنوا ، فإنهم إن استنصروا الدولة بحكم الاتحاد في الدين فإن الدولة تنصرهم إلا على حلفائها .

وكما حرص النبي على أن يوجد في المدينة أداة للحكم وأن ينظم شئونها الداخلية ، ويحدد علاقاتها الخارجية ، كذلك حرص على أن يضم إلى المدينة ما حولها من ريف وما حولها من قبائل ، وذلك بأن يخطط لها مجالها ويقرر حدودها ، ويعقد لها أحلافا مع القبائل النازلة فيما حولها ، فالحاضرة لا تستطيع أن تعيش بنفسها ، ولا تستغني عن ريف عدها بالمؤن ويكون مجالا لنشاطها . ولهذا الغرض قام النبي بعدة سرايا ابتدأت من المدينة واتجهت إلى جميع الجهات ، فأمنت هذا الريف ، وعقدت في أثناء هذه السرايا محالفات مع القبائل المجاورة(٣) ، إذ أنه لا بد لسكان المدن التي تقوم في جو بدوي أن تعمل حسابا لغزوات البدو ، ولا يكون ذلك إلا بمحالفتهم ومهادنتهم ثم كسر شوكتهم بالضرب عند اللزوم .

والسرايا التي عرفت في السنتين الأوليين كانت عبارة عن حملات صغيرة لا يقصد بها إلى الحرب ، وإنما يقصد بها ما يقصد من أعمال الدوريات الحربية ، وهي المحافظة على الحدود أو الاستكشاف ، وأحيانا إيقاع الضرر بأي عدو والانسحاب بسرعة . وقد بلغ

(١) سورة الأنفال : ٧٢ .

(٢) نفس السورة : ٧٤ — ٧٥ .

(٣) انظر ابن هشام : ٢/٢٢٤ ، ٢٣٦ .

عدد هذه السرايا ثمانيا اتجهت إلى كل الجهات ، قاد النبى بعضها بنفسه وعقد لبعض أصحابه على بعضها(١) .

ويذكر المؤرخون هذه السرايا على أنها عمليات حربية مقصودة بذاتها وعلى أنها متصلة بالصراع الذى قام بين النبى ومكة(٢) . وهذا فى نظرنا خطأ ، والخطأ آت من أن المصادر نفسها والمؤرخين المحدثين لم يفطنوا إلى أن هذه السرايا كانت عمليات حربية داخلية يقصد بها تقوية الجبهة الداخلية ، ويقصد بها كذلك ضمان الأمن ودفع الأذى الذى قد يأتى من الخارج ولو كان من قريش ، فهى ليست عمليات ضد مكة ولا كان المقصود بها التمهيد للدخول فى الحرب ضد مكة، وإنما هى عمليات تتصل بكيان المدينة أصلا . ولعل هذا الخطأ الذى وقع فيه المؤرخون جاء من أن هذه السرايا التحم بعضها عرضا مع بعض قوافل مكة ، ثم أعقبها بعد ذلك صراع قام بين الدولة اليثربية وبين مكة .

على أنه كان من مهمة هذه السرايا منع تجارة قريش من المرور فى أراضى الدولة الجديدة ، طبقا لنص الصحيفة الذى يقول ، إنه لا تجار قريش ولا أموالها ، وهذا داخل فى نطاق أعمال السيادة للدولة اليثربية . وكان لا بد من إشعار قريش ، ومن إشعار القبائل المجاورة أن حدود الدولة محروسة وأن سيادتها على أراضيها يجب أن تحترم ، وأنه من الخير الاعتراف بها والاتفاق معها . والنبى كان ينظر لقريش نظرة خاصة ، فهو يقدر الميزات التى تنطوى عليها مهادنة قريش واعترافها بدولته ، كما كان يدرك قيمة قريش بين العرب ، وما يعود من وراء الاتفاق معها من فوائد للدعوة الجديدة ، كما كان يقدر ما تضم هذه القبيلة من رجال تمرسوا بالحياة وخبروا الحكم وتسيير دفة الأمور سياسيا واقتصاديا ، فهو لذلك كان يحرص على مهادنتها أكثر مما يحرص على حربها . لكنه فى الوقت نفسه كان

---

(١) انظر ابن هشام : ٢/٢٢٣ ــ ٢٤٢ . الطبرى : ٢/٤٠٢ — ٤١٥ .

(٢) الواقدى : ٤ . الطبرى : ٢/٤٠٢ــ٤١٥ . ابن كثير : ٣/٢٤٦ــ٢٤٨ . هيكل: حياة محمد: ٢٣٧ — ٢٤٢ Watt : Muhammad at Medina. P. 2—3.

يريد أن يشعرها بقوة الدولة الجديدة وتصميمها على المحافظة على كيانها وسيادتها . وقد حملت السرايا تهديدا لقريش بأن مرور تجارتها إلى الشام أو إلى العراق مرهون برضاء الدولة اليثربية ، ولذلك فعليها أن تحسب حساب الوضع الجديد ، ويجب أن تغير من سياستها المنطوية على العدوان بالنسبة للنبي والمسلمين فى يثرب ، وأن تترك الحرية للمسلمين الذين حبستهم فى مكة ، وتترك المجال للدعوة الإسلامية تأخذ مجالها الحر دون مناوأة ودون حرب . لكن السرايا لم تحمل أكثر من هذا التهديد ، فلم تشتبك فى حرب مع قوافل قريش ، ولم تستولى على شىء منها ، إلا ما كان من سرية أرسلها النبى إلى بطن نخلة بين مكة والطائف لتتعرف أخبار قريش ، ولم تكن السرية من القوة بحيث تشتبك فى حرب أو تصادر قافلة[1] ، ولكن أفرادها تصرفوا على مسئوليتهم الخاصة ، فاستولوا على قافلة صغيرة لقريش وقتلوا أحد رجالها وأسروا رجلين ، وقد كان ذلك فى آخر رجب سنة ٢ هـ ، وقد لام النبى فعلا رجال هذه السرية على تصرفهم الشخصى هذا . ومن هنا يتبين أن مهمة السرايا لم تكن هجومية ولم يقصد بها إلى الحرب .

ولم تقبل قريش هذا التهديد اليثربى ولم تفكر فى الاتصال بالدولة الإسلامية اتصالا سلميا ، وإنما انتهزت فرصة استيلاء السرية اليثربية على قافلتها وشنت حربا دعائية كبيرة ضد النبى والمسلمين بقصد إظهارهم بمظهر المعتدين الذين لا يرعون الحرمات[2] ، وقد كان لهذا الموقف أثر كبير فى العلاقات بين قريش والنبى ، إذ انقلب الوضع بعده إلى صراع سافر استخدم فيه الطرفان كل إمكانياتهما المادية والمعنوية . وتعتبر هذه السرية بذلك مفترق طرق فى سياسة الإسلام بعامة وفى سياسة المسلمين بإزاء قريش بخاصة ، فقد كان الإسلام يسير فى سياسته على أساس المسالمة وعدم رد الاعتداء بالاعتداء ، فتغيرت هذه السياسة ونزل القرآن بشرعية الجهاد لرد العدوان « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن

---

(١) ابن هشام : ٢/٢٣٩ . يذكر ابن اسحاق أن هذه السرية كانت بقيادة عبد الله ابن جحش ومعه ثمانية رجال تخلف منهم فى الطريق رجلان ومضى بقية أصحابه حتى نزل بنخلة .

(٢) انظر ابن هشام : ٢/٤٣٧ (طبعة صبيح ١٩٦٣) .

الله على نصرهم لقدير(١) » وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين »(٢) وكان المسلمون حتى ذلك الوقت يتجنبون اتخاذ موقف الشدة مع قريش ، فتحولوا إلى اتخاذ موقف الصرامة معها ، واعتزم النبى أن يقف من اعتداءاتها على حدود دولته ، بتمرير تجارتها فى أراضيها وإدلالها عليه بالقوة موقفاً صارما ، ولذلك قرر منع هذه التجارة ومصادرتها إذا مرت ، وليس هذا القرار اعتداء حربيا ، وإنما هو ضغط اقتصادى أريد به تحويل مكة عن موقفها وعن المعارضة ، ولما كانت قريش تدرك أن بإمكان النبى أن يحطم اقتصادها بقطع تجارتها إلى الشمال ، بينما لا تستطيع هى أن تؤثر فى حياة المدينة التى تعتمد على مواردها الداخلية ، فقد قررت — معتمدة على قوتها — أن تكسر الحصار ، فوقعت بين الطرفين موقعة بدر سنة ٢ هـ ثم تلاها بعد ذلك مواقع متعددة ، ولكن موقف النبى فى هذا الصراع كان موقفا دفاعيا محضا ، ولم يتخذ خطة الهجوم إلا بعد أن استنفدت قريش كل إمكانياتها ، وبعد أن مديده بالسلم وحرص على تسويده حتى نقضته قريش نفسها .

فإن موقعة بدر التى حدثت فى السنة الثانية من الهجرة حدثت على حدود إقليم المدينة ، وعلى أثر تحدى المكيين للنبى وتسيير قوافلهم بأراضى المدينة ممتهنين بذلك حق سيادة الدولة الإسلامية فى يثرب(٣) ، ثم إن موقعة أحد التى حدثت فى السنة الثالثة وقعت فى جوار المدينة مباشرة ، وكان المكيون فيها مهاجمين مطالبين بثأر بدر(٤) ، ثم إن النبى خرج فى العام الرابع إلى بدر تنفيذاً لوعد بالحرب كان بينه وبين المكيين يوم أحد(٥) ، فلم يلق النبى يومئذ حربا ، ولكنه حين سار إلى بدر إنما سار إلى حدود إقليمه ولم يتجاوزها . فلما كان العام الخامس وهو عام الخندق كان النبى مستقرا بيثرب وعدوه هو الذى جاء

(١) الحج : ٣٩ .
(٢) البقرة : ١٩٠ .
(٣) انظر ابن هشام : ٢٤٤/٢ — ٢٨٤ . الطبرى : ٤٢١/٢ — ٤٧٩ .
(٤) انظر ابن هشام : ٣/٣ — ٤٥ . الطبرى : ٤٩٩/٢ — ٥٣٣ .
(٥) انظر ابن هشام : ٤٥/٣ ، ٢٢١ — ٢٣٢ . الطبرى : ٥٥٩/٢ .

إليه متحديا منتهكا لحقه فى السيادة كما كان الحال فى عام أحد ، فالنبى لم يكن مهاجما بل إنه أراد أن يبرز نيته السلمية وأن يفهم الناس بطريقة مادية محسوسة أنه لا يريد حرباً ، ولجأ للتعبير عن هذه النية إلى طريقة مستحدثة تأباها الفروسية العربية ، وهى طريقة حفر خندق حول المدينة(١) ، ثم برزت نية النبى السلمية بشكل أوضح جداً لا خلاف عليه بعد الخندق ، فبعد أن فقدت قريش كل قدرتها على ضرب المدينة وبعد أن عجزت عن تمرير تجارتها إلى الشام أو إلى العراق وأضر بها الحصار الاقتصادى(٢) ،وبدأت القبائل تشك فى قدرتها وتراجع موقفها من التعاون معها ضد النبى ، نادى النبى بالسلم أو كلمة التقوى واعتبرها مقابلة لما كان يتبعه الناس يومئذ من الاستجابة لحمية الجاهلية . وأعلن فى العام السادس عزمه على زيارة الكعبة احتراما لها ، وكان الله قد أمره بجعلها قبلة المسلمين فى صلاتهم منذ العام الثانى(٣) ، فكان طبيعيا أن يفكر بعد أربع سنوات من اتجاهه إلى هذه القبلة أن يسعى إليها زائراً مكبراً فى كثير من الورع وفى تبجيل دينى عميق ، وكان يرجو أن تؤتى هذه الزيارة ثمرتها حين يلتقى المطرودون بأقاربهم الذين ظلوا فى مكة ، فتتعاطف الأرحام ، ولكن المكيين أدركوا أن الأثر الذى تتركه هذه الزيارة قد يضعف صفوفهم ، فحالوا بين النبى وبين دخول مكة ، ولكنهم وقعوا معه هدنة عرفت بصلح الحديبية ، وقد أظهر النبى تساهلا كبيراً فى شروط الهدنة رغم معارضة كثير من أصحابه ، وعد الفوز بالسلم غنيمة كبرى وفتحا عظيما(٤) ، وقد نزل القرآن الكريم بهذه المناسبة يقول : « إنا فتحنا لك فتحا مبينا » (٥) وفى العام الثامن حين نقضت قريش شروط الهدنة باعتدائها على حلفائه الخزاعيين ، وقرر فتح مكة ، حرص على أن يتفادى الاصطدام

---

(١) ابن هشام : ٣/٤٥ ، ٢٢١ — ٢٢٢ الطبرى : ٢/٥٥٩ .

(٢) انظر الواقدى : ١٥٥ — ١٥٦ .

(٣) الطبرى : ٢/٤٢٧ . ابن كثير : ٣/٣٤٧ .

(٤) انظر ابن هشام . ٣/٣٥٦ — ٣٦٧ . ابن سعد : ٣/١٣٩ . إمتاع : ١/٢٧٥—٢٩٠ .

(٥) سورة الفتح : ١

بالمسكيين وتم فتح مكة بدون حرب . وبعد فتح مكة لم يلجأ إلى حرب ثقيف وهوازن في يوم حنين إلا لأن هذه القبائل تحدته وجاءت لحربه ورفضت الدخول فيما دخل فيه المكيون[١] ، وكانت الطائف من ريف مكة ولسادتها فيها بساتين وزروع . ففي كل هذه السنين لم يتجاوز النبي حد الدفاع عن الدولة الإسلامية وضمان الأمن لها مع تغليب كلمة التقوى أو كلمة السلم ، فالنبي لم يرد أن يفرض الدين بالحرب والإكراه « لا إكراه في الدين » . ومع ذلك فإن النبي حرض المسلمين على الجهاد ونزل القرآن بآيات كثيرة ترفع من شأن المجاهدين[٢] . إلا أن الجهاد لم يكن يقصد به إلا الدفاع وإلا إعزاز الدولة بحيث تعيش في أمن تام .

والطريقة التي سلكها النبي مع مكة هي نفس الطريقة التي سلكها مع القبائل العربية ، فإنه لم يغز من القبائل إلا التي اعتدت عليه أو استعدت للعدوان ، وإذا كان الذي قد غزا القبائل في أماكن تجمعها فإنما كان ذلك وسيلة من وسائل الدفاع ، فهو في الواقع هجوم دفاعي ، القصد منه كسر شوكة القبائل وعدم ترك الفرصة لها للاغارة التي تنويها[٣] .

وإذا كان النبي قد خاض صراعا مع قريش ومع القبائل التي كانت تدور في فلكها فما هو الهدف الذي كان يرمى إلى تحقيقه من هذا الصراع ؟

إن النبي منذ البدء حدد هدفه في الصحيفة تحديداً واضحا صريحا لا يمكن اللبس فيه ، وهو إنشاء أمة واحدة ، والبدء يجعل العرب أمة واحدة لا تميز بين قبائلهم ، ومثل هذا الهدف المعبر عنه في الصحيفة نعبر عنه في العصر الحديث بالتوحيد ، وقد كان النبي يريد أن يوحد العرب بأن يخرجهم من الحالة القبلية والنظام السياسي المغلق في دوائر

---

(١) انظر الطبرى : ٣/٧٠ — ٨٥ .

(٢) انظر على سبيل المثال . النساء : ٩٠ — الأنفال : ٥٨ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٧٤ — ٧٥ . المائدة : ٣٣ ـ ٣٤ . التوبة : ٨٨ ، ١١١ . النحل : ١٢٩ .

(٣) أنظر بن هشام . ٢/٤٢١، ٢٤٦ ، ٣/٢١٤ـ٢١٦، ٢٢١ـ٢٢٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٣٤ ، ٤/٢٨٥ ، ٢٩١ ـ ٢٩٤ ، ٣٠٦ .

القبائل ، إلى نظام جديد يكون الناس فيه سواسية فى وحدة واحدة ، وقد ذهب إلى أبعد من هذا فلم يقصر التسوية على العرب وإنما مدها إلى كل البشر ، فقد جاء فى الحديث « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » . وصراع النبى مع مكة كان خطو نحو هذا الهدف ، وذلك أن مكة كانت تمثل النظام القديم فى نظر الناس فى الجزيرة العربية كلها ، وهى التى تحمل لواء المعارضة ، فكان من المتوقع بعد أن تسلم هى اللواء ألا يوجد فى الجزيرة من يقدر على حمله ، وكانت الزعامة القرشية زعامة حقيقية قبل الإسلام على اعتبار أنها كانت تقوم على رعاية البيت الحرام وتشرع للعرب فى أمر الدين ، وكانت الأمم فى تلك العصور تمركز جميع مشاعرها القومية فى الدين ، ولهذا كان تسليم قريش وتحولها من المعسكر القديم إلى المعسكر الجديد أمراً مهما جداً . والنبى كان يحس بهذا تمام الإحساس حين مال إلى السلم وتجنب أن يريق دماء القرشيين مهاجما ومعتديا ، بل إنه حين انتصر على قريش لم يتبع معها ما يتبع عادة مع المنهزمين ، بل قبلهم فى صفوفه دون شرط وسماهم « الطلقاء »[١] ومنحهم بعد ذلك بقليل أموالا غنمها من وقعة حنين ، وأراد بهذا أن يتألف قلوبهم فسموا « المؤلفة قلوبهم »[٢] وهاتان التسميتان تدلان دلالة ظاهرة على سياسة النبى . فلما انضمت مكة فى العام الثامن إلى معسكر النبى اقترن هذا بتحطيم الأصنام[٣] ، وهذا التحطيم فى ذاته ليس شيئا بعد تسليم قريش ، ولكنه عمل له معنى خطير ، فهو تحطيم للدين القديم وللنظام القديم . وتسامع الناس بهذا الفتح وهذا التحطيم فكان لحديثهم هذا نتائج بعيدة المدى؛ كانوا يتسامعون بأن قريشا مالت إلى النبى وأصبحت من حزبه ، وأصبح الحجاز كله لرجل واحد ، وعرفت العرب فى كافة أرجاء الجزيرة أن تغييراً سياسيا كبيراً قد طرأ على النظام القديم ، وتسامعت فى الوقت نفسه بأن نبيا جديداً حطم الآلهة ولم ينله أذى ، فكان بقاؤه بعد تحطيم الأصنام يحمل فى ذاته نوعا من الدليل على صدق النبوة بالنسبة للوثنيين . ولهذا سارعت القبائل المختلفة إلى الاتصال السياسى بهذا النظام الجديد ، وسعى بعضها إلى الاتصال السياسى والدينى فى نفس الوقت بهذا الرجل

---

(١) الطبرى . ٦١/٣ .

(٢) نفس المصدر : ٩٠/٣–٩٤ .

(٣) ابن هشام . ٣٢/٤ ، ٣٧ ، ٥١ ، ٦٤ ، ١٩٨ . امتاع . ٣٨٣/١ – ٣٨٤ .

القوى الذى ظهر فى الحجاز وخالوه ملكا ظهر على صورة نبى، فتوافدت الرسل ممثلة للقبائل المختلفة على يثرب فى العام الثامن والتاسع وبعض العاشر ، حتى لم تبق قبيلة إلا أرسلت للنبى وفداً يعقد معه عهداً[١] وهذه الوفود هى الصدى الملموس لنهاية الصراع بين النبى ومكة على هذا النحو السعيد . وقد كان اتصال القبائل بالنبى عن طريق شيوخها وزعمائها ، وقد صالح هؤلاء الزعماء النبى ، وحاولوا ما استطاعوا أن يصلوا إلى شروط ملائمة لأقوامهم ولأنفسهم ، فإذا كانت إحدى القبائل مثلا قد انقسمت بسبب النزاع على الإمارة فيها ، فإن أحد الفريقين المتخاصمين كان يحاول عن طريق الدخول فى الإسلام أن يتقوى على الفريق الآخر[٢] . وعلى هذا فإن الدخول فى الإسلام كان عملا سياسيا وانضماما إلى الأمة فى المدينة ، وكان الأمر مقصوراً على قبول مظاهر الإسلام وعلامات سيادته ، خصوصا إعلان الأذان وتأدية الصلاة ودفع الزكاة ، فإذا تم الاتفاق على دخول الاسلام بعث النبى إلى بلاد القبائل من يقيم لهم الصلاة ويعلمهم أصول الدين وأحكام الشريعة ويجمع منهم الزكاة[٣] ، فكان الاعتراف باللسان كافيا ، وكان الإيمان فى أقوى درجاته - إيمانا ضمنيا .

وقد أتاحت هذه الخطوة التى تحققت بقدوم الوفود للنبى أن يتجه إلى خطوة أخرى تقرر الخطوة السابقة وتثبت دعائمها ، فأصدر فى نهاية العام التاسع بيانا عاما لكل سكان الجزيرة العربية . وكان هذا البيان وحيا ، ولم يكن من كلام النبى لأنه جاء فى آيات قرآنية هى الآيات من صدر سورة التوبة ، وقد بدئت بكلمة « براءة » فسمى هذا البيان « بيان براءة » وقد أذاعه النبى فى مناسبة عامة يحضرها العرب من كافة أنحاء الجزيرة وفى يوم مشهود هو يوم الحج الأكبر . ومضمونه أن الله برىء من المشركين ورسوله ، وأنه لا عهود بينهم وبين الدولة الإسلامية ، وأن الذين سبقت لهم عهود فلم ينقضوها

---

(١) ابن سعد . ٢/٥٦ - ١٣١ .

(٢) الطبرى . ٣/٩٩ ، ١١٥ ، ١٢٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ . ١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٤٥ . فلهوزن : ٢٠ .

(٣) الطبرى : ٣/١٢١ - ١٢٢ .

شيئا ولم يعينوا على المسلمين أحداً توفى إليهم عهودهم إلى مدتها ثم لا تجدد ، ثم أجل المشركين أربعة أشهر ليفكروا فى وضعهم ، فإما أن يعلنوا الإسلام وينضموا للدولة الجديدة ، فيشملهم سلامها ، وإما أن يعتبروا خارجين عليها ولا يكون لهم أمان ، وعلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن يدفعوا الجزية إعلانا لانضمامهم أو يلحقوا بالخارجين. وكذلك اعتبر البيان الحج فريضة خاصة بالإسلام فحرم على المشركين أن يحجوا إلى مكة . وهذا الإعلان يعد قانونا فرضه الإسلام على كل القبائل العربية ، ففرض عليهم الاجتماع تحت دين واحد ، ولم تر القبائل بداً — وقد أسلمت قريش — من الدخول فى الدين الجديد والنظام الجديد(١) . فهذا القانون هو وثيقة الوحدة للقبائل العربية النازلة فى الجزيرة بعد نص الصحيفة التى أنشأت الدولة الإسلامية فى يثرب . وقد مات النبى بعد عام وبضعة أشهر ، بعد أن وصل إلى هذه المرحلة ، ولكن قبل أن تثبت دعائم هذه المرحلة ، ولكن قبل أن تثبت دعائم هذه المرحلة الجديدة ثباتا نهائيا . وفى هذه الفترة الواقعة بين إعلان براءة ووفاة النبى ، طبق الرسول قانون براءة فى حذر شديد وكياسة سياسية بارعة، وتجنب الحرب ما استطاع ، فكان يكتفى من القبائل بأن ترسل وفودها تعلن باسمها إسلامها وانضمامها إلى حكومته ، ويرسل مع الوفود عند عودتها معلمين يعلمونهم الإسلام فى بلادهم ، وهؤلاء المعلمون هم أول صنف من الدعاة وأول صنف من الولاة والعمال ، وعلى أيديهم دخلت القبائل فى الإسلام ، وجمعت الصدقات من كافة القبائل ووزعت على الفقراء توزيعا محليا ولم يرسل إلى يثرب إلا الفائض . وهؤلاء الولاة والعمال الجباة الأولون لم يشلوا يد رؤساء القبائل حين وقفوا إلى جوارهم ، بل كانوا يتعاونون معهم تعاونا تاما ، وفى بعض الأحيان كانوا يضعون أنفسهم فى حمايتهم(٢) .

وهكذا استطاع النبى أن يوحد العرب فى دولة واحدة تحت ظل الإسلام . وكان فتح مكة وانضمامها للإسلام هو عامل النجاح الأكبر فى تحقيق هذا الهدف. وعلى الرغم من أن مكة هزمت ،

---

(١) انظر الطبرى . ٢/١٢٣ .

(٢) ابن هشام : ٤/٢٧١ . الطبرى : ٣/١٢١ — ١٢٣ . إمتاع : ١/٤٣٣ .

وعلى الرغم من أن قريشا أصيبت فى الحرب بينها وبين النبى بأضرار كبيرة ، إلا أن مكة نالت من وراء انتصار الإسلام فائدة أكبر وأدوم ، وذلك لأنها وحدها هى التى بقى لها بيتها المقدس وأصبح الحج إليه فريضة من فرائض الإسلام ، وعلى حين كانت جاذبيتها الدينية تجمع العرب إليها وحدهم ، أصبحت بعد الإسلام وانتشاره فى مشارق الأرض ومغاربها مهوى أفئدة المسلمين جميعا فى كل البقاع . ونالت قبيلة قريش حظا أوفى مما كان لها من قبل ، فقد تدعمت سيادتها وبعد أن كانت لها زعامة دينية وأدبية بين العرب فى الجاهلية أصبحت وقد ضمت إليها الزعامة السياسية ، وبعد أن كانت هذه الزعامة لها بين العرب وحدهم امتدت زعامتها على العالم الكبير الذى ضمة الإسلام بعد ذلك . فقدعرفت قريش بمهارة فائقة كيف تستغل الدين الذى رفضته وحاربته فى أول الأمر ، وكيف تنتفع بمركز أبنائها الذين طاردتهم وسعت للقضاء عليهم وبمرونة كبيرة أعانتها عليها مهنتها التجارية تحولت من حال إلى حال ، فانقلبت فى أيام معدودة إلى تأييد النظام الجديد بكل طاقاتها المادية والأدبية، فألقت بقوتها فى ميدان القتال فى موقعة حنين مع قوات النبى[1] ، وحاربت أمام الطائف من كانوا بالأمس القريب حلفاءها[2] ، ثم كسرت أصنامها وتتبعت الأصنام تكسرها[3] والتفت حول رجلها الفذ تحيط به وتأخذ من مجده الخالد مجداً تضيفه إلى مجدها القديم ، وتجعله ميراثها الذى تثبت به زعامتها لا بين العرب وحدهم بل بين كل من دان بدين هذا الرسول الكريم ، وحين رأت مركز السلطان يستقر فى يثرب هاجر رجال قريش الطامحون إليها ، وكان فى مقدمة المهاجرين بعد الفتح أولئك الذين قادوا الهجوم عليها من قبل وعلى رأسهم أبو سفيان وعشيرته من بنى أمية . وكون القرشيون فى يثرب فئة كان لها أظهر النفوذ . وقد استفاد القرشيون من المركز الممتاز الذى كان

---

(١) انظر ابن هشام : ٤/٦٨ — ٦٩ .

(٢) انظر ابن هشام : ٤/١٢٢ — ١٣١ .

(٣) انظر إمتاع : ١/٣٨٣ ، ٣٩٨ .

لأبنائهم من المهاجرين الأولين ، فقد كان هؤلاء يكونون الدائرة القريبة من النبى ، وعلى قلتهم اعتبروا فى الصحيفة طرفا مساويا لأهل المدينة ، واعتمد النبى عليهم اعتماداً تاما فى السنتين الأوليين حين كان يخطط حدود دولته فى يثرب ويضم الريف والحلفاء لها ، فقد كانوا هم رجال السرايا الأولى ، ولم يشاركهم الأنصار فى هذا العمل ، ثم كان منهم القواد فى معظم الغزوات والبعوث ، إلى جانب أنهم كانوا أخص مستشارى رسول الله وأهل الرأى فى دولته . فلما فتحت مكة هاجر كثير من أهلها وأصحاب الطموح فيها ، فتدعم مركز القرشيين بالمدينة ، وازدادت قوتهم بفضل مهاجرين كثيرين جاءوا إلى المدينة من قبائل أخرى وكانوا يسمون بالمهاجرة ، ومن ثم أخذت نسبة المهاجرين فى الزيادة بينما انحدرت تبعا لذلك النسبة العددية للأنصار .

والحق أن التشكيل السكانى المدينة قد تغير تغيراً تاما ، عن الصورة التى رأيناها عليها قبيل الهجرة ، فقد خرجت عنها عناصر كانت ذات شأن فيها بل كانت أغنى عناصرها ونعنى بها قبائل اليهود الثلاثة الكبرى : قينقاع والنضير وقريظة .

وقد بدأت العلاقة طيبة بين النبى واليهود بعد الهجرة فأحسنوا هم استقباله ، ورد هو تحيتهم بتوثيق صلاته بهم . فتحدث إلى رؤسائهم ، وربط بينه وبينهم رابطة المودة باعتبارهم أهل كتاب موحدين ، وقامت علاقة طيبة بين أصحابه من المهاجرين وبين اليهود حتى ليغشون مجالسهم ويذهبون إلى بيت مدارسهم يتحدثون إليهم ، ويسألونهم ويسمعون منهم ، ويرون التوراة تصدق القرآن والقرآن يصدق التوراة[1] . وما كانت الأيام لتزيد النبى والمسلمين باليهود أو لتزيد اليهود بهم إلا مودة وقربى ، حتى وصل الأمر بينهم إلى عقد معاهدة صداقة وتحالف وتقرير لحرية العقيدة . وقد نص النبى فى الصحيفة على أن يكون اليهود

---

(١) تفسير الطبرى : ٢/٣٨١ — ٣٤ .

أمة مع المؤمنين على أن يتضامنوا مع النبى ، وعلى أن تكون أهدافهم نفس أهداف الحكومة الإسلامية ، وعلى أن يكون تمسكهم بصالح الوطن اليثربى كتمسك غيرهم من المواطنين ، إلا أنهم لم يستطيعوا بعد ذلك أن ينسجموا مع ميول العهد الجديد ، وانقلبوا حربا على النبى فى مسائل العقيدة ، ولم تتفتح قلوبهم لفهم تعاليمه بل أغلقوها وصاروا يسمعونه وكأنهم لا يسمعون ، ولهذا لم يسلم منهم إلا أفراد قلائل جدا ، أما الأكثرية العظمى — بل نستطيع أن نقول كل اليهود — فقد ناوئوا الإسلام وعادوه ، ولم يريدوا الدخول فيه عن قصد متأثرين بعصبيتهم ، ففعلوا مع الرسول فى ذلك ما فعلوه مع المسيح من قبل . وكان بوسع النبى أن يصبر عليهم وأن يدعوهم بالحسنى حتى ينفذ كلامه إلى قلوبهم ، إلا أنهم نقضوا ما اشترط عليهم فى دستور المدينة الأساسى ، فوقفوا من جماعة المسلمين مواقف خطيرة كان بعضها حقيقا أن يهدم كيان الدولة الجديدة فى يثرب ، وأول جماعة من جماعات اليهود ناوأت النبى هم بنو قينقاع ، فقد حقدوا على المسلمين بعد انتصارهم فى موقعة بدر ، وبدأوا يتغامزون بالمسلمين ويغرون بهم ويحرضون عليهم ، بل تحدوا النبى حين طلب إليهم التزام العهد واستعدوا لحربه ، فحاصرهم واضطرهم للخروج من المدينة[١] . ثم واجه النبى عداء طائفة أخرى هم بنو النضير عقب موقعة أحد ، فإنهم أظهروا كثيرا من الشماتة بمن أصيب من المسلمين ، بل إنهم اتصلوا بأعداء الدولة قبل أحد ، وحرض شعراؤهم قريشا على الأخذ بثأرها من المسلمين ، بل بلغ بهم الأمر أن دبروا مؤامرة لقتل النبى نفسه وإحداث فتنة فى المدينة ، فاضطر النبى إلى إجلائهم[٢] . ثم إن بنى قريظة وقفوا فى عام الخندق من المسلمين موقفا مريبا جداً ، ولم يستطع النبى أن ينجو من خطر موقفهم هذا إلا بكياسته وحذره ، فإنه فى أثناء حصار الأحزاب للمدينة اتصلوا بالعدو وحاولوا فتح الطريق إليه لاقتحام المدينة ، ومثل هذا العمل ما نسميه الآن بالخيانة العظمى وهو ما يؤدى إلى حرمان المواطن من حق الرعوية وإلى إيقاع عقوبة الإعدام ، فلما انتهت

---

(١) انظر ابن هشام : ٢/٤٢٦ .

(٢) عن إجلاء بنى النضير : انظر : ابن هشام : ٣/١٩١ — ١٩٧ . الواقدى . ٢٨٢—٢٩٠— ابن سعد : ٣/٩٨ — ١٠٠ .

موقعة الخندق بانسحاب المحاصرين ، حاصر النبى بنى قريظة وتغلب عليهم وأوقع بهم عقوبة الخائنين[١]. واليهود بغير هذا العمل كانوا يشجعون بعض الأوس والخزرج على عدم الولاء للدين الجديد وللنظام الجديد ، حتى تكونت من هؤلاء تلك الطائفة التى عرفت بالمنافقين[٢] . فلما خلت المدينة من اليهود أصبح الجو أكثر ملاءمة للنبى فضعف النفاق ، ثم إن وحدة الميول التى سادت بعدهم جعلت المدينة أقدر على الاستمرار فى تحقيق أهدافها وجعلت الناس أكثر ثقة بأنفسهم ، وأخذت الدعوة الإسلامية تزداد كمالا والمسلمين بالمدينة يزدادون بأسا وقوة ، وكان من مظاهر قوتهم أن حاصروا اليهود فى خيبر وفدك وتيماء وأخضعوهم لسلطانهم تمهيدا لإجلائهم عن جزيرة العرب[٣]. ثم كان من مظاهر قوتهم ، وكمال الدعوة الإسلامية أن أرسل النبى إلى الملوك والأمراء بفارس وبيزنطة ومصر والحيرة واليمن وما جاور بلاد العرب أو دخل فيها من الإمارات يدعوهم إلى الإسلام[٤]. ثم كان المظهر الأسنى لهذا الكمال وهذه القوة ما كان من فتح مكة وحصار الطائف على ما أسلفنا ، وبهذا كله تألق نور الدين الجديد فى بلاد العرب وجاوزها إلى الامبراطوريتين العظيمتين فارس والروم ، وبذلك اطمأن الرسول والمسلمون إلى نصر الله ، وإن استمسكوا بخطة الحذر حتى لا يدهمهم من أية ناحية من يغشى على نور الإسلام أو ينتقص من سلطان الدولة الناشئة .

وإذا كانت المدينة قد خلت من عنصر اليهود ، وصارت عربية خالصة ، فإن طوائف جديدة من غير أهلها قدمت إليها وسكنتها ، وذلك أن النبى اشترط الهجرة إلى المدينة على من يريد أن ينال حق الرعوية فى الدولة الإسلامية ، وتبعا لذلك فإن أعداداً من رجال القبائل كانوا يأتون إلى المدينة ويستقرون فيها بعد إسلامهم ، وحين بدأ التحول فى الصراع

---

(١) انظر ابن هشام : ٣/٢٣٦ — ٢٥٩ .

(٢) انظر السمهودى : ١/١٥٥ . ابن هشام : ٣/٣٣٥ — ٣٣٧ .

(٣) انظر الطبرى : ٣/ — ٢١ إمتاع : ١/٣١٠—٣٣٢ .

(٤) انظر الطبرى : ٢/٦٤٤ — ٦٥٧ إمتاع : ١/٣٠٧ — ٣٠٩ .

بين مكة والمدينة يتجه إلى صالح الدولة الجديدة ، أخذت القبائل تراجع موقفها من انضمامها لقريش ، وبدأت أعداد كبيرة تقدم إلى المدينة وتستقر بها ، وبخاصة القبائل التى كانت تعيش حولها من سليم وأسلم ومزينة وأشجع وجهينة بل من كل قبائل الحجاز ونجد كهوازن وهذيل وقيس عيلان وفزارة وبنى عامر وبنى كعب وبنى غفار ، وقد بلغ من جاءوا من أشجع وحدها فى مرة واحدة سبعمائة رجل(١) . وعلى الرغم من أن النبى ألغى الهجرة بعد فتح مكة(٢) ، فإن المدينة قد صار لها جاذبية كبيرة أثرت فى ذوى الطبائع المتوثبة الذين أرادوا تجربة حظهم ، ورحب بهم النبى إذ كان فى ذلك تقوية للدولة وإعزاز لمركزها ، وقد سمى هؤلاء الوافدون باسم المهاجرة وانضافوا بهذا إلى المهاجرين الأولين ، وتبعا لذلك أصبحت المدينة تضم طائفتين : طائفة الأنصار وهم أهلها الأصليون من الأوس والخزرج وطائفة المهاجرين وهم أهل مكة ومن انضم تحت اسمهم من الوافدين ، وفى الوقت الذى كان عدد هؤلاء يزداد كان عدد أولئك ثابتا ، وقد أدرك النبى هذا التغير فى مركز الأنصار بالمدينة وأنهم قد فقدوا الأغلبية ، وأن الأكثرية تتجه إلى المهاجرين ، ومن ثم يتجه زمام الأمر إلى أيديهم ، فخطب موصيا بالأنصار مقدارا حقهم ، فما قال «يامعشر المهاجرين : إنكم أصبحتم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد ، هى على هيئتها التى هى عليها اليوم ، وإن الأنصار عيبتى التى آويت إليها ، فاحفظونى فيهم ، فأكرموا كريمهم ، وأقبلوا محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم »(٣) . وهكذا لم تعد المدينة مدينة الأنصار بل صارت مدينة الرسول التى جعل منها شيئا آخر غير ما كانت عليه من قبل ، فجعلها عاصمة الجزيرة العربية وعاصمة الإسلام .

---

(١) انظر السمهودى : ١/٥٤٧ — ٥٥٢ .
(٢) امتاع : ١/٣٩١ .
(٣) نفس المصدر : ١/٥٤٥ .

الفصل الثانى

قيام الخلافة وتثبيت الوحدة العربية فى ظل الإسلام

كان موت النبى صلى الله عليه وسلم دون أن يترك وصية عن طريقة الحكم من بعده ، أمراً أثار كثيراً من الخلاف ، وأحدث هزة عظيمة شملت الجزيرة العربية كلها ، وأوقف المسلمين فى المدينة أمام مشكلتين خطيرتين : أولاهما هى مشكلة النظام الذى يجب أن يقوم بعده ، وثانيتهما متصلة بالأولى وهى هل يستمر النظام الجديد الذى كان أيام النبى ، فيستمر العرب الذين انضموا إلى المدينة على الطاعة والحلف ، أم يعودون كما كانوا من قبل قبائل مستقلة ومدنا متفرقة ، وبحل هاتين المشكلتين تقررت الخلافة ، وتدعمت الوحدة وثبت النظام الجديد .

اختلف المسلمون عندما علموا بوفاة النبى ، وتمايزوا إلى جماعتين . فأما الجماعة الأولى فهم المهاجرون ، وقد هزهم موت النبى هزاً عنيفاً ، وذهل بعضهم حتى خرج عن حد التعقل ، فقد قام عمر بن الخطاب ـ وهو الرجل القوى ـ يأبى أن يصدق الخبر ويهدد من يقول به ، والتف حوله الناس لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً أو يفكروا فى شئ ، كما شغل أهل النبى الأقربون بمصابهم فأحاطوا بجثمانه يعدون العدة لتجهيزه ، ولم يحتفظ برباطة جأشه غير أبى بكر الذى واجه الحقيقة فى قوة وشجاعة ، فاستطاع أن ينقذ موقف المهاجرين ويردهم إلى التفكير السليم فيما هو واجب عليهم نحو أمتهم ودينهم ، حين خطبهم قائلا « من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت »(١) ثم تلا عليهم قول الله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين »(٢)،

---

(١) ابن هشام : ٤/٣٣٥ ؛ الطبرى : ٣/٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤٤ .

واسترد عمر نفسه ، وبدأ يفكر هو وكبار المهاجرين فيما يكون الأمر بعد وفاة النبى . ولما كانوا أقرب الناس من النبي بحكم سابقتهم وجهادهم ، وكانوا يؤلفون الدائرة القريبة منه فى حياته ، ومنهم يتكون مجلسه ومستشاروه ، فإنه كان عليهم أن ينظموا الأمر من بعده ، ورأوا أنهم أحق بتولى زمام الحكومة فى الدولة التى أقامها ، فانحازوا إلى أبى بكر الذى بدا أنه رجلهم ورجل الأمة .

وأما الجماعة الأخرى فقد كانوا الأنصار من أهل المدينة ، وكانوا يجدون على المهاجرين أنهم آووهم ونصروهم أول ما جاءوا إليهم لاجئين مع الرسول ، فلما اطمأنوا أرادوا أن يستأثروا بالأمر دونهم . كانت هذه روحهم فى عهد النبى ، فكان من الطبيعى أن تظهر واضحة حين وفاته . والحقيقة أن طموح الأنصار يمتد بعيداً ، نلمسه من وقت اتصالهم بالنبى وهو فى مكة قبل الهجرة ، فإن النفر الذين اتصلوا به من الخزرج وأطلعوه على حال بلدهم كانوا يعرضون لأمرين يتصل كل منهما بالآخر ، فقد قالوا له « إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، وعسى أن يجمعهم الله بك ، فسنقوم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك »(١) ، فهم بهذا يرجون أن تزول العداوة بين قومهم فيجتمعون على الإسلام ، فتتم لهم الوحدة ، ويجد النبى بينهم العزة على أيديهم .

وعند البيعة الثانية التى تقررت بها الهجرة ، أرادوا أن يستوثقوا من النبى إذا نصروه وأظهره الله على أيديهم أهو تاركهم وراجع إلى قومه ، فقد سأله بعضهم « إن بيننا وبين الرجال حبالا ، وإنا قاطعوها ، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ » ورد النبى قائلا « بل الدم الدم ، والهدم الهدم . أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم »(٢) .

وقد استقبل الأنصار المهاجرين استقبالا كريما وهيأوا لهم المقام والمعاش والحماية ،

---

(١) ابن هشام : ٢/٣٨ .
(٢) نفس المصدر : ٢/٥٠ — ٥١ .

ولم يعارضوا أول الأمر فى أن يختصهم النبى من وجوه شتى(١) ، ولا فى أن يكون للمهاجرين وحدهم ما وقع فى أيدى المسلمين من أراضى اليهود فى المدينة بعد إجلائهم عنها ، بل كانوا فى الحقيقة مثال النبل والإيثار(٢) ، وكانوا يرون فى ذلك أمراً طبيعياً تمليه الضرورة ، فإن المهاجرين مع النبى كانوا أسبق منهم فى الإسلام ، وهم لذلك أكثر تفهما وإدراكا لتعاليمه ، والأنصار فى ذلك يتعلمون منهم كما يتلقون عن الرسول ، ثم إن المهاجرين تحملوا تضحيات كبيرة حين تركوا أموالهم ودورهم بمكة وهم يعتمدون على مروءة الأنصار ، وكان طبيعيا أن ينالوا بعض التعويض الذى من شأنه فى الوقت نفسه أن يرفع عن الأنصار أنفسهم معونة إعالة المهاجرين ، ثم إن المهاجرين كانوا فى قلة من العدد ، وحين وفدوا كان الأنصار قد التزموا بالدفاع عنهم كما التزموا بالدفاع عن النبى وحماية الدين ، ومثل هذا الالتزام يفرض عليهم أن يتحملوا العبء الأكبر فى القتال ، هذا فضلا عن كثرتهم العددية وعن أن القتال فى ذاته كان دفاعا عن النظام الذى أقامه النبى فى بلدهم ، وشعورا منهم بضرورة استمرار هذا النظام . وقد أخلص أهل المدينة لالتزاماتهم إخلاصا عظيما ، ولكن بمرور الأيام أخذ يزداد بينهم الشعور بأن هؤلاء القوم الذين اجتلبوهم أصبحوا أقوى منهم ، فقاموا بمحاولات لكى يظهروا أنهم سادة فى ديارهم ، وأنهم لا يحبون أن يرضوا بكل ما يفعله ضيوفهم ، وقد أذكى هذا الشعور بنوع خاص سيد من قبيلة الخزرج هو عبد الله بن أبى بن سلول الذى كان له نفوذ كبير من قبل ، ورأى أنه بعد مجىء النبى عليه السلام قد نحى عن مكانته(٣) . وإن موقف عبد الله بن أبى فى غزوة بنى المصطلق سنة ٦ هـ ليكشف عما كان يعتمل فى نفوس عدد من أهل يثرب نحو المهاجرين وما وصلوا إليه ، فقد حدث أن اشتجر رجلان من المسلمين على الماء ، وكان أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار ، فتنادى الرجلان

---

(١) Khuda Bukhsh, The Orient Under the Caliphs, P. 55.

(٢) انظر ابن هشام : ٣/١٩٣ . امتاع : ١/١٨٠ — ١٨٣ .

(٣) انظر ابن هشام : ١/٢١٦ . السمهودى : ١/١٥٥ .

كل بقومه ، وبلغ الأمر عبد الله بن أبى ، فقال لمن كان حوله من قومه « ما رأيت كاليوم مذلة . . . قد فعلوها ، قد نافرونا وكاثرونا فى بلدنا ، وأنكروا منتنا . والله ما صرنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل « سمن كلبك يأكلك » . . . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » . ثم أقبل على من حضر من قومه فقال : « هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم ، ونزلوا منازلكم ، وآسيتموهم فى أموالكم حتى استغنوا ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم ، ثم لم ترضوا ما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضا المنايا فقتلتم دونهم ، فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا »(١) ولكن وقف فى وجه حركة عبد الله بن أبى عاملان : الأول هو قبيلة الأوس التى تحركت ضده، وذلك لأن الانقسام الخطير القديم بين القبيلتين كانت رواسبه لا تزال كمينة فى النفوس ، والثانى هو الإيمان العميق الذى كان يملأ قلوب الأكثرية العظمى من الخزرج، والذى كان ابن عبدالله بن أبى مثلا واضحا عليه ، فقد أقبل إلى النبى يطلب إليه أن يأمره بأن يأتيه برأس أبيه إن كان قد أمر بقتله(٢) .

ولقد كان الانقسام بين طرفى الأنصار مفيداً للطرف الثالث الذى كان فوق النزاع ، وكان من السهل على النبى فى هذه الظروف أن يهدىء الأنصار دائما ، وكانوا هم يحسون بأنهم مدينون له بالشكر دائما ، لأنه أنقذهم من إفناء بعضهم بعضا بما كان بينهم من من تسافك ، فكانوا إذا عادوا إلى صوابهم يقرون بأنهم ليس لهم عن النبى غنى ، حتى لقد أقلقهم كل الإقلاق ما خيل إليهم أن النبى بعد أن تم له فتح مكة سيترك مدينتهم ويعود إلى وطنه الأول . وقال بعضهم لبعض « أترون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها » ؟ ، ولم يهدأوا حتى طمأنهم النبى بقوله « معاذ الله المحيا محياكم والممات مماتكم »(٣) ، لكنهم حين رأوا النبى يقسم غنائم حنين ويجزل العطاء

(١) سورة « المنافقون » . ٧ — ٨ . انظر ابن هشام ٣/٣٣٤ — ٣٣٧ . الطبرى : ٢/٦٠٥ — ٦١٠ . امتاع : ١/٢٠٠ — ٢٠١ .

(٢) ابن هشام : ٣/٣٣٧ .

(٣) ابن هشام : ٤/٣٦ . فلهوزن : ٣٦ .

من فىء هذه الغزوة المؤلفة قلوبهم من أهل مكة ، وجدوا فى أنفسهم حتى كثرت منهم القالة ، وحتى قال قائلهم : « لقى والله رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ! » ، وبلغت مقالتهم النبى فطلب إلى زعيم الخزرج سعد بن عبادة أن يجمع الأنصار ، فلما اجتمعوا قال لهم يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها فى أنفسكم : ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم !» ، وكان جوابهم « بلى ! الله ورسوله أمن وأفضل » وسألهم « ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ! » فأطرقوا ولم يزيدوا على أن قالوا « بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل » هنالك تولى النبى الجواب عنهم فقال « أما والله لو شئتم لقلتم فلصدقتم وصدقتم : أتيتنا مكذبا فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك » ، ثم أردف « أوجدتم يا معشر الأنصار فى لماعة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ! ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعون برسول الله إلى رحالكم ! ! فو الذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، الله ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » وقد بلغ من تأثر الأنصار بهذه العبارة التى صدرت من أعماق قلب النبى وكلها العطف والمحبة لأولئك الذين بايعوه ونصروه وأعزوه . أن بكوا وقالوا « رضينا برسول الله قسما وحظا »(١) .

وهكذا كان النبى يعالج موقف الأنصار كلما بدا منهم ما يثير مخاوفهم من ناحية وضعهم فى النظام الجديد .

طبيعى وذلك كان شعور الأنصار فى حياة النبى ، أن يسرعوا إلى التفكير فى أمر مدينتهم أول ما عرفوا بموته . ترى أيظل أمر هذه المدينة وأمر العرب إلى المهاجرين الذين أقاموا بمكة ضعافا حتى هاجروا فأعزتهم المدينة ، أم يكون الأمر لأهل هذه المدينة الذين آووا ونصروا وآسوا ؟ ذلك ما تحدث به بعض الأنصار إلى بعض ، وذلك ما دعاهم للاسراع إلى الاجتماع فى سقيفة بنى ساعدة للتشاور فيما بينهم ، وليقروا الأمر فى يد واحد

(١) ابن هشام : ٤/١٤٧ — ١٤٨ .

منهم قبل أن تغلبهم قريش على أمرهم . واتجهوا بتفكيرهم إلى سعد بن عبادة زعيم الخزرج ، الذى كان مريضا فأخرجوه إليهم ، فخطبهم مبينا فضلهم وأثرهم فى قيام الدولة ، داعيا لهم إلى الاستمساك بحقهم فى تولى الأمر والاستبداد به دون الناس . ومع أن المجتمعين قبلوا قوله واستصوبوا رأيه ، ورأوه أهلا للرياسة ، فإنه فيهم مقنع ولصالح المؤمنين رضا ، إلا أن إجماعهم على هذا الأمر لم يكن صريحا قويا صادراً عن عزيمة لا تهن ، وإلا لأسرعوا إلى مبايعة سعد ولدعوا الناس إلى متابعتهم على هذه البيعة . لكن القوم ما لبثوا أن ترادوا الكلام بينهم قبل أن يقبل أحد على بيعة سعد ، وقال قائل منهم « فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون ، وصحابة رسول الله الأولون ، ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده ؟ » وأنصت الحاضرون وكأنما رأوا فى هذا القول من الحق ما حسبه بعضهم لا يدفع ، هنالك قالت طائفة منهم « فإنا نقول إذن منا أمير ومنكم أمير . ولن نرضى بدون هذا الأمر أبداً » ولم يخف على سعد بن عبادة ما تنطوى عليه هذه المقالة من تردد ، وأدرك أن العصبية القديمة بين الأوس والخزرج لا تزال لها بقية فى أعماق النفوس ، لذلك قال حين سمع هذا التراد بين المجتمعين ، ورأى من بينهم من يتطوع بالادلاء بحجة قريش ، ويرى اقتسام الأمر معها « هذا أول الوهن »(١) .

وترامى خبر الاجتماع إلى المهاجرين فى المسجد ، فأسرع أبو بكر ومعه عمر وأبو عبيدة وطائفة من المهاجرين إلى حيث يجتمع الأنصار ، يريد أن يتدارك الأمة أن تتفرق والوحدة التى جمعها الرسول أن تتمزق .

وصل الثلاثة وجلسوا مع الحاضرين ، واستمعوا إلى حديث الأنصار ، وأخذوا يدرسون الموقف فى تبصر وبصيرة ، وهم عمر أن يتحدث فاستمهله أبو بكر ، خشية ما فى عمر من شدة قد تضر فى هذا الموقف ولا تفيد ، ووقف فى الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وذكر رسوله وما جاء به ، ثم قال « عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم ، فخص الله المهاجرين الأولين بتصديقه والإيمان به والمواساة له ، والصبر معه على شدة أذى

---

(١) انظر الطبرى : ٣/ ٢١٨ — ٢١٩ .

قومهم لهم وتكذيبهم إياهم ، وكل الناس مخالف لهم ، زار عليهم ؛ فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم . وإجماع قومهم عليهم ، فهم أول من عبد الله فى الأرض وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم » .

« وأنتم يامعشر الأنصار ، من لا ينكر فضلهم فى الدين ، ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام ، رضيكم الله أنصاراً لدينه ورسوله ، وجعل إليكم هجرته ، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه ، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور »(١) .

لقد كان أبو بكر غاية فى الحكمة وحسن السياسة وإدراك دخائل النفوس . فلقد أوضح مركز المهاجرين وبيّن أحقيتهم ، ثم عقب على الأنصار فعرف حقهم ولم ينكر فضلهم ، وخرج من ذلك بحكم سليم ، هو أن الأمراء يجب أن يكونوا من المهاجرين ، على ألا يستأثروا بالأمر دون الأنصار ، بل هم وزراؤهم وأهل المشورة فيهم ؛ لا يقطع الأمر دونهم . ولقد قارب بقوله هذا رأى من قال من الأنصار . منا أمير ومن المهاجرين أمير ، ولكن قوله أدخل فى باب النظام وأدنى إلى أن تسير الأمور سيرة صلاح وإصلاح ولقد كان أبو بكر يدرك ما بين الأوس والخزرج من تنافس منذ الجاهلية لم يذهب الإسلام بكل آثاره ، فإذا كان المرشح من الخزرج فلن ترضى به الأوس ، وعند ذلك قدم لهم من الأمر ما يرضى الأنصار جميعاً ويبعد الأوس عن تأييد الخزرج ، فقد طلب الإمارة للمهاجرين ، ولكنه لم يختصهم بالأمر دون الناس كما فعل سعد بن عبادة زعيم الخزرج ، بل جعل الأنصار وزراء ؛ فأشركهم فى الأمر وخصهم يتقدم على سائر الناس ، فلا غرو إذن أن يستريح الجميع إلى هذا القول ؛ ففيه إنصاف وفيه عدل .

لكن فريق الخزرج لم يتنازل عن الأمر فى سهولة ، بل قام قائلهم يقول : نحن أنصار الله وكتيبة الإسلام ، وأنتم يامعشر المهاجرين رهط منا ، وقد دفت دافة من قومكم ،

---

(١) الطبرى : ٣ / ٢٢٠ .

وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر (١)، « ورد أبو بكر في حزم » يامعشر الأنصار ، إنكم لا تذكرون فضلا إلا وأنتم له أهل . وإن العرب لا تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش ، وهم أوسط العرب دارا ونسباً »(٢) .

وهكذا ألقى أبو بكر بحجة دامغة لايستطيع الأنصار إنكارها ، فإن العرب لاتعرف الرياسة لأحد غير قريش ، فزعامة قريش في الجاهلية كانت زعامة حقيقية ، فهم أهل الحرم والقائمون على البيت الحرام محج العرب ومهوى نفوسهم ، وقد زادت هذه المكانة بالإسلام

وبدا موقف الأنصار مترددا وجبهتهم مهتزة غير مترابطة . أما ذلك النفر من المهاجرين فقد كانوا موحدي الرأى والهدف ، لذلك انتهزوا الفرصة وعرضوا رأيا وأسرعوا بأخذ البيعة عليه ، فقد قال أبو بكر : « هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة ، فأيهما شئتم فبايعوا » . فقالا : « لا والله لا نتولى هذا الأمر عليك ، فإنك أفضل المهاجرين وثاني اثنين إذ هما في الغار ، وخليفة رسول الله على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك . . أبسط يدك نبايعك » (٣) .

وما كاد عمر وأبو عبيدة يبايعان أبا بكر حتى بايعه المهاجرون ، ثم اندفع الأوس فبايعوا بعد أن قال لهم زعيمهم أسيد بن حضير « والله لئن وليتها الخزرج مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ، ولا جعلوا لكم معهم فيها نصيبا أبدا ، فقوموا فبايعوا أبا بكر » ، ثم تم النصر للمهاجرين حين أقبلت القبائل التي نزلت المدينة من غير الأنصار فبايعت ، فقد أقبلت قبيلة أسلم بجماعتها حتى تضايقت بهم السكك فبايعوا أبا بكر ، فكان عمر يقول : « ما هو إلا أن رأيت أسلم ، فأيقنت بالنصر »(٤) . فانكسر على الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم ، واضطروا إلى البيعة ، وتكاثر الناس حتى أوشكوا أن يدوسوا سعداً بن عبادة الذي أسرع أهله فحملوه إلى داره وامتنع عن البيعة طوال حياة أبي بكر .

---

(١) ابن هشام : ٤ / ٣٣٨ .
(٢) ابن هشام : ٤ / ٣٣٩ . الطبري : ٣ / ٢٠٥ — ٢٠٦ .
(٣) الطبري : ٣/٢٢١ .
(٤) نفس المصدر : ٣/٢٢٢ .

هذه هى البيعة الخاصة ، ثم تلقى أبو بكر بعد ذلك فى المسجد البيعة العامة . وهكذا واجه المسلمون أول مشكلة واجهتهم بعد وفاة الرسول ، وكانت خليقة أن تقضى على وحدتهم وأن تزعزع أركان الدولة الناشئة التى أقامها الرسول فى يثرب وانضم إليها العرب ، وقد كان ذلك خليقا أن يكون لولا ما أبداه أبو بكر من حسن سياسة وبعد نظر وحكمة فى معالجة الأمور .

ولا شك أن يوم السقيفة قد وقى الإسلام الناشىء فتنة لا يعلم إلا الله مدى ما كان يحدث فيها ، وقد مهد للقضاء على كل خلاف بين المسلمين ، كما مهد للسياسة التى رسمها النبى أن تنجح ذلك النجاح الذى مهد لقيام الامبراطورية الإسلامية . والذى مهد للاسلام أن ينتشر فى مشارق الأرض ومغاربها .

ومنذ يوم السقيفة لم يبق للأنصار أى مطمع فى ولاية المسلمين ، فقد جاءت بعد خلافة أبى بكر خلافة عمر ثم عثمان ثم على ، ثم انتقلت وراثية فى بنى أمية وبعدهم فى بنى العباس ، فالخلافة استقرت فى قريش طوال هذه العصور وأصبحت أمرا يعترف به المسلمون جميعا إلا ما كان من حزب الخوارج ، وهو على أى حال حزب صغير اعتبره المسلمون خارجا على الإجماع .

ولم يكن للأنصار فى حياة الدولة الإسلامية إلا نصيب مثل سائر العرب ، وكأنما آمنوا بما قاله أبو بكر من أن العرب لا تدين إلا لهذا الحى من قريش . والحقيقة أن دور الأنصار الحقيقى فى بناء الدولة انتهى بانتهاء العهد التأسيسى فى حياة الرسول ، ولم يحدثنا التاريخ عن أدوار بارزة قام بها رجال من الأنصار ، وإنما كان قواد الدولة وأفذاذ رجالها من قريش أو من ثقيف حتى نهاية العهد الأموى . وقد برهن رجال هاتين القبيلتين على أنهم أقدر على سياسة الدولة من غيرهم من سائر العرب ، وقد وجدت بينهم الدولة قوادها وساساتها وأولى الحكم فيها ، وقد قاموا بهذا الدور على أتم وجه وأكمله حتى أصاب العنصر العربى ما أصابه من الضعف فى نهاية الدولة الأموية . أما الأنصار فقد كفاهم

بعد الدور الأول أن عاشوا فى كنف المهاجرين مطمئنين إلى وصية الرسول فى مرضه الأخير حين قال « يا معشر المهاجرين ، استوصوا بالأنصار خيرا ، فإن الناس يزيدون ، وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ، وإنهم كانوا عيبتى التى آويت إليها ، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم »[1] .

وما كادت البيعة العامة تتم لأبى بكر حتى وقف فى المسجد وألقى خطابا كان أول حديث له فى خلافته ، وكان آية فى الحكمة وفصل الخطاب ، عبر تعبيرا واضحا عن مفهوم الحكومة فى ظل الإسلام وما استقر عليه هذا المفهوم فى نفس أبى بكر ، قال « أما بعد ، أيها الناس ، إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله »[2] .

بهذا الخطاب رسم أبو بكر سياسة الدولة ، وحدد مسئولية الحاكم ومدى الترابط بينه وبين المحكومين . فهو يقرر تقريرا واضحا صريحا أن الحاكم ملتزم بنصوص القانون يعمل بها ، فإذا تجاوزها وخالفها كان للرعية ألا تطيعه . كما يقرر حق المساواة كاملا بين الناس فى نظر الحاكم كما هو فى نظر القانون ، فالضعيف قوى بسلطان القانون حتى يرد له الحق ، والقوى ضعيف بسطوة القانون حتى يؤخذ الحق منه ، والحكم شورى يتعاون فيه الحاكم والمحكوم ، فيعان الحاكم إن أحسن ، ويقوم بالتوجيه والنصيحة إن حاد عن الطريق ، وسياسة الدولة مبنية على القوة العادلة وسبيلها الجهاد فى سبيل الله . وما سبيل الله إلا العدالة والحق فى الداخل والخارج ، وما تخلى قوم عن نصرة الحق إلا ذلوا . وبناء

---

(١) ابن هشام : ٣٢٨/٤ .

(٢) ابن هشام : ٣٤١/٤ . ابن كثير : ٣٠١/٦ .

الأمة سليم مادام المجتمع سليما ، فإذا عمت الفاحشة وانتشر الفساد ، أصاب الدولة الانحطاط بفساد المجتمع .

هذا مضمون ما قرره خطاب أبي بكر ، وهذا المضمون هو ما استقر في نفوس المسلمين طوال عهد النبي ، وقد لازم أبو بكر النبي طوال فترة الرسالة ، وأسهم إسهاما مباشراً في الدعوة لها وفي رسم سياستها ، كما شارك مشاركة فعالة في بناء الدولة إلى جانب النبي وكان مستشاره ووزيره في كل شيء ، وكان لذلك أقدر الصحابة على فهم أهداف الرسول ومرامي سياسته[1] .

ولقد اختلفت الروايات في بيعة أبي بكر ، أكانت تامة بمبايعة الخاصة والعامة ؟ أم أن فريقا من كبار الصحابة تخلف عنها واعترض عليها[2] . ونسب بعض المؤرخين إلى عمر أنه قال إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها[3] .

والحقيقة أن خلافة أبي بكر لم تكن فلتة جاءت عن غير تفكير وتدبر ومشاورة ، وإن كان الاختيار قد تم سريعا بما يوهم بأنه جاء عفويا ، فالمسلمون وإن فوجئوا بموت الرسول ولم يتح لهم من الوقت ما يسمح بالمناقشة والأخذ والرد الطويل ، إلا أن هذه المناقشة وقعت فعلا في السقيفة ، وكان الطرفان المتناظران هما أهم طرفين في الدولة الإسلامية في ذلك الوقت[4] ، وبيدهما كانت الأمور ، أما باقي الأطراف من المدن الأخرى وسائر العرب فلم يكن لهم من إدارة الدولة وتقرير مصير الأمر فيها شيء ، ولم يكن معنى الوحدة قد استقر في نفوسهم بعد ، وكانت المشاورة معهم عملا قد يؤدي إلى فتنة وإلى خلاف لا يكون له نتيجة إلا تدمير الوحدة الناشئة ، والتي بدت بوادر الثورة عليها في الفترة الأخيرة من حياة النبي .

---

(١) انظر عن أبي بكر : المحب الطبري : ١/١١٠ — ١٩٣ .

(٢) انظر الطبري : ٣/٢٠٢ — ٢١٠ . اليعقوبي : ٢/١٠٢ — ١٠٥ .

(٣) ابن هشام : ٤/٣٣٨ . الطبري : ٣/٢٠٥ .

(٤) ضياء الدين الريس : النظريات السياسية الإسلامية : ٢٨ .

على أن المناظرة بين الطرفين وعرض كل منهما وجهة نظره أدت إلى تقرير مبدأ كان ضروريا لسياسة الدولة وسلامتها فى ذلك الوقت ، وهو أن الخلافة انتخابية فى المهاجرين من قريش .

وقد أبنا من قبل أن زعامة قريش كانت حقيقة يعترف بها العرب فى الجاهلية والإسلام ، فإذا قال قائل إن المهاجرين من قريش لم يكونوا ممثلين بكل أطرافهم فى يوم السقيفة ، وإن بعض أطرافهم كان لهم من الحق ما يجب أن يكونوا معه لذلك ممثلين ، حتى إذا ما استقر المبدأ على اختيار رجل من المهاجرين كانت فرصة الخيار أوسع أمام الأكفاء جميعا . وهذا القول له وجاهته ، ولكن كانت ساعة السقيفة ساعة حاسمة ، وكان الموقف دقيقا لاتخاذ الأنصار هذه الخطوة السريعة ، فكان لابد من حسم الأمر ، وقد دافع عمر عن هذا الموقف فيما بعد كما روى ابن إسحاق وأثبته الطبرى عن ابن عباس[1] ، قال فى وصف المناقشات التى دارت يوم السقيفة « فكثر اللغط وارتفعت الأصوات ، حتى تخوفت الاختلاف ، فقلت ابسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده فبايعته ، وبايعه المهاجرون ، وبايعه الأنصار ، ثم نزونا على سعد ، حتى قال قائلهم : قتلتم سعد بن عبادة ! فقلت : قتل الله سعداً ! . وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من مبايعة أبى بكر ، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة ، فإما أن نتابعهم على مالا نرضى أو نخالفهم فيكون فساد » .

ثم إن يوم السقيفة كان جامعا لكل أهل المدينة مهاجريها وأنصارها ، ولا يتوهم أنه لم يكن من المهاجرين غير الثلاثة الذين خصتهم الروايات بالذكر وهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، فمجرى الخبر يثبت أن المهاجرين كانوا موجودين بأغلبيتهم ، كما كان هناك غيرهم من مهاجرة القبائل ، ولم يتخلف عن الحضور إلا أهل النبي لما كانوا مشغولين به من إعداده وتجهيزه ، ولولا ذلك لحضروا الاجتماع وما تخلفوا ، وإنما ذكر الثلاثة لأنهم الذين مثلوا جانب المهاجرين فى يوم السقيفة ، وكانوا من أعظم الصحابة وأكفأ أولى الرأى

---

(١) الطبرى : ٣/٢٠٦ . ابن هشام : ٤/٣٣٩ ابن الأثير : ٢/٢٢٢ .

فى المهاجرين ، ولم يكن تفضيلهم لأبى بكر عن هوى ذاتى أو عصبية شخصية ، وإنما كان لمكانة أبى بكر وما استقر فى نفوس المسلمين جميعا من أنه الرجل الثانى فى الدولة بعد رسول الله . لذلك لم يجد ترشيح أبى بكر معارضة من أحد ممن حضروا اجتماع السقيفة بل رأوا جميعا الأمر قد استقر فى نصابه ، إلا ما كان من سعد بن عبادة الذى كان يعارض مبدأ تولى المهاجرين بعامة ، لذلك أسرع الجميع فبايعوا أبا بكر .

أما الروايات التى تتحدث عن تخلف بعض الصحابة من بنى هاشم وغيرهم عن مبايعة أبى بكر وتحكى قصة اجتماعهم على علىّ فى بيت فاطمة ، وهجوم عمر عليهم ومصاولته للزبير أو لعلى ، ومحاولة إغراء العباس بأن يجعلوا إليه من الأمر نصيبا يكون له ولعقبه من بعده ليقطعوه عن مساندة على[١] . فهى روايات بينها خلاف يقطع بعدم صحتها وبأنها وضعت من بعد لأغراض سياسية[٢] .

ثم إنه تعارضها روايات أخرى بأسناد قوية تقطع بعدم تخلف أحد عن البيعة[٣] ، وإذا كان على تأخر عن البيعة فى السقيفة فإنما كان لشغله بجهاز رسول الله ، ولعله وبنى هاشم والزبير عتبوا على أبى بكر ومن معه أنهم لم يباحثوهم ، وقد كان عذر هؤلاء واضحا كما ذكر عمر من خوفهم الفتنة ، وقد حاول أبو سفيان وبعض بنى أمية أن يستغلوا الموقف ويثيروا العصبية بين بطون قريش بالدعوة لبنى عبد مناف ، ولتقديم علىّ على أنه بما له من مكانة فى الإسلام يمثل جانب هذه العصبية ، فرفض على وزجر أبا سفيان واعتبره داعيا للفتنة باغيا الإسلام شراً[٤] وإثارة العصبية من أبى سفيان وبنى أمية أمر محتمل؛ فإن أبا سفيان كان على رياسة قريش فى حربها ضد النبى ، ولم يسلم إلا بعد أن أدرك أن الموقف تحول نهائيا لصالح النبى وأن فتح مكة أمر مفروغ منه ، وقد كان يفهم أمر النبى على أنه ملك

---

(١) انظر اليعقوبى : ٢ / ١٠٣ – ١٠٥ . الطبرى : ٣/٢٠٨ . ابن قتيبة : الإمامة والسياسة : ١/١١ — ١٦ .

(٢) هيكل : الصديق أبو بكر : ٧٧ .

(٣) انظر الطبرى : ٣/٢٠٧ . ابن كثير : ٥/٢٤٩ – ٢٥٠ .

(٤) الطبرى : ٣/٢٠٩ . اليعقوبى : ٢/١٠٥ .

وليس هو رسالة ودين ، فإنه حين رأى جيش النبي يوم فتح مكة ، قال للعباس « والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » وحين أجابه العباس بأنها النبوة « قال : فنعم إذن ، ثم هو كما قال العباس للنبي « رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا »(١) فلا يستبعد أنه اعتبر الخلافة ملكا يمكن أن يصير لبني عبد مناف الذين كان هو منهم وكان على منهم .

لكل ما أسلفنا نؤيد الرأى القائل بعدم تخلف أحد عن بيعة أبي بكر ، ويؤيد هذا ما كان من وحدة المسلمين في المدينة ، وحدة ليس فيها ثغرة من خلاف في مواجهة الأحداث التي واجهت أبا بكر بعد بيعته مباشرة ، فلم يذكر أحد أن واحداً من بني هاشم أوغيرهم حاول أن يثير ثائرة أو هم بمناهضة الخليفة الأول أو تأخر عن معاضدته والوقوف إلى جانبه .

ومهما تختلف المذاهب الإسلامية في أمر هذه البيعة التي تمت لأبي بكر ، وفي حكم الثلاثة الذين تداركوا الموقف ، وفي الأنصار الذين أرادوا أن يستبدوا بالأمر ، فإن السقيفة قررت أمر الخلافة تقريراً نهائياً ، وأصبحت سابقة قابلة للتطبيق ، وحرص الناس على اتباعها ولو من الوجهة الشكلية إلى أن دالت الخلافة .

وهذا الحل الذي سارع الناس إلى الرضا به يدل على أنهم كانوا يسلمون ضمنا بأن النظام الجديد واجب البقاء ، وأن النبي وإن مات فإنه خلف فيهم دينا وكتابا يسيرون على هديه ، فرضاء الناس يومئذ يعبر عن إرادة الاستمرار في ظل النظام الذي أنشأه النبي .

ولى أبو بكر الأمر بعد الرسول غير منازع منذ اليوم الأول . أفكان ذلك لمكانة أبي بكر من رسول الله حتى قال « لو كنت متخذا من العباد خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا »(١) ، أم كان لصحبته رسول الله في الهجرة ، وما تحلى به من فضائل ، وما بذله

---

(١) ابن هشام : ٣/٢٣ .
(٢) الطبري : ٣/١٩١ .

من جهود فى نصرة الرسول ومعاونة المسلمين فى شدتهم فى مكة ، وإسهامه فى تأسيس الدولة إلى جانب الرسول حتى ليعد وزيره ، أم كان لأن الرسول أنابه عنه فى الصلاة أثناء مرضه الأخير ؟ أيا ما كان السبب الذى دعا المسلمين لبيعة أبى بكر بالخلافة يوم وفاة الرسول ، فالثابت أنه لم يناهضه أحد ، وذلك ينهض دليلا على أن المسلمين الأولين تصوروا الخلافة بغير ما تصورها خلفهم من بعد منذ الدولة الأموية ، وأنهم كانوا أدنى فى تصورها إلى معانى الحياة العربية البحتة ، والتى كانت معروفة فى أنحاء شبه الجزيرة العربية قبل مبعث النبى . فلما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية بالفتوح واختلط العرب بغيرهم من أهل الأمم المفتوحة ، تغير تصور المسلمين لفكرة الخلافة تبعا لهذا الاختلاط وهذا الاتساع[1] .

ولقد ذهب الباحثون فى تحديد الصفة أو التسمية الملائمة التى يمكن أن تطلق على نظام الحكم الإسلامى ، مذاهب شتى : أهو « ثيوقراطية Theocracy » أو « أوتوقراطية Autocracy » أو « ديمقراطية Democracy » . أو « نوموقراطية Nomocracy » . وهل الخلافة الإسلامية ملكية أم جمهورية . وقد عرض لبحث هذه الآراء ومناقشتها مؤرخان محدثان هما الدكتور طه حسين فى كتابه « الفتنة الكبرى » ثم من بعده الدكتور ضياء الدين الريس فى كتابه « النظريات السياسية الإسلامية » وانتهى كل منهما إلى نتيجة تثبتها بعد استعراض الموضوع .

فالذين يقولون إن نظام الحكم الإسلامى كان « ثيوقراطيا »[2] يعتمد قبل كل شىء على الدين ، ولما كان الدين سماويا منزلا ، فقد ظن أصحاب هذا الرأى أن الحكومة التى كانت تحكم المسلمين فى العهد الأول ، إنما كانت تستمد سلطانها من الله وحده ، ولا ترى للناس شأنا فى هذا السلطان ، ولا ترى من حقهم أن يشاركوا فيه أو يعترضوا عليه أو ينكروا من أمره شيئا « فالإسلام هو حكومة الله المباشرة ، يحكمها الله الذى يرعى شعبه

---

(١) هيكل : الصديق أبو بكر : ٧٨ .

(٢) انظر فلهوزن : ٨ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٤٠ ، ٥٠ . غودفروا : ١٣٧ .

دائما ، فالدولة فى الإسلام يمثلها الله ، وحتى الموظفون العموميون هم موظفون عند الله »(١).

ولعل مادعا أصحاب هذا القول إلى ذلك ، أن رأوا النبى صلى الله عليه وسلم ، هو الذى أسس هذه الدولة بأمر الله ، وأن الله أوحى إليه مجملات ومفصلات من أمور الحكم ، وأن الله يقول « ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى »(٢) ، والله أمر المسلمين أن يطيعوا الله ورسوله(٣) ، وبين لهم أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا النبى فيما شجر بينهم « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدون فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما »(٤) . ثم هم يرون أبا بكر كان خليفة رسول الله ، وأن عمر كان خليفة أبى بكر ، فقد تنزل الحكم إذن من النبى إلى هذين الإمامين الراشدين ، والنبى إنما تلقى السلطان من الله ، فنظام الحكم فى هذا العهد إنما هو النظام الثيوقراطى الإلهى(٥) .

وإذا كان هناك جانب يعد « أساسا صحيحا للفكرة ، من حيث أن الذى ينبغى أن يعتقد فى الإسلام أن الله سبحانه هو المشرع الأصلى ، بل الأوحد ، فهو صاحب الدين والشريعة ، وأن النظام لا يقصد بإقامته إلا أن ينفذ تلك الشريعة ، وهو لم يقم إلا بمقتضاها »(٦) ، فإن الإسلام كان وما يزال ، دينا وجه الناس إلى مصالحهم فى الدنيا والآخرة ، بما بين لهم من الحدود والأحكام التى تتصل بالتوحيد أولا ، وبتصديق النبى ثانيا ، ويتوخى الخير فى سيرة الحياة بعد ذلك ، ولكنه لم يسلبهم حرياتهم ولم يلغ إرادتهم ، وإنما ترك لهم عقولا تستبصر وقلوبا تستذكر ، ولهم أن يتصرفوا بكل إرادتهم فى الحدود التى رسمها لهم ، وعليهم أن يتوخوا الخير والصواب والمصلحة العامة والمصالح الخاصة ما وجدوا إلى ذلك سبيلا . وقد أمر الله تعالى الرسول عليه السلام أن يشاور المسلمين فى الأمر ، فالقرآن

---

(١) De Santillana : the Legacy of Islam, P. 286 (عن الريس : ٣٢١) .

(٢) سورة النجم : ٢ — ٤ .

(٣) آل عمران : ١٣٢ . النساء : ٥٩، ٦٤، ٦٩، ٨٠، ٨١ . الأنفال : ٢٠، ٤٦ . محمد : ٣٣ .

(٤) النساء : ٦٥ .

(٥) طه حسين ١ / ٢٢ .

(٦) الريس : ٣٢٨ .

الكريم يقول « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واغفر لهم وشاورهم فى الأمر »(١) ، ولو كان الحكم منزلا من السماء لأمضى النبى كل شىء بأمر ربه دون أن يؤامر أو يشاور أحداً ، ولكن النبى كان يؤامر ويشاور خاصته وأصحابه ومن معه ، ومشاوراته عليه السلام لأصحابه كثيرة يستطيع أن يتتبعها كل من قرأ كتب السيرة ، ومنها يمكن إثبات أن الحكم فى أيام النبى لم يكن يتنزل من السماء فى جملته وتفصيله، وإنما كان الوحى يوجه النبى وأصحابه إلى مصالحهم العامة والخاصة ، دون أن يحول بينهم وبين الحرية التى تتيح لهم أن يدبروا أمرهم على ما يحبون فى حدود الحق والعدل وتوخى الخير ، فالقرآن الكريم قد رسم حدوداً عامة ثم ترك لهم تدبير الأمور على ألا يتعدوا هذه الحدود .

والنبى عليه السلام لم يرسم بسنته نظاما معينا للحكم ولا للسياسة من بعده ، ولم يستخلف أحداً من أصحابه بعهد مكتوب أو غير مكتوب حين ثقل عليه المرض(٢) . ولو قد كان للمسلمين نظام منزل من السماء لرسم القرآن أو لبين النبى حدوده ، ولأصبح فرضا على المسلمين الإيمان به والإذعان له فى غير مجادلة .

وإذا كانت « الثيوقراطية » إنما تعنى أنها حكومة الإله أو الآلهة الذين يكونون ممثلين برجال « كهنوت » أو زعماء روحيين مقدسين يدعون أنهم يمثلون الإرادة الإلهية ، ويزعمون لأنفسهم سلطات روحية تعطيهم حق الغفران والحرمان ، وتوجب لهم الطاعة ، وتجعل أقوالهم قانونا — كما كان الحال فى حكومة البابوات فى أوربا فى العصور الوسطى — فإن الإسلام ليس كذلك « فهو خال من الكهانة ، وليس لهيئة خاصة فيه احتكار الشريعة ، أو أنها تتمتع بخصائص روحية . وما الإمام أو رئيس الدولة فيه إلا منفذ للشريعة ، خاضع لأحكامها ، وهو معين من قبل الأمة التى تنتخبه ولها الحق أن تعزله . وحق الاجتهاد

---

(١) آل عمران : ١٥٩ .

(٢) الطبرى : ٣/١٩٣ — ١٩٤ . ابن قتيبة : ١/٤ . ابن كثير : ٥/٢٢٧ . طه حسين : ١/٢٤ . الريس : ٢٢ — ٢٤ . غود فروا : ٢٢ ، ١٢٦ .

مقرر للفرد ، كما أن إرادة الأمة التى تصدر فى صورة إجماع معترف بها أنها جزء أساسى من الشريعة »[١] .

ومما يدل على أن نظام الحكم فى أيام النبى والخلفاء الراشدين لم يكن إلهيا منزلا من السماء « البيعة » التى سنها النبى للمسلمين فى أيامه هو ، وقد كانت هجرته إلى المدينة نتيجة لبيعة الأنصار له ، ثم حدثت بعد ذلك مبايعات أخرى بين النبى وأصحابه ، أشهرها « بيعة الرضوان » فى الحديبية ، وقد سجلها القرآن الكريم[٢] . وقد أصبحت البيعة هى الأساس الذى تنعقد به الإمامة ، وصار أمر الخلافة كله قائما على البيعة ، أى على رضا الرعية ، فأصبحت الخلافة عقداً بين الحاكمين والمحكومين[٣] ، يعطى الخلفاء على أنفسهم العهد بأن يعملوا بكتاب الله وسنة رسوله ، وأن يسوسوا المسلمين بالحق والعدل ، ويرعوا مصالحهم ، ويتوخوا فيهم سيرة النبى ما استطاعوا ، ويعطى المسلمون على أنفسهم العهد أن يسمعوا ويطيعوا ، وينصحوا ويعينوا . وما من شك فى أن خليفة من خلفاء المسلمين ما كان ليفرض نفسه وسلطانه عليهم فرضا دون أن يعطيهم عهده ، ويأخذ عليهم عهدهم ، ثم يمضى الحكم فيهم بمقتضى العهد المتبادل بينهم[٤] . ومن أجل هذا لم تكن هناك وراثة فى الحكم فى عهد النبى والراشدين ، ولم يعرف التوريث إلا فى عهد معاوية ومع أن معاوية حرص على أن يأخذ البيعة لابنه يزيد ، فإن عامة المسلمين سخطوا على توريث السلطان ، وقالوا : جعلها « هرقلية » أو « كسروية »[٥] . ومع وجود التوريث فإن الاختيار كان هو المبدأ الأساسى فى النظام الإسلامى « ولا خلاف بين أحد من أهل الإسلام فى أنه لا يجوز التوارث فيها » ، فنظام الحكم الوراثى غير معترف به فى الإسلام مطلقا[٦] .

---

(١) الريس : ٣٣١ — ٣٣٢ .
(٢) سورة الفتح : ١٠ ، ١٨ .
(٣) طه حسين ، ١/٢٥ ، الريس : ١٦٨ .
(٤) طه حسين : ١/٢٤ — ٢٥ . وانظر بيعة أبى بكر وخطبته فى الطبرى ٣/٢٢٤ ، وخطب عمر : ٤/٢١٤ — ٢١٨ وانظر العهد على عثمان فى البيعة : ٤/٢٣٣ .
(٥) ابن كثير : ٨/٩٨ .
(٦) الريس : ١٩٤ .

كل هذا يعنى أن المسلمين لم يفهموا الحكم على أنه نظام إلهى منزل ، ومن أجل ذلك عارضوا كل ما من شأنه أن يثير ظلا من ذلك ، فأنكروا أن يقول بعض عمال عثمان عن مال الفيء وما يجبى من الخراج « مال الله » وقالوا بل « مال المسلمين »(١) .

فلم يكن نظام الحكم الإسلامى إذن « ثيوقراطية » مقدسة ، وإنما كان أمراً من أمور الناس ، يتاح لهم فيه أن يناقشوا وأن يرضوا وأن يسخطوا(٢) .

وكما لم يكن الحكم الإسلامى « ثيوقراطيا » فإنه لم يكن كذلك حكما مطلقا مستبداً « Autocracy » كما زعم بعض المستشرقين(٣) ، الذين نظروا إلى الخلافة من خلال أسوأ عصورها التاريخية ، وظنوها الخلافة التى يعترف بها الإسلام ، فهم يخلطون بين الإسلام كفكرة وكقانون وكنظريات ، وبين ما حدث فى بعض فترات من تاريخ الخلافة .

وما كره المسلمون شيئا ما كرهوا « القيصرية » و « الكسروية » وهما المثلان البارزان لنوع الحكومات عند الروم والفرس وقت ظهور الإسلام ، ويمثلان الأنظمة المؤسسة على القوة والجبروت ، وغايتها استعباد الشعوب أو استغلالها لمصلحة الحكام من أفراد أو طبقات . وقد أعطى القرآن الكريم(٤) صورة لهذا النوع من الحكم المطلق المستبد الذى يمكن فيه لفرد أن يتحكم فى مصائر أمة ، ويحكمها وفق هواه دون أن يكون خاضعا لقانون يعلو إرادته ، حين وصف الحكم الفرعونى وما وصل إليه من الظلم ، حتى ليتحكم الفرعون فى حياة الناس ، فأصبحت الفرعونية علما على حكم الفرد المستبد ، ومثلا

---

(١) الطبرى . ٤/٢٨٣ .

(٢) انظر طه حسين : ١/٢٢ — ٣٢ .

(٣) W. Muir : The caliphate, P. 600

D. B. Macdonald : Development of Muslim Theology, etc. P. 58.

D. S. Margaliouth : Muhammedanism P. 93—94.

(٤) الأعراف : ١٢٤ — ١٢٧ ، ١٣٦ ، ١٤١ . يونس : ٨٣ ، ٨٠ . الإسراء : ١٠٣ . طه : ٤٣ — ٤٥ ، ٦٠ ، ٧١ المؤمنون : ٢٥ — ٢٦ ، ٣١ ، ٣٦—٣٧ . الشعراء : ١٠—١١ ، ٢٣—٢٩ ، ٤٩ . الزخرف : ٥١ — ٥٥ .

للجور والطغيان ، وصارت مثلها « القيصرية » و « الكسروية »(١) . وارتبط بهذا لفظ « الملك » الذى أشار إليه القرآن الكريم فى الآية ٣٤ من سورة النمل « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » وفى الآية ٧٩ من سورة الكهف « وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا » وهو الذى عناه النبى عليه السلام حين قال لرجل ارتعد فى حضرته « هون عليك ! فما أنا بملك ولا جبار» (٢) .

وكان الخلفاء الراشدون أبعد ما يكونون عن صفة الملوك اسما وعملا ، فأبوبكر رضى الله عنه اكتفى بأن يلقب « خليفة رسول الله » وقد افتتح عهده بخطاب حدد فيه مفهوم الحكومة فى ظل الإسلام ، فقال « أيها الناس إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . . . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . . . »(٣) وعمر كان يلقب « خليفة خليفة رسول الله » ثم صار لقبه « أمير المؤمنين » وقد قال فى خطبة له « أيها الناس . إنى قد وليت عليكم ، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم ، وأقواكم وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أمركم ، ما توليت منكم ، ولكفى عمر مهما محزنا انتظار الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ، ووضعها أين أضعها ، وبالسير فيكم كيف أسير ! فربى المستعان، فإن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده»(٤) ، وروى أنه قال ، وقد جاءه رهط يشكون كثرة العيال ويطلبون أن يزيدهم فى أعطياتهم « فعلتموها ! جمعتم بين الضرائر ، واتخذتم الخدم فى مال الله عز وجل ! أما والله لوددت أنى وإياكم فى سفينة فى لجة البحر تذهب بنا شرقا وغربا ، فلن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم ، فإن استقام اتبعوه ، وإن جنف قتلوه » فقال طلحة : « وما عليك لو قلت : إن تعوج عزلوه ! فقال : « لا ، القتل أنكل لمن بعده »(٥) .

---

(١) الريس : ١٠٣ .
(٢) الريس : ١٠٤ .
(٣) ابن هشام : ٤/٣٤١ . ابن كثير : ٦/٣٠١ .
(٤) الطبرى : ٤/٢١٤ — ٢١٥ .
(٥) الطبرى : ٤/٢١٣ .

وكان المسلمون يستنكرون كل مظهر من مظاهر الحكم « القيصرى » أو « الكسروى » ولو كان فى مظهر اللباس[١] ، يريدون أن يبتعدوا عن كل ما يتصل بهذا الحكم الغاشم الذى جاء الإسلام بكل ما يعارضه ، وقامت الخلافة الصحيحة الكاملة كما كانت فى عهد الراشدين لتبيده وتزيل معالمه وتقوم مقامه[٢] .

وكما لم يكن الحكم الإسلامى « ثيوقراطيا » ولا « أوتوقراطيا » فإنه لم يكن كذلك « ديمقراطيا » بالمعنى الذى كان مفهوما عند اليونان ، أو كما هو مفهوم فى العصر الحديث .

وإن كان بين النظام الإسلامى وبين الديمقراطية خصائص عديدة تجعلهما يقتربان إلى حد كبير . فإن « الديمقراطية » لفظ يدل به على حكم الشعب بالشعب وللشعب ، أى أن الشعب يختار حكامه اختياراً حراً ، ويراقبهم مراقبة حرة ليتبين أنهم يحكمونه لمصلحته وليس لمصلحتهم ، وهو يعزلهم إن لم يرض عن حكمهم أو لم يطمئن إلى الثقة بهم . وهذا هو المفهوم العام للديمقراطية فى الماضى والحاضر ، على اختلاف فى مفهوم « الشعب » ، فهو كان يضيق عند اليونان حتى لا يدل إلا على جماعة ضئيلة من المواطنين[٣] ، ويتسع فى العصر الحديث فيشمل المواطنين جميعا من الرجال والنساء . وللديمقراطية سواء كانت ضيقة أو واسعة نظم مقررة تكفل استمتاع الشعب بحقوقه ، واختياره لحكامه ومراقبته لهؤلاء الحكام[٤] .

وفى النظام الإسلامى تقوم الخلافة على أساس عقد متبادل بين الأمة والحاكم ، على أساس الاختيار الحر والبيعة الشرعية الصحيحة . « ونصب الإمام واجب عرف فى الشرع بإجماع الصحابة والتابعين ، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عند وفاته بادروا إلى بيعة أبى بكر رضى الله عنه ، وتسليم النظر إليه فى أمورهم . وكذا فى كل عصر بعد ذلك ، ولم تترك أمور الناس فوضى فى عصر من الأعصار ، واستقر ذلك إجماعا دالا على

---

(١) انظر ابن خلدون : المقدمة : ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٢) الريس : ١٠٥ .

(٣) Oxford Classical Dictionary, P. 266

(٤) طه حسين : ٢٩/١ .

نصب الإمام »(١) ، وهذا الواجب فرض على الكفاية(٢) التى يقع فيها الوجوب على الأمة بأسرها ، وهى المسئولة عن أداء هذا الفرض ، ومن ثم يلزمها أن تشرع فى عقد الإمامة وتعمل على إتمامه ، وحتى إذا أنابت عنها فى إنجازه من يباشر المسئولية ، تبقى مسئوليتها والوجوب يظل واقعا عليها أولا وبالذات(٣) .

والإمام ملتزم بإقامة العدل منفذ لأحكام الشرع ، قائم على رعاية الدين ، مؤتمن على مصالح الأمة ، وهو مسئول عن أمانته أمامها ، لأنها هى التى منحته حق الحكم وأمدته بالسلطة ، فلها الحق أن تسأله عن عمله ، ثم هى رقيبة عليه ، بما هى ملزمة به من وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وبما هو واجب لها من حق الشورى ، وبما هى مأمورة به من بذل النصح . والأمة مكلفة بإطاعته ، وإعانته على تأدية أمانته ما أطاع الله ورسوله ، ولها حق تقويمه إن حاد ، بل لها حق عزله وفسخ العقد الذى أنشأته بينها وبينه(٤) كما هو واضح من خطابى أبى بكر وعمر اللذين أوردناهما آنفا .

مما سبق يتبين أن النظام الإسلامى اشتمل على أهم ما تحتوى عليه الديمقراطية من عناصر ، وأفضل ما تتميز به من صفات . وإذا كان يقرن بالديمقراطية عادة مبادىء سياسية أو اجتماعية معينة ، كمبدأ المساواة أمام القانون ، وحرية العقيدة والفكر وتحقيق العدالة الاجتماعية ، أو كفالة حقوق معينة كحق الحياة والحرية والعمل ، فلسنا فى حاجة إلى التدليل على أن تلك المبادىء وهذه الحقوق متحققة ومكفولة فى الإسلام . فليرجع من شاء إلى آيات القرآن الكريم وكتب الحديث والصحيفة التى كتبها النبى عند تأسيس الدولة الإسلامية والتى أوردها ابن إسحاق فى كتاب السيرة ، وما أورده الطبرى وغيره من خطب الخلفاء وكتبهم ووصاياهم لعمالهم ، فالشريعة الإسلامية إنما

---

(١) المقدمة : ٢١٢ .

(٢) الماوردى : ٥ .

(٣) الريس : ١٧٢ .

(٤) انظر الماوردى : ١٧ ، الريس : ٢٩٢ — ٣٠١ .

ترمى إلى تحقيق العدالة المطلقة فى أكمل صورها ، وغاية الإسلام توفير أسمى وأكرم حياة للانسان(١) .

وإذا كان النظام الديمقراطى يقوم على مبدأ الفصل بين السلطات ، فإن هذا المبدأ ظاهر فى النظام الإسلامى : فالسلطة التشريعية مودعة فى الأمة كوحدة ، ومنفصلة عن سلطة رئيس الدولة ؛ إذ التشريع يصدر عن الكتاب والسنة أو إجماع الأمة أو الاجتهاد ، وهو بهذا مستقل عن الإمام بل هو فوقه ، والإمام ملزم ومقيد به . والإمامة هى رئاسة السلطة التنفيذية ، وهى كما رأينا منفصلة عن السلطة التشريعية . والسلطة القضائية منفصلة عن السلطة التنفيذية ، فالقضاء مستقل لأنه لا يحكم وفقا لرأى الحاكم ، وإنما يحكم وفقا لأحكام الشريعة وقد خصص للأمة وإرادتها فى النظام الإسلامى أرقى ما يمكن أن تناله فى أى نظام آخر ، فإرادة الأمة التى يعبر عنها بكلمة « الإجماع » مصدر من مصادر التشريع ، وقد قرر المسلمون أن إرادة الأمة معصومة ، وأنها من إرادة الله ، وإن كانت تعتمد فى النهاية على الكتاب والسنة ، وتتمثل من الوجهة العملية بإجماع المجتهدين من علماء الأمة(٢) .

ومع وجود هذا التشابه الكبير الذى يوحى بالتطابق بين الديمقراطية والنظام الإسلامى ، فإن بينهما فروقا تميز كلا منهما عن الآخر . وأهم هذه الفروق :

إن كلمة « شعب » أو « أمة » فى الديمقراطية سواء أكانت ضيقة لا تدل إلا على جماعة ضئيلة من المواطنين ، أم كانت واسعة تشمل كل المواطنين ، فإنها تدل على شعب محصور فى حدود جغرافية ، يجمع بين أفراده روابط الجنس واللغة والعادات المشتركة ، أى أن الديمقراطية مقترنة هنا بفكرة القومية أو العنصرية ، وتسايرها نزعة العصبية . وليست الأمة فى الإسلام كذلك ، فهى لا تقوم على هذه العناصر الضيقة ، وإنما تقوم على وحدة العقيدة دون تقيد بالجنس أو اللغة أو المكان ، فإن كل من اعتنق الإسلام أصبح عضواً فى الأمة الإسلامية ، بل إن كل من خضع لقانون الدولة الإسلامية صار مواطنا

---

(١) الريس : ٣٣٤

(٢) نفس المرجع : ٣٣٥ .

فيها دون تقيد بالعقيدة ، فنظرة الإسلام إنسانية ، وأفقه عالمى ، وإن كان هذا لا يمنع — بل قد يكون ضروريا لتحقيق الصالح العام ، ومن ثم يكون واجبا شرعيا — أن يوجد داخل الدائرة العامة دوائر خاصة : إقليمية أو قومية ، للتنظيم أو لتحقيق مصالح محلية لا تتعارض مع الصالح العام[١] .

ثم إن أهداف الديمقراطية القديمة أو الحديثة أغراض دنيوية ، ترمى إلى سعادة أمة أو شعب بعينه ، من حيث تحقيق مطالبه فى هذه الحياة الدنيا . بينما أهداف النظام الإسلامى ، وإن اشتملت على هذه الأغراض الدنيوية وأعطتها ما يجب لها من الأهمية — مع إبعاد فكرة التحيز القومى — فإنها تجمع إلى جانبها أغراضا روحية هى عندها الأساس. وقد عبر عن ذلك ابن خلدون[٢] فى تعريفه للامامة بأنها « حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة » فأعمال الآخرة هى الغاية ، والأعمال الدنيوية مرتبطة بها من حيث أنها الطريق الموصل إلى السعادة فى الآخرة ؛ ومن ثم يجب الالتزام فى الأعمال الدنيوية بكل أعمال الخير التى يأمر بها الدين ، والتى تؤدى إلى رضوان الله . فالدين أو القانون الأخلاقى هو المقياس الذى تقاس به الأعمال فى المجتمع الإسلامى ، وهو الذى يحكم كل تصرفاته .

وسلطة الأمة فى الديمقراطية الغربية مطلقة ، فالأمة — حقا وعلى الإطلاق — هى صاحبة السيادة ، وهى — أو المجلس الذى تنتخبه — التى تضع القانون أو تلغيه ، والقرارات التى تصدرها تصبح قانونا واجب النفاذ ، حتى وإن كانت مخالفة للقانون الأخلاقى ، متعارضة مع المصالح الإنسانية العامة . ولكن سلطة الأمة فى النظام الإسلامى ليست مطلقة ، وإنما هى مقيدة بالشريعة ، فهى لا تستطيع أن تتصرف إلا فى حدود القانون الإسلامى الذى يحويه الكتاب والسنة . ومع أن إرادة الأمة الكلية اعتبرت مصدراً من

---

(١) الريس : ٣٣٨ .

(٢) المقدمة : ٢١١ — ٢١٢ .

مصادر التشريع الإسلامى ، فالمفهوم أن هذه الإرادة تعتمد على ما جاء فى الكتاب والسنة فى صورة ما ، وهى ملتزمة بالقانون الأخلاق ومقيدة بعبادته ، وقد فرض عليها الدين واجبات وكلفها بمسئوليات(١) . ولما كانت الأمة لا تستطيع بكليتها أن تقوم بهذه الواجبات ، فقد نشأت فكرة التمثيل فى النظم الديمقراطية عن طريق مجالس نيابية منتخبة أومعينة بطريقة معلومة ، وكذلك نشأ فى النظام الإسلامى فكرة « الاكتفاء » أو الإنابة ، ومن هنا جاءت تسميتها « كفائية » أى أنه إذا قام بها بعض الأمة سقطت عن الباقين . ونشأت عن ذلك تسمية القائمين بهذه المهمة باسم « أهل الحل والعقد » و « أصحاب الاجتهاد » من العلماء والرؤساء ووجوه الناس ، على غير تحديد ، وإن كان العلماء قد وضعوا شروطا لمن يكون من أهل الحل والعقد والاجتهاد(٢) . ولكن لم يكن هناك نظام معين لانتخاب هؤلاء أو اجتماعهم وإنما كان الأمر يجرى على غير تحديد وبحسب الظروف .

وهكذا وافق النظام الاسلامى « الديمقراطية » فى خصائص وخالفها فى خصائص . ومن ثم لانستطيع أن نقول إن النظام الإسلامى نظام ديمقراطى مطابق للصورة التى عرفتها الديمقراطية الحديثة .

ولعل أصح الآراء التى ذكرت فى تحديد شكل النظام الإسلامى هو أنه « نوموقراطى Nomocracy » أى « حكومة القانون »(٣) فلا جدال فى أن الشريعة هى الأساس الذى يقوم عليه النظام الإسلامى ، كما أن تنفيذها هو غايته الجوهرية . ولكن الشريعة ليست نصوصا جامدة ، ولا هى مصوغة فى صيغ نهائية ، وهى ليست شاملة بحيث وضعت لكل فعل أو حالة حكما ، وإنما لا يزال المجال فسيحا أمام التفسير والتجديد والإضافة عن طريق الاجتهاد . ثم إن الأمة معترف بها فى النظام الإسلامى ، وإرادتها العامة مكملة للقانون ، ومن الوجهة العملية هى التى تطبق القانون وتمثله ، وهى التى تتولى أعمال الاختيار والمبايعة ،

---

(١) الريس : ٣٣٩ .

(٢) الماوردى : ٦ . الريس ١٧٧ وما بعدها .

(٣) الريس : ٣٢٧ Khadduri : War and Peace in The law of Islam, P. 7.

ولها الإشراف والتوجية والمحاسبة . ومن ثم فهي صاحبة السيادة الظاهرة في المجال السياسي ، ولا يمكن أن ينسب هذا كله إلى نصوص القانون الحرفية أو ذاته المعنوية[١] .

وبقيت مسألة أخرى نكمل بها العرض ، وهي هل كان النظام الخلافي ملكية أو جمهورية . قد يبدو بعض التشابه الظاهري بين الحكم الإسلامي في العصر الأول وبين نظام الحكم عند الرومان في العهد الملكي ، من حيث أن ملوك روما كانوا لا يتوارثون الحكم ، وإنما ينتخبون انتخابا من قبل رؤساء القبائل أو من كانوا يسمون عند الرومان « الآباء Patres »[٢] وكان أحدهم إذا انتخب ولي الأمر طول حياته إلا أن تخلعه ثورة أو انتقاض . وكذلك كان الأمر في حالة الخلفاء . ويبدو تعليل هذا التشابه في أنه في ذلك الوقت الباكر من حياة الجماعة الرومانية كانت القبيلة تشكل كيانا هاما له أثره الأكبر في شكل الحياة السياسية ، مثلما كان التنظيم القبلي لا يزال يمد ظلاله من غير شك على الحياة العامة في الوقت الأول من حياة الدولة الإسلامية . إلا أنه في ذلك الوقت لم يكن زعماء القبائل هم الذين يختارون الخليفة ، وإنما كان يختاره جماعة الصحابة من المهاجرين والأنصار في غير اعتماد على قوة القبائل أو زعاماتها .

ولئن كان هناك وجه للشبه بين سلطات الخليفة الشاملة وبين سلطة « القنصل Consul » الروماني حين تحول نظام الملكية إلى نظام الجمهورية ، فإن هناك فوارق بينة بين طريقة انتخاب القنصل الذي كان يتم في جمعية بعينها وفقا لشروط محددة[٣] ، وبين انتخاب الخليفة الذي يتم عن طريق البيعة . هذا فضلا عن اختلاف بالغ الخطر بين القنصل الذي كانت وظيفته موقوتة بعام واحد ، والخليفة الذي كانت وظيفته غير مقيدة بوقت محدد . وإن كان هناك كبير تطابق بين نظام الخلافة والنظام الجمهوري من حيث أنه في كلتا الحالتين يتم الأمر بالانتخاب ، وأن الأمة لها حق العزل .

---

(١) الريس : ٣٣٢

(٢) Cary : A History of Rome, P, 56—7.

(٣) Cary, op. cit. P. 72—3.

أما فى عصر الامبراطورية الرومانية فإن الإجراء السائد بالرغم من أنه لم يكن قاعدة مطرّوة — أن الجيش كان هو الذى ينادى بالامبراطور[1] . أما فى حالة الخليفة فلم يكن ثمة جيش ينادى به ، وإنما كانت البيعة . هذا فضلا عن اختلاف البيئة والمفاهيم[2] .

من كل ماسبق يتبين أن النظام الإسلامى ليس « ثيوقراطيا » ولا « أوتوقراطيا » على الإطلاق ، كما أنه ليس « ديمقراطيا » بالمعنى الضيق للديمقراطية ، ولا « نوموقراطيا » يقوم على القانون الجامد المحدد وحده . وإن اجتمع فى النظام الإسلامى خصائص من هذين النظامين الأخيرين . كما أنه ليس ملكيا أو جمهوريا على ماعرف اليونان والرومان ؛ فهو أبعد مايكون عن الملكية ، وإن شابه إلى حد كبير النظام الجمهورى .

ومادام النظام الإسلامى ليس واحداً من هذه النظم ، فأى وصف يمكن أن يطلق عليه . لقد خرج الدكتور طه حسين[3] من مناقشته للموضوع بأنه « كان نظاما عربيا خالصا بين الإسلام له حدوده . العامة من جهة وحاول المسلمون أن يملأوا بين هذه الحدود من جهة أخرى » . « فهو إذن نظام عربى إسلامى خالص لم يُسْبَق العرب إليه ثم لم يقلدوا بعد ذلك فيه » ، والدكتور الريس[4] لم يبعد كثيراً عن هذا الحكم فى مضمونه وإن كان عرضه للموضوع أكثر تحديداً ، فهو قد عرض لمعنى « السيادة » فى الدولة الإسلامية ، وقال « إن السيادة فيه مزدوجة : فالسيد « The Sovereign » أمران يجتمعان ، ينبغى أن يظلا متلازمين ، ولايتصور قيام الدولة وبقاؤها إلا بوجود هذاالتلازم . هذان الأمران هما : ١ ـ الأمة . ٢ ـ القانون أو شريعة الإسلام . فالأمة والشريعة معاً هما صاحبا « السيادة » فى الدولة الإسلامية . فالدولة الإسلامية إذن ـ على هذه الصورة ـ نظام فريد خاص بالإسلام ، لا يصح القول بأنه يتطابق مع أى من النظم المعروفة ، ولذا فإنه

---

(١) Ibid. P.P. 525–526, 528, 596. رنسيمان الحضارة البيزنطية : ٦٥ .
(٢) انظر طه حسين : ١/٣٠ — ٣٢
(٣) الفتنة الكبرى : ١/ ٣٢ .
(٤) النظريات السياسية الإسلامية : ٣٤٠ ـ ٣٤١ .

ينبغى أن يوضع له اصطلاح خاص . . . ويكفى الآن أن يشار إليه بصفة مجملة على أنه « النظام الإسلامى » . . . وإن كان لابد من استعمال لفظ « ديمقراطية » مع مراعاة الفوارق التى بيناها سابقا ، فيمكن أن يوصف على وجه تقريبى بأنه « ديمقراطية » إنسانية ، عالمية ، دينية ، أخلاقية ، روحية ومادية معا . أو يجوز — وهذه المعانى ماثلة فى الذهن — أن تجمع كل هذه الصفات فى تعبير موجز ، فيقال إنها هى « الديمقراطية الإسلامية » .

وكلا النتيجتين صحيحة فى مجملها وهما متطابقتان تقريبا ، فالذين أقاموا هذا النظام هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم عرب مسلمون ، فأخذوا عند ترشيح أبى بكر للخلافة أفضل ما عرف العرب فى نظامهم السياسى ، وهو أن الرياسة انتخابية وينالها من يتميز على الآخرين بصفات من شأنها تحقيق مصالح الجماعة ، مع استيحاء المبادىء الإسلامية وما أجملته الآية الكريمة « . . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فالنظام الذى أقاموه من هذه الناحية عربى إسلامى خالص ، إذ أنهم أخذوه من بيئتهم التى عاشوا فيها وهى فى ذلك الوقت بيئة عربية إسلامية خالصة ، ولم يبحثوا فى نظم غيرهم أو يستنبطوا منها شيئا . وإدراك ذلك هين إذا درسنا المناقشة التى دارت فى اجتماع السقيفة ، وإذا عرفنا النظام العربى الذى كان سائداً فى بيئة الحجاز فى ذلك الوقت . أما التفصيلات والتقريرات التى وضعها فقهاء المسلمين بعد ذلك فهى قياس على حالة استقرت وتقنين للنظام بعد قيامه . وهذا التقنين هو الذى اعتمد عليه الدكتور الريس فى مناقشته للموضوع وخرج منه بالنتيجة التى وصل إليها ، وهو لم يبعد عن النتيجة الأولى وهى أن النظام الإسلامى كما قال الدكتور طه حسين «عربى اسلامى خالص» . وقد جعل الدكتور الريس الأمة فى ترتيب السيادة قبل الشريعة ، ولكنا نرى أنه يجب أن تكون الشريعة أولا ، إذ الأمة الإسلامية قامت على أساس الشريعة ، وهى تأخذ سياتها بحكم الشريعة ، وهى كذلك لا تستطيع أن تحيد عنها ، إذ أن إرادة الأمة الكلية التى اعتبرت مصدراً من مصادر التشريع إنما تعتمد على الكتاب والسنة اللذين هما أساس الشريعة . فالشريعة والأمة هما مصدر السيادة فى الدولة الإسلامية .

فنظام الخلافة الأولى كان نظاما عربيا إسلاميا خالصا أخذت خطوطه من البيئة العربية ، وبين الإسلام له حدوده العامة من جهة ، وحاول المسلمون أن يملأوا ما بين هذه الحدود من جهة أخرى . وكان هذا النظام الخلافى الأول يتألف من عنصرين .

العنصر الأول هو عنصر الدين ، وقد قلنا إن هذا النظام لم يكن سماويا وإنما كان إنسانيا ، ولكنه مع ذلك تأثر بالدين إلى حد بعيد جداً ، فالخليفة لم يصدر فى كل ما يعمل عن وحى ولا ما يشبه الوحى ، ولكنه على ذلك كان مقيداً بما أمر الله به من إقامة الحق وإقرار العدل وإيثار المعروف واجتناب البغى . وقد أيقظ الدين فى نفوس المسلمين من خاصة النبى الذين صاحبوه وتأثروا به ضميراً دينيا قويا دقيقا إلى أبعد غايات القوة والدقة ، فلم يكن من الممكن أن يتخلصوا منه فى قول أو عمل . ولذلك تأثروا به وصدروا عنه فى كل قول أو عمل[1] ، حتى ليخيل للدارس الحديث من الأوربيين أن نظام الحكم قد نزل من السماء وهو ليس كذلك ، وإنما هو يدور مع مقدار ما يكون لضمير الخليفة ورعيته من التأثر بالدين .

والعنصر الثانى هو عنصر الأرستقراطية التى نشأت فى الإسلام . وهى طبقة لا تعتمد فى امتيازها على المولد ولا على الثروة والمركز الاجتماعى بمعناها الشائع العام ، وإنما تعتمد على الاتصال بالنبى فى أيام حياته . والإذعان لما يأمر به وينهى عنه فى غير تردد ، والإبلاء فى سبيل الله فى الحرب والسلم على السواء .

وهذه الطبقة لم تستأثر لنفسها بحق من حقوق الدنيا دون الناس ، وإنما آثرها النبى بحبه وأعلن للناس أن الله آثرها بحبه ، فهم رجال « رضى الله عنهم ورضوا عنه » ، أولئك هم الذين سبقوا إلى الإسلام ، وعذبوا فى الله ، وهاجروا بدينهم ، والذين آووا ونصروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . وقد امتازت هذه الطبقة فيما بينها بحسب ما قدم بعضها من أعمال وتضحيات فى مواقف الإسلام . وقد أصبحت هذه الطبقة بعد وفاة النبى صاحبة العقد والحل فى أمور المسلمين كلها .

---

(١) فون فروا : النظم الإسلامية . ٢٣ ، ٣٥ .

فمن هذه الطبقة وحدها يختار الخليفة ، وعلى هذه الطبقة يعتمد الخليفة فى أن يسمع له الناس ويطيعوه ، وإليها وحدها يلجأ حين يحتاج إلى المشاورة وإدارة الرأى فى الأمور التى تهم الأمة .

وقد تميزت هذه الطبقة إلى فئتين بعد وفاة النبى ، تنازعتا الحكم وتناظرتا عليه فى يوم السقيفة ، هما المهاجرون من أهل مكة ، والأنصار من أهل المدينة .

وقد رأى الأنصار أن تكون رياسة الأمة مشاركة بينهما ، فمنهم أمير ومن المهاجرين أمير[١] . ولكن أبا بكر روى عن النبى أنه قال « قريش ولاة هذا الأمر »[٢] ثم قال للأنصار « نحن الأمراء وأنتم الوزراء » وقبل الأنصار ذلك لم يكادوا يعارضون فيه إلا ما كان من سعد بن عبادة الخزرجى .

ومنذ ذلك اليوم نشأت فى الاسلام ارستقراطية قوامها القرب من رسول الله ، فأصبح الحكم إلى قريش وحدها ، وأصبحت المشورة للأنصار . ولما كانت المشورة حقاً عاما لكل مسلم ، فالدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم[٣] فقد أصبح لقريش أن تحكم ولها أن تشير ، وللأنصار وغيرهم من العرب أن يشيروا وليس لهم أن يحكموا ومعنى ذلك أن أرستقراطية حاكمة تكونت من قريش .

فهل كان أبو بكر وأصحابه من المهاجرين فى يوم السقيفة يفكرون فى إطلاق الإمامة لقريش كلها دون تحديد ، أكبر الظن أنهم لم يكونوا يقصدون إلى هذا ، وإنما كان قصدهم فى المهاجرين الذين سبقوا إلى الإسلام ، وجاهدوا مع النبى بأموالهم وأنفسهم ، وصمدوا للفتنة قبل الهجرة ، ثم جاهدوا معه وجاهد معهم الأنصار بعد الهجرة . وعلى هذا كان مجرى الحديث فى يوم السقيفة .

---

(١) الطبرى : ٣/٢٢٠ . ابن قتيبة : ١/٦ .

(٢) الطبرى : ٣/٢٠٣ .

(٣) البخارى : ١/١٧ :

ولو أن أبا بكر وصحبه من المهاجرين فكروا فى قريش من حيث أنها الحى الذى يتصل نسبه بنسب النبى وليس غير ، لاقتضاهم هذا أن يؤثروا بالخلافة أقرب قريش إلى رسول الله وأن يرشحوا لها العباس عمه ، أو عليا ابن عمه وربيبه وصهره . فأبو بكر ورفاقه لم يفهموا من قريش إلا المعنى الذى يتصل بالمهاجرين وبأصحاب السبق والفضل من المهاجرين خاصة ، ولو كان غير هذا لكان الطلقاء والمؤلفة قلوبهم من قريش أفضل عندهم وأحق من الأنصار الذين تبوؤا الدار والإيمان ، ولكانوا أبعد عن فهم الإسلام الذى لم يقدم أحداً بمولده وبمكانته الاجتماعية ، وإنما فاضل بين الناس بالتقوى . ومما يوضح ما ذهب إليه المهاجرون يوم السقيفة أن عمر حين طعن وطلب إليه أن يستخلف قال : لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته فهو « أمين هذه الأمة » ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حيا لاستخلفته « إن سالما شديد الحب لله »[١] ولو أدركت معاذ بن جبل استخلفته « إن معاذ بن جبل يأتى بين يدى العلماء يوم القيامة »[٢] وهؤلاء ثلاثة نفر أحدهم من المهاجرين والثانى مولى والثالث من الأنصار . فعمر إذن كان يود لو يستخلف على المسلمين رجلا ليس من قريش لعلمه وفضله ، بل يود لو يستخلف رجلا ليس من قريش ولا من العرب إلا بالولاء ، ولا يرى من ذلك بأسا . وقد دل عمر بهذا على ما كان يفهمه هو وأبو بكر من أمر التقدمة لإمامة المسلمين . وهذا ما يتفق مع أصول الإسلام الذى لا يفضل أحداً على أحد بالنسب وإنما يفاضل بين الناس بالتقوى والكفاية وحسن البلاء .

لكن قريشا فهمت الأمر على غير ماقصد إليه أبو بكر وأصحابه فى يوم السقيفة . فاستيقنت أن الإمامة حق لها لا ينبغى أن يعدوها إلى غيرها ، وأنه حق لها لمكانها من نسب النبى ، وهى بهذا كانت خاطئة متكلفة من غير شك ، ولو صح فهمها وتأويلها هذا لظهرت عليها حجة بنى هاشم ، ولكان بنو هاشم أحق بإمامة المسلمين ما كان فيهم

---

(١) الطبرى : ٢٢٧/٣ .
(٢) ابن قتيبة : ٢٣/١ — ٢٤ .

من يستطيع النهوض بأعبائها ، ولكانت حين أبعدتها عنهم ظالمة معتدية على صاحب حق .

ومهما يكن من شيء ، فقد نشأت هذه الأرستقراطية القرشية ، فجاءت على غير حساب من الناس ، وكانت أرستقراطية غلط بها ، أراد أبو بكر أن تكون الإمامة فى المهاجرين ما وجد منهم الكفء القوى ، فحولت قريش ذلك فيما بعد إلى منافعها وعصبيتها . وصدق حدس الحباب بن المنذر الأنصارى حين تخوف من قريش ، فقال له أبو بكر : « أمنا تخاف ياحباب ؟ قال : ليس منك أخاف ، ولكن ممن يجيء بعدك قال أبو بكر : فإذا كان ذلك كذلك ، فالأمر إليك وإلى أصحابك ، ليس لنا عليكم طاعة ، قال الحباب : هيهات يا أبا بكر ، إذا ذهبت أنا وأنت ، جاءنا بعدك من يسومنا الضيم »[١] .

ولم تكد قريش تخطو هذه الخطوة حتى أتبعتها بأخرى كان لها أكبر الأثر فى حياة المسلمين ، وهى تفضيل العرب على غيرهم ممن اعتنقوا الإسلام من الشعوب الأخرى ، وقد جر استئثار قريش بالخلافة على المسلمين كثيرا من الفتن ، كما أن استئثار العرب بالسلطان والفضل أدال من بنى أمية لبنى العباس بفضل من ناصرهم من الموالى[٢] .

---

(١) ابن قتيبة : ١/٩ .

(٢) انظر : طه حسين : الفتنة الكبرى : ١/٣٢ — ٣٨ .

الفصل الثالث

الخلافة تقمع الردة وتثبت الوحدة

لم يكد المسلمون ينتهون من الأزمة التى واجهتهم فى المدينة ، والتى انتهت بمبايعة أبى بكر وقيام الخلافة ، حتى واجهوا أزمة أخرى أشد منها ، وهى الثورة التى اشتملت فى الجزيرة العربية كلها وعرفت فى المصادر باسم « الردة » . وبينما كانت المشكلة الأولى لاتتطلب إلا الكياسة وحسن الرأى والوقوع على الحل الصحيح ، كانت الثانية تتطلب إعداد الجيوش وتعبئة قوى المدينة المادية والمعنوية . وفى هذه الأزمة ظهرت بطولة أبى بكر حتى قال بعض الناس « مارأيت أحدا — ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم — املأ بحرب شعواء من أبى بكر »[1] .

والسبب المباشر فى ظهور هذه الأزمة هو موت النبى ، فقد ظن الناس أنه لن يقوم مقامه أحد ، وأن النظام الجديد لا يمكن أن يدوم بعده ، وأن الخطوة الجبارة التى خطاها الرسول بالعرب خطوة كانت تحتاج إلى دوام صاحبها[2] ، ولهذا سارع العرب — رغم إعجابهم بالروح القومى الذى بعثه النبى فيهم — إلى انتهاز الفرصة والعودة إلى النظام القديم، فطردت بعض القبائل عمال النبى ، وقلدت القبائل بعضها بعضا وانتشر الارتداد فى كل مكان ، حتى لم تبق قبيلة إلا وفيها جماعة كثيرة مرتدة ، وغالت بعض القبائل فأرادت أن يكون لها مالقريش ، بمعنى أن يكون منها نبى كما كان من قريش نبى ، وأن تجمع العرب إلى زعامتها كما اجتمعت إلى قريش . ولم يثبت على النظام إلا مثلث رؤوسه المدينة ومكة والطائف.

---

(١) الطبرى . ٣/٢٥٨ .

(٢) تطرق هذا المفهوم إلى عقول بعض الصحابة مثل عمر ، فقد روى ابن اسحاق عن أنس بن مالك أن عمر اعتذر عن إنكاره لموت النبى حين بلغه الخبر فقال « ما وجدتها فى كتاب الله ، ولا كانت عهدا عهده إلى رسول الله (صلعم) ولكنى كنت أرى أن رسول الله (صلعم) سيدبر أمرنا ، يقول . يكون آخرنا » (ابن هشام : ٤/٣٤٠) وروى عن ابن عباس أن عمر قال « فوالله إن كنت لأظن أن رسول الله (صلعم) سيبقى فى أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها ، فإنه للذى حملنى على أن قلت ماقلت » (ابن هشام . ٤/٣٥١) .

لكن هذه الحركة العنيفة الشاملة ترجع فى الحقيقة إلى أسباب عميقة أبعد من موت النبى ، فقد بدت نذرها فى حياة النبى نفسه ، ونستطيع أن نردها إلى أسباب جوهرية ثلاثة ، أولها أن سلطان النبى وأثره الدينى على الجزيرة العربية لم يكن كاملا ، وثانيها العصبية القوية لدى القبائل العربية ، والسبب الثالث هو الإعجاب بشخصية النبى ومحاولة الوصول إلى مثل سلطانه .

كان النبى فى السنوات الأخيرة من حياته قد أصبح أبرز رجل فى الجزيرة العربية ، وكان قد أقام دولة فى المدينة على مبادىء لم يعهد العرب مثلها من قبل ، وأقام دينا قويا لم يعهد العرب مثله فى حياتهم الطويلة ، وكان سلطان النبى فى الحجاز قويا لأنه عاش بنفسه فى هذه المنطقة وأثر فيها تأثيرا مباشرا ، وكذلك كان نفوذ الدين قويا فى هذه المنطقة لأن النبى اتصل بأهلها اتصالا قريبا ، فرأوه وأخذ عنه كثير منهم أخذا مباشرا أو أخذوا عن كثير من أصحابه ممن رآه وخالطه وصاحبه ، فإذا ابتعدنا عن الحجاز واعتبرنا حال الأرجاء البعيدة من الجزيرة وجدنا أن سلطان النبى ونفوذ الدين يقل كلما بعدنا عن الحجاز ، لأن اتصال النبى بهذه المناطق لم يكن مباشرا ، فهو قد اتصل بها بواسطة ولاته الدعاة الجباة ، وبواسطة من جاءه من رؤساء القبائل البعيدة ، ولم يرحل بنفسه ولم يعش بين ظهرانى القبائل البعيدة حتى يتأثروا به تأثر من رآه وسمعه .

وإذا كان النبى قد غدا فى السنوات الثلاث الأخيرة من عمره أبرز رجل فى الجزيرة العربية كلها ، فإنه لم يكن قد صار حاكمها بالمعنى الصحيح للكلمة ، بل ظلت العصبية القبلية تفرض نفسها ، وكانت من القوة بحيث كان لها السلطان الأكبر ، فظل ولاء الفرد لعشيرته وقبيلته أقوى من ولائه لأى شىء آخر ، وظلت القبيلة تمثل الوحدة السياسية فى نظر أبنائها ، ولعل هذا مما دعا النبى إلى أن يدخل القبائل بحالتها فى نظام الدولة حين وضع الصحيفة فى المدينة ، فلم يكن من السهل أن يقضى على النظام القبلى فى هذه البيئة العربية ، بل إن العرب حين تم توحدهم وحين خرجوا إلى المجال الخارجى وخالطوا الأمم

وعاشوا فى مناطق الحضر ظلت الروابط القبلية مسيطرة على حياتهم ، لذلك لم تكن الجزيرة العربية ولا كان الحجاز أيضا فى آخر عهد النبى قد عرفتا بعد نظام الحكومة التى تقوم فوق القبائل ، ولم تعرف هذا النوع من الحكومة إلا المدينة حيث مركز الدولة التى أقامها النبى . وإذا كانت قوة المسلمين قد استطاعت أن ترغم القبائل فى الحجاز والمنطقة المجاورة من نجد على الطاعة ، فإن الإذعان لقوة المسلمين كان إسميا ، ذلك لأن القبائل العربية لم تكن لترغب فى أن تتخلى عن سيادتها لهذا النظام الجديد ، ولقد ظل المسلمون يواصلون الإغارة على القبائل العربية منذ قيام الدولة الإسلامية فى يثرب إلى آخر حياة النبى[١] ، وكانت القبائل تحس بضعفها أمام بأس المسلمين وقوة تنظيمهم ، ولقد شهدت القبائل أكبر قوة رأتها الجزيرة العربية فى حياتها الطويلة حين قاد النبى حملته الأخيرة إلى منطقة تبوك فى سنة ٩ هـ[٢]. ولم يكن فى وسع أية قبيلة عربية أن تحشد مثل هذا العدد الضخم من المحاربين ، لذلك فإن القبائل رأت أنه من الخير لها فى مثل هذه الظروف أن توفد بعوثها إلى المدينة للتفاهم مع النبى . ولم تكن الشروط التى يفرضها النبى ثقيلة أو صارمة ، فلم تكن تزيد على اتباع فرائض الإسلام ، وهى النطق بالشهادتين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن يستطيع إليه سبيلا ، ولم يكن فى هذا مايثقل كاهل أى إنسان ، إلا أن الصعوبة الحقيقية التى مثلت أمامهم كانت فى فرض الزكاة ، ولم تأت الصعوبة فى قبول هذا الفرض من كونه عبئا ماديا ، وإنما هو كان يعنى فى نظر القبائل البدوية الشديدة التعلق باستقلالها وأنفتها دليلا على الخضوع ، واعتبرت الزكاة إتاوة يدفعها الضعيف للقوى ، على الرغم من أن القرآن سماها صدقة تؤخذ من الأغنياء لترد على الفقراء[٣]، وجعلها القرآن الكريم زكاة وطهارة « خذ من أموالهم صدقة

---

(١) انظر فى ذلك ابن هشام : ٤/٢٨٢ وما بعدها .

(٢) كان مع النبى فيها ثلاثون ألفا وعشرة آلاف فرس واثنا عشر الف بعير (امتاع الاسماع : ١/٤٥٠) .

(٣) سورة التوبة : ٦٠ وانظر البخارى : ٢/١٠٤ .

تطهرهم وتزكيهم بها »[١] ، ولذلك كانوا يبرمون بها ويتحينون الفرصة للتخلص من هذا الفرض الذى يثقل على نفوسهم . أما ماعدا ذلك فإن رؤساء القبائل كانوا يعودون بعد زيارتهم للمدينة واتفاقهم مع النبى دون أن يفقدوا شيئا من استقلالهم . وإذا كانت قبائل الحجاز ونجد قد أصبحت إلى حد كبير تحت نفوذ المسلمين ، فإن المناطق النائية فى اليمامة وعمان وحضرموت واليمن كانت بعيدة عن نفوذ المدينة ، وكانت سلطة النبى فيها تعتمد على من عاقدوه من أهلها وعلى أولئك الولاة الدعاة الجباة الذين أرسلهم ، وكان هؤلاء يقفون إلى جانب شيوخ القبائل ويتعاونون معهم وكثيرا ما كانوا يضعون أنفسهم فى حمايتهم ، وقد فرضت شخصية النبى عليه السلام على العرب الإعجاب والإجلال والمهابة له ، وأصبح ما وصل إليه من نفوذ موضع تقدير ومثار غيرة لكثير من أصحاب الطموح فى أنحاء الجزيرة العربية ، ممن كانوا يحسون بأن وراءهم عصبيات قوية يستطيعون الاعتماد على قوتها. وقد توهم هؤلاء فى سذاجة أنهم يستطيعون انتحال الصفة التى أوصلت النبى إلى هذه المكانة الرفيعة بين العرب ، فأعلن عدد من الزعماء فى أنحاء الجزيرة العربية أنهم أنبياء مثل محمد وأنه يتنزل عليهم من الوحى مثل ما يتنزل عليه ، ولم يقتصر الأمر على الرجال وحدهم وإنما شارك فى هذا بعض النساء ، وقد ساندتهم عصبياتهم ربما عن غير اقتناع بهم ولكن عصبية لهم ورغبة فى الوصول إلى السيادة والملك ، فقد رأوا قريشا وهى عصبية النبى قد وصلت إلى رياسة أدبية عن طريق الدين فى الجاهلية ، ثم هاهى قد وصلت إلى رياسة سياسية عن طريق ظهور نبى منها . ويفلسف ابن خلدون هذا الأمر بقوله «وأكثر المنتحلين لمثل هذا تجدهم موسوسين أو مجانين أو ملبسين يطلبون بمثل هذه الدعوة رياسة امتلأت بها جوانحم وعجزوا عن التوصل إليها بشىء من أسبابها العادية ، فيحسبون أن هذا من الأسباب البالغة بهم إلى مايؤملونه من ذلك ، ولا يحسبون ما ينالهم فيه من الهلكة ، فيسرع إليهم القتل بما يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة أمرهم»[٢] ويكون ذلك فى الأوطان الكثيرة القبائل والعصائب قبل أن تستحكم فيها الدولة « والسبب فى ذلك

(١) التوبة : ١٠٣ .
(٢) المقدمة : ١٧٨ .

اختلاف الآراء والأهواء ، وأن وراء كل رأى منها وهوى عصبية تمانع دونها ، فيكثر الانتقاض على الدولة والخروج عليها فى كل وقت وإن كانت ذات عصبية ، لأن كل عصبية ممن تحت يدها تظن فى نفسها منعة وقوة »(١) .

لذلك ظهرت حركة التنبؤ فى أواخر أيام النبى ، وكانت فى مناطق العصبيات الكبرى ، أو فى المناطق التى كانت قد شهدت من قبل ملكا ورياسة . وقد أعلن ثلاثة من هؤلاء دعواهم فى أواخر حياة النبى ، ثم قلدهم غيرهم بعد وفاته .

فقد تنبأ الأسود العنسى فى اليمن ، كما تنبأ مسيلمة بن حبيب فى بنى حنيفة باليمامة ، وتنبأ طليحة بن خويلد فى بنى أسد بنجد ، ثم قلدهم فى ذلك ذو التاج لقيط بن مالك الأزدى فى عمان ، وسجاح بنت الحارث بن سويد فى بنى تغلب بالجزيرة ، ونلاحظ على هؤلاء المتنبئة أنهم ينتمون إلى كتل عربية كبرى . فالأسود ينتمى إلى قبيلة مذحج اليمنية وهى كتلة قوية من كتل اليمن(٢) ، وكذلك ينتمى لقيط بن مالك إلى قبائل الأزد اليمنية وهى كتلة كبيرة أيضا(٣) . أما مسيلمة فينتمى إلى بنى حنيفة وهم فرع كبير من بكر بن وائل(٤) . وتنتمى سجاح بنت الحارث إلى بنى تغلب بالخؤولة وإلى بنى تميم بالنسب(٥) ، فمسيلمة وسجاح ينتميان إلى كتلة ربيعة وهى الجذم الثالث الذى يتكون منه العرب ، فأجذام العرب ثلاثة : قحطان . ومضر . وربيعة . أما طليحة فهو الوحيد الذى ينتمى إلى كنانة من مضر(٦) وحوله التف حلف غطفان وأسد فى منطقة نجد ، ثم تأشبت إليه القبائل التى هزمها أبو بكر

---

(١) المقدمة : ١٨٢ .

(٢) جمهرة أنساب العرب : ٣٨١ — ٣٩٢ .

(٣) الجمهرة : ٣١١ — ٣٦٤ .

(٤) نفس المصدر : ٢٩١ — ٢٩٤ .

(٥) الطبرى : ٣/٢٦٩ .

(٦) نفس المصدر : ١٨٥ .

حين حاولت الهجوم على المدينة(١) وكل هذه الكتل ترى لنفسها عصبية قوية وتظن فى أنفسها منعة وقوة ، تسوغ لها أن تنافس على زعامة العرب ، ولا ترى لقريش عليها فضلا إلا بالنبوة ، ولذلك فهى تلتف حول المتنبئين منها لتصل إلى الزعامة السياسية عن هذا الطريق ، فهى لم تكن تفهم من الدين إلا أنه طريق إلى الزعامة والملك ، وحتى قريش نفسها فهمت هذا الفهم حين قام النبى صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الاسلام ، فقد ذهب عتبة بن ربيعة أحد سادات قريش يعرض على النبى أموراً لعله يقبل بعضها ويترك ما يدعو إليه . قال « يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا . . . »(٢) وأبو سفيان يردد مثل هذا القول عند فتح مكة ، فهو حين قابل النبى فى الطريق إلى مكة وأسلم ، وأوقفه العباس بمضيق الوادى ليشهد قوة جيش المسلمين فلا تحدثه نفسه بالانتقاض ، قال حين مرت عليه الكتائب « والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما » فلما قال له العباس « يا أبا سفيان إنها النبوة » قال « فنعم إذن »(٣) ، وطلب الملك والرياسة صريح واضح فى أذهان من ادعى النبوة من العرب لا ينكرونه ، وإنما يعلنونه ويعدون عصبياتهم به ، فمسيلمة يكتب إلى النبى « من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله . سلام عليك . فإنى أشركت فى الأمر معك ، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتدون »(٤) وطليحة يقول لأصحابه فيما يسجع لهم ويدعى أنه من الوحى « والحمام واليمام ، والصرد الصوام ، قد صمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام »(٥) ، وسجاح تقول لمالك بن نويرة اليربوعى التميمى حين وادعها وكفها عن غزو

---

(١) الطبرى : ٣/٢٥٣ .

(٢) ابن كثير ٣/٩٣ .

(٣) ابن هشام : ٤/٢٢ — ٢٣ .

(٤) ابن هشام : ٤/٢٧٢ : الطبرى : ٣/١٤٦ . البلاذرى : ٩٥ .

(٥) الطبرى : ٣/٢٦٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

أبى بكر ، وحملها على أحياء من تميم « نعم فشأنك بما رأيت ، فإنى أنا امرأة من بنى يربوع وإن كان ملك فالملك ملككم »(١) ومسيلمة يعرض عليها حين قابلته أن يمنحها نصف الأرض الذى كان لقريش لو عدلت ، ثم هو حين يفاوضها يعرض عليها الزواج فيقول « هل لك أن أتزوجك فآكل بقومى وقومك العرب »(٢) والأسود العنسى يكتب إلى عمال النبى وجباة الصدقات « أيها المتوردون علينا . أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ، ووفروا ما جمعتم ، فنحن أولى به ، وأنتم على ما أنتم عليه »(٣) .

والتفت القبائل حول هؤلاء المتنبئين عصبية ورغبة فى منافسة قريش فى الزعامة . فعيينه بن حصن الفزارى يقول « لأن نتبع نبيا من الحليفين — يعنى أسدا وغطفان — أحب إلينا من أن نتبع نبيا من قريش ، وقد مات محمد وبقى طليحة »(٤) ، وطلحة النمرى يناقش مسيلمة فيتبين له ادعاؤه فيقول : « أشهد أنك كذاب ، وأن محمداً صادق ، ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر » ثم يبقى إلى جانب مسيلمة حتى يقتل معه يوم عقرباء(٥) وقبائل ربيعة فى البحرين اجتمعت وارتدت وقالوا « نرد الملك فى آل المنذر »(٦) ، وقال الحطم بن ضبيعة وقد جمع من التف حوله من بنى بكر بن وائل ، لسويد أخى النعمان بن المنذر « فإنى إن ظفرت ملكتك بالبحرين حتى تكون كالنعمان بالحيرة »(٧) . وقال عطارد بن حاجب من أتباع سجاح ساخراً متهكما بها حين تابعت مسلمة وتزوجته(٨) :

---

(١) الطبرى : ٣/٢٦٩ .
(٢) نفس المصدر : ٣/٢٧٢ — ٢٧٣ .
(٣) نفس المصدر : ٣/٢٢٩ .
(٤) الطبرى : ٣/٢٥٧ . ابن الأثير : ٢/٢٣١ .
(٥) الطبرى : ٣/٢٨٦ . ابن الأثير ٢/٢٤٥ .
(٦) الطبرى : ٣/٣٠٣ . ابن الأثير : ٢/٢٤٩ .
(٧) الطبرى : ٣/٣٠١ :
(٧) الطبرى : ٣/٢٧٤ . ابن الأثير : ١/٢٤١ .

أمست نبيئنا أنثى نطيف بهـــا   وأصبحت أنبيـــاء الناس ذكرانا

ولـكنه مع تهكمه هذا لا يفارق سجاح وإنما يسير معها ويسايرها .

على أن كل هؤلاء المتنبئين لم ينـكروا رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، بل هم يقلدونها ويعترفون بها اعترافا صريحا أو ضمنيا ، والاعتراف الصريح واضح فى كتاب مسيلمة إلى النبى ، وكانت دعواه قائمة على أنه أشرك فى الأمر مع النبى ، كما كان يقلده فيما يسمع من أخباره ، ويتخذ له مؤذنا ، يؤذن له فيشهد فى الأذان أن محمداً رسول الله وأن مسيلمة رسول الله أيضا[١] ، وطليحة يدعى أن جبريل يأتيه بالوحى كما يأتى محمداً[٢] ، ويفرض الصلاة ولـكنه يرى أن تـكون من غير سجود ، ويقول : إن الله لا يصنع بتعفر وجوهكم وقبح أدباركم شيئا ؛ فاذكروا الله أعفة قيـاما فإن الرغوة فوق الصريح »[٣] .

ولم يقل أحد من المتنبئة بالرجوع إلى أديان العرب القديمة ، وإنما كلهم يعترف بالله ويدعو إليه ، فلم يعد للوثنية مكان بعد أن حطم الإسلام مراكزها وكسر أصنامها فى مكة وفى كل البيوت التى أقيمت لها . ومع ذلك فإن كثيراً من العرب لم يدخلوا الإسلام إلا بظاهر القول دون أن ينفذ الإيمان إلى قلوبهم «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولـكن قولوا أسلمنا ولـما يدخل الإيمان فى قلوبكم » ، وكثير تابع النبى صلى الله عليه وسلم عن طريق المحالفات التى وقعها رؤساء القبائل مع النبى نيابة عن قبائلهم ، وكان النبى يرسل مع هؤلاء الرؤساء معلمين يعلمون القبائل الإسلام ، ولـكن لم تـكن الفرصة كبيرة أمام هؤلاء المعلمين ليثبتوا الإسلام لدى القبائل أو ليشرحوا لها قواعده وأهدافه ، فدخول الإسلام فى هذه المرحلة كان آتيا عن تبعية القبائل للدولة لا عن إقتناع وفهم له كدين .

---

(١) الطبرى : ٣/٢٨٣ . ابن الأثير : ٢/٢٤٥ .
(٢) البلاذرى : ١٠٣ ابن الأثير : ٢/٢٣٥ .
(٣) البلاذرى : ١٠٣ . ابن الأثير : ٢/٢٣٢ .

فالردة فى الحقيقة لم تكن ردة عن الإسلام كدين ، وإنما كانت ردة عن النظام الذى أقامه الإسلام ، وخروجا على الدولة ، وثورة على الزعامة القرشية التى تولت الحكم بعد النبى . وكان اعتذار الناس بعد أن عادت البلاد إلى حكم المسلمين أنهم كانوا حديثى عهد بالجاهلية[١] ، وقد طلب الزعماء الذين هزموا وأسروا ألا يطبق عليهم قانون الارتداد ، وإنما طلبوا أن يطبق عليهم قانون الاستبراء ، ويقول عيينة بن حصن الفزارى حين جىء به إلى المدينة أسيراً وقيل له « أكفرت بعد إيمانك! » « والله ما كنت آمنت بالله قط »[٢] .

فالردة لم تكن إذن ردة عن الدين ، وإنما كانت ردة عن الوحدة ومنافسة على الزعامة ، وعصبية تطلب ملكا وتنافس عليه ، وتصطنع الدين وسيلة للوصول إليه ، كما كانت ثورة على سلطان قريش وأنفة من أن تخضع لها وتدفع لها الزكاة التى اعتبرتها إتاوة ، وهى وإن كانت قبلت دفع هذه الإتاوة لشخص النبى فى حياته نظراً لما رأت من قوته وخضوعا لشخصه ، فإنها لم تقبل أن تستمر فى خضوعها ، ورفضت الخضوع لأبى بكر من بعده ، وظنت الأمر وراثة فى قريش تحكم بها العرب ، حتى قال عبد الله الليثى الذبيانى :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا ... فيا لعباد الله ما لأبى بكر ؟
أيورثها بكراً إذا مات بعده ! ... وتلك لعمر الله قاصمة الظهر[٣]

وقال قرة بن هبيرة زعيم بنى عامر لعمرو بن العاص حين مر به عائداً من عمان بعد وفاة النبى « يا هذا ، إن العرب لا تطيب لكم نفسا بالإتاوة ، فإن أعفيتموها من أخذ أموالها فستسمع لكم وتطيع ، وإن أبيتم فلا أرى أن تجتمع عليكم »[٤] .

(١) الطبرى : ٣/٢٣٩ .
(٢) الطبرى : ٣/٢٦٠ . ابن الأثير : ٢/٢٣٥ .
(٣) الطبرى : ٣/٢٤٦ . أورد هذين البيتين صاحب الأغانى ونسبها للحطيئة : ٢/١٥٧ .
(٤) الطبرى : ٣/٢٥٩ .

فالعرب الذين خرجوا على سلطان المدينة وسموا بالمرتدين إذن لم يكفروا بالإسلام ولم يرفضوه كدين ، كما قد يتبادر إلى الذهن من تسميتهم « مرتدين » . وهم كانوا فريقين :

١ — فريق منع الزكاة ، زاعمــا أنها إتاوة قبلوا دفعها للنبي شخصياً ، فإذا مات أصبحوا فى حل من دفعها لمن قام بعده . وهذا الفريق لم يعتبره الصحابة قد كفر بالإسلام ، وعارض عمر أبا بكر فى حربه لهم محتجا بقول النبي صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله »[١] ، لـكن أبا بكر رأى أن الامتناع عن دفع الزكاة هدم لركن من أركان الدين ، وأن التهاون فيه قد يجر إلى هدم غيره من الأركان ، على أن الزكاة كانت هى المصدر الوحيد لخزانة الدولة ، فالتنازل عنها معناه إعجاز الدولة ماديا . لذلك صمم أبو بكر على قتالهم عليها ، وأدرك عمر ومن رأى رأيه حكمة ما ذهب أبو بكر إليه ، فتابعوه على ما رأى .

على أن هؤلاء لم يرتدوا عن الإسلام كرهاً له ، وإنما ظنوا أنه كنظام قد انتهى بموت النبي . أضف إلى ذلك أنهم لم يخرجوا على عقيدة التوحيد التى هى عماد الدين ، وإنما زعموا أن الزكاة إتاوة يدفعونها للرسول فلما مات لم يعد ما يبرر دفعها ، ولم يكونوا يدركون لبداوتهم وقلة حظهم من المعرفة بالإسلام مدى حدوده كدين يحتوى تشريعا تقوم عليه دولة . وقد وصف القرآن حالة أمثال هؤلاء من الأعراب بقوله « الأعراب أشد كفراً ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم »[٢] . وكان هذا الفريق هو القبائل العربية القريبة من المدينة فى الحجاز ونجد .

٢ — أما الفريق الثانى فهو القبائل العربية البعيدة عن المدينة ، وهؤلاء لم يدخلوا الإسلام كما قلنا إلا عن طريق زعماء القبائل الذين وفدوا على النبى وعقدوا معه أحلافا

(١) البخارى : ٢/١٠٥ .
(٢) سورة التوبة : ٩٨ — ٩٩ .

جاء م قبائلهم ، ولم تكن هذه القبائل قد دخلت الإسلام حقا ، لأن الفترة بين اتصالهم بالنبي وبين وفاته كانت قريبة ، فلم يمض عليهم من الزمن ما يكفي لأن يؤثر الدين في قلوبهم ، ثم إنهم مع ذلك لم يرتدوا إلى الوثنية وإنما تابعوا متنبئين منهم ، وحملتهم العصبية على أن يخرجوا على الدولة في المدينة رغبة في أن يقيموا ملكا رغبهم في إقامته هؤلاء المتنبئة ، وأثاروا عصبيتهم على قريش التي آلت إليها رياسة الدولة التي أقامها الإسلام .

ولما كانت السياسة والدين في الدولة الإسلامية لا يكاد ينفصل أحدهما عن الآخر[١]، كان الخارجون على الدولة يعتبرون بالتبعية خارجين على مقررات الدين ، ولعل صفة الارتداد والكفر جاءت من هذه الناحية . ومن هنا كان على الدولة أن تقاتل هؤلاء المرتدين حتى تردهم أو توقع عليهم عقوبة الإعدام ، مخافة أن ينقلبوا عيونا عليها فيصبحون بذلك شراً مستطيراً يهدد كيانها[٢] .

على أن الإسلام شديد الحيطة في أمر المرتدين ، لا يأخذهم في ذلك بالشبهة ولا يحكم فيهم بالظنة ، وإنما يمهلهم ثلاثة أيام يناقشهم فيها علماء المسلمين وفقهاؤهم فيما التبس عليهم من أمر الدين[٣] . كما لا ينبغي أن يكفر مسلم يحتمل عمله أو قوله الكفر وعدمه إلا إذا كان التكفير بقوله أو بعمله مجمعا عليه . ولعل هذا الروح هو ما أملى على أبي بكر أن يكتب كتابه إلى المرتدين ، وأن يعهد إلى قواده أن يعرضوا الإسلام على المرتدين قبل قتالهم .

من كل ذلك نرى أن محاربة أبي بكر لمن ارتد عن الإسلام إنما كانت قمعا لثورة داخلية حاولت أن تصدع أركان الدولة وتفتت الوحدة العربية التي لم تتدعم بعد .

وكان مدار هذه الثورة هو الانتقاض على سلطان المدينة وعدم الخضوع لزعامة قريش

---

(١) Nicholson ,literay history of the arabs, P.197 .

(٢) انظر حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسي : ١/٢٦٢ .

(٣) السرخسي : المبسوط : ١٠/٩٨ — ١٠٠ . الدردير : الشرح الكبير : ٤/٢٧٠ والحاشية ص ٢٦٧ .

التى سلبتهم حريتهم وأدخلتهم تحت سلطانها بحكم الدين ، وما زال دبيب العصيان ينمو فى النفوس ، والتمرد على الحكومة القرشية ينتشر بين القبائل حتى تزعزع مركز الإسلام ، وانكمشت أطراف الدولة فلم يصبح فى يدها غير مكة والمدينة والطائف(١) ولم تظل على ولائها فى الأطراف البعيدة غير قبيلة بنى عبد القيس(٢) .

أما قريش فإنها وقد آلت إليها رياسة الدولة ، وأدركت ما تنطوى عليه ردة العرب من انتقاض على سلطانها ، فقد اضطلعت بعبء الأمر وتحملت مسئوليته بما يليق بها من العناية والجد ، وألقت بكل كفاياتها فى أتون المعركة التى قررت خوضها ضد هذه القبائل المتمردة ، وبرهنت بحق على أنها زعيمة العرب وأحقهم بهذا الأمر وأقدرهم على الاضطلاع به ، وكانت فى موقفها واثقة من نفسها معتدة بكفايتها ، يدل على ذلك قول عمر بن الخطاب لنفر من أصحابه من قريش « قاتم ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلقهم ألا يقروا بهذا الأمر ، فلا تخافوا هذه المنزلة ، أنا والله منكم على العرب أخوف منى من العرب عليكم . والله لو تدخلون معاشر قريش جحراً لدخلته العرب فى آثاركم . فاتقوا الله فيهم »(٣) ، كما كان الأنصار أوفياء لتقاليدهم فأخذوا مرة أخرى مكانهم فى الطليعة(٤) ، لمحاربة هؤلاء الخارجين على ذلك النظام الذى أقاموه بجهودهم وتضحياتهم إلى جانب النبى .

غير أنه لحسن الحظ لم يكن المرتدون بطبيعة حركتهم ليتضامنوا فيما بينهم ، فالأزمة فى الواقع ترجع إلى النزوع إلى الاستقلال وإلى رفض التضامن ، كما كان فى كل قبيلة جماعة حافظت على إسلامها وعلى ولائها لحكومة المدينة ، وكانت تناوىء الخارجين ، كما كانت تنتظر جيوش المدينة للانضمام إليها . وكانت القبائل الثائرة على عادتها البدوية

---

(١) الطبرى : ٣/٢٤٢ .

(٢) نفس المصدر : ٣/٣٠٢ .

(٣) نفس المصدر : ٣/٢٥٩ .

(٤) انظر الطبرى : ٣/٢٩٠ — ٢٩٧ . فلهوزن : ٣٧ .

فى حالة نزاع مستمر فيما بينها وإن اتفقت فى ثورتها على حكومة المدينة ، وبذلك لم يكن فى مكنتها أن تتحد فيما بينها أو تتفق على تنفيذ خطة واحدة .

* * *

تدبير أبى بكر لقمع الردة

١ — بعث أسامة بن زيد :

كان النبى صلى الله عليه وسلم يخشى جانب الروم ويعمل حساباً كبيراً للجبهة الرومية ، وكان على حذر ويقظة داعين خشية أن يدهم الروم المسلمين متأثرين بما بين الدين الناشىء والمسيحية من خلاف ، ومتأثرين بتحريض اليهود الذين غلبوا على أمرهم فى بلاد العرب ورحل كثير منهم إلى الشام ، وفعلا تحركت جموع من الروم ومن العرب المتنصرة على الحدود ، مما اضطر معه إلى القيام بغزوتى مؤتة وتبوك ، واضطر فيهما خصومه إلى التراجع وراء حدودهم . وقد أثارت هاتان الغزوتان الثائرات بين المسلمين والروم ، مما جعل النبى يضاعف العناية بالتخوم العربية الرومية ، وأن يكون تجهيز جيش يقوده أسامة بن زيد بعض سياسته فى تأمين تخوم شبه الجزيرة العربية من الروم ذوى البأس والقوة فى ذلك الوقت ، وبخاصة بعد انتصارهم على الفرس .

ولم يكن خطر الانتقاضات العربية خافيا على أبى بكر حين تولى الخلافة ولا على أصحابه من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة ، وقد كان ما شجر بينهم فى يوم السقيفة من خلاف جديراً بأن ينبههم إلى خطرها ، ولكن أيلقى أبو بكر كل باله إلى هذه الانتقاضات ويعدل عن سياسة النبى فى تأمين الحدود بين العرب والروم ؟ أم يجرى على هذه السياسة فى توجيه عنايته نحو هذه الحدود ؟ خصوصا وأن بعض نذر الانتقاض فى الجزيرة العربية قد بدأ فى أواخر أيام النبى ، ومع ذلك فقد كان اهتمامه بالجبهة الرومية هو شغله الشاغل . لقد كان النبى يدرك أن قواته لو انتصرت على الروم فإن الجنوب وغير الجنوب سيخضع حتما بدون قتال أو بقتال يسير ، وأن الجبهة المخوفة هى جبهة الدولة التى لا زال نصرها

على الفرس يلعب برأسها ، وربما تحدثها نفسها بإخضاع الحجاز بل وشبه الجزيرة كلها لسلطانها حتى تتفوق تفوقا حاسما فى نضالها مع الفرس ، وحتى تقضى على هذه النهضة الجديدة التى جاء بها النبى فى بلاد العرب ، وقد مات النبى وجيش أسامة معسكر بالجرف شمال المدينة . فلما تولى أبو بكر كان أول قرار أصدره أن قال « ليتم بعث أسامة » واعترض بعض الصحابة على تنفيذ هذا البعث واحتجوا بأن جنده هم جل المسلمين ، وأن العرب قد انتقضت ، فليس ينبغى أن يفرق أبو بكر عنه جماعة المسلمين . لكن أبا بكر قال فى تصميم « والذى نفس أبى بكر بيده لو ظننت أن السباع تخطفنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق فى القرى غيرى لأنفذته » واعترض بعض الأنصار على تولية أسامة إمارة الجيش لصغر سنه ، فقد كان فى نحو العشرين من عمره ، وطلبوا من عمر بن الخطاب أن يبلغ أبا بكر ليولى عليهم رجلا أقدم سنا من أسامة. لكن أبا بكر غضب ووثب إلى عمر يقول له « ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب !! استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه » .

هذا الحديث يصور سياسة أبى بكر عندما تولى الخلافة . وهذه السياسة تتلخص فى قوله لفاطمة بنت النبى حين سألته ميراثها من أبيها « إنى والله ما أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته »(١) .

وأبو بكر كان ألصق الناس بالنبى وكان وزيره وأعرف الناس بسياسته وأشدهم فهما لها وإدراكا لمراميها ، فقد عاصرها وشارك فيها بعقله وروحه وبإيمانه ، فلا عجب أن يترسم خطى النبى وأن يسير على نهجه ، وأن يتقصى كل اتجاه كان يتجه اليه فيسلكه .

ورحل جيش أسامة بعد أن خرج معه الخليفة يودعه وهو ماش وأسامة على جواده ، ليزيد المسلمين إذعانا لإمارة أسامة وتسليما بها . فلما آن له أن يودع الجيش ، وقف فى رجاله خطيبا ، فقال « أيها الناس ، قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغلوا ولا تفسدوا . ولا تمثلوا . ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا ولا امرأة . ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه .

---

(١) ابن كثير : ٥/٢٨٥ .

ولا تقطعوا شجرة مثمرة . ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأ كلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منه شيئا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليه . وتلقون قوما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقا . اندفعوا باسم الله . أقفا كم الله الطعن والطاعون »[١] .

وهكذا نرى كيف يفرق أبو بكر فى وصيته للجيش بين الحرب وبين التدمير والتخريب. وهو إنما يريد الحرب لأغراض عليا ، فليست هى الغزو للانتقام والتشفى ، وإنما هى لإقرار حق أو لإسكان فتنة ، أو لرد كيد وحفظ بيعة . ويجب أن تكون أصول الحرب الشريفة مكفولة ومرعية .

وغزا أسامة ، فبث الخيول فى قبائل قضاعة حتى وصل « آبل » بالأردن من مشارف الشام[٢] ، وعاد ظافراً منتصراً بعد أن حقق الأغراض التى أرسل البعث من أجلها ، وهو تأمين التخوم بين العرب والروم ، وإرهاب العدو حتى لا تحدثه نفسه باختراق هذه الحدود . كما حقق بعث أسامة غاية أخرى عارضة ولعلها لم تغب عن ذهن أبى بكر ، وهى إظهار قوة المدينة فى نظر القبائل التى تعيش فى الشمال من المدينة ، فقد قال العرب : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه ، فكان ذلك من أكبر المصالح فى هذا الوقت العصيب[٣] . وكان فراغ الجيش من مهمته أربعين يوما سوى مقامه ومنقلبه راجعا .

٢ — قتال من منعوا الزكاة :

بينما كان جيش أسامة فى طريقه إلى تخوم الروم ، كانت الثورة مندلعة فى شبه جزيرة

---

(١) انظر عن بعث أسامة : الطبرى : ٣/٢٢٥ — ٢٢٧، ٢٤٣ . ابن الأثير : ٢/٢٢٦_٢٢٧. ابن كثير : ٦/٣٠٤ — ٣٠٥ .

(٢) ياقوت : ١/٥٠ . الطبرى : ٣/٢٢٧ .

(٣) ابن الأثير : ٢/٢٢٧ . ابن كثير : ٦/٣٠٤ — ٣٠٥ .

العرب . وكان من العرب من منع الزكاة وأرادوا أن تكون صلتهم بالمدينة صلة وحدة في الدين لا صلة وحدة سياسية ، وكانت هذه هي القبائل القريبة من المدينة : عبس وذبيان ومن انضم إليهم من بني كنانة ومن غطفان وفزارة . وقد أرسلت هذه القبائل جموعا منها أقامت على مقربة من المدينة ، وبعثت وفودها تفاوض في منع الزكاة مع الاكتفاء بإقامة الصلاة .

وجمع أبو بكر كبار الصحابة يستشيرهم في قتال من منعوا الزكاة ، فرأت طائفة من المسلمين وعلى رأسهم عمر ألا يقاتلوا مانعي الزكاة وأن يستعينوا بهم على عدوهم ، وقالوا : كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » واحتدمت المناقشة ، وقال أبو بكر « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال . وقد قال : إلا بحقها »(١) .

وهكذا صمم أبو بكر على قتال مانعي الزكاة على اعتبار أن الإسلام نظام واحد متكامل فإما أن يقر كله أو ينهدم كله ، وهدم الجزء في أي نظام يجر إلى هدم النظام كله . ونشط أبو بكر لهذا أشد النشاط وقال « والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها »(٢) .

وعادت وفود القبائل بعد أن رأت عورة المدينة ورأت قلة المسلمين بها بعد سفر جيش أسامة . وأدرك أبو بكر ذلك فجمع الناس وقال لهم « إن الأرض كافرة (مظلمة) وقد رأى وفدهم منكم قلة ، وإنكم لا تدرون أليلا تؤتون أم نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد ، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونوادعهم ، وقد أبينا عليهم ، ونبذنا إليهم عهدهم ، فاستعدوا وأعدوا »(٣) . وكان حين أخرج أهل المدينة في جند أسامة قد حبس من بقي

---

(١) الذهبي : تاريخ الإسلام : ١/٣٤٩ .
(٢) البخاري : ٢/١٠٥ — ١٠٦ . الطبري : ٣/٢٤٤ .
(٣) الطبري : ٣/٢٤٥ .

من تلك القبائل التى كانت لها الهجرة فى ديارهم ، فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل(١) وأقام نفراً على أنقاب المدينة يراقب قدوم المهاجين فينذر الناس ، كما أخذ الناس بحضور المسجد .

وصدق حدس أبى بكر فلم تلبث جموع مانعى الزكاة إلا ثلاثا حتى زحفت على المدينة ، فأنذر بهم العسس ، فأبلغوا أبا بكر ، فخرج بالناس على الإبل حتى دافع العدو ، ثم هاجمهم بعد ذلك ليلا وهم غير متوقعين للهجوم ، ولاحقهم فى عماية الصبح فأوقع بهم هزيمة شديدة ، دفعت القبائل حين عادت إلى مقرها أن تنتقم ممن فيها من المسلمين فتقتل من تقدر عليه منهم .

وهرع المسلمون فى كل قبيلة يؤدون الزكاة لأبى بكر ويرجون عنده النصر ، وقد عاد جيش أسامة ، واشتد بعوده ساعد حكومة المدينة ، فلما عاد أسامة إلى المدينة أمره أبو بكر أن يريح الجيش ويحفظ المدينة ، ثم خرج فى الناس على تعبئة فباغت عبسا وذبيان وبنى بكر فغلبهم وأجلاهم عن مواقعهم . وأصبحت المدينة بعد ذلك فى أمن بما تحقق لها من نصر ، وفى رخاء بما عاد به الجيش من غنائم ، وما حُمِل إليها من الزكاة . وآن لأبى بكر أن يرسم سياسة عامة لقتال المرتدين فى كافة أنحاء الجزيرة العربية(٢) .

٣ — حروب الردة :

هزمت القبائل التى منعت الزكاة ، والتى كانت على مقربة من المدينة ، وجاء بعضها مستسلما ، أما أغلبها فقد أخذته العصبية وحب الانتقام ، فانضم إلى طليحة بن خويلد الأسدى ببزاخة . واستقر أبو بكر فى المدينة يرتب لحرب المرتدين حربا عامة فى كل مكان .

فلما أراح أسامة وجنده ظهورهم وجمُّوا ، وجاءت صدقات كثيرة تفضل عنهم ، خرج الخليفة إلى ذى القصة وهى على بعد أربعة وعشرين ميلا فى شرق المدينة(٣) فوزع الجند

---

(١) الطبرى : ٣/٢٢٥ .
(٢) نفس المصدر : ٣/٢٤٦ — ٢٤٩ .
(٣) ياقوت : ١٥/٣٦٦ .

أحد عشر لواء ، جعل على كل لواء منها أميراً ، ثم أصدر أمره إلى كل أمير منهم أن يستنفر من يمر به من المسلمين من أهل القوة وأن يسير لقتال المرتدين . وجعل هذه الألوية تتناسب فى قوتها مع قوة القبائل التى وجهها إليها ، ومبلغ إلحاح هذه القبائل فى ردتها ، وجعل خالد بن الوليد أمهر القادة وسيف الله على رأس اللواء الأول ، ووجهه لقتال طليحة ابن خويلد فى بنى أسد ومن لف لفهم ، فإذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة زعيم بنى تميم بالبطاح .

وبنو أسد وبنو تميم كانوا أقرب المرتدين إلى المدينة ، فإذا هزموا فتت هزيمتهم فى أعضاد غيرهم ، وخالد أجدر القواد بأن يعقد له هذا اللواء ويرجى منه النصر .

وجعل عكرمة بن أبى جهل على اللواء الثانى ، ووجهه لقتال مسيلمة فى بنى حنيفة باليمامة . ثم جعل شرحبيل بن حسنة على اللواء الثالث وأمره بمعاونة عكرمة على قتال مسيلمة ، فإذا فرغا منه لحق شرحبيل بقضاعة مداداً لعمرو بن العاص .

وجعل على اللواء الرابع المهاجر بن أبى أمية المخزومى ووجهه لقتال جنود العنسى ، وعمرو ابن معد يكرب الزبيدى وقيس بن المكشوح المرادى ورجالهما باليمن ، فإذا فرغ منهم قصد كندة وحضرموت ليقاتل الأشعث بن قيس والمرتدين معه .

وجعل اللواء الخامس للعلاء بن الحضرمى لقتال المرتدين بالبحرين . وكانت وجهة اللواء السادس وعليه حذيفة بن محصن الغلفانى من حمير ، لقتال ذى التاج لقيط بن مالك المتنبىء فى عمان .

وكانت وجهة اللواء السابع وعليه عرفجة بن هرثمة إلى مهرة ، وأرسل اللواء الثامن بقيادة سويد بن مقرن إلى تهامة اليمن . كما كان اللواء التاسع بقيادة طريفة بن حاجز موجها ضد بنى سليم ومن معهم من هوازن .

وكل هذه الألوية اتجهت إلى الشرق وإلى الجنوب لبأس أهله وإلحاحهم فى الردة . أما الشمال فقد وجه إليه لواءين على أحدهما عمرو بن العاص إلى قضاعة ، وخالد بن سعيد لاستبراء مشارف الشام .

وقد أمر أبو بكر قواده بألا ينتقل أحدهم من قتال جماعة تغلب عليها إلى قتال أخرى حتى يستأذنه ، وذلك إيمانا منه بأن وحدة القيادة فى الحرب هى العامل الأول فى إحراز النصر .

وقد زود الألوية بنسخة من كتاب منه يتلى على أهل القبائل ، يعلمها بالإسلام ويدعوها إليه ، وبأنه لن يقبل منها إلا الإسلام أو يقاتلها أعنف القتال ، وبأنه أمر رجاله ألا يقاتلوا حتى يدعوا إلى الله ، فمن أجاب قبل منه وكف عنه ومن أبى قوتل ، والعلامة الأذان . ثم زود قواده بنسخة من كتاب منه كذلك يدعوهم إلى الجـــد ، وإلى تنفيذ ما جاء فى الكتاب الأول ويحذرهم من العجلة والفساد ، ويأمرهم بالرفق برجالهم ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول[١] .

وسارت هذه القوات نحو غاياتها بعزم شديد ، فحققت كل أهدافها ، وكان خالد بن الوليد أبرز هؤلاء جميعا ، فقد هزم طليحة بن خويلد ومن انضم إليه من القبائل هزيمة تامة ألجأته إلى الفرار ، ثم إلى الرجوع بعد ذلك إلى حظيرة الإسلام ، حيث حسن إسلامه ، وأبلى بعد ذلك فى فتوح الإسلام فى العراق وفارس أحسن البلاء . كما قضى على الردة فى بنى تميم وقتل مالك بن نويرة ، وكان نصره الحاسم بعد ذلك على مسيلمة فى معركة عقرباء باليمامة ، وكان مسيلمة قد استفحل أمره ونكب قوات عكرمة ثم هزم قوات شرحبيل بن حسنة . وكانت معركة عقرباء أشد ما وقع فى حروب الردة من قتال ، وفيها ظهرت عبقرية خالد فى القيادة كما تجلت قوة إيمان المسلمين أمام روح العصبية عند العرب ، وفيها قتل مسيلمة وعدد كبير من بنى حنيفة ، كما دفع المسلمون فيها ثمن النصر غاليا ، فقد قتل فيها منهم مائتان وألف ، منهم ثلاثمائة وستون من المهاجرين والأنصار من أهل المدينة . ولقد محا خالد بغزوة اليمامة الردة ومحق المرتدين . أما حروب الردة فى باقى الجهات فلم تكن ذات خطر كبير إذ انتهت سريعا بنصر المسلمين[٢] .

---

(١) انظر عن توزيع الجند وكتب أبى بكر : الطبرى : ٣/٢٤٩ — ٢٥٢ . ابن الأثير : ٢/٢٣٤ . ابن كثير : ٦/٣١٥ — ٣١٦ .

(٢) انظر عن حروب الردة : الطبرى : ٣/٢٢٣ — ٣٤٣ . ابن الأثير : ٢/٢٢٧ — ٢٦١ . ابن كثير : ٦/٣٠٥ — ٣٤٠ . البلاذرى : ٩٤ — ١١٣ . هيكل : الصديق أبو بكر : ١٢٠ — ٢٠٥ . جلوب : الفتوحات العربية الكبرى : ١٦٢ — ١٨٤ .

كانت الهزيمة التى أصابت المرتدين آخر الأمر دليلا على أن النظام الجديد قد أصبح قويا جارفا ، وعلى أن حركة الردة برغم عنفها وشمولها لم تستطع أن تنال منه شيئا . ولولا أن المدينة كانت تمثل فكرة جديدة ، وتمثل فى الحقيقة ما انطوت عليه نفوس العرب ، ولولا أنها كانت تمثل القومية التى كانت حائرة غامضة فى الجاهلية . ولولا أن جيوش المدينة كانت أقوى من كل قبيلة أو قبيلتين على حدة ، لكانت تلك الأزمة نهاية للنظام الذى أقامه النبى .

واستطاعت جيوش المدينة أن تظهر عزمها على تأييد النظام الجديد ، وأن ترد القبائل إلى الطاعة ، بل إنهـا قامت إلى جانب قمع المرتدين بعمل إضافى فى نفس الوقت ، وهو تطبيق قانون براءة تطبيقا تاما ، أو هو بحسب اللفظ الوارد فى المصادر استبراء الناس رسميا من الدين الوثنى .

وكان الاستبراء هدفا هاما من الأهداف التى وضعها أبو بكر لجيوش الردة . فالمدينة كانت تعلم أن جيوشها لم تطأ من قبل من أقاليم الجزيرة إلا الحجاز ، وأن نفوذها فيما وراء ذلك سطحى ، وأن إسلام من أسلم بعيداً عن المدينة غير عميق ، لم يتأثر بالإسلام إلا تأثرا ضحلا ، وأن معظم القبائل لم يتصل بالمدينة إلا عن طريق المواثيق التى أبرمتها فى عام الوفود ، وعن طريق عمال الصدقات الدعاة الجباة . فكانت الردة فى الحقيقة فرصة لتطبيق الاستبراء تطبيقا فعليا ، وإظهار قوة الدولة الإسلامية . ولم تكن المدينة قد أوتيت تلك الفرصة من قبل ، فقد كانت عاجزة عن مثل ذلك ، وإلا وقعت فى حرج وظهرت بمظهر المعتدى وجرحت كبرياء القبائل . ونحن إذا قرأنا كتب أبى بكر التى زود بها جيوش الردة ، وجدنا فيها نية الاستبراء ظاهرة ، ووجدنا فى أوامر أبى بكر لقواده لفظ « الاستبراء »[1] الدال على أن أبا بكر يريد أن يطبق إعلان براءة ، فلا يصح أن نهمل الصلة بين ما جاء فى كتب أبى بكر وما أمر به من الاستبراء وبين لفظ « براءة »

---

(١) الطبرى ٣/٢٢٦ ، ٢٨١ ، ٣٤١ .

الوارد فى سورة براءة (التوبة) ، إنم نتا نجد بعض زعماء الردة يحتجون على المدينة حين حاربتهم بأنهم لم يكونوا قد دخلوا فى الإسلام من قبل حتى يعدوا مرتدين ، وهم يطلبون لذلك أن يطبق عليهم قانون الاستبراء لا قانون الردة ، ونجد أبا بكر يحقن دماء من أرسل إليه من هؤلاء تقديرا لهذا الأمر ·

فإذا نظرنا إلى الردة من هذه الناحية وجدنا أنها كانت أزمة ضارة نافعة . ثم إن مهمة المدينة أثناءها كانت يسيرة إلى حد ما ، لتفرق الأعداء وعدم تضامنهم إطلاقا ، ولوجود جماعة من كل قبيلة موالية للمدينة · فهذه الأزمة لم تكن تحتاج فى الواقع إلا إلى قدر من الإيمان ، وكان أبو بكر كفوأ لها من هذه الناحية ·

وقد استغرقت الردة وقمعها نحو عام · فلما استهل العام الثانى عشر للهجرة كانت الوحدة العربية قد عادت أقوى مما كانت ، وكان المجال فى بدء هذا العام فسيحا أمام النظام الجديد ، وكانت القلوب يقظى قد استهوتها المبادىء الجديدة بما فيها من قومية ودين ، وتكاد القومية تكون دافعا أقوى من الدين على تحريك الشعوب وإنهاضها ، فمن الشعوب من غير دينه أكثر من مرة وظل مع ذلك محتفظا بقوميته .

وكان إحساس العرب بوحدتهم وقوميتهم على يد الحكومة اليثربية أمراً لم يتح لهم من قبل · وبهذا تمت الفكرة التى بدأها النبي وحققها ، فتأيدت وتدعمت على يد أبى بكر ، وتحقق للعرب ، إلى وحدة اللغة وتجانس النسب ، وحدة الدين ، وكان هذا معجزة أقوى من المعجزة التى تلتها وهى معجزة الفتوح ·

* * *

الباب الثالث

الفتوح وقيام الدولة الإسلامية الكبرى

الفصل الأول

دواعي الفتوح

تم على يد النبي صلى الله عليه وسلم توحيد الجزيرة العربية من الناحيتين الدينية والسياسية ، ثم ثبتت دعائم هذه الوحدة على يد أبي بكر بعد أن قضى على حركة التمرد التي قامت بها القبائل العربية . ولم يكد يمضي على وفاة النبي نحو عام[1] حتى خرج العرب إلى المجال الخارجي ودخلوا في مرحلة جديدة هي مرحلة الفتوح .

والفتوح ظاهرة من الظواهر التاريخية المطردة تحدث كلما توحد شعب كان مفككا ، أو كلما نهض شعب وأصلح نفسه بنفسه وأحس بكيانه ، فالفتوح التي عرفت قديما هي فتوح الإسكندر التي جاءت عقب نهضة المقدونيين الحربية وتوحيدهم لبلاد الأغريق . وفتوح الرومان التي جاءت بعد أن بسطت الدولة المدينية التي هي روما سلطانها على كل شبه الجزيرة الإيطالية ووحدت بذلك الشعب الروماني . وكذلك الشعوب البربرية في العصور الوسطى حين كانت تتحد على حدود الامبراطوريات ، لا تلبث أن تهجم على أرض الامبراطورية ، ونشير إلى ممالك الجرمان التي تكونت شمال الدانوب وشرقيه ، ثم اجتازت حدود الدانوب ودخلت البلقان الذي كان جزءاً من الامبراطورية الرومانية الشرقية . وكذلك وحد جنكيز خان الشعب المغولي وهجم به على العالم المتحضر . وكذلك في العصر الحديث حين قام الفرنسيون بالثورة الفرنسية وأصلحوا أنفسهم ، جاءت بعقب ذلك الفتوح النابليونية .

وقد اعتاد المؤرخون أن يردوا مثل هذه الظاهرة ، إما إلى حركات تقوم بها الشعوب

---

(1) توفي النبي في ربيع الأول سنة ١١ هـ (الطبري : ٣/١٩٩) وسار خالد إلى العراق في المحرم سنة ١٢ هـ (الطبري : ٣/٣٤٣) .

تحت ضغط شعوب أخرى من ورائها ، فيدفع شعب شعبا حتى تصل قوة الاندفاع إلى قلب العالم المتحضر ، وينطبق هذا على القبائل الجرمانية . وإما إلى إحساس الشعوب المغيرة بقوميتها وبكيانها ، وبدخول العزة فى قلوب أبنائها ، بحيث يحملهم على الاعتقاد فى أفضليتهم على غيرهم ، وفى حقهم فى أن يحكموا غيرهم من الشعوب ، وينطبق هذا التفسير على الغارات المغولية وعلى الفتوح النابليونية . وينضاف إلى هذين التفسيرين تفسير ثالث ، وهو أن مراكز الحضارة تنطوى دائما على قوة جذب كبيرة بالنسبة للشعوب الأقل حضارة ، فتتجه هذه الشعوب بغاراتها إلى العالم المتحضر .

وخروج العرب من جزيرتهم إلى المجال الخارجى ، واندفاعهم فى حركة الفتوح إحدى هذه الظواهر التاريخية ، وينطبق عليها من وجهة التفسير العام لحركات التاريخ ما ينطبق على غيرها فالعرب قد تم لهم من الوحدة الدينية والوحدة السياسية ما كان حدثا بالغ الأهمية فى تاريخهم ، فهم لم يألفوا هذه الوحدة فى تاريخهم الطويل ، وكان تمزقهم الداخلى يجعلهم يحسون بصغر شأنهم إلى جانب الدول الكبرى التى كانت قائمة على حدودهم والتى يخضع لنفوذها ممالكهم الصغيرة التى قامت على أطراف الجزيرة . فلما تحققت لهم الوحدة بقيام الدولة الإسلامية ، وألف الإسلام بين قلوبهم فذهب التنافس الذى كانت تثيره العصبية القبلية ، وامحى تبعا لذلك الخلاف وحسن التعاون والتعاضد واتسع نطاق الكلمة ، شملتهم نهضة قومية أحسوا معها بأنهم أصبحوا خلقا جديداً ، ويفلسف ابن خلدون[1] هذا الموقف بقوله « إن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذى فى أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق ، فإذا حصل لهم الاستبصار فى أمرهم لم يقف لهم شىء ، لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون عليه ، وأهل الدوله التى هم طالبوها ، وإن كانوا أضعافهم ، فأغراضهم متباينة بالباطل ، وتخاذلهم لتقية الموت حاصل ، فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم ، بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل . وهكذا كما وقع للعرب صدر الإسلام فى الفتوحات » ، وتكونت لديهم نزعة جديدة ،

---

(١) المقدمة : ١٧٥ — ١٧٦ .

فأصبح العربي ينزع للدم العربي والأمة العربية والجنس العربي ويفخر به إلى جانب نزعته لعشيرته وبطنه وقبيلته . كالذي يقول(١) :

إنّا من النفر الذين جيادهم طلعت على عاد بريح صرصر
وسلبن تاجي ملك قيصر بالقنا واجتزن باب الدرب لابن الأصفر

كل هذا ملأهم إحساساً بالقومية وأدخل العزة على قلوبهم ، وحين سمعوا قول الله تعالى « إن الدين عند الله الإسلام » « وكذلك جعلنا كم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » اعتقدوا بأفضليتهم ، وبأن لهم رسالة عليهم أن يؤدوها للعالم من حولهم .

ثم إنه كان طبيعيا — إذا سرنا مع منطق التفسير العام — أن يتجه العرب حين خرجوا إلى المجال الخارجي إلى قلب العالم المتحضر ، ولم يكن يعقل أن يديروا ظهورهم إلى العالم القديم المجيد ، ليدخلوا مجاهل أفريقيا أو يتجهوا إلى الحبشة .

هذا من وجهة التفسير العام للحركة العربية باعتبارها ظاهرة تاريخية ، ولكن لابد من البحث عن الأسباب المباشرة التي دفعت العرب إلى الالتحام بدولتي ذلك الزمان — الفرس والروم — في وقت واحد ، ثم لا بد من تفسير لما تحقق لهم من نصر كامل على هاتين الدولتين الكبيرتين ، هذا النصر الذي أدى إلى تغيير شامل في حياة العالم السياسية والاجتماعية والدينية والفكرية على حد سواء .

وقد رد بعض المؤرخين خروج العرب إلى المجال الخارجي بعد ظهور الإسلام ، إلى جدب الجزيرة العربية ورغبة سكانها الفقراء الذين ازدحمت بهم في البحث لهم عن مخرج في البلاد الخصيبة الغنية المجاورة لهم ، فكان توسعهم هذا واحدة من سلسلة الهجرات التي حملت الساميين مرة أخرى إلى بلاد الهلال الخصيب وما وراءه ، فليس التوسع العربي إلا نتيجة هجرة جماعة نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة وتجتاح

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام : ١/ ٢٠ .

بلاداً أكثر خصبا كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظا ، وكان ذلك آخر هجرة من الهجرات السامية[1] .

بينما رد البعض[2] خروج العرب إلى العراق والشام إلى أن الضرورة السياسية هى التى أملت على أبى بكر أن يدفع بالقبائل العربية للمجال الخارجى ؛ للقضاء على روح التمرد لدى هذه القبائل ، وإرضاء لروح القتال الطبيعية فيها ، فكان الجهاد ، وهو الحرب فى سبيل الله ، وسيلة إلى جعل القبائل المتمردة ترضى بالإسلام وتحرص على مصلحته ، لما ينالها من وراء هذا الجهاد من غنائم كثيرة ، ولأنها فى نفس الوقت تنفس عن الروح القتالية عندها ، وتجد منفذاً عاطفيا تخرج به عن جمود حياتها الصحراوية الرتيبة ، والتى كانت من قبل تجد لها منفذاً فى قتال بعضها بعضا ، ذلك القتال الذى حرمه الدين بين المسلمين ، فكأن الروح القتالية عند العرب كانت هى العامل الأول فى التوسع الإسلامى ، ولم يكن الجهاد لنشر الإسلام أكثر من ذريعة وتعلة للحرب .

لكن الذى قال به المؤرخون الذين ذهبوا إلى الرأى الأول ، لم يكن إلا استنتاجا أقاموه على حالة تمت ، ونظروا إليها من خلال ما مضى من تاريخ الجزيرة العربية ، ومن خلال ما استقرت عليه الأوضاع بعد الفتوح . فهم قد رأوا الجزيرة العربية من قبل مركزاً لهجرات تقوم بها القبائل نتيجة لاضطرابات داخلية أو عسر اقتصادى ، كما حدث فى هجرات قبائل العرب الجنوبية منذ حوالى القرن الثانى الميلادى . لكن هذه الهجرات العربية لم تكن تدفقاً قبليا وغزوا ، وإنما كانت حركات اضطرادية بطيئة ، وكان

---

(١) انظر : برنارد لويس : العرب فى التاريخ : ٧٥ . غودفروا : النظم الإسلامية : ١٣٦ . رنسيمان : الحضارة البيزنطية : ٣٨ . نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية . ٥٥ . أرنولد : الدعوة إلى الإسلام : ٤٦ — ٤٧ .

Caetani: studi di storia orienale, ·11.pp.831 — 861.

(٢) أنظر : فلهوزن : تاريخ الدولة العربية : ٢٣ . جلوب : الفتوح العربية الكبرى : ١٩٢ . حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسى : ١/ ٢٧٠ .

قصاراها حين وصلت إلى العراق والشام أن استقرت على مشارف البادية ولم تتوغل في الداخل . وكان السلطان في العراق والشام متداولا بين الامبراطوريتين الفارسية والرومية ، فكانت فارس تنتزع الشام من الروم أحيانا وتضمه إلى العراق التابع لها ، وكان الروم يسعون لانتزاع العراق أحيانا وضمه إلى الشام التابع لهم . وكان العرب بما طبعوا عليه من ميل إلى الغزو والقتال تنضم قبائلهم التى نزحت إلى بادية العراق إلى الفرس ، وتنضم قبائلهم فى بادية الشام إلى الروم . وأدى هذا إلى أن تفكر الدولتان فى اتخاذ هؤلاء العرب الذين نزلوا فى البادية الممتدة بينهما سداً يحول دون اعتداء إحداها على الأخرى ، ليبقى العراق خالصا للفرس ويبقى الشام خالصا للروم ، ولذلك نشأت المملكتان العربيتان : مملكة اللخميين فى العراق ومملكة الغساسنة فى الشام ، وتبعت الأولى امبراطورية الفرس وتبعت الثانية امبراطورية الروم ، وشاركت المملكتان فى الصراع الذى احتدم بين الدولتين الكبيرتين ، كما كان ولاؤهما لماهل الفرس أو لماهل الروم مقيداً بدفع العرب من شبه الجزيرة ، أو العرب المقيمين فى بادية العراق أو فى بادية الشام عن أرض فارس أو عن أرض الشام ، ولذلك كانت الحروب تتصل بين اللخميين والغسانيين اتصالها بين فارس والروم . وقد تأثر عرب العراق وعرب الشام بحكم اتصالهما بالدولتين الكبيرتين بحضارة الفرس وحضارة الروم أكثر مما تأثر بهما سائر بقاع شبه الجزيرة ، ولكنهم مع ذلك احتفظوا باستقلالهم الذاتى وبكثير من معيشتهم البدوية وحياتهم العربية الخالصة ، لذلك ظلت لغة أهل شبه الجزيرة لغتهم ، فلم تمحها الفارسية فى العراق ولا اليونان أو اللاتينية فى الشام ، وظلت صلات ملوك الحيرة وصلات ملوك غسان بشبه الجزيرة وثيقة ، وظل شعراء شبه الجزيرة من أمثال النابغة الذبيانى وأعشى قيس وعلقمة ، وحسان بن ثابت هم الذين يشيدون بذكر هؤلاء الملوك وينالون جوائزهم .

ويختلف الأمر عن ذلك فى حركة الفتوح العربية بعد الإسلام ، فلم تكن حركة العرب فى هذه الفتوح هجرة قبلية مدفوعة بظروف الاضطرابات الداخلية أو بالعسر الاقتصادى . وإنما كانت هناك دولة قائمة فى الجزيرة العربية أدى ظروف قيامها

وتوحدها إلى أن تستكمل وضعها الطبيعى وتحافظ على حدودها ، ولكى تستكمل وضعها الطبيعى كان من الضرورى أن تستكمل الوحدة العربية بضم كل العنصر العربى المقيم على تخوم شبه الجزيرة ، وكانت القبائل العربية فى العراق أو فى الشام وثيقة الصلة بأحداث شبه الجزيرة تحس بها وتشارك فيها ، وقد رأينا من قبل كيف قدمت سجاح بجموع قبائل تغلب والنمر التى كانت تعيش فى العراق ؛ لتغزوا حكومة المدينة ولتحول الرياسة العربية إلى يد هذه القبائل ، كما أن قبائل بنى بكر بن وائل وبنى عجل تأثرت بما أصاب مملكة الحيرة على يد الفرس ، وغضبت لمقتل النعمان بن المنذر ، واشتبكت مع الفرس فى موقعة ذى قار . وكذلك تأثرت قبائل العرب فى الشام بأحداث الجزيرة العربية فى عهد النبى متأثرة بالنفوذ الرومى ؛ مما أدى إلى أن يتابع النبى الحملات على منطقة تخوم الشام .

لذلك اتجه نشاط الدولة بعد توحد العرب فى داخل شبه الجزيرة إلى منطقة العراق والشام ، وإذا كانت قد اتصلت بتخوم الشام فى وقت مبكر منذ السنة السادسة للهجرة فى عهد النبى ، فإن ذلك لأن الحجاز وهو مركز الدولة كان وثيق الاتصال بالشام وكانت ارتباطاته التجارية به كبيرة ، وقد رأينا من قبل ما بذله الروم من محاولات ، سواء عن طريق حليفتهم الحبشة أو عن طريقهم المباشر ، لبسط نفوذهم على الحجاز ، وكان الاحتمال قويا فى أن يجدد الروم هذه المحاولات بصورة أشد متأثرين — إلى جانب رغبتهم فى السيطرة على الطريق التجارى والاتصال بالحبشة حليفتهم لاستكمال ظفرهم النهائى على خصومهم الفرس — بقيام الدولة الجديدة وبظهور الإسلام الذى بدا مناوئا للمسيحية ، والذى هادنه الأمراء المسيحيون فى أيلة وأذرح ودومة الجندل فى أثناء غزوة تبوك(١) ، ومتأثرين كذلك بما نال اليهود فى جزيرة العرب من طردهم من المدينة ومن استسلام جموعهم فى خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى .

أما منطقة العراق ، فإنها وإن كانت بعيدة عن الحجاز وتأثرها لذلك به أقل ، فإن

---

(٢) انظر ابن هشام : ١٨٠/٤ — ١٨٢ ، ٢٦١ الطبرى : ١٠٨/٣ — ١٠٩

سلطان الدولة ما لبث أن وصل إلى هذه الحدود واستقر فيها بعـــد انتهاء حروب الردة والقضاء على حركة التمرد التى قامت بها القبائل العربية . على أن الدولة لم تبدأ هى حركة الاتصال بمنطقة العراق وإنما بدأتها القبائل العربية المقيمة على تخوم هذه المنطقة والتى كانت لها فروع مقيمة فى العراق ، والتى كانت قد اشتبكت بالفرس من قبل فى موقعة ذى قار ، والتى كانت لا تزال تغير على الفرس متأثرة بما أصاب مملـكة الحيرة ، والتى قوى لديها الدافع القومى بعد قيام الوحدة العربية فى داخل شبه الجزيرة[١] .

على أن حركة الفتوح بدأت غزوا ولم تـكن هجرة ، ولما كان الجيش العربى مكونا من رجال القبائل العربية ، فإن القبائل جرت على عاداتها فى حروبها من حمل أبنائها ونسائها وأموالها معها فى القتال . فالجيش العربى الذى كانت تحارب به الدولة لم يكن جيشا نظاميا كالجيوش التى تستخدمها دول الحضارة ، وإنما كان جيشا قبليا تلقائيا ، ولم تحدث الهجرة إلا بعد نجاح الفتوح وإقامة القواعد العربية ، فـكان التهجير عملا رسميا تقوم به الدولة بنقل القبائل إلى هذه القواعد للاقامة فيها ، لا على أنه تهجير لذاته ولـكن لأن القبائل هى جيش الدولة ، ثم استتبع الأمر بعد تمام الفتوح أن هاجرت قبائل إلى البلاد المفتوحة لتقيم مع فروعها ، وكانت حين تهاجر تصبح أيضا من قوات الجيوش المرابطة فى الأمصار .

وهكذا نرى الفرق واضحا بين ماذهب إليه هذا الفريق من المؤرخين وبين ما حدث فى حركة الفتوح العربية .

وأما ما يذهب إليه الفريق الآخر من أن الخروج للمجال الخارجى والالتحام بالفرس والروم كان للقضاء على روح التمرد لدى القبائل العربية ولإرضاء طبيعة القتال فيها ، فإنه وإن بدا لأول وهلة منطقا سليما تمليه الحـكمة السياسية على أبى بكر ، إلا أنه منقوض بما وقع فعلا ، فإن أبا بكر عند تسيير قواته إلى العراق والشام منع القبائل المرتدة من المشاركة

---

(١) انظر الدينورى . الأخبار الطوال : ١٠٩ — ١١١ . الطبرى : ٢/١٩٣ — ٢١٢ . النويرى : ١٥/٣١٥ — ٣٣١ ، ٤٣١ — ٤٣٤ .

فى الغزو[١] ، وإنما اقتصر على من ثبت على الولاء للدولة فى أثناء حركة التمرد ، ولو كان الأمر يتصل بالقضاء على روح التمرد عند القبائل ، لكان الأجدر هو دفع هذه القبائل للقيام بهذا الغزو وشغلها به ، ولكان مما يتنافى مع الحكمة السياسية أن تترك هذه القبائل فى أماكنها ، وأن ترسل الدولة الموالين لها إلى مناطق القتال ، فتتيح بذلك فرصة لهذه القبائل التى مردت على الثورة أن تفكر فى العصيان مرة أخرى ، وفرصتها فيه أكبر لانشغال الدولة وقواتها الموالية فى حرب خارجية .

لكن حروب الردة كانت فرصة لأن تجرب القوى بعضها بعضا ، وقد هزم العصاة فى كل مكان واضطروا إلى الاستسلام ، ولحق بهم الخزى إلى الحد الذى دعا أبا بكر لأن يصدر قراره بحرمانهم من الحرب إلى جانب المسلمين ، وكان هذا عقابا أفعل فى نفوسهم من الهزيمة نفسها ؛ وكان عليهم لكى يرفعوا عن أنفسهم ذل هذا الخزى أن يبرهنوا بكل الوسائل على الاندماج فى الروح القومى الذى بدا الشعور به جارفا بين العرب فى ذلك الوقت . ذلك الشعور الذى حمل إخوانهم على نقل تياره إلى قبائل العرب التى تعيش تحت نفوذ الفرس فى العراق . وقد آتى هذا العقاب الذى أنزله أبو بكر بالمرتدين ثمرته ، فإن الخليفة عمر بن الخطاب لم يكد يرفع هذا الحظر عن القبائل العربية المرتدة حتى اندفعت إلى ميادين القتال بكل طاقاتها لتحقق من النصر ما يرفع عن كاهلها عار الردة[٢] ، واندفع الزعماء الذين تزعموا حركة التمرد ليرفعوا عنهم الخزى بما يحققونه من بطولات فى المعارك ، وما كان طليحة بن خويلد — وهو الوحيد الذى بقى من مدعى النبوة — مثلا عليه فى معارك العراق[٣] .

وإذا كان أبو بكر قد أظهر من العلم بنوازع نفوس العرب ماجعله يفرض على القبائل المتمردة هذا العقاب ، فإنه أظهر من الدقة السياسية والحذر ما جعله يخشى من إشراك

---

(١) الطبرى : ٣/٣٤٧ . ابن كثير : ٦/٣٤٢ . ابن الأثير : ٢/٢٦٢ .

(٢) انظر الطبرى : ٣/٤٤٨ ، ٤٨٤ وما بعدها .

(٣) انظر نفس المصدر : ٣/٥١١ — ٥١٢ .

هؤلاء المرتدين من أن تحدثهم أنفسهم بإحداث خلل فى صفوف قواته وهم لا يزالون حديثى عهد بهزيمة قد تحملهم على الانتقام .

وإذا كنا قد رفضنا كلا الرأيين فى دوافع الفتوح ، فإن خير وسيلة لفهم الأسباب الحقيقية هو الرجوع إلى الحوادث نفسها ثم استخلاص هذه الدوافع منها .

فأما جبهة الروم ، فإن ناحية الشمال كانت متجهه أنظار النبى منذ أن عقد مع قريش هدنة الحديبية فى سنة ٦ هـ ، وقد استطاع النبى بعد غزوة خيبر واخضاع يهود وادى القرى وتيماء أن يمد نفوذه نحو الشمال ، وأن يضرب القبائل الضاربة على تخوم الشام والتى أخذت تتحرك مدفوعة بتحريض عمال الروم للتحرش بالمسلمين وقطع تجاراتهم التى تتجه نحو الشمال ، فخرج إلى دومة الجندل وهى واحة بين الحجاز والشام وبينها وبين دمشق ثمانية مراحل (حوالى مائة ميل)(١) ، وبذلك تاخمت حدود الدولة الإسلامية حدود الغساسنة وهددت بنفوذها النفوذ الرومى الممتد على هذه الجهات ، وقد أحس أمراء الغساسنة وعمال الروم بقوة هذا النفوذ ، وأثار غضبهم حتى لقد عدا شرحبيل بن عمر الجذامى عامل الروم على البلقاء على رسول النبى — الذى أرسله بكتاب إلى حاكم بصرى يدعوه إلى الإسلام ضمن الكتب التى أرسلها النبى إلى الملوك — فقتله(٢) ، وتهدد المنذر بن الحارث بن أبى شمر الغسانى النبى حين أرسل كتابه إليه وأظهر عزمه على السير لغزو الحجاز(٣) ، ثم أخذت القبائل الموالية للروم من غسان ولخم وجذام وبهراء وبلى تتجمع على حدود الحجاز الشمالية وأمدها الروم ببعض القوات ، لتغير على مناطق الحجاز ، مما دفع النبى إلى إرسال حملة التقت بهذه الجموع فى موقعة مؤتة ، وهى قرية على حدود البلقاء بين الحجاز والشام(٤) وإذا كانت الحملة لم تستطع أن تحقق نصرا ، فإنها لم تهزم أيضا ،

---

(١) ابن سعد : ٣/١٠٣ — ١٠٤ .
(٢) انظر ابن سعد : ٢/٢٢ — ٢٩ ، ٣/١٧٤ .
(٣) الطبرى : ٢/٦٥٢ .
(٤) ياقوت : ١٨/١٣١ . ابن هشام : ٣/٤٢٩ .

وأظهرت بأس المسلمين وقوة الدولة الجديدة ، ثم أتبعها النبى بقوات أخرى عليها عمرو بن العاص ومعه كبار المهاجرين : أبو بكر وعمرو وأبو عبيدة ، فشتت جموع قبائل تخوم الشام ورد للمسلمين هيبتهم فى تلك الناحية(١) . وما زالت منطقة الحدود الشمالية تشغل بال النبى حتى لقد قام بأكبر حملة شهدتها الجزيرة العربية حين بلغته أخبار عن حشود رومية وعربية تتجمع فى منطقة البلقاء لغزو الحجاز ، فبلغ منطقة تبوك ، فلم يجد تلك الحشود ، وصالحته المدن القائمة فى المنطقة : أيلة وأذرح ودومة الجندل(٢) . ثم أعد فى آخر حياته بعثا عسكريا بقيادة أسامة بن زيد ، وهو البعث الذى أنفذه بعد ذلك أبو بكر بعد خلافته .

حتى إذا ما حدثت الردة بعد وفاة النبى وجه أبو بكر لواءين إلى منطقة الشمال أحدهما بقيادة عمرو بن العاص لإخماد التمرد بين قبائل قضاعة ، والآخر بقيادة خالد بن سعيد ابن العاص لاستبراء مشارف الشام . فكأن الجيوش لم تنقطع عن هذه المنطقة منذ السنة السادسة من الهجرة ، وظلت الجبهة مفتوحة بين الدولة الإسلامية وبين الغساسنة والروم ، وكان كلا الطرفين يحصن حدوده ويستعد مخافة عدوان الآخر عليه ، لكن موقف المسلمين كان موقف المدافع ، إذ كانت المغامرة باقتحام حدود الروم أمراً خطيراً ، فالروم دولة قوية ، وقد خرجت من حربها مع فارس يحالف النصر أعلامها ، وهى وإن أجهدتها حربها الطويلة مع الفرس إلا أن للفوز فى الحروب بريقا يكلل هام المنتصر بأكاليل تبهر أنظار الناس وتصدهم عن محاربته ، ولم تكن الأمة العربية قد جربت حظها مع مثل هذه القوة الظافرة لتقدم على مغامرة لها أعظم الخطر ، إذ لو انتصر الروم عليها لتعرضت شبه الجزيرة لكارثة ربما تجتث الدولة الناشئة ، وتخضع العرب لحكم الروم ، وتفتن المسلمين عن دينهم .

---

(١) انظر ابن سعد : ٣/١٢٧ — ١٢٩ .

(٢) انظر ابن هشام : ٤/١٦٩ — ١٨٤ . المقريزى : إمتاع الأسماع : ١/٤٤٥ — ٤٨٧ .

إلا أن الجيوش العربية والجيوش الرومية كانت متوافقة على الحدود . ولما كان المسلمون قد اشتبكوا مع الفرس فى العراق وحققوا عليهم انتصارات كبيرة ، ووصلت قواتهم بقيادة خالد بن الوليد إلى الفراض ، وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة ، حميت الروم واغتاظت ، واتصلوا بالفرس ، وتشارك العدوان القديمان فى قتال خالد الذى ألحق بالطرفين هزيمة شديدة[١] . وعلى ذلك وقع الصدام بين الطرفين ، الأمر الذى جعل الروم يستعدون قبائل تخوم الشام على المسلمين ، فتمردت القبائل من بهراء وكلب وغسان والضجاعم ، واجتمعوا فى دومة الجندل ، التى نقضت الحلف الذى كانت عقدته مع النبى ، مما اضطر أبا بكر إلى توجيه عياض بن غنم إليها ، فلما توقف أمامها طويلا ، انحدر إليها خالد بن الوليد فهاجم المدينة وأوقع بالقبائل المتجمعة بها وحولها[٢] . ولما كان لواء خالد بن سعيد الذى أرسله أبو بكر لاستبراء مشارف الشام مقيما على الحدود ، وقد اجتمع إليه جموع كبيرة ، فإن الروم خشوا هذه الجموع ، فضربوا على العرب الضاحية البعوث ، واستنفروا قبائل بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان ، وأخذوا يتحرشون بقوات المسلمين ، فكتب خالد بن سعيد إلى أبى بكر بأخبار إعداد الروم ، فكتب إليه أبو بكر « أقدم ولا تحجم واستنصر الله » فلما تقدم إليهم أعروا له مكانهم وتفرقوا عنه ، فكتب إلى الخليفة ، وجاءه الأمر بأن « تقدم ولا تقتحم »[٣] . ولكن الروم استدرجوه وأوقعوا ببعض قواته ، فلما اضطر إلى الارتداد ، حشدت الروم قواتها فى اليرموك وقالوا كما روى الطبرى عن السرى[٤] : « والله لنشغلن أبا بكر فى نفسه عن تورد بلادنا بخيوله » . وحين وصل الأمر إلى هذا الحد أصبح الصدام أمراً محتوما .

أما جبهة العراق ، فإن زعيمين من زعماء القبائل العربية فى بادية العراق هما المثنى

---

(١) الطبرى : ٣/٣٨٣ — ٣٨٤ .

(٢) نفس المصدر : ٣/٣٧٨ .

(٣) نفس المصدر : ٣/٣٨٨ — ٣٨٩ .

(٤) نفس المصدر ٣/٤٠٨ .

ابن حارثة الشيبانى ، وسويد بن قطبة العجلى ، كانا يغيران على تخوم أرض العجم ، وكانت هذه الغارات ، من هذين الزعيمين ومن غيرهما من قبائل هذه الجهات ، امتداداً لغضب العرب لما أصاب مملكة الحيرة على يد الفرس ، وكان الشيبانيون والعجليون هم الذين اشتبكوا مع الفرس فى معركة ذى قار وانتصروا عليهم فيها بعد مقتل النعمان ابن المنذر .

ثم جاءت هزائم الفرس على يد هرقل قيصر الروم ، وما استتبع ذلك من اضطراب فى أحوال فارس الداخلية ، الأمر الذى طوع لعاملهم « باذان » على اليمن أن يخرج عن تبعيته لفارس وينضم للنبى ، ثم تلا ذلك تجرؤ القبائل الربعية على الفرس فى منطقة البحرين وجميع البلاد الواقعة على الخليج الفارسى وعلى تخوم أرض الفرات ، حتى ذهبت هيبة الفرس من نفوسهم ، وحتى خرجت كل إمارات الخليج الفارسى من سلطانهم[١] ولم يفكر أحد من ملوك الفرس فى ذلك الوقت فى استرداد هذا السلطان لانشغالهم باضطراباتهم الداخلية ، وكان قصارى عاملهم على ثغر الأبلة أن يشتبك مع هذه القبائل العربية فى صراع اتسم بالقسوة والغدر من جانب هذا الوالى الفارسى ، حتى حقد عليه العرب وضربوه مثلا فى الخبث ، فقالوا : أخبث من هرمز ، وأكفر من هرمز[٢] .

وقد وافق هذا الوقت قيام الدولة الإسلامية وامتداد سلطانها على كل شبه الجزيرة وتدعيم هذا السلطان بالقضاء على حركة الردة . كل هذا شجع المثنى بن حارثة وسويد بن قطبة العجلى وغيرهما على استئناف الغارات على دهاقين الفرس فى سواد العراق[٣] . وكان المثنى قد بقى على ولائه للاسلام حين قامت الردة ، وانضم إلى العلاء بن الحضرمى فى مقاتلة المرتدين على رأس من بقى على الإسلام فى البحرين[٤] ، ثم تابع مسيره بعد انتهاء

---

(١) البلاذرى : ٨٥ ـ ٨٨ . الطبرى : ٣/٤٤٤ .
(٢) الطبرى : ٣/٣٤٨ .
(٣) انظر الدينورى : ١١١ . البلاذرى : ٢٥٠ .
(٤) الطبرى : ٣/٣١٠ .

الردة فى المنطقة مساحلا الخليج إلى الشمال ، متصلا بالقبائل العربية المقيمة فى دلتا النهرين مغيراً على بلاد العراق فى أسفل الفرات . وترامى من أخباره إلى أبى بكر ما جعله يفكر فى عاقبة ما ينشأ عن هذه الحركة التى يقوم بها المثنى ومن معه ، وما جعله يسأل عنه أحد زعماء بنى تميم وهو قيس بن عاصم المنقرى الذى كان موجوداً بالمدينة فى ذلك الوقت ، وقد أجاب قيس بقوله « هذا رجل غير خامل الذكر ، ولا مجهول النسب ، ولاذليل العماد ، هذا المثنى بن حارثة الشيبانى » ثم مالبث المثنى أن جاء بنفسه إلى المدينة يشرح الموقف للخليفة ويطلب إليه أن يؤمره على من قبله من قومه ، فيقاتل من يليه من أهل فارس ويكفيه ناحيته[1] . ثم كتب رئيس من قبائل بنى عجل إلى أبى بكر هو مذعور بن عدى ، يطلب إليه أن يوليه على قومه ليقاتل الفرس[2] .

إذن فالحركة فى العراق حركة قامت بها القبائل العربية التى كانت تناوىء الفرس وترغب فى التخلص من سلطانهم ، ولا ريب فى أن الشعور القومى هو الذى كان يجذبها نحو الدولة التى قامت فى الحجاز واستطاعت أن تقيم وحدة عربية تضم شبه الجزيرة لأول مرة فى تاريخها الطويل . ومما يؤكد هذا الانجذاب نحو القومية العربية أن القبائل العربية الموجودة فى العراق مالبث ، بعد أن دخل المسلمون وتحقق لهم الانتصار على الفرس ومن والاهم من القبائل ، أن انضمت إلى جيوش المسلمين ، ومنها قبائل تغلب والنمر النصرانية ، ولاشك أن دوافع هذه القبائل لم تكن دينية ، وإنما كانت دوافع قومية ، ففى موقعة البويب سنة ١٣ هـ ، قدم أنس بن هلال النمرى ممداً للمثنى فى أناس من النمر نصارى ، وجلاب جلبوا خيلا ، وقدم ابن مردى الفهر التغلبى فى أناس من بنى تغلب نصارى ، وجلاب جلبوا خيلا ، وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم : نقاتل مع قومنا . وعند الهجوم ، عمد المثنى إلى أنس بن هلال ، فقال : « يا أنس ، إنك امرؤ عربى ، وإن لم تكن على ديننا ، فإذا رأيتنى قد حملت على مهران (قائد الفرس) فاحمل معى » وقال لابن مردى الفهر التغلبى

---

(١) البلاذرى : ٢٥٠ . الطبرى : ٣/٣٤٤ .

(٢) البلاذرى : ٢٥٠ . الطبرى : ٣/٣٤٥ .

مثل ذلك ، فأجاباه . وقتل فتى من بنى تغلب مهران ، واستوى على فرسه ثم انتمى : « أنا الغلام التغلبى ، أنا قتلت المرزبان » . وكذلك قتل فى المعركة أنس بن هلال النمرى(١) .

وكان لزاما على حكومة المدينة أن تستجيب لهذه الحركة القومية بين قبائل العرب المقيمة على أطراف العراق وفى حوض الفرات ، وأن تدعم حركة المثنى بن حارثة ومن معه من زعماء قبائل تخوم العراق ، وأن واجبها يقتضيها ، وقد أتمت الوحدة فى داخل شبه الجزيرة ، أن تستكمل هذه الوحدة بضم القبائل العربية على أطرافها ، وبخاصة وأن هذه القبائل أظهرت من شدة ارتباطها بالوضع فى داخل شبه الجزيرة ما كان قدوم سجاح ومن معها ، ثم ما كان من أمر المثنى وأصحابه أكبر دليل عليه . ثم كانت الحكمة السياسية تقتضيها كذلك دعم حركة المثنى ، فإنه لو ترك المثنى يواجه الفرس وحده ثم انتصروا عليه ، لربما دعاهم انتصارهم إلى التفكير فى استرداد نفوذهم فى البحرين وما جاورها ، ولربما طمحوا إلى أبعد من ذلك فغزوا الدولة العربية فى عقر دارها .

من كل ما سبق يتبين لنا أن خروج العرب إلى المجال الخارجى ، إنما كان لدوافع قومية وسياسية فى المقام الأول ، وأن الحروب التى وقعت بينهم وبين الفرس والروم ، إنما بدأت حرب تحرير قصد بها تحرير المناطق العربية التى تقع على تخوم هاتين الدولتين ، وتحت نفوذهما ، استجابة للدافع القومى ودرءاً لما قد يحدث من استخدام القبائل العربية فى هذه الجهات لتهديد الدولة العربية نفسها . ثم تحولت بعد الالتحام الكبير وانتصار العرب فيه إلى حرب شاملة ، تهدف إلى الدعوة لنشر الإسلام ، وإلى تحقيق كل الأهداف التى اتصلت بالحروب منذ أقدم العصور .

* * *

---

(١) انظر الطبرى : ٣/٤٦٤ — ٤٦٧ . ابن الأثير : ٢/٣٠٣ — ٣٠٥ .

الفصل الثانى

العوامل التى ساعدت على نجاح الفتوح

التحم العرب بالفرس والروم فى وقت واحد ، وكان التحاما فرضته عليهم الضرورة ، وليس نتيجة خطة مدروسة معدة — كما أوضحنا فى ظروف الاشتباكات الأولى — فلم تكن الدولة العربية الإسلامية الناشئة قد أوتيت من الوقت ومن التنظيم ما يسمح لها بالتدبير للقيام بغزو أكبر دولتين فى ذلك الزمان ، وقد كان لهما من الهيبة والسلطان ما يجعل الإقدام على الاشتباك مع إحداهما مخاطرة ، فضلا عن الاشتباك معهما فى وقت واحد ، فقد كانت العرب تسمى فارس والروم « الأسدين »[1] وكانت تسمى قبائل ربيعة لجرأتها على الفرس « ربيعة الأسد »[2] ، وعلى الرغم من الانتصارات التى حققها خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيبانى على الفرس ومن والاهم من قبائل العرب فى منطقة الحيرة ، فإن القبائل العربية أظهرت ترددا كبيراً حين ندبها عمر بن الخطاب بعد وفاة أبى بكر للقيام بغزو العراق « وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم ، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم »[3] ، واحتاج الأمر إلى كثير من التشجيع والإغراء ، لحملهم على الاتجاه إلى العراق ، فقد وقف المثنى بن حارثة وهو صاحب التجربة فى قتال الفرس ، يقول « يأيها الناس ، لا يعظمن عليكم هذا الوجه ، فإنا قد تبحبحنا ريف فارس ، وغلبناهم على خير شقى السواد وشاطرناهم ونلنا منهم ، واجترأ من قِبَلنا عليهم ، ولها إن شاء الله ما بعدها » . وقام عمر فى الناس ، فقال « إن الحجاز ليس لكم بدار إلا على النجعة ، ولا يقوى عليه أهله إلا بذلك . أين الطراء المهاجرون

---

(١) الطبرى : ٣/٣٦٥

(٢) نفس المصدر : ٣/٤٨٧ .

(٣) نفس المصدر : ٣/٤٤٤ .

عن موعود الله ! سيروا فى الأرض التى وعدكم الله فى الكتاب أن يورثكموها ، فإنه قال « ليظهره على الدين كله » . والله مظهر دينه ، ومعز ناصره ، ومولى أهله مواريث الأمم . أين عباد الله الصالحون ! » ثم شجع أول من أجاب من الزعماء ، فولاه القيادة وفضله على أصحاب السابقة فى الإسلام(١) ، وأغرى قبائل بجيلة بأن وعدها بربع الخمس من الغنائم فوق نصيبها إن توجهت للعراق مدداً للمثنى(٢) .

وقد شاور أبو بكر أصحابه كثيراً فى أمر الشام ، وعلى الرغم من وجوه قبائل عربية كثيرة فى منطقة تخوم الشام ، وعلى الرغم من تغلغل العرب فى بقاع الشام ، وما كان معروفا من كراهية أهل الشام للنفوذ الروى ، فإن جبهة الروم كانت مخوفة وبخاصة بعد انتصارهم على الفرس . ولقد عبر عبد الرحمن بن عوف عن مدى نظرة العرب للروم بقوله حين استشار أبو بكر أصحابه « يا خليفة رسول الله ! إنها الروم وبنو الأصفر ! حد حديد ، وركن شديد ، والله ما أرى أن تقتحم الخيل عليهم إقحاما ، ولكن تبعث الخيل فتغير فى أدانى أرضهم »(٣) .

ومع أن العرب حين اصطدموا بالفرس والروم استطاعوا أن يحققوا عليهم انتصارات حاسمة ، فإنهم لم يكونوا راغبين فى التوغل إلى المدى البعيد الذى وصلت إليه الفتوح العربية ، فإن عمر بن الخطاب كان يرى الاكتفاء من فتح العراق بأرض السواد ، فقد أبى أن يسمح لقواته بتتبع الفرس بعد انهزامهم فى جلولاء ، وقال « لوددت أن بين السواد وبين الجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم ، حسبنا من الريف السواد ، إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال »(٤) ، كما أنه تردد كثيراً فى السماح لعمرو بن العاص بفتح مصر ولم يسمح له إلا بعد أن ساق عمرو كثيراً من الحجج وهون عليه أمر الفتح وأبان ضرورته(٥) .

---

(١) انظر الطبرى : ٣/٤٤٥ — ٤٤٨ . ابن خلدون : المقدمة : ١٦٢ .
(٢) البلاذرى : ٢٦٢ . الطبرى : ٣/٤٦٠ — ٤٦٣ .
(٣) هيكل : الصديق أبو بكر : ٢٧١ — ٢٧٢ .
(٤) الطبرى : ٤/٢٨ ، ٢٩ .
(٥) انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة : ١/٥ — ٧ . الكندى : القضاة والولاة : ٧ — ٨ ؛ البلاذرى : ٢١٩ .

فالضرورة هى التى جعلت المسلمين يلتحمون بالفرس والروم ، وهى التى جعلتهم يوالون الفتح حتى أدالوا من دولة الفرس ، فاستولوا على كل ملكها من بادية العرب إلى حدود نهر جيحون . وانتزعوا من الامبراطورية البيزنطية خير ما فى يدها من الولايات : الشام ومصر والجزيرة . وقد عرفت هذه الفتوح التى حققها العرب باسم « الفتوح الأولى » أو « الفتوح الكبرى » وظلت قاصرة على هذه الحدود : حدود جيحون تقريبا من الشرق إلى برقة من الغرب حتى عام ٧٣ هـ وهو العام الذى عرف بعام الجماعة الثانى ، ثم استأنف العرب بعده حركة أخرى من الفتوح تختلف فى ظروفها وطبيعتها عن الحركة الأولى .

وقد تكون هذه الفتوح قليلة بالنسبة إلى ما انضاف بعد ذلك إلى الإسلام من بلاد ، إلا أن هذا القدر كان ضخما جداً ، فلم يكن يدور بخلد عربى ولا رومى ولا فارسى أن العرب قادرون على أن يقتحموا هذه البلاد أو أن يطمعوا فى حرب كسرى وقيصر ، ومع ذلك فهذا هو الذى حدث ، وقد تم فى فترة وجيزة من الزمن ، بحيث كان حدثا فريداً لا يكاد يكون له نظير فى التاريخ من حيث السرعة التى تم بها ، ومن حيث أن هذه الأقاليم كانت فى يد أكبر دولتين فى ذلك الزمان ، ومن حيث استقرار هذه البلاد فى يد العرب واندماجها فى دولة واحدة ، وامتزاج شعوبها فى حضارة واحـــدة استطاعت أن تحوى فى ثناياها كل تراث الحضارات السابقة والمعاصرة ، أسهمت فيها ملكات كل هذه الشعوب بكل طاقتها الحيوية وتراثها القديم .

فما هى الوسائل التى حقق بها العرب هذا الفتح ، وما هى الظروف التى أعانتهم على إقامة هذا الملك الكبير ؟

لكى ندرك أن العرب كانوا يملكون الوسيلة الكافية ، يجب أن ننظر فى الأمر من ناحيتين : الناحية العسكرية ومقدرة الجند عند العرب وعند خصومهم من الفرس والروم . والناحية الداخلية فى الدولة وظروفها عند كلا الطرفين .

فأما من الناحية الأولى ، فإن جيوش ذلك الزمان كانت تستخدم البرابرة فى العادة

كقوة رهيبة قادرة على الضرب القوى المدمر[١] ، فكلما كان الجندى أخشن وأكثر وحشية كان عندهم أكفأ فى الحرب . والبربرى كان أداة الفتح والحرب فى تلك الأوقات شأنه شأن الأسلحة . فالبرابرة قوة فى ذاتهم إذا أخذناهم أفراداً ، فإذا اجتمعوا ووحدوا أنفسهم وأظهروا القدرة على التنظيم ، كانوا بداهة أقوى من أن جيش يحشد من أهل البلاد المتحضرة . والعرب قد أوتوا هذا التوحيد وهذا التنظيم منذ أيام النبى ، ولسنا نعتبرهم برابرة ، ولكنا يجب ألا ننسى أنهم بدو وأنهم أخشن من الفرس والروم ، وأجمع لصفات الحرب وأكثر ملكة فيها من غيرهم لبداوتهم « لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم فى الضواحى وبعدهم عن الحامية وانتباذهم عن الأسوار والأبواب ، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ولا يثقون فيها بغيرهم . فهم دائما يحملون السلاح ، ويلتفتون عن كل جانب من الطرق ، ويتجافون عن الهجوع إلا غراراً فى المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب ، ويتوجسون للنبآت والهيعات ، ويتفردون فى القفر والبيداء مدلين ببأسهم ، واثقين من أنفسهم ، قد صار لهم البأس خلقا ، والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ »[٢] ، فالعرب قد اكتملت لهم ملكة الحرب طبيعة ، وإن لم يكونوا من البرابرة ، لأنهم تلقوا تراثاً قديما نستطيع أن نقدره حق قدره إذا نظرنا إلى الشعر الجاهلى ، وإلى حظ العرب من البلاغة والإحساس بالجمال اللغوى ، هذا الإحساس الذى هيأهم لظهور القرآن فيهم كمعجزة بلاغية ، ثم إنهم أحسوا ما كان لهم فى جاهليتهم من فضائل وحرصوا على أن يتمسكوا بها فى الإسلام . ثم إن العرب يختلفون عن البرابرة المغيرين ،

---

(١) فى الحروب التى وقعت بين الفرس والروم ، لكى يقضى كسرى على الامبراطورية البيزنطية تحالف مع الآفار والسلاف الذين اكتسحوا البلقان وحاصروا القسطنطينية من الجانب الأوربى ، ولم تنج من أيديهم إلا بقوة حصونها وبوجود الأسطول القوى الذى دافع عنها بحرا . ورد هرقل باستدعاء حلفاء من التتار والخزر ووجههم نحو بلاد فارس الشمالية فعاثوا فيها واضطر الفرس إلى التقهقر بعد ما كانوا هددوا القسطنطينية من البر الأسيوى (أنظر : أومان ص ١٠٦ — ١٠٧) :

(٢) ابن خلدون : المقدمة : ١٤٠ — ١٤١ .

لأن البرابرة عادة يتركون ديارهم الأولى ويهاجرون إلى بلاد غيرها . أما العرب فقد حرصوا على أن يتصلوا بموطنهم الأول ، ونحن نعلم أن عمر بن الخطاب اختار الفسطاط والكوفة والبصرة أمصاراً لأنه كان يستطيع أن يصل إليها على دابته دون أن يعبر بحراً[١] . فالعرب وإن هاجروا إلى البلاد المفتوحة فقد ظلوا متصلين ببلدهم ، وظل مركز الحكم قائماً في الحجاز إلى أيام عبد الله بن الزبير تقريباً ، وظلت المدينة صاحبة نفوذ كبير جداً بعد ذلك إلى أوائل أيام العباسيين ، وقد اختار بعض العلويين الثائرين على بنى العباس المدينة مركزاً لثوراتهم على السلطان .

فالعرب كانوا أجمع لصفات الحرب كالبرابرة ، وإن لم يكونوا برابرة ، وقد أشعل الإسلام في قلوبهم الحمية ، ورفع روحهم المعنوية لدرجة بعيدة ، حتى كان المسلم يرى الاستشهاد في الحرب عديل النصر تماما ، بل سما بعضهم إلى أن كانت الشهادة في سبيل الله غايته الكبرى ، وفي مجال المقارنة يقول أومان[٢] « كان الرومانى يحارب حربا لابأس بها ، ولكنه لم يكن مثل عدوه يتوق إلى الشهادة . وكانت الأفضلية للرجل الذى جعل حياته أرخص من حياة غيره » . « وإذا كانت جيوش الملكة فكتوريا المسلحة بالبنادق الحديثة والمدفعية قد وجدت في العربى المتحمس عدواً شديد المراس[٣] ، فإنه يجب علينا أن لا نلوم جنود هرقل الذين واجهوا العدو نفسه بالحربة والسيف فقط . فإنه في الأعمال الحربية الأولى بين الرومانيين الشرقيين والمسلمين ، لم يكن تفوق النظام وجودة الأسلحة عند الأولين عاملا كافيا يمكن أن يوضع أمام التهور الجنونى عند الآخرين » .

---

(١) الطبرى : ٣/٥٧٩ ، ٥٩١ : السيوطى : حسن المحاضرة : ١/٥٧ اليعقوبى : كتاب البلدان : ٣٢٣ . محمود أحمد : جامع عمرو بن العاص : ١

(٢) أومان : الامبراطورية البيزنطية : ١٢٦ .

(٣) يشير أومان إلى موقعتى « طماى ١٨٨٤ م » و « أبو كاليه ١٨٨٥ » بين الإنجليز والدراويش فى السودان .

ويشرح قائد حديث الوضع العسكرى عند العرب والروم بقوله(١) « لم تكن المهمة سهلة أمام قادة المسلمين الذين قرروا الدخول فى حرب مع البيزنطيين : فلقد كانت الامبراطورية الرومانية تقوم وتصان منذ أربعة قرون على أكتاف المشاة الرومانيين ، الذين اعتبرت فيالقهم المشهورة المثل الأعلى للانضباط العسكرى . لكن الجيش البيزنطى فى القرن السابق لم يكن يشبه بحال من الأحوال تلك الفيالق . فلقد بدأ التحول بعد معركة أدرنة المشهورة فى عام ٣٣٨ م عندما تمكن فرسان القوط من اكتساح الجيش الرومانى وإبادته . وتبعت هذه المعركة ثورة شاملة فى الشئون العسكرية ، إذ قدر للخيالة أن يسيطروا على ميادين المعارك للألف سنة التالية . وحل الرومان فيالق مشاتهم المشهورة وأصبح الفرسان السلاح الأول فى جيوشهم . ولما كان السيف والحربة لم يعودوا كافيين لمقاومة أى هجوم ثقيل يقوم به الفرسان ، فقد لجأوا إلى القوس والنبال ، وسرعان ما تحولت كتائب الفرسان إلى ثقيلة وخفيفة . أما الكتائب الخفيفة فسلاحها السهام والقوس ، وفى وسعها أن تطلق نبالها وهى فى حالة الركض والخبب فى جميع الاتجاهات . أما الكتائب الثقيلة فسلاحها الرماح وتستعمل فى عمليات الصاعقة . وقد تمكن الامبراطور جستنيان بجيش من هذا النوع من استعادة الامبراطورية الرومانية لسابق عهدها بين عامى ٥٣٣ — ٥٦٥م . وكانت الكتيبة هى الوحدة فى الجيش الرومانى وتضم نحواً من أربعمائة جندى ، ويتألف اللواء من ثلاث كتائب أو أكثر ، بينما تتألف الفرقة من ثلاثة ألوية . وكان لكل كتيبة شارتها الخاصة بها ، واللون الخاص بملابس رجالها . وكان البيزنطيون على خلاف العرب ، قد نظموا الخدمات الإدارية والتنظيمية فى جيشهم على أحسن منوال . فلقد كان لكل فصيل من المشاة مؤلف من ستة عشر رجلا عربة خاصة بالفصيل تحمل لجنوده الفئوس والمجارف لأعمال الحفر ، ومطحنة لطحن القمح ، وغير ذلك من الأدوات والمعدات . وتسير مع الجيش وحدة إسعاف تضم الأطباء والجراحين وحملة ناقلات الجرحى . وكان التدريب التعبوى والعسكرى ينفذ بدقة ونظام ومثابرة . كما توفرت لطلبة العلوم العسكرية كتب عدة لدراسة الفنون الحربية » .

---

(١) جلوب : الفتوح العربية الكبرى : ٢١٧ — ٢١٨ .

« وأمام هذا الجيش النظامى الرفيع التدريب ، يقف العرب فى جماعات من أبناء القبائل غير المدربين ، فهم لا يعرفون شيئا عن التعبئة وفنون الحرب[١] ولا عن النظام والكتب العسكرية ، وليست لديهم إدارة أو رواتب أو أطباء . وكان سلاحهم أقل شأنا وأهمية من سلاح عدوهم . ومع ذلك فإنهم بعد موقعة مؤتة (سنة ٦ هـ) لم يخسروا أية معركة فى حربهم مع الروم . ومن المحتمل أن يكون شظف العيش الذى ألفوه واحتمالهم المشاق وافتقارهم لأى تدريب منظم قد جعل منهم قوة أسرع على الحركة من عدوهم . لكن الفضل الأول والأخير فى انتصاراتهم يجب أن يعزى إلى روحهم المعنوية العالية . فهم قاريو المزاج محاربون بطبيعتهم . وأدى تطلعهم إلى الشهادة طمعا فى فراديس الجنان التى وعدوا بها ، إلى أن يقاتلوا بحمية تفوق تماما ما كان لدى أعدائهم من الروم من تفوق فى السلاح والانضباط » .

وكان الجيش الفارسى كذلك منظما قويا لا يقل عن تنظيم الجيش الرومانى ، وقد أجرى عليه كسرى أنوشروان تنظيمات كبيرة ، وكان يزيد عن الجيش الرومى أنه كان يستخدم الفيلة كسلاح ضارب رهيب[٢] ولكن كانت تنقصه الروح المعنوية العالية التى بلغت أقصى غاياتها عند الجند المسلمين .

وكان المسلمون يمتازون عن خصومهم من الروم والفرس على السواء بالقدرة على الحركة السريعة إلى درجة هائلة ، وكان أسلوبهم فى القتال يتركز فى هجوم عنيف شرس ، وفى حركات تقدم وتراجع والتفاف تتم بسرعة فائقة ، مع قطع طرق مواصلات العدو وتموينه . ولم يكن

---

(١) لا نوافق على ما ذهب إليه جلوب من عدم معرفة العرب بالتعبئة وفنون الحرب ، فإن العرب قد عرفوا علم الحرب كما علمته دول الحضارة فى وقتهم ، فقد كانت ممالكهم على أطراف الجزيرة على صلة بالفرس والروم وشاركت فى تكوين جيوشهم وحروبهم ، وقد كشفت المعارك عن معرفة العرب يتقنون التعبئة العسكرية وخطط القتال ، وأظهر مثل لذلك تنظيم خالد للجيش فى معركة اليرموك ، وتنظيم سعد فى معركة القادسية (أنظر فى ذلك الطبرى : ٣/٣٩٥ — ٤٠٢ وما بعدها) وما عاد المؤلف بعد ذلك فأثبته فى وصفه المعارك .

(٢) انظر كريستنسن : إيران فى عهد الساسانيين : ١٩٦ — ٢٠٨ ، ٣٥٢ — ٣٥٥ .

فى وسع القوات الفارسية أو البيزنطية الثقيلة والبطيئة الحركة أن تصمد أمام هذه السرعة فى التحرك فى أراض فسيحة منبسطة ، ولذلك كانت خطة العرب السوقية ترتكز على جر خصومهم إلى ميدان مفتوح يتصل بالصحراء التى كانوا يشعرون بالأمن والسلامة فيها ، وكان خصومهم عاجزين عن الحركة فى الصحراء لقلة خبرتهم بها ، ولثقل معداتهم وبطء حركتهم[١] . وعلى مشارف الصحراء وفى الميادين المفتوحة أوقع العرب بخصومهم أعظم الهزائم وحطموا قوتهم العسكرية ، بل الأهم أنهم حطموا روحهم المعنوية ، مما أتاح لهم بعد ذلك أن يلاحقوهم فى الداخل وأن يسحقوا ما بقى لهم من قوة .

أما الناحية الثانية : فإن الدولة العربية الناشئة كانت دولة فتية أحس العرب بقيامها بدافع القومية ، وامتلأت قلوبهم بالعزة بعد أن تم توحدهم لأول مرة فى تاريخهم ، وملأ الإسلام قلوبهم إيمانا بأفضليتهم ، وبأن الله وعدهم إن اخلصوا الإيمان ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، ولذلك كانوا يرون أن كل نصر يحرزونه إنما هو آت من الله وهو موافق للارادة الإلهية ولما كتبه الله « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » ولذلك فهم ينطلقون لتحقيق موعود الله بأن يورثهم مواريث الأمم[٢] .

هذا عن الناحية المعنوية العامة فى الدولة الناشئة : أما عن الناحية المالية التى تتطلبها الأعمال العسكرية ، فإن جيش الدولة كان جيشا تلقائيا مكونا من رجال القبائل ، والدولة لم تكن تتكلف فى إعداده وتدريبه شيئا . فهى لا تجند الجند تجنيداً رسميا وتقيم لهم معسكرات التدريب والإقامة وتتكفل بإطعامهم وتسليحهم ، وإنما كان الجندى العربى مدربا تدريبا ذاتيا فى حياته العادية فى قبيلته ، والقبيلة تتحرك إلى ميدان القتال بوسائل نقلها الخاصة

---

(١) أنظر : الطبرى عن خطة العرب فى القادسية على سبيل المثال : ٢/٤٩٠ — ٤٩١ .

(٢) أنظر الطبرى وغيره عن كتابات الخلفاء للقواد ، وعن أحاديث الجند فى القتال . وانظر محادثات وفد العرب مع يزدجرد (الطبرى : ٣/٤٩٨ — ٥٠٠) وانظر حديث العرب مع رستم (الطبرى ٣/٥٠٨ ، ٥١٧ — ٥٢٤) .

وبتسليح رجالها الذاتى ، وتحت قيادة شيوخها ورؤسائها الذين ليسوا ضباطا نظاميين يتناولون رواتب من الدولة . ومسألة التموين مسألة هينة ، فالعربى ليس فى حاجة إلى تزويده بالمؤن وإنما هو يكتفى بقدر قليل من الطعام يحمله معه . والجيش فى ساحات القتال يستمد تموينه من المناطق التى يحارب فيها ويستخلصه من عدوه نفسه ، كما أن رواتب الجيش نفسه هى عبارة عن الغنائم التى يحصل عليها المحاربون من أعدائهم . وبدل أن تتحمل الدولة شيئاً كانت تستفيد من الجيش ، إذ كانت تحصل على خمس الغنائم التى تقع فى يده . ففى الوقت الذى كانت تتكبد فيه خزائن الدولة عند الفرس والروم كثيراً من نفقات الحرب الباهظة ، كانت خزينة الدولة العربية تمتلىء بما يرد إليها عن طريق مكاسب الجيش نفسه(١) .

وكانت الحالة الداخلية فى الامبراطورية البيزنطية والفارسية تختلف عن ذلك تمام الاختلاف ، ففى بداية القرن السابع استؤنفت الحروب بين الامبراطوريتين بشكل حاد ومخيف ، فقد ساق كسرى قواته لاقتحام الولايات الشرقية للدولة البيزنطية ، فى الوقت الذى زحف فيه الأفار على الولايات الغربية عبر حدود الدانوب . وقد استغل الفرس الخلافات الدينية بين سوريا ومصر وبين القسطنطينية ، فأظهروا اهتمامهم بالكنائس المنوفيسيتية ، فكسبوا عطف الوطنيين فى الإقليمين(٢) فسقطت فى أيديهم مدينة أنطاكية عام ٦١١م ، وتبعتها بيت المقدس عام ٦١٤م ، ولم يأت عام ٦١٩م حتى كانت مصر بما فى ذلك الإسكندرية قد وقعت فى قبضة الفرس ، ودفع الروم بذلك ثمن الاضطهادات الدينية المنيفة التى أذاقوها كلا من سورية ومصر(٣) .

ثم حاصر الفرس عدوتهم للاجهاز عليها ، فتحركت جيوشهم نحو آسيا الصغرى وظهرت فى عام ٦٢٦م عند خلقدونية تجاه القرن الذهبى ، على حين ظهرت قوات الآفار متحالفة

---

(١) انظر عن غنائم المسلمين بعد فتح المدائن مثلا : الطبرى : ٤/ ١٦ — ٢٣ ، ٣٠ . ابن الأثير : ٢/ ٣٥٦ — ٣٦٤ . ابن كثير : ٧/ ٦٦ — ٦٨ .

(٢) Vasiliev :Byzantine Empire ,P. 237 — 238

(٣) أرشيبلد لويس : ٧٥ . أومان : ١٠٢ — ١٠٤ . Vasiliev: P. 238

مع الفرس على الشاطىء الأوربى المقابل ، وعزلت العاصمة برا ، وبدت نهاية الامبراطورية البيزنطية محتومة .

ولم ينقذ بيزنطة إلا الأسطول الذى استطاع أن يدافع عن العاصمة بقوة وأن يحول دون التقاء الحليفين ، وإلا الزعامة القوية التى تمثلت فى شخصية الامبراطور هرقل الذى ارتقى العرش فى سنة ٦١٠ م واستطاع فى مدى اثنتى عشرة سنة أن يعيد النظام الذى كان قد فسد فى عهد سلفه ، وقد استطاع أن يقنع رجال الكنيسة بإمداده بذخائر الكنائس كسلفة ترد بعد النصر ، وبذلك أعاد تقوية الجيش ، واعتمد على الأسطول فى نقل قواته إلى أرمينية الواقعة على حدود بلاد الفرس ، كما نقل قواته بحراً إلى قيليقية ونزل فى مؤخرة الفرس . وبست حملات جريئة (٦٢٢ — ٦٢٧م) استطاع أن يجبر الفرس على التقهقر وإخلاء ما استولوا عليه فى سورية ومصر وآسيا الصغرى ، وأنزل بالفرس هزيمة ساحقة بالقرب من نينوى اضطر بعدها كسرى شيرويه إلى عقد معاهدة للصلح فى مارس سنة ٦٢٨م تخلى بمقتضاها عن كل شبر من الأراضى الرومية وتعهد بدفع غرامة حربية واسترد هرقل الصليب الأعظم الذى أخذه الفرس من بيت المقدس ، وعاد إلى القسطنطينية ظافراً ، ثم رد الصليب إلى بيت المقدس فى احتفال عظيم (١) .

بعد صلح ٦٢٨م استولت على الامبراطوريتين حالة من الركود والإعياء الشديد ، وكانت الحالة فيهما تتطلب وقتا من الراحة تبرءان فيه من جروحهما المميتة ، فقد جف معينهما من الرجال والمال ، وحل بهما الخراب من أقصاها إلى أقصاها على أيدى جيوش كل منهما التى كانت تشبه قطاع الطرق . ولم يحدث من قبل ذلك أن أنزلت إحداهما بجارتها مثل هذه الضربات القطيعة كما حدث فى هذا الصراع الأخير ، فقد كان النزاع من قبل يثار حول قلاع الحدود وينتهى بالاستيلاء على قطعة صغيرة من الأرض . أما فى هذه المرة فقد

---

(١) أومان : ١٠٤ — ١٠٨ أرشيبلد لويس : ٧٥ — ٧٧ .

جدد كل من كسرى وهرقل إلى قلب امبراطورية الآخر ضربات قاتلة ، واكتسح كل منهما الولايات الداخلية حتى أبواب العاصمة ، ووجه كسرى جموع الآفار المتوحشة إلى تراقية وأرخى لها العنان لتنهب وتدمر ، كما وجه هرقل جموع الخزر الأكثر توحشا إلى أسوار المدائن . وبذلك كانت كل من الامبراطوريتين فى نهاية الحرب فى حالة من الضعف لم ترها من قبل ، وكانتا تنزفان الدم من كل موضع ، ولم تكن بهما حاجة إلا إلى فترة طويلة من السلام لكى تستردا قوتهما المفقودة(١) .

ولم يكن الصراع الخارجى هو كل ما أصاب الدولتين الكبيرتين ، فإن الظروف الداخلية فيهما كانت سيئة للغاية ، وكان التفكك الداخلى لا يقل أثراً وخطورة عن الصراع الخارجى . فالامبراطورية البيزنطية كانت تنخر فى جسمها الداخلى الخلافات الدينية الشديدة . وتشكل علة من أخطر العلل التى تفتك بحياة الأمم . فقد كان يتنازع ولايات الامبراطورية مذهبان متعارضان من المذاهب المسيحية . هما المذهب المونوفيسيتى الذى يقول بالطبيعة الواحدة للمسيح والذى يعتنقه السكان فى مصر وسورية . والمذهب الأرثوذكسى الذى يقول بالطبيعتين وتتمسك به القسطنطينية وسائر أقاليم الامبراطورية .

وقد كانت سورية ومصر — وإن خضعت للحكم البيزنطى — تحس بقوميتها إحساسا قويا ، وتحاول أن تجد وسيلة للترجمة عن هذا الإحساس القومى . وفى عصر دينى مثل هذا الوقت ، لم تجد القومية وسيلة للتعبير عن نفسها إلا بمناوءة المذهب الذى تحميه الدولة ، فقال رجال الإسكندرية بوجود طبيعة واحدة للمسيح ، وناوءوا بذلك القول بالطبيعتين الذى أقره مجمع خلقدونية (٤٥١م) واضطر أباطرة القسطنطينية فى عهد زينون وأناستاسيوس (٤٧٤ — ٥١٨م) أمام مقاومة مصر وسورية إلى محاباة المذهب المونوفيسيتى ، وتبع ذلك أن انفصمت العرى التى كانت تربطهما بالغرب(٢) .

---

(١) أومان : ١٢٤ . كريستنسن : إيران فى عهد الساسانيين : ٤٣٠ — ٤٣٢ .

(٢) نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية : ٤٧ ، ١٠٥ .

لـكن الامبراطور جستنيان (٥٢٧ ـــ ٥٦٥م) وقد كان يعمل على بسط نفوذه على الأقاليم الغربية فى أسبانيا وإيطاليا وشمال أفريقية ، نبذ سياسة زينون وأناستاسيوس وعمل على إقرار المذهب الأرثوذكسي ، فـكسب رضاء الغرب ، ولـكنه أسخط الشرق ، وبعد موت زوجته الامبراطورة تيودرا التى كانت تناصر المذهب المونوفيسيتى وتحاول بسياستها إيجاد توازن بين المذهبين ، تحول جستنيان إلى اضطهاد الـكنائس القومية فى مصر وسورية اضطهاداً بالغ العنف ، ثم زاد الطين بلة حين أظهر فى شيخوخته آراء هوطقية رفضها الأرثوذكسيون أنفسهم[1]. ونجم عن هذه التصرفات انشقاق شديد فى وحدة الامبراطورية . وسار خلفاؤه من بعده على نهجه فى السياسة الدينية ، الأمر الذى وسع هوة الخلاف بين مصر وسورية من جهة وبين القسطنطينية وسائر أقاليم الامبراطورية من جهة أخرى . ولم تجد سياسة فرض مطارنة من الأرثوذكس الملـكانيين على كنيستى مصر وسورية شيئا ، بل إنها على العكس زادت الخلاف عنفا وأثارت الـكراهية بين هؤلاء المطارنة وبين وكلائهم المونوفيسيتيين .

ولما فشلت وسائل الاضطهاد فى خلق وحدة ، دينية عمد هرقل إلى اتخاذ خطوة أخرى بمحاولة إيجاد نوع من التوافق الدينى ، خلاصته القول بالمشيئة الواحدة للمسيح ، لـكن هذه الخطوة أدت إلى شر أكبر ، فإذا كان المصريون والسوريون قد نفروا من المذهب الأرثوذكسى التى حاولت القسطنطينية فرضه عليهم بالقوة ، فإن مذهب المشيئة الواحدة رفضه الجميع فى الشرق والغرب ، واضطر هرقل إلى استخدام القوة ضد الفريقين لفرض مذهبه ، ولـكنه حاول عبثا ، ولم يزد على أن زاد الامبراطورية ضعفا على شدة ضعفها الذى خرجت به من حروبها مع الفرس .

ولم يكن الانشقاق بين الأقاليم الشرقية والغربية انشقاقا دينيا فحسب ، بل كان

---

(١) Holms: Age of Justinan aud Theodora, P. 702—705

فى الحقيقة انشقاقاً اجتماعيا ثقافيا بين العقلية والثقافة الرومانية للأقاليم الغربية من ناحية، وبين الثقافة السورية القبطية الخاضعة للعقلية والثقافة الشرقية من ناحية أخرى .

هذا كله فضلا عن الضرائب الباهظة التى كانت تفرضها الدولة وتجمعها بقسوة عن طريق موظفيها الجشعين من اليونانيين . ونتيجة لذلك لم تلبث مصر وسورية أن صارتا قلقتين وراغبتين عن احتمال ظلم الحكام البيزنطيين الجائر ، تواقتين إلى التخلص منه ، الأمر الذى دفعهما إلى الترحيب بجيوش العرب حين تقدمت إليهما(١).

ولم تكن حالة الامبراطورية الفارسية خيرا من حالة بيزنطة ، فإن كسرى أبرويز ، وإن كان ملكا قويا استطاع أثناء حكمه الطويل أن يقر الوحدة الداخلية ويكبح جماح العظماء ، إلا أن مظالمه وحروبه قد استنفدت قوى الدولة ، وكان فى مآسى سنوات الحرب الأخيرة الضربة القاضية على الدولة ، ثم جوموته إلى انطلاق الأهواء والمطامع . وتصدع سلطان الأسرة المالكة نتيجة تعاقب الحكم السريع ، حتى لقد ولى عرش إيران عشرة ملوك فى مدى أربع سنوات ، كان منهم بنتان لكسرى .

وكان هذا التفكك هو النتيجة المحتومة للسياسة الحربية التى بدأها كسرى أنوشروان ثم سار فيها إلى المدى البعيد كسرى أبرويز ، ونتج عن السياسة الحربية أن مال التطور شيئا فشيئا نحو التسلط العسكرى ، وعلا شأن القواد وحكام الولايات حتى أعتبر كل منهم ولايته كأنها إقطاع وراثى على النمط القديم ، وبخاصة عندما هوت الأسرة المالكة إلى تدهورها النهائى ، وكثرت محاولات اغتصاب العرش من قواد لم يكونوا من الأسرة المالكة . ولكن هذا النظام الإقطاعى الجديد لم يكن لديه الفسحة من الوقت لينظم نفسه ويتحد حين بدأ الغزو العربى لبلاد الدولة الفارسية . وحين حاولت فارس لم شعثها وإعادة الملك لآل كسرى بتمليك يزدجرد بن شهريار ، كان الوقت قد فات لكى تستطيع الدولة

---

(١) ارشيبلد لويس : ٧٤ — ٧٨ . نورمان بينز : ٣٦٣ .

أن تجمع قواها ، أمام قوات العرب المتحمسة المؤمنة[١]. وعلى الرغم من ذلك فإن مقاومة الفرس كانت أعنف وأقوى من مقاومة الروم ، ذلك لأن الفرس كانوا يقاتلون عن أرض فارسية فكان الدفاع دفاع أمة ، بينما كان قتال الروم فى أرض غير رومية يتوق أهلها إلى التخلص من حكمهم البغيض .

من كل ما تقدم يتبين لنا أن الظروف كانت فى يد العرب أفضل مما كانت فى يد خصومهم من الفرس والروم ، وكانت الفرصة من تلك الفرص التى تهيئها الأقدار لتغيير مجرى التاريخ .

* * *

(١) انظر : كريستنسن : إيران فى عهد الساسانيين : ٤٧٨ — ٤٨٣ .

الفصل الثالث

سير الفتوح

فتح العرب الشام والعراق أولا ، ثم فتحوا بعد ذلك الجزيرة ومصر ، ثم أتموا فتح فارس بعد هذا ، ثم استولوا على أرمينيا أو تحالفوا معها . هذه هى البلاد التى استولى عليها العرب فى أثناء الفتوح الأولى ، فصارت حدود الدولة بعد هذه الفتوح عبارة عن حدود مصر الغربية القديمة ، ثم ساحل البحر المتوسط ، ثم جبال الكام والطوروس ، ثم حوض الفرات الأعلى ، ثم جبال القوقاز فالبحر الخزرى ، ثم تصل الحدود تقريباً إلى قريب من بحيرة آرال ، ثم تتبع الحدود الشرقية حدود إيران الشرقية القديمة إلى المحيط الهندى ، ثم تتبع شواطىء إيران الجنوبية وخليج العجم (الخليج العربى) إلى أن تصل إلى البصرة . وقد حاول العرب أن ينظموا الدفاع عنها دفاعاً فعالا ، فأنشأوا لذلك نظام الثغور ، وقد نما هذا النظام وقوى حتى أصبح ذا كيان خاص ، وحتى بلغ من الحيوية حداً كبيراً جداً فاستطاع أن يحقق الأمن للبلاد المفتوحة وللعالم الإسلامى ، واستطاع بعد هذا أن يحقق شيئاً أكبر ، وهو أن عد حدود المسلمين إلى ما وراء العالم الإسلامى وهذ النظام الثغرى هو الذى اعتمد عليه بنو أمية حين حققوا ما يعرف باسم « الفتوح الثانية » .

فتح الشام

يعتبر فتح الشام أول فتح حققه المسلمون . ونلاحظ أنه لا توجد خطة موضوعة ولا تتفق المصادر على خطة موثوق بصحتها ، وأسلم شىء أن نتتبع الحوادث وتسلسلها ، وأن نستنتج من هذا التسلسل تطور نوايا العرب بحسب الوقائع .

وأول ما نلاحظه هو وجود جيوش عربية فى شمال الحجاز فى منطقة تبوك ، وكانت هذه الجيوش جيوش استبراء تطبق قرارات «براءة» ، وقد أقامت هذه الجيوش طوال العام الحادى عشر فى تلك المنطقة تقريبا . وجد فيها أولا بعث أسامة ، ثم وجدت فى هذه المنطقة

جيوش أخرى بعد رجوع أسامة ؛ فكأن الجيوش لم تنقطع عن هذه المنطقة طوال العام الحادى عشر ، ثم ابتدأت هذه الجيوش بعد أن وصلتها الأمداد من المدينة ، نتيجة لاصطدامها بالتجمعات الرومية الغسانية ، تتجه نحو الشمال ، وتتجه بالذات نحو بصرى ، وهى أكبر مدينة من مدائن الغسانيين على الحدود بين بادية العراق وبقاع الشام . ولم تغير هذه الجيوش اتجاهها إلا لتدفع جيشا روميا صغيراً هو الجيش الإقليمى الرومى المرابط بالشام ، فالتقى بالعرب فى وقعتين صغيرتين وهم فى طريقهم إلى بصرى تعرفان باسم العربة والداثن[1] ، وتلك كانت أول ما كان من الاشتباكات الصحيحة الموثوق بها بين العرب والروم . وكانتا فى أوائل السنة الثالثة عشرة ، فلما انتصر العرب فى هذين الاشتباكين لم يدخلوا فلسطين ، وإنما اتجهوا إلى بصرى . ومن هذا نستطيع أن نقول إن الهدف الأول للعرب كان هدفا قوميا ، فقد كانوا يريدون أن ينضم إليهم عرب الشام من الغساسنة وغيرهم بدافع العروبة . وهذا الهدف القومى متفق مع الأهداف التى كانت تسعى إليها جيوش الردة ، باعتبار أن هذه الجيوش كانت تسعى لتحقيق هدفين : الأول هو قمع الردة باعتبار أنها خروج على الوحدة العربية ، والثانى هو استبراء من الوثنية فى نفس الوقت ، وهذا الهدف القومى يبرره أيضاً إعلان « براءة » فكثير من عرب تخوم الشام ومن الغساسنة كانوا وثنيين ، وإن كان معظمهم كانوا مسيحيين .

وبتقدم العرب إلى هذا الحد فى بادية الشام ، انكشفت الحدود الرومية ، وظهر عجز الغساسنة عن حماية الشام طبقاً للحلف الذى كان بينهم وبين الروم من قديم ؛ فكان لابد لبيزنطة أن تتدخل فى الأمر ، فاتخذت القوات الرومية لها مواقع حصينة فى الفجوة التى يسير فيها نهر اليرموك بين مرتفعات حوران ، وكانت هذه الفجوة هى الممر الرئيسى الذى يوصل بين دمشق وبين فلسطين وعمان وأيلة (العقبة) وقد أطلق الإنجليز على هذا المضيق اسم « فجوة درعا » فى سنة ١٩٤٥ م . وإذا أمكن لجيش أن يقيم تحصينات قوية فى هذه المنطقة فإنه يسد مدخل الشام ، ويستطيع أن يصد أى هجوم قادم من الجنوب أو من منطقة

---

(١) البلاذرى : ١١٥ — ١١٦ . الطبرى : ٣/٤٠٦ .

الجزيرة العربية[١] . وقد استطاعت القوات الرومية أن تقف بقوة فى وجه الأرتال العربية التى أرسلها أبو بكر بقيادة يزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة وأبى عبيدة بن الجراح .

وحين وجد أبو بكر أن قوات المسلمين تشتبك مع الروم فى عمليات حربية كبيرة ، كتب إلى خالد بن الوليد يأمره بالتوجه بنصف قواته من العراق ، لتعزيز المسلمين على حدود الروم ، ونفذ خالد الأمر فاتجه بقواته من عين التمر إلى دومة الجندل ، التى كانت قد نقضت حلفها مع المسلمين ووقفت بقوة أمام جيش عياض بن غنم الذى أرسل لفتحها ، واستطاع خالد أن يقتحمها فى سرعة هائلة ، ثم قاد جيشه فى مغامرة جريئة متجهاً إلى الشمال عبر الصحراء قاطعاً نحو مائتى ميل فى أرض لا ماء فيها تعرف اليوم بصحراء الحمد[٢] وفاجأ العدو فى تدمر ، ثم التحم بجموع الغساسنة فى مرج راهط فهزمهم ، ثم اتصل بجيوش المسلمين المرابطة أمام حصون اليرموك . ولما كان المسلمون لا يرغبون فى الالتحام فى معارك الحصون ، فقد أرادوا استدراج الروم إلى الأرض المكشوفة ، ولكن هؤلاء لم يرغبوا فى الخروج للقاء العرب فى معركة حاسمة واكتفوا بالمناوشات . ولما كان خالد من طراز القواد الذين لا يخلدون إلى السكينة وإلى محاصرة العدو ، فإنه ترك مواقع الروم وتقدم فاحتل مدينة بصرى ، وأصبح يهدد دمشق[٣] .

لذلك نهض هرقل للتصدى للموقف بنفسه وسير جيشا قويا إلى جنوب فلسطين عن طريق طبرية فالناصرة فقيسارية ، ليضرب قوات عمرو بن العاص التى كانت موجودة فى جنوب فلسطين فى منطقة بئر سبع ، حتى إذا ما تم له النصر عليها استطاع أن يهدد مؤخرة الجيوش العربية الموجودة فى الشمال فيضطرها إلى الارتداد . لكن القواد العرب أحسوا بالتقدم الرومى ، وأدركوا خطة هرقل ، فاندفعوا جنوبا حتى اتصلوا بقوات عمرو ، واستطاعوا بخفة

---

(١) جلوب : الفتوح العربية الكبرى : ٢٢٠ — ٢٢١ . انظر الطبرى : ٣/٣٩٣ . (فنزلوا الواقوصة وهى على ضفة اليرموك ، وصار الوادى خندقا لهم ، وهو لهب لا يدرك) .

(٢) جلوب : ٢٠٨ .

(٣) انظر الطبرى : ٣/٤٠٧ . البلاذرى : ١١٧ — ١١٩ .

حركتهم أن يسبقوا الجيش الرومى ، وأن ينتظروه فى أجنادين التى تقع بين الرملة وبيت جبرين .

كان الموقف قبيل المعركة حرجاً جداً بالنسبة للعرب ؛ فإنهم لم يكونوا قد جربوا المعارك الكبيرة مع جيش كبير حاشد من الروم ، وكان التراجع أمام حشد الروم تنازلا عن الأهداف القومية من ناحية ، وكان جديراً أن يحدث هزة قاضية على النظام الجديد من ناحية أخرى . لكن الموقف فى الحقيقة لم يكن يتطلب من العرب وهم لا يزالون على بداوتهم إلا شيئاً من الشجاعة والاعتزاز ، وكان تصميم أبى بكر على لقاء حشود الروم ، وإقدام الجيوش العربية على هذا اللقاء هو أول خطوة فى سبيل النصر ، ولما كانت الجيوش العربية خفيفة الحركة ، فإنها استطاعت أن تباغت الروم قبل أن يطمئنوا إلى مواقفهم وأن تلحق بهم هزيمة ساحقة[1] ولقد كان صدى هذا النصر عظيما جداً . كانت أجنادين بالنسبة للمسلمين بعد النبى مثل بدر بالنسبة لهم أيام النبى ، فقد عدوا هذا النصر تأييداً من الله وحكما لهم باعتبارهم حزب الله على من تعرضوا لهم من أهل الكتاب . فقد أحدث هذا النصر دويا لا فى بلاد الروم وحدها ولا فى بلاد العرب وحدها وإنما أحدث دويا فى النفوس ، وفى نفوس العرب بخاصة فنسبوا النصر إلى الله لا إلى قوتهم وإلى الإسلام لا إلى سيوفهم ، وأصبحوا بعد هذا النصر يتصرفون بعقلية جديدة ، فهذه الموقعة تعتبر مفتاح الفتوح ، فهى أول موقعة كبرى بين العرب بعد اتحادهم وبين أقوى الامبراطوريتين المعاصرتين ، فبدأوا بعد ذلك ينظمون نشاطهم الحربى وينظرون إلى المستقبل نظرة جديدة بعين أخرى وثقة أخرى ، وبهذه الموقعة خرج العرب من الدائرة القومية إلى المجال الامبراطورى ، وظهرت لديهم إرادة التغلب على الشعوب الأخرى المجاورة لهم وحكمها .

ولم تكد تنتهى المعركة حتى عظمت ثقة العرب بأنفسهم ، فتقدموا شمالا ، وتجاوزوا خط اليرموك الذى اضطر الروم بعد الهزيمة إلى إخلائه ، واستولوا على دمشق[2] واستمروا فى سيرهم حتى استولوا على حمص[3] . أما الهزيمة بالنسبة للروم فإنها ثبطت هممهم وأعجزتهم

---

(١) انظر الطبرى : ٣/٤١٨ . البلاذرى : ١١٩ — ١٢٠ . ابن الأثير : ٢/٢٨٦ — ٢٨٧ .
(٢) البلاذرى : ١٢٧ — ١٢٩ .
(٣) البلاذرى : ١٣٧ — ١٣٨ .

فترة عن أن يردوا على العرب . وقد كانت الأمور المالية مضطربة لديهم ، فلم يجد هرقل مالا يستطيع أن يجند به جيوشاً أخرى ، ولهذا تأخر رد الفعل سنتين ، فلم تعد جيوش هرقل إلى الشام بقصد رد العرب إلا بعد سنتين ، وكانت هذه الفترة ثمينة بالنسبة للعرب ، ثبتت فيها النفوس على الشعور الجديد ، ولم يواجهوا فى أثنائها إلا جيوشاً فرعية أو حاميات مختبئة وراء الحصون ، كحامية دمشق أو حامية حمص .

فلما مضت السنتان وجاء العام الخامس عشر للهجرة تقدمت جيوش هرقل مرة أخرى نحو الشام ، فاتبع العرب خطتهم السوقية التى التزموا بها فى هذه الفترة من حروبهم وهى الانسحاب إلى أطراف البادية ولقاء العدو فى مكان مكشوف ، ولذلك أخلوا حمص ودمشق ووصلوا إلى شرق نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية على حدود البادية والحضر[١] ، وعاد الروم فاحتلوا تحصينات اليرموك ، فكأن الوضع قد عاد إلى الحالة التى كان عليها قبل معركة أجنادين . لكن الموقف كان مختلفا من ناحية أخرى ، فإن البلاد التى أحتلها العرب ثم أخلوها لم تستقبل الروم استقبالا طيبا ، فقد روى البلاذرى[٢] «أنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع ، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ، ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج ، وقالوا : قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم . فقال أهل حمص : لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينه مع عاملكم . ونهض اليهود فقالوا : والتوراة ، لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد ، فأغلقوا الأبواب وحرسوها . وكذلك فعل أهل المدن التى صولحت من النصارى واليهود ، وقالوا : إن ظهر الروم وأتباعهم على المسلمين ، صرنا إلى ما كنا عليه ، وإلا فإنا على أمرنا ما بقى للمسلمين عدد . فلما هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلسين فلعبوا ، وأدوا الخراج » . وكذلك كان

---

(١) الواقدى : فتوح الشام : ١٢٢/٢ . الأزدى : ١٨٩ . ياقوت : ٣٥٤/١٩ — ٣٥٥ ، ٤٢٤/٢٠ .

(٢) البلاذرى : ١٤٣ — ١٤٤ .

العرب قد احتلوا بعض الأماكن على جانبي تحصينات اليرموك ، واستطاعوا أن يسربوا قواتهم فتقطع خطوط تموينات العدو ، وبذلك حصروا الروم واضطروهم إلى الخروج عن تحصيناتهم إلى لقاء العرب فى موقع مكشوف ، فألحق بهم هؤلاء هزيمة تامة ، لم يعد لهم بعدها جيش يمكن أن يقف للعرب فى الشام . وأحس هرقل بأن الموقعة حاسمة وبأن أمر الشام قد تقرر نهائيا ، فرحل عن الشام قائلا « عليك السلام يا سورية ، سلاما لا اجتماع بعده ، ولا يعود إليك رومى أبدا إلا خائفا »(١)

وحدث عقب هذا النصر ما حدث عقب أجنادين . وهو أن تقدم العرب إلى الشمال واحتلوا البلاد التى كانوا قد أخلوها(٢) ، وكانوا كلما احتلوا مدينة تركوا فيها حامية عسكرية تحافظ عليها(٣). ولقد تأخرت بعض المدن عن الاستسلام ، إلا أن مصيرها كان معروفا ، فلم تسلم بيت المقدس إلا فى العام السابع عشر للهجرة ، واشترط أهل المدينة أن يقدم الخليفة بنفسه لتسلمها ، تشريفا لمكانتها المقدسة(٤). وكذلك قاومت مدينة قيسارية مدة طويلة(٥)، وكذلك بعض مدن ساحلية أخرى مثل طرابلس إلا أن كل ذلك لم يكن ذا بال لأن مصير الشام كان قد تقرر فى المعركتين الحاسمتين الكبيرتين : أجنادين واليرموك . واستطاع العرب قبل أن تستسلم جميع المدن الساحلية أن ينصرفوا إلى أعمال حربية أخرى . وهذا يدل على أنهم أحسوا بأن مصير هذه المقاومات المحلية معروف ، فهم قد حولوا بعض قواتهم إلى معركة القادسية بالعراق فى عام ١٦ هـ وحولوا بعض قوات الشام إلى الجزيرة فى منتصف عام ١٨ هـ ، وحولوا بعضها إلى مصر فى آخر عام ١٨ هـ نفسه . ومنذ فتح الشام لم تجرؤ الجيوش الرومية على أن تتعرض للعرب فى وقعة كبيرة مفتوحة ، وظل هذا الجبن مركبا فى نفوسهم إلى أيام الخليفة هشام بن عبد الملك ، أى إلى نحو مائة عام .

---

(١) الطبرى : ٦٠٣/٣ . الأزدى : ٢١٣ .
(٢) انظر الواقدى : ٢٠١/٣ وما بعدها .
(٣) البلاذرى : ١٥٧ .
(٤) انظر البلاذرى : ١٤٥ — ١٤٦ .
(٥) نفس المصدر : ١٤٨ .

فتح العراق وإيران

فى بادية العراق قامت حركة الاستبراء مقابلة للتى قامت فى بادية الشام ، وكان يد المدينة فى حركة الاستبراء رئيسا لقبيلة من القبائل العربية العراقية هو المثنى بن حارثة الشيبانى ، وقد أوضحنا من قبل كيف أن هذا الرئيس وغيره من زعماء القبائل فى هذه المنطقة هم الذين بدأوا الالتحام مع الفرس استمراراً للالتحامات التى كانت تقع بينهم وبين الفرس بعد زوال ملك الحيرة ، وقدم هذا الرئيس إلى المدينة للتفاهم وللاستمداد ، وقد رأت المدينة أن الضرورة تحتم عليها الاستجابة لهذه الحركة التى تقوم بها القبائل العربية فى منطقة العراق ، فأرسلت قواتها بقيادة خالد بن الوليد فى عهد الخليفة أبى بكر[١] ، ثم أرسلت الأمداد فى عهد عمر بعد ذلك بقيادة أبى عبيد الثقفى بعد رحيل خالد عن العراق إلى الشام[٢] . وقد ظل المثنى بن حارثة يدير الحرب متعاونا مع خالد ثم مع أبى عبيد وتحت قيادتهما مرة أو منفرداً بالقيادة بعد رحيل خالد أو بعد موت أبى عبيد مرة أخرى حتى مات[٣] . ونلاحظ فى هذه الفترة الأولى أن القتال كان يدور فى منطقة بادية العراق وفى حوض الفرات المتاخم لها ، وقد حاول كل من الطرفين أن ينهض القبائل العربية فى هذه المنطقة للقتال فى صفوفه ، فأما الفرس فكانوا يثيرون فيها النخوة العصبية ويتملقون كبرياءها مرة ، أو يلوحون لها بإعادة ملك الحيرة مرة أخرى[٤] . وأما المسلمون فكانوا يثيرون قوميتها ويذكرونها بأصولها[٥] ولذلك تراوحت بين الانضمام إلى هذا الفريق أو إلى ذاك ، ولكنها حين شهدت انتصارات القوات الإسلامية مالت إلى جانب الدافع

---

(١) انظر الطبرى : ٣٤٣/٣ وما بعدها . الدينورى : ١١١ — ١١٢ .
(٢) انظر الطبرى : ٣٩٣/٣ ، ٤٠٦ ، ٤١١ .
(٣) انظر الطبرى : ٣٤٣/٣ ، ٤٤٤ — ٤٨٩ . الدينورى : ١١٣ — ١١٩ . البلاذرى : ٢٥٠ — ٢٦٣ .
(٤) انظر الطبرى : ٣٥٥/٣ ، ٣٧٦ ، ٣٧٩ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ .
(٥) انظر الطبرى : ٣٦١/٣ — ٣٦٢ ، ٤٦٦ .

القوى ووقفت بقوتها إلى جانب المثنى بن حارثة الذى استطاع أن يلحق بالفرس بمعاونتها هزيمة كبيرة فى معركة البويب سنة ١٣ هـ وأن يثأر فى هذه المعركة لهزيمة أبى عبيدة وقتله فى معركة الجسر من قبل(١) . وقد ظلت الحملات الشيبانية اليثربية أربع سنوات من عام ١٢ — ١٦هـ ، وكانت قاصرة على جبهة الحيرة .

فهذه الحرب الإقليمية قد استطالت مدة طويلة بحيث لا نخطىء فى إدراك هدفها وهو الاستيلاء على الحيرة وضم عربها إلى الوحدة العربية .

إلا أن الحيرة كانت تتبع فارس وتهمها من حيث هى منطقة حدود ، فلما استطالت الحرب على هذا النحو أقلقت الفرس ، فأعدوا حملة كبيرة للقضاء على الغزو اليثربى الشيبانى . والتقوا بالعرب فى موقعة حاسمة تعرف بالقادسية وموضعها جنوبى الكوفة الحالية فى عام ١٦هـ أى بعد موقعة اليرموك بنحو عام(٢) ، وهذه المعركة تساوى معركة أجنادين فى الشام ، وبها تقرر مصير العراق كله أو القسم السهلى من إيران ، وقد استغل العرب نصرهم فى القادسية فتقدموا بسرعة نحو عاصمة الفرس وهى المدائن قبل أن يستفيق الفرس من هزيمتهم(٣) . وبالاستيلاء على المدائن أصبح فى يد العرب كل العراق الحالى بحدوده المعروفة الآن .

وقد فكر العرب فى أن يقتصروا على هذا الإقليم السهلى ، ويؤثر عن عمر قوله «لوددت أن بين السواد والجبل سداً ، لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم ، حسبنا من الريف السواد»(٤) فعمر كان يريد أن يقتصد فى الفتح ، وفى هذه الثروة البشرية الحربية التى كانت حكومته تتصرف فيها ، وكان يخشى أن يبتعد العرب عن قواعدهم ابتعاداً يعود بالضرر عليهم . إلا أن الفرس لم يكونوا ليتركوا العرب فى العراق ، ولا ليتنازلوا عن عاصمتهم ،

---

(١) انظر الطبرى : ٣/٤٥٥ ، ٤٦٠ — ٤٦٩ . الدينورى : ١١٥ .
(٢) انظر الطبرى : ٣/٤٨٠ ومابعدها . الدينورى : ١١٩ — ١٢٣ . البلاذرى : ٢٦٤ ومابعدها .
(٣) انظر الطبرى : ٤/٥ — ١٦ . الدينورى : ١٢٦ — ١٢٧ . البلاذرى : ٢٧١ — ٢٧٣ .
(٤) الطبرى : ٤/٢٨ .

وكانوا يدعون مناوشة العرب ويواصلون الاستعداد لطردهم . فلما أحس جند العراق بهذا استأذن عمر فى أن ينساح فى بلاد فارس . فدخل العرب الإقليم الجبلى من بلاد الفرس ، والتقوا بالجيش الذى كان الفرس قد أعدوه فى موقعة مشهورة تعرف بواقعة « نهاوند » فى عام ١٨هـ ، وهى بمثابة اليرموك لأنها تعتبر الموقعة الفاصلة فى أمر فارس(١) .

وكانت الحروب التى اتصلت بعدها أقل بكثير من الحروب التى وقعت قبلها ، فقد استمرت الحرب مدة ثلاثة عشر عاما بعد نهاوند إلى عام ٣١هـ ، وهو العام الذى قتل فيه كسرى يزدجرد فى مدينة مرو على الحدود الإيرانية(٢) ، وبموته استسلمت إيران نهائيا .

ونلاحظ أن العرب أثناء هذا الفتح اتخذوا قاعدتين جعلوها مركزين لكل عملياتهم الحربية ، وهذان المركزان هما موضعا البصرة والكوفة ، والبصرة كانت قريبة من الأبلة التى كانت ميناء للتجارة الهندية على الخليج ، أما الكوفة فكانت تقع بجوار مدينة الحيرة . وقد اختار العرب هاتين القاعدتين معسكرين مراعين ألا تكونا منفصلتين عن المدينة بعائق من ماء أو جبل ، بحيث يستطيع الخليفة أن يصل إليهما على دابته(٣) . وقد اتبعت نفس القاعدة عندما اختار العرب الفسطاط بعد فتح مصر قاعدة لعملياتهم الحربية . ونلاحظ أن هذه القواعد العسكرية قد نمت وصارت مدنا عربية خالصة الصبغة العربية ، وأنها أصبحت بعد الفتح مقراً لولاتهم ، وسميت لكبرها واستقلال الوالى فيها أمصاراً ، والمفرد مصر ، فكل مصر مدينة ولكن ليست كل مدينة مصراً . وكان العرب فيما بعد إذا أرادوا أن ينشئوا إقليما جديداً رفعوا المدينة الرئيسية فى الإقليم إلى درجة المصر .

---

(١) انظر الطبرى : ٤/١١٤ — ١٣٩ . ابن كثير : ٧/١٠٥ وما بعدها . ابن الأثير : ٣/١ـ٧ .

(٢) ابن كثير : ٧/١٥٨ — ١٥٩ . ابن الأثير : ٣/٥٩ — ٦١ .

(٣) انظر الطبرى : ٣/٥٧٩ ، ٥٩٠ — ٥٩٣ ، ٤/٤٠ — ٤٩ . البلاذرى : ٢٨٤ — ٢٨٦ ، ٣٥٤ . ياقوت : ٤/٤٣٠ — ٤٤٠ ، ١٦/٤٩٠ — ٤٩٤ .

فتح الجزيرة

بعد نهاوند اطمأن العرب إلى مصير الجبهة الإيرانية ، وكانوا قد اطمأنوا كذلك إلى مصير الشام قبل ذلك بثلاث سنوات منذ موقعة اليرموك ، وأصبحت أيديهم حرة بعض الشيء تستطيع أن تستجيب للضرورات الحربية ، وقد كانت الشام منذ فتحها العرب مهددة من ثلاث جهات : من ناحية البحر ، ومن جناحها الشمالى حيث بلاد الجزيرة ، ومن جناحها الجنوبى فى مصر ، فكانت الضرورة تقضى على العرب أن يدرئوا الخطر المهدد للجناحين ، ولهذا قرر الخليفة عمر بن الخطاب والقواد عندما اجتمعوا فى أول العام الثامن عشر فى الجابية — جنوب غربى دمشق وشمال بحيرة طبرية — أن يسيروا الجيوش العربية فى اتجاهين فى وقت واحد ، فقصدت بعض الجيوش بلاد الجزيرة فى منتصف عام ١٨ هـ ، وقصد بعضها الآخر مصر فى آخر عام ١٨هـ .

وكان فتح الجزيرة عملية حربية سهلة برغم الحصون الكثيرة التى كانت فى ذلك الإقليم ، والتى بناها الروم وأكثروا منها لمواجهة كل اعتداء فارسى . وكانت خطة العرب أن يدخلوا البلاد من المنطقة الشمالية التى تفصل الجزيرة عن آسيا الصغرى ، ليحولوا بين الروم وبين إمداد الحاميات المرابطة بالقلاع . فلما أتم العرب ذلك لم يكن أمام الحاميات إلا أن تحتمى وراء الأسوار ما استطاعت ، إلا أنها كانت تيأس آخر الأمر وتستسلم ، فلم توجد معارك كبرى فى فتح الجزيرة كما وجدت فى فتح الشام وفارس ، بل كان الأمر أمر حصار يطول أو يقصر حسب الأحوال وينتهى باستسلام الحامية وانسحابها . فكان مصير الجزيرة منذ بدأ العرب بتطويقها حين دخلوها فى منتصف عام ١٨ هـ مقرراً وإن استمر بعد ذلك سنتين [1] .

---

(١) انظر عن فتح الجزيرة : البلاذرى : ١٧٩ — ١٨٩ .

فتح مصر

فى آخر العام الثامن عشر خرج عمرو بن العاص من قيسارية ، وكان العرب يحاصرون الروم فيها ، فوصل إلى العريش يوم عيد الأضحى ومعه نحو أربعة آلاف مقاتل معظمهم من القبائل اليمنية ، فاستولى عليها ، ثم اتجه إلى الفرما (بلوزيوم) شرقى بورسعيد الحالية ، وكانت مدينة ذات حصون ، فحاصرها العرب ثم اقتحموها وهدموا أسوارها حتى لا يستفيد الروم منها ، إذا فكروا فى العودة إليها بعد مسير عمرو عنها ، وذلك لأنه لم يكن يستطيع أن يستغنى عن بعض جنده القليل ليترك حامية فيها ، ثم تقدم بعد ذلك جنوبا ، ولم ينقص جيشه بل زاد بمن انضم إليه من بدو الصحراء ، حتى وصل إلى مدينة بلبيس فعاقتهم هذه المدينة بأسوارها شهراً آخر ، استطاع فى نهايته أن يدحر جيش الروم هناك وأن يسير بعد هذا النصر قدما نحو نهر النيل .

وصل عمرو إلى عين شمس فى رجب عام ١٩هـ (يونية ٦٤٠م) ثم تقدم منها نحو حصن بابليون ، فلقيه الروم عند « أم دنين » — ومكانها المنطقة الواقعة حول الأزبكية اليوم — واستمرت المقاومة فى أم دنين عدة أسابيع ، يخرج الروم فيلقاهم العرب ، أو يتقدم العرب نحو الحصن فيخرج لهم الروم ، وفى غضون ذلك كان قد وصل إلى عمرو المدد الذى طلبه من الخليفة ، فبلغت عدة الجيش نحو اثنى ألفا ، فاستطاع أن يهزم الروم فى معركة كبيرة عند أم دنين ، ثم تقدم فأكمل حصار الحصن .

لم يستسلم الحصن فى هذا العام ، وقد أعانه الفيضان على الثبات وعلى الاستعداد للحصار الطويل . ولكن الروم أحسوا بعجزهم فدارت مفاوضات بينهم وبين العرب انتهت إلى عقد صلح لتسليم الحصن ، علق على موافقة هرقل الذى اتهم المقوقس بالخيانة ورفض قبول الصلح ، ولكن الحامية دب فى نفوسها اليأس فاستسلمت من تلقاء نفسها بعد أن

على أن يخرج الجند من الحصن فى مدى ثلاثة أيام ، وأن يرحلوا عن طريق النهر حاملين معهم قوتا يكفيهم ثلاثة أيام ، وأن يستولى العرب على الحصن وجميع ما فيه من ذخائر الحرب وآلاتها(١) .

وبعد استسلام الحصن اتخذ عمرو قاعدة له فى بابليون ، ثم سار بقواته شمالا ليستولى على الإسكندرية عاصمة البلاد يومئذ . وفى الطريق لقى بعض المقاومة عند ترنوت (الترانة الحالية) ثم عند نقيوس (شبشير طملاى جنوبى كفر الزيات الآن) ثم عند كوم شريك . ثم عند كريون (اسمها اليوم معمل القزاز بالقرب من كفر الدوار) ثم ابتدأ عمرو حصار الاسكندرية فى رجب عام ٢٠هـ (يونية ٦٤١م)(٢) فلما حل شهر نوفمبر طلب المقوقس الصلح . وكان قد عاد من القسطنطينية مزوداً بسلطات كافية لعقد الصلح ، فإن أحوال الدولة البيزنطية كانت تسير من سيء إلى أسوأ بعد موت هرقل ، ووقع المقوقس مع عمرو شروط الصلح عن مصر كلها ، وأهم شروطه : أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد ، وألا تستسلم الأسكندرية إلا بعد هدنة مدتها أحد عشر شهراً ، وللروم فى أثناء هذه الفترة أن يغادروا البلاد وأن يحملوا معهم ما يشاءون ، وفى الصلح أيضا أن لأهل مصر الأمان فى أنفسهم وأموالهم وذينهم ، ويسمى هذا الصلح « صلح بابليون الثانى » ، ويسميه « بتلر » صلح الإسكندرية إذ يعتبره فى جملته خاصا بأهل الاسكندرية ، وتمييزاً له عن صلح « بابليون » الذى عقده قائد الحصن مع عمرو(٣) . وانتهى الأمر باستسلام الاسكندرية فى سبتمبر ٦٤٢م .

---

(١) بتلر : ٢٠٠ . جمال الدين الشيال : تاريخ مصر الإسلامية : ١/ ٢٤ .

(٢) بتلر : ١٠٨ — ٢١٤ . التوفيقات الإلهامية : ١٠ .

(٣) بعد أن حاصر عمرو الإسكندرية . كان الفيضان قد حل ، وكان الأسطول البيزنطى يحمى المدينة ويزودها بالمؤن من البحر ، فرأى عمرو أنه لا يستطيع التغلب عليها بسهولة فترك قوة على حصارها ، ثم خرج بفرق من جيشه لاخضاع بعض مدن مصر السفلى ، ثم عاد إلى بابليون وخرج منها إلى الصعيد ففتح الجزء الأكبر من مصر الوسطى ، ثم عاد إلى بابليون ثانية حيث قدم المقوقس لقائه وعقد معه الصلح (بتلر : ٢٢٣ — ٢٣٥) .

فكأن الفتح استمر سنتين ، ولكن المقاومة لم تستمر إلا نحو سنة ونصف . لم يقع من المعارك أو الحصارات إلا ما ذكرناه : عند الفرما وبلبيس وأم دنين وبابليون والمناوشات التي وقعت في طريق الإسكندرية ، ثم حصار الإسكندرية . أما ما يقال من أن العرب أوقفوا حصار حصن بابليون فترة عندما أرادوا أن يستمدوا المدينة ، وأنهم في انتظار المدد غزوا إقليم الفيوم فأمر مشكوك فيه ، إذ كيف يخاطر عمرو بعبور النيل ، ويسير جنوباً فيعرض جيشه لهجوم الروم عليه من الشمال أو لقطع الطريق بينه وبين المدد المنتظر(١) . ولعل الأسلم لفهم الحوادث أن نقتصر على القول بأن خطة العرب كانت تتلخص فيما يلي :

اتخاذ قاعدة عند بابليون ، ثم مهاجمة العاصمة ، وعلى أساس أن العرب لم يحتاجوا إلى حرب القبط ، وأنهم إنما كانوا يحاربون الروم ، فلما انتصروا عليهم وأجلوهم حسب الصلح ، كان مصير القبط معروفاً ، وكانت المسألة بعد ذلك مسألة وضع يد . أما المقاومة التي لقيها العرب في بعض البلاد الداخلية ذات الصبغة الرومية ، فمقاومات لم يكن من شأنها أن تؤثر على مصير البلاد . أما القبط فإنهم وقفوا موقف الحياد في هذا الصراع ، وكانوا في قلوبهم يتمنون نصر العرب لما سمعوه عنهم من حسن السياسة وطيب المعاملة والتسامح الديني(٢) ، وليتخلصوا من ظلم الروم واضطهادهم ، وفعلا فإنه لم تكد البلاد تخلص للعرب حتى ظهر بطريرك المصريين اليعقوبي « بنيامين » وكان قد اختفى منذ أسند الامبراطور هرقل ولاية مصر إلى البطريرك الملكاني الخلقدوني « كيرس » المعروف في المصادر العربية باسم « المقوقس » الذي اضطهد القبط لعدم إذعانهم للمذهب الذي دعا إليه الامبراطور(٣) .

وفي نفس العام الذي تسلم فيه عمرو مدينة الإسكندرية بعث جيشين أحدهما إلى الحدود

---

(١) بتلر : ١٧٣ . الشيال : ١/١٥ .

(٢) Gibbon : The Decline and Fall of the Roman Empire vol. 5.p p. 341—342, 377.

(٣) انظر ابن عبدالحكم : فتوح مصر : ٥٨ — ٧٢ . الشيال : ١/٨٧ . بتلر : ١٢٣ — ١٤٣ ، ٣٢٢ — ٣٢٤ . Lane—Poole : A History of Egypt, pp. 2, 6—7

الغربية ، والآخر إلى الحدود الجنوبية ، إذ كان عليه أن يؤمن حدود مصر من ناحية الغرب حيث كانت لبيزنطة قوات فى شمال أفريقيا ، وكانت مصر مهددة من هذه الناحية ومن ناحية البحر ، وكذلك لإشعار النوبيين بفتح العرب لمصر حتى لا يهاجموا صعيدها كما كانوا يفعلون[١] . وبلغ جيش الغرب إقليم برقة فاستولى عليها[٢] . ثم اتجهت حملة إلى طرابلس فاستولت على مدينة طرابلس ثم رجعت[٣] . وقد كانت طرابلس تابعة من الناحية الإدارية لمصر ، وكانت إدارتها تسند إليها أحيانا وأحيانا أخرى إلى ولاية أفريقية المعروفة فى التاريخ البيزنطى « أجزركية قرطاجنة » . أما برقة فهى إقليم كان تابعا لمصر فى كل العصور[٤] . وأما جيش الجنوب فإنه حارب أهل النوبة ، ولم يقدر منهم على شىء ، لأنهم كانوا يجيدون الرمى ، وكانوا يصوبون سهامهم إلى أعين المسلمين ، حتى سماهم العرب « رماة الحدق »[٥] . ثم صالحهم عبد الله بن سعد بن أبى سرح فى غزوة له بعد ذلك فى عام ٣١ هـ صلحا تسميه المصادر « صلح البقط »[٦] .

وبهذه الحملات الأخيرة انتهى فى فتح مصر ووقفت الحدود العربية عند حدود مصر الغربية ، أعنى برقة وطرابلس ، وكانت تمتد شرقا إلى النهر الذى تقع عليه مدينة مرو ويسمى « نهر المرغاب »[٧] ويقع الآن فى التركستان الروسية . وقد اكتفى العرب بهذه

---

(١) المقريزى : الخطط : ١/٣١٥ .

(٢) انظر البلاذرى : ٢٣١ — ٢٣٢ .

(٣) نفس المصدر : ٢٣٣ .

(٤) انظر ابراهيم نصحى : مصر فى عصر البطالمة : ١٧ ، ٨٠ — ٨١ ، ١١٥ — ١١٦ ، ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢٣٥ .

(٥) البلاذرى : ٢٤٥ — ٢٤٦ . بتلر : ٣١٧ .

(٦) ابن عبد الحكم : ١٨٨ . المقريزى : الخطط : ١/٣٢٢ وما بعدها . البلاذرى : ٢٤٦ — ٢٤٧ .

(٧) ياقوت : ١٧/١٠٨ .

الفتوح ، ولم يتطلعوا إلى ما وراءها فى العصر الأول ، وإنما وجهوا كل عنايتهم إلى تنظيم الدفاع عنها فى البر والبحر ، وكان هذا التنظيم يعرف قديما بالتنظيم الثغرى . ثم إن العرب بعد أن توطدت أقدامهم فى هذه البلاد ، وبعد أن وجدوا المجال فسيحا ، قاموا فى عهد بنى أمية بفتوحهم الثانية ، وهى فتوح أضافت إلى العالم الإسلامى مثل ما انضاف إليه فى الفتوح الكبرى ، فهذه الفتوح الأولى يجب أن تعد نواة للعالم الإسلامى لا العالم الإسلامى كله .

* * *

نلاحظ أن مصير البلاد التى وقعت بيد العرب فى الفتوح الأولى قد تقرر بين عامى ١٢، ٢١ هـ (٦٣٣ — ٦٤١ م) ، فكأن التوسع العربى الأول قد تم فى نحو عشر سنوات، وهى فترة وجيزة جداً بالنسبة لهذا العمل الكبير الذى كان العرب يواجهون فيه أكبر قوتين فى ذلك الزمان فى وقت واحد ، وقد كانت الحركة العربية أشبه بموجة عاتية عمت تلك البلاد فى سرعة فائقة .

وقد تمت هذه الفتوح فى عهد الخليفتين أبى بكر وعمر ، ولكن المنظم الحقيقى لها هو عمر ، فإن الحركة فى عهد أبى بكر كانت فى بدايتها ولم تدخل الحرب مرحلتها العنيفة إلا فى عهد عمر الذى تولى الخلافة فى عام ١٣هـ ، ونستطيع أن نقول إن القيادة الاستراتيجية العليا كانت فى يد عمر نفسه ، فإنه هو الذى كان يحرك القواد فى الميادين وكان يأمر قواده بأن لا يبرح أحدهم موقعا إلا بعد أن يأتيه أمره ، ثم كان يكتب إليهم أن يوافوه بأخبار دائمة تصف له الأرض وطبيعتها ، وتصف مواقع القوات العربية ومواقع أعدائها ، وتعرفه ما ترامى إليهم من أخبار العدو وعدد قواته ومن يتولى قيادتها ، وأن يحملوه من أمرهم على الجلية[1] ، وقد عرف له العدو أنه قائد الحرب ومدبرها فقد روى الطبرى عن

---

(١) أنظر على سبيل المثال : كتاب عمر للمثنى (الطبرى : ٣/٤٨٢) وكتبه إلى سعد بن أبى وقاص (٣/٤٨٧ — ٤٩٣ ، ٥٧٩) (٣/٥٩١ ، ٥٩٣ — ٥٩٤) وكتبه إلى أمراء الشام (٣/٦٠٥) وكتابه إلى عتبة بن غزوان والأمثلة كثيرة جدا يمكن تتبعها فى حركات الفتوح .

السرى عن شعيب عن سيف أن رستم قال حين رأى نظام العرب فى القادسية « أكل عمر كبدى أحرق الله كبده ! علم هؤلاء حتى علموا »(١) .

وكانت القيادات العليا فى ميادين القتال للقرشيين ، صليبة أو بالولاء ، فقد كان على جبهة العراق خالد بن الوليد ، ثم سعد بن أبى وقاص . وعلى جبهة الشام خالد بن سعيد بن العاص ، ثم يزيد بن أبى سفيان وأبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة الذى كان حليفا لبنى زهرة(٢) ، وفتح مصر عمرو بن العاص ، وتولى فتح الجزيرة عياض بن غنم بن عم أبى عبيدة(٣) ، وغزا فارس من جنوبها من ناحية الأبلة عتبة بن غزوان حليف بنى نوفل بن عبد مناف(٤) أما القيادات التى تولاها آخرون فكانت قيادات فرعية تحت إمرة القواد القرشيين أو لضرورات خاصة ، مثل قيادة المثنى بن حارثة بعد رحيل خالد إلى الشام أو بعد مقتل أبى عبيد الثقفى ، وكانت قيادة أبى عبيد نفسه تشجيعا للزعماء على الانتداب إلى العراق حين تثاقل عنه الناس(٥) . أما الزعماء من أهل الردة فلم يكن يسمح لهم بتولى القيادات ولا يطمعون فيها ، وكان قصاراهم أن يتولى الواحد منهم على الجماعة دون المائة(٦) .

ونلاحظ أن معظم جيوش العراق كانت من قبائل ربيعة من بكر بن وائل وبنى عجل، وغيرها مع من انضاف إليها من القبائل التى انضمت من سكان العراق من النمر وتغلب ، وكذلك من القبائل اليمنية من بجيلة وقضاعة وطيء وكندة وزبيد ومراد والنخع . وكان أقلها من القبائل المضرية التى كان أكثر من اتجه منها إلى العراق من بنى أسد وبنى تميم والرباب(٧) .

---

(١) الطبرى : ٣/٥٣٢ — ٥٣٣ .
(٢) أسد الغابة : ٢/٣٩١ .
(٣) نفس المصدر : ٤/١٦٤ — ١٦٥ .
(٤) نفس المصدر : ٣/٣٦٣ — ٣٧٤ .
(٥) انظر الطبرى : ٣/٤٤٤ — ٤٤٦ .
(٦) الطبرى : ٣/٥٥٧ ، ٤/٢٥ .
(٧) انظر الطبرى : ٣/٤٨٦—٤٨٧، ٥٦١ .

وكانت معظم قوات الشام حجازية ، من قوات مكة والمدينة ومن القبائل اليمنية والقبائل التى تعيش بين اليمن ومكة إلى من انضاف إليها من القبائل المقيمة فى شمال الحجاز، وكانت جلة قوات قريش فى جيوش الشام[١] . بينما كانت القوات التى اتجهت لفتح مصر من قبائل اليمن[٢] . وكان لتوزع القبائل على هذا النحو وإقامتها فى الأمصار أثره فى مجريات الأحداث كما سوف نوضح فيما بعد .

* * *

وحين تغلب العرب على الفرس فتم لهم فتح العراق وتغلبوا على الروم فتم لهم فتح فتح الشام ثم فتح مصر ، كان على الخليفة عمر أن ينظم أمر البلاد المفتوحة وأن يقيم للعرب قواعد يحكمون منها هذه البلاد ، وينظمون الدفاع عنها ، وتكون مراكز لتجمع القوات العربية التى تقوم بهذا الدفاع ، وتتمم العمليات الحربية المتعلقة به . ولهذا أنشئت الأمصار العربية فى العراق ومصر ، وقسمت الشام إلى أجناد لأن الشام فيه من المدن ماجعلها العرب قواعد لهم . وقد بدأت الأمصار التى أقامها العرب فى العراق على هيئة معسكرات حربية تقام من الخيام أو القصب ، ثم تطور الأمر إلى البناء ، حتى صارت مدنا أخذ أمرها يعظم شيئا فشيئا حتى تحولت إلى حواضر كبيرة ومراكز للحضارة العربية الإسلامية .

وأول ما أقيم من هذه المعسكرات كان فى العراق ، وقد اتبع العرب فيها ذلك النحو الذى اتخذوه فى خطتهم السوقية فى القتال ، فجعلوها على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدرة من أرض العجم[٣] . كما لاحظوا فى اختيار أماكنها موافقتها لمزاج الحياة العربية ، فقد رجع طائفة من الجند والقادة من جلولاء وحلوان وغيرهما إلى عمر ، فلحظ — فيما روى الرواة — أنهم لايتمتعون من القوة وفيض النشاط بالقدر الذى كانوا به إذ كانوا فى الحيرة وما حولها ، أو بالقدر الذى وفد به عليه إخوانهم من قبل ، وحين سألهم شكوا إليه

---

(١) انظر الطبرى : ٣/٣٩٠ ، ٣٩٦ — ٣٩٧ ، ٤٠٢، ٤١١ ، ٥٧١ .

(٢) النجوم الزاهرة : ١/٥ . الشيال : ١/٤١—٤٦ .

(٣) الطبرى : ٣/٥٩٤ .

ما يلقون من الذباب والغبار ووخومة البلاد ، أى شكوا إليه اختلاف البيئة والتفارق فى الأجواء ، فكتب إلى سعد أن يبعث رواداً « يرتادون منزلا بريا بحريا ، فإن العرب لا يصلحها من البلدان إلا ما يصلح البعير والشاة »(١) . فاختار الرواد مكان الكوفة ، وأقر الخليفة الاختيار ، وكذلك اختار عتبة بن غزوان مكان البصرة ، وأمره عمر باتخاذها معسكراً . وبذلك بدأ الجيش العربى يقيم أول معسكراته فى هذين الموضعين من أرض العراق ، وبدأت مع هذه المعسكرات أولى خطوات استقرار المسلمين بالعراق والسير به فى طريق الإسلام والتعريب(٢) .

وقد أراد عمر أن تكون كل من الكوفة والبصرة معسكراً ، لكن الناس أرادوا أن تكون مدينة ، فكتبوا إلى عمر يستأذنونه فى بناء القصب ، ولكن عمر كان يرى فى البناء ما يوحى بالاستقامة إلى حياة المدن التى قد تهبط بالقوى وتغرى بالدعة ، فكتب إليهم « العسكر أجد لحربكم وأذكى لكم ، وما أحب أن أخالفكم »(٣) ، وأذن عمر بالقصب ولكن الظروف ما لبثت أن جرت إلى البنيان ، ودفعت إلى قيام المدينة ، فقد حدث أن شبت نار أحرقت كثيراً مما أقاموا من القصب ، فكتبوا إلى عمر يستأذنونه فى البناء باللبن ، فأذن لهم ، أن يفعلوا « ولا يزيدن أحدكم عن ثلاثة أبيات ولا تطاولوا فى البنيان ، والزموا السنة تلزمكم الدولة »(٤) وكأنما كان عمر يستشف حجب المستقبل ، فقد تطاول البنيان من بعد فى المدينتين واتسع الترف ، فكان أحد الأسباب التى انحرفت بالجماعة الإسلامية وأودت بوحدتها .

وبدأ البناء فى هاتين المدينتين ببناء المسجد فى الوسط ، وحوله تركت ساحة ، ثم

---

(١) الطبرى : ٤/٤٠-٤٢ : البلاذرى : ٢٨٤ . ابن الأثير : ٣٦٧ .

(٢) عن الكوفة أنظر ياقوت : ١٦/٤٩٠ - ٤٩٤ وعن البصرة : ٤/٤٣٠-٤٤٠ .

(٣) الطبرى : ٤/٤٣ . ابن الأثير : ٢/٣٦٨ .

(٤) الطبرى : ٤/٤٣-٤٤ . ابن الأثير : ٢/٣٦٨ .

بنيت دار الإمارة بحياله ، ثم قسمت المدينة إلى خطط بين القبائل(١) . وعلى نفس هذه الطريقة أقيمت مدينة الفساط فى مصر بعد أن تم لعمرو فتحها ، وكان لها نفس الشروط التى للبصرة والكوفة من حيث أنه لا يحول بين الخليفة وبينها ماء ، وقد اتخذها عمرو فى مكان وسط بين مصر العليا ومصر السفلى ، وبين المدينتين القديمتين عين شمس ومنف ، وقد كانتا حاضرتين لمصر فى عهود الفراعنة(٢) .

كان تمصير الأمصار يمكن أن يكون خطوة هامة فى امتزاج القبائل العربية وصهرها فى كل واحد ، بعد الخطوة التى جاء بها الإسلام فى توحيد العرب فى دولة واحدة فى شبه الجزيرة العربية تقوم العلاقة فيها على أساس الأخوة الدينية ، وكان خروج العرب إلى المجال الخارجى وتجمع قبائلهم فى فيالق الجيوش خطوة أخرى نحو صهرهم فى نسق واحد من النظام . وكان جديراً بمن قاموا على تخطيط هذه المدن الجديدة أن يوزعوا الناس فيها من حيث هم أفراد فى هذا المجتمع المدنى الناشىء الذى يقبلون عليه ، لا من حيث هم أعضاء فى المجتمع القبلى الذى جاءوا منه . لكن التخطيط فى هذه المدن الجديدة جاء على الطبيعة العربية ، فقسموا الخطط على أساس الوضع القبلى ، فخرجوا بذلك من قبيلة الصحراء إلى قبيلة المدينة . ولكنهم مع ذلك قربوا بين القبائل فجعلوها تعيش فى الأحياء فى كتل يجمع بين عناصرها روابط النسب ، ثم كانت حياة المدينة نفسها تضطر هذه القبائل أن تأتلف مع من حولها من جاراتها بما يقوم بينها من علائق الجوار والعطاء وحضور المسجد الجامع وما إلى ذلك من صلات أخرى(٣) . فتكونت من ذلك كتل جديدة كانت حياة القبائل فى الكوفة مثلا عليه فيما يسميه المؤرخون بالأسباع :

---

(١) الطبرى : ٤/٤٤–٤٦ .

(٢) انظر عن الفسطاط : جمال الدين الشيال : مصر الإسلامية : ١/٢٦–٤٤ .

(٣) شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية : ١٠٠–١٠٣ . فلهوزن : ٢٦–٢٧ .

صارت كنانة وحلفاؤها من الأحابيش وغيرهم ، وجديلة — وهم بنو عمرو بن قيس عيلان — سبعا . وصارت قضاعة — ومنهم يؤمئذ غسان بن شبام — وبجيلة وخثعم وكندة، وحضرموت ، والأزد سبعاً . وصارت مذحج وحمير وهمدان وحلفاؤهم سبعا . وصارت تميم وسائر الرباب وهوازن سبعا . وصارت أسد وغطفان ومحارب والنمر وضبيعة وتغلب سبعا ، وصارت إياد وعك وعبد القيس وأهل هجر والحمراء سبعا[١] . فلم يزالوا بذلك زمان عمر وعثمان وعلى ، وعامة إمارة معاوية حتى ربّعهم زياد .

وقد قسمت البصرة إلى خمسة أقسام قبلية أى إلى « أخماس » سكن كل خمس قبيل من من القبائل : بنو بكر ، وعبد القيس ، وتميم ، والأزد ، ثم القرشيون والقيسيون[٢] .. فكانت قبائل البصرة فى أكثرها أقسام من القبائل التى سكنت الكوفة .

وبذلك تكون فى العراق مركزان عسكريان هما البصرة والكوفة ، وكان أمير البصرة مسئولا عن جنوب فارس وجنوبها الشرقى حتى حدود السند ، بينما كان أمير الكوفة مسئولا عن سير العمليات الحربية فى شمال فارس من منطقة جرجان حتى أذربيجان[٣] .

وقد قسمت الفسطاط إلى خطط أربع كبرى بحسب القبائل التى كانت فى جيش عمرو بن العاص . إلا قبيلة همدان ومن والاها فإنهم سكنوا الجيزة ، وأمام حرصها على المقام فيها استجاب الخليفة لرغبتها ، وأمر قائده بأن يبنى عليهم حصنا ، فلما أتمه اختطت

---

(١) الطبرى : ٤٨/٤ . لم يرد فى المصادر ذكر السبع السابع وقد جعله ماسينيون لطيء معتمدا على ما ورد فى وقعة صفين وسير جيوش على بن أبى طالب إلى قتال معاوية بأهل البصرة والكوفة (ص ١١٧ . وانظر ماسينيوف : خطط الكوفة ١١) .

(٢) الطبرى : ٥٩١/٣ . نصر بن مزاحم : وقعة صفين : ١١٧ . ماسينيون : ٣٧ — ٣٨ .

(٣) انظر الطبرى : ٤/١٦٠ — ١٦٣ . ابن الأثير : ١٥/٣ وانظر حركات الفتوح فى الطبرى : ١٦٦/٤ وما بعدها .

قبائل همدان ونافع وذى صبح لنفسها خططا ، وتركوا فضاء بين القبيل والقبيل استعداداً لاستقبال من يقدم عليهم من بقايا قبائلهم(١) .

أما الشام فأمرها قد اختلف عن أمر العراق ومصر ، إذ كان بها كثير من المدن التى اتخذ العرب منها قواعد لهم ، وأسسوا لهم معسكرات ستة فى مواقع قريبة من المدن المهمة عرفت بالأجناد ، وهى جند الأردن ، وجند فلسطين ، وجند دمشق ، وجند الساحل ، وجند حمص ، وجند قنسرين(٢) .

وإلى هذه القواعد العسكرية ، كانت القبائل تهجر تهجيراً رسمياً باعتبارها أمداداً للجيوش المقيمة فى المعسكرات الكبرى التى كانت الحرب تنظم منها وتوجه ، فأصبحت هذه الأمصار متجه هجرات رسمية أو تطوعية تقوم بها القبائل أو فروع منها . وكانت القبائل تستصحب معها أبناءها ونساءها(٣) . والهجرة بهذا المعنى كانت تأسياً بالهجرة الأولى إلى المدينة فى حياة الرسول وبعده ، حيث كان يسير إليها فيض أهل التوثب والطموح ، ثم صارت الهجرة إلى عواصم الأقاليم عملا مشابها من حيث الغرض نفسه ، ولأداء الأعمال العسكرية التى تتطلبها الدولة . وتحقيقاً لمضمون الآية القرآنية : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة »(٤) .

ومن هذه المدن التى كان العرب قد تجمعوا فيها فرضوا طاعتهم على البلاد التى فتحوها ، ولما كان الأمر أمر سيادة حربية ، فإن الأمراء الذين يفتحون البلاد كانوا هم أول الولاة الذين يهيمنون عليها ، وكذلك كان من جاء بعدهم قوادا حربيين قبل كل شىء ، ولما كان الجيش يمثل الأمة أو هو شطر منها ، فإن أمير الحرب كان هو إمام الصلاة ،

---

(١) الشيال : ١/٤٣ — ٤٤ .

(٢) ماسينيون : ٩ . فلهوزن : ٢٥ .

(٣) الطبرى : ٣/٥٨١ .

(٤) سورة النساء : ١٠٠ .

فكان يمين على الحرب والصلاة ، وإلى جانب ذلك كانت له بطبيعة الحال السلطة التنفيذية[١] .

وإذا كان عمر قد وضع القواعد التى تحكم منها البلاد المفتوحة ، فإنه كان من قبل قد استخلص الجزيرة العربية للاسلام ، باعتبارها القاعدة الكبرى للدولة ، فأجلى عنها أصحاب الديانات الأخرى من النصارى واليهود ، وعوضهم عن أرضهم وأموالهم بغيرها فى البلدان التى يختارونها من البلاد المفتوحة[٢] . ولم يكن ذلك من عمر تعصبا دينيا ، فالإسلام لا يعرف التعصب الدينى « لا إكراه فى الدين » وقد كان النبى عاهد نصارى نجران وأقرهم على دينهم[٣] ، وكذلك أقر النصارى واليهود فى اليمن على أن يدفعوا الجزية ، وأبقى يهود خيبر على دينهم وأرضهم على أن يقاسموا المسلمين وصالح يهود فدك وتيماء ووادى القرى[٤] وأهم من ذلك أن الصحيفة التى وضعها النبى فى المدينة وكانت دستور الدولة أقرت اليهود على دينهم وجعلتهم عنصراً من عناصر الأمة[٥] .

ولم يحدث أن فتن المسلمون أحداً عن دينه فى البلاد المفتوحة ، بل كانت عقود المصالحات التى وقعها القواد مع أهل الكتاب من النصارى واليهود أن يضمنوا لهم حريتهم الدينية وكنائسهم وبِيَعهم[٦] . وإنما كان عمر يقصد إلى تقوية قاعدة الدولة الداخلية ، وينفى عنها كل سبب للضعف والوهن ، ومن أسباب الضعف فى الأمة أن تتعدد أجناسها أو تتعدد الشرائع ذات السلطان النافذ بين أهلها . والإسلام يتناول فيما يتناوله من تشريع أموراً لا تتفق ومقررات النصرانية واليهودية ، فهو يحرم الربا والنصرانية لا تحرمه ، ويحرم

(١) انظر الطبرى : ٣/٣٩٥ . البلاذرى : ٢٨٧ ، ٣٠٥ . الكندى : الولاة : ١٠ — ١١ ؛ فلهوزن : ٢٥ — ٢٦ .
(٢) ابن هشام : ٣/٤١٢ — ٤١٣ . البلاذرى : ٧٢ — ٧٣ . الطبرى : ٣/٢١ .
(٣) البلاذرى : ٧٠ — ٧١ .
(٤) ابن هشام : ٣/٣٨٩ .
(٥) انظر ابن هشام : ٢/ ١١٩ — ١٢٣ .
(٦) انظر البلاذرى : ١١٩ ، ١٢١ — ١٢٢ ، ١٢٢ — ١٢٨ ، ١٣٧ . الطبرى : ٣/٦٠٩ .

الخمر ، والنصرانية لا تحرمها ، وهو دين توحيد والنصرانية دين تثليث . واليهودية تشارك في بعض ما يحرمه الإسلام ، ثم إن اليهود ربطوا الدين بالعنصر ، والإسلام لا يعرف العنصرية . وقد كانت هذه المقررات وما إليها نافذة المفعول يومئذ لا يستطيع أحد أن يتسامح فيها كما يتسامح فيها الناس اليوم باسم حرية العقيدة . فلا عجب أن يصر عمر على ألا يترك بجزيرة العرب دينين بعد ما أصبح للعرب في شبه الجزيرة دين واحد اجتمعوا عليه ، فوحدة الدين هي الكفيلة بطمأنينتهم وعقانة وحدتهم ، وبألا تقوم بينهم وبين من لم يكونوا على دينهم ثائرات تجني على الطمأنينة أو تعبث بالوحدة[1] .

على أن هذا الأمر من عمر كان تنفيذاً لوصية النبي ألا يبقى في جزيرة العرب دينان[2]، تقديراً لاستكمال الوحدة العربية وإقرارها . وحين جدد أبو بكر صلح نصارى نجران احتاط فنبه في عقده معهم على أنه يفي لهم بكل ما عاهدهم عليه رسول الله إلا ما رجع عنه في أرضهم وأرض العرب ألا يسكن بها دينان[3] . ولم يكن من العدالة أن يجلي عن الجزيرة العربية من صالح المسلمين ووادعهم ولم يغدر من النصارى واليهود في عهد الرسول أو في عهد أبي بكر ، لأنه لم يكن للدولة أملاك خارج الجزيرة العربية يمكن أن تعوضهم بها عن أرضهم أو تضمن لهم الإقامة فيها ، فلما فتحت العراق والشام في عهد عمر كان للدولة أملاكها التي يمكن أن ينتقل إليها هؤلاء من غير أن يضاروا في حقوقهم شيئاً .

---

(١) هيكل : الفاروق عمر : ١٠٣/١ — ١٠٦ .
(٢) ابن هشام : ٣٤٥/٤ .
(٣) الطبري : ٣٢١/٣ .

الفصل الرابع

التنظيم المالى وإنشاء الديوان

كما نظم عمر أمور الفتح والدفاع عن الأقاليم المفتوحة ، فإنه كان عليه أن ينظم موارد الدولة المالية ، ويقرر النظام الذى يضبط مصارف هذه الموارد على وجوه الصرف المختلفة ، وأن يضبط الجيش وينظم رواتبه ، فإن الدولة بعد أن وصلت إلى هذا الحد من الاتساع وسيطرت على بقاع واسعة ، وخضع لحكمها شعوب كثيرة ، كان لا بد أن تنظم علاقاتها مع أهل هذه البلاد ، ومنهم من دخل فى حكم الدولة صلحا ومنهم من دخل فى حكمها كرها . وتبعا للفتح آلت إليها أرض غلبت عليها عنوة ، وأرض صالح عليها أصحابها ، وأرض جلا عنها مالكوها أو كانت ملكا لحكام البلاد السابقين ورجالهم . ومن شعوب هذه البلاد كتابيون قرر الإسلام طريقة التعامل معهم . وكل هذه المسائل كانت تقتضى إقرار نظام لها . كما أن جيوش الدولة كبرت فى عمليات الفتح وما تتطلبه من إرسال المقاتلين ، ثم إقامتهم فى المعسكرات الحربية التى أقامها العرب وجعلوها أمصاراً لحكم هذه البلاد وللدفاع عنها وإقرار سلطان الدولة عليها . وهذه الجيوش يجب ضبطها لمعرفة أعدادها ، ولإعاشتها وتقرير رواتب لأفرادها ، وإذا كانت هذه الجيوش كانت تحصل على ما تحتاج إليه من غنائم الحرب ، فإن الغنائم مورد غير ثابت ، ثم إذا كانت الجيوش قد حصلت على غنائم ثابتة وهى الأرض التى فتحت عنوة وصارت فيئا ، فإن تقسيم هذه الأرض بين المقاتلين أمر لا يتفق مع مصلحة الدولة ، فإن هذه الأرض تتحول إلى ملك لهؤلاء الجند يتوارث من بعدهم ، وبذلك لا يترك شىء لمن يأتى من طوائف الجند ، ثم هو يحول بين الجيش والتفرغ للأعمال العسكرية من دفاعية وهجومية ، فضلا عن أنه يؤدى إلى انتشار الجند ، الأمر الذى يمنع تمركزهم فى المواقع العسكرية ، مضافا إليه

ذلك ما تتعرض له الأرض نفسها من خراب نتيجة لانشغال أصحابها الجدد عنها ، لانصرافهم إلى عملهم الرئيسي وهو العمل العسكري ، ولقلتهم بالنسبة للأراضي التي وقعت في أيدي الدولة . وقد تصدى عمر للمسألتين : فقرر النظام المالي . ثم وضع ديوان الجيش .

النظام المالي :

تعتمد موارد الدولة على عدة مصادر هي : الغنائم ، والفيء والخراج والجزية ، والزكاة (الصدقات) . وقد بدأت هذه المصادر منذ قيام الدولة الإسلامية في عهد الرسول ونزلت فيها أحكام في القرآن الكريم سار عليها النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اتبعها الخلفاء من بعده مع الاجتهاد في تفسير النصوص بحسب ما تقتضيه ظروف الدولة الإسلامية التي أخذت تتسع وتستجد فيها ظروف لم تكن موجودة في عهد الرسول أو اتسعت بعد الفتوح . وخير وسيلة لتوضيح نشأة النظام المالي والأسس التي قام عليها ، أن نتتبع قيام الدولة الإسلامية ونموها منذ عهد الرسول .

بعد الهجرة أقام النبي صلى الله عليه وسلم دولته في المدينة ، ثم أخذت تنمو بما ينضاف إليها شيئاً فشيئاً بما ضم إليها النبي من ريف وما عقد لها من أحلاف ، ثم ما حدث بعد ذلك من غزوات بعد أن أذن للمسلمين بالقتال نتيجة تحدي خصومهم من أهل مكة وعنتهم ، وكان الإذن بالقتال حين نزلت الآية الكريمة « إذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز »(١) ، وكان لابد أن ينتج عن القتال أن يستولي المسلمون على غنائم نتيجة انتصاراتهم في الحرب .

---

(١) الحج : ٣٦ — ٤٠ .

وكانت أول غنيمة غنمها المسلمون إبلا محملة أدما وزبيبا وتجارة لقريش ، فى سرية مكونة من ثمانية رهط من المهاجرين ، أرسلها النبى فى السنة الثانية للهجرة لبطن نخلة بقيادة عبد الله بن جحش الأسدى ، ليترصد قريشا ويعلم من أخبارهم(١) .

وفى نفس هذه السنة (٢هـ) حدثت موقعة « بدر الكبرى » فغنم المسلمون فيها أموالا وسلاحا . ولما لم يكن هناك حكم قد نزل من قبل لتقسيم الغنائم فقد اختلف المسلمون فى تقسيمها ، فنزلت الآية الأولى من سورة الأنفال « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين » . فقسمها النبى بين المسلمين على سواد(٢) ولم يخمسها(٣) .

ثم غنم المسلمون بعد « بدر » أموال بنى قينقاع حين أجلاهم النبى عن المدينة لنقضهم العهد وتحديهم المسلمين . فقسم النبى هذه الأموال بعد أن أخرج منها الخمس ، تنفيذاً للآية الكريمة التى نزلت عقب غزوة بدر « واعلموا أن ما غنمتم من شىء فإن لله خمسة وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان »(٤) فكانت أول غنيمة خمست فى الإسلام(٥) .

أما الفىء فإن أول ما نزل فى تشريعه الآيات (٦ — ٩) من سورة الحشر : « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير . ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله ، وللرسول ،

---

(١) ابن هشام : ٢/٢٣٩ — ٢٤٣ . الطبرى : ٢/٤١٠ — ٤١٣ .

(٢) ابن هشام : ١/٢٨١ — ٢٨٢ . الطبرى : ٢/٤٥٨ — ٤٥٩ . ابن الأثير : ٢/٩٠ .

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية : ١٣٩ .

(٤) الأنفال : ٤١ .

(٥) الطبرى : ٢/٤٨١ . الماوردى : ١٣٩ .

ولذى القربى ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتـكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب . للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون . والذين تبوئوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » وقد نزلت هذه الآيات فى غزوة بنى النضير عام ٤هـ[1] . فقسم النبى أموالهم بين المهاجرين دون الأنصار إلا رجلين منهم ذكرا فقراً فأعطاهما ، وحبس الأرض على نفسه فكانت من صدقاته ينفق منها على أهله ، وما فضل جعله فى الكراع والسلاح[2] . فكان هذا الأصل فى تشريع الفىء .

ثم كانت غزوة الأحزاب ، وما تبعها من حصار بنى قريظة وقتل مقاتلتهم وقسم أموالهم على المسلمين بعد أن أخرج النبى منها الخمس ، وأعلم فى ذلك اليوم سهمان الخيل وسُهمان الرجال ، فجعل للفارس ثلاثة أسهم ، سهم له وسهمان لفرسه ، وللراجل سهماً . وكان هذا الفىء أول ماوقع فيه السهمان . وعلى هذه السنة التى وضعها الرسول وقعت المقاسم ومضت السنة فى المغازى[3] .

وفى غزوة خيبر فى أول السنة السابعة ، وكان لليهود بها ثمانى مناطق بها ثمانية حصون ففتحت كلها عنوة ماعدا حصنين منها فتحا صلحا ، فوقف رسول الله هذين الحصنين وقسم الستة الباقية بعد أن خمسها كما تقضى الآية القرآنية ، فكانت منطقة حصن الكتيبة خمس النبى صلى الله عليه وسلم ، وسهم ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وطعم أزواج النبى ، وطعم رجال مشوا بين رسول الله وبين أهل فدك بالصلح . وقسمت

---

(١) انظر ابن هشام : ٣/١٩١ — ١٩٧ . الطبرى : ٢/٥٥٠ — ٥٥٥ .
(٢) انظر البلاذرى : ٢٣ ـ ٢٦ . الماوردى : ١٦٩ .
(٣) انظر ابن هشام : ٣/٢٥٢ ـ ٢٦٤ الطبرى : ٢/٥٨١ ـ ٥٩١ .

خيبر على أهل الحديبية من شهد منهم خيبر ومن غاب عنها ، ولم يغب عنها إلا رجل واحد هو جابر بن عبد الله الأنصارى[١] . فأعطى الفرسان ستمائة سهم وكان عددهم مائتين ، والرجال ألفا ومائتى سهم بحسب عدتهم لكل رجل سهم[٢] . ثم أبقى اليهود على الأرض يزرعونها ويقومون عليها مقاسمة على النصف مما يخرج من التمر والحب .

فبقيت كذلك حياة النبى ، ثم حياة أبى بكر ، ثم صدرا من حياة عمر حتى أجلى اليهود عن جزيرة العرب[٣] .

وبعد خيبر صالح أهل فدك النبى على أن له نصف أرضهم ونخلهم يعاملهم عليه ، ولهم النصف الآخر ، فكان نصف فدك خالصا لرسول الله لأن المسلمين لم يوجفوا عليه بخيل ولا ركاب ، وكان يصرف ما يأتيه منه على أبناء السبيل ، ثم صار بعده من صدقاته[٤] . وقد عامل النبى أهل وادى القرى بعد أن فتح أرضهم عنوة على النحو الذى عامل به يهود خيبر[٥] . أما أهل تيماء فإنهم صالحوا النبى على دفع الجزية ، فأقاموا ببلادهم وأرضهم فى أيديهم[٦] .

وفى السنة الثامنة فتح النبى مكة عنوة[٧] فردها على أهلها ولم يقسمها ولم يغنم

---

(١) انظر الطبرى : ٣/٩ — ١٩ . ابن هشام : ٣/٤٠٤ — ٤٠٥ .

(٢) الماوردى : ١٧٠ .

(٣) انظر البلاذرى : ٢٩ — ٣٥ .

(٤) ابن هشام : ٣/٤٠٨ . الماوردى : ١٧٠ .

(٥) البلاذرى : ٤١ .

(٦) نفس المصدر : ٤٢ .

(٧) الطبرى : ٣/٦١ وانظر البلاذرى : ٤٣ — ٤٩ . أبو يوسف : الخراج : ٦٨ . لعل ما يؤيد أن الفتح كان عنوة قوله تعالى « وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم » .

منها شيئا[١] . وفى وقعة حنين انتصر المسلمون على « هوازن » فغنموا الأموال وأخذوا سبيا ، فعفا النبى عن السبى حين سألته هوازن ذلك[٢] .

وفى غزوة تبوك صالح النبى أهلها على الجزية ، وصالحه صاحب « أيلة » وكان نصرانيا على أن جعل له على كل رجل بأرضه فى السنة دينارا ، وصالح أهل « أذرح » على مائة دينار فى كل عام ، وصالح أهل « جرباء » على الجزية ، وصالح أهل « مقنا » على ربع غزولهم وعروكهم (الخشب الذى يصاد عليه) وثمارهم[٣] .

وأرسل خالد بن الوليد إلى « أكيدر » صاحب « دومة الجندل » وكان نصرانيا ، فأسره خالد وجاء به إلى المدينة ، فعفا عنه النبى وخلى سبيله وصالحه على الجزية[٤] .

وفى نفس العام التاسع بعد عودة النبى من تبوك ، وفدت على النبى رسل ملوك حمير تحمل كتابا يقرون فيه بإسلامهم ، فكتب إليهم كتابا نثبته لأنه يقرر أصول الزكاة ويحوى فرض الجزية على أهل الكتاب مع إقرارهم على دينهم وعدم فتنتهم عنه « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد النبى رسول الله إلى الحارث بن عبد كلال ونعيم ابن عبد كلال ، والنعمان قَيْل ذى رعين وهمدان ومعافر . أما بعد ذلكم ، فإنى أحمد الله إليكم الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنه قد وقع بنا رسولكم مقفلنا من أرض الروم ، فلقينا بالمدينة ، فبلغ ما أرسلتم ، وخبر ما قِبَلكم . وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين ، وأن الله قد هداكم بهدايته ، إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، وأعطيتم من المغانم خمس الله وسهم نبيه وصفيه ، وما كتب على المؤمنين من الصدقة : من العقار عشر ما سقت العين وما سقت السماء ، وكل ما سقى بالغرَب (الدلو) نصف العشر . وفى الإبل فى الأربعين ابنة لبون ، وفى ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر ،

---

(١) الماوردى : ١٦٤ .
(٢) الطبرى : ٣/٨٦ — ٨٧ .
(٣) البلاذرى : ٦٦ .
(٤) نفس المصدر : ٧٠ .

وفى كل خمس من الإبل شاة ، وفى كل عشر من الإبل شاتان . وفى كل أربعين من البقر بقرة ، وفى كل ثلاثين من البقر تبيع ، جذع أو جذعة . وفى كل أربعين من الغنم سائمة وحدها ، شاة ، وأنها فريضة الله التى فرض على المؤمنين فى الصدقة ، فمن زاد خيراً فهو خير له ، ومن أدى ذلك وأشهد على إسلامه وظاهر المؤمنين (عاون وآذر) على المشركين ، فإنه من المؤمنين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، وله ذمة الله وذمة رسوله . وأنه من أسلم من يهودى أو نصرانى فإن له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم . ومن كان على يهوديته أو نصرانيته فإنه لا يفتن عنها ، وعليه الجزية ، على كل حالم ذكر أو أنثى ، حر أو عبد ، دينار واف أو قيمته من المعافر (ثياب اليمن) أو عرضه ثيابا ، فمن أدى ذلك إلى رسول الله ، فإن له ذمة الله وذمة رسوله ، ومن منعه فإنه عدو لله ولرسوله »[1] .

وفى السنة العاشرة جاءه وفد أهل نجران — وهم عرب نصارى — فصالحهم ، وكتب لهم كتابا ، كانت الشروط الأساسية فيه : أن يدفعوا ألفى حلة من حلل الأواق (أى ثمن كل حلة منها أوقية من الفضة ، وهى أربعون درهما) فى كل رجب ألف حلة وفى كل صفر ألف حلة . وإذا أخذ منهم دروع أو خيل أو ركاب أو عرض أخذ منهم بالحساب . وإذا زادت حلل الخراج أو أنقصت عن الأواق فبالحساب ، وعليهم عارية ثلاثين درعا وثلاثين فرسا وثلاثين بعيراً إذا كان كيد باليمن ، فإذا هلك مما أعاروا شيئا فهو ضمن حتى يرد إليهم . وعليهم ضيافة رسل النبى شهراً فما دونه على ألا يحبس الرسل فوق الشهر . ثم إن « لنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وغيرهم وبعثهم وأمثلتهم لا يغير ما كانوا عليه ، ولا يغير حق من حقوقهم وأمثلتهم ، لا يفتن أسقف من أسقفية . ولا راهب من رهبانيته ولا واقه من وقاهيته[2] على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، وليس عليهم رهن ولا دم جاهلية ، ولا يحشرون ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش . من سأل منهم حقا فبينهم النّصف غير ظالمين ولا مظلومين بنجران . ومن أكل منهم ربا من ذى قبل

---

(١) ابن هشام : ٤/٢٥٨ — ٢٥٩ .

(٢) ولا واقه من وفاهيته : ولا كاهن من كهانته (أبو يوسف ٧٢) .

فذمتي منه بريئة . ولا يؤخذ منهم رجل بظلم آخر ، ولهم على ما فى هذه الصحيفة جوار الله وذمة محمد النبي أبداً حتى يأتى أمر الله ، ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مكلفين شيئا بظلم »[1] هذا صلح مع أهل الكتاب ، وكان الرسول قد أخذ الجزية أيضا من أهل « هجر » فى البحرين وكان منهم مجوس تابعون للفرس بقوا على دينهم وأدوا الجزية[2] .

هذه أصول التشريع المالى فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم فى الغنائم والفيء والجزية والزكاة[3] ، وعلى هذه الأصول سار الخلفاء الراشدون بعد وفاة النبي مجتهدين فيما عرض لهم من الأحوال بعد قيام الفتوح الإسلامية .

* * *

آلت بالفتوح أراض فسيحة إلى حكم المسلمين ، فواجهتهم مشكلة كبيرة هى : ماذا يعمل بكل هذه الأراضى الفسيحة ، وماذا يكون مصير أهلها القيمين عليها فى جيلهم هذا والأجيال التى تتلو . وقد أبرزت المصادر القديمة بدء هذه المشكلة ، وكيف كان حلها[4] .

كتب سعد بن أبى وقاص بعد فتح العراق إلى الخليفة عمر بن الخطاب ينبئه : أن الناس سألوه أن يقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم . وكذلك كتب إليه أبو عبيدة بعد فتح الشام بأن المسلمين سألوه أن يقسم بينهم المدن وأهلها ، والأرض وما فيها من شجر وزرع ، ويخبره بأنه أبى عليهم حتى يبعث إليه عمر برأيه ، وكذلك طلب الجند الذين

---

(١) البلاذرى : ٧٠ — ٧٢ . أبو يوسف : الخراج : ٧٢ — ٧٣ .

(٢) البلاذرى : ٨٥ — ٨٦ .

(٣) أنظر فيما سبق : الريس : الخراج والنظم المالية : ٩٢ — ١٠١ .

(٤) انظر أبو يوسف : الخراج : ٢٣ — ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٥ ، ٦٨ : ٦٩ ، ١٤٠ — ١٤١ . أبو عبيد : الأموال : ١٤ — ١٥ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٢١٣ — ٢١٤ . يحيى بن آدم : الخراج : ٢٧ — ٢٨ ، ٣٤ — ٣٦ ، ٤٣ — ٤٨ .
وانظر فى تفصيل الموضوع : ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية : ١٠٥ — ١٣٧ . محمد أمين صالح : التنظيمات الاقتصادية فى مصر والشام : ٦٩ — ٩٣ .

قدموا من العراق ، كما طلب طائفة من الصحابة إلى عمر أن يقسم الأرضين التى افتتحت ، كما تقسم غنيمة العسكر ، وكما قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم خيبر .

فجمع عمر النـــاس لينظروا فى الأمر . فرأى كثير منهم أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا . فكان عمر يقول : لو قسمته لم يبق لمن بعدكم شىء ، فكيف بمن يأتى من المسلمين ، فيجدون الأرض قد اقتسمت ، وورثت عن الآباء وحيزت ؟ ما هذا برأى . فما يسد به الثغور ؟ وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أرض الشام والعراق ؟

فأكثروا عليه وأجابوا : كيف تقف ما أفاء الله علينا بأسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ، ولأبناء القوم ولأبناء أبنائهم ، ولم يحضروا ؟ . وكان على رأس المؤيدين للتقسيم عبد الرحمن بن عوف ، والزبير بن العوام ، وبلال بن رباح الذى كان أشد الناس فى ذلك على عمر . وكان ماثلا فى ذهن هؤلاء آية الغنيمة ، وهى قول الله تعالى « واعلموا أن ما غنمتم من شىء فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »(١) أى أن الخمس لمن سماهم الله والباقى يقسم على الغانمين . لكن عمر تمسك برأيه وأيده فى رأيه من المهاجرين : على وعثمان وطلحة وابن عمر ، كما أيده معاذ بن جبل ، فكان عمر يرفض التقسيم ويقول « هذا عين المـــال ، ولكنى أحبسه فيما يجرى عليهم وعلى المسلمين »(٢) .

ولما وقع الاختلاف احتكموا إلى عشرة من الأنصار من كبرائهم وأشرافهم . خمسة من الأوس ، وخمسة من الخزرج ونهض عمر يشرح القضية ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « إنى لم أزعجكم إلا لأن تشتركوا فى أمانتى فيما حملت من أموركم . فإنى واحد كأحدكم . وأنتم اليوم تقرون بالحق ، خالفنى من خالفنى ووافقنى من وافقنى . » ثم أوضح رأيه بعد أن عرض القضية ، بأنه يرى أن تحبس الأرضون بعمالها (أن توقف) ويوضع

---

(١) الأنفال : ٤١ .

(٢) أبو عبيد : ٥٨ .

عليهم فيها الخراج ، وفى رقابهم الجزية ، يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين : المقاتلة والذرية ولمن يأتى بعدهم « أرأيتم هذه الثغور لا بد لها من رجال يلزمونها ؟ أرأيتم هذه المدن العظام لا بد لها من أن تشحن بالجيوش وإدرار العطاء عليهم ؟ فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرض ومن عليها ؟ » . ثم قال : لقد وجدت الحجة فى كتاب الله الذى ينطق بالحق ، ثم قرأ الآيات من سورة الحشر(١) موضحا ما تهدف إليه « وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شىء قدير » فقال : هذه نزلت فى شأن بنى النضير . و « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم » فقال : هذه عامة فى القرى كلها . و « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا » فأوضح أنها للمهاجرين . ثم الآية بعدها : « والذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » . فقال وهذه للأنصار . ثم الآية « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم » فقال هذه لمن جاء بعدهم ، فاستوعبت الآية الناس . وقد صار هذا الفىء بين هؤلاء جميعا . فكيف نقسمه لهؤلاء وندع من يجىء بعدهم ؟ فأجمع على تركه وعدم تقسيمه . فوافقه الجميع وقالوا « فنعم ما قلت وما رأيت » .

وعندئذ كتب عمر إلى سعد بن أبى وقاص ، فقال « أما بعد ، فقد بلغنى كتابك أن الناس قد سألوا أن تقسم بينهم غنائمهم وما أفاء الله عليهم . فإذا أتاك كتابى ، فانظر ما أجلب عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم من مال أو كراع فاقسمه بينهم بعد الخمس ، واترك الأرض والأنهار لعمالها ، فيكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بعدهم شىء »(٢) . وبمثل هذا كتب إلى أبى عبيدة وغيره .

---

(١) الحشر : ٦ — ١٠ .

(٢) البلاذرى : ٢٧٤ .

وقد امتدح أبو يوسف رأى عمر وعده توفيقا من الله كان له فيما صنع . وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن هذا لو لم يكن موقوفا على الناس فى الأعطيات والأرزاق ، لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير للجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرتزقة[١] .

أرض العنوة :

وبهذا القرار الذى اتخذه عمر قام التشريع فى معاملة الأرض التى استولى عليها المسلمون عنوة . وكان قد سبقه تشريع آخر فى عهد النبى حين قضى فى أرض خيبر ، فقد جعلها غنيمة فخمسها وقسمها عملا بقوله تعالى « واعلموا أن ما غنمتم من شىء ، فإن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » وعلى هذه الآية وهذا الحكم استند المخالفون لرأى عمر . ولكن عمر تأول الآيات من سورة الحشر ، فجعل أرض العنوة فيئا ، وكان لتأويله ما يبرره من ظروف الأحوال والنظر إلى المصلحة العامة . ويرى أبو عبيد فى كتابه الأموال أن فعل النبى ليس براد لفعل عمر . فالرسول صلى الله عليه وسلم اتبع آية من كتاب الله تبارك وتعالى فعمل بها . وتأول عمر آية أخرى فعمل بها . وهما آيتان محكمتان فيما ينال المسلمون من أموال المشركين فيصير غنيمة أو فيئا[٢] .

وقد طبق هذا القرار على مصر أيضاً بعد فتحها ، فقد رفض عمرو بن العاص ما سأله الزبير من أن يقسمها حتى يكتب إلى عمر ، وجاءه الرد « أن دعها حتى يغزو منها حبل الحبلة ، أى أن تكون فيئاً موقوفاً للمسلمين ما تناسلوا ، يرثه قرن عن قرن[٣] . كما طبق فى جميع الأمصار الإسلامية ، فصارت أرض الشام كلها عنوة إلا المدن خاصة فإنها

---

(١) أبو يوسف : ٧ .

(٢) أبو عبيد : الأموال : ٦٠ .

(٣) البلاذرى : ٢٢١ ، ٢٢٥ ، النجوم الزاهرة : ١/٢٥ .

صلح[١] ، ولم يستثن من أرض السواد غير أربعة مواضع هى الحيرة وعين التمر ، وألّيس وبانقيا[٢] . وكذلك اعتبرت الأهواز أو أكثرها ، وفارس والمغرب كله والثغور كلها أرض عنوة[٣] .

وكان هذا القرار الذى اتخذه عمر بجعل الأرض فيئاً موقوفاً ، قراراً بالغ الخطورة ، إذ به أصبحت الأراضى التى فتحها المسلمون ، وكذلك ما يمكن أن يفتحوه بعد ، ملكاً للأمة الإسلامية كوحدة بجميع أجيالها ، بدل أن تكون ملكاً متقاسماً بين الأفراد يتداولونه ويرثه الأبناء عن الآباء[٤] . على أن تقسيم هذه الأرض الهائلة بين الفاتحين أمر يتنافى مع مصلحة الدولة من ناحية ، وكان عملا مستحيلا من ناحية أخرى ، لأن العرب لم يكونوا ليستطيعوا أن يتقسموا فيما بينهم نصف العالم ، إلا إذا كان يراد له أن يتحول إلى أرض خربة ، لأنهم لم يكونوا يستطيعون أن ينتشروا فى تلك الأرض الواسعة لكى يزرعوها ، بل كان لا بد لهم أن يتجمعوا فى معسكرات إن أرادوا المحافظة على سلطانهم ، وكان عليهم أن يفكروا فى المستقبل وما يتطلبه من زيادة الجند أو استبدالهم ، ولذلك اعتبرت الأرض بمثابة رأس مال ثابت وأعيرت لملاكها الأصليين على أن يزرعوها ويؤتوا غلتها ، وهذه الغلة وحدها هى التى كانت نصيب المسلمين[٥] .

وعلى أساس هذا القرار الذى اتخذه عمر وعوملت عليه جميع الأمصار الإسلامية ، جعلت أرض العنوة فيئاً موقوفاً لجميع المسلمين ، فوضع عليها الخراج ، فكيف كانت الدولة تحصل على هذا الخراج ؟

---

(١) أبو عبيد : ٢٨٤ .

(٢) أبو يوسف : ٢٨ .

(٣) أبو عبيد : ١٠٠ ، ٥١٣ .

(٤) ضياء الدين الريس : ١٠٨ .

(٥) فلهوزن : تاريخ الدولة العربية : ٢٨ — ٢٩ .

ذكر أبو عبيد وأبو يوسف والماوردى أن عمر بعث عثمان بن حنيف ومعه حذيفة ابن اليمان وأمرهما بمسح السواد ، وتقدير الخراج على الوحدات وبقدر ما تحمله الأرض ، فقاما بذلك ، فوجد أن مساحة السواد ستة وثلاثون ألف ألف جريب ، فوضع على كل جريب[1] ، عامر أو غامر يناله الماء من الحنطة ، قفيزا[2] ، ودرهما ، أو أربعة دراهم ، وعلى جريب الشعير درهمين ، وعلى جريب الكرم عشرة دراهم ، والنخل ثمانية دراهم ، والقصب ستة دراهم ، والرطبة خمسة[3] .

وقد جعل عمر الخراج شاملا عاماً على كل من صارت الأرض فى يده من رجل أو امرأة أو صبى أو مكاتب أو عبد ، فصاروا متساوين فيها ، وجعل الخراج على الأرض التى تغل من ذوات الحب والثمار والتى تصلح للغلة من العامر والغامر ، وعطل من ذلك المساكن والدور التى هى منازلهم ، فلم يجعل عليهم فيها شيئاً[4] .

وهكذا قوم الخراج على السواد واعتبره الفقهاء أصلا يقيسون عليه نظائره[5] فجعله على الجريب من أرض الشام دينارا ومدى قمح[6] . وعلى الجريب من أرض مصر ديناراً وثلاثة أرادب طعاماً[7] . وأصبح مورداً أساسياً للدولة الإسلامية يؤخذ من أهل البلاد

(١ ، ٢) حقق ضياء الدين الريس : الجريب بما يساوى : ١ : ٧ ، ٣ من الفدان (ص ٣٠٠) والقفيز بما يساوى كيلتين أو سدس أردب (ص ٣٣٢) كتاب الخراج والنظم المالية .

(٣) أبو يوسف : ٣٦ . ابو عبيد : ٦٩ . الماوردى : ١٧٤ — ١٧٥ .

(٤) أبو عبيد : ٧٧ .

(٥) الماوردى : ١٢٢ .

(٦) البلاذرى : ١٥٥ .

(٧) نفس المصدر : ٢٢٢ .

نشك فى مقدار الحنطة على الجريب ، فلا يمكن أن تكون ثلاثة أرادب فى مصر بينما هى فى الشام سدس أردب . وقد أورد البلاذرى أنهم صالحوا بعد ذلك على ترك الحنطة والزيت والعسل والخل على أن يدفعوا دينارين . ونأخذ بما قال به بتلر بأن خراج الأرض كان يقدر بحسب زيادة النيل ونقصه وأن زعماء القرى كانوا ينظرون فى حالة الزراعة ، ويجملون جباية المال مناسبة لذلك (ص ٣٣١) وأن الحساب كان على الفدان لا على الجريب (المقريزى : الخطط : ١٦٦/١) .

الأصليين الذين أبقيت أرض العنوة فى أيديهم ، يستغلونها ويؤدون للدولة تلك الأموال الموضوعة على كل وحدة مساحية هى الجريب ، وبحسب نوع كل محصول يزرعونه . فكأن عمر أعطاهم الأرض كراء بأجرة مسماة ، والخراج فى كلام العرب إنما هو « الكراء والغلة »(١) ، فيؤدى أهل الأرض خراجها للدولة ، كما يؤدى مستأجر الأرض كراءها إلى مالكها ويكون للمستأجر ما زرع فيها وما غرس(٢) وهذا هو خراج الأرض المأخوذ من الأرض الموقوفة ، فهو فىء لأنه يعود على جميع المسلمين .

وتبعا لهذا القرار الذى جعل هذه الأرض فيئا أى ملكا موقوفا لجميع المسلمين وليس ملكا للدولة أو للأفراد ، فإنه أصبح غير جائز التصرف فيها بالبيع أو الرهن(٣) ضمانا لعدم ضياع حق المسلمين فيها(٤) .

أرض الصلح :

وغير أرض العنوة توجد « أرض الصلح » التى تعتبر أرض خراج ، لأن الخراج فى الأصل مختص بأن يوضع على الأرض التى صولح المشركون عليها(٥) ، وتكون من هذه الناحية فيئا للمسلمين ، وقد جعلها الماوردى على ضربين(٦) :

أحدها : ما خلا عنها أهلها حتى خلصت للمسلمين بغير قتال ، فتصير وقفا على مصالح المسلمين ، ويضرب عليها الخراج ويكون أجرة تقر على الأبد ، ولا يتغير بإسلام ولا ذمة ، ولا يجوز بيع رقابها اعتباراً بحكم الوقوف .

ثانيهما : ما أقام عليه أهله وصولحوا على إقراره فى أيديهم بخراج يضرب عليهم . وهذا له وضعان :

---

(١) انظر المصباح مادة « خرج » و « غلل » و « كرى » .
(٢) أنظر عن الكراء البخارى : ٣/٨٨—١٠٩ . الماوردى : ١٤٦ .
(٣) الطبرى : ٣/٥٨٩ . الماوردى : ١٣٨ ، ١٤٧ .
(٤) انظر محمد أمين صالح : ٧٣ — ٧٥ .
(٥) الماوردى : ٤٧ . يحيى آدم : الخراج : ٢٠ .
(٦) الماوردى : ١٣٨ ، ١٤٧ .

الأول : أن ينزل أهلها عن ملكها للمسلمين عند الصلح ، فتصير هذه الأرض وقفا عليهم ، ويكون الخراج المضروب عليهم أجرة لا تسقط بإسلامهم ولا يجوز لهم بيعها .

والثانى : أن يستبقوها على أملاكهم ولا ينزلون عن رقابها ، ويصالحوا عنها بخراج يوضع عليها ، ويعتبر هذا الخراج جزية تؤخذ منهم ما أقاموا على شركهم ، وتسقط عنهم بإسلامهم ، ويجوز أن لا تؤخذ منهم جزية رقابهم ، ويجوز لهم بيع هذه الأرض على من شاءوا .

وعلى ذلك فإن بعض أرض الصلح أصبح ملكا موقوفا (فيئا) وصارت أرض خراج وهى من هذه الناحية تتفق مع أرض العنوة فى كل ظروفها ، ولذا تسمى أرضا خراجية « أجرة » والبعض الآخر استبقيت ملكيته فى يد أصحابه على أن يؤدوا عنه خراجا بمثابة جزية تسقط بإسلامهم ، ولذا تسمى أرضا خراجية « جزية » .

وقد احترم المسلمون شروط الصلح مع من صالحوهم ، لأن السنة فى أرض الصلح ألا يزاد على وظيفتها التى صولحوا عليها وإن قووا على ذلك(١) ، فقد أتى عمر رجل فقال « إن أرض كذا وكذا تحتمل الخراج أكثر مما عليها » ، فقال « ليس على أولئك سبيل ، إنا صالحناهم »(٢) ، كما روى أن معاوية كتب إلى وردان عامله على الخراج بمصر : أن زد على القبط قيراطا على كل إنسان : فكتب إليه وردان : كيف أزيد عليهم وفى عهدهم ألا يزاد عليهم »(٣) .

وقد تعددت أقوال الفقهاء فى إمكانية التصرف فى أرض الصلح بالبيع والشراء ، فمنهم من رأى عدم جواز ذلك على اعتبار أنها فىء للمسلمين فهى ملك عام لهم موقوف عليهم ، فيكره على ذلك شراؤها حتى بعد إسلام صاحبها ، ومنهم من لا يرى بأسا من شراء أرض

---

(١) أبو عبيد : ١٤٣ .
(٢) أبو عبيد : ١٤٤ . أبو يوسف : ٦٣ .
(٣) أبو عبيد : ١٤٤ . البلاذرى : ٢٢٥ .

الصلح لأنها ملك لمن صالحوا عليها ، فكانوا لذلك يرخصون أن يشتروا من أرض الحيرة من أجل أنها صلح[1] .

ولكن من أقوال الماوردى يمكن التوفيق بين الرأيين ، فأما مالا يجوز البيع والشراء فيه فهو أرض الصلح التى تنازل أهلها عنها للمسلمين عند الصلح فصارت فيئا للمسلمين . وأما الأرض التى استبقى أهلها ملكيتها وصالحوا عليها بخراج ، فهذه تكون ملكا خاصا لأهل الصلح لهم حرية التصرف فيها[2] .

وقد أقبل الناس على شراء أرض الصلح فكان لهذا أثره فى الأحداث التى جرت بعد ذلك .

أرض العشر :

وإلى جانب أرض العنوة وأرض الصلح توجد أرض أخرى ليست داخلة تحت أرض العنوة أو أرض الصلح ، وإنما هى أرض يملكها المسلمون ، ويدفعون عنها العشر زكاة ، ولذلك تسمى « أرض عشر »[3] ، وهى كما قال أبو عبيد أربعة أنواع[4] :

١ — كل أرض أسلم عليها أهلها فهم مالكون لرقابها .

٢ — كل أرض أخذت عنوة ، لم يجعلها الإمام فيئا موقوفا بل جعلها غنيمة فخمسها وقسمها بين الذين افتتحوها خاصة .

٣ — كل أرض عادية لا رب لها ولا عامر أقطعها الإمام إقطاعا .

٤ — كل أرض ميتة استخرجها رجل من المسلمين فأحياها بالماء والنبات .

فهذه الأرض فيها الصدقة بالعشر أو نصف العشر بحسب ريها سيحا أو بالعين ، أو بالغرب (الدلو) ، وما يؤخذ منها صدقة إذا بلغت حصيلتها خمسة أوسق فصاعدا .

---

(١) أبو عبيد : ١٥٥ — ١٥٦ . يحيى بن آدم : ٢٣ ، ٥٣ .
(٢) أنظر محمد أمين صالح : ٧٨ .
(٣) أبو يوسف : ٦٩ . الماوردى : ٢٤٧ .
(٤) أبو عبيد : ٥١٢ ، ٥١٣ .

وبذلك تـكون أرض العشر ملـكا للمسلمين يكون لهم فيها حق التصرف بالبيع والشراء . ويكون مايؤخذ منها (العشر أو نصف العشر) زكاة يدخل فى حكم الصدقات، وأموال الصدقات ليست من أموال الفيء ، فلا ينبغى أن يدخل فى مال الخراج ، فلـكل منهما مصارفه الخاصة لأن الخراج لجميع المسلمين والصدقات لمن سمى الله تعالى فى الآية الـكريمة « إنما الصدقات للفقراء والمساكين »[1] .

هذه هى أحكام الأرض وتفصيل الأموال التى وضعت عليها ، وإلى جانب ذلك أموال أخرى فرضت على أهل الأرض وتدخل فى حكم الفيء .

الجزية :

من المبادىء التى أقرها الإسلام منذ قيام الدولة فى عهد النبى حرية الأديان السماوية بل ورعايتها ، ولم يحارب الإسلام إلا الوثنية باعتبارها دينا يتنافى مع كرامة الإنسان واحترام عقله . وقد طبقت الدولة هذا المبدأ طوال حياة النبى مع اليهود والنصارى فى جزيرة العرب ، وقد ألحق المجوس بوضع هؤلاء منذ حياة النبى[2] . وفى نظير بقاء هؤلاء على دينهم ورعاية الدولة وحمايتها لهم فرضت عليهم ضريبة خاصة هى ضريبة الجزية . وقد سارت الدولة على ذلك فى أيام الفتوح بعد موت النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم تـكره أحداً على اعتناق الإسلام . ومن ثم نرى أن بعض العرب والـكثير من أهل البـــلاد المفتوحة من أهل الـكتاب والمجوس ظلوا على دياناتهم ، وقد أجازت لهم الدولة ذلك على أن يدفعوا الجزية نظير حمايتها لأرواحهم وأموالهم وإعطائهم الحرية فى ممارسة شعائر عقائدهم وعدم المساس بأماكن عبادتهم .

على أن الجزية — وهى ضريبة الرأس — لم تـكن نظاما استحدثته الدولة الإسلامية ، وإنما كان نظاما مقرراً فى الدولة الفارسية والرومية . فقد كان هذا النظام موجوداً

---

(١) أبو يوسف : ٨٠ — ٨١ .

(٢) البلاذرى : ٨٦ .

فى الدولة الفارسية[١] ، وقد نظم هذه الضريبة كسرى أنوشروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) ففرضها على من تتفاوت أعمارهم بين العشرين والخمسين من الرجال ، واستثنى منها أهل البيوتات والعظماء والمقاتلة ورجال الدين وموظفى الدواوين ومن كان فى خدمة الملك . وقسم من فرضت عليهم الضريبة إلى طبقات حسب ثرائهم ، فمنهم من كان يدفع اثنى عشر درهما ، ومنهم من يدفع ثمانية ومنهم من يدفع ستة ، وأكثر الشعب كان يدفع أربعة دراهم . وكانت الضرائب تجبى كل ثلاثة شهور[٢] .

كذلك كان الروم يفرضون ضريبة الرءوس على السكان فى مصر يدفعونها من سن الرابعة عشرة إلى الستين ، ولم يكن يعفى منهـــا إلا مواطنو الإسكندرية باستثناء اليهود المقيمين بها والذين كان عددهم أربعين ألفا[٣] ، وكان يعفى منها الروم المقيمون بمصر ، وأبناء الجند الأغريق الذين كان البطالمة قد جلبوهم ، وعدد من القسس فى كل معبد[٤] .

والجزية فى الدولة الإسلامية جزء من التشريع الإسلامى مقررة بالقرآن الكريم وبالسنة النبوية ، وهى بالقـــرآن بنص الآية الكريمة « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »[٥] ، وقد نفذ النبى صلى الله عليه وسلم حكم القرآن ، فصالح أهل تبوك وأيلة وأذرح وجرباء ودومة الجندل فى عام تبوك ٩ هـ وكانوا أهل كتاب ، وكذلك صالح نصارى نجران فى عام ١٠ هـ ، وقبل الجزية من اليهود والنصارى فى البحرين ، كما ألحق بهم المجوس بها فقبل منهم الجزية . وقد صالح خالد بن الوليد أهل الحيرة فى خلافة أبى بكر على الجزية . ثم سار على هذا النهج عمر

---

(١) كريستنسن : إيران فى عهد الساسانيين : ١١٠ — ١١٢ .

(٢) كريستنسن : ٣٥١ .

(٣) Jhonson, Byzantine Egypt, Ecommic studies, P. 263.

(٤) Milne, A History of Egypt under Roman Rule, P. 121—122.

(٥) سورة الأنفال : ٢٩ .

ابن الخطاب . فالجزية إذن مفروضة بالقرآن الكريم على أهل الكتاب ، وبالسنة على المجوس .

وعلى هذا التشريع اعتمد عمر بن الخطاب فيما قرره ، فبعد أن أوقف الأرض وجعلها ملكا عاما لجميع المسلمين وأبقاها في يد حائزيها على أن يؤدوا الخراج عنها ، فرض عليهم كذلك دفع الجزية ، فكان الخراج على الأرض والجزية على الرقاب : وهي تجب على الرجال من أهل الذمة : اليهود والنصارى : ومن جرى مجراهم من المجوس والصابئين والسامرة[١] . ولا تجب على امرأة ولا صبي ولا مجنون ولا عبد لأنهم أتباع وذراري . ولا تؤخذ من المسكين الذي يتصدق عليه ولا من مقعد ولا من أعمى لا حرفة له ، ولا من المترهبين وأهل الصوامع إن لم يكونوا ذوي يسار[٢] .

أما قيمة الجزية فقد كانت غير محددة ، فقد قررها النبي صلى الله عليه وسلم على كل حالم من أهل اليمن بدينار أو قيمته من المعافر (ثياب تصنع باليمن)[٣] . ثم جاء عمر بتقدير آخر لقيمة الجزية ، واختلفت من إقليم لآخر بحسب قدرة النـــاس وظروف الإقليم ، فقد وضع على أهل السواد : ثمانية وأربعين درهما ، وأربعة وعشرين درهما ، بحسب حالة كل واحد من اليسار ، يؤخذ ذلك منهم كل سنة ، وإن جاءوا بعرض قبل منهم مثل الدواب والمتاع وغير ذلك ، ويؤخذ منهم بالقيمة[٤] .

وعلى أهل الشام أربعة دنانير وأرزاق المسلمين من الحنطة مدين وثلاثة أقساط زيت لكل إنسان ، وعلى أهل الورق أربعين درهما وخمسة عشر صاعا لكل إنسان وعلى أهل مصر دينارين على كل حالم إلا أن يكون فقيراً[٥] .

---

(١) أبو يوسف : ١٢٢ . الماوردي : ١٤٣ .

(٢) الماوردي : ١٤٤ . أبو يوسف : ١٢٢ .

(٣) البلاذري : ٧٨ .

(٤) أبو يوسف : ١٢٢ — ١٢٣ . الماوردي : ١٤٤ .

(٥) البلاذري : ٢٢٢ .

مما سبق يتبين أن الجزية كانت تختلف بحسب يسار الناس وبحسب غنى الإقليم كذلك ، وأنها كانت تخضع للاجتهاد بما يكون من طاقة أهل الذمة بلا حمل عليهم ولا إضرار بفىء المسلمين . على أنها كانت ضريبة موقوتة تبقى على الذمى ما بقى على دينه ، فاذا أسلم سقطت عنه واعتبر كالمسلمين سواء .

والجزية فى الإسلام تختلف عنها فى دولة الفرس والروم ، فبينما كانت فى الدولة الإسلامية موقوتة تسقط بالإسلام ، كانت عند الفرس والروم ثابتة . فالباب مفتوح فى الدولة أمام غير المسلمين ليتساووا مع المسلمين الأصليين فى كل الحقوق إذا اعتنقوا الإسلام ، فتسقط عنهم الجزية ويفرض لهم فى العطاء ، ويشتركون بذلك مع سائر الأمة فى حق الملكية الشائعة لرقاب الأرض .

والجزية تجب على أهل الذمة مقابل تعهد المسلمين بالدفاع عنهم والمنعة لهم ، فإن لم يمنعوهم ، فلا جزية عليهم ، ونجد الدليل على ذلك فى الكتب التى عقد بها أمراء الأجناد الصلح مع أهالى البلاد التى فتحوها ، فقد جاء فى الكتاب الذى صالح به خالد أهل الحيرة « عاهدهم على . . . . وعلى المنعة ، فإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم »(١) وجاء فى كتاب الصلح الذى صالح به خالد صلوبا بن نسطونا صاحب « قس الناطف » « . . . فلك الذمة والمنعة ، فإن منعناكم فلنا الجزية ، وإلا فلا حتى نمنعكم »(٢) . وقد التزم المسلمون بما شرطوا عليه من المنعة أو ترك الجزية . فقد روى أبو يوسف أن أهل الذمة لما رأوا وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على عدو المسلمين وعونا للمسلمين على أعدائهم ، فبعث أهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجالا من قبلهم يتجسسون الأخبار عن الروم ، وما يريدون أن يصنعوا ، فلما علموا بما جمع الروم للعرب لوقعة اليرموك ، أخبر رؤساء كل مدينة الأمير الذى خلفه أبو عبيدة عليهم فأخبروه بذلك ،

---

(١) الطبرى : ٣٦٤/٣ .

(٢) نفس المصدر : ٣٦٨/٣ .

فكتب كل وال إلى أبي عبيدة يخبره بذلك . فكتب أبو عبيدة لكل وال ممن خلفه على المدن التي صالح أهلها يأمرهم أن يردوا عليهم ما جبى منهم من الجزية والخراج ، وكتب أن يقولوا لهم : « إنما رددنا عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وأنكم اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وإنا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم إن نصرنا الله عليهم » فلما قالوا ذلك لهم ، وردوا عليهم الأموال التي جبوها منهم ، قالوا : « ردكم الله علينا ونصركم عليهم ، فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئا ، وأخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا لنا شيئا »[١] .

وإذا كانت الجزية في مقابل المنعة ، فإن المسلمين كانوا يعفون منها أهل الذمة ، إذا تعهد هؤلاء بالمشاركة في الدفاع معهم وحمل أعباء القتال ، فقد غزا حبيب بن مسلمة الفهري أهل « الجرجومة » — شمالي سوريا — فطلبوا الصلح ، على أن يكونوا أعوانا للمسلمين ، وعيونا ومسالح في جبل اللكام ، وألا يؤخذوا بالجزية ، وأن ينفلوا أسلاب من يقتلون من عدو للمسلمين إذا حضروا معهم حربا في مغازيهم[٢] .

فالجزية إذن كانت بمثابة ضريبة مالية للمساهمة في واجب الدفاع ، نظير ضريبة الدم التي كان يدفعها المسلم في حومة القتال ، للدفاع عن الدولة كلها[٣] .

عشور التجارة :

وللدولة مورد آخر هو الرسوم التي تؤخذ على أموال وعروض التجارة المارة ببلاد المسلمين . وأول من وضعها عمر بن الخطاب ، فقد كتب إليه أبو موسى الأشعري ، يقول :

---

(١) أبو يوسف . ١٣٩ . البلاذري : ١٤٣ — ١٤٤ .

(٢) البلاذري : ١٦٦ .

(٣) ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية : ١٦٦ .

إن تجاراً من قِـبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر » فـكتب إليه عمر : « خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين ، وخذ من أهل الذمة نصف العشر ، ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما (أى ربع العشر) وليس فيما دون المائتين شيء ، فإذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم ، وما زاد فبحسابه » . وكتب أهل منبج — وهم قوم من أهل الحرب — إلى عمر : دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشّرنا . فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك فأشاروا عليه به . فـكانوا أول من عُشّر من أهل الحرب . وقد أمر عمر من أرسله على العشور ألا يأخذ العشور إلا مرة واحدة فى السنة .

على أن عشور التجارة ليست كلها فيئا ، لأن منها ما يدفعه التجار المسلمون وهو ربع العشر وهذا حكمه حكم الصدقة ، وقد أوضح أبو يوسف ذلك بقوله « فما يؤخذ من المسلمين من العشور فسبيله سبيل الصدقة ، وما يؤخذ من أهل الذمة جميعاً وأهل الحرب فسبيله سبيل الخراج »[١] .

غنائم الحرب :

وقد نظم القرآن أسس توزيع الغنيمة كما وردت به الآية الـكريمة « واعلموا أن ما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » كما بين الفقهاء تفاصيل هذا التوزيع حسب طبيعة الغنيمة ذاتها من أسرى وسبى وأرضين وأموال[٢] . وباستثناء الأرض المفتوحة — التى أوقفت وصارت فيئا — فإن خمس الغنيمة يفصل ويرسل إلى بيت المال[٣] .

الركاز :

والركاز هو المعدن أو المال المدفون وفيه الخمس ويكون بمنزلة الغنيمة[٤] . ويقول

---

(١) أبو يوسف : ١٣٢ ــ ١٣٧ .
(٢) الماوردى : ١٣١ ــ ١٣٨ .
(٣) أبو عبيد : ٣٢٧ .
(٤) أبو عبيد : ٣٣٨ ، ٣٤٠ .

الماوردى « إنه كل مال وجد مدفونا فيكون لواجده وعليه خمسه لقوله صلى الله عليه وسلم « وفى الركاز الخمس »(١) .

هذا هو التنظيم المالى لإيرادات الدولة وتجمعها جميعا كلمة الفىء ، وهو ما يكون ملكا لجميع المسلمين ومصادره هى :

أولا — العقار الثابت وهى الأرض التى أخذت عنوة أو صلحا أو عفوا ، أو فارقها أهلها بالقتل أو الأسر أو الإخلاء ثم أوقفت ، وتعرف بالأرض الخارجية « أجرة » .

ثانيا — المال المنقول ويأتى من مصادر متعددة :

— الضريبة العقارية المعروفة بالخراج وهو إما خراج « أجرة » أو خراج « جزية » حسب نوع ملكية الأرض .

— الجزية على أهل الذمة ومن فى حكمهم نظير بقائهم فى أرض الإسلام .

— عشور التجارة من غير التجار المسلمين .

— خمس غنائم الحرب والركاز .

— أموال أخرى مثل مال الصلح ومال الهدنة .

وتعتبر أرض الفىء والضريبة العقارية هى المورد المالى الثابت للدولة ، أما ما عداها من الأموال فهى موارد غير دائمة ، الأمر الذى يعطى أهمية كبرى للأرض على اعتبارها المصدر الرئيسى لبيت المال . وهذه الأموال كلها تحددت مصادرها منذ أيام الرسول وفى عهد عمر بن الخطاب خاصة وتصل بيت مال المسلمين(٢) .

* * *

(١) الماوردى : ١٢٠ . البخارى : ٢/١٢٩ — ١٣٠ .

(٢) أنظر عن التنظيم المالى : ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية : ١٠٥ — ١٦٠ . محمد أمين صالح : ٨٥ — ٨٦ .

وإذا كانت الدولة الإسلامية قد وضعت هذا النظام المالى الذى نظم دخل الدولة ، فإنه كان طبيعياً أن تضع نظاماً للتصرف فى هذا الدخل العام . ولقد كانت الأموال فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم غير كثيرة لا تكاد تفيض عن حاجات الدولة والأفراد ، وكانت السياسة التى اتبعها النبى أنه لا يؤخر الأموال أو إنفاقها لوجهها أكثر من ثلاثة أيام بل الأغلب أن يقسم المال ليومه ، ومن أجل هذا لم يكن هناك مال مدخر فلم يكن لذلك « بيت مال » فى عهد النبى ، ولم يكن هناك سجل يجمع أسماء المسلمين الذين تطرد زيادتهم يوماً بعد يوم . وجرى الأمر على ذلك فى مدة خلافة أبى بكر ، فكان إذا ورد المدينة مال من بعض البلاد ، أحضر إلى مسجد الرسول وفُرق بين مستحقيه ، وناب عنه فى تفريق المال فى العام الأول من خلافته أبو عبيدة بن الجراح ، إذ قال له حين تولى « أنا أكفيك المال »[1] ، ولكنه مالبث أن أنشأ نواة لبيت المال فى داره وكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين ، حتى إنه حين توفى لم يجد عمر فى بيت المال حين فتحه شيئاً إلا ديناراً سقط من غرارة[2] . وعلى العموم ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم وأبا بكر لم يفرضا عطاء مقرراً للمسلمين[3] .

لكن أحوال الدولة قد تغيرت بعد اتساع الفتوح ، واستيلاء المسلمين على الشام والعراق ، فكثرت الأموال ، كما كثر عدد الجند وأصبح من العسير ضبطهم ، لمعرفة أعدادهم وتوجيههم . ولما كانت الدولة قد تحولت فى الواقع إلى امبراطورية كان لا بد من إيجاد نظام تدار به ، ومن وضع قواعد ثابتة للاستقرار[4] . من أجل ذلك أنشأ عمر الديوان ، ويحدد ابن خلدون عمل الديوان بأنه « القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة فى الدخل والخرج ، وإحصاء العساكر بأسمائهم ، وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم فى إباناتها ، والرجوع فى ذلك إلى القوانين التى يرتبها قَوَمَة تلك الأعمال وقهارمة الدولة .

---

(١) الطبرى : ٣/٤٢٦ . ابن الأثير : ٢/٢٨٩ .

(٢) ابن الأثير : ٢/٢٩٠ .

(٣) ضياء الدين الريس : ١٣٩ .

(٤) نفس المرجع : ١٣٩ — ١٤٠ .

وهى كلها مسطورة فى كتاب شاهد بتفاصيل ذلك فى الدخل والخرج ، مبنى على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال . ويسمى ذلك الكتاب بالديوان »[١] . « وهذه الوظيفة إنما تحدث فى الدول عند تمكن الغلب والاستيلاء ، والنظر فى أعطاف الملك وفنون التمهيد . وأول من وضع الديوان فى الدولة الإسلامية عمر رضى الله عنه »[٢] .

وتذكر بعض الروايات[٣] أن السبب المباشر هو أن أبا هريرة قدم على عمر من البحرين بمال كثير ، وتحير عمر فى قسمته فأشار عليه أحد الحاضرين بعمل الديوان . بينما تذكر روايات أخرى[٤] أن « الهرمزان » رأى عمر يبعث البعوث بغير ديوان ، فقال له : ومن يعلم بغيبة من يغيب منهم ، فإن من تخلف أخل بمكانه ، وإنما يضبط ذلك الكتاب ، فاثبت لهم ديواناً . وسأله عمر عن الديوان حتى فسره لهم . وروى محمد بن سعد الواقدى « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استشار المسلمين فى تدوين الديوان ، فقال له على بن أبى طالب : تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ، ولا تمسك منه شيئاً . وقال عثمان : أرى مالا كثيراً يسع الناس وإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ ، حسبت أن ينتشر الأمر . فقال الوليد بن هشام بن المغيرة : قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً ، وجندوا جنداً . فأخذ بقوله »[٥] .

---

(١) المقدمة : ٢٧٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) البلاذرى . ٤٥٨ . ابن خلدون . المقدمة : ٢٧١ . أبو يوسف . ٤٥ . الماوردى : ١٩٩

(٤) ابن خلدون : المقدمة : ٢٧١ . الماوردى : ١٩٩ .

(٥) البلاذرى : ٤٥٤ . الطبرى : ٤/٢٠٩ . تستقيم هذه الرواية لو استبدلت منها عبارة « استشار المسلمين فى تدوين الديوان » بعبارة « استشار المسلمين فى توزيع المال » فإن هذا يستقيم مع منطق الرواية ومع الظروف .

ويختلف المؤرخون فى السنة التى قام فيها بتدوين الديوان ، فيراه بعضهم تم فى السنة الخامسة عشرة(١) ، ويراه الآخرون تم فى السنة العشرين(٢) . ونأخذ بالرأى الثانى لأن عمر لم يفعل ذلك إلا بعد أن افتتح العراق والشام وجبى الخراج(٣) ، ولم يكن ذلك فى السنة الخامسة عشرة ، فإن موقعة القادسية التى تحدد بها مصير العراق كانت فى أواخر هذه السنة فى رأى الطبرى(٤) ، وفى أواخر سنة ١٦ هـ فى رأى البلاذرى(٥) ، وكانت الفتوح لا تزال سائرة ، ولم يتم فتح الشام بعد . والطبرى(٦) وهو يذكر تدوين الدواوين وفرض العطاء فى السنة الخامسة عشرة ، يذكر فى روايات عن سيف والشعبى ومحمد بن سيرين وسعيد بن المسيب وغيرهم أن عمر فرض العطاء حين فرض لأهل الفىء الذين أفاء الله عليهم ، وهم أهل المدائن ، فصاروا بعد إلى الكوفة ، انتقلوا عن المدائن إلى الكوفة والبصرة ودمشق وحمص والأردن وفلسطين ومصر . ويتفق ما نأخذ به مع السبب الذى قال به ابن خلدون(٧) فى حدوث وظيفة الديوان من أنها « تحدث فى الدول عند تمكن الغلب والاستيلاء ، والنظر فى أعطاف الملك وفنون التمهيد » .

الديوان — فرض العطاء :

حين استقر عمر على وضع الديوان وفرض العطاء ، أقامهما على قاعدتين : أقام الديوان على قاعدة النسب ، وأقام العطاء على السابقة فى الإسلام وحسن الأثر

---

(١) الطبرى : ٣/٦١٣ .
(٢) البلاذرى : ٤٥٥ ، ٤٦٢ . ابن خلدون : المقدمة : ٢٧١ .
(٣) انظر البلاذرى : ٤٥٣ .
(٤) الطبرى : ٣/٥٧٢ .
(٥) البلاذرى : ٢٦٥ .
(٦) الطبرى : ٣/٦١٥ .
(٧) المقدمة : ٢٧٠ . وانظر : ضياء الدين الريس : ١٣٨ — ١٤٢ .

فى الدين وحضور المشاهد ، ثم التقدم فى الشجاعة والبلاء فى الجهاد[١] وقد روى أبو يوسف خطبة لعمر لخص فيها رأيه فى العطاء فقال « والله الذى لا إله إلا هو ، ما أحد إلا وله فى هذا المال حق أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله عز وجل ، وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فالرجل وتلاده فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته فى الإسلام »[٢] وراعى فى القاعدتين القرابة من رسول الله .

جعل عمر ترتيب أسماء العرب فى الديوان على أساس النسب ، ولكنه لم ينس الفضل والسابقة فى الإسلام ، فأما من ناحية النسب ، فقد جعل الأساس فيه القرب من رسول الله : فالعرب يتكونون من شعبين : عدنان وقحطان ، فتقدم عدنان على قحطان لأن النبوة فيهم . وعدنان يجمع ربيعة ومضر . فتقدم مضر لأن النبوة فيهم . ومضر يجمع قريشا وغير قريش فتقدم قريش لأن النبوة فيهم ، وقريش يجمع بنى هاشم وغيرهم ، فتقدم بنو هاشم لأن النبوة فيهم ، فيكون بنو هاشم قطب الترتيب ثم يصير ترتيب القبائل على هذا الأساس حتى تتميز كل قبيلة عن غيرها ، فلا يجمع بين المختلفين ولا يفرق بين المتفقين ، لتكون دعوة الديوان على نسق واحد معروف بالنسب يزول به التنازع والتجاذب[٣] .

وأما من ناحية الفضل والسابقة فى الإسلام ، فإنه جعل الأنصار — وهم من قحطان — بعد قريش فى الترتيب لسابقتهم وفضلهم[٤] . ثم عند إثبات القبائل فإنه رتب الواحد بعد الواحد بالسابقة فى الإسلام ، فإن تكافؤوا فى السابقة ترتبوا بالدين ، فإن تقاربوا فيه ترتبوا

---

(١) الماوردى : ٢٠٢

(٢) أبو يوسف : ٤٦ .

(٣) الماوردى : ٢٠٤ .

(٤) البلاذرى : ٤٥٥ . الماوردى : ٢٠٠ .

بالسن ، فإن تقاربوا ترتبوا بالشجاعة ، فإن تقاربوا فيها فولى الأمر بالخيار(١) ، أما الموالى ممن أعتقوا وأسلموا فأمر عمر بإلحاقهم بمواليهم ، لهم مالهم وعليهم ما عليهم(٢) .

وأما العطاء ، فإن عمر فاضل بينهم فيه على أساس القربى من رسول الله وعلى قدر السابقة فى الإسلام ، وحضور المشاهد ، وخالف بذلك ما كان يأخذ به أبو بكر ، فإن أبا بكر كان يسوى بين الناس فى العطاء ، ويرد على معترضيه فى التسوية بأن هذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة(٣) .

وفقا لهذه القاعدة ، بدأ بالعباس ففرض له سبعة آلاف(٤) ، وفرض لأزواج النبى لكل منهن عشرة آلاف ، إلا عائشة فإنه زادها ألفين لمحبة رسول الله لها . ثم ألحق الحسن والحسين بأبيهما ففرض لكل منهما خمسة آلاف على فريضة أهل بدر ، لقربهما من رسول الله ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف لمحبة رسول الله ، وفرض لعمر بن سلمة مثله لمكانه من النبى لأنه ابن أم سلمة زوج النبى ، ففضلهما على أبناء المهاجرين .

ثم فرض للناس على أساس حضور المشاهد : ففرض لأهل بدر خمسة آلاف لكل واحد ، والحق بهم أباذر وسلمان . ثم لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف . ثم لمن بعد الحديبية إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ، فى ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبى بكر ، ومن ولى الأيام قبل القادسية كل هؤلاء ثلاثة آلاف . ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين ، وفرض لأهل البلاء منهم ألفين وخمسمائة . وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفا ، ثم فرض للروادف خمسمائة إلى ثلاثمائة ولم ينقص أحداً عن الثلاثمائة . وفرض لأبناء البدريين ألفين ألفين ، ولغلمان أحداث من أبناء المهاجرين ألفين ألفين . وكذلك فرض للنساء ، ففرض لنساء مهاجرات : لصفية بنت

---

(١) الماوردى : ٢٠٥ .

(٢) البلاذرى : ٤٦٣ .

(٣) البلاذرى : ٤٥٥ . أبو يوسف : ٤٢ . الماوردى : ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

(٤) الماوردى : ٢٠١ البلاذرى : ٤٥٥ وفى روايات أخرى أنه فرض له خمسة وعشرين ألفا ، وقيل اثنى عشر ألفاً (الطبرى : ٣/٦١٤) وعند أبى يوسف اثنى عشر ألفاً (ص ٤٣) وقال البلاذرى إنه لم يفضل أحدا على أهل بدر إلا أزواج النبى (ص ٤٥٦) .

عبد المطلب ستة آلاف ، ولكل من أسماء بنت عميس ، وأم كلثوم بنت عقبة ولأم عبد الله ابن مسعود ألف درهم . وقال الواقدى إنه فرض للنساء المهاجرات ثلاثة آلاف درهم لكل واحدة . ثم جعل نساء أهل بدر فى خمسمائة ، ونساء من بعدهم إلى الحديبية على أربعمائة ، ونساء من بعد ذلك إلى الأيام على ثلاثمائة ، ونساء أهل القادسية مائتين ، ثم سوى بين النساء بعد ذلك(١) ، وجعل الصبيان سواء على مائة ، وكان يفرض للصبى بعد الفطام ، ففرض للوليد بعد مولده ، فإذا ترعرع بلغ به مائتين ، كما فرض للقيط مائة وجعل له رزقة يأخذه وليه كل شهر بقدر ما يصلحه ، وجعل رضاعهم ونفقتهم على بيت المال(٢) .

ولم يهمل عمر من أسلم من الموالى ، بل وضعهم فى الديوان وفرض لهم فى العطاء ، ففرض للهرمزان ألفى درهم ، وفرض لدهقان نهر الملك ، ولابن النخيرخان ، ولخالد وجميل ابنى بصبهرى دهقان الفلاليج ، ولبسطام بن نرسى دهقان بابل وخطرنية ، وللرفيل دهقان العال ، ولجفينة العبادى لكل منهم ألفاً . وكتب إلى أمراء الأجناد « ومن أعتقتم من الحمراء فأسلموا ، فألحقوهم بمواليهم لهم مالهم وعليهم ماعليهم ، وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوتهم فى العطاء »(٣) .

ولم يكتف عمر بهذا العطاء النقدى للمسلمين من أموال الفىء بل فرض أرزاقاً شهرية ، فقدر أن الفرد يكفيه جريبان فى كل شهر ، ففرض هذا القدر للرجل والمرأة والمملوك رزقاً شهرياً(٤) .

---

(١) لم تحدد المصادر كم فرض لسائر النساء ، وهو طبعا أقل من المائتين .

(٢) الطبرى : ٣/٦١٥ . البلاذرى : ٤٥٥ — ٤٥٧ . الماوردى : ٢٠١ — ٢٠٢ . أبو يوسف : ٤٢ — ٤٦ . على خلاف فى المصادر على المقدار والزيادة والنقص واعتمدنا على الطبرى والبلاذرى فيما ذكرنا .

(٣) البلاذرى : ٤٦٣ . أبو عبيد : ٢٤٣ .

(٤) الماوردى : ٢٠٢ . تستكثر هذه الكمية على الفرد شهريا لأن الجريب = ٤ أقفزة = ٨ كيلات (انظر الريس : ٣٣٩) وربما يكون هذا الفرض سنويا .

وإلى جانب هذا الفرض العام كان عمر يفرض لأمراء الجيوش والقرى فى العطاء ما بين تسعة آلاف وثمانية آلاف وسبعة آلاف ، على قدر ما يصلحهم من الطعام وما يقومون به من الأمور(١) .

وهكذا أوجد عمر ديوان الجند وحصر أسماء أصحاب الفىء من أهل الحاضرة ومن لحق بهم وأعانهم ، وأقام معهم ، ولم يفرض لغيرهم ، فقدر رواتبهم وأعطياتهم ، فهم المدافعون عن الدولة السادون لفروجها(٢) .

ولعل عمر لم يفرض لأهل البادية فى الجزيرة العربية لأنه كان يصعب حصرهم من ناحية ، ولأنه كان يرى أن المال لا يفضل عن حاجة أهل الدفاع وجند الأمصار فى أول الأمر من ناحية أخرى ، وخير شاهد على ذلك ما رواه أبو يوسف(٣) من أن أبا موسى الأشعرى حمل إلى عمر ألف ألف ، فلما سأله عمر عن مقدار ما حمل أعظم ذلك ، حتى إذا ما تأكد قال : « إن كنت صادقا ليأتين الراعى نصيبه من هذا المال وهو باليمن ودمه فى وجهه » . وذكر فى خطبة له بعد ذلك ، فقال : « والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال ، وهو مكانه ، قبل أن يحمر وجهه (يعنى فى طلبه) »(٤) . على أن أهل البادية كان لهم حظ من مال الفىء يفرضه القرآن والسنة فى أحوال ثلاثة : الجائحة ، والفتق ، وغلبة العدو(٥) . ثم هم يجرى على فقرائهم فى الصدقات ما يجرى على فقراء المسلمين ، فتؤخذ منهم صدقاتهم على وجهها ، ولا يؤخذ منهم درهم ولا دينار ، وإنما يرد على فقرائهم ومساكينهم .

هذا ما أقره عمر فى ديوان الجيش وفرض العطاء . أما ديوان استيفاء الخراج ووجوه

(١) أبو يوسف : ٤٦ .
(٢) الطبرى : ٣/٦١٥ .
(٣) أبو يوسف : ٤٦ . الطبرى : ٤/٢١١ .
(٤) أبو عبيد : ٢٢٨ — ٢٣١ . الطبرى : ٤/٢١٢ .
(٥) الطبرى : ٤/٢٢٢ .

الأموال ، فقد بقى بعد الإسلام على ما كان عليه من قبل : ديوان العراق بالفارسية ، وديوان الشام بالرومية وديوان مصر باليونانية أو القبطية ، وكتاب الدواوين من أهل العهد من الفريقين . وظل الأمر على ذلك إلى عهد عبد الملك بن مروان الذى عرب الدواوين[١] .

الصوافى أو القطائع :

آلت إلى الدولة بالفتوح أراض فى العراق والشام وغيرها بقيت بدون مالك ، إما لأن أهلها قد جلوا عنها ، أو أنها كانت تابعة للملوك السابقين أو للدولة . وقد قرر عمر ضم هذه الأراضى إلى بيت المال وسميت « الصوافى » لأنه استصفاها ، أى جعلها خالصة لبيت المال . وسميت كذلك « القطائع » لأنها أقطعت بعد ذلك لمن يتعهدونها ويدفعون عنها أجرة لبيت المال[٢] . فقد استصفى عمر فى العراق أرض من قتل فى الحرب ، وأرض من هرب ، وكل أرض كسرى وأهل بيته ، وكل مغيض ماء ، وكل الآجام ، وكل دير يزيد ، وكل صافية اصطفاها كسرى . وقد استثمر عمر هذه الأرض مباشرة ولم يُقطعها ، فكانت غلتها سبعة آلاف ألف درهم فى قول[٣] ، وتسعة آلاف ألف فى قول آخر[٤] . فلما ولى الخلافة عثمان أقطعها لأنه رأى إقطاعها أوفر لغلتها ، واشترط على من أقطعها إياه أن يأخذ منه حق الفىء ، فكان ذلك منه إقطاع إجارة لا إقطاع تمليك ، فبلغت غلتها على ما قيل خمسين ألف ألف درهم[٥] ، فكان عثمان أول من أقطع العراق:

---

(١) ابن خلدون : المقدمة : ٢٧١ . الماوردى : ٢٠٢ .

(٢) أنظر الماوردى : ١٩٢ — ١٩٣ . أبو يوسف : ٥٧ — ٥٨ . البلاذرى : ٢٨١ — ٢٨٢ . الريس : ١٤٦ — ١٤٨ .

(٣) أبو يوسف : ٥٧ . البلاذرى : ٢٨٢ .

(٤) الماوردى : ١٩٣ .

(٥) الماوردى : ١٩٣ .

أقطع عبد الله بن مسعود أرضا بالنهرين ، وأقطع عمار بن ياسر « أسبينا » ، وأقطع خباب ابن الأرت « صعنبا »[١] ، وأقطع سعداً بن أبى وقاص « قرية هرمز » ، وأقطع طلحة ابن عبيد الله « النشاشتج »[٢] وأقطع آخرين غيرهم[٣] وقد بقيت هذه الأراضى مسجلة فى ديوان العراق ، حتى أحرقت الدواوين فى عهد الحجاج أثناء وقعة « الجماجم » بينه وبين ابن الأشعث ، فذهب الأصل ودرس ولم يعرف ، وأخذ كل قوم مايليهم[٤] .

وكانت حصيلة هذه الصوافى فى عهد عمر تصرف فى مصالح المسلمين ، فلما جاء عثمان جعل منها صلاته وعطاياه[٥] . وقد كان لهذا ولما نال أصحاب الإقطاعات من غنى أثره فى تطور الأحداث فى آخر عهد عثمان .

* * *

كان لهذا التنظيم الذى وضعه عمر أثر كبير فى حياة الدولة الإسلامية ، وفى تطور الأحداث بعد عهد عمر ، سواء بين أهل البـــلاد المفتوحة أو بين العرب الذين أقاموا فى الأمصار الإسلامية وكانوا جند الدولة وحماتها ، أو بين المقيمين فى دار الخلافة نفسها فى مدينة يثرب .

فأما بالنسبة لأهل البلاد المفتوحة ، فإن قيام الدولة الإسلامية قد وحد بين أقاليم متضاربة ، كان بعضها تحت حكم الفرس وبعضها تحت حكم الروم ، وكان الصراع شديداً بين الدولة الفارسية والدولة الرومية ، والحرب تـكاد تـكون مستمرة بينهما ، وكانت الشام ومصر والجزيرة وبعض أقاليم العراق مسرحا للعمليات الحربية بين الدولتين ومجالا

---

(١) قرية بالسواد يقال لها « صعنبى » ياقوت : ٤٠٨/١٢ .
(٢) ضيعة أو نهر بالكوفة ، وكانت عظيمة كثيرة الدخل . ياقوت : ١٩/٢٨٥ ـ ٢٨٦ .
(٣) البلاذرى : ٢٨٢ .
(٤) البلاذرى : ٢٨٢ .
(٥) الماوردى : ١٩٣ .

لحركات الجيوش فى تقدمها وتراجعها ، وكانت السمة العامة للحرب هى التخريب والتدمير والنهب ، فلما قامت الدولة الإسلامية واصطدمت بالدولتين ، قضت على إحداهما وهى دولة الفرس وطردت الأخرى من المنطقة ، وبذلك وضعت حداً لهذه الحروب ، وتوحدت هذه الأقاليم تحت الحكم الإسلامى وسادها السلام فى ظل حكم موحد خاضع للقانون ، وأتيح بذلك للشعوب فى هذه الأقاليم أن تنصرف إلى القيام بالأعمال التى تكفل لها المعيشة والرخاء فى طمأنينة ، كما أتيحت لها فرصة الاندماج فى وحدة حضارية بلغت حداً عظيما من الرقى ، وكان لها أعظم الأثر فى تقدم البشرية ورقيها . وإذا كانت سوف تحدث حروب فإنها كانت إما حروبا بعيدة على الحدود ، وإما حروبا محصورة محلية لا تشترك فيها إلا جماعات سياسية معينة ، ولم يكن يقصد منها إلى التخريب والتدمير كما كانت الحال فى الحروب بين الفرس والروم . وكان الرعايا من شعوب المنطقة الذين تمسكوا بعقائدهم معفون من الاشتراك فى تلك الحروب وبعيدين عنها إلا إذا شاءوا هم أن يسهموا فيها .

وإلى هذه الميزة التى حصلت عليها شعوب هذه الأقاليم ، تمتعت بميزة أخرى ، وهى الحرية الدينية التى أقرها الإسلام ورعاها ، وبذلك تخلصت من الاضطهاد الدينى الذى كانت تشقى به سواء فى ظل دولة الروم أو فى ظل دولة الفرس .

هذا إلى أن النظام المالى الذى وضعه الإسلام ونظمه عمر قد رفع عن كاهلها كثيراً من الأعباء المادية ، وإذا كانت الجزية والخراج — وهما الضريبتان اللتان قررهما النظام الإسلامى — استمراراً لما كان موجوداً عند الفرس والروم ، فإنهما أصبحتا تختلفان عما كانتا عليه ، إذ أنهما صارتا محددتين خاضعتين لنظام مقرر ، وكان تحديدهما قائما على مبدأ طاقة دافع الضرائب ، لا على حاجات الامبراطورية ومتطلبات حروبها وظروفها ، أو على رغبة القيصر أو الشاهنشاه التى كانت مقدسة لا تناقش .

فضلا أن النظام الإسلامى قد ألغى كثيراً من الضرائب التى كان يتحملها أهل البلاد كضرائب المنازل وأراضى المدن ، والضرائب المقررة على المهن والتجارة ، وعلى

الماشية ، وما كان يفرض على الأرض لإصلاح القنوات ، والرسوم المقررة على النقل الداخلى ، ثم ما كانت تحصله الكنائس من غلال وأموال فى بلاد الدولة الرومية أو ما يطلبه رجال الدين المجوسى فى بلاد الفرس من تبرعات وضرائب ، وما كان يفرض على الناس فى أوقات الحرب . وبالجملة فقد بسط النظام الإسلامى نظام الضرائب وخفف كثيراً من الأعباء .

على أن إحدى الضريبتين وهى ضريبة الجزية كانت فى مقابل الحماية والذمة والإعفاء من الخدمة العسكرية ، ثم إنها كانت موقوفة على تمسك الكتابى بدينه ، وكان الباب مفتوحا أمامه للتخلص منها إذا دخل فى الإسلام ، وعندئذ يستمتع بما للمسلمين فيلحق بالديون ويفرض له فى العطاء ، ومع طول المدى ذهبت ضريبة الجزية ولم تصبح تمثل فى دخل بيت المال إلا مورداً ضئيلا ، نتيجة لإقبال الشعوب على الإسلام .

وكذلك قضى النظام الإسلامى على مبدأ التمايز بين الطبقات ، وقرر مبدأ المساواة فى تحمل الأعباء ، فألغى الامتيازات التى كانت تتمتع بها طوائف خاصة تعفى من ضريبة الرأس (الجزية) أو غيرها ، وصارت الجزية ضريبة عينية على كل فرد ، كما صارت ضريبة الخراج على كل وحدة مساحية ، وعلى كل فرد حائز للأرض سواء كان رجلا أو امرأة أو صبيا أو عبداً . فالأرض لم تصبح كما كانت بمثابة ملك خاص للملك ، أو ملكا لبعض الأفراد ، وإنما صارت ملكا عاما للأمة ، ولكل الحق فى حيازتها ودفع خراجها ، وبذلك تحقق مبدأ المساواة بين الأفراد فى الانتفاع بزراعة الأرض واستغلالها ، ولم تعد الضرائب تجبى من أجل تحقيق رغبات الحكام وحواشيهم من الطبقات الممتازة وإنما تجبى من أجل تحقيق المصالح العامة ، وحين كان يدخل الذميون فى الإسلام كانوا يشتركون مع الأمة فى حق الملكية العامة الشائعة لرقاب الأرض وينالون نصيبهم من العطاء [١] .

(١) أنظر : ضياء الدين الريس : ١٦١ — ١٧١ .

وكانت سيرة الخلفاء الراشدين فى أهل البلاد المفتوحة سيرة رأفة ورعاية وعدل ، ووفاء بالعهود وحث عليها ، فمنذ مسح أرض السواد وتقرير الخراج عليها ، أرسل عمر عثمان بن حنيف و حذيفة بن اليمان للقيام بهذا العمل ، فلما رجعا إليه ، قال لهما « لعلكما حملتما الأرض مالا تطيق » ، فقال عثمان « حملت الأرض أمراً هى له مطيقة ، ولو شئت لأضعفت » وقال حذيفة « وضعت عليها أمراً هى له محتملة وما فيها كثير فضل(١) » ، وفى الجزية كان الأصل فى التقدير طاقة الناس وقدرتهم ، على أن تجمع منهم برفق ، فلا يضربون على أدائها ، ولا يقامون فى الشمس ولا غيرها ولا يجعل عليهم فى أبدانهم شيء من المكاره ، فقد مر عمر بطريق الشام وهو راجع منه على قوم قد أقيموا فى الشمس يصب على رؤوسهم الزيت ، فقال ما بال هؤلاء ؟ فقالوا عليهم الجزية لم يؤدوها ، فهم يعذبون حتى يؤدوها ، فلما سأل عن ما يعتذرون به ، علم أنهم يقولون : لا نجد ، قال : فدعوهم ، لا تكلفوهم مالا يطيقون ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لا تعذبوا الناس ، فإن الذين يعذبون الناس يعذبهم الله يوم القيامة » وأمر بهم فخلى سبيلهم(٢) . وكانت وصيته حين طعن للخليفة من بعده « أوصى الخليفة من بعدى بأهل الذمة خيراً ، أن يوفى لهم بعهدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، وأن لا يكلفوا فوق طاقاتهم »(٣) .

وعلى نهج عمر سار عثمان فى أهل الذمة ، وكان أول كتبه إلى عماله « أما بعد فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ، ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء »(٤) ، وكان أول كتاب له لعماله

---

(١) أبو يوسف : ٤٨ .

(٢) أبو عبيد : ١٢٥ .

(٣) نفس المصدر : وانظر الطبرى : ٤/١٩٢ .

(٤) الطبرى : ٤/٢٤٤ — ٢٤٥ .

الخراج « أما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذو الحق وأعطوا الحق به ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها ، فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصم لمن ظلمهم »[١] .

وأوصى على بن أبى طالب عامله على « عكبراء »[٢] فقال « انظر إذا قدمت عليهم فلا تبيع لهم كسوة شتاء ولا صيفا ، ولا رزقا يأكلونه ، ولادابة يعملون عليها ، ولاتضربن أحداً منهم سوطا واحداً فى درهم ، ولا تقمه على رجله فى طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم عرضا فى شيء من الخراج ، فإنا إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو ، فإن أنت خالفت ما أمرتك به يأخذك الله به دونى ، وإن بلغنى عنك خلاف ذلك عزلتك » فقال له العامل: إذن أرجع إليك كما خرجت من عندك ، قال على « وإن رجعت كما خرجت »[٣] .

هذه هى السياسة التى اتبعها الخلفاء الراشدون مع أهل الذمة ، وكانت هى روح العصر كله .

أما بالنسبة للعرب ، فإن أثرها كان مغايراً ، فقد ساعد نظام العطاء بطريق غير مباشر على ظهور روح العصبية بينهم ، تلك العصبية القبلية التى سعى الإسلام إلى إضعافها ثم محوها حين أحل رابطة العقيدة محل رابطة الدم ، ثم كان تجميع الجيوش وإرسالها إلى ميادين القتال خطوة نحو إدماج القبائل العربية فى كل واحد وجمعها على هدف واحد ، ثم كان تمصير الأمصار وتوزيع الخطط فيها بين القبائل خطوة أخرى وإن لم تكن كاملة ، فقد أنزلت القبائل المتصلة بنسب واحد أو المتقاربة فى النسب فى خطة واحدة ، فتحولت بذلك إلى كتل أكبر من كتلة القبيلة ، ثم كان يجمع بين الجميع الجوار والمخالطة واجتماع المسجد ، وكان من الممكن أن يؤدى إثبات الناس فى الديون إلى تقريب

---

(١) الطبرى : ٤/٤٤٤ — ٢٤٥ .

(٢) إسم بليدة من دجيل ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ (ياقوت : ١٤٢/١٤) .

(٣) أبو يوسف : ١٦ .

أكثر لو سجل الناس بحسب أمصارهم أو أماكنهم ، ولكن عمر أقام التسجيل على أساس النسب مفاضلا بين القبائل بحسب القرب من رسول الله ، فكانت قريش بذلك قاعدة التدوين ، ثم جاء فرض العطاء على أساس القربى من رسول الله وحضور المشاهد . فنالت بذلك قريش نصيبا أوفى ، إذ كانت الطبقة الأولى هم أهل بدر ، ومنهم المهاجرون من قريش ، وألحق بعض أبناء المهاجرين بأهل بدر ، ثم كانت الطبقة الثانية لمن هاجر قبل الفتح ، ثم كانت الثالثة لمن أسلم بعد الفتح ، ثم جاء الناس بعد ذلك على منازلهم .

ولما كانت القبائل ترى أنها هي التي قامت بالفتوح في العراق والشام ومصر ، وأن الفيء إنما أفاءه الله عليهم بسيوفهم ، فقد ظهرت المعارضة على وقف الأرض وجعلها فيئا ، فكيف يقسم الفيء على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ؟ وكان طبيعيا ألا ترضى القبائل وقد أصبح لغيرها مع هذا التقسيم النصيب الأوفى . وإذا كان تبرم القبائل لم يظهر في عهد عمر ، لأن المدة التي عاشها عمر بعد تدوين الديوان كانت قليلة لا تزيد على سنوات ثلاث ، لأن الديوان وضع في سنة ٢٠ هـ وتوفي عمر في آخر سنة ٢٣ هـ[١] ، ولأن الفتوح كانت لا تزال سائرة ، والغنائم تتوالى على الجيش مما يعوض عن قلة العطاء ، ولأن عمر كان مثالا للعدل والنزاهة في سيرته العامة والخاصة ، ولأنه كبح جماح قريش واحتجز زعماء المهاجرين في المدينة ، وكان يسوى بين قريش وغيرها في تولي الولايات ، ولم يختص أحداً من عشيرته بشيء منها[٢] ، كما كان شديداً على عماله يحاسبهم محاسبة عسيرة ويقتص منهم[٣] . إذا كان التبرم لم يظهر في عصره لهذه الأسباب ، فإن نذره قد بدت من أول لحظة ، وبدت من رجال قريش نفسها بل من أقرب الناس إلى عمر ، فقد فرض لعمر ابن سلمة أربعة آلاف ، فقال محمد بن عبد الله بن جحش « لم تفضل عمر علينا ، فقد هاجر آباؤنا وشهدوا بدراً ؟ » وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف فقال عبد الله بن عمر « فرضت

---

(١) الطبري : ٤/١٩٣ .

(٢) أنظر أسماء ولاة عمر في الطبري : ٤/٢٤١ .

(٣) نفس المصدر : ٤/٢٠٤ .

لى فى ثلاثة آلاف ، وفرضت لأسامة فى أربعة آلاف ، وقد شهدت مالم يشهد أسامة »(١) وإذا كان هذا الاعتراض يصدر من أقرب المقربين للخليفة وهو أجدر من يتقبل النظام الموضوع ، فكيف بالآخرين ؟ !

وقد أحس عمر بوادر هذا التذمر ، ولكنه لم يكن يستطيع إنقاص من فرض لهم ، وإنما كان فى مكنته أن يرفع من عطاء الآخرين ، ولذلك كان يقول « لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم ، ألفا لفرسه وألفا لسلاحه وألفا لسفره ، وألفا لخلفها فى أهله »(٢) وكثرت الأموال كثرة عظيمة باطراد حركة الفتح ، فعزم عمر فى آخر حياته على العمل بمبدأ التسوية فقال « لئن عشت إلى العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم حتى يكونوا بيانا واحداً »(٣) . ولكن عمر قتل قبل أن يفعل ، وبقى الأمر بعده على ما كان عليه .

ومن هنا يتبين أن المبدأ الذى سار عليه أبو بكر وهو تسوية الناس فى العطاء « لأنه معاش والأسوة فيه خير من الأثرة » كان أدعى إلى الرضا مما ارتآه عمر بتفضيل قريش وأهل السابقة عن غيرهم من القبائل العربية حسب ما كان فى ترتيب الديوان .

لكن شخصية الخليفة عمر وحزمه ونزاهته كان الأمان من هذا السخط فلما كان عهد عثمان تغيرت الأحوال ، وانطلقت قريش إلى الأمصار ، واستأثرت عشيرة عثمان بالمناصب العليا فى الولايات ، وبسط الخليفة يده لأهله وللسابقين فى الإسلام بالعطايا ، وكانت الفتوح قد انتهت وأتاح ذلك للنفوس أن تفكر وتقيس ، وبخاصة بعد أن قلت موارد الجيش من الغنائم ، فبدت الفروق ، ورأت القبائل أن قريشا

---

(١) البلاذرى : ٤٥٦ .
(٢) الماوردى : ٢٠٢ .
(٣) أبو عبيد : ٢٦٤ .

استأثرت بالأموال والزعامة فوق استئثارها بالخلافة ، ولم ترض أن تسمع من سعيد بن العاص والى عثمان على الكوفة قولا صريحا كانت تحس به وتتذمر منه وهو « إنما السواد بستان لقريش » وكان رد من سمع هذا القول صريحا ينبىء عن التذمر من تفضيل قريش « أتزعم أن السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ! ! والله ما يزيد أوفا كم فيه نصيبا إلا أن يكون كأحدنا »(١) ، فالقبائل إذن تتهم قريشا بالأثرة والظلم وتطالب بالمساماة بين جميع القبائل .

ولم يكن لعثمان من الشخصية والحزم ما كان لعمر ، فقامت الفتنة وانتشرت الثورة التى أدت إلى قتله وإلى تفرق وحدة الجماعة الإسلامية .

---

(١) الطبرى : ٤/٣٢٣ .

الفصل الخامس

الثورة على نفوذ قريش (الفتنة الكبرى)

كانت الثورة التى قام بها أهل الأمصار فى الكوفة والبصرة والفسطاط ضد حكومة المدينة وأدت إلى مقتل الخليفة عثمان حدثاً كبيراً فى تاريخ الدولة الإسلامية ، وفى حياة الأمة الإسلامية كلها ، امتد صداه على مر الأجيال . وقد أدت هذه الثورة إلى نتائج خطيرة ، فقد فرقت جماعة المسلمين وقضت على وحدتهم ، وجعلتهم أحزاباً عرفت فى التاريخ الإسلامى باسم « الفرق » وقد نشأت هذه الأحزاب سياسية متناحرة على الحكم ، ثم أضفت على نفسها رداء دينياً ، تستتر وراءه مطامعها السياسية ، وتحاول أن تأخذ منه سنداً لهذه المطامع ، فاصطبغت مبادئها وحججها بصبغة دينية ، ولهذا لم تسم أحزاباً وإنما سميت فرقاً ، ولعل السبب هو أن لفظ « الحزب » ارتبط فى تفكير القدماء بما أطلقه القرآن على الأحزاب التى اتفقت فيما بينها على حرب النبى صلى الله عليه وسلم ، وكانت الأطراف الداخلة فى حلف الأحزاب ، إما وثنية أو يهودية ، ولذلك عدلوا عنه إلى لفظ « فرقة » باعتبار أن الأمة افترقت فيما بينها[1] . ومعنى الصبغة الدينية أن المبادىء السياسية

---

(١) خطب على رجاله وهو بالربذة متجهاً إلى العراق فقال « إن الله عز وجل أعزنا بالإسلام ورفعنا وجعلنا إخواناً ... فجرى الناس على ذلك ما شاء الله : الإسلام دينهم والحق فيهم والكتاب إمامهم ، حتى أصيب هذا الرجل (عثمان) بأيدى هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الأمة . ألا إن هذه الأمة مفترقة كما افترقت الأمم قبلهم » ثم قال « ألا إن هذه الأمة ستفترق على ثلاثة وسبعين فرقة ، شرها فرقة تنتحلنى ولا تعمل بعملى » (الطبرى : ٤/٤٧٩ . ابن كثير : ٧/٢٣٤) وقد عدد رجل المتنازعين بعد مقتل عثمان فقال « الناس أربع فرق : على بمن معه فى ظاهر الكوفة فرقة ، وطلحة والزبير بالبصرة ، ومعاوية بالشام ، وفرقة بالحجاز لا تقاتل ولا عناء بها » فقال أبو موسى الأشعرى : « أولئك خير الفرق » (ابن كثير : ٧/٢٣٦) .

اعتبرت فى نفس الوقت مبادىء دينية ، فالخوارج مثلا يرون أن الشورى من أسس الدين ، والشيعة يرون أن رعاية آل البيت والانتماء إليهم وإسناد الخلافة لهم مبدأ من مبادىء الدين . فالإنسان كان يتبع الفرقة التى يتصور أنها أقرب الفرق إلى الدين الصحيح ، ومن هنا جاء التعبير « الفرقة الناجية » . وقد وقع الصراع الدموى بين الأحزاب المتصارعة ، وكلف الأمة الإسلامية كثيراً من الدماء ، كما أوقف جهودها فى فترات متعددة عن النشاط الخارجى ، كما أقام ملاحم من الجدل والكلام تناولته كتب الملل والنحل بالتفصيل .

فهذا الحدث كان كبير الأهمية فى الحياة الإسلامية ، ومنشأ هذه الأهمية هو أنه كان أول فرقة حدثت فى الإسلام ، فقد كان التوحيد قبل ذلك تاما ، وكان التضامن بين رؤساء العالم الإسلامى كاملا والاتجاه واحدا ، والهدف واحدا كذلك . فلما وقع هذا الحدث نشأ جو جديد لم يكن الأولون قد عرفوه ولا ألفوه ، ولا ساعدوا على وجود مثله ولا توقعوه ، فلما وقع اعتبروه « فتنة » فتنت المسلمين عن وحدتهم وعدّوه لذلك ضلالة يحسن ألا يشارك المسلمون فيها ، فالنائم فيها خير من اليقظان ، واليقظان خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الراكب على حد تعبير الأقدمين[١] . وعلى هذه التسمية جرى المؤرخون فى تأريخهم للأحداث التى وقعت منذ الثورة على عثمان حتى عادت الوحدة إلى الدولة الإسلامية فى عهد عبد الملك بن مروان عام ٧٣ هـ ، فسمى المؤرخون هذا العام بعام الجماعة الثانى ، لأنه سبقه عام آخر هو عام ٤١ هـ حين تم الأمر لمعاوية بعد تنازل الحسن بن على عن الخلافة ، فسمى المؤرخون هذا العام بعام الجماعة الأول .

---

(١) انظر الطبرى : ٤/٤٨٢ – ٤٨٤ . روى أبو موسى الأشعرى أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنها ستكون بعدى فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الراكب » ابن كثير : ٧/٢٣٦ .

فما هى دوافع هذه الثورة التى قتل فيهـا الخليفة عثمان ، واعتبرت بداية هذه « الفتنة الكبرى » ؟

أشرنا فى نهاية الفصل السابق إلى ما أحدثته سياسة عمر فى تدوين الديوان وتوزيع العطاء من تذمر بين القبائل العربية فى الأمصار ، هذا التذمر الذى أخذ ينمو فى خلافة عثمان حتى انتهى إلى الثورة عليه ثم قتله . والواقع أن السياسة العمرية فى توزيع العطاء ، وفى إدارة الأقاليم ، وفى معاملة الصحابة من المهاجرين والأنصار فى المدينة ، وفى سلوك عمر فى رعيته بعامة وفى أهله وأقاربه بخاصة ، وفيما أخذ به نفسه وأخذ به عماله من سلوك ، كان سببا غير مباشر فى قيام هذه الثورة التى أودت بعثمان ، إلى جانب أسباب أخرى عميقة الجذور ترجع إلى بدء قيام الخلافة الإسلامية بعد وفاة الرسول ، بل ترجع إلى قبيل وفاة الرسول نفسه . ولتوضيح هذه المسائل نجعل السياسة العمرية عمود الحديث فى هذا الموضوع .

تكلمنا عن سياسة عمر فى معاملة أهل البلاد المفتوحة ، وفى تقريره نظام الجزية والخراج ، وإذا كان عمر قد قرر هذا النظام على أساس قواعد كانت موجودة من قبل فى البلاد المفتوحة ، وعلى أساس ما رسم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم — فلم يكن مبدعا لشىء ليس له وجود — فإن الفضل يرجع إليه فى إرساء القواعد على نظام ثابت محدد ، مستنداً إلى ما اتجهت إليه سياسة النبى فى تقرير النظام المالى ، ومجتهداً فى تفسير النصوص القرآنية ، فغير بذلك من النظام القديم فى الغنائم ، وجعل الأرض ملكاً للأمة بدل أن تكون غنيمة توزع على المحاربين ، وجعل الدولة قوامة عليها ، وبذلك أدخل الدولة بين الجيش وبين الأمم المغلوبة ، فحمى الرعية من سطوة رجال الجيش ، كما أنه قوى الدولة على الجيش معتمداً على الخراج الذى كانت تدفعه هذه الرعية . فكان الخراج الذى يدفعه المغلوبون مع بقية أنواع الدخل الأخرى يدخل بيت المال العام ، ولم تكن الحكومة تعطى المحاربين من العرب غير أعطيات فرضتها لهم ، فاستولت على

الأموال التى كانت بحكم الفتح من نصيب الجيش ، واستطاعت بفضل الفتوحات التى تمت على يد الجيش ، أن تستقل عن الجيش وتتخلص من سلطانه ، وذلك لأنها لم تقسم الأرض والناس على المحاربين ، وإنما استولت على الخراج الذى يرتفع من الأرض والناس ، فنزل الجيش إلى مرتبة الافتقار إلى الحكومة ، والاعتماد عليها عن طريق الأعطيات التى قررتها الدولة وبالمقدار الذى أرادته ، فبعد أن كانت الحكومة تعيش من يد الجيش ، أصبح الجيش يعيش من يد الحكومة .

وطالما كانت الحروب متصلة ، والغنائم تتدفق إلى أيدى الجند ، فإنهم لم يكونوا يبالون أن تضع الحكومة يدها على الفىء وعلى الناس وعلى الممتلكات الثابتة فى البلاد المفتوحة ، لأن الجند ما كانوا ليعرفوا ما يصنعون بذلك ، ولم تكن الحرب المتواصلة لتترك لهم مجالا للتفكير ، وكانت الغنائم تملأ أيديهم بأموال أكثر مما كانوا فى حاجة إليه ، فلما تغيرت الظروف بعد توقف الفتوح الكبرى ، وجاء الهدوء بعد الهياج ، ووجد الجند فراغا للتفكير ، أدركوا أنهم من غير أن يشعروا ، قد تركوا غيرهم وسط هياج الحرب واندفاعها يستحوذ على خير ما فى الغنيمة . ولو أنهم أعطوا كل مال الفىء الذى يدفعه المغلوبون لرضوا بذلك ، ولكن هذا لم يحدث ، فقد أصبح مال الفىء يتجه إلى بيت المال العام الذى لم يكن نصيبهم فيه إلا أقل من نصيب غيرهم . فلا عجب أن يعتقد المقاتلة أن الدولة غلبتهم على حقوقهم ، وعرتهم من أموالهم ، وأنها تستند إلى الخزانة التى تفيض فى الحقيقة بأموال فيئهم ، فتتعالى بذلك عليهم وتأخذ بزمامهم . فزعموا أن المال الذى يجمع من الخراج إنما هو لهم وليس للدولة ، وقالوا إنه « مال المسلمين » وليس « مال الله » ، وتمسكوا بأن أموال الفىء يجب أن تقسم ، ولم يرضوا بأن ما يفضل عنهم يذهب إلى بيت المال[1] .

---

(١) انظر الطبرى : ٢٨٣/٤ ، ٢٨٥ ، ٣٢٣ ، ٣٣١ ، ١٠/٦ — ١١ .

وإذا كان هذا الاعتراض قد حدث فى عهد عثمان ، فإنه كان فى الواقع اعتراضا على النظام الذى وضعه عمر بن الخطاب ؛ فهو الذى انتزع الفىء من يد الجيش ، من حيث لا يشعر الجيش ، ووضعه فى يد الدولة . أما أن المعارضة لم تظهر فى عهد عمر نفسه ، ولم تشتد إلا فى عهد عثمان ، فإن ذلك لتغير الظروف من ناحيـــة ، ولأن عثمان كان يعوزه ما كان لعمر من هيبة السلطان ، ولذلك تجلى فى عهده سلطان الولاة والعمال وجريهم وراء مصالحهم الخاصة ، الأمر الذى لم يكن موجوداً فى عهد عمر ، وقد كان أثر كل ذلك فى النفوس شديداً ، مما أثار جند الأمصار على الدولة ممثلة فى عمالها الذين كانوا يتصرفون فى سلطان الدولة ومالها(١).

وكان لعمر سياسته فى تولية الولاة ومراقبتهم ومحاسبتهم وعزلهم ، تبعدهم عن الظلم وتكفهم عن الجور ، وتمنعهم من استغلال ولا يتهم لمصلحة خاصة يجنونها لأنفسهم ، وكان أكثرهم قوة أخوفهم منه من غلامه « يرفأ » كما قال على ، وكان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية (٢) .

وكان عمر يرى الحكم أمانة ، ويقول فى خطبة له «وأنا مسئول عن أمانتى وما أنا فيه ، ومطلع على ما يحضرنى بنفسى إن شاء الله ، لا أكله إلى أحد ، ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة ، ولست أجعل أمانتى إلى أحد سواهم إن شاء الله(٣)» ومع تخير عمر لولاته ، فإنه كان يتحوط لأمانته ، فإذا استعمل عاملا كتب له عهداً وأشهد عليه رهطا من المهاجرين والأنصار ، واشترط عليه : ألا يركب برذونا ، ولا يأكل نقيا ،

---

(١) انظر الطبرى : ٤/٣٢٣ ، ٣٣١ . ابن خلدون : المقدمة : ٢٣٩ . طه حسين : ١/٩٤ وما بعدها . فلهوزن : ٤١ — ٤٤ .

(٢) الطبرى : ٤ /٣٣٨ . وانظر الرياض النضرة : ٢/٧٩ .

(٣) الطبرى : ٤/٢١٥ .

ولا يلبس رقيقا ، ولا يتخذ بابا دون حاجات الناس(١)، وكان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم ويوصيهم ويحذرهم بقوله « إنى لم استعملكم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم على أشعارهم ولا على أبشارهم ، إنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل ، وإنى لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أشعارهم ، ولا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمروها فتفتنوها ، ولا تغفلوا عنها فتحرموها . جردوا القرآن ، وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنا شريككم » ولم تكن وصيته وتحذيراته سرا بينه وبين عماله ، وإنما كان أمراً يخطب به الناس ، ويطلعهم عليه ، ويطلب إليهم أن من فعل به شيء مما حذر الخليفة عماله عنه فليرفعه إليه ، ثم هو يقسم ليقصنه منه ، وكان ينفذ مايتوعد به عماله من القصاص ، فإذا شكى إليه عامل له جمع بينه وبين من شكاه ، فإن صح عليه أمر يجب أخذه به أخذه به(٢) بل إن عمر كان يبحث كل شكوى للرعية من وال من ولاته ، وكان ثقته لبحث هذه الشكاوى محمدا بن مسلمة الأنصارى ، وهو رجل اشتهر بالدقة والحرص على التحرى منذ حياة النبى صلى الله عليه وسلم(٣) ، فكان محمد إذا ذهب لبحث شكوى تحراها جهارا ، يطوف على الناس فى مساجدهم ومجالسهم يسألهم ، وكان أحيانا يأخذ الوالى معه فيطوف به على المساجد يسأل الناس عنه ، ولا يتعرض المسألة عنه فى السر « فليست المسألة فى السر من شأنهم فى ذلك العهد(٤) » .

وكان عمر يتحرى حسن الصلة بين العامل والرعية ، فكان يعزل العامل مع ثبوت براءته مما نسب إليه ؛ لأنه يرى أن التعاون لا يكون بين العامل وبين رعيته ، وقد تركت الشكوى أثراً فى النفوس ربما تكون له عواقب سيئة ، فقد يتحامل العامل على من شكوه أو قد

---

(١) الطبرى . ٤/٢٠٧ — ٢٠٨ . علم عمر أن سعدا بن أبى وقاص جعل على قصره بابا حين كان واليا على الكوفة ، فأرسل محمدا بن مسلمة الأنصارى ، وأمره أن يعمد إلى القصر فيحرق بابه . ففعل محمد ذلك ورجع من فوره . (الطبرى : ٤/٤٧ . وانظر الرياض النضرة : ٢/٧٣) .

(٢) انظر الطبرى : ٤/٢٠٤ ، ٢٠٧ .

(٣) انظر أسد الغابة : ٤/٣٣٠ — ٣٣١ .

(٤) الطبرى : ٤ / ١٢١ .

تقل رعايته لهم ، وقد يتربصون لهم به يتبعون عوراته ليكشفوا عن خطأ يجدون فيه حجة عليه ليبرروا دعواهم السابقة ، وقد يدفعهم الحرص على النيل منه إلى التلفيق والتأليب . فقد شكا بعض أهل الكوفة سعدا بن أبي وقاص ، واتهموه باتهامات حققها عمر بواسطة محمد بن مسلمة ، فلم يثبت على سعد شيء منها ، ومع ذلك خرج به محمد بن مسلمة وبمن شكوه إلى عمر ، فلما سأله عمر وتبين له الحق ، قال «هكذا الظن بك» ثم قال «لولا الاحتياط لكان سبيلهم بينا» ثم استبقاه بالمدينة وأقر من استخلفه سعد على ولاية الكوفة بعده . وصار سعد من مستشارى عمر فى المدينة(١) ، ثم جعله من الستة المرشحين للخلافة حين طعن(٢) ، ثم أوصى الخليفة من بعده بأن يستعمل سعدا « فإنى لم أعزله عن سوء ، وقد خشيت أن يلحقه من ذلك »(٣). أما الريبة فكان عمر لا ينتظر بالوالى حتى يحقق معه ، وإنما كان يعزله فور سماعه بها ، كما حدث فى أمر المغيرة بن شعبة حين اتهم بأنه أحدث بالكوفة وجاء من أخبر عمر بقصته ، فبعث أبا موسى الأشعرى عاملا ، وبعث معه بكتاب إلى المغيرة هو أوجز كتاب كتب به أحد من الناس كما قال الطبرى(٤) : أربع كلم ، عزل فيها ، وعاتب ، واستحث ، وأمّر « أما بعد ، فإنه بلغنى نبأ عظيم ، فبعثت أبا موسى أميراً ، فسلم إليه ما فى يدك ، والعجل » . وكان استغلال النفوذ ومحاولة الإثراء عملا لا يقبله عمر من الولاة ، فكان يمنعهم من أن يحملوا معهم شيئا من المال إلى ولاياتهم فيستخدمونه فى التجارة ، فإن فعل واحد منهم ضم هذا المال إلى بيت المال ، فقد استعمل عتبة بن أبي سفيان على كنانة ، فقدم معه بمال ، فقال : « ما هذا ياعتبة ؟ » قال « مال خرجت به معى وتجرت فيه » قال « ومالك تخرج المال معك فى هذا الوجه » فصيره إلى بيت المال(٥). وشكا أهل الكوفة

---

(١) الطبرى ٤/١٢١ — ١٢٤ .

(٢) الطبرى : ٤/١٩٢ ، ٢٢٨ وما بعدها .

(٣) نفس المصدر : ٤/٢٤٤ .

(٤) ٤/٩٦ — ٧٢ .

(٥) الطبرى : ٤/٢٢٠ .

أبا موسى الأشعرى بأن غلامه يتجر بالعلف ، وطلبوا الاستعفاء منه ، فعزله [١]. ولم يكن عمر تأخذه فى الوالى عظم مكانته وكبير أثره إذا أحس منه ما يدل على الإثراء ، فقد علم أن خالداً بن الوليد أجاز الأشعث بن قيس بعشرة آلاف حين كان على قنسرين ، فأرسل إلى أبى عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته ، ويسأله من أين إجازة الأشعث ، فإن كانت من إصابة أصابها — أى من مال المسلمين — فقد أقر بخيانة ، وإن كانت من ماله فقد أسرف ، وهو معزول على كل حال . ولما أقر خالد بأنها من ماله عزله واستقدمه إلى المدينة وسأله عن مصدر الثراء ، ثم قومّ ماله وأخرج منه ما زاد على ما كان لخالد من الأنفال والسهمان فضمه إلى بيت المال [٢] .

فالولاة والعمال فى عهد عمر كانوا تحت مراقبة شديدة ، وبخاصة فيما كان يتصل بالمال ، وقد جعل عمر من موسم الحج فرصة يلتقى فيها عماله وأهل أقاليمه فى كل عام ، يسأل العمال فى أمر الرعية . ويسأل الرعية فى سيرة العمال ، وقد جعل ذلك نظاما مقررا ، فقد كان يحج فى كل عام [٣] ، وأخذ عماله بموافاة الحج فى كل سنة ، ليباحثهم فى سياسة الدولة ، «وليحجزهم بذلك عن الرعية (يحجز عليهم الظلم ويحجزهم به عنه) ، وليكون لشكاة الرعية وقتا وغاية ينهونها فيه إليه [٤]» . ولم يكن عمر يكتفى بهذا الاجتماع الموسمى ، وإنما كان يستقصى أمور الناس بنفسه حيث يمكنه الاستقصاء فى المدينة وما حولها [٥] ، ويرسل أمناءه بين الحين والحين لتتبع أمور العمال ، ومعرفة أحوال الناس ، فيكتبون إليه بكل شىء «وكان عمر لا يخفى عليه شىء فى عمله ، يكتب إليه من العراق بخروج من خرج ، ومن الشام بجائزة من أجيز [٦]» ثم فكر فى أواخر أيامه فى القيام بزيارة تفتيشية للأقاليم يقضى فيها حولا ، يقيم فى كل إقليم من أقاليم الدولة شهرين يتفقد أحوال الناس ، ويرى بنفسه كيف يسير العمال فى ولاياتهم ، فإنه يعلم

---

(١) الطبرى : ٤/١٦٤ — ١٦٥ .

(٢) انظر الطبرى : ٤/٦٧ — ٦٨ .

(٣) نفس المصدر : ٣/٥٩٧، ٦٢٣، ٤/٣٩، ٩٤، ١٠١، ١٠٣، ١١٣، ١٤٥، ١٦٣، ١٩٠ .

(٤) نفس المصدر : ٤/١٥٥ ، ١٦٥ — ١٦٦ .

(٥) انظر الطبرى : ٤/٢٠٥ — ٢٠٦ ، ٢١٣ .

(٦) نفس المصدر : ٤/٦٧ .

أن الناس حوائج تقطع دونه : فأما عمالهم فلا يرفعونها إليه وأما هم فلا يصلون إليه . ولولا أن الموت أعجله لفعل[١] .

كانت هذه سياسة عمر نحو عماله فى الولاية والمحاسبة والعزل ، ثم كان إلى هذا لا يختص بالولاية فريقا من الناس دون فريق ، وإنما كان يختار عماله من العرب الذين حسن إسلامهم وثبتت كفايتهم ، وحين توفى كان عماله : على مكة نافع بن عبد الحارث الخزاعى ، وعلى الطائف سفيان بن عبد الله الثقفى ، وعلى صنعاء يعلى بن منية حليف بنى نوفل بن عبد مناف ، وعلى الجند عبد الله بن ربيعة المخزومى ، وعلى الكوفة المغيرة بن شعبة الثقفى ، وعلى البصرة أبو موسى الأشعرى ، وعلى مصر عمرو بن العاص ، وعلى حمص عمير بن سعد الأنصارى وعلى دمشق معاوية بن أبى سفيان ، وعلى البحرين وما والاها عثمان بن أبى العاص الثقفى[٢] فكثرة هؤلاء العمال لم تكن قرشية ، كما لم يكن فيهم واحد من بنى عدى رهط عمر ، ولم يقصر التولية على حى من العرب ، وإنما كان أساس الاختيار عنده حسن الإسلام والكفاية فى العمل .

وإذا كان عمر قد أخذ عماله بالشدة والمحاسبة . فإنه كان على نفسه أكثر شدة ، يستشعر مسئوليته استشعارا كاملا ، ويرى أن الحاكم لكى تستقيم له الأمور يجب أن يكون قدوة لمن دونه من الولاة والعمال ، فكان زهده وتقشفه مثلا لا يكاد يقوى على اتباعه أحد[٣] ، فلم يكن يستحل لنفسه أن يأخذ من بيت المال شيئا فوق عطائه المقرر له ، وربما كان يحتاج فيأتى صاحب بيت المال يستقرضه ، وربما كان يعسر فيأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه فيلزمه ، فيحتال له عمر ، وربما خرج عطاؤه فقضاه[٤] . وروى الطبرى[٥] عن البراء بن معرور « أن عمر رضى الله عنه خرج يوما حتى أتى المنبر ، وقد كان اشتكى شكوى له ، فنعت له العسل ، وفى بيت المال عكة ، فقال : إن أذنتم لى فيها أخذتها ، وإلا فهى على

---

(١) الطبرى : ٢٠١/٤ — ٢٠٢ .
(٢) الطبرى : ٢٤١/٤ .
(٣) انظر الطبرى : ١٧٩/٤ ، ٢٢٥ — ٢٢٧ . الرياض النضرة ٥١/٢ وما بعدها .
(٤) الطبرى : ٢٠٨/٤ .
(٥) ٢٠٨/٤ . الرياض النضرة : ٦٣/٢ .

حرام » . وكان يرفض أن يقبل شيئا يختصه به جنده من مال الغنيمة إهداء له ، بل إنه كان يعاقب من يحمل إليه هذا المال (١) . وكان مذهبه أن يعيش كواحد من رعيته ، حتى يكون إحساسه عشا كل الناس وظروف حياتهم صادرا عن معاناة وممارسة ، فهو يقول : « كيف يعنيني شأن الرعية إن لم يمسني ما مسهم (٢) » .

ولم يكن ذلك شأنه مع نفسه خاصة ؛ وإنما كان ذلك شأنه مع عشيرته بعامة ومع أهله الأقربين بخاصة ، يريد أن يجعل من سيرته فيهم مثلا لسيرته فى الآخرين ، ويريد أن يجعل منهم قدوة لغيرهم من الناس ، فكان إذا أراد أن يأمر المسلمين بشىء أو ينهاهم عن شىء فيه صلاحهم بدأ بأهله ، وتقدم إليهم بالوعظ لهم والوعيد على خلافهم أمره ، ثم يقول لهم « إنى نهيت الناس عن كذا وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير — يعنى إلى اللحم — وأقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة »(٣) . وكان يتحرج أن يصل إلى أحد من أهله شىء من بيت المال لا صراحة ولا شبهة ، بل كان يتحرج مما يستبيحه الناس جميعا ، فقد روى (٤) أن امرأته استقرضت دينارا فاشترت به طيبا وأرسلته هدية إلى ملكة الروم مع البريد ، فأرسلت إليها الأخرى رد هديتها بعض الجواهر ، فلما رأى عمر الهدية وسأل امرأته عن سببها ، أخذ الجواهر فباعها ودفع إلى امرأته دينارا وجعل ما بقى فى بيت المال ، وكان قوله حين سئل عن سبب ما فعل « الرسول رسول المسلمين ، والبريد بريدهم » . وجاء رجل من قرابة عمر فسأله مالا ، فزبره وأخرجه ، فلما كلم فى أمره ، قال : « إنه سألنى من مال الله . فما معذرتى إن لقيته ملكا خائنا ! ، فلولا سألنى من مالى ! »(٥) . وكان مذهبه كما قال « القوة فى مال الله وجمعه ، حتى إذا جمعناه وضعناه حيث

---

(١) انظر الطبرى : ٤/١٧٩ ، ١٨٧ — ١٨٩ .

(٢) نفس المصدر : ٤/٩٨ .

(٣) نفس المصدر : ٤/٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٤) نفس المصدر : ٤/٢٦٠ الرياض النضرة : ٢/٦٣ .

(٥) الطبرى : ٤/٢٠٣ .

أمر الله ، وقعدنا آل عمر ليس فى أيدينا ولا عندنا منه شيء» (١) ، وكان إحساسه بالمسئولية نحو هذا الأمر عظيما ، حتى ليقول « لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات خشيت أن يسأل الله عنه آل الخطاب » يعنى نفسه ، ما يعنى غيرها (٢) . وهكذا كانت سياسة عمر نحو نفسه وأهله مثلا عاليا فيما ينبغى للامام من التعفف والإحساس بالمسئولية ، وقدوة يصعب الاقتداء بها .

وإذا كانت هذه سياسة عمر نحو عماله ونحو نفسه وأهله ، فإنها كانت كذلك نحو من أحاط به من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار ، وقد كان يفرق فى سلوكه نحوهم بين أمرين يفصل بينهما فصلا واضحا ، كان يعرف لهم سابقتهم ويقدر حقهم ويجل مكانتهم ، فهم عنده أهل الشورى لا يقطع فى أمر دونهم ، يشاورهم فيما يعرض له من الأمور العامة ، ولا يصدر عن رأى إلا بعد أن يسمع آراءهم ، لا يفتات عليهم فى شيء مما يهم أمور المسلمين فى الحرب والسلم على السواء ، وكان يشاورهم فيما يدعو إلى المشاورة من المسائل الخاصة ، فهم شركاؤه فى حكومة الدولة والنظر فى أمورها . لا يفعل شيئا إلا عن ملأ منهم (٣) . لكنه مع ذلك لا يختصهم بشيء ليس لهم ، ولا يسمح لمكانتهم أن تحملهم على مجاوزة النظام وحدود القانون والاستهانة بهيبة الدولة وخشية السلطان ، فقد روى الطبرى (٤) « أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أتى بمال ، فجعل يقسمه بين الناس ، فازدحموا عليه ، فأقبل سعد بن أبى وقاص يزاحم الناس ، حتى خلص إليه ، فعلاه بالدرة ، وقال : إنك أقبلت لا تهاب سلطان الله فى الأرض ، فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لا يهابك » . وكان إذا استعمل واحداً منهم على ولاية من الولايات

---

(٢) الطبرى : ٤/٢٢٢ .
(٣) نفس المصدر : ٤/٢٠٢ — ٢٠٣ .
(٣) انظر الطبرى : ٣/٤٤٥ — ٤٤٦ ، ٤٨٠ — ٤٨٣ ، ٤/٥٨ — ٥٩ ، ١٢٣ — ٢٣٦ ، ٢٠٣ — ٢١١ ، ٢٦٠ ،
(٤) ٤/٢١٣ .

أو عمل من الأعمال اتبع معه ما كان يتبع مع كل عماله وولاته من الرقابة والمحاسبة ، كما رأينا من قبل فى معاملته لسعد بن أبي وقاص حين كان واليا على الكوفة ، وفيما فعل مع خالد بن الوليد حين كان على قنسرين بالشام .

وكان لعمر سياسة خاصة بأعلام المهاجرين من قريش ، فقد حجر عليهم الخروج فى البلدان إلا بإذن وأجل ، فشكوه فبلغه فقام فقال « ألا إنى قد سننت الإسلام سن البعير ، يبدأ فيكون جذعا ، ثم ثنيا ، ثم رباعيا ، ثم سديسا ، ثم بازلا ، ألا فهل ينتظر من البازل إلا النقصان ، ألا فإن الإسلام قد بزل . ألا وإن قريشا يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ، إنى قائم دون شعب الحرة ، آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار[١] » فعمر إذن كان يخشى على هؤلاء الأعلام من المهاجرين من قريش أن يخرجوا إلى الأمصار ، فيغريهم ما يرون فيها من الثراء وطيب الحياة بالانصراف إلى الإقامة فيها ، والتكثر من الأموال ، وكان يخشى منهم أن يراهم الناس فيلتفون حولهم وينقطعون إليهم ، لما لهم من مجد قديم وثراء حاضر ، فتنشأ المطامع ويقوم التحزب ، فتحدث الفتنة . وقد صدق حدس عمر ، فقد حدث ما كان يخشاه حين أباح عثمان من بعده لهؤلاء الأعلام أن ينساحوا فى البلاد ، « فلما رأوها ورأوا الدنيا ، ورآهم الناس ، انقطع إليهم من لم يكن له طول ولا مزية فى الإسلام ، فكان مغموما فى الناس ، وصاروا أوزاعا إليهم وأملوهم ، وتقدموا فى ذلك فقالوا : يملكون فنكون قد عرفناهم ، وتقدمنا فى التقرب والانقطاع إليهم ، فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام ، وأول فتنة كانت فى العامة ، ليس إلا ذلك[٢] » . لذلك كان عمر يشتد فى الاحتفاظ بهؤلاء الأعلام فى المدينة ولا يسمح لهم بالخروج عنها ، حتى ليستأذنه الرجل منهم فى الغزو ، فيقول له « قد كان فى غزوك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبلغك ، وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك[٣] » . وكان فى المدينة يرقبهم كذلك ، فلا يسمح

---

(١) الطبرى : ٣٩٦/٤ — ٣٩٧ .
(٢) نفس المصدر : ٣٩٧/٤ .
(٣) نفس المصدر .

بأن تــدون لهم مجالس يتحوط عليها الناس ، ويقول « بلغنى أنــكم تتخذون مجالس ، لايجلس اثنان معا حتى يقال : من صحابة فلان ؟ من جلساء فلان ؟ حتى تحوميت المجالس ؛ وأيم الله إن هذا لسريع فى دينكم ، سريع ف شرفــكم ، سريع فى ذات بينكم . ولــكأنى بمن يأتى بعدكم فيقول : هذا رأى فلان ، قد قسموا الإسلام أقساما . أفيضوا مجالسكم بينــكم ، وتجالسوا معا ، فإنه أدوم لألفتكم ، وأهيب لــكم فى الناس(١) » .

وإذا كان عمر قد خاف الفتنة على هؤلاء الأعلام من المهاجرين من قريش وهم من صاحبوا النبى وتأدبوا بآدابه ، فهو منها أخوف على سائر قريش ممن أسلموا حين لم يكن من الإسلام بد بعد أن دخلت عليهم مكة من أقطارها ، وقدكان لعمر نظرته الخاصة فى قريش ، وقد كانوا أهله وقبيله ، فهو بهم أعرف وبمواطن القوة والضعف فيهم أعلم ، ولذلك لم يكن يخاف الفتنة من أحد كما خافها من قريش ، ولم يكن يخشاها على أحد كما خشيها عليهم ، فقد روى عنه قوله ، حين اندلعت الثورة فى الجزيرة العربيـــة بعد موت النبى واستخلاف أبى بكر ، لجماعة من قريش : « قلتم ما أخوفنا على قريش من العرب ، وأخلقهم ألا يقروا بهذا الأمر . فلا تخافوا هذه المنزلة أنا والله على العرب أخوف منى من العرب عليكم . والله لو تدخلون معاشر قريش جحرا لدخلته العرب فى آثاركم ، فاتقوا الله فيهم(٢) » . كان عمر يعرف لقريش قوتها قبل الإسلام وبعده ، فهى فى الجاهلية قد جعلت من مكانها حول البيت واستئثارها بمناسك الحج تقيمها للعرب وسيلة لأن تتسلط بها عليهم ، وتقر لنفسها امتيازا لا يشاركها فيه غيرها ، وتزعم لنفسها أرستقراطية متفوقة ، وقد اعترف العرب لها بذلك فى جملتهم . ثم هى تضيف إلى قوتها الدينية قوة مادية ، تأتيها من تجارتها الضخمة ، والتى أتاحت لها أن تــكون على صلة بالعالم الخارجى من حولها ، فنالت حظاً كبيرا من الثراء ، ونالت أهم من ذلك حظاً كبيرا من الخبرة والتجربة ، فعلمتها كثرة المال الحرص وحسن المحافظة وقوة التدبير والبراعة فى الاستثمار ، كما علمتها

---

(١) الطبرى : ٤/٢١٣ — ٢١٤ .

(٢) نفس المصدر : ٣/٢٥٩ .

التجربة المتصلة بالأمم المختلفة قدرة على حل المشكلات والتغلب عليها . وقد دفعها ذلك كله إلى بعد الهمة واستداد أسباب الطمع ، واستباحة كل شيء فى سبيل المنفعة القريبة والبعيدة، لا تقصر فى ذلك عن استعمال كل حيلة واستخدام كل وسيلة .

وقد استعملت قريش كل وسائل قوتها هذه حين جاء الإسلام ، فقد عارضته ووقفت فى وجهه بكل طاقاتها المادية والأدبية ، فلما غلبت على أمرها ، تحولت بمرونة فائقة إلى الإسلام وساندته بكل طاقاتها ، متخذة منه وسيلة لأن تصل مجدها القديم بمجده الجديد ، وحمل رجالها من أثقال الجهاد والفتح أكثر مما حمل غيرهم من الناس ، وكان سادتهم يحسون أنهم الطلقاء وأنهم أقل درجة ممن سبقوا إلى الإسلام وسبقوا بالجهاد ، فدعاهم ذلك إلى أن يحسنوا البلاء فى الفتوح تعويضا لما أنقص مكانتهم فى حياة دولة الإسلام .

كانت هذه القوة التى تميزت بها قريش مصدر ضعف لها كذلك ، لأنها كانت تتعالى بنفسها فتتورط فى الكبرياء وتتعرض للظلم والاستعلاء ، كما كان حبها المال والحرص عليه يعرضها للطمع وإلى أخذه بغير حقه . وقد كان عمر يدرك فى قريش كل هذه النواحى من القوة والضعف ، فيشفق من هذا كله ، فيضرب لقريش الحدود ، ويأبى أن يتركها تندفع إلى غير مدى ، ويرى أن من حق المسلمين عليه أن يجنبهم مغامرات فتيان قريش ، فكان لذلك يسوس قريشا سياسة عنيفة حتى ملته وملها ، فقد روى عنه قوله « اللهم ملونى ومللتهم ، وأحسست من نفسى وأحسوا منى ، ولا أدرى بأينا يكون الكون ، وقد أعلم أن لهم قبيلا منهم ، فاقبضنى اليك[1] » .

كانت هذه سياسة عمر نحو صحابة رسول الله بعامة ونحو قريش بخاصة ، وكان من شأنها أن تصده عن الطموح ، وتجنب التعرض للفتنة ، وترضى أولى الضمائر من المسلمين ، كما تبعد الحسد وتذهب البغضاء من قلوب العرب فى أمصار الدولة وولاياتها .

على أن سياسة عمر لم تكن الحزم والقوة على ولاته وعماله ، ومع نفسه وأهله ، ومع

---

(١) الطبرى : ٤/ ٢١٤ وانظر طه حسين : ١/ ٢٩ — ٨٣ .

صحابه النبي ومع قريش فحسب ، وإنما كانت كذلك مع العرب جميعاً ، فهو مع رعايته المسلمين وحرصه على مصالحهم وحقوقهم ، كان يدرك أنه يسوس شعبا بدويا أنوفا ، لم يألف الطاعة ولم يتعود الخضوع ، وكان عليه أن يضبطه وأن ينظمه ويحشده لما يواجهه من مشكلات الفتوح والتعبئة لها ، ثم المحافظة عليها والدفاع عنها ، وإقرار الأمن والسلم فيها . وتتلخص سياسته للعرب فيما روى عنه من قول « إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده ، فأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق[١] » وكان العرب فى رأى عمر هم « مادة الإسلام [٢] » فهم الذين قاموا بالفتوح وأذلوا العدو ، ومكنوا لدين الله أن ينتشر فى الآفاق ، فلهم بهذا كله الحق فى ألا يستأثر أحد بالأمر دونهم . ثم هم بعد هذا كله حديثو عهد بالإسلام وقريبو عهد بالجاهلية ، لم ينسوا بعد ما كان بينهم من عصبية وتفاخر بأمجاد حفظوها عن جاهليتهم ، وأضافوا إليها مفاخر جديدة أعظم منها حققوها فى فتوح الإسلام ، وهم إلى ذلك أهل الثغور وجند الدولة المدافعون عنها . لذلك اتخذ عمر من السياسة ما ينسيهم عصبيتهم الجاهلية ، وينشئهم التنشئة الإسلامية الخالصة ، ويحقق لهم ما وعدهم الإسلام من المساواة بينهم والعدل فيهم . فقاوم العصبية ما وسعه ، حتى أخاف الشعراء الذين كانوا يذكرون مآثر الجاهلية فى أشعارهم[٣]. وجعل فى الأمصار معلمين من أصحاب النبي يقرئون أهلها القرآن ويفقهونهم فى الدين ويبصرونهم بالسنة ، وفرض ذلك على أمراء الأمصار ، فقد قال فى خطبة له يوم جمعة « اللهم إنى أشهدك على أمراء الامصار أنى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ، وأن يقسموا فيهم فيأهم ، وأن يعدلوا[٤] » . ثم إنه لم يعز حيا منهم على حى ، ولم يختص بالسلطان فريقا دون فريق ، وإنما أقام فيهم المساواة والعدل الحازم ، وأشعرهم أن قريشا قبيل من العرب لها مالهم وعليها ما عليهم .

---

(١) الطبرى : ٢٠١/٤ .

(٢) نفس المصدر : ١٩٢/٤ ، ٢٢٧ .

(٣) البيان والتبيين : ٢٢٤/٢ .

(٤) الطبرى : ٢٠٤/٤ . انظر طه حسين : ٨٥ .

وقد رضى الناس عن سياسة عمر ، ودانوا لها . وقد امتد عهده عشر سنوات ، فيها أقيمت الأمصار ، وقلدت الولايات ، فكانت مدة كافية لأن تنطبع هذه السياسة فى أذهان الناس ، لذلك كان السير على غير منوالها أمرا يخالف ماعهده الناس ، وكان طبيعيا أن يدعو إلى التفكير ، ويثير الاعتراض ، فلما توفى عمر وجاء عثمان واتجهت السياسة فى عهده من السمة التى كانت تميزها وهى سمة الحزم والقوة ، إلى سمة اللين والرفق التى تميزت بها سياسة عثمان والتى استغلتها قريش لتتميز على العرب وتتسلط عليهم ، وتستأثر دونهم بأجل الأمصار خطرا وأرفع المناصب شأنا ، بدا ما استتر فى عهد عمر — وكان قمينا أن يضعف مع الأيام — فـكشف عن نفسه ، فكان من الانتقاض ما سوف نعرض له فى حياة عثمان .

استمرت خلافة عمر عشر سنوات ونحو ستة أشهر [١] . ثم كان موته حادثا مفاجئا مفجعا ، فقد اغتاله رجل فارسى هو «أبو لؤلؤة فيروز» غلام المغيرة بن شعبة . طعنه بخنجر وهو يتقدم المسلمين للصلاة ، ثم قتل عدداً ممن حاولوا القبض عليه وقتل نفسه وقد ترك مقتل عمر رضى الله عنه على هذه الصورة المفاجئة آثاراً بعيدة المدى فى حياة الدولة الإسلامية ، فقد حرم الأمة من خليفة قوى حازم نافذ البصيرة ، كان يخطط سياسة الدولة ويرسى قواعدها . وقد رأينا كيف كانت سياسته فى تمصير الأمصار ، ووضع الديوان وفرض العطاء ، وفى الولاية والعزل ، ومراقبة العمال ومحاسبتهم . وكيف كانت سياسته فى معاملة الرعية ، وكيف كان نظامه فى الشورى . وقد كان عمر يجتهد فى ذلك ما وسعه الاجتهاد ، ويستخلص مما يصل إلى علمه من نظم الأمم التى سبقت إلى الحضارة ما يلائم الإسلام . وما يلائم المزاج العربى ، وما يلائم الدولة التى أسرعت إلى النمو والانتشار هذا الإسراع العظيم .

---

(١) تتراوح مدة خلافته ما بين عشر سنوات وخمسة أشهر وإحدى وعشرين ليلة ، وبين عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام ، على خلاف فى الروايات . انظر الطبرى : ٤/١٩٣ — ١٩٤ .

وكان نظام الحكم الإسلامى يعتمد فى صدر الخلافة الأول على عنصرين : —

العنصر الأول هو عنصر الضمير الدينى اليقظ الحى ، الذى امتلأت به صدور الرجال من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان هؤلاء يكونون أداة الحكم فى الدولة الإسلامية فى عهد أبى بكر وعمر ، منهم الخليفة ومنهم القواد والولاة والعمال ، ومنهم الرجال الذين يحيطون بالخليفة ويكونون مجلس شوراه . لكن هذا العنصر لم يكن من شأنه أن يطاول الزمن وتتابع الأحداث وتقلب الظروف ، فإنه وإن اكتمل لهذا الجيل من الصحابة الذين اتصلوا بالنبى اتصالا قريبا وتعلموا منه وتأدبوا بأدبه ، وكانوا خليقين أن يتأثروا سيرته ويسيروا على هديه ، فليس من المكفول أن يكون أبناؤهم وحفدتهم على مثلهم ، وهم لم يتصلوا بالنبى إلا قليلا أو لم يتصلوا به أصلا ، وليس غريبا ألا يكون لهم من الضمير اليقظ الحى ما كان لخاصة النبى وصفوة أصحابه .

ثم إنه ليس كل الرعية اتصل بالنبى وأخذ عنه وتأثر به ، ولا يكفى أن يكون الحاكم يقظ الضمير مؤثراً للعدل ، وإنما يجب أن يكون لرعيته حظ من هذا الضمير الحى ومن حب العدل ، ليكون هناك توازن بين الحكام والرعية تستقيم به أمور الحكم على أساس من التضامن بين الحاكمين والمحكومين . لكن هذا التوازن لم يكن موجودا ، ولم يكن هناك تضامن صحيح بين الخليفة والكثرة الضخمة من رعيته ، إذ أن كثرة العرب لم تكن قد صاحبت النبى واتصلت به ، ولم يكن إيمان الكثرة مطابقا أو مقاربا لإيمان أصحاب النبى الذين كانوا يمثلون قلة قليلة بالنسبة للعرب ، وكان من العرب من أسلم وحسن إسلامه ، ومنهم من أسلم ولما يدخل الإيمان فى قلبه ، كما قال الله تعالى «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئا » بل من العرب من جرت كلمة الإسلام على لسانه ، ولكنه احتفظ بجاهليته كاملة فى قلبه وضميره ، كما وصفهم الله فى القرآن الكريم « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » .

إنما كان التضامن والتوازن قائمين بين الخليفة والطبقة الممتازة حوله من صحابة رسول

الله ، وبفضل هذا التضامن استطاع أبو بكر أن يقضي على الردة ، واستطاع أن يوجه العرب إلى الفتوح ، كما استطاع عمر أن يسير بالفتوح إلى المدى الكبير ، وأن يقر ما أقر من نظم . لكن الضمير الحي اليقظ قد يلقى من الخطوب والأحداث ما يعرضه للفتنة . وقد واجه المسلمون الدنيا وواجهتهم ، فصمد بعضهم لها وحذرها خشية غرورها(١) . وألحت على بعضهم حتى اضطرته أن يتأول في بعض الأمور ، وما زال به التأويل حتى بعد به عن الإخلاص الأول إلى حد كبير(٢) . ولو قدعصم أصحاب النبي من الفتنة ، لما كان بد أن يتعرض لها أبناؤهم وحفدتهم بعد أن أقبلت الدنيا هذا الإقبال العريض .

أما العنصر الثاني من عناصر النظام السياسي فهو الطبقة الخاصة التي قام أمرها على الكفاية والتقوى وحسن البلاء والاتصال بالنبي ، وكان هذا العنصر معرضا للزوال حين يمضي الزمن ، وتنشأ أجيال ليس لها ما كان للجيل الأول من الفضائل والامتياز .

وكان لزاما لذلك على المسلمين ألا يتركوا أمورهم لحساب الضمير وحده ، وأن يضعوا لهذه الأجيال النظام المقرر المكتوب الذي يبين حدود الحكم جملة وتفصيلا في حدود القرآن والسنة ، فيحدد للخلفاء اختصاصهم ، ويبين للشعب حقوقه وواجباته مفصلة ، ويرسم للأجيال كيف تختار الخلفاء وتراقبهم وتحاسبهم إن حادوا عن الطريق . ولكن هذا النظام لم يوضع ، واستطاعت قريش أن تنحرف عن القصد ، وأن تجعل من نفسها ارستقراطية تستأثر بشئون الخلافة لنفسها . ولو قد وضع هذا النظام لما تفرق المسلمون ، ولما ذهبوا مذاهب شتى في شأن الشورى أو التوريث .

ولقد كان عمر من ذكاء الفؤاد وقوة العزيمة ما يجعله يفكر في وضع هذا الدستور وإقرار حدوده لو امتدت به الأيام بعد أن هدأت حركة الفتوح ، وأتيح له من الوقت ما يسمح له بالنظر والتدبير ، ولكن عمر أعجل عن هذا بنفاد الأجل الذي جاءت نهايته

---

(١) أنظر الطبري : ٤/١٢٦ .

(٢) أنظر نفس المصدر : ٤/٢٢٦ ، ٢٣٩ ، ٢٦٧ — ٢٦٨ ، ٣٣٨ ، ٣٤٦ — ٣٤٧ .

على صورة مفاجئة ، لم تمكنه من التدبير لأمر الخلافة بعده إلا على صورة سريعة فيما أقره من أمر الشورى لاختيار خلفه ، فجاءت قاصرة ، ولكنها مع ذلك تكشف عما يمكن أن يكون لو جاء الأمر على أساس تدبير وروية(١) .

فإن عمر حين أحس بدنو الموت لم يفعل كما فعل أبو بكر ، فيعهد إلى شخص بالخلافة من بعده كما عهد إليه بها أبو بكر ، فإن الظروف التي أملت على أبي بكر أن يعهد إلى عمر كانت قد زالت ، فلم تكن الدولة حديثة عهد بحركة انتفاض كما حدث في الردة ، ولم تكن بصدد اشتباك عسكري خطير يقتضي ألا تترك الدولة بغير قيادة ولو لفترة محدودة تتعرض فيها للمناقشة والمشاورة وما قد ينتج عنها من خلاف ، أو ما قد يؤدي إلى أن يلي الخلافة من لا يكون صاحب قدرة على النهوض بهذا العمل الخطير . فلم يستجب عمر لما طلب إليه المسلمون أن يعهد لرجل من بعده ، وكذلك لم يرد أن يتركهم بغير مشورة عليهم ، فاقترح عليهم نظام الشورى ، وقد جرى عمر في هذا الاقتراح على سياسته التي عهدناها ، فقد كان مبدؤه الذي سار عليه ألا يستبد بالأمر دون من حوله من صحابة رسول الله ، كما كانت سياسته ألا يختص أحداً من عشيرته بشيء من مناصب الدولة وولاياتها . ونظر فرأى أمر الناس إنما يرجع إلى ستة نفر من الصحابة الذين سبقوا إلى الإسلام وجاهدوا وأبلوا أعظم البلاء ، ومات النبي وهو عنهم راض ، وهم : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد أبي وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، فجعل الشورى إليهم ، ولم يشأ أن يضم إليهم ابن عمه سعيداً بن زيد بن عمرو بن نفيل ، مع أنه من العشرة الذين ضمن لهم النبي الجنة ، لأنه خاف أن يميل الناس إليه لمكانه منه ، وأحضر ابنه عبد الله بن عمر الشورى ليكون صوته مرجحا لو تساوت الأطراف في الاختيار ، ولكنه

---

(١) أنظر في هذا الموضوع طه حسين : ١/٣٨ — ٤٥ .

لم يجعل له من الأمر شيئا ، وذلك لأنه لا يرى فى ابنه قدرة على تحمل أعباء الخلافة من ناحية ، ولأنه لا يريد أن تكون الخلافة فى بنى عدى مرتين من ناحية أخرى . وكانت وجهة نظر عمر فى اختيار الستة أنهم رؤساء الناس وقادتهم وأنه لا يكون الأمر إلا فيهم . فاستدعاهم وعهد إليهم بأمره ، وأوصاهم بألا يختلفوا فيما بينهم ، فإنه لا يخشى عليهم الناس إن استقاموا ولكنه يخاف عليهم اختلافهم فيما بينهم ، فيختلف الناس باختلافهم . ثم أمرهم أن يتشاوروا ثلاثة أيام ، على ألا يأتى اليوم الرابع إلا وعليهم أمير منهم . ولما كان طلحة غائبا فإنه طلب إليهم أن يشركوه معهم إذا قدم فى الأيام الثلاثة ، وإن مضت الأيام الثلاثة قبل قدومه فليقضوا أمرهم . ولم يرد عمر أن يخص واحداً منهم بعمل قد يوحى بالتفضيل ، فطلب أن يؤم الناس فى الصلاة فى خلال هذه المدة « صهيب ابن سنان » ولم يكن قرشيا ولا أنصاريا وإنما هو مولى[1] . ولكن عمر كان يدرك أن الخلافة سوف لا تعدو واحداً من من الرجلين : على وعثمان ، ولذلك خصهما بوصية مباشرة ، فقال « أنشدك الله ياعلى ، إن وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل بنى هاشم على رقاب الناس . أنشدك الله ياعثمان ، إن وليت من أمور الناس شيئا أن تحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس » .

ثم أمر أبا طلحة الأنصارى أن يختار خمسين رجلا من الأنصار ويحرس بهم هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم ، وأمر المقداد بن الأسود أن يجمعهم فى بيت ويقوم على رؤوسهم يرقبهم ، فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فليشدخ رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة على واحد وأبى اثنان فليضرب رؤوسهما ، فإن رضى ثلاثة منهم رجلا ورضى ثلاثة رجلا منهم ، فليحكموا عبد الله بن عمر ، فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم ،

---

(١) كان صهيب عبداً لعبد الله بن جدعان القرشى ، اشتراه من قبيلة كلب . ويقال إنه عربى أسرته الروم وباعوه لأحد الكلبيين الذى باعه لعبد الله بن جدعان ، ثم أعتقه هذا . ثم أسلم صهيب فى أول الإسلام . انظر أسد الغابة : ٣/ ٣٠ — ٣١ .

فإن لم يرضوا بحكم عبد الله ، فيلكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، وليقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس[١] .

ولا شك أن عمر كان يبغى المصلحة العامة ، وكان يجرى على ما أخذ به نفسه ، واتبع فيه مبدأ الإسلام من جعل الشورى قاعدة لنظام الحكم بين المسلمين . ولا شك أنه اجتهد ما وسعه الاجتهاد فى أيام حرج وضيق ، لم يسعفه الوقت فيها ولا القوة على أن يطيل التفكير ويشاور كل من حوله من كبار الصحابة وزعماء المسلمين ، فجاء النظام الذى وضعه فى هذا الوقت الحرج ناقصاً إلى حد كبير

وأول ما يلاحظ هو ضيق هذا المجلس ، فقد ائتلف من سبعة أحدهم يشير وليس له من الأمر شيء ، والستة الآخرون هم المرشحون وهم فى الوقت نفسه المشيرون ، وفى هذا إحراج كبير . فالمنصب خطير بالنسبة لحياة الفرد وبالنسبة لحياة الأمة . وكلهم صاحب سابقة وجهاد وفضل وتقدمة ترشحه لتولى الخلافة . فلا يرى أن ينكر على نفسه مميزاتها ، وكلهم يحس من نفسه قدرة على احتمال العبء وأجدر أن يراعى ما ينبغى له من حق ، فهم حتى وإن تجردوا من إيثار أنفسهم بالسلطان وهو كبير ، لم تكن أنفسهم تطيب بأن يتخلوا عما يحسونه من قدرة وكفاية وإخلاص لمصالح المسلمين . ولذلك لا ينتظر منهم أن يدلوا بمشورة مجردة بعيدة عن كل تأثير ، ولم يكن من أهل هذا المجلس غير واحد هو الذى يستطيع أن يشير لأنه ليس له من الأمر شيء . ومن هنا ثار النقاش حاميا بين المرشحين وعلت أصواتهم وترادوا الكلام بينهم ، وقد فوجىء المسلمون المكلفون بحراستهم مفاجأة أليمة حين رأوهم يختلفون ويتنافسون ، حتى قال أبو طلحة « أنا كنت لأن تدفعوها أخوف منى لأن تنافسوها » .

ولم يكن من حل للموقف إلا أن يخرج الاختيار من يد المرشحين . ولما لم يكن سبيل إلى إدخال عناصر إلى المجلس من خارجه ، فقد كان السبيل الوحيد هو الذى تنبه له عبد الرحمن

---

(١) انظر الطبرى : ٤/١٩١ — ١٩٢ ، ٢٢٧ — ٢٣٩ .

ابن عوف ، وهو أن يخلع أحدهم نفسه من الأمر على أن يختار للمسلمين . ولما عرض عبد الرحمن فكرته ولم يجد منهم من تطيب نفسه عن الخروج من الأمر ، خلع هو نفسه منه على أن يختار المسلمين من هؤلاء الخمسة ناصحا لله وللمؤمنين . ولم يكن من اليسير أن يرضى واحد من الأربعة الموجودين أن يوكل الأمر إلى عبد الرحمن ؛ فقد كان على يخشى أن يميل عبد الرحمن إلى عثمان لصهر كان بينهما ، وكان هو وغيره يخشى أن يميل عبد الرحمن إلى سعد لقرابته له ، ولقد بدا خوف على منذ قرر عمر مجلس الشورى ، ورأى أن الخلافة مائلة عنه ، وأظهر مخاوفه هذه لعمه العباس ، معللا لها بأن عمر قرن به عثمان وقال كونوا مع الأكثر ، فإن رضى رجلان رجلا ، ورضى رجلان رجلا ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، فسعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر عثمان لا يختلفون ، فيوليها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن ، فلو كان الآخران معه ، لم ينفعاه ، بله إنه لا يرجو إلا أحدهما . ووافقه العباس على مخاوفه وحذره هؤلاء الرهط « فإنهم لا يبرحون يدفعوننا عن هذا الأمر حتى يقوم لنا به غيرنا » .

ولكن القوم أدركوا أنه لا سبيل لحسم الأمر بغير ما عرض عبد الرحمن ، فتعاطوا المواثيق والعهود : على ألا يألو عبد الرحمن المسلمين نصحا ، وعلى ألا يميل مع الهوى ولا يتأثر بقرابة أو صهر ، وعلى أن يقبل القوم من يختاره لهم من بينهم . ولو اتسع المجلس لكثير من المشرين الذين يشاركون وليس لهم من الأمر شيء ، لما تعرض للاختلاف والشك ، ولو كان مؤلفا من المشرين الذين تعرض عليهم أسماء المرشحين ليختاروا واحداً منهم ، لكان أفضل وأقدر من تشكيل هذا المجلس من المرشحين أيهم انتخب فهو خليفة ، ولزال عن النفوس الحرج وكان الاختيار أكثر تجرداً من نوازع النفس .

ويلاحظ أن مجلس الشورى كما قرره عمر كان مكونا من هؤلاء الرجال من قريش ، وأهمل الأنصار فلم يجعل لهم نصيب فى شهود الشورى ، ولم يجعل لهم رأى فى اختيار المرشحين . ولقد خالف ذلك ما جرى عليه الأمر فى يوم السقيفة ، فإن الأنصار كانوا

طرفاً فى البحث والمناقشة ، وإذا كان المسلمون قد اتفقوا فى هذا اليوم على أن الإمامة فى قريش ، فلم يكن ذلك يعنى أن قريشا وحدها التى تختار الإمام ، وإنما كان المسلمون هم ولاة هذا الاختيار . وإذا كان قد استقر فى نفوس المسلمين أن الاختيار لأصحاب الحل والعقد ، فإن الحل والعقد لم يكن لقريش وحدها فى عهد أبى بكر وعمر ، وقد قال أبو بكر للأنصار فى يوم السقيفة « نحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور » فهم من أهل الحل والعقد ، وقد جرى أبو بكر وعمر فى سياتهما على مشورة المهاجرين والأنصار فى كل ما يتصل بمصالح المسلمين . لذلك كان طبيعيا أن يشهد الأنصار مجلس الشورى ويشاركوا فى اختيار الإمام ، بل كان الأفضل أن يجمع مجلس الشورى إلى قريش والأنصار قوما من زعماء العرب وقواد المسلمين وكبار الولاة والعمال ، فهم شركاء فى إدارة الدولة وحمل أعبائها . ولو قد حدث هذا لتجنب المسلمون كثيراً مما تعرضوا له(١) ، ولكان خليقا ألا تلقى قريش النقد اللاذع الذى يعبر عن المرارة ، كما صوره أحد رجال العرب فيما بعد حين وقع الخلاف بين على وطلحة والزبير ، حيث يقول « فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بايعتم رجلا منكم ، والله ما استأمرتمونا فى شىء من ذلك فرضينا واتبعناكم ، فجعل الله للمسلمين فى إمارته بركة ، ثم مات رضى الله عنه واستخلف عليكم رجلا منكم ، فلم تشاورونا فى ذلك ، فرضينا وسلمنا ، فلما توفى الأمير جعل الأمر إلى ستة نفر ، فاخترتم عثمان وبايعتموه من غير مشورة منا ، ثم أنكرتم من ذلك الرجل شيئا فقتلتموه عن غير مشورة منا ، ثم بايعتم عليا من غير مشورة منا ، فما الذى نقمتم عليه فنقاتله ؟! »(٢) .

على أن تخصيص المجلس على رجال قريش وحدها قد أدى إلى إثارة ظاهرة خطيرة فى صفوف قريش نفسها ، ذلك هو التنافس بين بطونها المختلفة . وكانت هذه الظاهرة خفية من قبل ، لا تكاد تظهر حتى تختفى منذ أول قيام الخلافة ، فقد ظهرت العصبية

---

(١) انظر طه حسين : ١/٦٠ — ٦٣ .

(٢) الطبرى : ٤/٤٦٩ — ٤٧٠ .

فى بيوت قريش بعد اختيار أبى بكر مباشرة ، وتولى أمرها بنو عبد مناف ، فقد روى أن أبا سفيان بن حرب ، لما اجتمع الناس على بيعة أبى بكر ، أقبل يقـول « والله إنى لأرى عجاجة لا يطفئها إلا الدم ، يا آل عبد مناف فيم أبو بكر من أموركم ، أين المستضعفان ، أين الأذلان ؟ ! على والعباس » ثم تقدم إلى على يقول « أبا الحسن ، ابسط يدك أبايعك » ولـكن عليا زجره ، ورأى أنه يبغى الإسلام فتنة (١) . وقدم خالد بن سعيد بن العاص من اليمن ، فتلبث ببيعته شهرين ، ولقى عليا بن أبى طالب وعثمان بن عفان ، فقال · « يابنى عبدمناف ، لقد طبتم نفسا عن أمركم يليه غيركم » ثم قال : « يا أبا الحسن ، يا بنى عبد مناف ، أغلبتم عليها ؟! » فقال على « أمغالبة ترى أم خلافة ؟ » قال « لا يغالب على هذا الأمر أولى منـكم يا بنى عبد مناف »(٢) .

وبنو عبد مناف فرعان كبيران : فرع هاشم ، وفرع أميـة ، فأما بنو هاشم فهم أهل النبى الأقربون ، وفيهم من فضل القرابة والسابقة والـكفاية ما يرشح واحدا منهم للخلافة ، وكان رجلهم فى ذلك الوقت عليا بن أبى طالب ، ولقد كان من الممكن أن ينال علىّ الخلافة بعد النبى لولا ما جرى من تقديم أبى بكر فى يوم السقيفـة ، ثم عهد أبو بكر إلى عمر حين حضرته الوفاة . وكان بنو هاشم وعلى رأسهم على يرون أنفسهم أصحاب حق أبعدوا عنه ، ولـكنهم لا يرون الاعتراض لـما كانوا يرونه من تحقيق المصلحة باختيار أبى بكر ثم عمر لفضلهما وكفايتهما . لـكن قريشا كانت ترى رأيا آخر صوره عمر بقوله فى حديث له مع ابن عباس «يا ابن عباس ، أتدرى ما منع قومكم (قريش) منهم (بنو هاشم) بعد محمد ؟. كرهوا أن يجمعوا لـكم النبوة والخلافة ، فتبجحوا على قومكم بجحا بجحا ، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفقت(٣)» . وكان بنو هاشم يدركون هذا من قريش ؛ فعلى يقول

---

(١) الطبرى : ٣/٢٠٩ — ٢١٠ .

(٢) نفس المصدر : ٣/٣٨٧ — ٣٨٨ .

(٣) نفس المصدر : ٤/٢٢٣ .

لبعض بنى هاشم بعد وضع عمر لمجلس الشورى . «إن أطيع فيكم قومكم لم تؤمروا أبدا »(١). ويقول أثناء مشاورات عبدالرحمن بن عوف . « إن الناس ينظرون إلى قريش ، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول . إن ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا ، وما كانت فى غيرهم من قريش تداولتموها بينكم »(٢) . أما بنو أمية ، فكانوا يدركون أنه لاحظ لهم من التقدم فى الإسلام يرشحهم لتولى الخلافة ، فهم الذين قادوا قريشا لحرب النبى صلى الله عليه وسلم حتى أجبرت قريش على الاستسلام ، فعفا عنهم النبى فى عفوه العام عن قريش ، فكانوا من الطلقاء ، ثم كانوا ممن تألفهم النبى بالعطاء بعد غزوة حنين ، فكانوا من المؤلفة قلوبهم . ولم يكن لهم رجل يطمعون فى خلافته غير عثمان لسبقه وفضله ، ولكن عثمان لم يظهر على مسرح الترشيح للخلافة ، ولم ينظر إليه الناس عند استخلاف أبى بكر ولا عند استخلاف عمر . ولذلك كان بنو أمية فى نظرهم للخلافة ينادون بعصبية بنى عبد مناف . ولم يكن بين بيتى عبد مناف تنازع فى الجاهلية كما يزعم المؤرخون (٣) ، بل كانوا أهل بيت واحد، شرف بعضهم لبعض شرف ، وفضل بعضهم لبعض فضل(٤) . ولم يباعد بين البيتين إلا ظهور الإسلام ووقوف قريش كلها ضد النبى ، وقيادة أبى سفيان لقريش فى الصراع بين مكة والمسلمين ، ولكنهم مع ذلك لم يكونوا كباقى بطون قريش فى عداوتها ، بل ظلت العلاقات طيبة بين بنى أمية ورجال بنى هاشم برغم ذلك الصراع ، لذلك كانت منافسة بنى أمية على الخلافة تتوارى دائما وراء عصبية بنى عبد مناف . فلما قرر عمر مجلس الشورى وجعل فيه

---

(١) الطبرى : ٤/٢٢٩ .

(٢) نفس المصدر : ٤/٢٣٣ .

(٣) انظر ابن سعد : ١/٥٥ — ٦٨ . البلاذرى : ١/٦٠ — ٦١ ، ٧٢ — ٧٣ . اليعقوبى : ١/٢٠٠ — الطبرى : ٢/٢٤٩ ، ٢٥٣ . ابن الأثير : ٢/٩ — ١٠ . المقريزى : النزاع والتخاصم : ٣ — ١٧ .

(٤) ابن هشام : ١/١٦٢ . ابن خلدون : ٣/٢ — ٣ . وانظر أحمد الشريف — مكة والمدينة : ٩٨٣ — ١٣٤ .

عليا وعثمان وهما من بنى عبـد مناف ، انقسمت العصبية « العبد منافية » إلى عصبيتين : هاشمية ، وأموية ، وانضافت العصبية الأموية إلى عصبيات قريش ضد بنى هاشم .

ولقد بدت هذه العلل كلها بعد يوم وبعض يوم من انعقاد مجلس الشورى ، الأمر الذى دعا عبد الرحمن بن عوف إلى اقتراح ما اقترح ، وجعل الآخرين يرون أنفسهم مضطرين إلى قبول اقتراحه ، وجعل عبد الرحمن يخرج عن المجال المحدد بين الستة المجتمعين إلى المجال العام فى المدينة كلها ، يشاور الناس ويباحثهم على اختـلاف درجاتهم ، ولم يقصر الأمر على الرجال ، بل تعداه إلى فضليات النساء . وفى الوقت الذى كان عبد الرحمن يشاور فيه الناس فى أمر الاستخلاف ، كان النشاط الأموى لتزكية استخـلاف عثمان متجها إلى ضم قريش وراءه ، بينما كان بنو هاشم يعتمدون فى تزكية علىّ على المسلمين من غير قريش . فلما جلس عبد الرحمن على المنبر فى صبيحة اليوم الذى أراد أن يحسم فيه الاختيار ، قال عمار بن ياسر : «إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليا » ، وأيده المقداد بن الأسود ، فقال : «صدق عمار ، إن بايعت عليا ، قلنا : سمعنا وأطعنا » . وقال عبد الله بن سعد بن أبى سرح : «إن أردت ألا تختلف قريش فبايع عثمان » . وأيده عبد الله بن أبى ربيعة فقال : «صدق ، إن بايعت عثمان قلنا : سمعنا وأطعنا» : وتـكلم بنوهاشم وبنو أمية ، وقام عمار يزكى بنى هاشم ويقول للناس : « فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ! » : فنهره رجل من بنى مخزوم ، وقال له : « وما أنت وتأمير قريش لأنفسها »(١) .

فـكأن قصر مجلس الشورى على هذا النحو جعل عبد الرحمن يخرج بالأمر إلى المجال العام فى المدينة ، حيث يشاور ويباحث ، وفى هذا المجال برزت العصبية الأموية التى استطاعت أن تنجح فى تـكتيل قريش وراء إختيار عثمان ، فلما تم الاختيار أحاطت برجلها وجعلت الأمر فى يدها ، فـكان لذلك أثره الخطير فى تطور الأحداث .

(١) الطبرى : ٤/٢٣٢ — ٢٣٣ . ابن الأثير : ٣/٣٤ — ٣٧ .

وطلب سعد بن أبي وقاص من عبد الرحمن — وقد رأى احتدام المناقشة — أن يفرغ من الأمر قبل أن يفتتن الناس ، فدعا عبد الرحمن عليا ، فأخذ بيده وقال : « هل أنت مبايعى على كتاب الله وسنة نبيه وفعل أبي بكر وعمر ؟ » . قال على : « اللهم لا ، ولكن على جهدى من ذلك وطاقتى . » فأرسل يده ، ثم دعا عثمان ، فأخذ بيده وسأله نفس السؤال ، فأجاب عثمان بنعم ، فقال عبد الرحمن : « اللهم اسمع واشهد ، اللهم إنى قد جعلت ما فى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان » ثم قام الناس فبايعوا عثمان وأقبل على فبايعه.

هل كان عبد الرحمن فى موقف مفاضلة بين على وعثمان ، أم أنه كان قد قرر أمراً ؟ وهب أن عليا أجابه بنعم حين سأله ، أكان مبايعه وتاركا عثمان ؟ أم كان يسأل عثمان نفس السؤال ؟ وعنه ذلك يقع فى الحرج بين رجلين قبل كل منهما أن يعطيه العهد الذى سأل ؟ أم هل كان عبد الرحمن على علم سابق بإجابة كل من الرجلين ، استخلص هذا من حديثه مع كل منهما على انفراد ؟ أم أنه كما أورد ابن كثير(١) اجتهد فى تقديم عثمان ؟ قد يكون الأمر على غير ما جرت عليه الروايات ، وأن عبد الرحمن وصل من مشاوراته إلى أن الأكثرية ترغب فى عثمان ، وأنه لذلك استدعاه وحده وأخذ عليه العهد وبايعه ، ويرجح هذا أن الناس وبخاصة قريشا قد ضاقوا بشدة عمر ، ورغبوا فى حياة لينة فى كنف رجل اشتهر باللين ، ولم يكونوا يرغبون فى الاستمرار على مثل ما كانت عليه السياسة العمرية من القصد والتأثم والشدة على يد رجل قال عنه عمر : إن ولى على فأحر به أن يحملهم على طريق الحق .

مهما يكن الأمر فقد بايع الناس عثمان ، وبايعه على لم يتأخر وإن لم تخل نفسه من ألم أن عدل عنه . واستقبل عثمان بخلافته غرة المحرم من عام ٢٤ هـ(٢) .

---

(١) البداية والنهاية : ٧/١٦٣ . أورد اليعقوبى (٢/١٤٦) ما يفيد عرفان عثمان هذا لابن عوف ، فرغب لذلك فى استخلافه من بعده ، « أن عثمان اعتل علة اشتدت به ، فدعا حمران بن أبان ، وكتب عهدا لمن بعده : وترك موضع الإسم ، ثم كتب بيده عبد الرحمن بن عوف ، وربطه وبعث به إلى أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فقرأه حمران فى الطريق فأتى عبد الرحمن ، فأخبره فقال عبد الرحمن — وغضب غضبا شديداً — استعمله علانية ويستعملنى سراً ! » .

(٢) انظر الطبرى : ٤/٢٢٧ — ٢٤٢ . طه حسين : ١/٥٤ — ٦٤ .

استقبل عثمان خلافته وفى رقبته عهد بأن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه وفعل أبى بكر وعمر ، وكان لقبول عثمان لهذا العهد دون تحفظ ، أثر كبير فى مجريات الأحداث من بعد ، فقد التزم بالسير على سياسة عمر ، وهى سياسة قوية تحتاج إلى حزم وإلى معاناة كبيرة والظروف قد تغيرت فى حياة عمر نفسه ، فقد أقبلت الدنيا على العرب بعد الفتوح العظيمة التى تمت ، وعرف العرب حياة الحضارة بمخالطتهم لأهل البلاد المفتوحة ومعيشتهم فى الأمصار . وكان ما أخذ به عمر نفسه وأهله ، وما أخذ به عماله وولاته من الشدة ، وما أخذ به قريشاً من الحجر على أعلامهم فى المدينة ، وخوفه من طمع قريش ومن أرستقراطيتها ، أمر يشق على النفوس تحمله ، وقد برمت قريش بعمر وبرم بها ، ولكن سياسة عمر مع ذلك قد تركت فى النفوس أثراً كبيراً ، ونالت من إعجاب الناس حظا وافراً ، ورضى عنها أهل التقى والورع من صحابة رسول الله ؛ فكانت مخالفتها ، وإن نالت رضاء الراغبين فى التيسير أول الأمر ، إلا أنها استهدفت إلى نقد من المتزهدين أولا ، ثم أدت إلى نقد عام فيما بعد .

وحين استقبل عثمان خلافته كانت أمامه قضية عليه أن ينظر فيها ، ذلك أن عبد الرحمن ابن أبى بكر قال غداة طعن عمر : « مررت على أبى لؤلؤة عشى أمس ، ومعه جفينة والهرمزان وهم نجى ، فلما رهقتهم ثاروا ، وسقط منهم خنجر له رأسان ، نصابه فى وسطه ، فانظروا بأى شىء قتل » . ولما جىء بالخنجر الذى استعمله أبو لؤلؤة وجد على الصفة التى وصفها عبد الرحمن بن أبى بكر ، فسمع بذلك عبيد الله بن عمر ، فأمسك حتى مات عمر ، ثم اشتمل على السيف فأتى الهرمزان فقتله ، فلما عضه السيف قال « لا إله إلا الله » ثم مضى حتى أتى جفينة — وكان نصرانيا من أهل الحيرة ، أقدمه سعد بن أبى وقاص إلى المدينة للصلح الذى بينه وبينهم ، وليعلم بالمدينة الكتابة — فلما علاه بالسيف صلّب بين عينيه ، وكذلك قتل ابنة أبى لؤلؤة . وبلغ ذلك صهيباً ، فبعث إليه من يكفه عن المسلمين ، إذ كان يقول فى ثورة غضبه « والله لأقتلن رجالا ممن شرك فى دم أبى » ، ثم قبض عليه سعد بن أبى وقاص ، وحبسه فى داره حتى أخرجه عثمان إليه .

وشاور عثمان من حضره من المهاجرين والأنصار فى أمر عبيد الله ، هذا الذى ثأر

لنفسه بنفسه عن غير بينة ، فقتل رجلا مسلماً وذميين دون تحقيق ودون أن يخوله السلطان قتلهما . فأما أهل الفقه والحرص على إقامة الحدود وعلى رأسهم علىّ ، فأشاروا بالقوَد ، لأن عبيد الله أحدث فى الإسلام بتعديه حداً من حدود الله ، وافتئاته على حق السلطان . ولكن بعض المهاجرين قالوا « قتل عمر أمس ، ويقتل ابنه اليوم » فقال عمرو بن العاص « يا أمير المؤمنين إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان ، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك » فقال عثمان « أنا وليهم ، وقد جعلتها دية ، واحتملتها فى مالى[1] » .

تلك كانت أول قضية عرضت لعثمان فى خلافته ، وكان تصرفه فيها أول عمل يكشف عن مدى الفرق بين سياسته وسياسة عمر التى التزم بالسير على منوالها ، فقد كانت سياسة عمر تقوم على الحزم والشدة العادلة ، وقد رأينا من قبل كيف كانت سيرته ، فلو كانت هذه القضية أمام عمر لأقام الحد دون نظر إلى شخص القاتل أو عشيرته ، لا تأخذه فى الله لومة لائم . ولكن عثمان جرى مع طبيعته فى السماحة واللين ، وهى الطبيعة التى وسمت سياسته كلها طول مدة خلافته ، وهو فى هذه القضية لم يعطل حدا من حدود الله ، وإنما استعمل حقه كإمام فى أن يعفو ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يعفو من غير دية . وقد قرر عثمان الدية ، ولكنه احتملها فى ماله ، وكان هذا إمعانا منه فى السماحة واللين ، فإنه حين احتمل الدية فى ماله انتفت بذلك صورة العقاب المنطوية وراء الحد ، ومن أجل ذلك لم يرض كثير من المسلمين المتشددين عن قضاء عثمان ، فكان من الأنصار من لبث يذكر عبيد الله بقتل الهرمزان ويتهدده بالاقتصاص منه ، كما يذكر عثمان بأنه عفى بغير حق[2] ولو أن عثمان حين حقن دم عبيد الله فرض عليه و أسرته الدية ، ولو أنه حين احتمل الدية فى ماله أمسك عبيد الله فى السجن تعزيراً له وتأديبا ، لكان قد قام بنوع من الزجر لمثل عبيد الله ممن تسول لهم نفوسهم الاعتداء على الحدود ، ولكن عثمان مضى فى اللين وإيثار العافية ، وتجنب ما يحفظ

(١) انظر الطبرى: ٢٣٩/٤ — ٢٤٠ . ابن الأثير: ٣٩/٣ . الذهبى: ٧١/٢ . ابن كثير: ١٤٨/٧ .

(٢) انظر شعر زياد بن لبيد البياضى فى عبيد الله وعثمان فى الطبرى : ٢٣٩/٤ — ٢٤٠ .

قلوب العرب بخاصة وقلوب الطبقة الممتازة من المهاجرين وأبنائهم بنوع أخص[1] ، وهو بهذا التصرف قد غاير من السياسة العمرية التي التزم بها منذ يوم واحد ، ومن الحق أن نقول إن عثمان لم يقصد إلى هذه المغايرة وإنما جرى مع طبعه في السماحة واللين ، وقد رضي عن هذه السياسة قوم ، وسخطها آخرون ، ومن هنا كان بدء خلافة عثمان محاطا بشيء من الشك والاختلاف ، وقد وسم هذا الحكم خلافته بما يميزها عن خلافة عمر وهو الرفق واللين[2].

ولقد مضى عثمان في سياسته الرفيقة اللينة ، فلم تكد البيعة تتم له ، ويفرغ من النظر في قضية عبيد الله بن عمر على النحو الذي رأينا ، حتى زاد الناس في أعطياتهم مائة مائة[3] ، ولم يكن قد طرأ شيء على الناس أو على بيت المال يوجب هذه الزيادة ، ولعل عثمان أراد أن يستهل خلافته بالتوسعة على الناس . ثم لم يكتف بهذه الزيادة يزيدها للناس في أعطياتهم وإنما وفد الأمصار لأول مرة[4] ، أي أنه دعا الأمصار إلى أن توفد وفودها للعطاء والإجازة ، ولم يفعل هذا أبو بكر ولا عمر من قبله ، وليس لعثمان غرض واضح من توفيد الأمصار إلا التحبب والبذل والسخاء ، ولكنه سخاء ليس على حسابه ، وإنما على حساب بيت مال المسلمين الذي هو أمين عليه . ثم أتبع ذلك بأن زاد في التوسعة على الناس في شهر رمضان ، ذلك أن عمر كان قد جعل لكل فرد من أهل المدينة درهما في كل يوم من أيام الصوم ، وجعل لأزواج النبي لكل واحدة درهمين ، يوسعون به على أنفسهم وعيالهم ، وقد فضل عمر ذلك على مد الموائد العامة لإطعام الناس في هذا الشهر ، فلما استخلف عثمان أجرى العطاء في رمضان على ما كان يفعل عمر ، ثم زاد فمد الموائد في المسجد للمتعبدين ، والمعتكفين وأبناء السبيل والفقراء[5] . وما من شك في أن هذا كان إمعانا من عثمان في البر

---

(١) انظر الرياض النضرة : ٢/١٩٩ .

(٢) انظر طه حسين : ١/٦٥ — ٦٨ . الريس : عبد الملك بن مروان : ٢٩٤ — ٢٩٦ .

(٣) الطبرى : ٤/٢٤٢ . ابن الأثير : ٣/٤١ . ابن كثير : ٧/١٤٧ — ١٤٨ .

(٤) نفس المصادر .

(٥) الطبرى : ٤/٢٤٥ — ٢٤٦ . ابن كثير : ٧/١٤٨ .

والإحسان ، ولكنه إحسان قد يغرى بعض الناس بالتزيد فى الانتفاع بالأموال العامة حين تغلبهم نفوسهم على التعفف . فيضيفون عطاء الصوم إلى عطائهم ثم يغشون الموائد العامة مع الطارئين وذوى الحاجات[١] .

ولم يقف عثمان عند حد البر العام يفيضه على الناس ، وإنما أخذ يصل الأعلام من صحابة رسول الله بالصلات ، فوق ما كان لهم من العطاء المفروض ، فقد وصل الزبير بن العوام بستمائة ألف ، ووصل طلحة بمائتى ألف[٢] ، ونزل له عن خمسين ألفا كانت دينا عنده[٣] ، وكان ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب شريكا لعثمان فى الجاهلية ، فطلب إلى عثمان أن يكتب له إلى ابن عامر وهو على البصرة أن يسلفه مائة ألف ، فكتب فأعطاه مائة ألف وصله بها وأقطعه داراً[٤] .

بهذه السياسة اللينة التى سار عليها عثمان ، انحرف عن سياسة عمر الذى كان لا ينفق من بيت المال إلا بمقدار الحاجة إلى الإنفاق ، وقد رأينا من قبل كيف كانت سياسته فى المال ، ورأينا كيف أنه حاسب خالداً بن الوليد حين أجاز الأشعث بعشرة آلاف مع أن خالداً اعترف أنها من ماله الخاص . ومع أن عثمان من غير شك لم يدهن فى دينه ، ولم يتجاوز حقه كإمام ، ولم يتعمد المحاباة ، وإنما رأى فى بيت المال سعة فوسع على الناس ، وقدر لصحابة رسول الله سابقتهم وفضلهم وذكر لهم ما احتملوا فى سبيل الإسلام من شدة . فوصلهم ، وهو لم يداخله شك فى أنه لا يخالف عن السنة الموروثة ، إلا أن هذا البذل والتوسعة فتحت بابا من الطمع فى الأموال العامة لم يعرف عثمان بعد ذلك كيف يسده ، وهذا ما كان يخشاه عمر ، وكان هذا العمل من عثمان يحمل فى ثناياه نقداً غير مباشر لسياسة عمر ، وإن كان هذا

---

(١) أنظر طه حسين : ١/٧٦ .
(٢) ابن سعد : ق ١ ص ٨٥٨ . (طبعة ليدن) .
(٣) ابن الأثير : ٣/٩٣ . ابن كثير : ٧/٢١٥ .
(٤) الطبرى : ٤/٤٠٤ — ٤٠٥ :

لم يدر بخلد عثمان وإنما هو يجرى مع طبيعته . ولو أنه وقف عند هذا الحد من التوسعة على الناس وإجزال الصلات للأعلام من صحابة رسول الله ، لربما لم يأخذ عليه أحد من الناس شيئا ، ولمضت مدة خلافته كلها فى طمأنينة واستقرار ، ولـكن أنى له أن يقف عند هذا الحد ، وقد انفتح هذا الباب ولم يعد إغلاقه أمراً ميسوراً ! .

وما لبث هذا اللين والبر أن جر إلى مخالفات كانت لها نتائج خطيرة ، لم يقصد إليها عثمان ، وإنما أنجر إليها بحكم طبيعته اللينة أو بحكم الظروف التى أحاطت به .

وأول هذه المخالفات أنه لم يأخذ بسياسة عمر نحو أعلام المهاجرين من قريش ، الذين كان عمر قد حجر عليهم الخروج إلى البلدان إلا بإذن وأجل ، فلما ولى عثمان رفع عنهم هذا الحجر ، فأنساحوا فى البلاد ، « فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس ، انقطع إليهم من لم يكن له طول ولا مزية فى الإسلام ، فـكان مغموما فى الناس ، وصاروا أوزاعا إليهم وأملوهم ، وتقدموا فى ذلك ، فقالوا : يملـكون فنـكون قد عرفناهم وتقدمنا فى التقرب والانقطاع إليهم ، فـكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام ، وأول فتنة كانت فى العامة ليس إلا ذلك[1] » . « إذ لم تمض سنة حتى اتخذ رجال من قريش أموالا فى الأمصار ، وانقطع إليهم الناس ، وثبتوا سبع سنين كل قوم يحبون أن يلى صاحبهم[2] » . وكانت الظروف قد تغيرت فى أمصار الدولة الـكبرى ، وبخاصة فى مصرى العراق : البصرة والـكوفة ، فقد كانت هذه الأمصار تنطوى على قوة جذب كبيرة ، فهى موطن القوة الإسلامية ، فيها الجند المقيمون ، وأمامها الثغور المفتوحة ، ووراءها الفتوح الممتدة . ثم هى موطن الثروة ، ومصدر قوة الدولة المادية ، وكان المسلمون إذا فـكروا فى الخروج من المدينة اتجهوا إلى هذه الأمصار فى العراق أو الشام أو مصر ، كل بحسب نيته ، فالذين يلتمسون الآخرة يجدون حظهم فى الجهاد ، والذين يلتمسون الدنيا يجدون حظهم فى ضروبه

(١) نفس المصدر : ٤/٣٩٧ .

(٢) الطبرى : ٤/٣٩٨ . وانظر ابن كثير : ٧/٢١٨ .

الـكسب المختلفة من تجارة أو زراعة . كما كثر الطارئون عليها من الأعراب الذين أغراهم ثراء الحضر أو كان الخليفة يرسلهم روادف للجند لاستمرار الفتوح ، ومن الأسرى الذين كان يعود بهم الفاتحون ويقتسمونهم بينهم مع الغنيمة ، ونشأ من هؤلاء الطارئين جميعاً جيل جديد اختلف فى تربيته ونشأته عن الجيل السابق .

وقد كثر هؤلاء الطارئون والناشئون حتى زاحموا أهل الشرف والبيوتات والسابقة والقدمة وكادوا يستأثرون دونهم بالأمر ، فاضطربت الأمور ، وقامت المشكلات وصعب حلها على الولاة . وقد صور هذا سعيد بن العاص والى الـكوفة فى كتابه إلى عثمان : « إن أهل الـكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة . والغالب على تلك البلاد روادف ردفت ، وأعراب لحقت ، حتى ما ينظر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ونابتتها[1] » .

ولمعالجة هذه الحالة التى تنذر بالخطر ، اتخذ عثمان قراراً خطيراً ، ظن أنه يستطيع به أن يصلح ما فسد من الأحوال ، ولـكنه أدى إلى نتائج على غير ما قصد له . وكان هذا القرار هو أن ينتقل إلى الناس فيؤهم حيث أقاموا من بلاد العرب ، بمعنى أن يستبدل الناس عما كان لهم من أرض فى العراق أو فى غيره من الأقاليم أرضا فى الحجاز أو فى غيره من بلاد العرب ، فإذا فعلوا أقاموا فى بلادهم لم ينتقلوا عنها ، وبذلك تقل الهجرة إلى الأقاليم فيخف الضغط عليها ، ثم إن الذين يشترون أرضا فى الحجاز وبلاد العرب مكان أرض الأقاليم سيحتاجون بالضرورة إلى كثير من الأيدى العاملة للعمل بها والقيام عليها ، فيـكثر اجتلاب الرقيق والموالى إلى بلاد العرب ، وبذلك يخف الضغط على الأقاليم من الأسرى الذين يردون إلى الأمصار ، كما تقل كذلك هجرة الأعراب إليها . وقد فرح الناس بهذا القرار « وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن فى حسابهم . . . وقد فرجها الله عنهم به »[2] لأنه يوفر عليهم كثيراً من جهد السفر فى حالة بقائهم فى بلادهم ، أو يكفيهم

---

(١) الطبرى : ٤/٢٧٩ . وانظر طه حسين : ٢/١٠٢ — ١٠٣ .

(٢) الطبرى : ٤/٢٨٠ . ابن الأثير : ٣/٥٤ .

بمؤونة الهجرة . وقد كتب عثمان بذلك إلى الآفاق . فكان لهذا أبعد الأثر فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعقلية على السواء .

فقد استغل رجال قريش هذه الفرصة بعد أن أزال عنهم عثمان الحجر ، فأقبلوا على شراء الأرض فى الأقاليم بما كان لهم من أرض فى الحجاز ، وبما كان قد تجمع لهم من قبل من الأموال من الغنائم والعطاء والصلات ، وما كان لهم من مال نتيجة تجاراتهم واستثمار أموالهم ، لأنهم كانوا يرون أرض الأقاليم أكثر خصبا وأيسر استغلالا من أرض الحجاز . فطلحة بن عبيد الله كان قد استجمع له عامة سهمان خيبر إلى ما كان له سوى ذلك ، فاشترى به من نصيب من شهد القادسية والمدائن من أهل المدينة ممن أقام ولم يهاجر أرضا بالعراق ، كما اشترى من عثمان نفسه أرضا كان يملكها بالعراق ببئر أريس التى كان يملكها طلحة فى المدينة . وكذلك اشترى مروان بن الحكم بمال كان أعطاه إياه عثمان أرضا بالعراق ، وفعل مثل ذلك كثير من رجال القبائل بأموال كانت لهم فى جزيرة العرب من أهل المدينة ومكة والطائف واليمن وحضرموت ، فكل من كره الهجرة ليقيم بأرضه فى الأقاليم باع أرضه تلك واستبدال بها فيما يليه(١) .

ولكن الذين استطاعوا الانتفاع بهذا القرار هم أصحاب الأموال الضخمة الذين كانوا يستطيعون أن يشتروا من أصحاب الملكيات الصغيرة ، وكان جل هؤلاء من الصحابة من كبار القرشيين ، من أمثال طلحة والزبير ومروان بن الحكم . وقد أدى ذلك إلى كثرة النشاط المالى من بيع وشراء واقتراض واستبدال . ولم يقتصر ذلك على الحجاز وإنما شمل بلاد العرب والبلاد المفتوحة ، ونشأ عن ذلك وجود الإقطاعيات الضخمة والضياع الكبيرة ، وقام فيها العاملون من الأحرار والموالى والرقيق ، فنشأت فى الإسلام طبقة جديدة من الناس تمتاز إلى أرستقراطيتها التى تأتيها من المولد بضخامة الثراء وكثرة الأتباع(٢) .

(١) أنظر الطبرى : ٤/٢٨٠ — ٢٨١ .
(٢) طه حسين: ١/١٠٥ .

وقد أدى غنى هذه الطبقة إلى أن يستغلوا أموالهم السائلة التى لم يكن سيلها ينقطع فى أعمال الاستغلال الكبرى : فى التجارة وفى بناء الدور للكراء ، فتضاعفت الثروات ، وقد ذكر المؤرخون(١) أمثلة لثروات بعض كبار الصحابة من الأموال ، فيقول المسعودى « وفى أيام عثمان اقتنى جماعة من الصحابة الضياع والدور : منهم الزبير بن العوام ، بنى داره بالبصرة ، وهى المعروفة فى هذا الوقت — وهو سنة اثنتين وثلاثمائة — تنزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز من البحريين وغيرهم ، وابتنى أيضاً دوراً بمصر والكوفة والإسكندرية ، وما ذكرنا من دوره وضياعه فمعلوم غير مجهول إلى هذه الغاية . وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار ، وخلف ألف فرس ، وألف عبد وأمة ، وخططاً بحيث ذكرنا من الأمصار » .

« كذلك طلحة بن عبيد الله التيمى : ابتنى داره المشهورة به هذا الوقت ، المعروفة بالكناسة بدار الطلحيين ، وكان غلته من العراق كل يوم ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك ، وبناحية الشراة أكثر مما ذكرنا ، وشيد داره بالمدينة ، وبناها بالآجر والجص والساج » .

« وكذلك عبد الرحمن بن عوف الزهرى : ابتنى داره ووسعها ، وكان على مربطة مائة فرس ، وله ألف بعير وعشرة آلاف شاة من الغنم ، وبعد وفاته بلغ ربع ثمن ماله أربعة وثمانين ألفاً » .

و« وابتنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ، فرفع سمكها ، ووسع فضاءها وجعل أعلاها شرفات » .

« وقد ذكر سعيد بن المسيب أن زيد بن ثابت حين مات خلف من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفؤوس ، غير ما خلف من الأموال والضياع بقيمة مائة ألف دينار » .

---

(١) المسعودى : ٢ / ٣٤٢ — ٣٤٣ . [وانظر ابن خلدون : المقدمة : ٢٢٧ .

« وابتنى المقداد داره بالمدينة فى الموضع المعروف بالجرف على أميال من المدينة ، وجعل أعلاها شرفات ، وجعلها مجصصة الظاهر والباطن » .

« ومات يعلى بن منية وخلف خمسمائة ألف دينار ، وديونا على الناس ، وعقارات وغير ذلك من التركة ما قيمته مائة ألف دينار » ويعقب المسعودى على ذلك بأن هذا باب يتسع ذكره ويكثر وصفه ، فيمن تملك من الأموال فى أيام عثمان ، ولم يكن ذلك فى عصر عمر ابن الخطاب ، بل كان جادة واضحة وطريقة بينة .

وهكذا كانت نتيجة النظام الذى استحدثه عثمان أن نشأت هذه الطبقة الغنية ، « وبلغ نظام الطبقات فى المجتمع الإسلامى غايته بحكم هذا الانقلاب ، فوجدت الطبقة الأرستقراطية العليا ذات المولد والثراء الضخم والسلطان الواسع ، ووجدت طبقة البائسين الذين يعملون فى الأرض ويقومون على مرافق هؤلاء السادة ، ووجدت بين هاتين الطبقتين طبقة متوسطة هى طبقة العامة من العرب ، الذين كانوا يقيمون فى الأمصار ويغيرون على العدو ويحمون الثغور ، ويذودون عمن وراءهم من الناس وعما وراءهم من الثراء . والطبقة المتوسطة هى التى تنازعها الأغنياء ففرقوها شيعا وأحزابا »[1] ، ونستطيع أن نتصور عدد من يحيطون بهذه الشخصيات الغنية التى كانت تعتد بما لها من ماض مجيد فى الإسلام ، وبما لها من ثروة كبيرة ، فالتفوا حولها معجبين بمحامدها وبأخلاقها ، مأخوذين بأحاديثها عن مواقفها المجيدة وحسن بلائها فى نصرة الإسلام ، مفتونين بما يفيضه عليهم هؤلاء الأغنياء من هبات وأعطيات ، حتى أصبح كل فريق منهم يتمنى أن تصير الخلافة فى يد صاحبه[2] . ومن هنا بدأ الصراع أولا بين هؤلاء الأغنياء .

لكن ليس كل الطبقة الوسطى التف حول هذه الشخصيات الغنية ، بل الأكثرية العظمى نظرت إليها نظرة حسد ، ورأت أنها غلبتها على حظها ، واستأثرت دونها بجهودها

---

(١) طه حسين : ١/١٠٩ .

(٢) انظر ابن كثير : ٧/٢١٨ .

وفيء سيوفها . وإذا كان قد التف حول هؤلاء السادة أهل السابقة والقدمة فى الفتوح ، فإن الذين لا سابقة لهم ولا قدمة كانوا لا يبلغون مبلغ أولئك فى المجالس والحظوة ، « ثم كانوا يعيبون التفضيل ويجعلونه جفوة ، وهم فى ذلك يحتفون به ولا يكادون يظهرونه ، لأنه لاحجة لهم والناس عليهم ، فكان إذا لحق بهم لاحق من ناشىء أو أعرابى أو محرر استحلى كلامهم ، فكانوا فى زيادة وكان الناس فى نقصان ، حتى غلب الشر(١) » . ومن ثم قام الصراع بين الطبقة الوسطى وبين هؤلاء الأغنياء .

ولما كان هؤلاء الأغنياء من قريش فى الأغلب ، وكان العرب المقيمون فى الأمصار وبخاصة فى البصرة والكوفة ومضر من القبائل العربية التى ثارت على قريش بعد وفاة النبى ، وظهر منها المتنبئة مضاهاة لقريش ومنافسة لها ، وثورة على سلطانها ، وأنفة من الخضوع لحكمها ، ثم غلبت على أمرها بعد حروب الردة ، ثم اندفعت إلى الفتوح بعد أن أزال عنها عمر الحظر الذى أوقعه عليها أبو بكر ، فأدالت من دولة الفرس وغلبت الروم ، وأقامت الملك الإسلامى الكبير ، وكان الفىء نتيجة لجهودها ، فإنها حقدت على قريش أن استأثرت بالنصيب الأكبر من الفىء ، ثم استأثرت بالسلطان ، ثم ها هى تضيف إلى كل ذلك هذا الغنى العريض . ويصور ابن خلدون(٢) هذا الموقف بقوله : « كان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الأمصار جفاة ، لم يستكثروا من صحبة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا هذبتهم سيرته وآدابه ، ولا ارتاضوا بخلقه ، مع ما كان فيهم فى الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الإيمان ، وإذا بهم عند استفحال الدولة قد أصبحوا فى ملكة المهاجرين والأنصار من قريش وكنانة وثقيف وهذيل وأهل الحجاز ويثرب السابقين الأولين إلى الإيمان ، فاستنكفوا من ذلك وغصوا به ، لما يرونه لأنفسهم من التقدم بأنسابهم ، وكثرتهم ومصادمتهم فارس والروم ، مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس ابن ربيعة ، وقبائل كندة والأزد من اليمن ، وتميم وقيس من مضر . فصاروا إلى الغض

(١) الطبرى : ٤/٢٨١ .
(٢) المقدمة : ٢٣٩ .

من قريش والأنفة عليهم ، والتربص فى طاعتهم ، والتعلل فى ذلك بالتظلم منهم والاستعداء عليهم والطعن فيهم بالعجز عن السوية والعدول فى القسم عن التسوية » . وقد ظهر ذلك فى الكوفة قبل أن يظهر فى أى مصر آخر ، وكان ظهوره فيها منذ وقت مبكر فى عهد عمر (١) .

ولم يحدث هذا القرار تأثيره فى الأمصار فحسب ، بل كان له تأثيره الشديد فى بلاد العرب بعامة والحجاز بخاصة والمدينة بنوع أخص ، فإن الذين اشتروا الأرض من بلاد العرب ، أكثروا من استجلاب الرقيق للعمل فيها ، فكثرت الثروة وعظم الغنى ، ونشأت فى الحجاز طبقة من هذه الارستقراطية الغنية التى عمل لها رقيقها ، واتسع لها الوقت تصرفه فى فنون العبث واللهو والمجون « فكان الغناء والإيقاع والرقص والشعر الذى لا يصور جداً ولا نشاطا ، وإنما يصور بطالة وفراغا وتهالكا على اللذات »(٢) . وقد انصرف شباب المدينة إلى أنواع من اللهو ، اضطر الخليفة إلى استعمال الشدة معهم لمنعهم عنه ، روى الطبرى عن السرى ، عن شعيب ، عن سيف(٣) ، أن « أول منكر ظهر بالمدينة حين فاضت الدنيا ، وانتهى وسع الناس ، طيران الحمام والرمى على الجلاهقات ، فاستعمل عليها عثمان رجلا من بنى ليث ، فقصها وكسر الجلاهقات . وحدث بين الناس النشو . فأرسل عثمان طائفا يطوف عليهم بالعصا ، فمنعهم من ذلك . ثم اشتد ذلك ، فأفشى الحدود . ونبأ ذلك عثمان وشكاه إلى الناس ، فاجتمعوا على أن يجلدوا فى النبيذ ، فأخذ نفر منهم فجلدوا » ، ثم اضطر عثمان لاتخاذ موقف أشد من ذلك ، فخطب الناس محذراً متوعداً « يا أهل المدينة ، أنتم أصل الإسلام ، وإنما يفسد الناس بفسادكم ، ويصلحون بصلاحكم ، والله ، والله ، والله ، لا يبلغنى عن أحد منكم حدث أحدثه إلا سيرته ، ألا فلا أعرفن أحداً عرض دون أولئك بكلام ولا طلب . فإن من كان قبلكم كانت تقطع

---

(١) أنظر الطبرى : ٤/١٢١ — ١٢٢ ، ١٦٣ — ١٦٥ .
(٢) طه حسين : ١/١٠٥ .
(٣) الطبرى : ٤/٣٩٨ .

أعضاؤهم دون أن يتكلم أحد منهم بما عليه أو له » وجعل لا يأخذ أحداً منهم على شر أو شهر سلاح : عصا فما فوقها ، إلا سيّره عن المدينة ، فضج آباؤهم من ذلك ، وأخذوا فى نقد عثمان(١) .

وهكذا جاء قرار عثمان بعكس ما أريد منه ، وأحدث تغييراً خطيراً فى الدولة الإسلامية : فى أمصارها وعاصمتها ، وتعرض من ورائه عثمان ، كما تعرضت قريش بعامة إلى النقد والتذمر .

ولقد كان عثمان رضى الله عنه وصولا للرحم محبا لأهله لين العريكة كثير الإحسان(٢) ولذلك آثر بنى أمية بعطاياه ، وآثرهم بتقريبهم منه ، وآثرهم بشىء أهم من ذلك وأخطر ، هو مناصب الولاية فى الولايات الكبرى فى الدولة . وكان عثمان حسن النية قاصداً للخير ، ولكن القوم كانوا ذوى طموح فأحاطوا بعثمان وجعلوا من أنفسهم خاصته حتى عزلوه عن كبار الصحابة من أهل الشورى . وقد خالف عثمان بذلك عن سياسة عمر ، فقد رأينا كيف كانت شدة عمر على قريش بعامة ، وكيف كانت شدته على أهله وتحذيره لهم بخاصة ، وكيف كان استعماله للولاة على الأمصار لم يختص بها فريقا دون فريق من العرب ، ثم هو لم يستعمل من عشيرته أحداً . وقد أثار ذلك نقداً لعثمان ما زال يشتد حتى صار ثورة .

روى المؤرخون(٣) أن عثمان أرسل عبد الله بن سعد لغزو أفريقية ونفله خمس الخمس من غنائمها ، فتذمر الناس من ذلك وشكوا ، فرد عثمان الخمس عليهم(٤) ثم غزاها مرة أخرى فصالح بطريقها على ألفى ألف دينار وعشرين ألفا ، فأطلقها عثمان كلها فى يوم واحد لآل الحكم أو لآل مروان(٥) . ويقال إن مروان بن الحكم اشترى الخمس فى

---

(١) الطبرى : ٤/٣٩٩ .

(٢) انظر ابن حجر : الإصابة : ٢/٤٤٥ . ابن كثير : ٨/١٧١ . الذهبى : ٢/١٢٢ .

(٣) الطبرى : ٤/٢٥٤ . ابن الأثير : ٣/٤٥ . ابن كثير : ٧/١٥٢ .

(٤) الطبرى : ٤/٢٥٤ .

(٥) الطبرى : ٤/٢٥٦ . ابن كثير : ٧/٢٥١ .

هذه الغزوة بخمسمائة ألف دينار فوضعها عنه عثمان[1] . وذكر اليعقوبي أن عثمان زوج ابنته من عبد الله بن خالد بن أسيد وأمر له بستمائة ألف درهم ، وكتب إلى عبد الله بن عامر أن يدفعها إليه من بيت مال البصرة ، وروى عن ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن يسار ، قال : « رأيت عامل صدقات المسلمين على سوق المدينة إذا أمسى أتاها عثمان فقال له ادفعها إلى الحكم بن أبي العاص » ، وكان عثمان إذا أجاز أحداً من أهل بيته بجائزة جعلها قرضا من بيت المال ، فجعل خازن بيت المال يدافعه ، ويقول له يكون فنعطيك إن شاء الله ، فألح عليه ، فقال : إنما أنت خازن لنا ، فإذا أعطيناك فخذ وإذا سكتنا عنك فأمسكت . فقال : كذبت والله ما أنا لك بخازن ولا لأهل بيتك إنما أنا خازن المسلمين . وجاء بالمفتاح يوم الجمعة وعثمان يخطب ، فقال : أيها الناس ، زعم عثمان أني خازن له ولأهل بيته ، وإنما كنت خازنا للمسلمين . وهذه مفاتيح بيت مالكم . ورمى بها فأخذها ودفعها إلى زيد بن ثابت »[2] .

وقد دافع صاحب الرياض النضرة[3] عن عثمان بعد أن عدد ما نسب إليه في سياسة المال ، وكانت خلاصة دفاعه أن « ما ادعوه من إسرافه في بيت المال فأكثر ما نقلوه عنه مفترى عليه ومختلق ، وما صح منه فعذره فيه واضح » ولكن عثمان ليم على تصرفاته في بيت المال ، وعلى ترخصه في إعطاء أهله ، وأن الذين لاموه على ذلك كانوا خيرة الصحابة من أهل الشورى : علي والزبير وطلحة وسعد ، وأن عثمان وضح لهم وجهة نظره في هذا الأمر ، فقال : « إني أخبركم عني وعما وليت ، إن صاحبي اللذين كانا قبلي ظلما أنفسهما ومن كان منها بسبيل ، احتسابا ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعطي قرابته . وأنا في رهط أهل عيلة ، وقلة معاش ، فبسطت يدي في شيء من ذلك المال ، لمكان ما أقوم به فيه ، ورأيت أن ذلك لي ، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه ، فأمري لأمركم تبع »[4] . فعثمان يرى أن أبا بكر وعمر ضيقا على نفسيهما وأهلهما احتسابا ،

(١) ابن الأثير : ٣/٤٦ .
(٢) اليعقوبي : ٢/١٤٥ — ١٤٦ .
(٣) المحب الطبري : ٢/١٨٩ — ١٩٠ .
(٤) الطبري : ٤/٣٤٥ .

وأنه يعطى أهله ممن كانوا أهل علية وقلة معاش احتسابا ، فهو إذن يرى الأمر مشوبة واحتسابا ، ولا يراه سياسة واستصلاحا للرعية وبعداً عن التهمة والظنة ، وقدوة لمن دونه من الولاة والعمال ، وقد كان عمر يحرص على أن يجعل من نفسه وأهله قدوة لغيره من الناس والعمال ، فالتشديد ليس عنده احتسابا فحسب وإنما هو استصلاح للرعاية ولولاتها . ثم إن عثمان يرى الحرية للامام فى التصرف فى فضول بيت المال ينفقها كيف يشاء ، ما دام لا ينقص الناس من حقهم شيئا ، كأنما لا يرى للناس حقا فى بيت المال إلا ما هو متصل بأعطياتهم ، وكان عمر يرى أن المـال كله حق للمسلمين جميعا لا يصرف إلا فى مصالحهم ، وليس له ولا لآل الخطاب منه شىء ، وقد نهر رجلا من أهله جاء يطلب منه ، ولما كلم فيه ، قال « إنه سألنى من مال الله ، فما معذرتى إن لقيته ملكا خائنا ! ، فلولا سألنى من مالى؟! »(١) . وعثمان يخالف هذه السياسة التى أخذ على نفسه العهد بالتزامها ، ويرى أن الإمام مطلق التصرف فى فضول الأموال ، لا يُسأل عنها ، وإلا فلم هو إمام ؟ كما قال فى إحدى خطبه رداً على معارضيه « ألا فما تفقدون من حقكم ؟ والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ، ومن لم تكونوا تختلفون عليه . فضل فضل من مال ، فمالى لا أصنع فى الفضل ما أريد . فلم كنت أماما ! »(٢) . وهذه المعارضة ، وهذا الرد من عثمان ، يثبت أن عثمان تصرف فى بيت المال بما رآه من حقه كإمام ، وهو أمر لم ير له الناس حقا فيه . وقد كان عثمان باراً بأهله وكان غنيا وكان فى مكنته أن يجيزهم من ماله ، وقد فعل ، فما لامه أحد على ذلك وما اعترض عليه(٣) . ولو أن عثمان تصرف فى فضول بيت المال بما يسد خلة كل صاحب حاجة من عامة المسلمين ، لما لامه أحد ، فقد زاد فى أعطيات الناس فسرهم منه هذا ، وقد فعل عمر ذلك من قبل فلم يكن موضع تهمة ولا لوم(٤) . ولو كان آثر بصلاته من كان له سابقة وجهاد فى نصرة الإسلام لما كان

---

(١) الطبرى : ٤/٢٠٣ .
(٢) الطبرى : ٤/٣٣٩ .
(٣) انظر الطبرى : ٤/٣٤٨ .
(٤) انظر الطبرى : ٤/٩٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٢٤ .

ذلك منه موضع كراهة ، ولكن هؤلاء الذين وصلهم عثمان وآثرهم كانوا حربا على الإسلام ، وقد لحقهم سخط من رسول الله ، فلم تكن لعثمان حجة فى إيثارهم إلا أنهم قرابته ، فآذى بذلك شعور المسلمين ، وكان لذلك محل اعتراضهم واتهامهم .

فقد رد عثمان عمه الحكم بن أبى العاص وأهله إلى المدينة ، وكان النبى قد نفاه منها ، لشدة إيذائه للنبى قبل أن يسلم ، ولاستمراره على إيذائه بعد أن اضطر إلى الإسلام بعد فتح مكة ، وهاجر إلى المدينة بجاهلية نفسه . وقد حاول عثمان أن يحصل له على عفو النبى فلم يفلح ، كما حاول ذلك من أبى بكر وعمر فى خلافتهما فلم يقبلا ، فلما تولى الخلافة أعاد الحكم إلى المدينة ، فأنكر المسلمون ذلك وسعى إليه أعلام الصحابة فلاموه ، ولكنه زعم أنه كلم النبى فى رد الحكم فأطمعه فى ذلك ثم توفى قبل أن يرده ، وقد عرض هذا القول من قبل على أبى بكر وعمر فلم تقم عندهما هذه الحجة[١] وقد يكون عثمان رأى أن يرده بعد أن تاب وأقلع عما كان طرد من أجله ، وإعانة التائب مما تحمد — كما قال المحب الطبرى[٢] — إلا أن عثمان زاد فى تكريم الحكم عند وفاته فضرب على قبره فسطاطا فى يوم صائف ، فتكلم الناس فى ذلك ، فقال عثمان : قد ضرب فى عهد عمر على زينب بنت جحش فسطاط[٣] . فكأنه شبهه بإحدى أمهات المسلمين ، ولا سواء .

وقد يقال إن عثمان رد الحكم وبنيه إلى المدينة رقة لهم . ولكن سيرة عثمان مع الحكم وبنيه دلت على أنه ردهم إليها إيثارا لهم بالخير ، واستعانة بهم فى أمور السياسة والإدارة ، وكان يريد أن يجمع شمل الأسرة ليشتركوا فى الأعمال العامة ، وليجدوا المجال ليكون لهم شأن فى الإسلام كما كان لهم فى الجاهلية[٤] . يشهد على ذلك أن الناس حين سخطوا على عثمان ، وكلموا عليا فذهب إليه فلامه ، خرج إلى الناس فخطبهم مهدداً متكثراً بعصبيته ،

---

(١) أسد الغابة : ٢/٣٣ — ٣٥ ابن حجر : ١/٣٤٤ — ٣٤٥ .

(٢) الرياض النضرة : ٢/١٨٩ .

(٣) ابن حجر : ١/٣٤٥ .

(٤) الريس : عبد الملك بن مروان : ٨٠ وانظر طه حسين : ١/١٨٤ — ١٨٥ .

فيها قال « لا ، فقد والله عبتم على ما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم . ولنت لكم ، وأوطأت لكم كنفي ، وكففت يدى ولساني عنكم ، فاجترأتم على ، أما والله لأنا أعز نفراً ، وأقرب ناصراً ، وأكثر عدداً ، وأقمن إن قلت هلم أتِيَ إلى ، ولقد أعددت لكم أقرانكم ، وأفضلت عليكم فضولا ، وكشرت لكم عن نابى ، وأخرجتم منى خلقا لم أكن أحسنه ومنطقا لم أنطق به ؛ فكفوا عليكم ألسنتكم ، وطعنكم وعيبكم على ولاتكم » فإنى قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقى هذا » . ثم قام بعده مروان فقال « إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف »(١) .

وقد أحاط بعثمان رجال عشيرته ، يشيرون عليه ويتصرفون باسمه ، وكونوا حوله دائرة عزلته أو كادت عن أهل الشورى من الصحابة ، فأفسدوا على الخليفة كل مشورة صادقة ، وباعدوا بينه وبين الرجال الذين كانوا من الممكن أن يقفوا إلى جانبه فى غمرة الأحداث التى ألمت به وهددت جماعة المسلمين . وقد ساعد عثمان بضعفه أمام أقاربه وبتردده على استفحال نفوذ هؤلاء الأقارب أصحاب الطموح الكبير من ناحية ، وعلى ابتعاد كبار الصحابة عن مساندته من ناحية أخرى . ولاشك أن عثمان كان خالص النية حسن القصد ، وكان يرى أنه برَّ الناس وأحسن إليهم ، وألان لهم جانبه ، فجرؤوا لذلك عليه ، ولذا كان يضيق صدره بالنقد حتى ليستعمل العنف فى بعض الأحيان مع من يواجهه به وبخاصة من كان يراهم دون قريش منزلة حتى ولو كانوا من متقدمى الصحابة(٢) .

وقد بلغت المعارضة لسياسة عثمان فى المال ، ولسياسته فى محاباة أقاربه وتركه محاسبة ولاته حداً كبيراً ، كما بلغ ضيقه بهذه المعارضة حداً جعله يتخذ النفى وسيلة لقمعها أو للتخلص منها ، أو على أهون الأقوال قد جعلها وسيلة لإصلاح المعارضين من الناس وتأديبهم ، فعل هذا مع المعارضين من الصحابة فى المدينة ، ومع المعارضين فى الأمصار . فقد سير أبا ذر إلى الشام حين أنكر أبو ذر على عثمان ما رأى من كثرة عطاياه لأهله ولمن

---

(١) الطبرى : ٤/٣٣٨ — ٣٣٩ ، ابن كثير : ٧/١٦٩ .
(٢) أنظر اليعقوبى : ٢/١٤٧ — ١٥٠

يحيط به ، وأخذ فى نقد هذا التصرف حتى ضاق به عثمان . وفى الشام أنكر أبو ذر على معاوية تصرفه فى الأموال ، وقوله على ماء الفيء « مال الله » وإنما هو « مال المسلمين » وجعل يقول : « يامعشر الأغنياء ، وسوا الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » وما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء ، حتى خشى معاوية من آثار دعوة أبى ذر ونقده ، وكتب إلى الخليفة يشكوه ، فاستقدمه عثمان إلى المدينة . وفى المدينة استمر أبو ذر على نقده ، حتى ضاق هو بقامة بها لما لم يجد لنقده صدى فى تغيير الحال ، فاختار أن يذهب إلى الربذة يقيم بها، على قول[١] . أو نفاه إليها عثمان لما ضاق به ، ونهى الناس عن تشييعه ، فلما أظهر عمار رقة لأبى ذر ، غضب عثمان وهم بنفيه هو الآخر إلى الربذة ، لولا أن تدخل على وتدخل بنو مخزوم حلفاء عمار ، على قول[٢] . وكذلك استعمل عثمان نفس الوسيلة مع كل من أظهر النقد والمعارضة فى الأمصار ، يخرجهم من مصره إلى مصر آخر ، كما فعل بالمعارضين من أهل الكوفة ، وبعض أهل البصرة ، حيث أمر بتسييرهم إلى معاوية بالشام . وكان عثمان ينظر إلى معاوية فى الشام نظرة خاصة من بين ولاته ، ويراه قادراً على إصلاح هؤلاء المعارضين ، ولكن قوة معاوية ودهاءه لم تكن بقادرة على مقاومة المعارضة التى اشتد أمرها فى الأمصار ، وكانت همته منصرفة إلى ضبط إقليمه فحسب[٣] .

كل هذا أقام معارضة لعثمان فى المدينة نفسها وبخاصة من المهاجرين القرشيين الذين كانوا يرون أنهم أهل الحل والعقد ، ومن الصحابة الذين كانوا متأثرين بسيرة الصاحبين أبى بكر وعمر . أما الأنصار فلم يكونوا يتصدرون المعارضة ، وإنما كانت معارضتهم تسير مع التيار العام ، وكانت كثرتهم منحرفة عن عثمان لايكاد يواليه منهم إلا نفر قليل ، منهم : زيد بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت[٤] . على أن بعض كبار الأنصار

---

(١) أنظر الطبرى : ٤/٢٨٤ — ٢٨٥ .
(٢) أنظر اليعقوبى : ٣/١٤٨ — ١٥٠ .
(٣) أنظر الطبرى : ٤/٣١٧ وما بعدها .
(٤) أنظر الطبرى : ٤/٣٣٦ — ٣٣٧ ، ٣٦٥ — ٣٦٦ ، ٤١٢ — ٤٤٤

وربما توسطوا بين عثمان وبين الثائرين عليه حينما اشتدت المعارضة وجاءت وفود الأمصار ، كما كان من توسط محمد بن مسلمة الأنصارى بين عثمان ومن جاءوا ثائرين من المصريين(١) .

هذا هو الأثر الذى تركته سياسة عثمان فى المال وفى اختصاصه قريشاً وإيثاره لأهله من بنى أبى معيط وبنى أمية ، وقد خالف فيها عن سياسة عمر ، وقد واجهته المعارضة مواجهة رقيقة أو مواجهة عنيفة ، وقد دافع عثمان عن نفسه دفاعاً مقنعاً فى بعض الحالات ، ووعد بالرجوع عما يؤخذ عليه فى بعض الحالات(٢) وكان يمكن أن تقف الأمور عند حد النقد والدفاع ، لولا أن كانت هناك أمور أخرى أشعلت الثورة على عثمان وهى سياسته فى الولاية والعزل، وهى السياسة التى خالف فيها عن سياسة عمر مخالفة واضحة ، وكان لها الأثر الأكبر فيما تطورت إليه الأمور التطور الذى وصلت إليه . وقد رأينا كيف أن عمر لم يختص فريقا من الناس بالولاية دون فريق ، وأنه لم يستعمل أحداً من عشيرته على ولاية ، وكان أساس الاختيار عنده حسن الإسلام والكفاية ، كما كان شديد المراقبة لعماله ، شديد المحاسبة لهم . وقد تقدم لعثمان حين طعن ، إن ولى أمور المسلمين فى ألا يحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس . ولكن عثمان لحبه لأهله وبره بهم انجر وراء طموحهم فحمل بنى أمية وآل أبى معيط على رقاب الناس ، فآثرهم بصلاته ، ثم جعلهم على ولايات الدولة الكبرى ، ثم أهمل مراقبتهم وترك حسابهم ، فلم يعزل والياً منهم نتيجة محاسبته له ومراقبته إياه ، وإنما كان يكره على ذلك إكراهاً من أهل الأمصار .

ومن الحق أن نسجل أن عثمان رسم أن يلتزم بسيرة عمر فى سياسة الولاية والعزل ومراقبة الولاة ، ولكن لينه وحبه لأهله هو الذى أدى به إلى عدم متابعة تنفيذ هذه السياسة . فلم يباشر عثمان حقه كخليفة فى الولاية والعزل إلا بعد عام من وفاة عمر

---

(١) أنظر طبرى ٣٧٢ — ٣٧٥
(٢) أنظر الطبرى : ٢٦٧/٤ — ٢٦٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٦ — ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ — ٣٤٨ ، ٣٥٤ — ٤٦٣ .

تنفيذاً لوصية عمر بأن يقر الخليفة عماله سنة(١) . والحقيقة أن عثمان لم يلتزم بهـذه الوصية في الإبقاء على العمال في ولاياتهم فحسب ، وإنمـا التزم كذلك بسياسة عمر في توجيه العمال وأخذهم بما كانوا يسيرون عليه في عهد عمر ، فقد كتب إلى هؤلاء العمال ، يقول « أما بعد فقوموا على ما فارقتم عليـه عمر ولا تبدلوا ، ومهما أشـكل عليـكم فردوه إلينا نجمع عليه الأمة ، ثم نرده عليكم . وإياكم أن تغيروا فإني لست قابلا منـكم إلا ما كان عمر يقبل »(٢) ثم أصدر كتبا إلى أقاليم الدولة منها ما هو موجه إلى العمال ، ومنها ما هو موجه إلى قواد الحرب ، ومنها ما وجه إلى عامة الناس ، وتصور هذه الـكتب السياسية التي كان يريد أن يأخذ بها المسلمين في خلافته ، والتي أخذ بها مدة حتى جاءت الظروف فغيرت منها .

كتب عثمان إلى عماله « أما بعد ، فإن الله أمر الأئمه أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ، ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فإذا ما عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسـلمين فيما عليهم فتعطوهم مالهم ، وتأخذوهم بما عليهم . ثم تثنوا بالذمه ، فتعطوهم الذي لهم ، وتأخذوهم بالذي عليهم . ثم العدو الذي تنتابون ، فاستفتحوا عليهم بالوفاء » .

وكتب إلى أمراء الأجناد في الفروج « أما بعد ، فإنـكم حماة المسلمين وذادتهم ، وقد وضع عمر ما لم يغب عنا ، بل كان على ملأ منا ، ولا يبلغني عن أحد منـكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم ، فانظروا كيف تـكونون ، فإنني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه » .

وكتب إلى عمال الخراج « أما بعد ، فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا الحق به ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تـكونوا أول من يسلبها

---

(١) الطبري : ٤/٢٤٤ .

(٢) نفس المصدر : ٤/٢٦١ — ٢٦٢ .

فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء ، لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم » .

وكان كتابه إلى العامة « أما بعد ، فإنكم إنما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع ، فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم ، فإن أمر هذه الأمة صائر إلى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم : تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم القرآن ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الكفر فى العجمة » فإذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا »[1] .

ويستبين من هذه الكتب أن عثمان محافظ على السنة الموروثة متبع لما جاء به الإسلام وما سار عليه النبي صلى الله عليه وسلم والصاحبين من بعده ، ومتأثر سيرة عمر فى الإدارة والسياسة والحرب ، وفيما كان يأخذ به المسلمين من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتزام الكتاب والاقتداء بسيرة النبي ، وفيما كان يحذرهم إياه من أن تغلبهم الدنيا وتبطرهم النعمة ، وتفسد عليهم الأجيال الناشئة من أولادهم من السبايا أمورهم حين تؤثر التجديد والابتداع على الاقتداء والاتباع .

هذه هى الخطة التى كان عثمان يريد أن يسير عليها ، والتى ألزم العمال فى العام الأول من خلافته باتباعها ، وهم نفس عمال عمر ، أقرهم عثمان فى العام الأول بوصية عمر نفسه ، ثم لم يلبث بعد هذا العام أن باشر حقه فى الولاية والعزل ، فلننظر إلى أى حد تم على مارسم لنفسه فيها .

لم تكن الولايات كلها على درجة واحدة من الأهمية والخطورة ، فقد كان بعضها يواجه الثغور فى الدولة الإسلامية ، ولذلك كانت مركز الجند وموطن القوة فى الدولة ، ثم كانت إلى ذلك موطن القوة المادية ، لثرائها ولمواجهتها لاتجاهات الفتوح وما يستتبعها من الغنائم والفىء . وكان بعض الولايات أقل أهمية لأنها لا تواجه ثغوراً ولا تغل مالا كثيراً ،

---

(١) الطبري : ٤/٢٤٤ — ٢٤٥ .

وهى لذلك ليست مواطن القوة التى تعتز بها الدولة · وقد تصرف عثمان فى سياسة الولاية والعزل بحسب أهمية هذه الولايات . فهو لم يلق كبير بال إلى العمال الذين يقومون بالأمر فى الولايات التى لم يكن لها كبير خطر فى السياسة أو الإدارة أو الحرب ، وترك ولاة عمر فى هذه الولايات لم يغيرهم إلا قليلا وحين دعت الحاجة إلى التغيير ، ولم يحفل كثيراً لهذا التغيير . أما الولايات ذات الأهمية والخطورة فهى التى ألقى عثمان باله إليها وحفل للتغيير فيها ، وهذه الولايات هى الكوفة والبصرة فى العراق ، ثم الشام ومصر . ونتحدث عن كل منها لنوضح الظروف فيها وسياسة عثمان نحوها .

فأما الكوفة فقد كان عليها حين مات عمر المغيرة بن شعبة الثقفى ، فأقره عثمان عامه الأول ، ثم عزله وولى عليها سعداً بن أبى وقاص تحقيقاً لوصية عمر الذى تقدم إلى الخليفة من بعده أن يستعين بسعد إن أخطأت الخلافة سعداً ، فإنه لم يعزله عن خيانة ولا ضعف[1]. ولكن سعداً لم يستمر فى ولايته سوى سنة وأشهر حتى عزله عثمان وولى بدله الوليد ابن عقبة بن أبى معيط أخاه لامه[2] . ويتفق الرواة[3] على قصة يعتبرونها السبب فى عزل سعد عن ولاية الكوفة ، ذلك أن خلافا نشب بين سعد وعبد الله بن مسعود صاحب بيت المال ، فقد اقترض سعد شيئا من بيت المال ، فلما حان موعد الأداء تقاضاه ابن مسعود فلم يتيسر عليه ، وارتفع بينهما الكلام حتى استعان كل منهما بأناس من أهل الكوفة ، هذا يطلب استخراج المال وذاك يطلب الاستنظار ، وقد تلاحى الرجلان حتى هم سعد بأن يدعو الله على ابن مسعود ، فاتقاه هذا وفر من وجهه خشية دعوته · ورفع الأمر إلى عثمان فغضب عليهما وهم بهما ، ثم ترك ذلك ، وعزل سعداً ، وأخذ ما عليه ، وأقر ابن مسعود ، وتقدم إليه ، وأمّر الوليد بن عقبة مكان سعد .

ومع اتفاق الروايات على هذه القصة ، فإنها يجب أن تؤخذ بتحفظ ، فهى لا تصلح أساساً

---

(١) الطبرى : ٤/٢٢٩ .

(٢) أسد الغابة : ٥/٩٠ . الذهبى : ٢/٧٢ .

(٣) أنظر الطبرى : ٤/٢٥١ — ٢٥٢ . ابن الأثير ٣/٤٢ . ابن كثير ٧/١٥١ .

لعزله ، فإنها تصور سعداً ، قد اقترض من بيت المال ثم التوى بدينه أو ماطل فيه . وليس الاقتراض من بيت المال بدعة ابتدعها سعد ، فقد كان عمر يقترض لنفسه من بيت المال إذا احتاج ، وربما يتقاضاه صاحب بيت المال فيحتال له عمر حتى يتيسر ، وقد كان عمر يقرض من بيت المال ثم يسترد القرض عند التيسر[١] . وعثمان قد ترخص فى سياسة المال ترخصا شديداً ، فقد كان يقرض ثم يجعل القرض صلة كما فعل مع ربيعة بن الحارث ابن عبدالمطلب[٢] ، وكانت عطاياه لأقاربه مستفيضة ، فقد زوج ابنته من مروان بن الحكم وأمر له بخمس الخمس من غنائم أفريقية ، كما زوج ابنته من عبدالله بن خالد بن أسيدوأمر له بستمائة ألف درهم وكتب إلى عبد الله بن عامر أن يدفعها إليه من بيت مال البصرة ، وذكر اليعقوبى عن ابن إسحاق أن عثمان كان إذا أجاز أحداً من أهل بيته بجائزة جعلها قرضاً من بيت المال[٣]، فإذا اقترض سعد من بيت المال فلا حرج عليه وليس فيه ما يوجب المؤاخذة . أما أن سعداً التوى بهذا الدين فلم يوفه ، فهذا ما لا يمكن تصديقه على سعد ، وهو من هو فى سابقته وفضله وثقة عمر فيه حتى لينصح للخليفة بعده أن يستعين به ، وقد استعمله عثمان على الكوفة ، وهى الولاية التى تحتاج إلى أن يليها سعد ؛ لأنها كانت المصر الذى يواجه الحرب فى بلاد الفرس التى لم يكن فتحها قد تم بعد ، وقد قاد سعد الحرب ضد الفرس فى مرحلتها العنيفة ، وأوقع بهم الضربة القاصمة فى القادسية ، وفتح المدائن ، ولعل عمر أراد أن يستعين الخليفة بكفاية سعد فى أمور الحرب خاصة . ثم إن الكوفة قد بدت نذر التفمر فيها منذ عهد عمر ، وقد تجمعت فيها القبائل التى ناوأت من قبل حكم قريش ، والتوت على الأمراء فى عهد عمر وتربصت بهم الأخطاء ، حتى اهتم عمر لأهل هذا المصر الذين لا يرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير ، وقد أشار عليه المغيرة بن شعبة بأنه لا يصلح هذا

---

(١) أنظر الطبرى : ٢٠٨/٤ ، ٢٢١ .

(٢) نفس المصدر : ٢٠٤/٤ .

(٣) أنظر اليعقوبى : ١٤٣/٢ — ١٤٥ .

المصر من الولاة إلا القوى المشدد[1] . وسعد فى كفايته ونزاهته وسابقته وجهاده وعلمه بأسور المصر ، كان هو الرجل الصالح . ثم إن ابن مسعود كان يعرف فضل سعد ومكانته من النبى لدرجة أن سعدا حين هم بالدعاء عليه كما تقول الرواية أشفق وفر من وجهه وترضاه . فالقصة التى رويت لا تصلح أساسا لعزل سعد ، ولعلها وضعت بآخرة .

وأكبر الظن « أن بنى أمية وآل أبى معيط كانوا يتعجلون الولاية ويحتالون للوصول إليها ويلحون على عثمان فى أن يمهد لهم الطريق » ، وآية ذلك أن عثمان حين عزل سعدا لم يول على الكوفة أحدا من أهل السابقة من المهاجرين والانصار ، وإنما ولى الوليد بن عقبة بن أبى معيط[2] . وكذلك فعل فى البصرة وفى مصر وجمع الشام كله لمعاوية . فالأمر إذن ليس خطأ محسوبا على سعد وإنما هو رغبة آل عثمان فى الحكم وتملأت الوصول إليه . وقد أورد الطبرى[3] بأسناد متعددة رواية تدل على هذا الاتجاه الذى اتجه إليه بنو أمية وأدركه الناس فى الأمصار . قال « قال غيلان بن خرشة الضبي لعثمان بن عفان : أما منكم خسيس فترفعوه . أما منكم فقير فتجبروه . يا معشر قريش ، حتى متى يأكل هذا الشيخ الأشعرى هذه البلاد[4] . فانتبه لها الشيخ[5] ، فولاها عبد الله بن عامر » فالولاية إذن لم تعد على أساس الكفاية والسابقة كما كان الحال من قبل ، وإنما صارت لرفع الخسيس وجبر الفقير ، وصلة لذوى الرحم كما يستبين من الحوار الذى دار بين على وعثمان . فقد قال عثمان « فلم تلومنى إن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟ » قال على « سأخبرك ، إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه . . . وأنت لا تفعل ، ضعفت ورفقت على أقاربك » قال عثمان « هم أقاربك أيضا » فقال على « لعمرى إن رحمهم منى لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرهم »[6] . ولم يكن الوليد موضع اطمئنان

---

(١) انظر الطبرى : ٤/١٦٥ .
(٢) طه حسين : ١ / ٩٣ .
(٣) ٧ / ٢٦٤ — ٢٦٦ .
(٤) يعنى أبا موسى الأشعرى وكان على البصرة .
(٥) يعنى عثمان .
(٦) الطبرى : ٤ / ٣٣٨ .

ورضا من المسلمين ، لسابق سيرته مع النبي ، فقد كذب عليه وغشه حين أرسله مصدقا فى بنى المصطلق فعاد فزعم أنهم منعوه الصدقة ، فهم النبي بغزوهم ثم تبين له كذب الوليد ، ونزل فيه القرآن « يأيها الذين آمنوا إن جاء كم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين(١) » . وقد عاد الوليد فأصلح من نفسه ما استطاع ، حتى استعمله عمر على صدقات بنى تغلب فى الجزيرة ، ولكن فرقا عظيما بين ذلك وبين أن يوليه عثمان هذا المصر الخطير على ما له من أهمية وحساسية ، وأن تكون الولاية بعد سعد بن أبى وقاص فى مكانته وفضله ، وقد أنكر الناس ذلك على عثمان ونقموه(٢) ، وتألم من ذلك سعد وقال حين قدم عليه الوليد « أ كِسْت بعدنا أم حمقنا بعدك ؟ » فقال الوليد « لا تجزعن يا أبا اسحاق ، كل ذلك لم يكن ، وإنما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون » فقال سعد : « أراكم جعلتموها ملكا(٣) » .

ومن الحق أن يسجل للوليد أنه لم يقصر فى سد الثغور ومد الفتوح ، فقد قام فى ذلك مقاما تحدث به الناس فى حياته وبعد موته(٤) ، كما أنه ساس أهل الكوفة سياسة قوية حازمة ، فضرب على أيدى المفسدين وأقر الأمن . وقد أسخطت سياسته الحازمة عليه بعض الناس ممن كانوا لا يرعون للنظام حرمة ، فقد عدا نفر من الشباب على رجل من أهل الكوفة ، فنقبوا عليه داره ، فلما كاثرهم قتلوه ، فأخذوا إلى الوليد فأقام عليهم الحد وقتلهم على باب قصر الإمارة ، فحقدها عليه آباؤهم ، فجعلوا يتلمسون أغلاطه ويتكلفون اتهامه ويشككون الناس فيه (٥) . ولكن الأمور فسدت عليه من ناحيتين : الأولى ضعف الوازع الدينى عنده ، والثانية طبيعته القرشية المتعالية الطموحة وهى الطبيعة التى كانت القبائل العربية تأخذها على قريش وتضيق بها منها .

---

(١) انظر ابن هشام : ٣/١٤٠ — ١٤١ . أسد الغابة ٥/٩٠ — ٩١ .
(٢) ابن كثير: ٧/١٥٩ .
(٣) ابن الأثير : ٣/٤٢ — ٤٣ .
(٤) أنظر الطبرى : ٤/٣٧٤ .
(٥) الطبرى : ٤/٢٧١ — ٢٧٤ .

اتهم الوليد بمعاقرة الخمر مع صديقه وشاعره أبى زبيد الطائى ، وقد عرفه الوليد فى بنى تغلب حين كان مصدقا فيهم ، فأنصفه من أخواله من بنى تغلب الذين كانوا قد اضطهدوه ومنعوه حقاله ، فأخذ له الوليد بحقه ، فشكرها له أبو زبيد وانقطع اليه . فلما ولى الوليد الكوفة كان يفد إليه ، فيقيم عنده ويأخذ جوائزه ، وكان أبو زبيد نصرانيا فما زال به الوليد حتى أسلم ، فاستبقاه عنده وجعله من سماره ، فاتهم الوليد خصومه بأنه يشاربه الخمر ، وشاعت هذه الناحية عن الوليد[1] ، حتى قيل إنه صلى الصبح بالناس مرة وهو سكران فزاد فى الصلاة ركعتين [2] . وأخرى انتهزها خصوم الوليد عليه ، ذلك أنه أتى برجل يلعب ألعاب المشعوذين ، فاتهموه بالسحر ، فاستفتى ابن مسعود فى حده ، فأفتى بأنه إن أقر بالسحر قتل وأراد الوليد أن يتثبت من التهمة ، فأمر الرجل أن يقوم أمامه بما كان يفعل ، فانطلق خصوم الوليد ينادون فى المسجد أن رجلا عند الوليد يلعب بالسحر ، فغضب لذلك بعض المتزمتين من أهل الكوفة ، فعدا أحدهم على المشعوذ فقتله دون إذن الوليد . وغضب الوليد لذلك ، فأخذ القاتل وحبسه وكتب إلى الخليفة ، وأجاب عثمان بأن يستحلفوا القاتل بالله أنه ما علم برأى الوليد وابن مسعود فى المشعوذ ، ثم يعزروه ويخلو سبيله ، وتقدم إلى الناس فى ألا يعملوا بالظنون وألا يقيموا الحدود دون السلطان ، «فإنا نقيد المخطىء ونؤدب المصيب» وفعل الوليد كما أمر عثمان ، فغضب للقاتل أصحابه ، فخرجوا إلى المدينة واستعفوا الخليفة من الوليد . ولكن الخليفة وبخهم على عملهم بالظنون وخطئهم فى الإسلام وخروجهم من غير إذن واليهم ، ثم ردهم إلى الكوفة . فلما رجعوا لم يبق موتور فى نفسه إلا أتاهم ، فاجتمعوا على الكيد للوليد [3] . ونلمس هنا الفرق بين سياسة عمر وسياسة عثمان ، فقد كان عمر يستجيب لطلب الاستعفاء مع عدم الشبهة بالوالى حتى لا يكون بينه وبين الناس

---

(٣) الطبرى : ٤/٢٧٣ — ٢٧٤ .

(٤) أسد الغابة : ٥/٩١ ، ابن كثير : ٧/١٥٥ .

(٣) الطبرى : ٤/٢٧٥ .

فرقة تحمله على الشدة عليهم أو تحملهم على التربص به ، كما رأينا من قبل حين عزل سعدا ابن أبي وقاص عن الكوفة ، مع ثبوت براءته ومع عدم الظنة به .

وكان الوليد رجلا قرشيا معتدا بقرشيته ، وكان معظم أهل الكوفة من القبائل اليمنية وأقلهم من القبائل المضرية . وقد رأينا كيف أن هذه القبائل في جملتها قد شاركت في الثورة على سلطان قريش بعد وفاة النبي . ولعلها قد ضاقت بهذا الأمير القرشي المستعلي بقرشيته ، فأخذت تتنكر له ، ولعله أحس منها بهذا فأراد أن يكسر شموخها فيما كان أشرافها يقومون به من تسابق على الظهور ، فقد روى (١) أن جماعة من أشراف القبائل كانوا ينادون إذا قدم الميار (جلاب الميرة وهي الطعام) : من كان ها هنا من بني فلان أو بني فلان ، ليس لقومهم بالكوفة منزل، فمنزله عند بني فلان ، يتسابقون في الظهور ونباهة الذكر على السنة العربية ، فأنشأ الوليد من أمر عثمان دارا للضيفان ، فسد على هؤلاء الأشراف بابا من أبواب التفاخر والظهور . ثم إن الوليد تحبب إلى العامة والرقيق ، ففرض للرقيق بالكوفة من فضول الأموال لكل مملوك ثلاثة دراهم في كل شهر يتسعون بها من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم (٢) ، وأحس السادة أن الوليد لا يفعل هذا رغبة في الخير وإنما تحببا إلى رقيقهم وتكثرا بهم على سادتهم .

وهكذا أغضب الوليد سادة القبائل بتنكره لهم ومقاومته إياهم ومحاولته إفساد رقيقهم عليهم ، كما أسخط أهل الصلاح بما بدا في سيرته من عبث ومجون وتعد لحدود الله . لذلك راقب خصوم الوليد أعماله وتجسسوا عليه ، حتى توصلوا إلى ما يثبت إدانته بشرب الخمر ، فرفعوا الأمر إلى عثمان ، وقامت لدى الخليفة التهمة فحد الوليد وعزله (٣) .

---

(١) الطبري : ٤/٢٧٣ .

(٢) نفس المصدر : ٤/٢٧٤ .

(٣) أنظر الطبري : ٤/٢٧٦ — ٢٧٧ . اليعقوبي . ٢/١٤٢ : ابن الأثير : ٣/٥٣ ، أسد الغابة : ٥/٩١ : ابن كثير : ٧/١٥٥ . .

كان خليقا بعثمان وقد عزل الوليد أن يولى على الكوفة رجلا من أهل الكفاية من أصحاب النبى ، ممن عرف الناس فضلهم ورضوا سيرتهم وأحبوا حكمهم ، وقد تبين له من قبل كيف سخط الناس حين عزل سعدا بن أبى وقاص وولى مكانه الوليد . فكان الأجدر أن يولى رجلا فى مثل مكانة سعد من المهاجرين أو من الأنصار ، ولكنه بدل أن يفعل ولى سعيدا بن العاص ، وقد كان سعيد رجلا مستقيما صالحا ، ولكنه كان أمويا من قرابة عثمان ، فكان فى عمله هذا ما يوحى بأنه يحمل عشيرته على رقاب الناس ، وقد كان سلوك عثمان فى الكوفة والبصرة وفى مصر والشام يظهر بما لا يقبل الشك أنه خالف عن سياسة عمر وما حذره به من أن يحمل أهله على رقاب الناس . ولقد ثار فى نفوس أهل الكوفة هذا الشعور ، حتى ليقول بعض شعرائهم كما روى ابن الأثير (١) .

فررت من الوليد إلى سعيد كأهل الحجر إذ جزعوا فباروا
يلينا من قريش كل عام أمير محدث أو مستشار
لنا نار تخوفها فنخشى وليس لهم فلا يخشون نار

ومع ذلك فقد جاء سعيد إلى الكوفة وهو مصمم على إصلاح ما أفسد الوليد ، حتى لقد قيل إنه أمر بغسل المنبر قبل أن يصعده تحرجا من آثام الوليد ، وآذى بذلك رجالا من قريش كانوا قد خرجوا معه من بنى أمية(٢) ثم أخذ فى دراسة أحوال الكوفة فتبينت له العلة فى اضطراب أحوال هذا المصر ، وأنها إنما ترجع إلى سببين :

الأول : هو تضاؤل أهل الشرف والسابقة والبيوتات وضعف أمرهم مع الزمن .

الثانى : هو كثرة من طرأ على المصر من الأعراب وغيرهم ، ونمو الأجيال الناشئة حتى غلبوا على أصحاب السابقة والقدمة .

فكتب بذلك إلى عثمان . وكتب إليه عثمان ، أن يفضل أهل السابقة والقدمة

---

(١) الكامل : ٥٣/٣ .
(٢) الطبرى : ٣٢٢/٤ .

ممن فتح الله عليه تلك البلاد ، وأن يجعل من نزلها بسببهم تبعا لهم ، إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق ، وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، وأن يحفظ لكل منزلته ، وأن يعطيهم جميعا بقسطهم من الحق . وقد فعل سعيد، فقدم ذوى السابقة وأهل الأيام وجعلهم صلته إلى الناس، ثم خلص بالقراء والمتسمتين فجعلهم خاصته وسماره . ولكن التغير كان أكبر مما تحوط به سعيد ، فأخذت الفتنة تكشف عن نفسها « فكأنما كانت الكوفة يبساً شملته نار »(١) .

وأحس عثمان بخطورة الحال ، وبضرورة الاحتياط ، فاتخذ قراره الذى تحدثنا عنه من قبل ، وهو استبدل الأملاك فى الأمصار بأملاك فى الحجاز وفى جزيرة العرب ، ليخفف بذلك ضغط الطارئين على الأمصار ، وقد أوضحنا كيف أن هذا الإجراء جاء بغير ما قصد إليه عثمان ، فقد ظهرت فى الأمصار أرستقراطية غنية كان رجالها من الصحابة بعامة ومن قريش بخاصة . وقد أدى ظهور هذه الأرستقراطية إلى انقسام الناس بينها أحزاباً ، كما أدى إلى حسد العامة لهؤلاء الأغنياء ، ومن هنا ظهر الشر ، وظهر أول ما ظهر فى الكوفة وفى مجلس سعيد نفسه . فقد ذكر بعض الرواة(٢) أن سعيدا جلس للناس وحضر مجلسه هؤلاء النفر من الوجوه والقراء ، فتحدث الناس عن جود طلحة بن عبيد الله ، فقال سعيد « إن من له مثل النشاستج لحقيق أن يكون جواداً ، والله لو أن لى مثله لأعاشكم الله عيشا رغدا » فقال غلام من بنى أسد « والله لوددت أن هذا الملطاط لك — يعنى ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الذى يلى الكوفة » فغضب هؤلاء النفر أن تمنى الغلام للأمير جزءاً من الفىء وزجروا الغلام وتناول الناس ، وثار هؤلاء النفر فضربوا الغلام وأباه حتى غشى عليهما ، فغضب لذلك بنو أسد ، وكادت تحدث فتنة . وقعد هؤلاء فى بيوتهم وأقبلوا يقعون فى عثمان ، حتى لام أهل الكوفة سعيدا فى أمرهم ، وكتب أشراف الكوفة وصلحاؤهم إلى عثمان فى إخراجهم ، فأخرجهم سعيد بأمر عثمان إلى الشام . وذكر رواة آخرون(٣) القصة على نحو آخر ، فقالوا إنه سمر عنده سعيد بعض وجوه أهل الكوفة ، فقال سعيد « إنما هذا السواد بستان لقريش » فقال الأشتر

---

(١) انظر الطبرى : ٤/٢٧٩ . ابن الأثير : ٣/٤٥ .

(٢) الطبرى : ٤/٣١٨ ابن الأثير : ٣/٦٩ .

(٣) الطبرى : ٤/٣٢٣ . ابن الأثير : ٣/٧٠ .

النخعي : «أتزعم أن السواد الذى أفاءه الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ، والله ما يزيد أوفاكم فيه نصيبا إلا أن يكون كأحدنا » وتكلم مثله القوم . وغضب صاحب شرطة سعيد أن ردوا هذا الرد الشديد على الأمير ، فأغلظ لهم ، فوثبوا عليه فوطئوه وطأ شديدا ، حتى غشى عليه . فقطع سعيد سمره مع هؤلاء النفر ، فجعلوا يجلسون فى مجالسهم وبيوتهم يشتمون عثمان وسعيدا ، واجتمع إليهم الناس ، حتى كثر من يختلف إليهم ، فكتب سعيد إلى عثمان يخبره بذلك ، وبأنه يخشى إن ثبت أمرهم أن يكثروا ، فكتب إليه عثمان بأن يسيرهم إلى معاوية بالشام ، وكتب إلى معاوية أن يقوم على استصلاحهم .

والشيء المهم فى هذا الأمر هو أن الناس قد أبدوا سخطهم وتذمرهم من تحكم قريش واستئثارها دونهم بالثروة وبالمناصب ، وقد أعلنوا هذا السخط فى مناسبة هينة ، ولكنها كانت فرصة لإظهار ما تنطوى عليه نفوسهم . وأن معالجة عثمان وواليه لهذا الأمر كانت معالجة من شأنها أن تنكأ الجرح لا أن تداويه ، فقد استخدما وسيلة النفى للمعارضين ، تلك الوسيلة التى استخدمها عثمان فى المدينة ضد من خالف سياسته وواجهه بالنقد . وقد زادت هذه الوسيلة من سخط الساخطين ، بل ضمت إليهم من غضب لهم من أقوامهم . ولم يكن لهذه الوسيلة ما يبررها فى حكم الإسلام ، فالنفى لا يكون إلا لمن حادّ الله ورسوله وسعى فى الأرض فسادا ، أما النقد فأمر مشروع وهو حق للمسلمين لا يجب أن ينكره عليهم أحد ، وإذا كان الناس اشتدوا فى النقد أو تجاوزوه إلى الاعتداء على بعض الناس ، فإنه كان يمكن لومهم أو حبسهم أو تعزيرهم . وكذلك لم تكن هذه الوسيلة مما ترضاها الحكمة السياسية ، فإن هذه الوسيلة قد ترغم الناس على السكوت على أمر لا يرضونه ، ولكنها تزيد من حقد النفوس وتحمل على الثورة حين تحين الظروف . وكان الأجدر أن تُستقصى أسباب التذمر ويُعمل على إزالتها ، فتستقر الأمور .

وقد تلقى معاوية أولئك النفر وناظرهم وحاول معهم ، فلم يصل منهم إلى شيء ، وكان من الواضح أنهم لا يسخطون على شيء محدد وإنما كان سخطهم منصرفا على حكم قريش . ولما كان حريصا على ضبط الشام ، فإنه خاف وجود هؤلاء النفر فى ولايته ، فطلب إلى الخليفة

أن يعفيه من إقامتهم عنده ، فكتب إليه عثمان أن يردهم إلى الكوفة . فلما عادوا لم يكونوا إلا أطلق لسانا مما كانوا ، حتى كتب سعيد إلى عثمان يضج منهم ، فأمره بتسييرهم إلى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد وكان أميرا على حمص وقد تلقاهم عبد الرحمن بالعنف والشدة ، فأجبرهم على السكوت وعلى إعلان الطاعة ، وأرسل واحدا منهم هو الأشتر النخعى إلى عثمان بطاعتهم . ولكن إقامتهم عند عبد الرحمن لم تطل ، فقد قدم سعيد على عثمان واستخلف على الكوفة ، فوثب أصحاب هؤلاء المنفيين ، وكتبوا إليهم أن يسرعوا بالعودة ، وأجمعوا أمرهم على أن يردوا سعيدا ، ثم خرجوا فانتظروا سعيدا فى الطريق حتى ردوه عند عودته ، وأكرهوا عثمان على أن يولى عليهم رجلا من أصحاب الذى ارتضوه وهو أبو موسى الأشعرى . وهكذا أكره عثمان على أن يعزل عامله على الكوفة مرتين . ولم يختر أهل الكوفة فى المرة الأولى فلم يستقروا ، واختاروا فى المرة الثانية ، فلما أجيبوا استقروا ولكن إلى أمد قريب (١) .

هذه هى ظروف الكوفة ، وقد رأينا كيف تطورت الأحداث فيها تطورا ينذر بالخطر . أما البصرة ، فكانت أحوالها أكثر هدوءا واستقرارا من الكوفة ، وكان أبو موسى الأشعرى عاملا عليها من قِبَل عمر ، فلما تولى عثمان أقره عليها ثلاث سنوات ، وقد استقامت أمور البصرة طوال هذه المدة ، لم يحدث فيها بين الوالى ورعيته غير الرضا . لكن العصبية بدأت تظهر فى أيام عثمان ، وكان فى البصرة قبائل مضرية أكثر مما فى الكوفة ، ولما كان أبو موسى من اليمانية ، وكانت الأمصار الأخرى : الكوفة والشام ومصر ، فى يد ولاة من قريش ، فإن قبائل البصرة المضرية تنبهت لذلك ، يشهد بذلك ما رواه بعض الرواة (٢) من أن غيلان بن خرشة الضبى خرج إلى عثمان ، فقال : أما لكم صغير فتشبوه فتولوه البصرة حتى متى يلى هذا الشيخ البصرة . يعنى أبا موسى . ويذكر رواة آخرون (٣)

---

(١) انظر الطبرى : ٤/٣١٨ — ٣٣٢ . ابن الأثير : ٣/٧٠ — ٧٤ ابن كثير : ٧/١٦٥ — ١٦٦ وانظر كذلك طه حسين : ١/١١٠ — ١١٣ .

(٢) الطبرى : ٤/٢٦٤ .

(٣) الطبرى : ٤/٢٦٤ — ٢٦٥ ؛ ابن الأثير : ٣/٤٩ .

أن بعض البلاد انتقضت على أبي موسى ، فخطب الناس وحضهم وندبهم وحبب إليهم الخروج للعدو راجلين ، فأجمع بعضهم على الخروج رجالا ، وتلبث بعضهم حتى ينظر مايصنع الأمير فلما كان يوم الخروج ، أخرج أبو موسى ثقله من قصره على أربعين بغلا ، فتعلقوا بعنانه ، وقالوا : احملنا على هذه الفضول وارغب من الرجلة فيما رغبتنا فيه . فضرب القوم بسوطه حتى تركوا دابته ومضى . فأتوا عثمان ، فاستعفوه منه ، وقالوا « ما كل ما نعلم نحب أن نقوله؛ فأبدلنا به » فلما سألهم عمن يحبون ، قال غيلان بن خرشة : « في كل أحد عوض عن هذا العبد الذى قد أكل أرضنا ، وأحيى أمر الجاهلية فينا » . وما ذكرته الرواية الأولى أقرب إلى تصور الموقف ، فإن أبا موسى كان رضا لأهل الكوفة بعد ذلك على شدة اضطراباتهم ، كما أن اتجاه عثمان وقريش ومن يلوذ بهم كان إلى الاستئثار بالولاية واصطناع الأسباب للوصول إليها . ولذلك ولى عثمان عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وهو ابن خاله وكان فتى فى الخامسة والعشرين[1] .

ولم يغضب أبو موسى حين علم بتولية ابن عامر ، وإنما قال للناس « يأتيكم غلام خراج ولاج ، كريم الجدات والخالات والعمات ، يجمع له الجندان » وقد جمع له الجندان : جند أبي موسى ، وجند عثمان بن أبي العاص الثقفي من عمان والبحرين[2] . وقد أثبت عبد الله بن عامر جدارته فى إدارة المصر ، وأمعن فى الفتوح حتى شغل نفسه وشغل الناس بها ، ونافس فيها سعيداً بن العاص على الكوفة ، فسبقه[3] ومع حزم ابن عامر وبعد رأيه ، والتفاف العصبية المضرية من حوله ، فإن المصر لم يسلم من بعض الشر وإن لم يصل إلى بعض ما وصل إليه الحال فى الكوفة . والدليل على ذلك أن بعض أهل البصرة شاركوا فى الثورة على عثمان ، ومرد ذلك يرجع إلى أن فى البصرة فروعا من القبائل الموجودة بالكوفة ، وقد كاتب الناس بعضهم بعضا حين فكروا فى الخروج على عثمان ، أو فى الحقيقة

---

(١) الطبرى : ٤/ ٢٦٤ . ابن الأثير : ٣/ ٤٩

(٢) ابن الأثير : ٣ / ٤٩ .

(٣) انظر اليعقوبى : ٢/ ١٤٣ — ١٤٥ .

الخروج على سلطان قريش الذى يمثله عثمان وولاته . على أن ابن عامر على ما اتصف به من الجد والحزم كان فيه ضعف قريش ، وهو مغالاتها فى الاعتداد بنفسها وحبها للمال . يصور ذلك ماروا‌ه الطبرى (٤/٣٠٠) من أن ابن عامر لما فتح فارس ، قام إليه أوس ابن حبيب التميمى ، فقال « أصلح الله الأمير . إن الأرض بين يديك ، ولم تفتح من ذلك إلا القليل ، فسر فإن الله ناصرك » قال : « أو لم نأمر بالمسير ! » وكره أن يظهر أنه قبل رأيه. فابن عامر يغالى فى الاعتداد والكبرياء حتى على من يتقدم له بالرأى ويجمل له القول . وأما حبه للمال فيصوره ما ذكره الطبرى (٤/٣١٤) وابن الأثير (٣/٦٤) من أن الأحنف بن قيس بعد أن صالح أهل بلخ ، وافق ذلك يوم المهرجان عندهم ، فأهدوا لابن عم الأحنف الذى قبض منهم ما صالحوا عليه ، هدايا من آنية الذهب والفضة ، ودنانير ودراهم ، ومتاعا وثيابا على عادتهم مع ولاتهم ، فأخذه وعزله ودفعه إلى الأحنف ، الذى حمله إلى ابن عامر وأخبر خبره ، فأمره ابن عامر بأخذه فهوله ، فلما قال الأحنف إنه لا حاجة له فيه ، ضمه ابن عامر لنفسه . ويعلق الحسن البصرى على ذلك بقوله « فضمه القرشى وكان مضما » . وكان ابن عامر فى سبيل مجده يبيح لنفسه أن يتنازل عما هو حق لبيت المال ، كما فعل مع دهقان خراسان ، فقد وعده أن يتنازل له عن خراجه وخراج أهل بيته إلى الأبد إن دله على طريق يسبق به سعيداً بن العاص إلى مدينة قومس بخراسان[1] . ولعل أهل البصرة أخذوا على ابن عامر هذا التعالى والطمع الذى حقدته العرب على قريش ، فشاركوا فى الثورة على عثمان .

أما الشام فتختلف ظروفه كل الاختلاف عن ظروف الكوفة والبصرة ، من حيث موقعه وتقسيمه الإدارى ، ومن حيث أوضاع العرب فيه . فالشام من حيث وضعه الجغرافى بالنسبة للدولة الإسلامية ، يقوم بين الحجاز وفيه مركز الدولة ، ومصر وهى موطن من أعظم مواطن الثراء والقوة فى الدولة . ويستطيع أى وال قوى فى الشام أن يؤثر تأثيرا خطيرا على مجريات الأمور فى الدولة ، فهو يستطيع أن يستمد الخليفة أو يمده ، كما يستطيع أن يعد

---

(١) انظر اليعقوبى : ٢/١٤٤ .

مصر ويستمدها ، ويستطيع أن يحول بين الخلافة وبينها إن أراد . والشام يواجه البحر المتوسط ، كما يتاخم الحدود البرية للروم ، وهو من هذه الناحية عظيم الأهمية فى الدفاع والهجوم، ويستطيع والى الشام من هذه الناحية أن يعز الدولة ويعلى كلمة الإسلام . وقد امتاز الشام على غيره من أقاليم الدولة الإسلامية بأن العرب الذين أقاموا فيه معظمهم من أهله الأصليين ، وهؤلاء تعودوا الاستقرار والأخذ بشىء من الحضارة ، وألفوا كذلك نوعا من الخضوع للحكم المستقر المنظم ، وكان العرب الذين طرأوا مع الفتح إما من قبائل يمانية فاتصلوا بفروعهم المستقرة فى الشام ، وإما من قبائل الحجاز المضرية وجلهم من أهل مكة الذين ينتمون إلى عنصر الحكم فى الدولة . ولم تنشأ فى الشام مدن مستحدثة كالبصرة والكوفة ، وإنما كانت المدن قديمة ، وقد قسمت الشام إلى أربعة أجناد رئيسية ، وكان على كل جند وال من الولاة بعد استكمال الفتح فى عهد عمر ، ثم جمعت كل الأجناد إلى وال واحد فى عهد عثمان هو معاوية بن أبى سفيان .

كان معاوية واليا على دمشق فى عهد عمر بن الخطاب [١] ، وكان أخوه يزيد واليا على الأردن . فلما مات يزيد ضم عمر ولايته إلى أخيه معاوية[٢] ، وقد أظهر معاوية كفاية وحزما جعل عمر يرضى عنه ويقره على ولايته مدة خلافته كلها . فلما تولى عثمان أقره على ولايته كما أقر غيره من عمال عمر عامه الأول، ثم مات عبدالرحمن بن علقمة الكنانى عامل عمر فى فلسطين ، فضم عثمان فلسطين إلى معاوية ، ثم مرض عمر بن سعد الأنصارى عامل عمر على حمص وطلب الاستعفاء من عمله فأعفاه عثمان وضم ولايته إلى معاوية ؛ فاجتمع لمعاوية الشام كله[٣] ، وأصبح من أعظم العمال خطراً وأعلاهم قدراً فى عهد عثمان . وقد حسنت الصلة بين معاوية وبين أهل الشام . فلم تصل إلى الخلافة أية شكوى من أهل الشام ،

---

(١) الطبرى : ٤/٦٢ ، ٦٤ .

(٢) الطبرى : ٤/٢٨٩ . ابن الأثير : ٣/٥٨ . ابن كثير ٧/٩٥ .

(٣) الطبرى : ٤/٢٨٩ . ابن الأثير : ٣/٥٨ .

ما كان لم يحس الخليفة أى تقصير من عامله لا فى الإدارة ولا فى سد الثغور والمحافظة على الإقليم ، ولذلك بقى معاوية مستقراً فى ولايته ، فلم يحاسبه عمر فى خطأ ، ولم يوجه إليه لوما على طول ما وجه عمر لعمال الأمصار الأخرى من اللوم وما حاسبهم عليه من الأخطاء .
وبقى الشام فى عهد عثمان الإقليم الوحيد الذى استمتع بالسكينة والاستقرار ، حتى إنه عندما ثارت الأقاليم الأخرى على عثمان لم يشارك أحد من أهل الشام فيها ، وما ذلك إلا لحسن سياسة معاوية وحب رعيته له ورضاهم عنه . هذا الرضا الذى انعكس على الحكم القائم كله . ولاستقرار أمور الشام كان عثمان يسير إليه المخالفين عليه والمنكرين على عماله من الأقاليم حتى من المدينة نفسها ، يجد فى معاوية الملجأ الذى يتجه إليه لاستصلاح المعارضين . ولعل ذلك كله مد لمعاوية فى الطموح حتى نافس على الخلافة وقاتل عليا عليها ، وغلب على غرب الدولة كله ، ثم ساعدته الظروف فوصل إلى الخلافة .

أما مصر ، فقد مات عمر وكان عليها عمرو بن العاص ، وقد أقره عليها عثمان عاما كما أقر غيره . وكان عمرو هو فاتح مصر ، وقد تولى عليها : على صلاتها وحربها وخراجها ، وكان طبيعيا أن يتولى هو الدفاع عن ثغورها ، ويعد الفتح فيما وراءها ، ولكن الخليفة تجاوز عمرا وأخرج جيشا إلى أفريقية عدته عشرة آلاف من قريش والأنصار والمهاجرين ، وأمر عليه عبد الله بن سعد ابن أبى سرح أخاه من الرضاعة ، ووعده خمس الخمس من نفلها إن فتح الله عليه ، ثم يقيم فى عمله ويسرح بعض الجيش إلى الأندلس . وقد نجح عبد الله فى الفتح ، وقسم الغنائم على الجند ، وبعث بأربعة أخماسه إلى المدينة ، ووفد وفدا ، فشكا الوفد عبد الله فيما أخذ ، فقال عثمان : « أنا نفلته — وكذلك كان يصنع — وقد أمرت له بذلك ، وذاك إليكم ، فإن رضيتم فقد جاز ، وإن سخطتم فهو رد » قالوا « فإنا نسخطه » ، قال « فهو رد » وكتب إلى عبد الله برد ذلك واستصلاحهم . قالوا « فاعزله عنا ، فإنا لا نريد أن يتأمر علينا وقد وقع ما وقع » فكتب إلى عبد الله أن يستخلف على أفريقية رجلا ممن يرضى ويرضون ، وأن يقسم الخمس الذى نفله ، ونفذ عبد الله ما أمر به وعاد إلى مصر وقد كان من جندها[1] .

---

(١) أنظر الطبرى : ٤/٢٥٣ — ٢٥٤ .

ولا بد أن عبد الله بن سعد قد تألم لما أصابه ، فهو قد أبعد عن إقليم تولى فتحه ، ثم حرم من النفل الذى وعد ، ولعل الخليفة أراد أن يعوضه ، فنزع عمرا عن خراج مصر وولاه عبد الله بن سعد . وكان لا بد أن يحدث خلاف بين الرجلين ، فعمرو قد افتيت عليه عند تسيير عبد الله لفتح أفريقية ، ثم ها هوذا يقتطع من عمله ، وعبد الله حرم ثمرة ما تم على يديه ، ثم يشرك مع عمرو فى ولاية مصر على خراجها ، وقد وقع الخلاف ، فكتب عبد الله إلى عثمان يقول : « إن عمرا كسر علىّ الخراج » وكتب عمرو « إن عبد الله كسر علىّ حيلة الحرب » . فعزل عثمان عمرا واستقدمه ، واستعمل عبد الله على حرب مصر وخراجها ، فقدم عمرو مغضبا ، فدخل على عثمان وعليه جبة يمانية محشوة قطنا . فقال له عثمان « ما حشو جبتك ؟ » قال : « عمرو » قال عثمان « قد علمت أن حشوها عمرو ولم أرد هذا ، وإنما سألت : أقطن هو أم غيره ؟ »(١) .

لم يكن هناك سبب لعزل عمرو ، فلم تذكر المصادر أنه حدث منه ما يوجب عزله ، فهو صاحب فتح مصر ، وقد أفتيت عليه فى غزو ما وراءها لا عن تقصير منه ، ثم أشرك معه غيره فى تولى الخراج ، ولم يكن ما يبرر أن يشرك معه غيره ، ثم عزل للخلاف بينه وبين عبد الله بن سعد ، ولو فرض أن هذا الخلاف هو السبب فى العزل ، فتهمة الرجلين فيه واحدة : هذا كسر الخراج ، وذلك كسر الحرب . وقد أقر عبد الله وأضيف إليه كل العمل ، وعزل عمرو ، ثم غمزه الخليفة فى أمانته ، وظل مصرا على اتهامه غير المباشر ، فقد روى الواقدى(٢) : أن عبد الله بن سعد بعث إلى عثمان بمال من مصر قد حشد فيه ، فدخل عمرو على عثمان ، فقال عثمان « ياعمرو ، هل علمت أن تلك اللقاح درت بعدك » يعرض بأمانته فى الخراج ، وكان لا بد لعمرو أن يرد على الاتهام باتهام مماثل ، فقال «إن فصالها هلكت» يعرض بأن عامل عثمان بعده يظلم الناس ويرهقهم . وقد جعل عثمان بذلك من عمرو عدوا له ، يحرض عليه ويذيع القالة فيه(٣) .

---

(١) الطبرى : ٤ / ٢٥٦ . ابن الأثير : ٣ / ٤٥ .

(٢) الطبرى : ٤ / ٢٥٧ .

(٣) انظر الطبرى : ٤ / ٣٣٤ ، ٣٥٦ — ٣٥٧ ، ٣٦٠ .

ولم يكن عبد الله بن سعد ممن يطمئن إليه المسلمون ويرضون عنه لسابق ماضيه فى عهد النبي ؛ فقد كان أسلم ، وكان يكتب لرسول الله الوحي ، فارتد مشركا راجعا إلى مكة . وقد أهدر النبي دمه عند فتح مكة ، حتى استأمن له عثمان[1] ، فكانت توليته مما أخذ على عثمان ، وطعن عليه فيها وعيبت عليه بين أهل مصر[2] . ومن غير شك لم تكن معاملة عبد الله بن سعد طيبة لأهل مصر ؛ فقد سخطوه وشكوا منه إلى الخليفة[3] ، فكتب إليه يتهدده وينهاه عن فعل ما تكره الرعية ، فعنف عبد الله بمن شكوه وضرب رجلا منهم حتى قتله ، وغضب لذلك المصريون وغضب كذلك أصحاب النبي ، واشتدوا على عثمان حتى كتب بعزله وبتولية محمد بن أبي بكر ، وطلب علي من عثمان أن يحقق مع ابن سعد فإذا ثبتت عليه التهمة أقاد منه[4] .

هذه هى سياسة عثمان فى التولية والعزل ، وقد خالف فيها عن سياسة عمر ، فقد رأينا أن عمر لم يختص بالولاية فريقا من الناس دون فريق ، ولم يستعمل أحداً من عشيرته . وقد كان هؤلاء الولاة كلهم من عشيرة عثمان ، ومهما تكن كفايتهم فى الإدارة والفتح فإنه كان من بين الصحابة وغيرهم من هو أكفأ منهم أو على الأقل من لا يقل عنهم كفاية مع السابقة وحسن السيرة ورضا المسلمين . ولم يراقب عثمان عماله بمثل ما كان يراقبهم عمر ، ولا أخذهم بالحساب كما كان يأخذ عمر عماله ، ولم يعزل واحداً منهم إلا بعد أن أكره على عزله . وإذا كان عثمان قد اختص قومه من بنى أمية وبنى أبي معيط بالمناصب ، فإنه أهمل باقى البطون القرشية ؛ مما أثار عليه سخطها ، ومما يوضح ذلك غضب محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة ، وخروجهما إلى مصر ، وفيها أخذا فى نقد سياسة عثمان ، وأظهرا عيبه » وما غير وما خالف به أبا بكر وعمر ، فهو قد استعمل عبد الله بن

---

(١) انظر ابن هشام : ٨٦٧/٤ (طبعة صبيح ١٩٦٣) .

(٢) انظر الطبرى : ٢٩٢/٤ ، ٣٤٧ .

(٣) الطبرى : ٣٧٤/٤ .

(٤) أنظر البلاذرى : أنساب الأشراف : ٢٦/٥ . ابن قتيبة : ٣٦/١ - ٣٧ .

سعد ، رجلا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أباح دمه ونزل القرآن بكفره ، وأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما وأدخلهم ، ونزع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستعمل سعيداً بن العاص وعبد الله بن عامر » وهو إذ فعل ذلك أصبح دمه حلالا ، كما شغبا على عبد الله بن سعد حتى أفسدا الناس بمصر [١] وحتى كان الثائرون على عثمان أكثرهم من أهل مصر ، وهم الذين تولوا كبر قتله . وقد غضب كذلك أهل السابقة والبلاء من كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار وغضب معهم الناس . وخير ما يصور سخط الناس على هذه السياسة الكتاب الذى أرسله الأشتر النخعى إلى عثمان حيث يقول فيه « أما بعد ، فقد قرأنا كتابك . فانه نفسك وعمالك عن الظلم والعدوان وتسيير الصالحين ، نسمح لك بطاعتنا ،وزعمت أنا قد ظلمنا أنفسنا ، وذلك ظنك الذى أرداك فأراك الجور عدلا والباطل حقاً . وأما محبتنا فأن تنزع وتتوب وتستغفر الله من تجنيك على خيارنا ، وتسييرك صلحائنا ، وإخراجك إيانا من ديارنا ، وتوليتك الأحداث علينا ، وأن تولى مصرنا عبد الله بن قيس أبا موسى الأشعرى وحذيفة ، فقد رضيناهما . واحبس عنا وليدك وسعيدك ومن يدعوك إليه الهوى من أهل بيتك إن شاء الله . والسلام » [٢] . والحقيقة أن عثمان رضى الله عنه ما تعمد جوراً ولا أمر به ، وقد كان هو فى نفسه يريد أن يسير كما سار صاحبيه من قبل فى الناس ، ويبغى أن يتأثر سيرة عمر فى الرعية ، كما يتضح ذلك من كتبه التى أوردناها من قبل . وحين رد أهل الكوفة سعيداً سأله عثمان عما يريدون ، فلما قال له إنهم يريدون البدل وإنهم يرغبون فى أبى موسى ، قال «قد أثبتنا أبا موسى عليهم ، ووالله لا نجعل لأحد عذراً ، ولا نترك لهم حجة ، ولنصبرن كما أمرنا حتى نبلغ ما يريدون» [٣] وكتب إليهم « بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فقد أمّرت عليكم من اخترتم ، وأعفيتكم

---

(١) انظر الطبرى : ٤/٢٩١ — ٢٩٢ . ابن الأثير : ٣/٥٨ — ٥٩ . ابن كثير : ٧/١٥٧ — ١٥٨ .

(٢) البلاذرى : أنساب الإشراف : ٥/٤٦ .

(٣) الطبرى : ٤/٣٣٢ .

من سعيد ، والله لأفرشنكم عرضي ، ولأبذلن لكم صبري ، ولأستصلحنكم بجهدي فلا تدعوا شيئا أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه ، ولا شيئا كرهتموه لا يعصى الله فيه إلا استعفيتم منه ، أنزل فيه عندما أحببتم ، حتى لا يكون لكم عليّ حجة »(١) .

وكتب إلى أهل الأمصار كلها «أما بعد، فإني آخذ العمال بموافاتي في كل موسم ، وقد سلطت الأمة منذ وليت على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلا يرفع علي شيء ولا على أحد من عمالي إلا أعطيته ، وليس لي ولعيالي حق قِبَل الرعية إلا متروك لهم . وقد رفع إلى هل المدينة أن أقواما يشتمون ، وآخرون يضربون ، فيا من ضرب سراً ، وشتم سراً ، من ادعى شيئا من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان ، مني أو من عمالي ، أو تصدقوا فإن الله يجزي المتصدقين » فلما قرأ كتابه في الأمصار أبكى الناس ودعوا لعثمان وقالوا « إن الأمة لتمخض بشر »(٢) . هذه نية عثمان ، وهذا اتجاهه ، ولكنه كان واقعاً تحت نفوذ أهله ، ولم يكن رجاله أهل صدق وأمانة ، فكانوا يسيرون على غير ما يأمر به ، وكانوا يعمون عليه الحقائق حين يريد استقصاءها ، ولم يكن هو من الحزم والقوة كما كان عمر فيستقصي الأمور بنفسه ، ويرسل من الأمناء من يستقصيها له كما رأينا عمر يفعل من قبل ، وإنما يرسل إلى العمال أنفسهم يسألهم ، ثم يستقدمهم يسائلهم ، فلا يقولون له إلا ما يبرىء ساحتهم . روى الطبري عن السري ، عن شعيب ، عن سيف(٣) أن عثمان بعث إلى عمال الأمصار فقدموا عليه ، فقال : « ويحكم . ما هذه الشكاية ؟ وما هذه الإذاعة ؟ إني والله لخائف أن تكونوا مصدوقا عليكم ، وما يُعصب هذا إلا بي » ، فقالوا له : « ألم تبعث ، ألم نرجع إليك الخبر عن القوم ، ألم يرجعوا ولم يشافههم أحد بشيء ؟ . لا والله ما صدقوا ولا بروا ، ولا نعلم له أصلا ، وما كنت لتأخذ به أحدا فيقيمك على شيء . وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ، ولا الانتهاء إليها » فعمال عثمان وهم من أهله يبعدونه عن الحقيقة ، وقد

---

(١) الطبري : ٤/٣٣٦ .
(٢) نفس المصدر . ٤/٣٤٢ .
(٣) نفس المصدر .

كانوا ذوي طموح أخذوا الأمر على أنه ملك وصل إليهم عن طريق خلافة عثمان ، كانوا يعلنون ذلك ولا يستخفون به ، فقد ذكر الرواة[١] أن الوليد حين قدم الكوفة واليا بعد سعد بن أبي وقاص ، قال له سعد « أكِستَ بعدنا أم حمقنا بعدك ؟ ! » فقال لا تجزعن يا أبا إسحاق ، كل ذلك لم يكن . وإنما هو الملك يتغداه قوم ويتعشاه آخرون » فقال سعد « أراكم جعلتموها ملكا ! » وسعيد يقول فى أهل الكوفة « إنما السواد بستان لقريش » ومعاوية يناظر من سيرهم إليه عثمان من أهل الكوفة ، فيما قال « . . . ثم ارتضى له أصحابه ، فكان خيارهم قريشا ، ثم بنى الملك عليهم ، وجعل هذه الخلافة فيهم ... »[٢] وقد خرج مروان إلى الناس بعد أن خطبهم عثمان وأرضاهم وهم مجتمعون بباب عثمان ، فقال « ما شأنكم ، قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب . شاهت الوجوه ... جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا . اخرجوا عنا ... »[٣] وقد سخط الناس هذه السياسة ورموا بهذا الطموح القرشي فى عمال عثمان ، ثم تحول السخط إلى الاعتراض وتحول الاعتراض إلى الانتقاض والثورة . وأخرى لا تقل عما سلف أهمية وأثرا . وهى أن أهل عثمان من آل أبي معيط وبنى أمية أحاطوا به وغلبوه على أمره ، ورأوا أن يستأثروا بالأمر كله وأن يبعدوا عن الخليفة كل من يمكن أن يعارض هذا الطموح أو يبصره بعواقبه[٤] . وقد وجدوا فى لين عثمان وكبر سنه وماطبع عليه من البر بأهله ، ما مكنهم من عزله : عن كبار الصحابة من المهاجرين الذين صوروهم له على أنهم منافسون فى الإمارة راغبون فيها[٥] ، فهم لذلك لاينتظر منهم أن يخلصوا له النصح أو يمحضوه الرأى . وعن

---

(١) ابن الأثير : ٣/٤٢ — ٤٣ .

(٢) الطبرى : ٤/٣٢٠

(٣) نفس المصدر : ٤/٣٦٢

(٤) يفهم هذا مما رواه الطبرى (٤/٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٧٨ الخ) عما قاله فى شأن غلبة بنى أمية على عثمان .

(٥) أنظر فى هذا الخصوص رواية ابن قتيبة (١/٣١) للحديث بين عثمان ومعاوية . والطبرى (٤/٣٤٤) عن قول معاوية للصحابة و(٤/٢٦٥) عن قول بنى أمية لعلى . وما ورد فى كتاب عثمان للمسلمين فى موسم الحج (٤/٥٠٩) . وانظر الطبرى ٤/٤٠٦ .

غير المهاجرين من الأنصار والصحابة من غير قريش ، الذين صوروهم ساخطين أن ليس لهم من الأمر شيء ، فهم تبع لم ينفس الأمر على عثمان من كبار المهاجرين . لذلك اختلط الأمر على عثمان وتناقض فى مواقفه حين حلت الأزمة ، فهو حين يحزبه الأمر يلجأ إلى الصحابة يستشيرهم ويستعين بهم على تهدئة الموقف وينزل على مشورتهم ، فإذا خلا إلى بطانته من أهله غيروه عن رأيه ، فنزل على إرادتهم فنقض ما أبرم ، وتعرض بذلك للوم وربما تعرض للمهانة . وما زال الأمر يتجسم حتى أدى إلى التقاطع أوما يشبهه بين عثمان وبين كبار الصحابة فى المدينة ، ونتج عن ذلك سخط عام فى المدينة على عثمان من ناحية ، وقعود عن مؤازرته والوقوف إلى جانبه بصورة فعالة فى الأحداث الخطيرة التى ألمت به ، من ناحية أخرى .

وقد التقى على البغض لبطانة عثمان أهل الأمصار وكبار الصحابة فى المدينة ، وكانت الغالبية العظمى فى العاصمة وخصوصاً الأنصار وراءهم . وكان على رأس الصحابة على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله ، وسعد بن أبى وقاص ، وقد حاول هؤلاء النفر أن يمدوا بين الخليفة وبين بطانته فلم يفلحوا ، يأخذون عثمان بالنصح أحيانا وبالمعارضة أحيانا ، وباللوم العنيف فى بعض الأحيان[١] ، ولكنهم لم يصلوا من كل ذلك إلى ما أرادوا من إصلاح الأمور ، فلم يستطيعوا رد بطانة عثمان عما تريد ، وكان طبيعياً ألا يستطيعوا إيقاف المعارضة التى أخذت تشتد فى كل مكان .

وقد بلغت المعارضة دورها العنيف فى العامين الأخيرين من خلافة عثمان ، فقد روى المؤرخون[٢] أن من بالمدينة من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كتبوا إلى من تفرق منهم فى الأمصار يقولون لهم : « أن أقدموا ، فإن كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد » وكثر الناس على عثمان ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد . وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر الطبرى : ٤/٣٣٤ ، ٣٣٨ ، ٣٥٨ ، ٣٦٢ ، ٣٧٠ ، ٣٧٤ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ، ٤٠٥ — ٤٠٦ .

(٢) الطبرى : ٤/٣٣٦ ، ٣٦٧ وما بعدها . ابن الأثير ٣/٧٥ وما بعدها . ابن كثير ٧/١٦٨ وما بعدها .

يرون ويسمعون ، ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب إلا نفر منهم : زيد بن ثابت ، وأبو أسيد الساعدى ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت . واجتمع الناس وكلموا على بن أبى طالب ، فدخل على عثمان ، فقال : الناس ورائى ، وقد كلمونى فيك . ثم ذكر فضله وسابقته ، وعلمه بما يعلم غيره من الصحابة ، وما هو بأقل من أبى بكر وعمر علما ، ولا هما أولى باتباع الحق منه فى سياسة الأمة وسيرة الحياة ، بل هو أجدر أن يكون أكثر منهما رعاية لذلك ، لقربه من الرسول وصهره ، ثم خوفه من الله ونقمته ، وحذره أن يكون إمام هذه الأمة المقتول ، فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ، وتلبس أمورها عليها ، ويتركهم شيعا تضطرب أحوالهم ويختل نظامهم .

وقد استمع عثمان لعلى ، ثم رد عليه بأنه يعلم ما يقولون ، ثم عاتبه أن عنفه وأسلمه وعاب عليه ، ثم عجب أن ينكروا عليه أن وصل رحما ، وسد خلة ، وآوى ضائعا ، وولى شبيها بمن كان عمر يولى . ثم دار بين الرجلين حوار . قال عثمان : « أنشدك الله يا على . هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟ » قال : « نعم » قال : « فتعلم أن عمر ولاه ؟ » قال « نعم » قال : « فلم تلومنى أن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته ؟ » قال على : « سأخبرك ، إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه ، إن بلغه عنه حرف جلبه ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل ، ضعفت ورفقت على أقربائك » قال عثمان : « هم أقرباؤك أيضا » فقال على : « لعمرى إن رحمهم منى لقريبة ، ولكن الفضل فى غيرهم » قال عثمان : « هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته » فقال على : « أنشدك الله ، هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟ » قال « نعم » قال على : « فإن معاوية يقتطع الأمور دونك وأنت تعلمها ، فيقول الناس : هذا أمر عثمان ، فيبلغك ولا تغير على معاوية » .

يصور هذا الحوار بين على وعثمان ما كانت المعارضة تأخذه على عثمان ، وما كان عثمان يرد به عليها . وقد خرج عثمان بعد هذا الحوار إلى المسجد فخطب الناس خطبة عنيفة ، وبخ الناس فيها وصور العلة كما يراها ، وهى أولئك العيابون الطعانون الذين يرون

الناس ما يحبون . ويسرون عنهم ما يكرهون ، وقد أعيتهم الأمور وعجزوا عن الوصول إلى ما يرغبون . يعرض عن صورهم له من يحيطون به من بنى أمية بأنهم يناقسونه على الخلافة ويتعجلون الوصول إليها . ثم يذكر للناس أنهم عابوا عليه ما أقروا لعمر بمثله ، فلم ينكروها على عمر لأنه اشتد عليهم فخافوه ، ولأنه هو لان لهم وكف عنهم يده ولسانه فاجترأوا عليه ثم ينذر الناس وينذر من يؤلبونهم بأنه أعز نفرا ، وأقرب ناصراً ، وأكثر عدداً ، وأقمن إن قال هلم أتى إليه ، وقد أعد لهم أقرانهم وفضل عليهم فضولا . يشير بذلك إلى أن قومه من بنى أمية أكثر وأعد وأقوى من سائر بطون قريش . ثم يعود بعد هذا الكلام العنيف إلى طبعه السمح اللين ، فيعتذر إلى الناس أنهم اضطروه إلى أن يبدو على غير خلقه وينطق بغير ما تعود أن ينطق به . ثم يطلب إليهم أن يكفوا ألسنتهم عن عيب ولاتهم والطعن عليهم . ثم يتساءل عما يفقدون من حقهم ، وهو لم يقصر فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبله . ثم يرد على من ينكر عليه التصرف فى الأموال العامة ، بأنه يتصرف فى الفضول كما يريد بما له من حق كإمام . وإلا فلم هو إمام ؟!

ولما كان عثمان قد باعد ما بينه وبين كبار الصحابة فى المدينة واتهمهم وعرض بهم ، فلم ير أن يستعين برأيهم لمعالجة الموقف المتطور والذى يهدد بالانفجار . وكان يعلم أنهم يعارضون سياسته ويطلبون إليه أن يغيرها ، وبخاصة فيما يتصل بولاته وعماله على الأمصار ، ولما كان هؤلاء العمال من قرابته وهو واقع تحت تأثير أهله ، فإنه لم يكن فى حالة تمكنه من تغيير هذه السياسة التى يطلب إليه تغييرها . لذلك لجأ إلى عماله ، الذين كانوا هم بذاتهم موطن الداء ، يستشيرهم ويباحثهم . وكان من الطبيعى أن يدافع العمال عن موقفهم ، وأن يشيروا على الخليفة فى حدود ما لا يتعارض مع مصلحتهم

وحج عثمان كعادته فى كل عام جريا على ما كان يفعله عمر ، وأرسل إلى عماله فاجتمع بهم ، وهم : معاوية بن أبى سفيان ، وعبد الله بن سعد ، وعبدالله بن عامر ، وسعيد بن العاص . ويقول الرواة إنه ضم اليهم عمراً بن العاص . ونشك فى انضمام عمرو للاجتماع ، لأن عمرا لم يكن من الولاة فى ذلك الوقت ، ولأنه كان مغاضبا لعثمان ساخطا عليه منذ عزله عن ولاية

مصر ، وقد رأينا من قبل كيف كان عثمان يعرض بأمانته ، فلم يكن قدلك ممن يشق عثمان في نصحه له . فلما التأم اجتماعهم قال عثمان : « إن لكل امرىء وزراء ونصحاء ، وإنكم وزرائي ونصحائي وأهل ثقتي ، وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطلبوا إلى أن أعزل عمالي ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون ؛ فاجتهدوا رأيكم وأشيروا علي » . فأما معاوية فقد أشار بأن رد العمال إلى أمصارهم على أن يكفي كل منهم مصره ، وهو ضامن له من قبله . ولم يكن في هذه المشورة من معاوية ما يفيد القضية في شيء ، فإن السخط إنما كان واقعا على سياسة هؤلاء العمال الذين يشير معاوية بردهم إلى أمصارهم . وكل ما في الأمر أن معاوية هنا يلفت النظر إليه ، لأنه هو الوالي الوحيد من بينهم الذي لم يسخط أحد في ولايته ، فهو هنا يؤكد كفايته ويرد الأمر في انضباط المصر إلى حسن إدارته . وهو هنا ينظر إلى نفسه أكثر مما ينظر إلى القضية العامة . وأما الثلاثة الآخرون ، فقد أدلى كل منهم برأيه نافعا في حل المشكلة ، ولكن واحدا منهم جميعا لم يشر إلى أن للعمال يد في هذا السخط ، اللهم إلا ما يبدو خفيا من قول معاوية وتعريضه بكفايته . فقد أشار سعيد بن العاص على الخليفة أن يحسم الداء بقتل قادة المعارضة فلا يجتمع لها أمر ، وأشار عبد الله ابن عامر بأن يشغل الخليفة الناس عنه بالجهاد وأن يطيل بقاءهم في المغازي حتى يذلوا له فلا يكون همة أحدهم إلا نفسه . وأشار عبد الله بن سعد بأن يرضي الخليفة أطماع الناس ، فيعطيهم من بيت المال فتنعطف قلوبهم عليه . ويقول بعض الرواة[1] إن عثمان رد عماله على أعمالهم ، وأمرهم بالتضييق على من قبلهم ، وأمرهم بتجمير الناس في البعوث ، وعزم على تحريم أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه . ويقول آخرون[2] إن عثمان قال : « كل ما أشرتم به علي قد سمعت ، ولكل أمر باب يؤتى منه . إن هذا الأمر الذي يخاف على هذه الأمة كائن ، وإن بابه الذي يغلق عليه ليفتحن فنكفكفه باللين والمؤاتاة ، إلا في حدود الله فإن فتح فلا يكون لأحد على حجة ، وقد علم الله أني لم آل الناس خيرا ، والله إن رحى

---

(١) الطبري : ٤/٣٣٥ .

(٢) ابن الأثير : ٣/٧٨ .

الفتنة لدائرة ، فطوبى لعثمان إن مات ولم يحركها . سكنوا الناس ، وهبوا لهم حقوقهم ، واغفروا لهم ، فإذا تعوطيت حقوق الله فلا تدهنوا فيها » وهذا هو الأقرب لخلق عثمان من السهولة واللين ، وما يتفق مع مجريات الأحداث (١) .

ويبدو أن عثمان قد أعجبه من معاوية ما أبداه من تعريضه بقوته فى ضبط مصره ، وقد رأينا كيف أنه كان يلجأ إليه فى استصلاح المتذمرين من أهل الأمصار ومن المدينة نفسها ، فأحب لذلك أن يحضره معه إلى المدينة . وفى المدينة عقد عثمان مجلسا دعا إليه عليا والزبير وسعداً بن أبى وقاص وطلحة وغيرهم من المهاجرين ، وبدأ معاوية الحديث ، فذكر فضلهم وصحبتهم ، وألمع إلى أنهم ولاة الأمة ولا يطمع فى ذلك أحد غيرهم ، وأن عثمان كبرت سنه وولى عمره ، فليحذروا الفتنة والفرقة ، ثم لم ينس أن يظهر قدر نفسه وأنه ضامن لما يطلبون وقمين أن يحققه ، فما عتبوا من شىء ، فيده لهم به . فنهره على ، وكان بينهما حوار لم يخل من جفوة . ثم تكلم عثمان فلاين القوم وبرر لهم أعماله فى مراعاته لأهله ، ثم أظهر استعداده للنزول على أمرهم ، وتفرق القوم على الرضا(٢) .

وحين خلا معاوية بعثمان عرض عليه أن يخرج معه إلى الشام فيكون فى منعة بجواره ، أو يأذن له فى أن يرسل إليه جندا يقيم بين ظهرانى أهل المدينة ، يمتنع بهم الخليفة إن حدث حدث . ورفض عثمان أن يبيع جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء ، كما أنه لا يحب أن يضيق أرزاق أهل المدينة بجند يساكنهم . فلما رفض عثمان ذلك قال له معاوية : « والله يا أمير المؤمنين لتغتالن أو لتغزين » فقال عثمان « حسبى الله ونعم الوكيل »(٣) ويقول ابن قتيبة(٤) إن معاوية طلب من عثمان حين رفض ما عرض عليه أن يجعل له الطلب بدمه إن قتل ، وإن عثمان قال له « نعم هذه لك . إن قتلت

---

(١) انظر الطبرى : ٣٣٣/٤ — ٣٤٣ .
(٢) الطبرى : ٣٤٥/٤ . ابن الأثير : ٧٩/٣ .
(٣) الطبرى : ٣٤٥/٤ .
(٤) الإمامة والسياسة : ٣١/١ .

فلا يُطل دمى » . وانصرف معاوية راجعا إلى الشام بعد أن أوصى المهاجرين والأنصار بعثمان ، وبعد أن لمح لهم مرة أخرى بالتحذير والنذير ، ويقول الرواة إن معاوية استشعر الأمر لنفسه من هذا الوقت (١) .

وكان من المنتظر أن تمضى الأمور فى عافية ، ولكن أهل الكوفة ثاروا وردوا سعيداً ابن العاص ، وطلبوا إلى عثمان أن يولى عليهم أبا موسى الأشعرى ، واضطر عثمان إلى إجابة مطالبهم ، (٢) وكان هذا بداية الأحداث الخطيرة ، فقد خرج من مصر وفد فى نحو الخمسمائة فى رجب من عام ٣٥ هـ وأظهروا أنهم يريدون العمرة (٣) ، ولكنهم أقبلوا إلى المدينة يريدون أن يناظروا الخليفة فيما يأخذونه عليه . ويختلف الرواة فى تفسير ما حدث ، فيقول بعضهم (٤) إنهم لقوا عثمان فى قرية له خارج المدينة ، فناظروه وحاكموه إلى المصحف ، فأقنعهم بأشياء حتى رضوا ، وأقنعوه بأشياء حتى استغفر الله منها ووعد بالرجوع عنها . ويقول آخرون (٥) إن عثمان كلم عليا فى رد المصريين على أن يصير إلى ما يشير به على وبراه ، فركب على إليهم ومعه جماعة من المهاجرين والأنصار وغيرهم فى نحو ثلاثين رجلا ، فوعظوا المصريين وأرضوهم حتى رجعوا . ثم خرج عثمان فخطب الناس ، فأعطاهم من نفسه التوبة واعتذر إليهم واستغفر ، حتى بكى الناس رقة له . ثم طلب إليهم أن يرسلوا خيارهم ، فلا يرفعون له ظلامة إلا ردها ولا حاجة إلا قضاها . لكنه ما كاد يعود إلى داره حتى حوله مروان عما كان وعد به ، وخرج إلى الناس الذين تجمعوا على باب عثمان فردهم ردا عنيفا .

ومضت الأيام ولم ينفذ عثمان مما وعد شيئا ، فقد كان واقعا تحت تأثير مروان ومن

---

(١) ابن كثير : ١٦٩/٧ . الطبرى : ٣٤٣/٤ .
(٢) الطبرى : ٣٣١/٤ — ٣٣٢ .
(٣) نفس المصدر : ٣٥٧/٤ .
(٤) نفس المصدر : ٣٥٤/٤ — ٣٥٥ .
(٥) أنظر الطبرى : ٣٥٨/٤ — ٣٦٤ .

معه من بنى أمية . وحين استيأس أهل الأمصار كاتب الساخطون بعضهم بعضا وتواعدوا الخروج إلى المدينة لوضع حد نهائى لعهد عثمان . فخرج المصريون فى عدد ، القل يقول ستمائة والمكثر يقول ألفا (١) ، وخرج ناس من أهل الكوفة وناس من أهل البصرة ، وتوافوا جميعا خارج المدينة . ولما علم عثمان بقدمهم أراد أن يرسل إليهم عليا ومحمداً بن مسلمة الأنصارى ، فلم يقبل على أن يتعرض للوساطة مرة أخرى بعد أن لم يوف عثمان بشىء مما ضمنه للناس(٢) وقال محمد بن مسلمة « والله لا أكذب الله فى سنة مرتين »(٣) ومع ذلك فإن كبار الصحابة لم يقبلوا أن تدخل المدينة عنوة ، فنهضوا لرد هؤلاء الطارئين . وحين أقبلت الوفود لتدخل المدينة وجدوا عليا وطلحة والزبير قد عسكر كل واحد منهم فى أصحابه يريدون أن يحموا دار الهجرة أن تقتحم عليهم عنوة ، ولما لم يكن هؤلاء الطارئون يريدون أن يقاتلوا أصحاب النبى الذين تهيأوا لقتالهم ، ولا أن يقتلوهم، ولا يرغبون فى أن يثيروا حربا حول المدينة تذكر بيوم أحد أو يوم الأحزاب ، فإنهم تظاهروا بالعودة إلى أمصارهم وتركوا معسكراتهم ؛ ليجعلوا أهل المدينة يفترقون ويعودون إلى دورهم ، وقد نجحت خطتهم ، فما كاد الصحابة يعودون وينصرف الناس إلى بيوتهم حتى اقتحموا المدينة بدون قتال وأحاطوا بدار عثمان(٤) .

وكان الحصار فى أول أمره يسيرا لم يتجاوز احتلال المدينة والإحاطة بدار الخليفة ، وكان عثمان حرا يخرج من داره كيف شاء ، ويصلى بالناس ويصلى خلفه الثائرون أنفسهم . ويسعى السفراء بين الخليفة وبين الثائرين للوصول إلى حل للأزمة ، فكان الثوار يريدون من الخليفة أن يعتزل ، وهو يرفض ويأبى أن ينزع قميصا سربله الله إياه . ولكن الأمور ما لبثت أن تعقدت حين علم الثوار بأن عثمان أرسل إلى العمال فى الأمصار يأمرهم

---

(١) الطبرى : ٣٤٨/٤ .

(٢) نفس المصدر : ٣٦٤/٤ .

(٣) نفس المصدر : ٣٧٧/٤ .

(٤) انظر الطبرى : ٣٥٠/٤ — ٣٥١ .

بأن يرسلوا جندا لإخراج هؤلاء من المدينة . وعندئذ تغير الموقف كله ، فشدد الثائرون الحصار ، وأساءوا معاملة الخليفة ، وضيقوا عليه حتى منعوه الخروج ، ومنعوا وصول الماء إليه ، حتى يجبروه على النزول على إرادتهم والتنازل عن الخلافة ، وهو المطلب الذى تركز اتجاههم عليه بعد أن يئسوا من أن يغير الخليفة من سياسته . وانضم كثير من أهل المدينة وبخاصة الأنصار إلى الثوار ، وكانت أول إساءة إلى عثمان صادرة منهم ، فقد خطب عثمان يوما ، فقام إليه رجال منهم فوجهوا إليه كلاما قاسيا ، وتناول بعضهم عصا النبى التى كان يخطب عليها عثمان فكسرها ، ثم حصبه الناس بحصباء المسجد حتى أغمى عليه وحمل إلى داره . وقد حاول عثمان أن يخفف من شدة الحصار بتذكير الناس بحقه وسابقته ومواقفه فى الإسلام ، فلم يفلح ، كما حاول بعض الصحابة وبعض زوجات النبى أن يمدوه بالماء فلم يفلحوا إلا قليلا ، كما حاولوا أن يصلوا إلى حل بين الطرفين فلم يوفقوا ، فإن عثمان كان يأمل أن تأتيه أمداد الأمصار ، فأخذ يطاول ، وفى الوقت نفسه أخذ حشمه وأهله يستعدون للدفاع ، وكان المحاصرون من ناحيتهم مصرين على مطالبهم فى أن يعتزل عثمان الخلافة . وتحرج الموقف حين وصلت الأنباء بقرب قدوم أمداد الأمصار ، فبدأ المحاصرون يضيقون الخناق على من بالدار ، وأرسل الصحابة أبناءهم ليحولوا بين الثائرين وبين الدخول ، وليشاركوا فى الدفاع إن لزم الدفاع . ولعل مروان بن الحكم ، وقد أحس بقرب الإمداد ، أراد أن لا يظهر هو وبنو أمية بمظهر العاجزين أمام القادمين لنصرتهم ، فتسرع فأنشب القتال ، حتى إذا ما قدمت الأمداد أدركته وهو يقاتل . وخرج الأمر من يد عثمان ، فإن مروان عصاه فى غمرة الحماسة ، ولم يطعه إلا من أقسم عليهم من صحابة أن يكفوا ويلقوا سلاحهم . ولم يكن بد من أن يستسلم للمصير المحتوم ، فقد استطاع الثوار أن يهزموا المدافعين ، وأن يقتحموا الدار وأن يتسوروها بعضهم من الدور المجاورة ويقضى على عثمان[1] .

---

(١) انظر الطبرى : ٤/٣٦٥ — ٣٦٧ .

ولابد أن يعرض تساؤل ، وهو لماذا أبطأ عمال عثمان عن نصرته حتى أتيح للثائرين حصره وقتله ، وقد قيل إن الحصار استطال أربعين يوماً ، وكانت مدة كافية لوصول قوات من العراق أو من الشام ؟ لقد كان هؤلاء العمال يعلمون من غير شك بأمر الحصار ، فقد خرج المصريون من مصر وأميرها عالم بخروجهم ، وكذلك خرج البصريون والكوفيون ، وأميراهم عالمان ، فما بال هؤلاء العمال لم يسرعوا لنجدة الخليفة ، وقد كتب إليهم يستنجدهم ؟ وقد تربصوا فلم يسرعوا حتى اضطر الخليفة أن يكتب لبعض أهل الشام بعد أن لم يسرع معاوية كما يقول بعض الرواة(١) . وقد استعد بعض الناس للخروج من البصرة ومن الشام لنصرة الخليفة ولكن بعد فوات الأوان . إن كان عذر لعمال البصرة والكوفة ومصر لأن القبائل الساخطة كانت في أمصارهم ، فما عذر معاوية وقد كان مصره مستقراً وسلطانه فيه غير مسخوط ؟ وكان معاوية يدرك الموقف ويقدر خطورته على الخليفة ، وقد قال له حين فارقه بعد اجتماعه معه بالمدينة « والله يا أمير المؤمنين لتغتالن أو لتغزين » ، وكان يقدر أنه قد يقتل حتى لقد طلب منه أن يجعل له حق الطلب بدمه إن قتل كما روى ابن قتيبة . وما بال العمال وقد كانت العادة أن يوافوا الموسم كل عام ، فلم يحجوا هذا العام ؟ قد يقال إنهم شغلوا بأمصارهم المضطربة . لكن ما كل الأمصار كانت مضطربة ، ثم ماذا فعلوا أمام الاضطراب والخروج على الخليفة ؟ ثم ما بال الناس في موسم الحج وقد أرسل إليهم كتاباً مع ابن عباس — الذى كلفه بإقامة الحج — قرىء عليهم يطلب فيه نجدتهم ، فلم يتحركوا للنجدة ؟ وما بال أمير مكة لم يحرك ساكناً وقد علم بأنباء الحصار وطلب النجدة ؟ . هل أضمر العمال في نفوسهم أمراً فتباطئوا وتثاقلوا ؟ أم هل دهمتهم الأمور فشغل كل واحد منهم بأمر نفسه وتركوا الخليفة يلقى مصيره ؟ قد يكون هذا تعليلا . وإن صدق فهو على معاوية أصدق . وهل فترت الأمة كلها عن نصرة عثمان فأسلمته ، وقد كانت المدينة نفسها خير مثال لذلك ، فكان معظم أهلها مع الثائرين وكان أقلهم ينكر بلسانه ولا يصنع شيئاً ؟ من الصعوبة الإجابة بوضوح على هذه التساؤلات كلها . ولعل أصدق

---

(١) أنظر الطبرى : ٤/٣٦٨

تعليل ما قاله عثمان نفسه « إن الناس قد دُخل بهم ، وطال عليهم عمرى »(١) . وأكبر الظن أن الناس لم يطل عليهم عمر عثمان ، وإنما طال عليهم عمر هذه السياسة التى لم تكن سياسة خلافة كما كانت فى عهد عمر ، ولا كانت سياسة ملك كما عرفوا فى ملك قيصر وكسرى . وكان لابد أن تتجه أمور الأمة إلى طريقة واضحة من الحالتين(٢) .

لم تكن الثورة فى حقيقتها ثورة على شخصية عثمان ، فقد كان رضى الله عنه محباً للخير يسعى إليه ويجتهد فيه ، ولم يعمد بإرادته إلى مخالفة صاحبيه من قبله ، ولكنه اجتهد كما كانا يجتهدان فيما يريانه الصالح العام ، ومهما يكن ما أخذ عليه فإنه كان مجتهداً يريد الخير ، وقد دافع عن كل ما نسب إليه فأقنع فى كثير . وكل ما يؤخذ على عثمان لينه وبره بأهله الذى أسلمه إليهم فغالوا فى طموحهم واستأثروا على غيرهم ، وظهر استئثار قريش متمثلا فيهم . وقد كان الدور الحاسم فى هذه الأحداث لأهل الأمصار ، فقد نشأ فى الأمصار جيل جديد من أبناء أبطال الفتح ، وهؤلاء كانوا يريدون أن يكون لهم دور فى إدارة شئون الدولة ، وكانوا يستنكرون أن تعتبر البلاد المفتوحة « بستاناً لقريش » لايشاركها فيها أحد ، ولهذا كان الثائرون على عثمان جماعة وافدين من الأمصار الكبرى : من الفسطاط والبصرة والكوفة ، وهى المراكز الرئيسية للبلاد المفتوح ، ما عدا الشام الذى كان له وضع خاص تحت حكم معاوية على ما أسلفنا . وقد وقف أهل الشام قبل مقتل عثمان موقف الحيدة ، ووقفوا بعده موقف المطالب بثأره ، وكان لموقفهم هذا أثره فى توجيه العالم الإسلامى .

أما أهل الأمصار الأخرى فكانوا يجعلون لأنفسهم حق نقد الخلفاء ، وحق الرقابة على تصرفاتهم ، وحق عزلهم ؛ ولهذا واجهوا الخليفة بانتقاداتهم ومطالبهم ، وعدوا بعض تصرفاته ذنوبا واستتابوه منها ، فتاب إلى الله على ملأ منهم . ولكن الأمور تطورت بحيث عدل الثوار مطالبهم وطالبوه بالاعتزال فأبى ، وقال « لا أخلع قميصاً سربلنيه الله » وهو بهذا

(١) الطبرى : ٣٥٨/٤

(٢) أنظر فيما سبق : الطبرى : ٣٥١/٤ — ٤١٥ . ابن الأثير : ٨٤/٣ — ٩٠ طه حسين : ٢١٩/٤ — ٢٢٠

يعبر عن رأى خاص فى الخلافة ، وهو أن الخليفة غير قابل للعزل[١] . وكان الثوار يرون غير ذلك ، فإن الأمة التى لها حق الاختيار لها حق العزل . فلما تعذر التفاهم أدت الحوادث إلى قتل عثمان .

وإذا كانت الثورة فى الحقيقة على سلطان قريش ونفوذها ، فإن القرشيين قد أعانوا بتفرقهم وبظهور العصبية بين بطونهم على نجاحها وبلوغها هذه الغاية[٢] وخير ما يصور ذلك قول سلامة بن روح لعمرو بن العاص « يامعشر قريش ، إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتموه ، فما حملكم على ذلك ؟[٣] » . ومع ذلك فإن القبائل التى ثارت على نفوذ قريش وسلطانها لم يكن منها من يملك من أسباب الرياسة ما يجعل القبائل الأخرى تلتف حولها ، فانقسمت بين الشخصيات القرشية حين تكونت الأحزاب .

لقد كان مقتل عثمان حادثاً حاسماً فى حياة الأمة الإسلامية ، لايدانيه حادث آخر فى التاريخ الإسلامى ، فمنذ ذلك الوقت صار للسيف القول الفصل فى أمر السياسة فى الحكومة الإسلامية ، وفتح باب الفتنة فلم ينسد بعد ذلك انسداداً تاماً أبداً ، ولم يعد فى الإمكان المحافظة على وحدة الأمة، ممثلة فى شخص إمام على رأس الجماعة ، إلا فى الظاهر على الأكثر وبالقوة والقهر ، فقد انشقت الجماعة الإسلامية على نفسها وتفرقت شيعاً وأحزاباً ، يحاول كل منها أن يفرض سلطانه السياسى بقوة السيف ، وكان الأمر فى غاية الحرج على أهل التقى والبصائر من المسلمين ، فهم بين أن يتراجعوا عن الحق يدافعون عنه بالقول والفعل ، وبين أن ينضموا إلى فريق من المتصارعين فيشاركون فى قتال يهريق فيه المسلمون دماء بعضهم بعضاً ، وفى كلا الأمرين مخالفة لما أمر به الإسلام .

وقد تحمل على بن أبى طالب أولى نتائج هذه الثورة الخطيرة ، فقد آلت إليه الخلافة

---

(١) أنظر الطبرى عن رأى عثمان : ٤/٤١٠

(٢) أنظر الطبرى : ٤/٤٠٥ — ٤٠٧ .

(٣) الطبرى : ٤/٣٥٧

بعد مقتل عثمان ، فواجه أول موقف من تفرق كلمة المسلمين ، وواجهه أمام أشخاص من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم شاركوا منذ بدء الرسالة فى بناء الوحدة الإسلامية ، وكان لهم جهادهم المحمود ، وعلى أساس ما قدموا من عمل عظمت مكانتهم الأدبية فى أعين المسلمين ، ولكن الظروف جرتهم الآن إلى أن يقعوا فى هذا الخطأ السياسى ، فيهدمون بأنفسهم السيادة الأدبية التى يستندون إليها .

وقد شارك أهل المدينة فى تحمل نتائج هذه الثورة ، ففقدوا سيادتهم التى كانت من قبل شاملة ، وخطوا بأنفسهم الخطوة الحاسمة نحو فقدان هــــذه السيادة حين دعوا أهل الأمصار إلى مدينتهم ، وخلوا بينهم وبين ما يفعلون فيها ، فانتقل الأمر من أيديهم ولم يستطيعوا استرجاعه بعد ذلك . كما فقدت المدينة مكانتها السياسية كعاصمة للدولة ، فقد خرجت عنها الخلافة ولم تعــد إليها مرة أخرى ، وتقهقر كذلك مركز الحجاز حتى صار إقليما عاديا من أقاليم الدولة بعد أن كان فى يده القيادة التوجيه .

الباب الرابع

الحروب الأهلية وتضاؤل شأن الحجاز

الفصل الأول

الصراع بين علي وخصومه وخروج العاصمة عن الحجاز

واجه المسلمون بعد مقتل الخليفة عثمان مشكلتين خطيرتين كما حدث عقب وفاة النبي ، أولاهما تتصل بالخلافة ، والأخرى تتصل بإقرار النظام فى الدولة الإسلامية . وإذا كان المسلمون بعد وفاة النبى قد واجهوا فراغا فى رياسة الدولة ، فوفقوا فى أن يسدوه فى يوم واحد بتقرير نظام الخلافة واختيار أبى بكر والالتفاف حوله ، ثم واجهوا معه الثورة التى اشتعلت فى الجزيرة العربية على نظام الحكم فى المدينة ، فاستطاعوا أن يواجهوها بقلب واحد ويد واحدة ، فنجحوا فى إخمادها فى عام واحد ، وأعادوا للعرب وحدتهم تحت سلطان الدولة اليثربية ، ثم ساروا بهم قدما فى وحدة مؤمنة برسالتها معتدة بنفسها واثقة فى قيادتها ، فأقاموا هذا الملك الإسلامى العريض . فإنهم فى هذه المرة واجهوا نفس المشكلتين ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقيموا خلافة يتحد الناس جميعا تحت لوائها ، وإنما أقاموا خليفة رضى عنه قوم وسخطه آخرون . ثم واجهوا ثورة فلم يستطيعوا إخمادها ، وإنما زادها ضراما ما نشأ بين المؤيدين والساخطين من صراع دموى رهيب ، ولم تجتمع القلوب بعد ذلك فى وحدة أبداً ، وانشعب المسلمون فى مسالك شتى ، وعلى رغم ما جهدوا بعد ذلك لم يستطيعوا إقامة وحدة على أساس من الرضا والقبول .

فقد أمسى المسلمون بعد مقتل عثمان وليس لهم إمام يدبر أمورهم ، ويحفظ عليهم نظامهم ، ويقيم فيهم القانون ، ويرعى هذه الدولة التى امتدت أطرافها هذا الامتداد العظيم فى الشرق والغرب ، وكان عليهم أن يقيموا خليفة يباشر هذا السلطان حتى لا تختل أمور الدولة ، ولكن لم يكن الأمر من البساطة بحيث يقضى فيه بصورة هينة ، فلم يكن الجو

فى عاصمة الدولة جو استقرار واطمئنان ، فيتم الأمر بعد محاورات تدوم يوما يتم بعدها اختيار الخليفة كما حدث فى اختيار أبى بكر ، أو مشاورات تدوم عدة أيام يختلف فيها الناس ثم يثوبون بعدها إلى اتفاق كما حدث فى اختيار عثمان ، ولم يكن الخليفة الراحل قد ترك عهداً رضيه الناس كما حدث فى اختيار عمر ، وإنما كان الجو جو ثورة واضطراب قتل فيه الخليفة ، واحتل الثوار العاصمة ، وأصبحوا أصحاب الكلمة العليا فيها . ولم يكن الثوار الذين قتلوا عثمان هم الذين من حقهم أن يختاروا خليفة ، فإن الذى استقر عليه الأمر فى اختيار الخلفاء منذ قيام الخلافة هو أن أصحاب الحق هم المهاجرون والأنصار من أهل يثرب ، وهم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، ولم يكن الثوار منهم وإنما كانوا شراذم من الجيوش المرابطة فى ثغور البصرة والكوفة ومصر ، ومن ثاب إليهم من الاعراب ومن أعانهم من أبناء المهاجرين .

وكان أهل المدينة من المهاجرين والأنصار قد وقفوا مواقف مختلفة من هذه الثورة التى أودت بعثمان : — فأما كثرتهم فكانت ترى وتفكر ، وتهم بالإصلاح فلا تجد إليه سبيلا ، فتسكت سكوت العاجز لا سكوت المقصر ، وهناك فريق شُبهت عليهم الأمور فآثروا العافية والتزموا الحيدة ، فلزم بعضهم البيوت وترك بعضهم المدينة فاراً من الفتنة وتبعاتها . وفريق ثالث لم يذعنوا للعجز ولم يؤثروا الاعتزال ، وإنما سعوا بين الخليفة وخصومه ، منهم من ينصح للخليفة ويحاول الإصلاح بينه وبين الثائرين ، ومنهم من ينقم منه فيحرض عليه ويغرى به ، أو يقف موقفاً لا ينكر فيه على الثائرين أو يخذل عن الخليفة .

فلما قتل الخليفة لم يكن أهل المدينة فى حالة تمكنهم من أن يجتمعوا على أمر أو يتجهوا إلى غاية . فأما الفريق الأول فقد ابتأسوا واسترجعوا أن لم يستطيعوا أن ينصروا الخليفة ويردوا عنه ، وأما الفريق الثانى فقد أمعنوا فى عزلتهم ولم يشاءوا أن يشاركوا فى عواقب الفتنة . وأما الفريق الثالث فتربص ما يصنع الناس . وزاد الأمر انتشارا أن لم يكن للمسلمين

نظام مقرر مكتوب أو محفوظ يشغلون به منصب الخلافة حين يخلوا ، وإنما كانوا يواجهون الموقف كما يستطيعون أن يواجهوه .

وكان عمر قد وضع نظاما للشورى عهد فيه إلى ستة من كبار الصحابة أن يختاروا من بينهم واحداً منهم ، فوقع الاختيار على عثمان كما بينا من قبل . فلما قتل عثمان ، وكان عبدالرحمن بن عوف قد مات قبله ، فقد أصبح أصحاب الشورى أربعة ، هم : على بن أبى طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص . وهؤلاء هم المرشحون للخلافة أو الذين تتجه إليهم الأنظار ليتولى واحد منهم . فأما أحد هؤلاء الأربعة وهو سعد بن أبى وقاص فكان قد اعتزل مع المعتزلين وتجنب الفتنة ، ومن ثم لم يشأ أن يشارك فى عواقبها ، وأما على وطلحة والزبير فكان الأمر مختلفا بينهم ، فلم يكن لهم موقف واحد من الخليفة المقتول ولا من الظروف التى انتهت إلى قتله .

فأما على فقد كان موقفه بالنسبة لعثمان غاية فى الحرج : كان قريبا لعثمان تربطه به رابطة العصبية العبد منافية من ناحية أبيه ، وتربطه رابطة الرحم من ناحية أمه ، فقد كانت جدة عثمان لأمه هى أم حكيم بنت عبد المطلب ، فعثمان من نسب الأب البعيد ابن عمه ، ومن نسب الأم القريب ابن عمته ، ثم هو من ناحية أخرى عديله فى الصهر ، فكلاهما كان زوجا لإحدى بنات رسول الله(١) . وكان هذا يفرض على علىّ أن يقف إلى جانب عثمان ينصح له ويرد عنه . وهو من ناحية أخرى كان ناقداً لسياسة عثمان وبطانته التى حجبته عن أصحاب الشورى ، واحنقت عليه رعاياه ، ناصحا للخليفة بإقصاء تلك البطانة وتبديل السياسة التى تزينها له وتغريه باتباعها . ومن هذا جاءه الحرج ، فقد كان الثائرون على سياسة عثمان وبطانته يحسبونه مسئولا عن السعى فى الإصلاح ، وكان الخليفة يحسبه مسئولا عن تهدئة الحال وكف أيدى الثوار . وقد ضاعف من هذا الحرج أن عليا لم يكن بموضع الحظوة والقبول عند الخليفة حيثما وجب الإصغاء للرأى والعمل بالمشورة ، وإنما كان مروان بن الحكم

(١) أنظر الطبرى : ٤/٤٢٠ ، والمسعودى : ٢/٣٤١ .

هو موضع الحظوة الأولى بين المقربين إلى الخليفة ، وكان دائماً يوقع فى روعه أن عليا وإخوانه من كبار الصحابة هم الساعون بالكيد له وتأليب الناس عليه ، وأنه لا أمان له إلا عند عشيرته وأقربائه ، ومن هم أحق الناس بسلطانه وأحرصهم على دوامه . ولذلك اتخذ عثمان من أقربائه ولاته وجملهم وزراءه وأهل ثقته ، وكان هؤلاء الولاة الثقاة من عثمان هم موضع نقمة الناس والسبب المباشر للثورة عليه ، ولذلك كانوا يحرصون دائماً على أن يحجبوا النصحاء عنه وفى مقدمتهم على . ولقد كان على من أجل ذلك فى وضع بين أن ينصح للخليفة ويرد عنه ، أو يعتزله ويتركه لمواجهة الموقف بعيداً عنه ، ولقد عبر على عن هذا الحرج أصدق تعبير حين قال « إنى إن قعدت فى بيتى قال لى : تركتنى وقرابتى وحقى . وإن تكلمت فجاء ما يريد ، يلعب به مروان ، فصار سَيِّقَة له يسوقه حيث شاء بعد كبر السن وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم »(١) . إلا أنه مع ذلك صنع غاية ما يصنع رجل معلق بالنقيضين ، مسئول عن الخليفة أمام الثوار ، ومسئول عن الثوار أمام الخليفة ، فكان يخذل عن الثورة ما وجد إلى التخذيل سبيلا ، ثم يسفر بين الثائرين وبين الخليفة ويردهم عن المدينة مرة ، ثم يسفر بينهما ويأخذ لهم منه الرضا ويأخذ له منهم الطاعة مرة أخرى . ثم حاول حين استيأس من ردهم — بعد أن احتلوا المدينة على حين غفلة من أهلها — أن يقوم دون عثمان فلم يستطع ، واجتهد فى أن يوصل له الماء العذب حين ضيقوا عليه الحصار ، وأرسل ابنيه للقيام على بابه والدفاع عنه مع المدافعين ، فلما وقع القضاء وقتل عثمان ضرب الحسن والحسين ، وشتم محمداً بن طلحة ، ولعن عبد الله بن الزبير ، وخرج وقد سُلب عقله لا يدرى ما يستقبل من أمره(٢) .

وأما الزبير ، فلم ينشط فى رد الثائرين نشاطا ملحوظا ، ولم ينشط فى تحريضهم

---

(١) الطبرى : ٤/٣٦٤ .

(٢) ابن قتيبة : ١/٤٤ .

نشاطا ملحوظا كذلك ، ولكنه ظل يترقب وهواه مع الثائرين ، ولعله لم يكن يظن أن يصير الأمر إلى ما صار عليه .

وأما طلحة فلم يكن يخفى ميله إلى الثائرين ولا تحريضه لهم ، ولا إطماع فريق منهم فى نفسه ، وكثيراً ما شكا منه عثمان فى السر والجهر ، وقد اتهمه صراحة بالتأليب عليه رغبة فى الإمارة من بعده ، حين حصره الثائرون ومنعوا أن يدخل عليه أحد أو يخرج من عنده أحد ، فهو يقول « هذا ما أمر به طلحة بن عبيد الله . اللهم اكفنى طلحة ، فإنه حمل علىّ هؤلاء وألبهم . والله إنى لأرجو أن يكون منها صفراً ، وأن يسفك دمه ، إنه انتهك منى مالا يحل له »[١] . ويتحدث الرواة[٢] أن عثمان استعان على طلحة بعلى ، وأن عليا استجاب له وذهب إلى طلحة فرأى عنده جماعة كبيرة من الناس ، وحاول أن يرده عن خطته فلم يستجب . فخرج على إلى بيت المال فاستخرج ما فيه وأخذ فى تقسيمه بين الناس ، وسمع من عند طلحة فتفرقوا عنه ، فسر عثمان بما فعل على . ورأى طلحة تفرق الناس عنه فجاء إلى دار عثمان تائبا معتذراً ، فقال له عثمان « إنك والله ما جئت تائبا ، ولكنك جئت مغلوبا ، والله حسيبك ياطلحة » . ويروون أن عليا ناشد طلحة أن يرد الناس عن عثمان ، فأبى وقال « لا والله ، حتى تعطى بنو أمية الحق من نفسها »[٣] .

ومهما يكن من أمر فقد قتل عثمان وهؤلاء الثلاثة فى المدينة ، والناس يعرفون لهم موقفهم من الأحداث وموقفهم من الخليفة المقتول ، وكان الثائرون قد ملكوا المدينة وملؤوها رعبا وخوفا ، فلم يدفن عثمان إلا بليل وعلى استخفاء شديد[٤] .

والرواة يختلفون فى الوقت الذى تم فيه اختيار الخليفة بعد عثمان ، فبعضهم يقول إنه

---

(١) الطبرى . ٤/٣٧٩ .

(٢) نفس المصدر : ٤/٤٣١ .

(٣) نفس المصدر : ٤/٤٠٥ .

(٤) انظر : ابن قتيبة : ١/٤٥ . والطبرى : ٤/٤١٢ — ٤١٥ .

تم فى اليوم الذى قتل فيه عثمان(١) . وبعضهم يقول إن المدينة بقيت وليس للناس فيها خليفة وإنما يدبر الأمور فيها الغافقى بن حرب أحد زعماء الثورة(٢) ، وهذا هو الثبت الملائم لطبيعة الثورة ولطبيعة هذه الفتنة المشبهة . وقد وقع الثوار بعد أن قتلوا الخليفة فى حيرة شديدة ، فإنهم كانوا يعلمون أنه لا بد للناس من إمام ، وأنه يجب أن يبايع هذا الإمام فى أسرع وقت ممكن قبل أن يستبد عمال عثمان بما فى أيديهم ، وقبل أن يرسلوا أو يرسل أقواهم معاوية جنده من الشام إلى المدينة ليخضعها لسلطانه ويقتص منهم ، وهم ليسوا فى قوة تستطيع الصمود لجند قوى ، ثم إنهم كانوا يعلمون أن واحداً منهم لا يستطيع أن ينهض بإمامة المسلمين ، فإن أمر الإمامة إنما هو للمهاجرين والأنصار يبايعون بها من يختارون من قريش . وهم إلى ذلك كانت أهواؤهم مختلفة ، فأهل مصر هواهم مع على ، وأهل الكوفة هواهم مع الزبير ، وأهل البصرة هواهم مع طلحة . لذلك التاث عليهم الأمر ولم يستطيعوا أن يتفقوا على رأى ، فذهب كل فريق منهم إلى من كان يرغب فيه ولكن لم يستجب لهم أحد من الثلاثة ؛ لأن واحداً منهم لم يكن ليرغب أن يتولى الأمر من ثوار لا حق لهم فى اختيار الخليفة . فلما لم يجدوا لهم مجيبا ، استيقنوا أنهم لا يستطيعون وحدهم أن يقيموا إماما ، وأنه لابد من معونة المهاجرين والأنصار ، لذلك اتجهوا إلى أهل المدينة يجمعونهم ويقولون لهم « أنتم أهل الشورى ، وأنتم تعقدون الإمامة وأمركم عابر على الأمة ، فانظروا رجلا تنصبونه ، ونحن لكم تبع . وقد أجلنا كم يومين ، فو الله لئن لم تفرغوا لنقتلن غداً عليا وطلحة والزبير وأناسا كثيراً »(٣) .

واجتمع الناس ينظرون فى الأمر ، وكان المرشحون ثلاثة ، فأما طلحة والزبير فقد كانا أشدهم طلبا للخلافة : كانا يمهدان لها فى حياة عثمان ، ويحسبان أن قريشا قد أجمعت

---

(١) أنظر الطبرى : ٤/٤٨٧ — ٤٣٢ . المسعودى : ٢/٣٥٨ . ابن الأثير : ٣/٩٨ .
(٢) أنظر الطبرى : ٤/٤٣٢ وما بعدها . ابن الأثير : ٣/٩٩ .
(٣) أنظر الطبرى : ٤/٤٣٢ — ٤٣٤ . ابن الأثير : ٣/٩٩ .

أمرها على أن تذود عنها بنى هاشم ، فإذا خلا الجو من عثمان فإن عليا وشيكا أن يذاد عنها .. لـكن الرأى الآن لم يكن رأى قريش ، وإنما هو الرأى الذى تتمخض عنه الثورة التى اشتعلت على تحـكم قريش واستئثارها . ثم إن طلحة والزبير من ناحيـة أخرى كانا يشبهان عثمان فى كثير مما أخذه عليه المتحرجون فى الدين ، وما نقم عليه الناقمون من الفقراء والمحرومين ، فقد كانا يخوضان فى المال ، ولا يفهمان الزهد والعلم على ما يفهمه الناقمون والمتزمتون . وإذا كان لا بد أن تسير الأمور وفق طلب الثائرين ورجائهم ، فلا يكون للخلافة من بين هؤلاء الثلاثة غير على بن أبى طالب ، ومن أجل ذلك اتجهت إليه الأنظار وتوجهت إليه رغبة الجمهور . وأقبل الناس يلحون عليه فى قبول الخلافة ، وحاول على أن يمتنع فلم يجد إلى الامتناع سبيلا ، فقد ردها من قبل حين عرضها عليه الثوار ، ولـكن الذين يعرضونها الآن هم المهاجرون والأنصار ، ويعرضونها عن رضاء المسلمين ، ويريدون أن يبايعوه كما بايعوا الخلفاء من قبله . وعندئذ قبل على الخلافة وجلس للناس على منبر النبى كما جلس الخلفاء من قبله ، فبايعه المهاجرون والأنصار ، ثم بايعه الناس جميعا فى المدينة إلا نفراً يسيراً أبوا أن يبايعوا ، فلم يلح عليهم ولا يستكرههم أو يأذن لأحـــد فى استكراههم ، منهم سعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وصهيب بن سنان ، وأسامة بن زيد ، وزيد بن ثابت ، ومحمد بن مسلمة ، وحسان بن ثابت . ويقول بعض الرواة إنه لم يتثن إلا طلحة والزبير فرضى أن يستكرها على البيعة لأنه خاف منهما الفتنة لموقفهما من عثمان والثائرين به ، بينما يقول البعض الآخر إنهما بايعا فى أول المبايعين ، بل إن طلحة كان أول من بايعه ، ثم بدا لهما بعد ذلك بداء ، فقالا بايعنا مكرهين حين ظهر لهما من الخليفة ما لم يكونا ينتظران (١) .

تمت البيعة لعلى فى المدينـة فأصبح إماما للمسلمين ، بعد أن بايعه من فى المدينة من

---

(١) أنظر عن بيعة على : ابن قتيبة : ١/٤٦ — ٤٧ . الطبرى : ٤/٤٢٧ — ٤٣٦ . ابن الأثير : ٣/٩٨ — ٩٩ . ابن كثير : ٧/٢٢٥ — ٢٢٦ . طه حسين : ٢/٥ — ١٠ .

المهاجرين والأنصار ومن حضر المدينة من أهل الأمصار ، وبذلك حلت مشكلة الخلافة ، أو ظهر لعلى ولكثرة الناس أنها قد حلت ، وأن الأمور صائرة إلى الرضا والاستقرار .

ثم كان على الخليفة الجديد أن يواجه المشكلة الثانية ، وهى إقرار النظام وإقامة الحدود ، وهى المشكلة التى ترتب عليها قيام الثورة وقتل الخليفة عثمان ، وكان لا بد من أن يدرس الأمر من ناحيتين : إما أن يكون الخليفة قتل ظالما ، وإذن فلا ثأر له ولا قصاص من قاتليه . وإما أن يكون قتل مظلوما ، وإذن فلا بد من أن يثأر له الخليفة الجديد وينفذ فى قاتليه ما أمر الله به من القصاص .

وقد انقسم الناس فى هذه القضية قسمين : فأما المهاجرون والأنصار من أصحاب النبى فكانوا يرون أنه قتل مظلوما ، وقد جاءوا إلى على فتحدثوا إليه فى ذلك وفى ضرورة أخذ أولئك الذين اشتركوا فى قتل عثمان وطلبوا إليه الاقتصاص منهم ، ووافقهم على على وجوب الاقتصاص ، ولكنه بين لهم حقيقة الموقف : فقال : « كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم ! هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم ، وثابت إليهم أعرابكم ، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ، فهل ترون موضعا لقدرة على شىء مما تريدون ؟ » وحين أجابوه بأنهم لا يرون قدرة على شىء ، قال « فلا والله لا أرى إلا رأيا ترونه إن شاء الله ، إن هذا الأمر أمر جاهلية ، وإن لهؤلاء القوم مادة .. ، وإن الناس من هذا الأمر إن حرك على أمور : فرقة ترى ما ترون ، وفرقة ترى ما لا ترون ، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق ، فاهدءوا عنى وانظروا ماذا يأتيكم ، ثم عودوا »(١) ، فعلى يرى التمهل والأناة فى نظر القضية حتى تستقيم الأمور ، ويقوى سلطان الخليفة ، ثم يجرى فيها الأمر على ما قضى الكتاب والسنة ، وقد وافقه الصحابة على ما رأى .

---

(١) الطبرى . ٤/٤٣٧ . ابن الأثير : ٣/١٠٠ .

وأما الثوار فكانوا يرون بطبيعة الحال أنهم قتلوا الخليفة ظالما ، فليس له ثأر ، ولا ينبغى للامام أن يقتل فيه أحدا .

وقد هم على أن يحقق مقتل عثمان ، وبدأ بأقرب المتهمين وهو محمد بن أبى بكر ، ولم يتركه إلا بعد أن شهدت امرأة عثمان بأنه لم يقتل (١) وكان جديرا بعد ذلك أن يجرى فى تقصى الأمر والوصول إلى القتلة وإجراء حكم القانون ، ولكن الأمور أعجلته بخروج الخارجين عليه ، وكأنما أراد خصوم على ومنافسوه أن تبقى قضية مقتل عثمان بلا حل ، فتكون مثارا للجدل وموضعا للاحراج وستارا تنطوى تحته رغبات النفوس ، وتعلة للخروج على إمام قامت بيعته عن رضا من بايعوا الخلفاء قبله بل وبصورة أوسع مما كانت عليه البيعة قبله ، فقد بايعه المهاجرون والأنصار بالمدينة ، ومن حضر البيعة من أهل الأمصار .

وكان أصحاب المصلحة فى إبقاء القضية عند هذه الحدود واتخاذها تعلة على علىّ طرفين : الطرف الأول شريكاه فى الشورى وهما طلحة والزبير ، والطرف الثانى معاوية بن أبى سفيان والى الشام . ولم يجد الطرفان حجة للخروج عليه إلا التعلل بالمطالبة بالثأر لدم عثمان . وكان كل واحد من هؤلاء الثلاثة الخارجين على على يمثل عصبية من عصبيات قريش ، فطلحة من بنى تيم ، والزبير من بنى أسد ، ومعاوية من بنى أمية ، ثم انضم إلى الخارجين عمرو ابن العاص وهو من بنى سهم ، ووراء هؤلاء سارت كل عصبيات قريش ، فكأن قريشا كلها قد وقفت فى الصف المعارض لعلى . وكانت قريش وقد آلت إليها رياسة الدولة الإسلامية بحسب ما تقرر فى يوم السقيفة ، قد قررت أن تتداولها فيما بينها ، وأن تذود بنى هاشم عنها حتى لا تجمع لهم بين النبوة والخلافة . فتداول الخلافة ثلاثة من صحابة رسول الله هم أبو بكر من بطن تيم ، وعمر من بطن عدى ، وعثمان من بطن أمية . وقد وجد على فى نفسه أن فاتته الخلافة بعد وفاة النبى ، وأنكر إجحافا فى تخطيه بالبيعة مع ما كان له

(١) ابن قتيبة : ١/٤٧ .

من القرابة والسابقة والفضل ، ولكنه كان يقدر لهؤلاء الثلاثة سابقتهم وفضلهم وسنهم ، ولم يكن على من مشيخة الصحابة عند وفاة الرسول ، ولم يكن النبي قد أوصى لأحد من بعده ، فقبل على اختيار الثلاثة ونصح لهم جميعا ، ولكنه كان يدرك أن قريشا لم تمل بها إلى هؤلاء الثلاثة لسابقتهم وفضلهم فحسب ، وإنما لأنها لا ترغب في بني هاشم فتجمع لهم النبوة والخلافة ، فهي لا تنفس على بني تيم ولا بني عدي ولا بني أمية في رئاسة عثمان خاصة ، كما تنفس على بني هاشم ، وقد عبر على عن هذا حين فاتته الخلافة بعد موت عمر بقوله : « إن الناس ينظرون إلى قريش ، وقريش تنظر إلى بيتها ، فتقول : إن ولي عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبدا ، وما كانت في غيرهم من قريش تداولتموها بينكم »(١) . وإلى جانب هذه النظرة العامة من قريش لبني هاشم ، فإنها كانت تحقد على علي وتنحيه عن الخلافة لعلة أخرى تقترن بهذه العصبية ، ذلك أن عليا كان قد بطش بنفر كبير من جلة البيوت القرشية في حروب المسلمين في عهد النبي ، فحفظ له أقاربهم هذه الترات بعد دخولهم في الإسلام . ولقد علم على كل هذا من قريش وأدرك أنها تحاربه بعصبيتها وتحاربه بذحولها ، وعبر عن هذا في كتابه إلى أخيه عقيل حيث يقول : « فدع ابن أبي سرح وقريشاً وتركاضهم في الضلال ، فإن قريشاً قد اجتمعت على حرب أخيك ، اجتماعها على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم ، وجهلوا حقي ، وجحدوا فضلي ، ونصبوا لي الحرب ، وجدوا في إطفاء نور الله . اللهم فاجز قريشاً عني بفعالها ، فقد قطعت رحمي ، وظاهرت علي وسلبتني سلطان ابن عمي ، وسلمت ذلك لمن ليس في قرابتي وحقي في الإسلام ، وسابقتي التي لا يدعى مثلها مدع ، إلا أن يدعي ما لا أعرف ، ولا أظن الله يعرفه »(٢) . ولكي يقف علي لها كان لا بد له من حزب أقوى من حزبها ، ولم يكن من قبل مقتل عثمان حزب أقوى من حزب قريش في أرجاء الدولة الإسلامية كلها . ثم بويع لعلي بالخلافة بعد مقتل عثمان ، فلم تتحول قريش عن جفوتها

(١) الطبري : ٤/٢٣٣ .
(٢) ابن قتيبة : ١/٥٥ — ٥٦ .

ولم تغير من نظرتها لعلى وبنى هاشم ، ولم ينل على البيعة فى المدينــة إلا بعد أن خفت فيها صوت قريش ، وهبطت سمعة حكامها ، وأصبحت البيعة ثورة تنكر عليها الأثرة بالحكم والأثرة بالمال فى الأمصار . وأصبح لعلى بذلك حزب من الطبقة التى تنكر على قريش كل هذا ، ودخلت فى حزبه كل بلاد خلت من عصبية قريش ولم يبق فيها لها زعيم ، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر والعراق وفارس ، ولم تقف فى وجهه إلا الشام لأنها كانت فى يد معاوية ، والبصرة التى كانت فى يد طلحة والزبير إلى حين . وعلى هذا كان لابد من أن يقوم صراع بين الحزبين ، وقد وقع هذا الصراع فاستغرق كل خلافة على .

* * *

بدأ على بعد أن تمت له البيعة يلتفت إلى تنظيم الأمر إلى فى أمصــار الدولة ليعيد إليها الهدوء بعد هــذه الثورة التى أدت إلى وقوع ما رأينا من الأحداث ، فكان عليه أولا أن ينظر فى أمر الولاة على هذه الأمصار ، فقد كان السبب المباشر للسخط هو تصرفات الولاة . ويروى الرواة[1] أن المغيرة بن شعبة دخل على على فأشار عليه بأن يقر عمال عثمان على ولاياتهم عاماً ، حتى إذا أتته طاعتهم وبيعة الجنود عزل منهم من أراد ، وأقر منهم من أحب ، فأبى على ذلك كراهة الإدهان فى دينه وإعطاء الدنية فى أمره . فطلب إليه أن ينزع من شاء ويترك معاوية ، فإن له جرأة وأهل الشام يسمعون له ، ولعلى حجة فى إثباته ، إذ كان عمر قد ولاه الشام طول خلافته . ورفض على أن يقر معاوية يومين . فخرج المغيرة من عنده ، ثم جاءه فى اليوم التالى فأنبأه بعدوله عما كان أشار عليــه به ، وباقتناعه برأى على . ويقول الرواة إن عبد الله بن عباس قدم فرأى المغيرة خارجا من عنــد الخليفة ، فلما دخل على على سأله عن شأن المغيرة فأخبره خبره ، فقال ابن عباس إنه قد نصحك فى رأيه الأول وغشك فى رأيه الثــانى ، وطلب إليه أن يثبت معاوية حتى يبايع وتعهد بأن يقوم هو على خلعه ، ولكن علياً أصر على إبائه ، وعرض على ابن عبــاس ولاية الشام ، فاعتذر وأبدى سبباً قبله الخليفة .

---

(١) انظر : ابن قتيبة : ١/٤٨ . الطبرى : ٤/٤٣٩ — ٤٤١

لم يكن على يستطيع أن يستبقى عمال عثمان لسببين : الأول خاص بذاته هو ، فإنه كان يلوم عثمان دائماً على توليته هؤلاء الولاة ، وكان ينكر عليهم سياستهم فى الأقاليم وسيرتهم فى الناس ، فلو أبقاهم لتناقض مع ذات نفسه ، ولتعرض لاتهامه بالحرص على الخلافة ولو على حساب دينه وشرفه . والسبب الثانى أن الثوار إنما كانوا يسخطون فيما يسخطون على هؤلاء العمال ، وهم لم يكونوا يريدون تغيير الخليفة فحسب ، وإنما كانوا يريدون تغيير السياسة كلها وتغيير العمال قبل كل شىء . فإذا أقر على هؤلاء العمال فكأنما أقر السياسة وأبقى أسباب السخط ، فتعارض مع أهداف الثورة وتعرض لما تعرض له عثمان من النقمة . هذا إلى أن استجابة عمال عثمان إلى مبايعة على أمر قليل الاحتمال ، فكلهم أقارب عثمان ، وكلهم صاحب مطامع وسلوك فى السياسة يخالف ما يعرفونه عن على من شدة فى الحق ، وكلهم يحملون لعلى بغضاً أن كان ينكر عليهم سلوكهم ويطالب عثمان بعزلهم . وإذا كان هذا هو الشأن فى حالة الولاة فى مختلف الأقاليم ، فهو فى شأن معاوية أكبر ، فمعاوية قد استقر على ولاية الشام زمناً طويلا عمل فيه على تدعيم سلطانه وتقوية نفسه واستعد للبقاء الطويل ، وما كان ليفوته الخطر من احتمال عزله بعد أن تستقر لعلى الأمور ، فاحتمال استجابة معاوية لعلى أمر بعيد ، ولم يكن يجنى على من إقرار معاوية على ولايته إلا زيادة التزكية لمعاوية وحسن الشهادة له ، فيستفيد معاوية بين أصحابه فى الوقت الذى يخسر فيه على بين أنصاره .

وعلى أى حال فإن اختيار العمال كان أول شىء فكر فيه على بعد أن تمت البيعة له ، فاختار : عثمان ابن حنيف على البصرة ، وأخاه سهل بن حنيف على الشام ، وقيس بن سعد على مصر ، وعبيد الله بن عباس على اليمن ، ويقال إنه اختار عمارة بن شهاب على الكوفة ولكن بعض أهل الكوفة لقيه فرده ، وأنبأه أن أهل الكوفة لا يرضون بغير أميرهم أبى موسى الأشعرى بديلا(١) . ونعتقد أن علياً لم يرسل على الكوفة أحداً ، لأن أهل

(١) الدينورى : الأخبار الطوال : ١٤١ الطبرى : ٤/٤٤٢ — ٤٤٣ ابن الأثير : ٣/١٠٣

الكوفة هم الذين اختاروه فى عهد عثمان وكان لهم رضاً ، ويؤيد هذا ما أورده اليعقوبى[١] من أن علياً عزل عمال عثمان عن البلدان خلا أبى موسى فإن الأشتر كلمه فيه فأقره . ونلاحظ فى هذا الاختيار أن علياً أراد أن يرضى الأنصار الذين أبعدوا من قبل عن المشاركة فى أمور الحكم ، فتراه يختار منهم ثلاثة للولايات الكبرى : البصرة والشام ومصر .

وسار عمال على كل إلى ولايته ، فأما عثمان بن حنيف فإنه لم يرده أحد عن دخول البصرة ، ولم يوجد لعبد الله عامر واليها من قبل عثمان رأى ولا حزم ولا استقلال بحرب ، وإنما أخذ ما قدر عليه من بيت المال وخرج فلحق بمكة . وأما سهل بن حنيف فإنه خرج حتى إذا كان بتبوك لقيته خيل لمعاوية فردته فرجع . وأما قيس بن سعد فإنه استطاع أن يصل إلى مصر ، فافترق أهل مصر فرقا : فرقة دخلت فى الجماعة وكانوا معه ، وفرقة وقفت واعتزلت إلى « خربتا »[٢] وقالوا إن قتل قتلة عثمان فنحن معكم وإلا فنحن على جديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا . وفرقة قالوا نحن مع على ما لم يقد إخواننا ، وهم فى ذلك مع الجماعة . وقد كتب قيس بذلك إلى أمير المؤمنين ، وأما عبيد الله بن عباس فلما دخل اليمن خرج عنها يعلى بن أمية بعد أن جمع كل مال الجباية وذهب به إلى مكة . وكتب أبوموسى الأشعرى إلى الخليفة ببيعته وبيعة أهل الكوفة[٣] .

وهكذا دانت لعلى كل أقاليم الدولة الإسلامية ما عدا الشام التى ردت عامله ، وبدا من هذا الرد أن معاوية مخالف ، وكان على الخليفة أن يرده إلى الطاعة بالقوة . ومع ذلك لم يعجل على معاوية ، وإنما كتب له أن يبايع ويقبل إليه فى أشراف أهل الشام ، ولم يذكر فى كتابه أنه يوليه . فلما وصله الكتاب لم يجب إلى شىء مما فيه ، وإنما آثر التربص والكيد . وكلما استنجزه رسول الخليفة الجواب تمثل له بهذه الأبيات :

أدم إدامة حصن أو خذا بيدى   حربا ضروساً تشب الجزل والضرما

---

(١) تاريخ اليعقوبى : ٢/١٥٥ .

(٢) قرية فى الحوف الغربى جنوب غربى الإسكندرية .

(٣) انظر الطبرى : ٤/٤٤٢ — ٤٤٣ . ابن الأثير : ٣/١٠٣

فى جاركم وابنكم إذ كان مقتله شنعاء شيبت الأصداغ واللمما
أعيا المسود بها والسيدون فلم يوجد لها غيرنا مولى ولا حكما

حتى إذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان ، دعا رجلا من بنى عبس ، فدفع إليه طومار مختوماً عنوانه « من معاوية إلى على » وأمره إذا دخل المدينة أن يقبض على الطومار من أسفله وأن يرفعه للناس ، ثم أوصاه بما يقول . فلما دخل العبسى المدينة فعل كما أمر ، فتبعه الناس ينظرون إليه وقد علموا أن معاوية معترض ، فلما دخل على الخليفة سلمه الطومار ، فلما فضه لم يجد فيه شيئاً ، فسأل العبسى : «ما وراءك؟» . فاستأمن الرجل ثم أنبأ علياً بأنه ترك أهل الشام وقد صمموا على الثأر وأنهم نصبوا قميص عثمان وهم يبكون حوله ، ثم أنبأه بأنهم يتهمونه بقتل عثمان ولا يرضون إلا بأن يقتادوا منه . ثم خرج العبسى ولم يكد يفلت من الثائرين الساخطين على معاوية (١) .

ولم يصبح لعلى سبيل غير الحرب بعد هذا التحدى الصريح من معاوية ، فأخذ يستعد للخروج لقتاله ، فأخرج لواءه وأمر الناس بالتجهز ، وكتب إلى قيس بن سعد ليخرج بجند مصر إلى الشام ، وكتب إلى عثمان بن حنيف وإلى أبى موسى ليخرجا إليه من العراق ، وكانت خطة حازمة لو نفذت لحصرت معاوية بين ثلاث قوات ولاضطرته إلى تفريق قواته بين ثلاث جبهات . ولكنها لم تنفذ لأن أنباء وصلت إلى الخليفة من مكة فقلبت خطته رأساً على عقب ، وجملته بدل أن يتجه إلى الشام اتجه إلى العراق .

خروج طلحة والزبير على علىّ

كان طلحة والزبير حين بايعا علياً يقدران أنه لابد محتاج إليهما أشد الاحتياج ، فإن لأحدهما أنصاراً فى الكوفة وللآخر أنصاراً فى البصرة ، وقد شارك أهل الكوفة والبصرة

(١) ابن الأثير : ٣/١٠٤ .

فى الثورة مشاركة خطيرة ، وكان الناس يظنون أنهم شاركوا فيها عن تحريض أو على أقل تقدير عن رضاء من طلحة والزبير . وقد عرضا على على معاونتهما له بقوات الكوفة والبصرة لطرد المحتلين عن المدينة حين تأبوا على الخروج ، فقد قال طلحة : « دعنى فلآت البصرة فلا يفجؤك إلا وأنا فى خيل » وقال الزبير : « دعنى آت الكوفة فلا يفجؤك إلا وأنا فى خيل » ولكن علياً استنظرهما حتى يرى رأيه(١) . فلما أبطأ عليهما جاءاه فقالا : « أتدرى على ما بيعناك يا أمير المؤمنين ؟ » فقال : « نعم ، على السمع والطاعة ، وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان » . فقالا : « لا ، ولكنا بايعناك على أنا شريكاك فى الأمر » . ولما أنكر عليهما على إلا أن يكونا شريكين فى القول والاستقامة والعون على العجز والأولاد ، استبان لهما أنه غير موليهما شيئا ، فأظهرا الشكاة ، وتكلم الزبير فى ملأ من قريش ، فقال : « هذا جزاؤنا من على ، قمنا له فى أمر عثمان ، حتى أثبتنا عليه الذنب ، وسببنا له القتل ، وهو جالس فى بيته وكفى الأمر . فلما نال بنا ما أراد ، جعل دوننا غيرنا » . فقال طلحة : « ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى ، كرهه أحدنا وبايعناه ، وأعطيناه ما فى أيدينا ، ومنعنا ما فى يده ، فأصبحنا وقد أخطأنا »(٢) . فالرجلان إذن كانا يفكران فى أن عليا سوف يعرف لهما مكانتهما وقوتهما ، وسلطانهما على حزبيهما فى البصرة والكوفة ، وسيشركهما فى أمره ، وستكون الخلافة ثلاثية يتقاسمها هؤلاء الثلاثة من أصحاب الشورى : لعلى الحجاز ومصر وما وراءهما من بلاد العرب وبلاد الشمال الأفريقى ، ولأحدهما البصرة وما وراءها وللآخر الكوفة وما وراءها ، وكانا يظنان أن هذه الخلافة الثلاثية إن استقامت كان أمر الشام يسيراً(٣) . ولكن علياً كان يشك فى نوايا الرجلين ويخشى طموحهما ، فقد باحث ابن عباس حين بلغته مقالة طلحة والزبير ،

(١) الطبرى : ٤/٤٣٨ . وانظر ابن كثير : ٧/٢٢٧ — ٢٢٨ .

(٢) ابن قتيبة : ١/٥١ .

(٣) طه حسين : ٢/٢٢ .

وحين رأى ابن عباس أن يسترضيهما الخليفة بأن يولى أحدهما على البصرة والآخر على الكوفة ، قال على : « ويحك ، إن العراقين بهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلا السفيه بالطمع ، ويضربا الضعيف بالبلاء ، ويقويا على القوى بالسلطان ولو كنت مستعملا أحداً لضره ونفعه لاستعملت معاوية على الشام . ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى »[١] . ومن أجل هذا أبى على عليهما ولاية هذين المصرين وأراد أن يسير فيهما سيرة عمر ، فيحبسهما معه فى المدينة كما كان عمر يحبس أعلام المهاجرين من قبل ، وهنالك عرف الرجلان أن ظنهما لم يصدق وأن تقديرهما لم يكن صوابا . فسكتا على مضض ، حتى إذا ماورد رد معاوية ورأيا علياً يتجهز لحربه فى الشام ، أدركا أن الفرصة مواتية ليعملا سيئاً ، فاستأذنا علياً فى الخروج إلى مكة ، وخشيا أن يمنعهما فقالا : « فإما أن نكابر وإما أن تدعنا » وكان رد على أن قال « سأمسك الأمر ما استمسك ، فإذا لم أجد بداً فآخر الداء الكى »[٢] .

وفى مكة اجتمع الساخطون من بنى أمية ومن عمال عثمان المعزولين : عبد الله بن عامر ، ويعلى بن أمية ، وسعيد بن العاص ، والوليد بن عقبة ، وانضم إليهم طلحة والزبير . وكانت السيدة عائشة فى مكة قد حضرت موسم الحج . فلما قضت مناسكها أخذت طريقها إلى المدينة ، وفى الطريق قابلها من أخبرها بقتل عثمان وبيعة على ، فضاقت بذلك ضيقاً شديداً وعادت إلى مكة ، وكان معروفاً أن عائشة لا تحب علياً وتحمل عليه موجدة فى نفسها منذ حديث الإفك ، حين أراد أن يواسى النبى فأشار عليه بأن يطلقها ، فضلا عن أنها كانت تريد الخلافة لرجل من عشيرتها هو طلحة بن عبيد الله من بنى تيم ، وعلى الرغم من أن عائشة كانت تنكر على عثمان بعض تصرفاته وتجاهر بنقده حتى ظن كثير من الناس أنها تحرض عليه[٣] .

---

(١) ابن قتيبة : ٥٢/١ .

(٢) الطبرى : ٤٤٣/٤ .

(٣) انظر اليعقوبى : ١٤٧/٢ ، ١٥٢ . ابن قتيبة : ٥٢/١ .

وقد قال بعض الرواة[1] إنها رأت ابن عباس فى موسم الحج ومعه كتاب من عثمان يطلب إلى أهل الموسم أن ينصروه على من حصره من الثائرين ، فقالت : « يا ابن عباس أنشدك الله — فإنك قد أعطيت لسانا إزعيلا[2] — أن تخذل عن هذا الرجل وأن تشكك فيه الناس ، فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ، ورفعت لهم المنار ، وتحلبوا من البلدان لأمر قد حُمّ » وعلى الرغم من هذا التحريض على عثمان فإنها ضاقت ببيعة على ، وكانت ترغب أن يلى الخلافة طلحة ، فهى تقول لابن عباس : « وقد رأيت طلحة بن عبيدالله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح : فإن يَلِ يسر بسيرة ابن عمه أبى بكر » فلما قال لها ابن عباس إنه لو حدث بالرجل حدث ما فُزع إلا إلى على ، برمت بحديثه . فعائشة إذن لم تغضب لعثمان وإنما غضبت لأن الخلافة آلت إلى على ، ولكنها لم تكن لتستطيع أن تعبر عن سخطها إلا فى صورة الغاضبة لعثمان . فلما رجعت إلى مكة نزلت على باب المسجد وقصدت للحجر فستّرت فيه واجتمع إليها الناس ، فأخذت تحدثهم بأن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة ، اجتمعوا على عثمان وعابوا عليه أموراً فنزع عنها وتاب استصلاحا لهم ، فلما لم يجدوا عليه حجة ولا عذرا بادؤوه بالعدوان فقتلوه ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، و استحلوا الشهر الحرام ، ثم تحرضهم على الطلب بدم الخليفة المظلوم ، وترى أن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر ، فعلى الناس أن يقيموا الأمر على النهج السليم وأن يعزوا الإسلام[3] ، وبمثل هذا القول استطاعت أن تؤثر فى الناس وأن تجمعهم على المخالفين لعلى ، وهكذا أصبحت مكة مثابة لكل من ينكر إمامة على وأصبحت لذلك منطقة معارضة . فكأن مدينتى الحجاز قد انقسمتا على أنفسهما .

وبدأ المعارضون والساخطون يأتمرون فيما بينهم ، أى حجة يحتجون بها وأى دعوة

---

(١) الطبرى : ٤/٤٠٧ .

(٢) إزعيلا = ذلقا حادا .

(٣) انظر الطبرى : ٤/٤٤٨ ، ٤٤٩ .

يدعون إليها ، ولما كان الساخطون من بنى أمية متهمين فى سخطهم ، لأن الخليفة المقتول منهم ، ولأن الثورة كانت على سياستهم وتسلطهم ، ولما كان طلحة والزبير متهمين برغبتهما فى الخلافة التى فاتتهما ، ومتهمين كذلك بنكث البيعة التى بذلاها لعلى ، فإن الجميع لم تكن لهم حجة إلا الحجة التى قالت بها عائشة ، وهى المطالبة بدم عثمان ، وأن الأمر تم لعلى عن طريق الإكراه ؛ لأن الثوار هم الذين فرضوا رأيهم وأنهم هم العصابة الملتفة حول على . ولإقناع الناس بهذه الفكرة كان لا بد أن تتولى ذلك السيدة عائشة بنفسها ، بعد أن تبين مقدار تأثيرها على من سمعها فى مكة ، كما حاولوا ضم شخص يحترمه الناس لعلمه وفضله ولم يؤخذ عليه شىء فى أحداث الفتنة ، وهو عبد الله بن عمر ، ليكون ظهيراً لما تدعو إليه عائشة وما سموه بالإصلاح بين الناس ، لكن عبد الله بن عمر رفض أن يشارك فى هذا الأمر ، بل إنه عنفهم على الخروج بعد البيعة ، ولامهم على محاولتهم إخراج عائشة ، وقطع عليهم الحجة بأن الشورى قد كانت ، وأن عليا قد قُدم على صاحبيه ، وأن البيعة لا يردها إلا من حكموا فيها(١) . ثم تشاوروا فى أى مكان يخرجون إليه بعد أن أدركوا أن مكة لا تقوى على مصادمة المدينة ، فأهل المدينة أكثر عدداً وقد زادهم قوة من انضاف إليهم من أهل الأمصار ومن الأعراب . وقد اتجه تفكيرهم بادىء الأمر إلى الشام ، وكان ظن طلحة والزبير أنهما لو ذهبا إلى الشام واجتمعا بمعاوية ولاّها عليه . لكن يعلى بن أمية ردهما عن ذلك وبين لهما أن معاوية مستقر بالشام وأهلها مجتمعون عليه ، بينما هم مقدمون عليه وهم فى فرقة ، ثم إنه ابن عم عثمان ، فإن ردهم عن الشام أو قال بجعلها شورى ، وهو واثق من أن أهل الشام سيؤيدونه عليهما فماذا يمكن أن يصنعا ؟ أيقاتلان أم يرضيان بالشورى فتخرج منهما ؟ ! ثم عرض عبد الله بن عامر الذهاب إلى البصرة فإن له فى أهلها صنائع سيؤيدونه ، ثم إنهم إن غلبوا عليا فلهم بعد ذلك الشام ، وإن غلبهم على كان لهم

(١) انظر ابن قتيبة : ١/٥٩ ، ٦١ . الطبرى : ٤/٤٥١ .

معاوية جُنة . فاجتمع رأيهم على الذهاب إلى البصرة ، فاستنفروا الناس وأعان ابن عامر ويعلى بن أمية بالمال والظهر(١) .

وعلم علي بخروجهم إلى البصرة ، فخرج مسرعا بمن اجتمع له من أهل المدينة ليأخذ عليهم الطريق قبل أن يصلوا إلى غايتهم ، لعله يستطيع أن يردهم ، فلما وصل إلى الربذة علم أنهم فاتوه ، فتلبث بها حتى يجتمع إليه من تخلف عنه في المدينة ، وحتى يستنفر من في طريقه من القبائل ، وقد قرر المسير إلى الكوفة . وأدرك أهل المدينة من الأنصار ، أن خروج علي عن المدينة قد ينقل عنها سلطان الدولة ويذهب مكانتها السياسية ، وكان أول من نبه لذلك عبد الله بن سلام إذ تعلق بعنان علي عند خروجه ، وقال : « يا أمير المؤمنين لا تخرج منها ، فو الله لئن خرجت منها لا ترجع إليها ، ولا يعود إليها سلطان المسلمين أبداً »(٢) لذلك اجتمع أشراف الأنصار ، فأقبلوا إلى علي يحاولون إبقاءه في المدينة وأن يوجه الحرب منها كما كان يفعل عمر من قبل « فقد أقام عمر ، وكفاه سعد زحف القادسية ، وأبو موسى زحف الأهواز ، وليس من هؤلاء رجل إلا ومثله معك ، والرجال أشباه ، والأيام دول »(٣) ، لكن فاتهم أن عمر إنما كان يملك توجيه القواد وهو في المدينة لأن القوى العربية كلها كانت في يده يوجهها حيث يشاء ، وكان العرب جميعا متجهين إلى حرب عدوهم من الفرس والروم ، وكان كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ومن حول عمر في المدينة أعوانا له وفي طاعته . أما الآن فإن العرب منقسمون على أنفسهم ، وأقاليم الدولة يستعد بعضها لقتال بعض ، وكبار المهاجرين هم الخارجون على الإمام وهم الذين يمدون لحربه ويؤلبون عليه . وقد استبان من حصار عثمان وقتله أن المدينة لا تملك قوة تدافع بها عن نفسها ، فضلا عن أن تهاجم غيرها ، وقد خلى الحجاز بل الجزيرة العربية كلها من القوة البشرية التي انتقلت مع حركة الفتوح إلى الأمصار وأقامت فيها ، فالمدينة

---

(١) ابن قتيبة : ١/٥٩ — ٦٠ . الطبري : ٤/٤٠١ — ٤٠٢ .

(٢) الطبري : ٤/٤٠٥ .

(٣) الدينوري : ١٤٣ .

كانت هي المعرضة للغزو لا هي التي توجه الحرب كما كان الحال في عهد عمر . فلذلك كان رد عليّ على كبار الأنصار الذين أشفقوا من خروج الخلافة عن مدينتهم أن قال : « إن الأموال والرجال بالعراق ، ولأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريبا منها »(١) ولم يجد الأنصار سبيلا أمام الحجة المقنعة إلا أن يسيروا تحت لواء علي للقضاء على الخارجين عليه وحسم الفتنة .

ولم يكن علي يقدر أنه سيترك المدينة إلى غير رجعة ، وإنما كان يظن أنه سيلقى هؤلاء الخارجين فيناظرهم ويبلغ منهم الرضى ثم يردهم إلى الجماعة ، ويعود معهم آخر الأمر إلى المدينة فيقيم فيها كما أقام الخلفاء من قبله ، لكن الأمور تطورت على غير ما كان يظن . ولم يكد يمضي في طريقه للقاء القوم في الطريق حتى علم أنهم قانوه إلى البصرة ، وأنهم سيفتنون الناس فيها عن بيعتهم له ، ومع ذلك فإنه لم يستيئس من الصلح ، ولكنه لم يستبعد الحرب ، ولذلك أخذ حيطته حتى لا يؤخذ على غرة ، فمضى في طريقه ، وأرسل إلى أهل الكوفة يستنفرهم لنصرته .

وأقبل رسل علي إلى الكوفة فوجدوا أبا موسى الأشعري راغبا عن القتال مخذلا الناس عن نصرة الخليفة ، محتجا بأن الإمام لا يتجه لحرب عدو من الكفار ، وإنما هو يوشك أن يحارب قوما يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر مثله ، وأن الإسلام لا يبيح المسلم أن يقاتل أخاه المسلم ، فالأمر إذن فتنة يحسن ألا يشارك فيها المسلمون(٢) . وأيسر ما يقال في موقف أبي موسى هذا إنه الغفلة ، ولكن لو كان أبو موسى مغفلا لما اختاره عمر لولاية الأمصار ، ولما رضيه أهل الكوفة لولايتهم حين ردوا سعيداً بن العاص عن مصرهم ، وقد كان أبو موسى رجلا من صحابة رسول الله ، وقد علم من غير شك أن النبي قد هم من قبل بقتال بني المصطلق حين رجع الوليد بن عقبة فزعم للنبي أنهم منعوه صدقتهم ، وهو

(١) الدينوري : ١٤٣ .

(٢) انظر ابن قتيبة : ٦٥/١ — ٦٧ . الطبري : ٤٧٧/٤ — ٤٨٧ . ابن الأثير : ١١٦/٣ — ١١٨ .

كان حاضراً قتال أبي بكر لمن منعوا الزكاة ورفضوا الخضوع لسلطان الدولة مع أنهم لم يرفضوا الإسلام . وليس الخروج على سلطان الخليفة بعد بيعته ، وتحريض الناس على الخروج عليه ، وإثارة الفتنة بين المسلمين بأقل خطراً من منع الزكاة ، كما أن أبا موسى ليس أعلم بالإسلام وأحكامه من علي ومن معه من كبار الصحابة ، وأهون ما يقال في أمر الخارجين على الإمام إنه اختلاف بين طائفتين من المؤمنين ، وحكم القرآن ظاهر في شأن هذا الاختلاف بنص الآية القرآنية « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » . وأبو موسى لم يدع إلى أن يقف أهل الكوفة بين المختصمين ليصلحوا بينهما ، وإنما هو يدعو الناس أن يلزموا بيوتهم وأن يعتزلوا الأمر كله . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن أبا موسى كان عاملا لعلي وكان قد بايعه وأخذ له البيعة من أهل الكوفة ، وهذه البيعة تفرض عليه أن ينصر الإمام بنفسه وبأهل مصره ، فإن تحرج من ذلك استقال الإمام وترك عمله وانضم إلى المعتزلين فاجتنب من الفتنة ما يجتنبون . أما أن يكون قد بايع عليا وقبل أن يكون عاملا له ، ثم يأبى أن ينفر مع أهل المصرين استنفرهم الإمام فهذا أمر لا يستقيم[١] . وقد ناقش بعض أهل الكوفة أبا موسى في أمر بيعة طلحة والزبير لعلي ، وسألوه عما إذا كان علي قد أحدث ما يوجب نقض بيعته ، فلما لم يجد جوابا اتهموه بالغش[٢] . وكان علي غير مستريح لتولية أبي موسى منذ البداية ، وإنما أبقاه على الكوفة حين عزل عمال عثمان لأن الأشتر كلمه فيه[٣] ، ولذلك أرسل على الأشتر حين علم بإصرار أبي موسى على التخذيل عنه ، وقال له « اذهب فأصلح ما أفسدت »[٤] وذهب الأشتر وابن عباس إلى الكوفة ، وكان قد

---

(١) طه حسين : ٢/٣٢ .

(٢) انظر ابن الأثير : ٣/١١٧ .

(٣) اليعقوبي : ٢/١٥٥ .

(٤) الطبري : ٤/٤٨٢ . ابن الأثير : ٣/١١٦ .

سبقهما إليها الحسن بن على وعمار بن ياسر ، فلما لم يجدوا من أبى موسى استجابة ، هاجم الأشتر قصر الإمارة ، حين كان أبو موسى فى المسجد يخطب الناس يثبطهم عن نصرة على ، فاحتله ، فلما عاد أبو موسى بعد خطبته ، صاح به الأشتر : « اخرج من قصرنا لا أم لك ! أخرج الله نفسك ، فو الله إنك لمن المنافقين قديما »[1] وكان الحسن بن على قد صاح به وهو يخطب فى المسجد « اعتزل عملنا لا أم لك ، وتنح عن منبرنا »[2] واضطر أبو موسى أن يعتزل العمل ، وخرج إلى مكة فأقام فيها مع المعتزلين . ونفر أهل الكوفة إلى على فأتوه حيث كان ينتظرهم فى ذى قار .

هذه هى الحال فى الكوفة ، أما البصرة فقد كان الأمر فيها أشد تعقيداً ، فإن أهل البصرة كانوا قد بايعوا عليا ، واستقاموا لعامله عثمان بن حنيف ، وإذا كان أهل الكوفة لم يتعرضوا إلا لمحاولة أبى موسى فى تخذيله لهم ، ولم يأتهم من يدعوهم إلى نقض بيعة على اللهم إلا بعض كتب وصلتهم من طلحة والزبير وعائشة فرفضوها[3] ، فإن أهل البصرة تعرضوا لدعوة مباشرة لنقض البيعة والخروج على الإمام ؛ فقد جاءتهم الكتب من طلحة والزبير تدعوهم للثورة غضباً لمقتل عثمان ، وقد استنكر أهل البصرة هذه الدعوة ، وعبر متكلموهم عن هذا الاستنكار حين قالوا : « مالنا ولهذا الحى من قريش ؟ أيريدون أن يخرجونا من الإسلام بعد أن دخلنا فيه ، ويدخلونا فى الشرك بعد ما خرجنا منه ؟ قتلوا عثمان ، وبايعوا علياً . لهم مالهم وعليهم ما عليهم »[4] ثم ردوا على كتبهم ينكرون عليهم خذلانهم لعثمان حين كان يجب عليهم نصره وهو بين أظهرهم ، ثم مطالبتهم بدمه مع أنهم ليسوا ولاة الدم[5] . ولكن طلحة والزبير وعائشة ومن معهم من الجند ما لبثوا أن

---

(١) الطبرى : ٤/٤٨٧ ؛ ابن الأثير : ٣/١١٨ .
(٢) الطبرى : ٤/٤٨٦ . ابن الأثير : ٣/١١٨ .
(٣) الطبرى : ٤/٤٦١ ، ٤٧٢ — ٤٧٣ ، ٤٨٣ .
(٤) ابن قتيبة : ١/٦١
(٥) نفس المصدر

أظلوا البصرة ، فأرسل إليهم عثمان بن حنيف رسولين يسألانهم عما يريدون من قدومهم البصرة ، فأجابوا بأنهم قدموا للطلب بدم عثمان وبجعل الأمر شورى بين المسلمين يختارون لخلافتهم من يشاءون . ورد رسولا عثمان بن حنيف على طلحة والزبير ، بأنهم قتلوا عثمان غير مؤامرين لأهل البصرة فى قتله ، وبايعوا علياً غير مؤامرين لهم فى مبايعته ، ثم بدا لهم فأرادوا خلع على ، فما حجتهم فى هذا الخلع ؟ ثم ساءلاهم : إن كان قتل عثمان صواباً فسيرهم لماذا ؟ وإن كان خطأ فما موقفهم ، وحظهم من هذا الخطأ أكبر ونصيبهم منه أوفى ؟ . ولم يجد طلحة والزبير حجة ألا أن قالا : إن صاحبكما لا يرى أن معه فى هذا الأمر غيره ، وليس على هذا بايعناه ، وأيم الله ليسفكن دمه »[1] وأدرك الرسولان أن طلحة والزبير إنما خرجا غضبا للملك ، وأنه لا سبيل لغير الحرب . فتأهب عثمان للقتال وخرج فى أهل البصرة ، وتواقف الطرفان ، ثم تناظروا فلم يصلوا إلى شيء ، وخطب طلحة والزبير ، فطلبا بدم عثمان وجعل الأمر شورى بين المسلمين . ورد عليهما أهل البصرة ممن كانت تأتيهم كتب طلحة بالتحريض على عثمان . واختلف أهل البصرة بين مستحسن لدعوة طلحة والزبير ، وبين معترض عليها ، وجعل الطرفان يتسابان . وجيء بعائشة على جملها فخطبت الناس وأبلغت فى الخطابة ، ولكن فريق التأييد وفريق الإنكار ظلا يتسابان ويتضاربان ومع هذا التفرق بين أهل البصرة فقد ثبت مع عثمان بن حنيف جند قوى ، اشتبك مع الطارئين فى قتال شديد ، ثم تحاجزوا وتداعوا إلى الهدنة حتى يقدم على ، وكتبوا بذلك كتاباً يقر عثمان على الإمرة ويترك له بيت المال والمسلحة ، ويبيح لطلحة والزبير وعائشة ومن معهم أن ينزلوا من البصرة حيث شاءوا .

ولكن الأمر لم يستمر طويلا ، فقد ائتمر طلحة والزبير وأصحابهما فيما بينهم ، ورأوا أنهم لو انتظروا حتى يأتى على لتحول الموقف نهائياً إلى غير مصلحتهم ، فأجمعوا على الكيد

---

(١) انظر ابن قتيبة : ١/٦٤

لعثمان بن حنيف ، وانتهزوا ليلة مظلمة شديدة الريح ، فهاجموه وهو يصلى بالناس العشاء الآخرة ، فقبضوا عليه ووكلوا به من ضربه ضرباً شديداً ، ومثلوا به فنتفوا لحيته وشاربيه ثم حبسوه وأسرفوا فى تعذيبه ، ثم عدوا على بيت المال فاستولوا عليه بعد أن قتلوا من حرسه أربعين رجلا كلهم من الموالى . وقد أغضب هذا العمل جماعة من أهل البصرة أنكروا نقض الهدنة والعدوان على الأمير ، وكرهوا استئثار القوم ببيت المال . فخرجوا إلى بعض ضواحى البصرة ، حيث خرج لهم طلحة فى قوم من أصحابه ، فقاتلهم حتى قتل منهم سبعين رجلا .

وهكذا ظهر طلحة والزبير ومن معهما بمظهر الظلمة الناكثين للعهود ، فى نظر أهل البصرة ، فهم لم يكتفوا بنكث البيعة التى أعطوها علياً ، وإنما أضافوا إليها نكث الهدنة التى عقدوها مع الوالى وقتلوا من قتلوا عدواناً ، وحبسوا الأمير وغصبوا بيت المال . ثم هموا بقتل الأمير لولا أن ذكروا أن أخاه بالمدينة يدبر الأمر بها من قِبَل على ، وأنه خليق أن يضع السيف فى أهليهم بها إن قتلوا أخاه ، لذلك خلوا سبيله ، فانطلق حتى لقى علياً وهو فى طريقه إلى البصرة .

ولم تكن هذه الأحداث التى أحدثها طلحة والزبير بالبصرة فى مصلحة قضيتهما ، فضلا عن أنها توغر صدر على وأصحابه ، زادت أهل البصرة انقساماً فيما بينهم ، فقد غضبت قبيلة عبد القيس لمن قتل من رجالها ، فخرجت إلى على وانضمت لجيشه ، وغضب كثير من الناس واعتزلوا القوم جميعاً ، وجعل كثير من الناس يخرجون فرادى متسللين إلى على ، بينما بقى آخرون ينتظرون قدومه لينضموا إليه . ولم يبق من أهل البصرة فى جانب طلحة والزبير إلا من أخذتهم الحمية ليدافعوا عن زوجة النبى التى رأوا أنها نزلت فى جوارهم . فإذا أضفنا إلى كل ذلك أن الاتفاق لم يكن فى الحقيقة قائماً بين طلحة والزبير حتى ليختلفان أيهما يصلى بالناس ، وكان بين جماعتهما قوم من بنى أميـــة يتهمونهما فى نفوسهم بقتل عثمان ، ويرون فيهما ثأرهم ، وعلى رأس هؤلاء مروان بن الحكم . وعائشة نفسها كانت

تحس بقلق فى الضمير تحاول إخفاءه ، فقد سمعت الناس يلومونها على خروجها وقد أمرها الإسلام بأن تقر فى بيتها ، كما سمعت الناس يلومون طلحة والزبير على أنهما أخرجا زوجة النبي إلى الحرب وعرضاها المكروه بينما احتفظا بنسائهما فى بيوتهما . إذا علمنا كل ذلك تبين لنا كم كانت جبهة القوم متفرقة ضعيفة حين أظلهم على بجنده الكثيف[١] .

ولم تكن حال على وأصحابه تشبه ذلك فى وجه من الوجوه ، فهو لا يشك بحال فى أحقيته بالخلافة ولا فى صحة بيعته حين استخلف ، ولذلك فهو مع تألمه لمسلك طلحة والزبير وأم المؤمنين ، ومع إشفاقه من تفريق كلمة المسلمين وحمل بعضهم على قتال بعض ، كان مستريح الضمير يمضى فى أمره على بصيرته . ولم يكن أصحابه وهم فى طريقهم إلى البصرة شاكين فى عدالة القضية التى يدافعون عنها ، وكل ما هنالك أن أفراداً منهم أرادوا أن يستوثقوا لأنفسهم فى أمر دينهم، فسألوا علياً عما يريد من شخوصه إلى البصرة وإشخاصهم معه ، فبين لهم أنه يريد أن يلقى بهم إخوانهم فيدعوهم إلى الصلح ويبين لهم الحق ويناظرهم فيه ، فإن أجابوه اجتمعت كلمة المسلمين والتأمت وحدتهم ، وإن أبوا تركهم مالم يبدؤوه بقتال ، فإن بادؤوه قاتلهم على الحق حتى يرجعوا إليه . وعلى هذا كان على وأصحابه يمضون على بصيرة من أمرهم ، ولذلك كانوا مؤتلفين فى حين كان أهل البصرة مختلفين ، وكانوا مستبصرين على حين كان أهل البصرة مترددين ، وكانوا يزيدون بمن ينضم إليهم ، وكان الآخرون ينقصون بمن يعتزل منهم أو ينضم إلى جيش على إما صراحة وإما سراً . ومع هذا الاتحاد والتفوق فى جانب على ، فإنه كان يريد الصلح ولا يرغب فى الحرب إلا أن يضطر إليها ، ولذلك لم يصل إلى البصرة إلا بعد أن أرسل رسولا إلى طلحة والزبير وأم المؤمنين هو القعقاع بن عمرو صاحب رسول الله وصاحب المواقف البارزة فى القتال فى حروب العراق .

واستطاع القعقاع بعد أن ناقش القوم أن يصل معهم إلى أساس المفاوضة بينهم وبين على ،

---

(١) أنظر الطبرى : ٤/٤٦٢ — ٤٨٧ . ابن الأثير : ٣/١٠٨ — ١١٣ .

وبدا للناس فى كلا الجانبين أن الصلح بين الطرفين قد أصبح وشيكا ، وكان الأفراد من أهل البصرة يلمون بمعسكر على ، فيأتون أقوامهم من أهل الكوفة فلا يكون الحديث بينهم إلا الصلح وإيثار العافية[١] . ولكن ذلك لم يكن فى الحقيقة إلا أمراً ظاهرياً ، فإن قلوب الزعماء كانت تنطوى على شىء غير ما بدا للناس ، ولم يكن أحد يأمن لصاحبه ، فلم يتحدد طريقة التقاء الطرفين ولم يدبر مجلس للاجتماع ، وإنما جرى الأمر عن طريق الكتب بين الطرفين ، وكانت المراسلات تدور حول البيعة وأمر الطلب بدم عثمان . وقد كان قول طلحة والزبير أن البيعة كانت مشوبة بالإكراه ، وأنها لذلك يجب أن ترد ويعود الأمر شورى بين المسلمين ، وكان رد على أن الخيار إنما يكون قبل البيعة ، فإذا وقعت فلا خيار ، وأنه لم يرد الناس وإنما أرادوه ، ولم يبايعهم حتى بايعوه ، وأنهما ممن أراد وبايع ، وأن العامة لم تبايعه لسلطان خاص ، فإن كانا بايعا كارهين فقد جعلا له عليهما سبيلا بإظهارهما الطاعة وإسرارها المعصية ، وإن كانا بايعا طائعين فليرجعا إلى الطاعة والجماعة . وأما الطلب بدم عثمان فإنهما ليسا بأولياء الدم ، وإنما أولياؤه أبناء عثمان ، وعلى هؤلاء أن يدخلوا فى طاعته ثم يخاصموا اليه فى قتلة أبيهم . وأجاب طلحة والزبير بأنه سار مسيراً له ما بعده ، وهو ليس براجع حتى يصل إلى ما فى نفسه ، فليمض لأمره ، فإنه ليس راضيا دون دخولهما فى طاعته ، وهما ليسا بداخلين فيها أبدا ، فليقض ما هو قاض [٢] .

وكان لا بد من موقف يحسم فيه الأمر ، فالتقى الطرفان ذات صباح على تعبئة ، وخرج على حتى إذا كان بين الصفين دعا إليه طلحة والزبير ليكلمهما ، فخرجا إليه فسألهما : ألم تبايعانى ؟ قالا : بايعناك كارهين ولست أحق بها منا . فلام طلحة على أن أحرز زوجه ، وخرج بزوج النبى يعرضها لما تتعرض له ، ولام الزبير على أنه تبع ابنه عبد الله الذى مال لأخواله من بنى تيم ولم يحفل بأن أباه كان ابن صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ، ثم ذكره بحديث رسول الله يوم قال للزبير ستقاتله ظالما له . فذكر الزبير هذا الحديث وتأثر

---

(١) الطبرى : ٤/٢٨٨ — ٢٨٩
(٢) أنظر : ابن قتيبة : ١/٧٠ — ٧١ . الدينورى : ١٤٠ — ١٤١ .

به ، كما تأثر كذلك بقرابتــه من رسول الله ومن على ، فقال لعلى : « لو ذكرت ذلك ما خرجت . والله لا أقاتلك أبدا » . وكان الزبير رقيق العاطفة شديد الخوف من الله ، شديد الحرص على مكانته من رسول الله ، وكانت حيرته شديدة منذ وصل إلى البصرة ورأى افتتان الناس واختلافهم . وقد ازدادت حيرته حين رأى عمار بن ياسر فى أصحاب على ، وكان المسلمون يتسامعون بقول النبى لعمار : « ويحك يابن سمية ! تقتلك الفئة الباغية » وأشفق الزبير أن يكون من هــذه الفئة الباغية ، وهنالك استبانت له بصيرته ، فاعتزل القتال وتحمل راجعا من البصرة ، فقتل غيلة بوادى السباع ، وحزن على لمقتــله حين سمع وبشر قاتله بالنار .

أما طلحة فتولى قيادة المعركة التى لم تلبث أن نشبت بعد ذهاب الزبير ، وكأنما كان انصراف الزبير قد فت فى أعضاد أصحابه فلم يقاتلوا إلا ضحوة من يومهم ثم انهزموا ، وقد أصيب طلحة بسهم يقال إن مروان بن الحــكم رماه به ثأرا لعثمان فأدى إلى مــوته ، وكان مروان يقول : « والله لا طالبت بثأر عثمان بعد اليوم » . وكان يُظن أن المعركة انتهت بعد هذه الجولة ، ولــكن المتحمسين من أصحاب طلحة والزبير ، وعلى رأسهم عبدالله بن الزبير ، أخرجوا عائشة على جملها فى هودج مصفح بالدروع ، وأشهــدوها ميدان المعركة ، فثاب المنهزمون إليها ، وقد اعتملت فى نفوسهم عوامل متعددة فيها كثير من الشعور الدينى ، فهم يحمون أم المؤمنــين وزوج النبى الأثيرة ، وفيها الشعور بحرمة العرض وحماية الأم والذود عن الذمار ، فهم يحمون أمهم ، ويكرهون أن تصاب أم المؤمنين فى بلدهم وهم شهود . وأصبح جمل عائشة كأنما هو الراية لأهل البصرة يلوذ به المقاتلون . ودار حول الجمل قتال رهيب ، يضرم ناره ويسعرها تحريض عائشة للمقاتلين ، ولم ينته حتى أمر على فعقر الجمل فتفرق عنه المدافعون . وحمل محمد بن أبى بكر وعمار بن ياسر عائشة بأمر على إلى إحدى الدور . وأصدر على نداء بأمان الناس جميعا ، وكان من قبل قد أوصى رجاله بألا يجهزوا على جريح ، ولا يتبعوا فارا ، ولا يدخلوا دارا ، ولا يهتــكوا سترا . ولما تم له النصر

لم يقسم بين أصحابه غنيمــة إلا ما أجلب به أهل البصرة من خيل وسلاح لم يكن ملكا لبيت المال . أما ما وجد فى المعسكر من متاع فقد أمر به فحمل إلى المسجد ونادى مناديه أن من عرف منه شيئا يخصــه فليأخذه . ثم جمع القتلى فصلى عليهم جميعا وتوجع . وكان سلوكه قدوة صالحة ردت إلى الناس عوازب أحلامهم ، فابتأسوا على أن قاتل بعضهم بعضا وكأنما نسوا أنهم جميعا إخوة تحت راية جنس ودين .

ودخل على البصرة بعد ثلاثة أيام من المعركة ، فصلى بالناس فى مسجدها ، وجلس لهم بعد ذلك فبايعوه على راياتهم الصحيح منهم والجريح ، وعمد إلى بيت المال فقسم ما فيه بين الناس . وبقى فى البصرة مدة يقول بعض الرواة إنها شهر أو أقل ويقول آخرون إنها شهران أو أكثر ، دبر فيها أمور البصرة ثم ارتحل عنها بعد أن أقام عبدالله بن عباس واليا عليها ، ورد أم المؤمنين إلى المدينة بعد أن صالحها . وعاد إلى الكوفة ليدبر لحرب معاوية فى الشام[1] .

الصراع بين على ومعاوية

لم يكد على يفرغ من حرب طلحة والزبير وعائشة ويرجع إلى الكوفة ، حتى أخذ فى التأهب لقتال معاوية الذى امتنع عن البيعة وأعلن الطلب بدم عثمان . وكان الصراع المتوقع بين الطرفين قاسيا ، فمعاوية فى الشام يحيط به جند أولو قوة وأولو بأس شديد ، وعلى حين كان طلحة والزبير يقدمان على بلد لعلى فى رقاب أهله بيعة ، وله عليه عامل ، وهما بأنفسهما كانا قد بايعا ، ثم كانا متهمين فى الثورة على عثمان ، فكانا متهمين فى دعواهما الطلب بدمه ، وكانا فى نظر الكثيرين ناكثين بيعة قد بذلاها ، كما لم يكونا من أولياء دم عثمان فيطلبان بدمــه ، لذلك كانت حجتهما ضعيفة ولم يستطيعا إثباتها برغم

---

(١) أنظر الطبرى : ٤/٥٠٦ — ٥٤٦ .

نا جهدا . كان موقف معاوية يختلف عن كل ذلك ، فهو مستقر في بلد هو صاحب السلطان فيه ، وقد استطالت مدة ولايته عليه أكثر من عشرين عاما ، استطاع في خلالها أن يجمع حوله الأنصار والأعوان ، وأن يتألف رؤساء القبائل ، وأن يجمع المال ويمهد لحكم دائم مستقر ، وهو لم يبايع لعلى ولم يأخذ له البيعة على من قبله ، فليس في رقبته ولا في رقبة أهل الشام بيعة لعلى يتهم بالنكث بها ، ثم كان ابن عم لعثمان وكان ملجأه حين كانت تضطرب الأمور في عاصمة الدولة أو في الأمصار الأخرى ، فدعواه في الطلب بدمه قائمة ، وقد اعترف له آل عثمان بذلك حين كتبوا اليه وأرسلوا له مع الكتاب قميص عثمان الملطخ بدمه ومعه أصابع زوجه التي قطعت أثناء دفاعها عنه . فكان معاوية يستطيع أن يستغل الموقف استغلالا ناجحا في الوصول إلى ما كان يطمح إليه ويرتب له .

كان بنو أمية منذ تولى الخلافة عثمان قد وصلوا إلى رياسة الدولة الإسلامية بالفعل ، فشغلوا كل مناصب الدولة بأقاربهم ، واحتكروا الولايات الكبرى لأنفسهم ، وأحاطوا بالخليفة الشيخ وكانوا وزراءه ومستشاريه ، واستطاعوا أن يعزلوا عنه أهل الشورى من كبار الصحابة حتى أغضبوهم منه ، كما أساءوا السيرة في حكم الولايات حتى أثاروا أهل الأمصار عليه ، ولم يكن يوجه سيرتهم إلا مصالحهم، حتى كان عثمان نفسه ضحية أطماعهم . وإذا كانت الأمصار قد ثارت عليهم واستطاعت في ثورتها أن تطردهم عنها ، فإن رجلا واحداً منهم ، هو معاوية بن أبي سفيان ، استطاع في غمرة هذا السخط كله أن يحتفظ بولايته هادئة ، وأن يعمل لنفسه خاصة ، دون نظر إلى موقف الخليفة التعس الذى كان ضحية هؤلاء الأهل الطامعين .

لم يكن معاوية يجهل النقمة الفاشية على عثمان في ولايات الدولة وفي عاصمتها ، وكان عثمان يلجأ إليه كثيراً في استصلاح الناقمين الشاغبين عليه وعلى ولاته ، كما يلجأ إليه يطلب المشورة والنصيحة ، وكان معاوية يستجيب للخليفة ، ولكنه في الحقيقة لم يكن يعمل لصالح الخليفة إلا في ظاهر الأمر ، وإنما كان يعمل لنفسه في كل طلب طلبه من عثمان ،

وكل نصيحة أسداها إليه ، وكل مشورة أشار بها عليه ، ولم يتجرد فى شىء من هذا من منفعة ينظر بها إلى نفسه فى حاضره ومستقبله .

كان الخليفة يسير الشاغبين عليه أو على الولاة فى الأمصار إلى معاوية ليستصلحهم ، وكان معاوية يستقبلهم أول الأمر ، فيحاول معهم ولكن فى رفق وحلم ، فإن وجد منهم إصراراً استقال الخليفة منهم وأخرجهم عن مصره ، وكان هذا هو موقفه فى كل حالة من هذه الحالات ، وهو موقف الرجل الذى لا يبالى بعد أمانه على ولايته أن تنجم الفتنة حيث نجمت ، وأن يبتلى بها الخليفة بنجوة منه . فإذا ما تفاقم الخطب ونظر الخليفة حوله يطلب الرأى والنصيحة ، واستقدم لذلك ولاته يتدارس معهم الموقف ويطلب منهم المشورة ، لم يزد معاوية على أن لفت النظر إلى نفسه ودل على غيره من الولاة بحسن سياسته وضبطه لمصره ، ولم يقدم للخليفة مع ذلك ما يفيده فى قضيته بشىء . فإذا ما خلا به أشار عليه بأن يرتب له أربعة آلاف من جند أهل الشام يكونون له حرسا ، أو ينتقل معه إلى الشام فيكون عنده فى أمان . ولما لم يقبل عثمان واحدة من هذين الأمرين ، طلب إليه أن يجعل له الطلب بدمه إن قتل . وقد أجابه عثمان إلى هذا الطلب . وليس فى واحد مما أشار به معاوية إلا والنفع فيه ثابت لمعاوية غير ثابت لعثمان ، وربما كان فى معظمها ما يضره ولا يجديه .

فأما الإشارة على الخليفة بإقامة أربعة آلاف من خيل الشام يحرسونه ، فهو تسليم الحجاز إلى يدى معاوية فى حياة الخليفة وبعد موته . فلا يقدر أحد على بيعة فيه إلا البيعة التى يرضاها .

وأما الخروج من المدينة إلى الشام فهو نقل العاصمة إلى دمشق ، وهنا يصبح القول الفصل بعد موت الخليفة لمعاوية صاحب القول الفصل فى الشام كله . وفى هاتين الحالتين لا ينتفع من العمل بهذه النصائح كلها غير معاوية . وقد أشار كل واحد من ولاة عثمان وممن رأى أن يشير على عثمان بمشورة رآها مفيدة فى خطة السياسة وإصلاح الأمور ،

غير معاوية الذى أعفى نفسه من تبعة النصيحة ليملى للخليفة فيما يرضاه ، فهو يعلم أن كل تغيير نافع فى خطة من خطط السياسة العامة يصيبه هو فى مقدمة الولاة المحسوبين على العهد كله .

وأثبت ما ثبت من منفعة لمعاوية بتلك المطالب التى عرضها على الخليفة هو مطلبه بأن تكون له ولاية الدم بعد مقتله . فإنه عثابة ولاية العهد بإذن صاحب الأمر ، فإن القصاص إنما يتولاه السلطان القائم بالشريعة . ولم يكن يخشى على عثمان أن يقتله أحد غيلة فيكون عمل ولى الدم أن يقتاد منه عن طريق الحاكم القائم بالشريعة ، ولكن كان يخشى عليه القتل من جماعات ثائرة لا يتولى القصاص منها غير صاحب سلطان أقوى من سلطانها ، له عليها حق التأييد والطاعة . فإذا كان معاوية قد طلب ولاية الدم بعد مقتل عثمان مع قيام هذا الاعتبار ، فقد طلب ولاية العهد . وقد فارق عثمان وهو يعلم أنه مقتول[1] .

ولما أوشك عثمان أن يقتل طلب النجدة ، ولم يكن أحد فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية أقدر من معاوية على نجدته ، فأهل العاصمة محاط بهم ومهددون كما هدد الخليفة ، وليس فى وسع من حول الخليفة فى المدينة أن ينصروه بقوة أقوى من قوة الدولة ، وليس فى وسعهم غير الزجر والنصيحة ، وغيره من الولاة فى ذلك العهد بين معزول أو معتزل أو مهدد فى سلطانه . وليس من أحد يملك الجند ويملك طاعتهم غير معاوية فى ولايته . ولكن معاوية لم يسرع إلى نجدة الخليفة مع قدرته على الإسراع . فلو كان لوم يوجه لأحد لوجه لمعاوية الذى ترك الخليفة لقاتليه يسفكون دمه ، ثم قام من بعد ذلك يطلب بدمه ويكيل التهم للآخرين ، وينكر على علىّ بيعته لانه لم يسلمه قتلة عثمان متهما له بالممالأة أو التقصير ، متخذاً من ذلك حجة للثورة عليه وحربه ، وليس من تفسير للثورة التى افتعلها

(١) العقاد : معاوية بن أبى سفيان فى الميزان : ١٤٣ — ١٤٨ .

معاوية باسم عثمان ، إلا أنها ثورة فى طلب الملك أعوزتها الحجة فالتمستها من مقتل الخليفة الشهيد . ولو لم يكن الأمر كذلك لكان الحق على معاوية لو أنصف وأخلص نفسه للحق أن يبايع كما بايع الناس ، ثم يأتى إلى الخليفة مع غيره من أولياء عثمان ويطلبون الإقادة من قاتليه ، ولكن معاوية لم يكن يريد أن يثأر لعثمان بمقدار ما كان يريد أن يصرف الخلافة عن على ، وأكبر دليل على ذلك أن الخلافة حين وصلت إليه بعد وفاة على وتنازل الحسن تناسى ثأر عثمان ولم يتتبع قتلته إيثاراً للعافية وحقنا للدماء ، وحجته فى ذلك أضعف من حجة على ، فإن عليا كان بصدد ثورة لم يكن أمامها مالكا لزمام الأمر ، أما معاوية فقد استقرت الأمور له واجتمع الناس عليه .

كان معاوية إذن ينتظر فرصة ، وقد واتته فلم يضيعها ، ولكنه لم يتسرع أو يتعجل بل أخذ الأمر فى أناة ، وفى الوقت الذى كان يعمل فيه على إثارة الناس فى الشام كان يحرص على أن يتعجلوه هم ، فهو يعظم من أمر حادث عثمان ويهول فيه ، ويدعو الناس إلى نصره فى غير إلحاح حتى استثار ضمائرهم ، وجعلهم يظهرون من الغضب لعثمان والطلب بدمه أكثر مما كان يظهر هو ، ويطالبونه بالنهوض بهم وهو يبطئهم ويستأنى . وكان ينتظر بهؤلاء الشيوخ من أصحاب الشورى الذين خرجوا على علىّ ليرى ما يصنعون ، حتى إذا ما علم بانحيازهم إلى مكة ، وائتمارهم بقتال على غضباً لعثمان ، لم يدعهم إليه ولم يفكر فى توحيد الجبهة معهم ضد على ، أو فى إنجادهم بالجنود حين خرجوا للقتال ، فهو يتربص بهم وبعلى ينتظر أن يأكل بعضهم بعضا ، ثم يواجه المنتصر منهم بعد أن كلمته الحرب ، بينما هو موفور . وقد استفاد معاوية من الصراع بين على وخصومه ، فأتيح له من الوقت ما ينظم فيه نفسه ويُعد أهل الشام نفسيا لمواجهة الصراع المقبل ، واستطاع كذلك أن يجمع حوله الحلفاء ، فقد اتفق مع عمرو بن العاص متناسيا فى سبيل مصلحته ما كان يعرف عن عمرو من نقد لعثمان وإثارة عليه . ولما كان معاوية مهدداً من ناحية مصر لأن عامل على عليها ، قيس بن سعد ، كان حازما بعيد النظر ، استطاع أن يقر الأمور فيها ،

وكان من المحتمل أن يزحف إلى الشام فى الوقت الذى يواجه فيه معاوية قوات على ، فقد استطاع معاوية أن يوقع الشك فى نفس على من ناحية قيس بن سعد بعد أن يئس من استمالته إليه ، فأذاع فى الشام بين رجاله أن قيسا من أنصاره ، ووصلت الأخبار إلى على ومن معه فنجحت عليه حيلة معاوية ، وعزل قيسا بن سعد وولى بدله محمداً ابن أبى بكر[١] . ولم يكن محمد بن أبى بكر فى حزم قيس ولا فى حنكته ، وبذلك أمن معاوية أن يؤتى من ناحية مصر .

وهكذا أصبح معاوية فى وضع يمكنه من لقاء على وهو مطمئن ، فهو لم يتعرض بعد لحرب يكلم فيها ، فعدته لذلك كاملة ، وأصحابه وافرون لم يصابوا فى أنفسهم ولا فى أموالهم ، ثم إنه كان بين قوم يدينون له بالطاعة ، ولايدين لهم بشىء ، فهو لم يصل إلى منصبه عن طريقهم وإنما كان معينا من قبل الخليفة ، فلم يكن فى منصبه مدينا لمن دونه من الرعية ، وكان أصحابه مقتنعين بأنه على الحق فى محاربته قتلة عثمان ، ولما لم يكن رجاله فى معظمهم من قبائل طارئة على الشام وإنما كانوا من قبائل مستوطنة منذ أزمان بعيدة ، فإن جيشه كان يمثل فى الحقيقة جيشاً وطنياً ، لذلك جعلوا من قضيته قضيتهم ، وكانوا يعرفونه ويجلونه منذ سنين طويلة ، وهو يسير فيهم سيرة العربى الجواد الداهية ، يعطى الناس ما وسعه إعطاؤهم ، ويصل الذين يريد أن يتألفهم من الرؤساء والقادة دون أن يجد فى ذلك بأساً عليه ولا حرج ، فكان الطامعون يجدون عنده ما يريدون ، ولذلك انضم إليه كل راغب فى الدنيا[١] .

أما على فقد خاض حربا منكرة قتل فيها من شيعته ومن عدوه خلق كثير ، فعدوه واجدون عليه لأنه وترهم فيمن قتل منهم ، وشيعته لا تبرأ من الواجدين عليه لمن قتل من

---

(١) انظر الطبرى : ٤/٥٤٧ — ٥٥٥ . ابن الأثير : ٣/١٣٧ — ١٤٠ .

(١) ڤلهوزن : ٥٦ — ٥٧ . دوزى : ٤٥ — ٤٦ . وانظر :
Lammens, Etude sur la regne de calife Mo'auiya ler

بإخوانهم فى حرب البصرة[١] ، وكان أهل العراق إلى ذلك يرون عليا مدينا لهم بالوصول إلى منصب الخلافة ، فلم تصله الخلافة إلا عن طريق الثورة ، ثم هم كانوا أكثر تدينا وورعا من أن يطيعوا الخليفة حيثما يوجههم[٢] ولما كانوا يرون فى قضية على قضية الدين والحق ، فإنهم كانوا كثيراً ما يسائلونه ويناقشونه استبراء لدينهم وتثبتا من الحق الذى يقاتلون عليه . وإذا كان هذا النقاش مما يثبت الناس ويحملهم يقاتلون عن بصيرة ، فإنه كان من ناحية أخرى يضطر عليا أن يكشف عن خطته حتى يصل منه الناس إلى اليقين ، ولقد صور هذا الموقف الحجاج بن خزيمة بن الصمة خير تصوير حين قال لمعاوية : « إنك تقوى بدون ما يقوى به على ، لأن معك قوما يقولون إذا سكت ويسكتون إذا نطقت ، ولا يسألونك إذا أمرت ، ومع على قوم يقولون إذا قال ، ويسألون إذا سكت ، فقليلك خير من كثيره »[٣] . وعلى كان مؤمنا بالخلافة كما تصورها المسلمون أيام أبى بكر وعمر ، يرى أن من الحق عليه أن يقيم العدل بأوسع معانيه بين الناس لا يؤثر أحداً منهم على أحد ويرى من الحق عليه أن يحفظ على المسلمين ما لهم فلا ينفقه إلا بحق ، ولم يكن يبغض شيئا كما كان يبغض وضع درهم من بيت المال فى غير موضعه ، فلم يكن يستبيح لنفسه أن يترضى أحداً أو يتألفه على حساب المسلمين ، كما كان يبغض المكر والكيد ويرى أن الحق بين فيمضى إليه مصمما ويدعو أصحابه أن يمضوا إليه كما يمضى ، ويرى الباطل بينا فيعرض عنه عازما ويدعو أصحابه إلى أن يعرضوا عنه فى عزيمة ، وكان له لذلك أنصار يحبونه ويخلصون له ويدافعون عن سلطانه بأموالهم وأنفسهم ، وكان حقيقا أن ينتصر على خصمه بهم ، لولا ما كان من تحرجهم وأسئلتهم ، ولولا ما كان مندسا بينهم من أصحاب الدنيا من أمثال الأشعث بن قيس ومن على شاكلته .

---

(١) انظر الدينورى : ١٦٤ ، ابن الأثير : ٣ : ١٤٢ .

(٢) انظر الدينورى : ١٦٥

(٣) نفس المصدر : ١٥٥ .

هكذا كان الحال فى صفوف على وفى صفوف معاويه حين تواجه الخصمان للقتال — ولم يشأ على أن يمضى إلى قتال معاوية حتى يرسل إليه السفراء يدعوه إلى الطاعة وإلى الدخول فيما دخل فيه الناس ، لتكون حجته ظاهرة وليتبعه من يتبعه عن بينة .

أرسل إليه رجلا من أصحاب النبى ، هو جرير بن عبد الله البجلى ، ليطلب إليه أن يبايع وأن يدخل فى الجماعة ، ويبين له حجة على فيما يطلب هو منه . ولكن معاوية لم يجب جريراً إلى شىء ، وإنما طاوله وماطله ، وهو مع ذلك يدعو وجوه أهل الشام ورؤساء الأجناد فيظهر مشاورتهم فيما يطلب إليه على ، ولكنه ينتهز ذلك فيعظم لهم من قتل عثمان ويحرضهم على الوفاء للخليفة المظلوم والطلب بدمه(١) .

ويبدو أن بعض أصحاب معاوية لم تكن نفوسهم مطمئنة إلى قتال على مع سابقته وفضله ، كما أنها كذلك لم تكن راضية عن قتل عثمان وإعفاء الذين قتلوه من العقاب ، فذهبوا يسألون معاوية عما يدعوه لقتال على مع أنه ليس له سابقته وفضله ، وخادعهم معاوية فاعترف بفضل على ، ثم سألهم عن عثمان أقتل مظلوما أم لا ؛ فلما أجابوه بنعم قال: « فليدفع لنا قتلته حتى نسلم إليه هذا الأمر » ولما طلبوا إليه أن يكتب لعلى فى ذلك ، استجاب لهم ، ولكنه كتب كتابا عنيفا وأرسله مع من تولى مساءلته ، ولم يكن فى كتاب معاوية ما يحقق صلحا أو يدعو إلى استجابة ، فقد اتهم فيه عليا بالممالأة على قتل عثمان والقعود عن نصرته مع القدرة على الدفع عنه ، والدليل على ذلك إيواؤه قتلته واتخاذهم له عضداً وأنصاراً وبطانة ، ثم هو يتحلل من دم عثمان كاذبا . فإذا كان يريد أن ينفى عن نفسه التهمة فليدفع إليه قتلة عثمان يقتلهم به ، وإلا فليس له ولأصحابه إلا السيف . وهكذا لم يكن معاوية يريد سلما ولا عافية وإنما يريد أن يعذر نفسه عند المتأثمين والمترددين من أصحابه من أهل الشام ، فطالب السلم لا يكتب لخصمه ليؤذيه ويحفظه ، ويثير فى نفسه الغيظ والموجدة ، ويتحداه تحديا صريحا بأنه متهم وعليه أن

---

(١) أنظر الدينورى : ١٥٦ — ١٦١ . والطبرى : ٤/٥٦١ ، ٥٦٢ : ابن الأثير : ٣/١٤١ ، ١٤٢ .

يثبت براءته بتسليم عدد من أصحابه بتهمة لم تحقق ولم يقم عليها دليل ، وكان معاوية لا بد يعلم أن الذين باشروا قتل عثمان لم يكونوا حقيقة فى صفوف على ، فالذين قتلوا عثمان كانوا من المصريين ، والذين كانوا مع على كانوا من أهل الكوفة والبصرة ، وهم وإن شاركوا فى الثورة فإنهم لم يباشروا قتلا بأيديهم ، ومعاوية يعلم كذلك أن عليا لو قدر على قتلة عثمان لأقاد منهم فى المدينة حين تحدث إليه فى ذلك من بايعه من المهاجرين والأنصار . وإذا كان أحد مسئولا عن ضياع قضية عثمان وإتاحة الفرصة للقاتلين أن يفلتوا ، فإنما هم أولئك الذين خرجوا على الإمام ، ولم يتركوا له الفرصة لمباشرة السلطان وتهدئة الحال ، وإقرار الأمور بعد هذه الثورة التى شارك فيها أهل الأمصار الثلاثة ، وهؤلاء المسئولون فى الحقيقة هم طلحة والزبير ومعاوية . ثم إن عليا ما كان يستطيع أن يقيد من ألوف أو مئات من الناس لمجرد أنهم شاركوا فى الثورة ، فضلا عن أن يسلمهم إلى غيره يقتاد منهم بغير تحقيق ، فيفتات بذلك على حق السلطان .

وقد أراد على أن يوقف من حمل إليه كتاب معاوية على حقيقة الوضع ، فأمر بالكتاب فقرىء فى المسجد ، فقام زهاء عشرة آلاف رجل وقد لبسوا السلاح ينادون « كلنا قتلة عثمان » ولكنه لم يكن من الوعى بحيث يدرك حقيقة الموقف حين يقول « ففعلوا ذلك خوفا من أن تدفعهم إلى » . وقد رد علىّ على معاوية رداً لا يقل عن كتابه شدة ، أعلن فيه براءته ، واتهم معاوية بالتجنى وبأنه إنما يطلب ما يطلب ذريعة إلى ما يأمل ، ومرقاة لما يرجو ، ثم يتهدده إن لم ينزع عن غيه وشقاقه لينزلن به ماينزل بالشاق العاصى الباغى[1].

وهكذا فشلت سفارة معاوية كما فشلت من قبل سفارة على ، واستبان لأهل الشام كما استبان لأهل العراق أن الأمر لا يحسم إلا فى ميدان القتال . فلم يأت شهر ذى الحجة من عام ست وثلاثين حتى كان الطرفان قد تجهزا للقتال ، وقدما طلائعهما التى وصلت إلى صفين على الحدود الإقليمية بين العراق والشام . ووصل جيش معاوية إلى صفين قبل جيش على ،

---

(١) أنظر الدينورى : ١٦٢ — ١٦٣ .

فنزل فى أفضل موقع وأقربه إلى شريعة الماء على نهر الفرات . وأقبل على بجيشه فأنزله بإزاء أصحاب معاوية ، ولـكن الفرات لم يكن له شريعة يستقى منها فى هذا المـكان غير الشريعة التى استولى عليها رجال معاوية ، وبذلك وضع معاوية جيش على فى وضع حرج حين أبى تحت ضغط المتعصبين من بنى أمية أن يستجيب لرسل على الذين طلبوا إليه أن يترك الماء حراً يشرب منه الجيشان ، ولم يكن بد لجيش على من أن يقاتل على الماء حتى لا يقهره عدوه بالظمأ . واستطاعت فرقة منه بقيادة الأشعث بن قيس والأشتر النخعى أن تهزم رجال معاوية وأن تردهم عن الماء وتستولى على الشريعة ، ولم يستجب على لرجاله الذين رأوا أن يعاملوا خصومهم نفس المعاملة ، فترك الماء حراً ، لأنه لم يكن يتعجل الحرب قبل الإعذار إلى خصمه ، ومناظرته فيما بينهما من خلاف .

وأتيح للقوم أن يلتقى بعضهم بعضا آمنين على الماء فيتحاورون ويتشاورون ، وفى أثناء ذلك رأى على أن يرسل إلى معاوية يعـذر له ولأصحابه ، فاختلفت السفراء بين الفريقين دون أن ينتهوا إلى صلح أو ما يقرب منه . فلما استيأس على من خصمه بدأ يناوشه دون أن يلتحم معه فى قتال عام ، فـكانت الفرقة تخرج للفرقة من الجيش فتقتتلان يوما أو بعض يوم ثم تتحاجزان ، وظل القتال متقطعا على هـــذه الوتيرة بقية ذى الحجة . فلما أظلهم المحرم من عام ٣٧ هـ توادعوا شهرهم هذا كله ، وسعت بينهم الرسل سعيا متصلا ، ولـكن الشهر مضى ولم يصلوا إلى ما يقرب إلى الصلح ، واستبان للطرفين جميعا بما لا يقبل الشك أن ليس بد من أن يصطدم الجمعان صداما عاما ، ومع ذلك فقد سار الجيشان على نفس وتيرة الحرب المتقطعة صدراً من شهر صفر ، وفيما بين ذلك وعند اللقاءات يتقاول الزعماء ويتكاتبون فى شىء من اللين أحياناً وفى كثير من العنف فى أكثر الأحيان حتى إذا ما سئم على المطاولة التى لم تعد تغنى شيئاً ، وإنما تزيد الفرقة وتضرم الأحقـاد ، عبأ جيشه للقتال العام ، وكذلك فعل معاوية ، واصطدم الجيشان صداماً عاماً استمر ثلاثة أيام استبسل فيها الطرفان ، وأتيح فيها لأصحاب النبى ممن كانوا فى جيش على فرصة لأن يقاتلوا

بنفس الحمية التي قاتلوا بها قريشاً من قبل مع النبي ، فهم كانوا يرون أنهم حين يقاتلون مع على كأنهم يقاتلون مع النبي نفسه جهاداً فى سبيل الله ، فكان عمار بن ياسر يقول « والذى نفسى بيده لنقاتلنهم على تأويله كما قاتلناهم على تنزيله . والله لو ضربونا حتى يبلغونا سعفات هجر لعلمنا أنا على حق وأنهم على باطل » وكتب عقبة بن مسعود عامل علىّ على الكوفة إلى سليمان بن صرد الخزاعى وهو مع على بصفين يذكره قول الله تعالى « إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم ولن تفلحوا إذن أبداً »(١) وعلى نفسه يخطب أصحابه ، فيتلوا الآية « قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين »(٢) . واستطاعوا أن يلحقوا بجيش معاوية خسائر فادحة ويشيعوا الهزيمة فيه حتى ليستعد معاوية للفرار . وحين كان جيش على وشيكا من النصر ، رأى رجاله المصاحف ترفع من جيش معاوية ، وإذا منادى أهل الشام يقول « هـذا كتاب الله بيننا وبينكم من فاتحته إلى خاتمته . الله الله فى العرب ، الله الله فى الإسلام . من لثغور الشام إذا هلك أهل الشام ؟ ومن لثغور العراق إذا تفانى أهل العراق؟ » . وتلك كانت خدعة صنعها عمرو بن العاص حين رأى الهزيمة حالة بجيش الشام ، ليوقع الفرقة فى جيش على . وقد أصاب عمرو ما قصد إليـه ، فإن عدداً كبيراً من القراء كانوا فى جيش على رأوا المصاحف وسمعوا التحكيم إلى القرآن فـكفوا عن القتال ، وكان فيـه فريق من الزعماء ، لم يكونوا على مثل بصيرة أصحاب على من المهاجرين والأنصار الذين قاتلوا بحماس بالغ فى المعركة ، ولا كانوا فى مثل حماس من شاركوا فى الثورة على عمال عثمان وسياستهم فى العراق ، رأوا أن الحرب قد بلغت منهم كما بلغت من عدوهم ، فآثروا العافية ، والإبقاء على قوة العرب ، وإن كانت الشبهة تحوم حول نياتهم ، وبخاصة الأشعث بن قيس الـكندى الذى كان بينه وبين

(١) سورة الـكهف : ٢٠

(٢) سورة التوبة : ١٣

عثمان صهر[١] وكان عامله على أذربيجان وقد أطعمه من خراجها مائة ألف فى كل سنة[٢] . ثم كانت له مواقفة المشككة فى إخلاصه من قبل ، فهو ممن ارتدوا وخرجوا على سلطان المدينة فى عهد أبى بكر ، ثم هو خان أصحابه الذين قاتلوا معه ولجأوا إلى حصنه النجير بعد أن هزمته جيوش المدينة ، ثم هو الذى ندم أبو بكر عند وفاته أن لم يقتله حين أتى له به أسيراً لأنه لا يرى شراً إلا دخل فيه . ولقد كان موقف الأشعث مريباً بالنسبة لعلى ، فهو كان يرى النصر أوشك أن يتم لعلى ، فما باله يتحمس لإيقاف القتال مع ما فى ذلك من ضياع النصر الوشيك والدعوة للصلح الذى رُفض من قبل ؟ ثم ماباله بعد ذلك يصر على أن يختار على أبا موسى الأشعرى ، مع علمه بتخذيله أهل الكوفة عن نصرته واضطرار على لعزله ؟ . ثم ماحماسه فى عرض كتاب التحكيم على الجيش ومحاولة إقناع الناس به . ؟ كل هذه التساؤلات تقوم حول موقف الأشعث ، وقد اتهمه بعض رجال الجيش بالمهالأة وضربوا دابته وكادت تقع بينهم الفتنة[٣] . وقد حاول على أن يبصر رجاله بخدعة معاوية وعمرو ، ولكن هؤلاء القراء والزعماء رفضوا كل قول إلا أن يوقفوا القتال ، وهددوا علياً بأن يسلموه لخصومه أو يقتلوه . واضطر على إلى قبول التحكيم راغماً ، بعد أن قال لهم : « احفظوا عنى نهيى إياكم ، واحفظوا مقالتكم لى ، أما أنا فإن تطيعونى تقاتلوا ، وإن تعصونى فاصنعوا ما بدالكم »[٤] .

---

(١) الدينورى : ١٥٦

(٢) الطبرى : ٥/١٣٠ .

(٣) اليعقوبى . ٢/١٦٥ . الطبرى : ٥/٥٥ .

(٤) انظر عن حرب صفين : ابن قتيبة : ١/١٠٣ — ١٢٩ . الدينورى : ١٥٥ — ١٩١ . اليعقوبى : ٢/١٦٣ — ١٦٥ . المسعودى : ٢/٣٨٤ — ٤٠٢ ، وانظر : نصر بن مزاحم : موقعة صفين الجزء الخامس وبعض السادس . الطبرى : ٤/٥٦٩ — ٥٧٥ ، ٥/٥ — ٥٣ . فلهوزن : ٥٥ — ٥٦ ، ٧٢ — ٧٨ . دوزى : تاريخ مسلمى أسبانيا : ١/٤٦ — ٤٩ . طه حسين : ٢/٧٨ — ٨٧ .

ويجب أن نذكر هنا أن علياً لم ينهض لقتال أهل الشام بأهل الكوفة ومن تابعه من أهل الحجاز وحدهم ، وإنما نهض كذلك بألوف من أهل البصرة ، كان منهم من وقف إلى جانبه يوم الجمل ، وكان منهم من اعتزل القتال في ذلك اليوم ، وكان منهم كثير ممن هزموا بعد مقتل طلحة والزبير ، وهؤلاء كانوا عثمانية لا يقاتلون مع علي عن رضى وصدق وإنما كانوا يقاتلون معه كارهين واجدين عليه لأنه قتل منهم من قتل واضطرهم إلى الهزيمة . وأكبر الظن أن بعض الرؤساء من أصحاب علي لم يكونوا يخلصون له ، لأنهم كانوا أصحاب دنيا لا أصحاب دين ، ولعلهم كانوا يندمون في دخائل نفوسهم على تلك الأيام التي كانوا ينعمون فيها في أيام عثمان بالجوائز والصلات والإقطاع ، وأظهر مثل على هؤلاء الأشعث بن قيس . فلم يكن إذن أصحاب علي كلهم مخلصين له ، وإنما كان منهم المخلص والمدخول . ولا نستبعد — وإن كنا لا نملك الدليل المادي — أن اتصالا قد تم بين بعض رجال معاوية ورجال علي أثناء المقام بصفين ، فقد كان الناس من الطرفين يلتقون ويختلطون ، فليس من المستبعد أن يكون الأشعث قد اتصل بعمرو ودبرا الأمر بينهما ، فالأشعث ومن أطاعه استكرهوا علياً على قبول وقف القتال ، والأشعث هو الذي طلب إلى علي أن يرسله إلى معاوية يسأله عما يريد من رفع المصاحف ، والأشعث ومن معه من اليمانيين هم الذين ألحوا على عليّ في اختيار أبي موسى الأشعري . فقد كان علي إذن مكرها على قبول التحكيم ومكرها على اختيار الحكمين[1] .

اتفق الفريقان على أن يحكموا بينهم حكمين ، فاختار معاوية عمراً بن العاص ، وأجبر علياً أصحابه على أن يختار أبا موسى الأشعري بعد أن أبوا عليه أن يختار عبدالله بن عباس لأنه شديد القرابة منه ، وأبوا عليه الأشتر لأن اجتهاده في الحرب كان عظيما وحرصه على الغلب كان شديداً . ولم يستطع أن يندب عنه الأحنف بن قيس ولا أن يجعله ثانيا لأبي موسى حين حذره الأحنف من أبي موسى وقال إنه رجل يماني وقومه مع

(١) انظر : طه حسين : ٢/٨٨ — ٩٠ . دوزي : ١/٤٧ — ٤٩ ، فلهوزن : الخوارج والشيعة . ٣ — ١٤ .

معاوية ، وطلب أن يبعثه معه(١) ، لأن أصحابه أصروا على ألا يحكموا غير أبي موسى ؛ لأنه كره الفتنة ولم يشترك في الحرب(٢) ، ونسوا أو تناسوا أن عمراً بن العاص كان حليف معاوية وأنه شارك في الحرب برأيه ولسانه وسيفه .

واجتمع المفوضون من الطرفين ، فكتبوا صحيفة سجلوا فيها ما اتفق عليه الطرفان من وضع الحرب ، وإيثار الحكومة ، واختيار الحكمين ، وتحديد الزمان والمكان لاجتماعهما وتأمينهما على أنفسهما وأهليهما وأموالهما مهما يكن حكمهما ، على أن يحكم الحكمان بما في القرآن والسنة ، وأن الأمة كلها على من خالف عما في هذه الصحيفة(٣) . ونلاحظ من نص هذه الصحيفة كما أوردتها مختلف المصادر أن كل شيء حدد فيها تحديداً واضحاً دقيقاً ، إلا شيئاً واحداً لم يرد له ذكر على الإطلاق ، وهو موضوع القضية التي يجب أن يفصل فيها الحكمان . وموضوع الخلاف بين الطرفين مفهوم من مجريات الأحداث : كان معاوية يطلب بدم عثمان ويريد أن يسلم إليه علي قتلة هذا الخليفة المظلوم . وكان علي لا يعرف لعثمان قاتلا بعينه ، وهو لا يمكن أن يسلم لمعاوية كل من شارك في الثورة على عثمان حتى قتل . أفكان الطرفان يريدان من الحكمين أن يفصلا في هذه القضية ؟ وإذن فلم لم ينصا عليها ؟ بل ما بالهما لم يذكرا عثمان وقتلته في الصحيفة أصلا !

وكانا يختلفان كذلك في الخلافة : فمعاوية بعد مقتل طلحة والزبير واشتداد بأسه كان يرى أن يكون أمر الخلافة شورى بين المسلمين . وكان علي يرى أنه قد بويع بيعة صحيحة كما بويع الخلفاء من قبله : بايعه أهل الحرمين من المهاجرين والأنصار وهم أهل العقد والحل ، وبايعه أهل الأمصار ، فقد بايعته إذن الكثرة العظمى من المسلمين بعامة ، ومن المهاجرين والأنصار بخاصة . ولم يبق غير معاوية ومن تابعه من أهل الشام لم يدخلوا

---

(١) ابن قتيبة : ١/١٣١ .

(٢) الطبري : ٥/٥٢ .

(٣) انظر نص الصحيفة بمختلف الروايات : ابن قتيبة : ١/١٣٢ — ١٣٣ الدينوري : ١٩٤ — ١٩٥ . الطبري : ٥/٥٣ — ٥٤ .

فيما دخل فيه الناس ، وهم الأقلية ، فضلا عن أن السوابق فى البيعة كانت تجعل بيعة أهل المدينة نافذة على المسلمين جميعا . وتبعا لذلك كان على معاويه ومن معه أن يدخلوا فى الجماعة ، وإلا كانوا الفئة الباغية التى أمر المسلمون بقتالها حتى تفىء إلى أمر الله . وإذا كانت الخلافة والشورى هما سبب التحكيم فما بال الطرفين لم ينصا على ذلك فى الصحيفة ؟ بل لم إنه يرد للخلافة والشورى ذكر فى الصحيفة أصلا .

ومع غموض هذه الصحيفة وإبهامها وعدم تحديدها لموضوع القضية الذى كان ينبغى أن يحدد تحديداً واضحاً ، فإنها أرضت الطرفين المختصمين ولم ينكروا فيها غموضاً ولا عموماً ولا إبهاماً .

ويبدو أن الفريقين قد سئموا الحرب وتعجلوا السلم ؛ فلم يحفلوا بتحديد ولا دقة . وكان معاوية وأصحابه يكفيهم أن يخرجوا من الحرب التى آذنتهم بالهزيمة ، وأن يوقعوا الخلاف بين على وصحبه . وكان عامة أهل العراق يكفيهم أن يثوبوا إلى السلم بعد ماعضتهم الحرب ، ولعل بعضهم كان يعنيه أن تكون القضية غير بينة الحدود ليكون ذلك فى صالح الذى كان من الممكن أن ينيلهم من السلطان والمتاع مايريدون[1] ، ويفسر هذا ما كان من الاختلاف فى صفوف أهل العراق والائتلاف فى صفوف أهل الشام . أما على فقد غلب على أمره وضاق بما رأى من سوء طاعة أصحابه ، فخلى بينهم وبين مايريدون ، وقبل ما لم يكن يصح له أن يقبله : قبل أن يكتب اسمه مجرداً من صفة الخلافة ، وقبل أن يتساوى مع معاوية مع أنه كان خليفة بايعه أهل العقد والحل وجل المسلمين ، وكان معاوية رجلا خارجا على الإجماع ، وأقصى ما يقال فيه إنه وال من الولاة عزلته الخلافة فليس له فى ولايته سند شرعى . وقبل على أن يتساوى أهل الشام مع عامة المسلمين فى القضية . ولم يكن لعلى فى الحقيقة فرصة للخيار ، فقد فقَدَ أصحابه ووحدتهم ووقع هو بنفسه تحت التهديد العنيف . وقد غضبت جماعة من الجيش حين راح الأشعث يعرض صحيفة التحكيم على الناس ، وصاح بعضهم :

---

(١) سأل على بعض من لقى بعد صفين : « خبرنى ما تقول الناس فيما كان بيننا وبين أهل الشام ؟ قال : « فيهم المسرور فيما كان بينك وبينهم ، وأولئك أغشاء الناس . وفيهم المكبوت الآسف بما كان من ذلك ، وأولئك نصحاء الناس لك » الطبرى : ٥/ ٦٠ .

« تحكمون في أمر الله عز وجل الرجال ! لا حكم إلا لله »(١) فكانت هذه الجملة شعاراً للجماعة التي سخطت التحكيم ، وخرجت بعد ذلك على الحكومات الإسلامية كلها ، وكونت لنفسها حزباً سياسياً عرف فيما عرف به باسم « المحكمة » . وحجة هؤلاء الذين أنكروا الصحيفة وكرهوا الحكومة قوية واضحة ، فقد جاء بها القرآن صريحة لا لبس فيها . وكان على وأصحابه وهم كثرة المسلمين ، يرون أن معاوية وأصحابه قد بغوا ، وقد حاول على أن يردهم إلى الجماعة بكل وسائل السلم فلم يفلح ، فقاتلهم حين لم يكن من القتال بد ، وقد كاد يظفر بهم ويضطرهم إلى أن يفيئوا إلى أمر الله ، ولكنهم رفعوا المصاحف مطالبين بحكم الله ، فكف جيش على عن القتال ودخل في حكومة مبهمة لا حظ لها من وضوح أو جلاء . فالذين قالوا « لا حكم إلا الله » لم يخطئوا لأن حكم الله واضح ، وهو أن يستمر القتال حتى يخضع معاوية وأصحابه . ولم يكن هؤلاء الساخطون على الحكومة هم أصحاب هذا الرأى وحدهم ، ولا كانوا أول من قال به ، فعلى نفسه أبى أن ينخدع برفع المصاحف ورآها خدعة من عدوه يكيده بها ويتقى الهزيمة ، وقد قال لأصحابه « إن معاوية ومن معه من رهطه ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن ، وإنهم لم يرفعوها — وهم يعلمون بما فيها — إلا خديعة ودهنا ومكيدة »(٢) . فالإمام إذن كان يرى ألا حكم إلا الله ، وأن السبيل إلى حكم الله هو القتال حتى يذعن أهل الشام . ولكن كثرة أصحابه استكرهته على وقف القتال . وإلى هنا فإن الذين قالوا « لا حكم إلا الله » لم يخطئوا ، وإنما التزموا أمر القرآن ورأى الإمام نفسه . وقد طلبوا إلى على أن يمضى بهم إلى قتال عدوهم حتى ينفذ حكم الله(٣) . ولكنه رآهم قلة بين عدوهم من أهل الشام ومخالفيهم من أهل العراق ، فلم ير أن يلقى بهم وبنفسه إلى التهلكة ، فرفق بهم واختار لهم ولأصحابهم العافية . ولكنهم أبوا

---

(١) الدينوري ١٩٧ . الطبري : ٥/٥٥ .

(٢) انظر الدينوري : ١٩٠ . الطبري : ٥/٤٨ — ٤٩ .

(٣) ابن قتيبة : ١/١٢٨ .

وطالبوه بأن يرجع عن قبول الحكومة ويرفض الكتاب بعد أن تم الاتفاق ، فلما لم يجبهم خرجوا عليه(١) . ومن هنا يبدأ خطأ هؤلاء « المحكّمة » . لقد كانوا على صواب حين شاوروا الإمام فنصح لهم واستأنى بهم ، وكان ينبغى أن يتركوا للامام حرية يمضى بها الأمر بين رعيته ، فهو أعلم منهم بالكتاب والسنة وأبصر بالمصلحة ، وقد كان بين طائفتين من أصحابه : الكثرة تطالبه بالسلم ، والقلة تطالبه بالحرب ، وهؤلاء وأولئك يغلون فيما يذهبون إليه ، وليس له خيار إلا أن يمضى مع الكثرة إلى السلم والحكومة مع الرجاء فى الوصول إلى صلح يحقق المصلحة ويجمع الشمل ، أو يمضى مع القلة إلى حرب يائسة ، الأمل فى النصر فيها ضئيل ، وقد آثر أن يمضى مع الكثرة ، فكان على القلة أن تمضى معه محتفظة برأيها الذى هو فى الوقت نفسه رأيه ، فإن كان الصلح المقنع فذاك ، وإلا رجعت الكثرة إلى رأيهم فعادوا جميعا إلى الحرب .

ولكن الكثرة والقلة أبى كل منهم إلا أن يتبع رأيه ، وانحاز على إلى الكثرة كارها ، وحين انقلبوا راجعين الى الكوفة عادوا بشر حال من الفرقة والاختلاف : يتشاتمون ويتضاربون بالسياط ويتقاذفون بالتهم . وحين وصلوا إليها لم يدخلوها جميعا . وانما انحاز المحكّمة إلى مكان بظاهرها يسمى حروراء فاعتزلوا فيها فنسبوا إليها فسموا « الحرورية » ، وكانوا نحو اثنى عشر ألفا ، وقد جعلوا من أنفسهم جماعة واتخذوا لهم تنظيما ، فأذن مؤذنهم : ألا إن على الحرب شبث بن ربعى التميمى ، وعلى الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكرى ، والبيعة لله عز وجل على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(٢) . ومنذ ذلك اليوم نشأ فى الإسلام حزب جديد كان له فى تاريخه أثر بعيد ، وهو ما عرف بالخوارج .

* * *

(١) انظر الدينورى : ١٩٦ — ١٩٧ . الطبرى : ٥/٥٩ ، ٦١ ، ٦٣ .

(٢) انظر المسعودى : ٢/٥٠٤ . الطبرى : ٥/٦٣ — ٦٥ . الفرق بين الفرق ٧٥ — الشهرستانى : ١/١١٥ . ابن الأثير : ٣/١٦٥ — ١٦٦ . ابن كثير : ٧/٢٧٨ — ٢٨٩ . طه حسين : ٢/٩١ — ٩٧ .

اجتمع الحكمان فى دومة الجندل ومع أبى موسى أربعمائة من أصحاب على ، ومع عمرو ابن العاص مثلهم من أصحاب معاوية . وأقبل بعض من لم يشارك فى الفتنة من أولها أو من اعتزلها قبل صفين إلى مكان الاجتماع ليشهدوا حكومة الحكمين[1] . وأخذ الحكمان فى مفاوضاتهما سرا ، يغدو أحدهما إلى الآخر فيحادثه مليا ثم ينصرف عنه . ومع طول مدة اجتماعهما فى دومة الجندل ، فإن المؤرخين لم يحدثونا بتفاصيل وافية عما كان يجرى بين الرجلين من مباحثات ، وقد أشاروا إلى كتب متبادلة بين عمرو ومعاوية ، وأخرى بين على وابن عباس ، وأن أهل الشام لم يكونوا يسألون عمراً عما يصل إليه ، على حين كان أهل العراق يسألون ابن عباس ويلحون فى معرفة ما يرد إليه حتى ضاق بهم[2] . ولكن المؤرخين لم يذكروا شيئا عن محتويات هذه الكتب المتبادلة ، وكل ما يمكن أن يستفاد من ذكر هذه الكتب أن عمرا بن العاص كان على صلة مباشرة بمعاوية ، بينما كانت الصلة بين على وأبى موسى تأتى عن طريق ابن عباس ، الأمر الذى يدل على أن ثقة على لم تكن كاملة فى أبى موسى .

ولما كانت صحيفة التحكيم مبهمة لم تحدد موضوع القضية ، فإن الحكمين رأيا أنهما مفوضان فى أن يتناظرا فى كل ما اختلف فيه الناس ؛ فتناظرا فى قضية مقتل عثمان ، واتفقا على أنه قتل مظلوما ، وأن معاوية هو ولى دمه ومن حقه أن يطلب بالقصاص من قاتليه ، ثم تعرضا للطريقة التى يطلب بها معاوية القَوَد من قتلة عثمان ، فأما عمرو فقد ربط بينها وبين الخلافة ، ورأى أن يولى معاوية الخلافة ليتولى القصاص من هؤلاء القتلة ، ولم يناقش أبو موسى مناظره فى شأن خلافة على التى كانت قائمة عن بيعة والتى بايع عليها أبو موسى نفسه ، والتى لم يعارض معاوية فيها ، ولم يخرج عليها إلا لأن عليا لم يدفع إليه قتلة عثمان ، وقد أرسل إليه من قبل يقول « . . . فأمكنا من قتلته ، نقتلهم به ، ونحن أسرع الناس

---

(١) الطبرى : ٥/٦٧ .

(٢) الدينورى : ١٩٧ — ١٩٨ .

إليك »(١) . وإنما اكتفى برفض ما عرضه عمرو من تولية معاوية ، فكأنه اعترف لخصمه بعدم صحة خلافة على . ولذلك عرض اقتراحا آخر بتولية عبد الله بن عمر الطيب بن الطيب وفى استخلافه إحياء لذكر عمر ، ولكن عمرا رفض الاقتراح لأن ابن عمر لم يكن به قوة للنهوض بهذا الأمر . فاقترح أبو موسى أن يخلعا عليا ومعاوية ويتركا الأمر للأمة تختار من تشاء ، وقبل عمرو هذا العرض لم يناقش فيه بل زكاه ، فإن فيه صلاح الناس . وبهذا الحوار القصير أنهى الرجلان مباحثاتهما وانتهيا إلى خلع على ومعاوية وترك الأمر شورى . فهل كان من حق الحكمين أن يخلعا خليفة انتخبته الأمة وبايعه أهل العقد والحل ومن لهم الحق فى اختيار الخليفة ؟ والغريب فى الأمر أن أبا موسى لم يدافع عن صاحبه . فى الوقت الذى حاول فيه عمرو أن يأخذ لصاحبه أقصى ما يستطيع أخذه ، وقد نجح فى أن أعطى له حقا لم يعترف على ولا أصحابه وهم الكثرة العظمى من الأمة به ، وهو ولاية دم عثمان وحق الطلب به . ثم نجح فى أن يجعله مع على على قدم المساواة ، مع أن عليا كان إماما قائما له فى رقاب أكثرية الأمة بيعة ، وكان معاوية واليا خرج على الجماعة ، وهو معزول من الخليفة صاحب الحق الشرعى فى عزله . ثم ماذا يكون لو قبل هذا الاقتراح وأصر أصحاب على وهم الكثرة العظمى على إبقائه فى منصبه ، أو أعادوا مبايعته ، أكان معاوية وأصحابه يرضون الدخول فيما دخل فيه الناس ؟! لقد تجاوز الحكمان إذن حدهما وأعطيا لأنفسهما حقا ليس لهما ، ومع ذلك لم يقترحا على الأمة طريقة تختار بها الخليفة . ثم إن قضية عثمان أهملت ، فلم يتناول الحكمان فيها من هم القتلة المطلوبون بالقود . وإنما اكتفيا بتقرير الظلم الذى وقع على عثمان وضرورة الطلب بدمه ، ولكن ممن هذا الطلب وعن طريق من ؟ ! لم يتعرض الحكمان لشىء من هذا كله وإنما اتفقا على أمر لا يقضى على خلاف ولا يجمع على رضى .

ويتفق المؤرخون على أن الحكمين ظهرا للناس وأعلنا أنهما قد اتفقا على ما فيه الرضى

---

(١) الدينورى : ١٩٢ .

المسلمين ، ثم قدّم عمرو أبا موسى ليبدأ بإعلان ما اتفقا عليه ، فلما أعلن أبو موسى للناس أنهما اتفقا على خلع علي ومعاوية ورد الأمر شورى بين المسلمين يختارون من شاءوا ، قام عمرو فأعلن أنه يؤيد أبا موسى فى خلع علي ولكنه يثبت معاوية . وهنا سبّه أبو موسى واتهمه بالغدر ، وتشاتم الرجلان وهاج الناس ، وأقبل رجل من أصحاب علي فقنّع عمرا بسوطه ، وانفض الناس . فأما أبو موسى فقد رحل إلى مكة خجلا كسيفا ، وأما عمرو فقد عاد ومن معه إلى الشام فسلموا على معاوية بالخلافة(١) .

وهكذا انتهى التحكيم بمهزلة تولى تدبيرها وإخراجها عمرو بن العاص (٢) فقد ضلل أبا موسى وغدر غدرة منكرة ، وعمل لصاحبه ولم يعمل لصالح المسلمين ، وقصر أبو موسى وأظهر عجزا ، ونظر فى الأمر بنية مسبقة كشف عنها حين لم يناقش الموضوع بصفته الموضوعية ، وإنما تعرض لخلع علي منذ أول البحث ؛ فسقط بهذا كله حكم هذين الرجلين اللذين لم يزيدا على أن ردا الأمة إلى ما كانت عليه ، بل إلى فرقة أكثر مما كانت عليها ، ولم يخرج ظافرا من هذا الموقف كله غير معاوية ، فقد رُفعت الحرب عن أصحابه ، وأتيح له أن يستعد لاستقبال أمره أكثر قوة وأمضى عزما ، وورط عليا وأصحابه فى الخلاف وأوقع الفرقة بينهم وجعل بأسهم بينهم شديدا

وعاد وفد علي إلى الكوفة فأنبئوه بما كان فلم يدهش لذلك كأنه كان يتوقعه . وقد حنق المخلصون من أهل الكوفة على هذا الغدر وأخذوا يستعدون للقتال ، وأخفى المدخولون ما فى أنفسهم وتظاهروا بالاستعداد للحرب كغيرهم من الناس . ولكن الخوارج حالوا بين علي وبين أن ينهض بأصحابه إلى الشام(٣) .

* ० *

(١) أنظر ابن قتيبة : ١/١٣٥ وما بعدها ، الدينورى : ١٩٩ — ٢٠٢ . الطبرى : ٥/٦٧ — ٧١ . طه حسين : ٢/١٠٧ — ١١١ .

(٢) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة : ١٩٠ .

(٣) انظر ابن الأثير : ٣/١٧٠ — ١٧٢ . طه حسين : ٢/١١١ .

استقر المخالفون من أصحاب على فى حروراء ، ولم يكن عليا مطمئنا إلى خروج هذه الجماعة وانتباذها بحروراء ، ولم تكن هذه الجماعة نفسها مطمئنة إلى ما هى مستقبلة من أمرها ، فكان على يرجو أن يستصلح هؤلاء الناس حتى تعود إلى جماعته وحدتها ، وكانوا هم يأملون أن ينتهى الأمر بينهم وبين قومهم إلى مخرج من هذا المأزق الذى تورطوا فيه . فأرسل إليهم على عبد الله بن عباس فى جماعة من أصحابه ، فناظرهم فلم يصل معهم إلى شىء ، فذهب إليهم بنفسه واستطاع أن يأخذ عليهم حجتهم وأن يقنعهم بالدخول معه إلى الكوفة وانتظار ما يكون من أمر الحكمين ، فإن حكما بما أخذ عليهما من العهد أن يحكما بما فى كتاب الله ، فقد وفيا ، وهو موقن أن سيكون الحكم له ، وإن خالفا عما فى كتاب الله وتابعا الهوى ، رفض حكمهما ، وصار لا بد من النهوض لحرب أهل الشام . وقد أظهر القوم مقاربة شديدة لعلى ودخلوا معه الكوفة . ولكنهم دخلوا وفى أنفسهم شىء من عدم الاطمئنان إلى ما أقنعوا به ، فأخذوا فى تفسير ما اتفقوا عليه مع على ، وبدأوا يخالفون عنه ، على يرى أنه قد أقنعهم بقبول الحكومة وانتظار حكم الحكمين ، وهم يقولون إنه واعدهم ستة أشهر حتى يجبى المال ويسمن الكراع ثم ينهض بهم إلى عدوهم[1] فلما أشخص على أبا موسى ومن أرسلهم معه إلى دومة الجندل عاد الأمر بينه وبين « المحكّمة » إلى الفساد ، فجعلوا يشغبون عليه ويقاطعونه كلما خطب ، فيصيحون من جوانب المسجد « لا حكم إلا لله » وجعل على كلما سمع منهم هذا الصياح يقول « كلمة حق أريد بها باطل » وقد قطع بعضهم عليه خطبته مرة تاليا قول الله تعالى « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين »[2] فأجابه على بآية أخرى « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون »[3] وجعل الأمر يشتد

---

(١) أنظر الطبرى : ٣/٦٤ — ٦٦ .

(٢) سورة الزمر : ٦٥ .

(٣) سورة الروم : ٦٠ .

بينه وبينهم حتى اعتزلوه مرة أخرى ، وخرجوا مغاضبين قد أكفروه وأكفروا معاوية وانتبذوا محاربين ، وجعل على يقول « إن سكتوا عممناهم ، وإن تكلموا حججناهم ، وإن خرجوا علينا قاتلناهم » . فخرجوا ثم لم يلبثوا أن أحدثوا الفساد فى الأرض فكان القتال(١). ولما خرجت الخوارج من الكوفة أتى عليا أصحابه وشيعته فبايعوه ، وقالوا « نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت »(٢). وهكذا تمايز أصحاب على إلى فرقتين : الذين خرجوا عليه ، والذين ثبتوا معه وشايعوه ، وقد صارت الفرقتان حزبين متميزين منذ ذلك الوقت ومتعاديين كذلك ، فأما الذين خرجوا عليه فعرفوا بالخوارج ، وأما الذين شايعوه فعرفوا بالشيعة ، وفى مقابل هذين الحزبين اللذين كانا حزبا واحداً ثم افترقا ، كان هناك حزب آخر هم أولئك الذين خرجوا على علىّ من قبل يطلبون بدم عثمان ، وقد عرفوا بالعثمانية ، وتجمعوا الآن تحت لواء معاوية ، وقد أصبحوا بعد ذلك يكونون الحزب الأموى الذى ناصر الحكومة الأموية بعد نجاح بنى أمية فى الاستئثار بالخلافة .

ما لبث على بعد أن وصلته أنباء الحكمين أن أخذ يستعد لقتال معاوية مرة أخرى ، فخطب أصحابه مذكراً لهم بمخالفتهم له فى أمر التحكيم ، مبينا لهم فساد حكم الحكمين وميلهما مع الهوى ونبذهما ما قضى الله به فى القرآن ، ثم أمرهم بالتجهز للمسير إلى الشام وضرب لهم موعد الغد ليوافوا معسكرهم . وكتب فى الوقت نفسه إلى ابن عباس فى البصرة يأمره بإشخاص الناس إليه ، ثم كتب إلى الخوارج ينبئهم بافتراق الحكمين ويدعوهم ليكونوا مع أصحابهم للخروج إلى حرب أهل الشام . فأما أهل البصرة فقد خطبهم عبد الله بن عباس وحرضهم على الخروج فتباطئوا عليه ، وهددهم فلم يستجب للخروج إلا عدد قليل بلغ ثلاثة آلاف ومائتين ، وأما الخوارج فقد أبوا عليه واتهموه بأنه لا يخرج لله وإنما خرج يبغى

---

(١) أنظر الطبرى : ٥/٧٢ — ٧٨ . ابن الأثير : ٣/١٦٩ — ١٧٣ .
طه حسين : ٢/١٠٦ .

(٢) الطبرى : ٥/٧٦ . ابن الأثير : ٣/١٦٥ .

الدنيا ، وطالبوه بأن يشهد على نفسه بالكفر لقبوله التحكيم ثم يتوب كما تابوا . فإن فعل فإنهم معه وإن لم يفعل نابذوه على سواء . ورأى على أنهم قد لجّوا فقرر أن يدعهم ويمضى بالناس إلى الشام . ولكن الأنباء مالبثت أن وصلته بأنهم قد نشروا الفساد فى الأرض ، فقتلوا عبد الله بن خبّاب بن الأرَت صاحب رسول الله وزوجه ونسوة كن معه ، وجعلوا يستعرضون الناس ويذيعون الذعر ، فأرسل إليهم على رجلا من أصحابه يسألهم عن هذا الفساد ، فقتلوه ، وجاء الخبر عليا ، فكره أصحابه أن يسيروا إلى الشام ، ويتركوا هؤلاء الخوارج وراءهم يفسدون فى الأرض ويستبيحون أموالهم وعيالهم وهم غائبون ، وألحوا عليه أن ينهض بهم إلى هؤلاء الخوارج . فإذا فرغوا منهم ساروا لقتال أهل الشام وهم مطمئنون على من وراءهم . ووافقهم على فسار بهم إلى « النَّهرَوَان » حيث عسكر الخوارج ، فلما صار بإزائهم جعل يطلب إليهم قتلة عبد الله بن خباب ومن كان معه وقتلة رسوله الذى أرسله إليهم ، فلم يظفر منهم إلا بجواب واحد هو أنهم جميعاً قتلة هؤلاء ، فجعل يعظهم ويحاجهم بالكتابة مرة وبالمشافهة أخرى ، فقبل بعضهم وجعلوا يتسللون إلى الكوفة أو يعتزلون ، وبقى بعضهم مصراً على موقفه رافضاً كل دعوة مستعداً للقتال . ولم ير على بدأ من أن يقاتلهم ، فأوقع بهم فأصيبوا جميعاً فى ساعة واحدة .

وظن على أن الأمور استقامت له بعد أن تخلص من هذا العدو المخالط له ، والذى كان خطرا على من وراءه من الأموال والعيال ، كما كان خطرا على الجيش نفسه يستطيع أن يهاجمه من ورائه أو يهدد خط رجعته إلى العراق ، ولكن الأمور زادت التواء عليه ، فقد أضافت موقعة النهروان جرحاً جديداً إلى الجرح القديم الذى أحدثته موقعة الجمل فى البصرة، وكان بسببها ذلك التخاذل الذى رأيناه من أهل البصرة حين ندبهم ابن عباس للخروج. وإذا كان انتصار أهل الكوفه فى موقعة الجمل قد أرضاهم وشجعهم على الخروج إلى صفين ، فإن موقعة النهروان كان لها أثر معاكس ، فإن الآلاف الثلاثة الذين أصيبوا كان معظمهم من أهل البصرة وبعضهم من أهل الكوفة ، وليس منهم إلا من ينتمى لعشيرة من المصرين ، وكثير منهم كانت عشائرهم فى الجيش الذى قتلهم ، ومهما تكن البواعث الدافعة على

القتال ، فإن النفوس لا تستطيع أن تخلص من الحزن على قتل الابن والأخ والصديق ، ولذلك فإن الجيش ما كاد يفرغ من هؤلاء الخوارج حتى غشت نفوس رجاله الكآبة وثبطت عزائمهم عما كانوا مقدمين عليه من السير إلى الشام ، ولذلك تعللوا على علي ، فقالوا : « يا أمير المؤمنين: نفدت نبالنا ، وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصداً ، فارجع إلى مصرنا ، فلنستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيدنا عدة من هلك منا ، فإنه أوفى لنا على عدونا » ولم يكن كل ذلك إلا تعلة ، فإن المعركة لم تدم إلا ساعة من نهار ، ولم يخسر الجيش فيها إلا أقل من العشرة ، ثم ما عدة أعدت ليقاتل بها جيش قوي قد يطول قتاله ، تتكسر في ساعة أمام عدد ضئيل؟ ! فلم يكن الأمر إذن إلا تعلة تولى أمرها والدفاع عنها الأشعث بن قيس الكندي صاحب التخذيل في صفين واضطر علي إلى أن يعود بالجيش إلى معسكره في النخيلة خارج الكوفة ، ومع تحريجه على الناس بعدم ترك المعسكر ودخول المصر ، فإن الناس أخذوا يتسللون أفراداً وجماعات حتى لم يبق في المعسكر الا عدد قليل لا يغني شيئاً ، وحتى اضطر علي إلى أن يدخل الكوفة ليفكر في الاستعداد من جديد[1].

وكان معاوية قد بلغه نهوض علي إلى الشام ، فخرج بقواته يسبقه الى صفين ، ولكنه علم بما كان من أمر علي والخوارج عليه ورجوعه الى الكوفة بعد تخاذل الناس عنه ، فعاد الى دمشق موفوراً لم يلق كيداً . ومنذ ذلك الحين ، ابتدأ ميزان القوى يتغير لصـــالحه . فإن عليا لم يستطع إنهاض أصحابه لقتال أهل الشام مرة أخرى ، وقد انتظر بهم أياما ليريحوا ويستريحوا ويستعدوا كما زعم له رؤساؤهم بعد معركة النهروان ، ثم دعاهم للخروج وحرضهم على الجهاد فلم ينفروا ولم ينشطوا ، فتركهم أياما حتى إذا أيس من أن يفعلوا ، دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم وما الذي

---

(١) أنظر الطبري : ٥/٧٧ — ٩٠ . ابن الأثير : ٣/١٦٩ — ١٧٥ .
طه حسين : ٢/١١٢ — ١١٧ .

يتنظرهم ، فاعتل بعضهم ، وكره بعضهم ، ولم ينشط إلا أقلهم ، فخطبهم واستحثهم موبخا ومعيّرا وحاضّا فلم يزيدوا على أن سمعوا ، ولم يستطع على رغم ماجهد وأبلغ أن يستثير فيهم همة لقتال(١) ، حتى أيأسوه من أنفسهم ، وحتى كره البقاء بينهم ، وقد عبر عن ذلك فى كتابه لابن عباس بعد مقتل محمد بن أبى بكر وسقوط مصر فى يد معاوية « ... وقد كنت قمت فى الناس فى بدئه ، وأمرتهم بغياثه قبل الوقعة ، ودعوتهم سرا وجهرا ، وعوْدا وبدءا ، فمنهم من أتى كارها ، ومنهم من اعتل كاذبا ، ومنهم القاعد حالا . أسأل الله أن يجعل لى منهم فرجا ومخرجا وأن يريحنى منهم عاجلا . والله لولا طمعى عند لقاء عدوى فى الشهادة لأحببت ألا أبقى مع هؤلاء القوم يوما واحدا ... »(٢)

لقد كانت حياة على بعد النهروان محنة متصلة ، فقد كان يرى الحق واضحا ، ويرى أصحابه من القوة ومن العدد بما يمكنه من بلوغ هذا الحق ، ولكنه يرى أصحابه متقاعسين عن حقهم ، متخاذلين عن نصره لا يتعظون بمواعظه ولا يجيبون دعوته ولا يطيعون أمره ، وقد كرهوا الحرب وآثروا العافية . بينما معاوية وأصحابه ناشطون يغيرون على أطرافه ويقتطعون من أقاليمه ، والخارجون عليه يثورون به ويشيعون الفساد فى بلاده ، ويستغوون الناس فينضمون إليهم ، فتنتقض الأطراف على عماله .

وكانت أول محنة أصابت عليا هى ضياع مصر من يده . وقد كان ولى عليها محمداً بن أبى بكر بعد أن عزل قيسا بن سعد عنها حين استطاع معاوية أن يلقى الشك فى نفس على وأصحابه فى قيس . ولم يكن محمد بن أبى بكر فى كفاية قيس ولا فى تجربته ، فالتحم مع المعتزلين فى « خربتا » فهزموا القوة التى وجهها لهم ، وجرأهم هذا الانتصار على الثورة على محمد بن أبى بكر وإعلان الطلب بدم عثمان ، وانضم إليهم غيرهم وفسدت مصر على

(٢) نفس الطبرى : ٥/٩٠ — ٩١ ، ١٠٧ — ١٠٩ .

(٢) الطبرى : ٥/١٠٩ .

محمد بن أبى بكر ، فلما بلغ على وثوب أهل مصر به . عين مالك بن الحارث الأشتر ، ولكن هذا مات قبل أن يصل إليها ، وأكثر المؤرخين يتحدثون بأن معاوية أغوى صاحب الخراج فى القلزم ووعده بحط الخراج عنه أن احتال فى موت الأشتر ، فدس له هذا الرجل سما فى شربة عسل فقتله[١] ، ثم سير معاوية جيشا بقيادة عمرو بن العاص إلى مصر ، فانضم إليه العثمانية بها ، ولم يستطع محمد بن أبى بكر الصمود له لتفرق أصحابه عنه ولعجز على عن إمداده لتقاعس أهل العراق ، فقُتل محمد بن أبى بكر وسقطت مصر فى يد عمرو[٢] . وباستيلاء معاوية على مصر انقسمت الدولة الإسلامية قسمين : القسم الغربى ، وأمره إلى معاوية ويضم الشام ومصر وما فتح من الشمال الأفريقى . والقسم الشرقى وأمره إلى على ، ويشمل العراق وما وراءه من بلاد الفرس ، والجزيرة العربية . وفى الوقت الذى كان المغرب فيه هادئا ، كان المشرق يموج بالفتن . وقد شجع معاوية انتصاره واجتماع أصحابه عليه وطاعتهم له وهدوء ما تحت يده من الأقاليم ، على الإغارة على أطراف العراق بل ومحاولة غزو العراق نفسه والاستيلاء على البصرة ، ومحاولة اقتحام الجزيرة العربية وإشاعة الذعر والهلع فيها .

ساء موقف على بعد معركة النهروان سوء شديدا ، فكان الخوارج يحاربونه حربا شديدة ، وكان أهل البصرة إلا قليلا منهم متراخين عنه متثاقلين عن نصرته ، وكان بينهم المحايدون ، وبعض الممالئين لعدوه ، وقد لحق بعضهم بمعاوية الذى كان يكاتب الزعماء ويعدهم ويمنيهم[٣] . وكان يواجه ثوارا يتململون ولا يعرفون كيف يفصحون عما فى نفوسهم

---

(١) اليعقوبى : ٢/١٧٠ . الطبرى : ٥/٩٥ — ٩٦ . ابن الأثير : ٣/١٧٨ . ابن كثير : ٧/٣١٢ .

(٢) انظر الطبرى : ٥/٩٤ — ١٠٥ .

(٣) الطبرى : ٥/١٣٠ .

إن سكت عن القتال حرضوه عليه ، وإن قاتل أجبروه على إيقاف القتال واضطروه إلى المحاكمة ، وإن قبل الحكومة طالبوه برفضها ، وهم يطلبون الاحتكام إلى القرآن فإن حاجهم به التووا عليه ، فلم يعرف من أين يأتيهم ، فما هي إلا الثورة تضطرم في نفوسهم لغرض لا بد ركونه أولا يستطيعون الإفصاح عنه . وقد كان هذا شأن الجماعة التي اعتزلته ونابذته واضطرته الى حربها في النهروان . ثم اضطر إلى النهوض لمواجهة ثوار آخرين تعللوا بمسألة التحكيم كما تعلل أصحاب النهروان ، ولكن على نحو مغاير . فقد خرج على علي رجل من بني ناجية هو الخِرِّيت بن راشد ، وكان قد تبع عليا إلى الكوفة بعد موقعة الجمل ومعه ثلاثمائة رجل من قومه من أهل البصرة ، وحارب معه في صفين وفي النهروان كذلك . فلما لم يعترف علي بحكم الحكمين جاهره الخريت بالخروج والعداء، واتجه بأصحابه إلى الأهواز ، وتلاحق بهم جماعة من أصحابهم كانوا معهم بالكوفة ، ثم التحق بهم طائفة من العرب يرون رأيهم . واجتمع إليهم أناس من الأكراد وأهل الأهواز وجدوها فرصة للتخلص من دفع الخراج ، فوجه إليهم علي جيشا بقيادة معقل بن قيس التميمي فهزمهم عند رامهرمز . فرجع الخريت إلى بلاده في البحرين وأخذ يؤلب قومه من بني ناجية الذين كانوا قد امتنعوا عن دفع الصدقة (الزكاة) منذ عام صفين (٣٧هـ) بل أخذ يفسد قبائل عبد القيس ومن والاهم من العرب في منطقة البحرين . وكان يقول لكل صنف من الناس ما يرضيهم ويسر إليهم أنه على رأيهم ، فإذا تكلم مع الخوارج أظهر أنه على رأيهم ، وأنحى على علي أنه حكم في دين الله الرجال ، وإذا تكلم مع الآخرين لام عليا لأنه قبل التحكيم ولم يقبل حكم الحكمين ، وإذا لقي العثمانية أظهر أنه على رأيهم وأن عثمان قتل مظلوما ، وإذا تحدث الى من امتنعوا عن دفع الزكاة قال لهم : شدوا أيديكم على صدقاتكم ، وصلوا بها أرحامكم ، وعودوا بها إن شئتم على فقرائكم . وكذلك استطاع أن يضم إلى صفوفه نصارى كانوا قد أسلموا ثم ارتدوا

حين رأوا الخلاف بين المسلمين وقتالهم بعضهم . وذلك بأن خوفهم من أنه لا جزاء لمن ارتد عند على إلا القتل ، فهو لا يعذره ولا يدعوه إلى توبة ولا يقبلها منه . فأغوى الناس واجتمع له خلق كثير . ولكن معقل بن قيس ، بعد أن طرده من الأهواز ، لم يدعه يثبت سلطانه فى البحرين ، فلاحقه وقاتله فقتله وقتل معه مائة وسبعين من قومه (١) .

وكان لضعف مركز على فى قلب الدولة أثره على مكانته وهيبته فى الأطراف ، فقد امتنع عرب البحرين عن دفع الزكاة وارتد بعضهم إلى النصرانية ، وقد رأينا كيف انضم هؤلاء إلى الخريت بن راشد ، وتمردت الولايات الفارسية بعد أن تراخت قبضة الدولة عليها ، فامتنع دهاقين خراسان عن دفع الجزية(٢) ، وطمع أهل كرمان وفارس والأهواز فى كسر الخراج ، وغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وأخرجوا العمال (٣).

وكانت أقوى ضربة حقيقية أحس بها على هى وقوع مصر فى يد معاوية ؛ لأن معاوية أصبح على أثر ذلك آمنا من ناحية جناحه الغربى ، وكان من قبل قد آمن نفسه من اعتداء الروم بعقد هدنة معهم فى مقابل إتاوة سنوية(٤) . ولكن معاوية لم يجترىء على أن يقوم بهجوم حقيقى على البلاد التى فى حوزة على ، وإنما اكتفى بأن وجه غارات هنا وهناك على أطراف على فى العراق وفى الجزيرة العربية ، فأغارت قواته على « عين التمر » ، و« هيت » و« الأنبار » ، وتيماء ، و« القطقطانة » . ولم تكن هذه الغارات ترمى إلى الفتح وإنما كان يقصد بها إلى إشاعة الذعر فى البلاد التابعة لعلى ، وكانت قوات على تخرج للمغيرين وتطاردهم (٥)

ثم لم تلبث الأمور أن التوت على على وجاءته ضربة مريرة من أقرب الناس إليه وهو

---

(١) أنظر الطبرى : ٥/١١٣ — ١٣٠ .

(٢) البلاذرى : ٤١٥ . الطبرى : ٤/٥٥٧ ، — ٥٥٨ ، ٥/٩٧ .

(٣) الطبرى : ٥/١٢٢ ، ١٣٧ .

(٤) البلاذرى : ١٦٥ — ١٦٦ . فلهوزن : ٩٥ .

(٥) أنظر الطبرى : ٥/١٣٣ — ١٣٦ .

ابن عمه عبد الله بن عباس ، وكان ابن عباس فوق قرابته مشيره وصاحب رأيه ، وكان على يثق به ولا يخفى عنه من أمره شيئا ، وإنما كان يراه وزيرا طبيعيا له ، وعلى حين أقام على في الكوفة ولى ابن عباس البصرة ، وهى أعظم أمصاره وأجلها خطرا ، وكان على ينتظر أن يمتحن فى الناس جميعا إلا فى ابن عمه هذا[1] ، ولكن ابن عباس ما لبث حين رأى إدبار حظ ابن عمه أن بدأ يفكر فى نفسه أكثر مما يفكر فى ابن عمه ، فسار فى بيت مال البصرة سيرة تخالف المألوف من سياسة على ، وقد أحس منه أبو الأسود الدؤلى شيئا من هذا الاتجاه ، فكتب بأمره إلى على ، فكتب على إلى ابن عباس يطلب اليه أن يرفع اليه حسابه ، ولكن ابن عباس ملأ فى الثقة بنفسه ، ولم يشأ أن يحسابه على ، ورد ردا غير مقنع مما اضطر عليا إلى أن يشتد عليه ، فغضب ابن عباس وكتب إلى على يستنكر محاسبته إياه ، ثم أعلنه بأنه تارك عمله وظاعن عن البصرة . ولم يترك البصرة ويسير إلى الكوفة أو يقيم فى العراق وإنما حمل ما كان فى بيت المال وخرج إلى مكة حيث لا يناله سلطان على ، ولا يقدر علىّ على أن يناله بالعقاب ، وأقام آمنا بالحرم . وقد حاولت بعض القبائل فى البصرة التصدى له ورد المال الذى هو حق لهم ، فاستجار ابن عباس بأخواله من بنى هلال فأجاروه وتصدوا لحمايته ، وكادت تقع الحرب بين القبائل لولا تدخل ذوى الحكمة من الزعماء فى البصرة ، وبهذا العمل وضع ابن عباس بذرة العصبية بين قبائل البصرة[2] ، وقد استفاد معاوية من هذا العمل ، فإنه وقد رأى اختلال الأمور فى البصرة على هذا النحو طمع فى هذا الإقليم الخطير من أقاليم على ، والذى كان يدبر أمره زياد بعد ابن عباس ، فأرسل إليها عبد الله ابن عامر الحضرمى ابن خالة الخليفة عثمان ليستنفر أهلها ويذكرهم ثاراتهم فى موقعة الجمل ، وكان بالبصرة كثير من العثمانية ممن انضموا لطلحة والزبير . وأوصاه معاوية بأن يتحبب إلى بنى تميم وهم الذين كانوا قد تصدوا لابن عباس عند خروجه من البصرة .

---

(١) طه حسين : ٢/١٣٣ .

(٢) انظر الطبرى : ٥/١٤١ — ١٤٣ .

حولما التفت تميم حول ابن الحضرمى اضطر زياد إلى أن يستجير بالأزد الذين أجاروه على أن يترك دار الإمارة ويتحول إلى دورهم ، وينقل معه بيت المال ، ففعل . وأصبحت البصرة وقد انقسم أهلها طوائف ، طائفة مالت إلى معاوية وقامت دون رسوله ابن الحضرمى ، وطائفة اعتزلت الأمر مع الأحنف بن قيس ، وطائفة جعلت تنتظر الأحداث على شيء من الفرقة فى صفوفها وهى قبائل ربيعة ، وطائفة أخرى لم تحفل بأمر على أو بأمر معاوية وإنما حفلت بأمر أحسابها ووقفت تحمى جارها الذى يلجأ إلى دورها وهى الأزد . وهكذا ظهرت العصبية واضحة فى البصرة ، وجعل جندها يرعون قبائلهم أكثر مما يرعون السلطان ، ويغضبون لأحسابهم أكثر مما يغضبون للدين ، ويتنافسون فيما بينهم أيهم أعظم بلاء من صاحبه فى حماية جاره .

وقد كتب زياد إلى على ينبئه بالخبر ؛ فآثر على أن يأخذ الأمر بالرفق ، فأرسل إلى بنى تميم رجلا منهم هو أعين بن ضبيعة المجاشعى ليناظرهم ويردهم عن الفتنة ، ولكنهم اختلفوا عليه وتفرقوا عنه ثم بيتوه ذات ليلة وقتلوه . وأراد زياد أن يثأر له وأن يقاتل بنى تميم بالأزد ، ولكن الأزد امتنعت عليه لأنها لم تشأ أن تقاتل جيرانها واكتفت بأن تحميه وتحمى بيت المال .

وأبلغ زياد عليا بالأمر فدعا إليه تميميا آخر هو جارية بن قدامة السعدى وأرسل معه بعض الجند . وقد ناظر جارية قومه من تميم واستطاع أن يضم بعضهم ، ثم نهض بمن معه ومن انضم إليه لقتال ابن الحضرمى ، وما زال به وبأصحابه حتى اضطرهم إلى الهزيمة وألجأ ابن الحضرمى وسبعين من أصحابه إلى دار من دور البصرة ، ولما أنذرهم وأعذر إليهم ولم يستجيبوا أحرق عليهم الدار فهلكوا بها . وعاد زياد وبيت المال إلى دار الإمارة ، وتغنت العصبية الأزدية بهذا الفوز كما كانت القبائل تفعل فى جاهليتها . وهكذا اضطربت الأمور فى ذلك العصر الخطير[١] .

---

(١) أنظر الطبرى : ٥/١١٠ — ١١٣ . طه حسين : ٢/١٤٣ — ١٤٦ .

ولم يقف معاوية عند حد إفساد البصرة وإزعاج أطراف على فى العراق ، وإنما أرسل قوة من ثلاثة آلاف إلى الحجاز واليمن بقيادة بسر بن أبى أرطأة من بنى عامر بن لؤى ، وكان رجلا قاسى القلب جافى الطبع من قريش ، وأوصاه أن يقسو على أهل البادية من شيعة على حتى يملأ قلوبهم ذعرا ، وأن يأتى المدينة فيرهب أهلها ، ثم يأتى مكة فيرفق بأهلها ولا يروعهم ، ثم يأتى اليمن فيخرج عنها عامل على وينصر فيها شيعة عثمان . وقد كان معاوية يدرى من أمر الجزيرة العربية ما جعله يوجه هذه الوصاة لقائده ، فأهل البادية فى الجزيرة العربية موالون لعلى ، وأهل المدينة آمنون فى دار الهجرة بعد أن انتقل السلطان عن مدينتهم إلى الكوفة ، ولحق بعلى أكثر مقاتلتهم ، وقد كانوا من قبل من الساخطين على عثمان المعاونين للثورة عليه ، ثم كانت لهم مواقفهم الصادقة فى القتال إلى جانب على فى صفين . أما مكة فقد رأينا من قبل كيف أنها كانت مثابة للناقمين على على ، ثم كانت من بعد ذلك مثابة للمعتزلين ، وهى مع ذلك بلد حرام لا يقاتل أهلها ولا يحب أحد من الخصمين أن يقاتل حولها . وأما اليمن فلعثمان فيها شيعة يناوئون عامل على عليها وهو عبيد الله بن عباس .

وقد أنفذ بسر بن أبى أرطأة أمر معاوية وأضاف إليه من عند نفسه قسوة وإسرافا فى الاستخفاف بالدماء والأموال والحرمات ، فاقتحم الحجاز يثير الذعر بين الأعراب حتى أتى المدينة ، ففر منها أبو أيوب الأنصارى عامل على عليها حتى أتى عليا بالكوفة ، ودخل بسر المدينة دون أن يقاومه أحد فصعد المنبر ونادى : « يادينار ، ويا نجار ، ويا زريق — وهذه بطون من الأنصار — شيخى شيخى ! عهدى به بالأمس ، فأين هو ! يعنى عثمان » . ثم قال : « يا أهل المدينة ، والله لولا ما عهد إلى معاوية ما تركت بها محتلما إلا قتلته » . ثم أمرهم بالبيعة لمعاوية ففعلوا . وهدم بسر دورا بالمدينة ، ثم مضى حتى أتى مكة ، فلم يرع بها أحداً . ومضى إلى اليمن ، وكان عليها عبيد الله بن عباس ففر منها إلى على بالكوفة ، وقد نشر بسر الروع فى اليمن بالإسراف فى القتل حتى لم يتورع عن ذبح طفلين لعبيد الله ابن عباس . وحين بلغت أنباؤه عليا أرسل إليه جارية بن قدامة السعدى فى ألفين وأتبعه بوهب بن مسعود فى ألفين . ولم يكد جارية يدنو من اليمن حتى فر منها بسر بن أبى أرطأة

راجعا إلى الشام مفسداً فى الأرض أثناء رجوعه . وانتهى جارية بن قدامة إلى اليمن فأضاف قتيلا إلى قتل ، بمن أهلك من شيعة عثمان ، وأعاد اليمن إلى طاعة على ، ثم اتبع بسرا حتى بلغ مكة ، وهناك بلغه موت على فطلب إلى أهل مكة أن يبايعوا لمن بايع له أصحاب على فبايعوا بعد تثاقل ، ثم ذهب إلى المدينة فأخذ البيعة بها للحسن بن على ، وعاد منصرفا إلى الكوفة(١) .

وتدلنا حملة بسر بن أبى أرطأة على الجزيرة العربية على أن الحجاز والجزيرة العربية بعامة لم تعد بها قوة تملك الدفاع عنها ، فإن ثلاثة آلاف من الجند استطاعوا اقتحام بواديها ومدنها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب دون أن يلقوا أية مقاومة ، ولم يرد عنها إلا القوات التى قدمت من العراق ، فالحجاز إذن قد تضاءل شأنه إلى حد كبير ، وقد رأينا كيف أن عليا قد رحل عنه إلى العراق حين علم بخروج طلحة والزبير ومن معهما إلى البصرة ، وكان هؤلاء قد أدركوا كذلك أنه ليس فى الحجاز قوة يستطيعون الاعتماد عليها . والحقيقة أنه ظهر عجز الحجاز منذ حصار عثمان وعدم استطاعته إيجاد قوة تدافع عنه ضد الثوار الذين لم يتجاوز عددهم الألفين . ولعل عليا اتخذ الكوفة مقراً له لتوجيه الصراع بينه وبين معاوية إدراكا منه لهذه الحقيقة ، ولعل أهل المدينة ممن كانوا مع على وكان يهمهم بطبيعة الحال أن تعود العاصمة إلى بلدهم ، كانوا يدركون هذه الحقيقة كذلك فلم نرهم يخاطبون عليا فى العودة إلى المدينة ، وحتى بعد مقتل على ومبايعتهم للحسن لم يدر بخاطرهم أن يطالبوه بالرجوع إلى المدينة ، وبخاصة بعد أن التوى عليه أهل العراق . فالحجاز إذن لم يعد قاعدة الدولة ، وانتهى دوره الحقيقى بعد استقرار الفتوح وإقامة الأمصار وإقرار الجند بها . وسنرى بعد ذلك مقدار عجز الحجاز حين حاول أهل المدينة التمرد على سلطان يزيد بعد موت معاوية ، وحين اتخذ ابن الزبير مكة عاصمة له . وما كانت الأيام لتزيد الحجاز الاضعفا

(١) انظر اليعقوبى : ١٢٣/٢ — ١٨٥ . الطبرى : ١٣٩/٥ — ١٤٠ . ابن الأثير : ١٩٢/٣ — ١٩٣ . ابن كثير : ٣٢١/٧ — ٣٢٢ .

من الوجهة السياسية حتى صار إقليما ضعيفا من أقاليم الدولة ، ولم يرفع من مكانته إلا منزلته الدينية والثقافية .

وقد اضطر على بعد أن فسدت عليه الأمور هذا الفساد أن يستجيب لمهادنة معاوية وأن يقبل أن يترك له المغرب على أن يترك معاوية له المشرق[١] . ولكن هذه الهدنة كانت قصيرة الأمد ، إذ أن معاوية سعى إلى الإفادة من الموقف ، فوجه أحد رجاله يزيد ابن شجرة الرهاوى فى ثلاثة آلاف إلى مكة ، ليقيم للناس الحج ، ويأخذ له البيعة بمكة وينفى عنها عامل على ، وعلم قثم بن العباس عامل على عليها بمسير أصحاب معاوية ، فعزم على الخروج منها والتربص ببعض شعابها ، والكتابة الى على ليمده بالجيوش ولكن أبا سعيد الخدرى صاحب رسول الله منعه . وقدمت قوات الشام ، ولما كان قائدها يكره القتال فى البلد الحرام والشهر الحرام ، وكان يدرك أن معاوية لم يرسله للحرب وإنما يرسله لأمر ظاهره الدين ومن ورائه السياسة ؛ فإنه أمن الناس ووسط أبا سعيد الخدرى بينه وبين عامل علىّ على أن يعتزل كلاهما الصلاة بالناس ، ليختار الناس رجلا يصلى بهم فاختاروا شيبة بن عثمان بن أبى طلحة فصلى بهم جميعا . وانقضى الموسم فى عافية . وعرف على مسير يزيد إلى مكة فندب الناس لرده عنها فتثاقلوا ، وحين خرجوا كان يزيد قد أنهى الحج وعاد الى الشام ، فأدركت قوات على مؤخرة أصحابه فأسروا بعضهم وعادوا به الى الكوفة[٢] وقد أدرك على مطامع معاوية فعزم على أن يقف موقفا نهائيا معه ، فخطب أصحابه واستنهضهم وهددهم إن لم يجمعوا أمرهم على الخروج معه خرج بمن أطاعه مهما تكن قلتهم . وكأنما استحيي زعماء الكوفة من تخاذلهم وأدركوا أنهم إن لم ينهضوا ضاع الأمر نهائيا من أيدى على ، وتحول إلى معاوية وعند ذلك يضيع الأمر كله من العراق ويعود إقليما من أقاليم الدولة ، ولكنه فى هذه المرة يكون تابعا للشام ، فحرض بعضهم بعضا .

---

(١) الطبرى : ٥/١٤٠ . ابن الأثير : ٣/١٩٣ . ابن كثير : ٧/٣٢٢ .

(٢) الطبرى : ٥/١٣٦ ، ابن الأثير : ٣/١٩٠ ، طه حسين : ٢/١٥٤ .

واجتمع لعلى جند صالح منهم ، وأخذ يرسل إلى عماله فى شرق الدولة يدعوهم للنهوض معه(١) .

ولكن عليا لم ينفذ مما اعتزم عليه شيئا ، فقد قتل نتيجة مؤامرة خوارجية دبرها ثلاثة من الخوارج ، اتفقوا فيما بينهم على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص ، ففشل اثنان منهم ، ونجح عبد الرحمن بن ملجم المرادى فى قتل على فى السابع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ(٢)

لقد كانت خلافة على مليئة بالمتاعب والأحداث ، وبرغم ما جهـــد فى معالجة المشاكل فإنه كان دائما ضحية المخاتلة والدهاء ، فرجحت كفة معاوية عليه وكانت هزيمته النهائية أمراً لا محيص عنه ، حتى ولو لم يكن سيف ابن ملجم قد وضع حداً نهائياً لهذا النزاع الذى شغل به ونهض بأعبائه . وقد كشف هذا الصراع كله أن الناس كانوا يتجهون إلى حيث تكون الدنيا ، وظهر أن الثورة التى قامت ضد الاستعلاء والتحكم والاستئثار بالأموال قد أخفقت ، وقد قتل زعماؤها قبل أن يتموا تثبيتها ، منهم من قتل قبل أن تشب الحروب على علىّ ، ومنهم من قتل أثناء هذه الحروب ، ومنهم من قتله معاوية سرا ومنهم من قتله جهراً ، وبموتهم فقدت الثورة عقولها المفكرة المدبرة(٣) ، فأدرك سائر أصحابها الفشل والتخاذل ، وألقوا بأيديهم وآثروا العافية ، وكانت الظروف التى أرادوا أن يقاوموها أقوى من أن تقاوم ، فقد بدا واضحا أن عصر الخلافة الأول قد آذن بالانتهاء ، وأن الدولة تتجه إلى الملك ، وكان الصراع بين خلافة لم تعد ظروف الحياة

---

(١) اليعقوبى : ١٧٦/٢ وما بعدها ، ابن قتيبة : ١٥٧/١ — ١٥٩ . طه حسين : ١٥٥/٢ — ١٥٧ .

(٢) انظر الطبرى : ١٤٣/٥ — ١٥٢ .

(٣) لما علم معاوية بموت الأشتر وهو فى طريقه إلى مصر ، قام خطيبا . فقال : « إنه كان لعلى بن أبى طالب يدان يمينان ، قطعت إحداهما يوم صفين — يعنى عمار بن ياسر — وقطعت الأخرى اليوم — يعنى الأشتر » (الطبرى : ٩٦/٥) .

موآتية لها وبين ملك تهيأت الظروف لقيامه ، وكان على يدبر أمر هذه الخلافة يريد أن يعيدها سيرتها كما كانت فى عهد عمر ، وكان معاوية يدبر ملكا تهيأت أسباب قيامه ، وكان عصر الخلافة قد انقضى فأخفق على ، وكان الملك قد أظل فنجح معاوية .

وبعد مقتل على بايع أهل العراق ابنه الحسن بالخلافة ، ولكن الحسن كان قد مرّ بالتجربة كلها ، وأدرك أن استمساكه بالخلافة والاستمرار فى الصراع مع معاوية لا يزيد إلا إهراق الدماء ، ولا يؤخر النتيجة الحتمية إلا قليلا ، وكان يدرك أن التفاف أهل العراق حول بيعته ليس إلا خفقة سراج يوشك أن ينطفىء ، فلقد كانوا من قبل بجماعتهم كلها حول أبيه ، فلم يثبتوا على جماعة ولم يتفقوا على رأى ، وخذلوه فى مواقف الشدة ، واختلفوا عليه فى ساعة البأس ، ففوتوا عليه وعلى أنفسهم نصرا كان وشيكا ، ثم اختلفوا عليه وحملوه تبعة الفشل الذى كانوا هم أصحابه ، ثم انشقوا عليه وقاتلوه ، ثم ذهب آخر الأمر ضحية غدر أحدهم به . فلم يرد أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى وحظه فى النجاح من الواضح أنه سيكون أقل من حظ أبيه بعد أن انتقضت الأطراف وتمزقت وحدة أهل العراق ، ولذلك فإنه لم يكن يرغب فى الاستمرار إلا ريثما يستطيع أن يأخذ من معاوية لنفسه ما يستطيع ، فلما بايعه الناس طفق يشترط عليهم « إنكم سامعون مطيعون ، تسالمون من سالمت ، وتحاربون من حاربت » وقد ارتاب أهل العراق فى الأمر حين اشترط عليهم هذا الشرط وأحسوا أنه لا يريد القتال . ولكن الجيش الذى كان على قد أعده من قبل لقتال معاوية كان مستعداً تحت قيادة قيس بن سعد الأنصارى ، ولما كان قيس يرغب فى الحرب ولا يوافق الحسن على رأيه فى المسالمة ، فإن الحسن عزله عن القيادة وأمّر عبيد الله بن العباس ، وجعل قيساً على المقدمة وشرطة الجيش . وكان معاوية قد تقدم بقواته ، فعبر الجزيرة إلى العراق ونزل بعسكره فى « مِسْكِن » على حدود الدجلة من الموصل إلى جهة السواد ، وقدّم أمامه عبدالله بن عامر بن كريز ، فأخذ على عين التمر ونزل الأنبار يريد المدائن . وبلغ ذلك الحسن ، فقدّم

طلائعه لقتال معاوية ، وسار بنفسه نحو المدائن لقتال عبد الله بن عامر ، فلما بلغ ساباط رأى من أصحابه فشلا وتواكلا عن الحرب ، فتلبث فى ساباط . ثم جاءته الأنباء بما جعله يتخذ قراراً نهائياً بالبدء فى مفاوضات الصلح ، ذلك أن معاوية أخذ يراسل قواد الحسن ويغريهم بالمال ، فبذل لكل من قيس بن سعد وعبيد الله بن عباس ألف ألف درهم على أن يصيرا معه ، فأما قيس فقد رفض العرض فى إباء ورأى هذا لا يليق بشرفه ودينه ، وأما عبيد الله بن عباس ، وقد كان يعلم رغبة الحسن فى الصلح ، فإنه رأى أن يأخذ لنفسه ما يستطيع ؛ فقبل المال وانحاز إلى معاية ، ويقول اليعقوبى[1] إنه سار إلى معابة فى ثمانية آلاف من أصحابه ، ويقول الطبرى عن الزهرى[2] إن معاوية بعث إليه ابن عامر فى خيل عظيمة ، فخرج إليهم عبيد الله ليلا حتى لحق بهم ، وترك جنده الذى هو عليه لا أمير لهم . وبهذا كرر عبيد الله بن العباس مع الحسن نفس الخيانة التى فعلها أخوه عبد الله من قبل حين حمل بيت مال البصرة وترك عمله دون إذن على . واجتمع بقية الجيش على قيس بن سعد واستعدوا لقتال معاوية . وما كادت هذه الأنباء تصل إلى معسكر الحسن فى ساباط ، حتى ثار الناس به ونهبوا فسطاطه وثيابه حتى نازعوه مطرفه ، ولم يخلصه من من الناس إلا رجال ربيعة وهمدان حين هتف بهم ، فالتفوا حوله ، ثم ردوا عنه القتل حين هاجمه فى طريقه إلى المدائن رجل من الخوارج كمن له وطعنه فى فخذه طعنه أشوته . فحمل إلى المدائن مثخنا ونزل القصر الأبيض وعولج حتى برأ ، ومن هناك بعث إلى معاوية يطلب الصلح . فأرسل إليه معاوية عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس فأعطياه ما أراد ، وتم الصلح على أن يأخذ الحسن ما فى بيت مال الكوفة ، وقد وجد فيه خمسة آلاف ألف ، وعلى أن يجعل له خراج « داربجرد » ، وعلى ألا يشتم على ومعاوية يسمع[3].

---

(١) ٢/١٩١ .
(٢) ٥/١٦٤ .
(٣) الطبرى : ٥/١٥٩ — ١٦٠

وكتب الحسن إلى قيس بن سعد ينبئه أنه صالح معاوية ويأمره بالدخول فى طاعته . وخير قيس رجاله بين الدخول فى طاعة إمام ضلالة ، أو القتال مع غير إمام ، فرغبوا عن القتال واختاروا الدخول فى طاعة إمام ضلالة . ولكن قيسا وكان من دهاة الناس لم يشأ أن يسالم معاوية حتى يشترط لشيعة على ولمن كان اتبعه ، على أموالهم ودمائهم وما أصابوا فى الفتنة . ولم ير معاوية حاجة لقتال رجل قوى المراس مثل قيس ، فبعث إليه سجلا مختوما يكتب فيه قيس ما يريد من شروط ، فلم يكتب قيس غير الأمان له والشيعة على على ما أصابوه من الدماء والأموال ، ولم يسأل معاوية فى سجله ذلك مالا ؛ لأنه ترفع عن أن يجعل نفسه محل مساومة .

وبهذا الصلح دخل معاوية الكوفة ، فبايعه أهلها وبايعه الحسن ، وبذلك اجتمعت الأمة كلها على معاوية فى غرة جمادى الأولى من عام ٤١ هـ . وصعد الحسن المنبر بحضرة معاوية فقال « أيها الناس . إن الله هدا كم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا ، وقد سالمت معاوية . وإن أدرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين » ، فهو لم يشأ أن يذهب من غير أن يبرز فضله وفضل بيته على الناس ، ثم لم يشأ أن يترك معاوية دون تقريع ونذير . ولم يفارق الكوفة قبل أن يوضح موقفه لأهل العراق فخطبهم قائلا « يا أهل العراق ، إنه سخا بنفسى عنكم ثلاث : قتلكم أبى ، وطعنكم إياى ، وانتهابكم متاعى » . ثم أوصاهم بتقوى الله فى جيرانهم وضيفانهم وأهل بيت نبيهم الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً ، ثم تحمل بإخوته وأهله وعاد إلى المدينة[1] . ورتب معاوية عماله على العراق ، فجعل المغيرة بن شعبة على الكوفة وأرسل بسر بن أبى أرطأة على البصرة ، ثم رحل بعد أن أقر الأمور فى العراق إلى دمشق التى انتقلت إليها الخلافة ، وظلت عاصمة الدولة طوال العصر الأموى حتى قامت دولة بنى العباس فى عام ١٣٢ هـ .

---

(١) انظر . الدينورى : ٢١٧ — ٢١٨ . ابن قتيبة : ١/١٦٣ . اليعقوبى: ٢/١٩١ — ١٩٢ . الطبرى : ٥/١٠٨ — ١٦٥ . ابن الأثير ٣/٢٠٢ — ٢٠٥ .

وهكذا انتهى الصراع الذى دام نحو ست سنوات ، وقد أسهمت فيه كل أقاليم الدولة الإسلامية ، ولكن الصراع الرئيسى كان بين العراق والشام ، وقد هزم أهل العراق فى الحرب ، وكان من أثر ذلك أن انتقلت الخلافة وانتقل معها بيت مال الدولة من الكوفة إلى دمشق ، وكان لهذا وقع أليم فى نفوس أهل العراق ، فقد كانت لهم الدولة ، أما الآن فقد نزل شأن بلادهم فصارت مصراً من الأمصار ، وخرج من أيديهم ما كانت تدره البلاد التى فتحوها من أموال ، وأصبح عليهم أن يقفوا بما يفرض لهم سادة الشام من أعطيات كانت تنقص بحسب إرادة مانحيها ، فلا عجب أن كانوا يرون حكم الشام عليهم نيراً قاسيا يتوقون لأن يطرحوه عند أول فرصة موانية ، ولذلك كانت أعنف الثورات على الأمويين تأتى من جانب أهل العراق ، لامن جانب فريق معين منهم ولكن من جانب جميع العرب المقيمين هناك ، وكان على الدولة لكى تقر طاعتها فى هذه البلاد أن تعد لهذه الولاية أمهر وأقدر رجالها ، ولم تعدم الدولة هؤلاء الرجال .

أما الحجاز فقد رأينا كيف تضاءل شأنه وشأن الجزيرة العربية كلها بعد أن هاجرت القبائل العربية إلى أمصار الدولة فى حركة الفتوح ، ولم يكن يُبْقى على منزلة الحجاز إلا بقاء الخلافة فى المدينة ، فلما انتقل علىّ إلى العراق واضطر إلى اتخاذ الكوفة عاصمة له ، ثم انتهى الصراع بانتقال الخلافة إلى الشام ، تضاءل شأن الحجاز تضاءلا كبيراً ، ولم يبق للمدينة من الشأن بعد أن لم تعد عاصمة الدولة إلا أنها دار للتراث الإسلامى ، ولقد كان أهل المدينة هم أهل العقد والحل وأصحاب الكلمة الأولى فى مبايعة الخلفاء ، فلما انتقلت العاصمة الى الكوفة فى عهد على ، فَقَد أهل المدينة هذه المكانة ، فلما استخلف الحسن لم يُستأمر أهل المدينة فى شىء بل إنهم بايعوا للحسن حين طلب إليهم جارية بن قدامة السعدى قائد على الذى قدم لقتال بسر بن أبى أرطأة ، فلما تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة لم يكن لأهل المدينة شأن ، وكان حالهم كحال غيرهم من

الأقاليم . وغدت المدينة ركنا تنزوى إليه الطبقة الساخطة التى أقصيت عن شئون الحكم ، وكانت من معزلها تحاول من حين إلى حين أن تصل إلى تحقيق مطامحها . على أن الحجاز لم يستكن مرة واحدة لهذه المكانة التى تأخر إليها ، فحاول محاولات يائسة لاسترداد مكانته وإعادة العاصمة إليه ، ولكنه فى محاولاته لم يكن يستطيع أن يعتمد على قوته الذاتية فى الرجال أو المال ، وكان افتقاره الى هذه القوة الذاتية هو العامل الأساسى فيما أصابه من إخفاق ، كما سوف نلم به فيما نعرض له فى الفصل التالى .

* * *

الفصل الثاني

محاولات الحجاز لاسترداد مكانته السياسية

تمخضت الأحداث التي وقعت منذ مقتل عثمان عن تغيير في الأوضاع الداخلية في العالم الإسلامي كله ، فمنذ أن حدثت الثورة التي انتهت بقتل عثمان ، انشعب المسلمون شعبا ، وبرزت أهواء جديدة لم يكن المسلمون من قبل يفكرون فيها ولا يسعون إليها ، وتمزقت وحدة الجماعة الإسلامية إلى فرق سياسية ، كل فرقة تتخذ في شئون الحكم والسياسة مذهبا يخالف الفرقة الأخرى ويعارضها ؛ وبذلك خرجت الجماعة من نظام الحزب الواحد إلى نظام الأحزاب المتعددة المتعارضة .

ومن خلال هذا الانقسام استطاع البيت الأموي أن يصل إلى الخلافة . وهو بيت لم تكن له سابقة في الإسلام ، ولم يكن له من التقدم ما يحمل الناس يرشحونه للرياسة والخلافة . وحين استقر معاوية بن أبي سفيان زعيم هذا البيت في الخلافة ، خرج بالدولة من نظام الشورى ، المقرر كقاعدة لاختيار الخليفة ، إلى نظام التوريث ، وبذلك انتقل بالدولة الإسلامية نقلة أخرى ، ثم اختط بنو أمية لأنفسهم طريقاً آخر في شئون الحكم ، وانتهجوا منهجا سياسيا في طريقة حكمهم ، وإذا كان عصر الخلفاء الراشدين قد تميز بالطابع الديني فإن عصر بني أمية تميز بالطابع السياسي . ذلك لأن الملك لم يخلص للأمويين منذ قيام دولتهم في يسر وسهولة ، وإنما قامت دولتهم والمعارضة تحيط بها من كل ناحية ، وظلت هذه المعارضة تعيش مع الدولة وتعاصرها ، وتقوى حينا حتى لتكاد تقضي عليها قضاء تاما ، وتتغلب عليها الدولة حينا آخر ، ولكنها في الحالين كانت معاول هدامة تهدم في أركان الدولة شيئا فشيئا ، حتى استطاعت القضاء عليها أخيراً . ولم تكن هذه المعارضة عنصراً واحداً أو حزباً واحداً ، وإنما كانت عناصر وأحزابا كثيرة ، لهذا لجأ بنو أمية

إلى السياسة لحماية دولتهم من الأعداء المجاورين فى الخارج ومن أحزاب المعارضة فى الداخل . ونقصد بالسياسة هنا أنهم اصطنعوا لهم حزبا يضربون به أحزاب المعارضة ، كما اتخذوا لهم قوة حربية منظمة فى قلب الدولة وفى أطرافها كانوا يستعينون بها دائما لإخماد كل فتنة .

وحزب الدولة الرسمى هو الحزب الأموى ، وكان يسمى فى أول الأمر بالعثمانية ، وكان هذا الحزب هو أول الأحزاب ظهوراً فى المجال السياسى فى الدولة الإسلامية ، فقد ظهر هذا الحزب بعد مقتل الخليفة عثمان مباشرة ، وقام يطالب بالثأر له ثم يطالب بالحكم تعويضا عن دم الخليفة المقتول ، ثم وقع الصدام بين معاوية زعيم هذا الحزب وبين الخليفة على بن أبى طالب ، فانقسمت الجماعة على نفسها ، إلى شيعة على وشيعة معاوية ، وكان هذا الانقسام أمراً خطيراً فى حد ذاته ، إذ كان يخالف ماقصد إليه الإسلام وأقره من إقامة الجماعة الإسلامية على أساس من الأخوة ، وما أمر به من المحافظة على وحدتها وأمنها . فكان أى انقسام فيها إنما يخالف ما أمر به الإسلام . وقد كان كل من الفريقين يدعى أنه يعمل على تنفيذ أحكام الإسلام ، فمعاوية ومن معه من أهل الشام كانوا يرون أن الإسلام قد أمر بإقامة الحدود وصون الدماء ، وأنهم لذلك يرون واجباً عليهم أن يقتصوا ممن انتهك هذه الحدود وتجرأ على الدماء وقتل الخليفة ظلماً وعدوانا ، وأن التهاون فى تنفيذ القصاص إنما يعرض الأمة للفساد والفوضى . وعلى يرى أن الخروج على إمامته ونصب العداوة له يخالف ما أمر به الإسلام من التزام الجماعة ولزوم الطاعة ، وأن ما يطلب به معاوية ومن معه إنما هو من حقه كإمام ، فهو الذى ينظر فى الأمور ويقتص للدماء ، وأن معاوية لا يقصد إلى ما يُظهر ، وإنما يستخفى بمطامعه وراء هذه الدعوى ، وهو بهذا يفرق الجماعة ويمزق الوحدة ويعرض المسلمين للفرقة من أجل مطامعه .

وفى ساحة صفين تبين لكل من أتباع على ومعاوية عن طريق الأحاديث التى تبودلت بين الجيشين المتحاربين وقتا طويلا ، أن أهل الشام ليسوا أقل من أهل العراق إيمانا بأنهم

على حق وأنهم إنما يبتغون وجه الله . ولما كان معظم القراء وأصحاب الورع فى جيش على فإنهم ما كادوا يرون المصاحف ترفع حتى أحسوا بأنهم إزاء مشكلة دينية حرجة ، ولم يستطيعوا أن يستمروا فى رفع سلاحهم والقرآن مرفوع أمامهم وهم يُدعون إليه ، لذلك أوقفوا القتال وأجبروا عليا على إيقافه . وحين كانوا فى طريق عودتهم من صفين أدركوا أنهم قد خُدعوا عن النصر ، وأوقعوا الجيش كله فى شرك هذه الخديعة ، ولذلك ركبهم شعور بالإثم أن سمحوا للاضطراب أن يتطرق إلى إيمانهم ، وأن تحيروا حينا فى اعتقادهم بمشروعية الثورة على عثمان ومشروعية قتال معاوية من بعده ، ولكنهم بدل أن يتحملوا مسئولية خطئهم ألقوا اللوم على علىّ لأنه قبل التحكيم ، ولأنه بهذا القبول قد جعل القضية العادلة التى يحاربون من أجلها موضع شك ، فطلبوا منه أن يرجع عن الخطوة التى كانوا هم بأنفسهم قد أجبروه على أن يخطوها ، وأن ينقض المعاهدة التى عقدها مع أهل الشام . فلما لم يسر معهم على فى هذا الاتجاه المضطرب خرجوا عليه ، وانتبذوا خارج الكوفة مكانا يسمى حروراء فعرفوا « بالحرورية » ، ثم كان الاسم العام عليهم بعد ذلك هو « الخوارج » وبذلك ظهر حزب آخر . وكان من نتيجة ظهور هذا الحزب أن الذين بقوا حول على وهم الغالبية العظمى من أهل العراق التفوا حوله وسموا أنفسهم شيعة على ، وبذلك تكون حزب ثالث هو ما عرف بحزب « الشيعة » . وهكذا تكون فى الدولة أحزاب ثلاثة : الحزب الأموى وهو الحزب الذى يؤيد الحكومة القائمة ، وحزب الخوارج ، وحزب الشيعة . وقد اختلفت هذه الأحزاب فيما بينها وتعارضت ، وكان مرد اختلافها يتعلق بالتنظيم السياسى وبخاصة فى اختيار الخليفة ، وإن كان الخلاف قد اتخذ طابعاً دينيا . فإن المسائل السياسية فى جماعة بنت كيانها على أساس دينى لابد أن تصطبغ بصبغة دينية ، وأن تتخذ المصالح الدينية مظهرا لها . وقد شغلت المشاكل السياسية الجماعة الإسلامية منذ وفاة الرسول واحتلت المحل الأول من عناية المسلمين ، ثم لابستها الاعتبارات الدينية وامتزجت بها كعامل من عوامل الإعداد والاختمار ، ثم تحولت

هذه الاعتبارات الدينية إلى مؤثرات فعالة وعناصر قوية عملت على استدامة هذه الانقسامات السياسية وإبراز ما يفرق بينها من وجوه الخلاف . وأصبحت المسألة الشاغلة لأذهان المسلمين هي الفصل في مسألة الخلافة على اعتبار أنها الوظيفة الرئيسية التي تصرف أمور المسلمين وترعى مبادىء الإسلام(١) . وقد اتخذ كل من الأحزاب المتعارضة له موقفاً خاصاً إزاء هذه المسألة .

فالخوارج يرون أن السيادة والسلطة تصدر عن الله فلا يصح إخضاعها للاعتبارات البشرية أو الملابسات الدنيوية ، ولذلك اتخذوا مبدأ « لا حكم إلا لله » شعاراً لهم ، وانسحبوا من جيش علي وأصحابه حين رأوا علياً يقبل التحكيم ، واتهموه بأنه يحكم في دين الله الرجال(٢) وقد أنكروا عليه وعلى معاوية الحق في الخلافة لأنهما استهانا بالدين وأخلا بأحكامه ، وأنهما لم يتقاتلا إلا التماسا للدنيا وسعيا للنفوذ وتحقيقا للمطامع الشخصية (٣) ويرى الخوارج أن الخلافة يجب ألا تقصر على قريش ولا على العرب وإنما ينبغي أن يتولاها خير المسلمين تقوى وزهدا وورعا حتى ولو كان عبدا حبشيا . على أن يشترط في هذا الخليفة أن يكون أشد الناس خشية لله وأعظمهم طاعة له وأقواهم استمساكا بالدين واتباعا لأحكامه ، وأعطوا للجماعة حق رقابته ومحاسبته على أعماله ، فإن غير السيرة وعدل عن الحق وجب عزله أو قتله(٤) . وقد شمل تشددهم كذلك عامة المسلمين وكان لهم مبدؤهم في أعمال الإنسان ؛ فقد جعلوا الأعمال جزءاً مكملا للإيمان فعدوا مرتكب الكبيرة كافراً ، واعتبروا أنفسهم وحدهم هم المسلمون ؛ ولذلك اعتزلوا الجماعة واستحلوا دماء غيرهم من المسلمين ، بل إنهم قصروا جهادهم على المسلمين وحدهم(٥) وبذلك

---

(١) جولد تسيهر : العقيدة والشريعة : ١٨٨ — ١٨٩ .

(٢) انظر الطبري : ٥/٥٥ ، ٦٣ ، ٦٥ .

(٣) انظر الشهرستاني : ١/١١٤ — ١١٧ — جولد تسيهر : ١٩١ .

(٤) الشهرستاني : ١/١١٦ .

(٥) انظر الطبري : ٥/٨٢ ، الشهرستاني : ١/١٢٠ وما بعدها . الفرق بين الفرق : ٧٢ وما بعدها .

أصبح الخوارج حزبا ثائراً اتخذ الكفاح سبيله . وقد تابعوا كفاحهم لبنى أمية بعد أن استقرت الخلافة فى أيديهم ووصموهم بالفسق والمعصية واغتصابهم للحكم ، وأثاروا الفتن والقلاقل فى أطراف الدولة . ولم تتألف من الخوارج جماعة محددة ثابتة ، لأنهم كما اختلفوا مع الجماعة كانوا يختلفون فيما بينهم على أمور جدلية بسيطة ، فلم توجد لهم وحدة تجمعهم وإنما افترقوا إلى جماعات كل جماعة اتخذت لها زعيما جعلته إماما لها ، وتفرقوا فى أجزاء الدولة بزعامة رؤسائهم يقلقون الولاة ويناوئونهم ، مما استغرق جهداً كبيراً من قواد الدولة الكبار فى مكافحتهم .

وقد استهوت مبادىء الخوارج الديمقراطية واحتجاجهم على الولاة والحكام ، الطبقات المعدمة والرقيقة الحال فى المجتمع ، فسارع كثير من هذه الطبقات إلى الانضمام إليهم ، كما انضم إليهم كثير من الموالى الذين أعجبتهم دعوة الخوارج إلى المساواة بين العرب وغيرهم من المسلمين . وأصبحت ثورات الخوارج تتخذ ذريعة لكل فتنة ترمى إلى مناوأة الأمويين[١] .

وأهم فرق الخراج أربع : الأزارقة ، والصفارية ، والنجدية ، والإباضية . والخوارج جميعا أهل تقشف وبساطة وتدين وجهاد ، واستبسال فى الحروب ، يمتازون بشجاعتهم النادرة ، حتى لقد كانت الفئة القليلة منهم تهزم الجيوش الكبيرة ، وكثيرا ما أذاقوا جيوش بنى أمية بأسهم وألحقوا بهم هزائم فاضحة[٢] وإن الناظر فى حروب الخوارج ليعجب عما كان لمقاتلتهم من شجاعة تفوق التصور ، وليعجب بما كانوا عليه من تعبد وتدين وديمقراطية . والناظر فى تاريخهم يلاحظ مع ذلك أن هذه الفرقة كانت فى واد

---

(١) جولد تسيهر : ١٩٢ .
(٢) انظر الدينورى : ٢٦٩ — ٢٨١ . الطبرى : ٥ / ٣١٢ وما بعدها .
ابن خلدون : ٣/١٤١ — ١٦٩ . البيان والتبيين : ٢/١٢٢ .
شوقى ضيف : التطور والتجديد : ٩٦ — ٩٨ .

والفرق الأخرى والخلافة الرسمية فى واد آخر ، حتى ليجوز لنا — مع إعجابنا بهم — أن نعتبرهم غير عمليين ، وأن نعتبرهم شذاذا فى عصرهم ، وإن كانوا فى الحقيقة يترسمون سنن الشورى التى كانت جديرة بفتح طريق التجديد السياسى أمام العرب ، إلا أنهم كانوا شديدى التطرف ؛ ولذلك كانوا حزب أقلية لا وزن لهم إلا عندما يثورون ويقاتلون .

والشيعة يختلفون عن الخوارج اختلافا تاما وإن كانوا فى منشئهم يرجعون إلى الثورة على عثمان . وكان الشيعة لا يقلون عن الخوارج بغضا لبنى أمية ، لكن بغضهم هذا لا يرجع إلى أنهم كانوا ينكرون أن تكون الخلافة فى أسرة ما ، بل لأنهم أرادوا أن يزيلوا الأسرة المغتصبة ؛ ليحلوا محلها الأسرة صاحبة الحق الشرعى فى نظرهم وهى أهل بيت النبى من أبناء على ، وقد ظهر الشيعة حينما استخلف على وظهرت المعارضة له ، وكان الشيعة فى أول الأمر متضامنين مع الخوارج ، وقد دام هذا التضامن إلى يوم صفين ، فلما كان التحكيم تميز أصحاب على إلى فريقين : فريق اعتزله وهم الخوارج ، وبقى فريق على ولائه له وهم الشيعة ، ويرد البعض ظهور الشيعة إلى وقت مبكر منذ بيعة أبى بكر[1] . لكن الحقيقة أن اسم الشيعة لم يطلق على أتباع على إلا بعد انشقاق الخوارج عليه[2] . وكان اللفظ قبل ذلك عاما يطلق على الأتباع والأنصار ، فكان شيعة على وهم أهل العراق جملة ، فى مقابل شيعة معاوية وهم أهل الشام ، ولكن لما تولى معاوية الخلافة ولم يعد مجرد رئيس حزب أصبح استعمال اللفظ مقصورا على اتباع على ، ودخل فى هذا الاستعمال كذلك تعارضهم مع الخوارج . ولم يكن اتخاذ أهل العراق عليا زعيما بسبب أنه ابن عم الرسول وصهره ؛ إذ أن حق الأقربين فى وراثة الرياسة لم يكن معترفا به عند العرب ، وكذلك لم يكن معترفا به فى الإسلام حتى ذلك الحين . وإنما اختاروه لانه كان عندهم أفضل الصحابة الموجودين المرشحين للخلافة . ولما قتل على وآلت الخلافة إلى معاوية بعد تنازل الحسن ،

---

(١) جولد تسيهر : ١٩٥ . شوقى ضيف : التطور والتجديد : ٩٩ .

(٢) انظر الطبرى : ٥/٦٤ .

وانتقلت العاصمة إلى دمشق ظل عليّ عند أهل العراق رمز سيادتهم المفقودة ، ولم يكن تشيعهم يعدو أن يكون تعبيرا عن شعور العداء لبنى أمية من جانب ولاية العراق المغلوبة ، وبخاصة الكوفة التى كانت عاصمة للدولة فى عهد على فأزيلت عن مكانها حين آلت الخلافة إلى معاوية ، ومن هنا نشأ تمجيد أهل الكوفة لشخص على وآل بيته ، وقد كان فيهم يمثل الحكم الإسلامى بكل ما كان ينطوى عليه فى عهده الأول من نزاهة وعدل وسماحة .

ولم يأخذ حزب الشيعة صفته السياسية وتبدأ مبادئه فى شئون الخلافة إلا بعد مقتل الحسين ، حقيقة إن الشيعة التفوا حول آل البيت بعد مقتل على ولم يصرفهم عنهم انتقال الخلافة إلى معاوية وتنازل الحسن ، فقد التفوا بالحسن بعد انتقاله إلى المدينة . فقد أقبل عليه ذات يوم وفد من أشراف أهل الكوفة فقال متكلمهم سليمان بن صرد الخزاعى ، « إن تعجبنا لا ينقضى من بيعتك معاوية ومعك مائة ألف مقاتل من أهل العراق ، وكلهم يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم ومواليهم ، سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك صفة فى العهد ولاحظا من القضية ، فلو كنت إذ فعلت ما فعلت وأعطاك ما أعطاك بينك وبينه من العهد والميثاق ، كنت كتبت عليه بذلك كتابا وأشهدت عليه شهودا من أهل المشرق والمغرب إن هذا الأمر لك من بعده كان الأمر علينا أيسر ، ولكنه أعطاك هذا فرضيت به من قوله ، ثم قال ، وزعم على رؤوس الناس ما قد سمعت ، إنى كنت شرطت لقوم شروطا ووعدتهم عدات ومنيتهم أمانى ، إرادة إطفاء نار الحرب ، ومداراة لهذه الفتنة ، فأما إذ جمع الله لنا كلمتنا وألفتنا ، فإن كل ما هنالك تحت قدمى هاتين . ووالله ما عنى بذلك إلا نقض ما بينك وبينه . فإن شئت فأعد الحرب جذعة ، وأذن لى أشخص إلى الكوفة فأخرج عامله منها وأظهر فيها خلعه . وانبذ إليه على سواء إن الله لا يهدى كيد الخائنين » وقال الآخرون بما قال به سليمان بن صرد[1] .

---

(١) ابن قتيبة : ١/٢٦٣ — ٢٦٤ .

فهم إذن قد قدموا إلى الحسن بالمدينة ليعاتبوه أن جنح إلى السلم رغم ما كان عنده من القوة والعدد ، ولأنه حين أمضى الصلح لم يأخذ لنفسه شرطا بولاية العهد ويشهد عليه وجوه الناس من أهل المشرق والمغرب . ثم لينبئوه بأن معاوية قد نقض الصلح وأعلن نقضه بعد ذلك على رؤوس الأشهاد ، ثم ليطالبوا إليه بعد ذلك أن يعيد الحرب وأن يأذن لهم فى أن يسبقوه إلى الكوفة فيعلنوا خلع معاوية ويخرجوا عامله ، ويقدم عليهم الحسن بعد ذلك فينبذ إلى معاوية على سواء . وقد رد عليهم الحسن فقال : « أنتم شيعتنا ، وأهل مودتنا ومن نعرفه بالنصيحة والصحبة والاستقامة لنا ، وقد فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم فى أمر الدنيا وللدنيا أعمل وأنصب ، ما كان معاوية بأبأس منى بأسا ، وأشد شكيمة ، ولكان رأيى غير ما رأيتم ، ولكنى أشهد الله وإياكم أنى لم أرد بما رأيتم إلا حقن دمائكم ، وإصلاح ذات بينكم ، فاتقوا الله وارضوا بقضاء الله ، وسلموا لأمر الله ، والزموا بيوتكم وكفوا أيديكم حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر .. فليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته مادام معاوية حيا ، فإن يهلك ونحن وأنتم أحياء ، سألنا الله العزيمة على رشدنا ، والمعونة على أمرنا »[1] . فالحسن يستمسك بهم كما استمسكوا به ، ويعلنهم أنهم شيعة أهل البيت وذوو مودتهم ، وإذن فمن الحق عليهم أن يسمعوا له ويأتمروا بأمره ، ويكونوا عندما يريد منهم . ثم يبين لهم أنه لم يصالح معاوية عن عجز ، ولو أراد الحرب لما كان معاوية أشد منه قوة عليها ، وإنما أراد حقن دمائهم وعليهم أن يرضوا ويطيعوا السلطان ، ويكفوا أيديهم انتظارا إلى الوقت المناسب حيث يستريح الأبرار من أهل الحق ويريح الله من الفجار أهل الباطل . وكأنما يعرض لهم بأن الأمور فى الكوفة لم تكن على سواء ، ففى الوقت الذى كان فيه المخلصون يجاهدون فى عزمة ، كان هناك المدخولون يثبطون ويسببون الفشل ، ثم هو يهيؤهم للحرب حين يأتى أوانها ، ويأمرهم بالسلم المؤقت ، وعسى أن يريح الله من معاوية فتستقبل الأمة أمرها على ما يحبون . وبهذا اللقاء بين الحسن وأهل الكوفة نظم الحزب الشيعى تنظيمه

---

(١) ابن قتيبة : ٢/١٦٤ . وانظر الدينورى : ٢٢٠ ــ ٢٢١ ــ ...

السياسي وأصبح الحسن له رئيسا . وقد قابل أهل الكوفة الحسين كذلك ، وأخبروه بحديثهم مع الحسن ، فأقر نفس ما اختطه الحسن من سياسة لهم ، وعلى هذ وضعت للحزب سياسته وهي الانتظار في سلم ودعة حتى يحين الوقت فيثيرون الحرب على المغتصبين . وعلى ذلك جعل الشيعة في الكوفة يراقبون ويسجلون على معاوية وولاته ما يتجاوزون من حدود العدل والحق ، وينتظرون الوقت الذي يأمرهم فيه الإمام بالخروج (١) .

وكان معاوية قد ولى المغيرة بن شعبة على الكوفة ، فأحب العافية وآثر سياسة اللين ، ولم ير أن يفتش الناس عن أهوائهم . فكان يؤتى فيقال له إن فلانا يرى رأى الشيعة ، وإن فلانا يرى رأى الخوارج فلا يزيد على أن يقول : « قضى الله ألا تزالون مختلفين ، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون »(٢) فاستقامت له الأمور على الرضى ، إلا ما كان من شأن الخوارج فإنهم كانوا ثوارا بطبعهم ، فلم يسكنوا مع لين المغيرة وإنما خرجوا عليه ، فاضطر لقتالهم ، ولما كان يدرك ما بين الشيعة والخوارج من عداء ، فقد وجه لقتالهم ثلاثة آلاف من الشيعة ، ولما تتبعوهم فخرجوا إلى حيز إقليم البصرة ، وجه إليهم عبد الله بن عامر جيشا جعل رجاله كذلك من الشيعة . وقد قضى على من خرج من هؤلاء الخوارج(٣) . ونلاحظ هنا أمرين : الأول أن الشيعة في مصرى العراق كانوا يسيرون على سياسة الطاعة التي رسمها لهم الحسن بن على ، فهم يتعاونون مع الولاة في حرب الخارجين على السلطان . والثاني أن الولاة أنفسهم يستخدمون الشيعة في قتال الخوارج فهم يضربون أعداء الدولة بعضهم ببعض ، ومع ذلك فإن الأمور كانت تمضى هينة بين ولاة معاوية والشيعة في العراق وبخاصة في الكوفة ، ولم يكن يغير من صفائها إلا ما كان يأخذ به الشيعة أنفسهم من إظهار فضل على ، وما كان يأخذ به المغيرة نفسه من إظهار عيبه ،

---

(١) أنظر طه حسين : ٢٠٥/٢ — ٢٠٨ .

(٢) الطبرى : ١٧٤/٥ .

(٣) أنظر الطبرى : ١٨١/٥ — ١٨٩ .

ولكن لم يتجاوز الأمر من الطرفين هذا الحد ، فإن حاول أحد أن يتجاوز هذا أخذه الوالى بالنهى الرفيق ، وإن حاول الوالى تجاوز الحد فى العيب أخذه زعماء الشيعة بالمعارضة التى قد تبلغ حد العنف ، فيسكت الوالى عليها وقد يترضى صاحبها ، ويصور ذلك ما رواه الطبرى عن أبى مخنف(١) ، أن المغيرة بلغه أن صعصعة بن صوحان يعيب عثمان ويكثر من ذكر على ويفضله ، فقال له : « إياك أن يبلغنى عنك أنك تعيب عثمان عند أحد من الناس ، وإياك أن يبلغنى عنك أنك تظهر شيئا من فضل على علانية ، فإنك لست بذاكر من فضل على شيئا أجهله ، بل أنا أعلم بذلك ، ولكن هذا السلطان قد ظهر ، وقد أخذنا بإظهار عيبه للناس ؛ فنحن ندع كثيرا مما أمرنا به ، ونذكر الشيء الذى لا نجد منه بدا ، ندفع به هؤلاء القوم عن أنفسنا تقية ، فإن كنت ذاكرا فضله فاذكره بينك وبين أصحابك وفى منازلكم سرا ، وأما علانية فى المسجد ، فإن هذا لا يحتمله الخليفة لنا ، ولا يعذرنا به » . وكان حجر بن عدى الكندى إذا سمع المغيرة يذم عليا فى المسجد يقول « بل إياكم فذمم الله ولعن » فكان المغيرة يحذره غضب السلطان وسطوته ، ثم يكف عنه ويصفح(٢) .

لم يزد الأمر عن هذه السيرة فى الكوفة بين الشيعة ووالى المصر طوال حياة الحسن ، وذلك تمشيا مع سياسة الحسن التى كان قد رسمها لهم ، ولم يكن قد استجد ما يغير منها شيئا ، فقد بقى الحسن فى المدينة ملتزما بالعهد الذى بايع عليه معاوية ، وكان معاوية من جانبه يرعى جانبه وجانب الحسين ، فلم يريا منه سوءا فى أنفسهما ولا مكروها ، ولا قطع عنهما شيئا مما كان شرط لهما ، ولا تغير لهما عن بر(٣) . ثم توفى الحسن فى عام ٤٩هـ(٤) ، وآلت بوفاته رياسة الشيعة إلى الحسين ، وكان الحسين أكثر شدة وجرأة من الحسن ،

---

(١) ٥/١٨٨ — ١٨٩ .

(٢) الطبرى : ٥/٢٥٤ .

(٣) الدينورى : ٢٢٥ .

(٤) مقاتل الطالبيين : ٤٩ . ابن الأثير : ٣/٢٢٨ . ابن كثير : ٨/٣٣ — ٤٥ .

وكان أهل الـكوفة يعرفون له أنه عارض الحسن حين كاتب معاوية فى الصلح (١) ، لذلك كاتبوه يعزونه ، ويعاودون ما كانوا قد عرضوه من قبل على الحسن من الخروج على بنى أمية . ويطلبون إليه إن أحب أن يخرج إليهم فإنهم لا يعدلون به أحدا وقد وطنوا أنفسهم على الموت معه . ورد عليهم الحسين فلم يبعـد ، ولـكنه لا يرى وقت الخروج قد حان ، وطلب إليهم أن يركنوا إلى الهدوء ويحترسوا من الظنة ما دام معاوية حيا ، فإن يحدث به حدث وهو حى ، كتب إليهم برأيه (٢) .

وكأنما استطال الشيعة الزمن ، وأحسوا فى الحسين جرأة أكثر من أخيه ، فازداد نشاطهم فى الـكوفة ، واشتدت معارضتهم للمغيرة بها ، فقد خطب المغـيرة مرة فى المسجد فأخذ فى الترحم على عثمان وذكر فضـله ، والدعاء على قتلته ، وذم على بن أبى طالب ، فقاطعه حجر بن عدى صائحا : « إنك لا تدرى بمن تولع من هرمـك ! أيها الإنسان ، مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا ، فإنك قد حبستها عنا ، وليس ذلك لك ولم يكن يطمع فى ذلك من كان قبلك ، وقد أصبحت مولعا بذم أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين » وقام أكثر من ثلثى الناس يقولون : « صدق والله حجـر وبر ، مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا ، فإنا لا نتنفع بقولك هذا ، ولا يجدى علينا شيئا » فنزل المغيرة ودخل عليه قومه يلومونه على سكوته على جرأة حجر وأصحابه ، فقال إنى قد قتلته ، إنه سيأتى أمير بعدى فيحسبه مثلى فيصنع به شبيها مما ترونه يصنع بى ، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة(٣) .

ومات المغيرة فى عام ٥٠ هـ فجمع معاوية لزياد الـكوفة إلى البصرة ، وقد كان زياد من أصحاب على بن أبى طالب من قبل ، وكان على قد ولاه على فارس حين انتقض أمرها . فاستطاع أن يقر الأمر فيـها ، وأن يسوس أهلها بالدهاء والمداراة حتى ردهم

---

(١) الطبرى : ٥/١٦٠ .

(٢) أنظر الدينورى : ٢٢١ — ٢٢٢ .

(٣) الطبرى : ٥/٢٥٤ — ٢٥٥ . يقول الدينورى (ص ٢٢٣) إن حجرا حصبـه ، فنزله مسرعا ودخل قصر الإمارة ثم أرسل الى حجر خمسة آلاف درهم ترضاه بهـا ، فلما ليم على ذلك قال « قد قتلته بها » .

إلى الطاعة والاستقامة ، وحتى أعظموا سياسته فشبهوه بكسرى أنوشروان فى سيرته(١) .

وقد ظل عليها حتى تم الصلح بين الحسن ومعاوية ، فلم يدخل فى بيعة معاوية وامتنع بفارس متحصناً بقلعة اصطخر ، ولما لم يستطيع معاوية استنزاله بالتهديد والوعيد ، قبل ما أشار به عليه المغيرة . من استصلاحه بالرفق ، وتولى الأمر المغيرة نفسه واستطاع أن يصلح بين معاوية وزياد ، وقد كان معاوية يعرف قدر زياد ، فقربه إليه ولم يزل يفعل حتى استلحقه بنسبه . وكان زياد من موالى ثقيف ، فقد كانت أمه أمة للحارث بن كلدة ، ثم زوجها لغلام له يسمى عبيد فولدت منه زيادا ، فكان زياد يسمى زياد بن عبيد ، وينسب لأمه فيسمى ابن سمية ، فجاء معاوية عن شهد أن أبا سفيان ألم بسمية فى إحدى خرجاته للطائف فحملت بزياد ، وتبعاً لهذا الادعاء ألحق معاوية زيادا بنسب أبى سفيان فسمى زياد بن أبى سفيان ، ولكن أصحاب الفقه والورع من المسلمين لم يقروا ما فعله معاوية ، فكانوا يسمون زيادا بعد ذلك زياد بن أبيه(٢) . وكان على البصرة فى الوقت الذى كان فيه المغيرة على الكوفة عبد الله بن عامر ، وكان يسير فى أهلها سيرة اللين كما كان يفعل المغيرة فى الكوفة ، ولكن شأن البصرة كان مختلفا . فقد قامت فيها العصبية القبلية كما أشرنا إلى ذلك فى خلافة على ، فزادتها سياسة اللين التى انتهجها ابن عامر فسادا حتى غلب الشر على أهلها ، وغلب السفهاء على العقلاء فيها ، وكان ابن عامر يرعى من مصلحته أكثر مما يرعى من النظام وإقرار السلطان ، حتى فسد أمر البصرة كله ، وشكا ذلك أهل البصرة إلى معاوية فعزله عنها(٣) ، وولاها بعد ذلك زيادا ، فاتخذ زياد سياسة الشدة والحزم ، فألزم الناس الطاعة وتقدم فى العقوبة وجرد السيف وأخذ بالظنة وعاقب على الشبهة ، حتى خافه الناس فى سلطانه خوفا شديداً ، وبهذه السياسة القاسية استطاع أن يقيم أمور البصرة(٤) . ثم ضمت الكوفة إلى ولاية زياد ، فكان يقيم فى الكوفة ستة أشهر وفى البصرة ستة أشهر .

---

(١) الطبرى : ١٣٢/٥ .

(٢) انظر الطبرى : ٢١٤/٥ — ٢١٥ . ابن الأثير : ٢١٩/٣ . ابن كثير : ٢٨/٨ .

(٣) انظر الطبرى : ٢١٢/٥ — ٢١٤

(٤) انظر الطبرى : ٢١٦/٥ — ٢٢٦

فخرج فى بعض خرجاته إلى البصرة ، وخلف على الكوفة عمْراً بن حريث العدوى ، وصعد هذا على المنبر ذات جمعة ليخطب ، وقعد له حجر وأصحابه فحصبوه ، فنزل من المنبر فدخل القصر وأغلق بابه وكتب إلى زياد(١) ، فقدم عجلا فدخل الكوفة ، فأنذر وحذر وأبلغ فى تهديد حجر وأصحابه ، ولكنه لم يعجل عليهم ، حتى كان يخطب يوماً فأطال فى الخطبة حتى صاح به حجر وأصحابه آن حان وقت الصلاة ، واضطر زياد إلى قطع خطبته ، فلما قضى الصلاة أرسل إلى جماعة من وجوه الكوفة فأمرهم أن يأتوا حجراً وأن يكفوا عنه من يُطيف به من عشائرهم ، وأن يردوه عن هذه الطريق التى أخذ فى سلوكها ، وفعل وجوه الكوفة ، فلما أحس زياد انفضاض كثير من الناس عن حجر ، أمر شرطته أن تأتيه به ، ولما دافع عنه من معه ، أغرى زياد القبائل بعضها ببعض وهدد الزعماء فى الكوفة ، فجاءوا بحجر بعد أن أخذوا له الأمان على نفسه حتى يرسله إلى معاوية فيرى فيه رأيه .

وألقى بحجر فى السجن وتتبع زياد أصحابه حتى قبض على ثلاثة عشر رجلا منهم ، فسيرهم جميعاً إلى الشام بعد أن كتب إلى معاوية كتاباً أشهد فيه سبعين رجلا « أن حجر بن عدى خلع الطاعة وفارق الجماعة ، ولعن الخليفة ، ودعا إلى الحرب والفتنة ، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نكث البيعة وخلع أمير المؤمنين معاوية ، وكفر بالله عز وجل كفرة صلعاء »(٢) ولم يتحرج زياد أن يجبر الناس على الشهادة وأن يكتب أسماء ناس لم يحضروا ولم يشهدوا ، فمن هؤلاء من أبرأ نفسه أمام الناس ، ومنهم من كتب إلى معاوية يبرىء نفسه من هذه الشهادة ، وهو شريح بن هانىء القاضى ويشهد لحجر أنه ممن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ، ويديم الحج والعمرة ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وأنه لذلك حرام الدم والمال(٣) .

---

(١) الدينورى : ٢٢٣ .
(٢) الطبرى : ٥/٢٦٩ .
(٣) نفس المصدر : ٥/٢٧٢ .

وحُمل حجر وأصحابه إلى معاوية ، فأمر ألا يدخلوا دمشق وأن يحبسوا خارجها بمرج عذراء ، وحاول المحبوسون أن يجعلوا معاوية يلقاهم فيسمع دفاعهم فلم يفلحوا ، وإنما أرادهم معاوية على خطة تتنافى مع دينهم وشرفهم ، وهى التبرؤ من على ولعنه ، فلما لم يقبلوا أمر بقتلهم ، فتشفع جماعة من أشراف الشام إلى معاوية فى بعضهم فشفعهم ، ولم يقبل شفاعة فى حجر ، فقتل هو وسبعة لم يشفع فيهم أحد .

وكانت مسألة حجر وأصحابه مأساة منكرة أحدثت صدى شديد الوقع فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية ، واعتبرها الناس صدعاً خطيراً فى الإسلام ، فلقد استباح فيها أمير من أمراء المسلمين أن يعاقب الناس على معارضة لا إثم فيها ، وأن يكره أشراف الناس على أن يشهدوا عليهم زوراً وبهتاناً ، وأن يكتب شهادة القاضى على غير علم منه ولا رضا . واستباح الخليفة لنفسه أن يحكم بالموت على نفر من الذين عصم الله دماءهم ، دون أن يراهم أو يسمع لهم أو يأذن لهم فى الدفاع عن أنفسهم على ما أرسلوا إليه أنهم على بيعتهم لا يُقيلونها ولا يستقيلونها . وقد ذعر المسلمون فى أقطار الأرض لهذا الحدث ؛ فقد غضب الناس فى الحجاز حين علموا بالأمر حتى أرسلت السيدة عائشة عبد الرحمن بن الحارث بن هشام إلى معاوية فى حجر وأصحابه ، فلما قدم عليه وقد قتلهم قال له « أين غاب عنك حلم أبى سفيان ؟ » فقال معاوية « غاب عنى حين غاب عنى مثلك من الحلماء ، وحملنى ابن سمية فاحتملت » . ولقد كانت عائشة تقول إنها همت أن تثور لولا أنها خافت فتنة كفتنة يوم الجمل . ثم بقى للحادث أثر أليم فى نفسها حتى لقد لامت معاوية عليه حين حج ومر عليها . وغضب له الناس فى الشام حتى أوشكت أن تكون فتنة لولا أن أطفأها معاوية باللين وداواها بالمال[1] ، وسخطها الناس فى خراسان حتى قال الربيع بن زياد بن الحارث عامل زياد على خراسان : « لا تزال العرب تقتل صبراً بعده ، ولو نفرت عند قتله

---

(١) الطبرى : ٦/٢٧٨ .

لم يقتل رجل منهم صبراً ، ولـكنها أقرت فذات »[١] ، كما بقى له أثر أليم فى نفوس المسلمين إلى مدى بعيد حتى كان الحسن البصرى فيما بعد يعده من موبقات معاوية ويقول « ويلا له من حجر »[٢] بل إن الحادث كان له صدى حتى فى أعماق نفس معاوية فلم ينسه منذ كان إلى أن انقضت أيامه ، فقد زعم الرواة أنه قال عند موته « يوم لى من ابن الأدبر طويل ثلاث مرات — يعنى حجراً »[٣] .

لقد اتخذ زياد سياسة العنف والقمع وسيلة لإقرار ملك معاوية فى العراق ، وقد استطاع أن يضبط الأمر ، ولـكن هذه السياسة تركت أثراً عميقا فى نفوس أهل العراق جميعا ، فقد سخطها الشيعة وعارضوها فى كثير من الشدة حين قتل منهم حجر وأصحابه[٤] ، وسخطها الخوارج وعارضوها بسيوفهم وألسنتهم فقاتلوا وقتلوا ، وسخطها رؤساء الناس وأشرافهم ولـكنهم داروا زيادا وعماله على كراهية . وكان لهذا أثره كله فى العراق حتى لقد كان مستعداً للانتقاض عند أول بادرة من بوادر الضعف أو من بوادر الخلل ، وأصبح بيئة صالحة لـكل صاحب طموح يقدم عليه ، ولم تستطع هـذه السياسة رد أهل العراق عن تشيعهم لعلى وأبنائه ، بل زادتهم استمساكا بهم ورغبة فيهم ، وأصبح العراق الموطن الرئيسى للشيعة ، وفيه نمت البذرة التى نبتت ومدت فروعها إلى المشرق كله ، وكان ثمرتها آخر الأمر القضاء على ملك بنى أمية .

أما الحجاز ، فإنه سخط من سياسة بنى أمية ما سخط منها العراق ، ولـكن الحجاز لم يكن فيه من القوة ما فى العراق ، وكان طبيعيا لذلك أن يعتمد على غيره للتنفيس عن هذا السخط . وقد تراجعت إلى الحجاز العناصر التى أقصيت عن شئون الحـكم من قريش

---

(١) الطبرى : ٥/٢٩١

(٢) أنظر الطبرى : ٥/٢٧٨ — ٢٧٩

(٣) الطبرى : ٢/٢٧٩

(٤) أنظر الطبرى : ٥/٢٢٨ — ٢٨٥

ومن الأنصار ، فإن معاوية وقد تم له الأمر بمساندة قريش له بعامة وبنى أمية بخاصة ، لم يشأ أن يبقى تحت سلطان هذه العصبية من قومه تشاركه ملكه وتقاسمه سلطانه ، فلجأ إلى اصطناع الرجال من غير هذه العصبية التي تشاركه في نسبه وتدل عليه بأفعالها في مساندته ، وقد رأينا كيف اصطنع زياداً وألحقه بنسبه ، واتخذه عامله وبده على العراق أقوى أقاليم الدولة وأشدها سخطا لحكمه وانتقاضا على سلطانه ، وأخذ يتخلص من رجالات قريش مرة بإغراء المال ، كما فعل مع عبد الله بن عامر حين عزله عن البصرة وسوغه ما أصاب بها من مال وزوجه ابنته(١) . ومرة بالغدر والاغتيال ، كما فعل بعبد الرحمن بن خالد بن الوليد حين خشي من عظم سلطانه في الشام ، لميل الناس إليه لما كان عندهم من آثار أبيه في الفتوح ، ولغنائه عن المسلمين في أرض الروم ، فأمر الطبيب النصراني ابن أثال أن يحتال في قتله ، فدس له شربة مسمومة مات منها ، وكافأ معاوية الطبيب القاتل بأن ولاه خراج حمص ووضع عنه خراجه ما عاش(٢) . وقد كان لهذا العمل أثره في نفوس بني مخزوم ، فازدادوا موجدة على بني أمية فوق ما كانت تجده عليهم بطون قريش الأخرى التي لم يصبح لها نصيب في الحكم ، والتي رأت أنها ذادت بني هاشم عن الخلافة لتتداولها فيما بينها ، فإذا هي تلقيها لبني أمية فيحولونها ملكا يختصون أنفسهم به ، ولم تكن في حاجة إلى أن تستنبط هذا من تصرفات معاوية ، فقد صرح به معاوية نفسه حين قدم المدينة يستطلع الأحوال فيها تمهيدا لمبايعة يزيد بولاية العهد ، فجمع إليه كبار رجال قريش فناقشهم في أمر استخلاف يزيد بعده ، فردوا عليه بأن الخلافة ليست بقيصرية ولا كسروية يتوارثها الأبناء عن الآباء ، وإنما هي في قريش خاصة ، لمن كان لها أهلا ممن ارتضاه المسلمون لأنفسهم فقال « إنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف ، لأنهم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مضى رسول الله

---

(١) الطبري : ٥/١٢٣ ـ ٢١٤ .

(٢) نفس المصدر : ٥/٢٢٧ .

صلى الله عليه وسلم ، ولى الناس أبا بكر وعمر من غير معدن الملك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بنى عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة»[١] .

ومع أن معاوية جعل الملك لبنى أمية ، فإنه لم يكن يريد أن يجعله لهم بعامة وإنما أراد أن يجعله فى بيته بخاصة ، وتراجع الباقون من فروع بنى أمية إلى المدينة فاتخذوها مقراً ، حين أحسوا بأن إرادة معاوية تتجه إلى تقوية بيته على الأسرة كلها حين استلحق زياداً بنسبه ووضع أمور المشرق كلها فى يده ، وقد عمل معاوية من جانبه على أن يثير الشحناء بين فروع بنى أمية فى المدينة ليضعف من قوتهم[٢] ، وجعلهم يتداولون ولاية المدينة ، فيتخذ من العزل والولاية طريقاً لإفساد الأمور بينهم . ولقد أحسوا منه بهذا الكيد ، فكتب إليه سعيد بن العاص يقول : «العجب مما صنع أمير المؤمنين بنا فى قرابتنا ، أن يضغن بعضنا على بعض ! فأمير المؤمنين فى حلمه وصبره على ما يكره من الأجنبين وعفوه ، وإدخاله القطيعة بيننا والشحناء ، وتوارث الأولاد ذلك ، فوالله لو لم نكن بنى أب واحد إلا بما جمعنا الله عليه من نصر الخليفة المظلوم ، واجتماع كلمتنا ، لكان حقاً علينا أن نرعى ذلك ، والذى أدركنا به خير »[٣] . ومع ذلك فقد أوشك معاوية أن يضم الحجاز إلى زياد ، فقد كتب إليه زياد يخبره أنه ضبط العراق له بشماله ويمينه فارغة فليشغلها بالحجاز ، ولم يحل دون ذلك إلا موت زياد[٤] . وكان لهذه السياسة التى سلكها معاوية أثرها البعيد فى العلاقة بعد ذلك بين فرعى البيت الأموى ، فما زالت العلاقة تتطور حتى انقسم البيت الأموى إلى فرعين متميزين : الفرع السفيانى ، والفرع المروانى ، وكما أبعد البيت السفيانى فرع مروان ، فإن المروانيين حين وصل الحكم إلى أيديهم تداولوه بينهم ولم يجعلوا للفرع السفيانى منه شيئاً .

---

(١) ابن قتيبة . ١٧٤/١ .
(٢) انظر الطبرى : ٢٩٣/٥ — ٢٩٥ .
(٣) الطبرى : ٢٩٤/٥ . ابن خلدون : ١٦/٣ .
(٤) نفس المصدر : ٢٨٩/٥ .

وقد زادت حدة الشقاق بين بني أمية بعامة وبين بقية قريش ، وبرزت بروزا واضحا حين فكر معاوية في جعل ابنه يزيد وليا لعهده ، ولقد عارضت بطون قريش هذا التوريث ممثلة في كبار أبناء الصحابة وهم : الحسين بن علي ويمثل بطن هاشم ، وعبد الله بن عمر ويمثل بطن عدي ، وعبد الله بن الزبير ويمثل بطن أسد ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ويمثل بطن تيم . وكانت معارضتهم شديدة ، فلم يستطع معاوية برغم ما جهد أن ينال اعترافهم بتخليف يزيد من بعده ، كما سخط هذا الأمر عامة المسلمين وبخاصة في الحجاز والعراق وإن لم يستطيعوا أن يعلنوا عن سخطهم . فلقد استحدث معاوية في الإسلام أمراً غير به السنة الموروثة تغييراً خطيراً ، فقد نقل النظام الخلافي من الشورى إلى التوريث ، ولم يكره المسلمون شيئا في الصدر الأول من أيامهم كما كرهوا وراثة الخلافة ، وقد حولوها عن بني هاشم خشية أن تصير فيهم وراثة بحكم قرابتهم من النبي ، ولما كان أبو بكر يرى الظروف تقتضيه أن يعهد لأحد من بعده ، عهد إلى عمر ولم يفكر في أن يعهد إلى أحد من بنيه ، وزجر عمر من طلب إليه أن يعهد إلى ابنه عبد الله[1] ، ولم يخطر ببال عثمان ، وقد لبث في الخلافة اثنى عشر عاما ، أن يعهد لأحد . وأبى علي أن يستخلف وقال حين سأله أصحابه أيبايعون لابنه الحسن : « ما آمركم ولا أنهاكم ، أنتم أبصر »[2] . ولقد كان معاوية نفسه يقول بالشورى قبل أن يستقيم له الأمر ، فقد قاتل عليا مطالبا بدم عثمان ورد الخلافة شورى بين المسلمين ، ثم صالح الحسن بن علي على أن تكون الخلافة من بعده شورى بين المسلمين . فلما استقام لمعاوية الأمر نسى ما قاتل عليه وما صالح ، وأراد أن يجعل الخلافة في ابنه يزيد . ويقال إن المغيرة بن شعبة هو الذي ألقى في قلب معاوية هذا الخاطر ، فمال إليه وشاور فيه زيادا ، فأشار عليه زياد بالأناة وبأن يأخذ يزيد بإصلاح سيرته ، فقد كان يزيد صاحب لهو وعبث ، مستهترا مسرفا في لذاته ، وما ينبغي

---

(١) الطبري : ٤/٢٢٨ .

(٢) نفس المصدر : ٥/١٤٦ ــ ١٤٧ .

أن يطلب إلى المسلمين مبايعة من هذه صفاته مع وجود من هم خير منه من أبناء الصحابة وفضلاء المهاجرين . وقد قبل معاوية مشورة زياد ، وأخذ يزيد بالحزم حتى يمهده لتوليته العهد ، فلما رأى من سيرة يزيد ما أرضاه ، حزم أمره وأعلن توليته عهده وكتب فى ذلك إلى الآفاق ، فأجابه الناس إلى ما أراد ، وهل كانوا يستطيعون أن يعارضوه وقد استغوى زعماءهم ، وعماله على رقابهم ! ثم استوفد الوفود من الأقاليم فوفدت عليه وأعلنت البيعة ليزيد[١] ، وكتب إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة أن يجمع من قِبَله قريش وغيرهم من أهل المدينة ، فيأخذ منهم البيعة ليزيد ، فلما عرض مروان كتاب معاوية ، عارضه الناس وأبت عليه قريش ، فكتب إلى معاوية « إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك ابنك فارأ رأيك » وأدرك معاوية أن مروان على غير ما يحب ، فكتب إليه بعزله وبتولية سعيد بن العاص ، وغضب مروان لعزله ولأن معاوية لم يستأمره فيما عزم عليه ، ورحل إلى الشام فى أهل بيته ووفد كبير من أخواله من كنانة ، فدخل على معاوية فذكره ما أقاموا من ملكه وما أعانوا على أمره ، وأن لهم لذلك حق المشورة ، وأن لا يقضى الأمر دونهم ، ثم عرّض وهدد ، وأقسم أنه « لولا عهود مؤكدة ومواثيق معقدة لأقمت أوَدَ ولّيها ، فأقم الأمر يا ابن أبى سفيان وأهدىء من تأميرك الصبيان ، واعلم أن لك فى قومك نظرا ، وأن لهم على مناوأتك وَزَراً » وترضاه معاوية وفرض له ألف دينار فى كل هلال ، وفرض له فى أهل بيته مائة مائة[٢] .

وإذا كان هذا شأن مروان وقومه من بنى أمية فماذا يكون شأن الآخرين ؟ . ولقد أبطأ أهل المدينة فلم يقبلوا على البيعة حين عرضها عليهم سعيد بن العاص[٣] ، وعارضها معارضة شديدة أبناء الصحابة ، ولم يجد سعيد بدا من أن يكتب لمعاوية أن الناس عن البيعة بطاء ،

---

(١) انظر ابن قتيبة : ١/١٦٥ ـ ١٧١ . الطبرى : ٥/٣٠٥ ـ ٣٠٣ . ابن الأثير : ٣/٢٤٩ ـ ٢٥٠ .

(٢) انظر ابن قتيبة : ١/١٧٥ — ١٧٧ .

(٣) انظر : ابن قتيبة : ١/١٨٢ — ١٩٠ . الطبرى : ٥/٣٠٣ — ٣٠٤ . ابن الأثير : ٣/٢٥١ — ٢٥٢ .

وأن بنى هاشم يعارضون وأن بن الزبير يجاهر بالعداء ، وأنه لا يقوى على الأمر إلا بالخيل والرجال ، أو يقدم معاوية بنفسه . وكاتب معاوية كبار أبناء الصحابة : عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، والحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، ورد الجميع عليه ينكرون ويعترضون . فأمر سعيداً أن يأخذ البيعة من أهل المدينة قسراً ، غير هؤلاء النفر فلا يحركهم ولا يهيجهم . لكن الناس لم يبايعوا على رغم ما عنف بهم سعيد ، واضطر معاوية للقدوم بنفسه ، ولقى هؤلاء النفر من أبناء الصحابة فلم يبلغ منهم شيئاً بالوعد ولا بالوعيد ، فقد صارحه بعضهم والتوى عليه بعضهم ، فحذرهم عواقب الخلاف عن أمره إن أظهروه ، ثم أقام على رؤوسهم شرطا وأمرهم على مسمع منهم أن يضربوا عنق أيهم رد عليه حين يخطب ، ثم خطب الناس ، فذكر بيعة يزيد بولاية العهد ، وأن الناس أجمعوا عليها ، وأن هؤلاء النفر من أعلام المهاجرين قد دخلوا فيما دخل فيه الناس . فبايع الناس ، وانصرف هؤلاء النفر لم يبايعوا ولكنهم أجبروا على السكوت(١) .

لقد استكره معاوية الناس على بيعة يزيد ، واستكره أبناء الصحابة وكبار المهاجرين ممن كانوا وكان الناس يرون لهم حقا فى الترشيح للخلافة على الصمت ، بعد أن لم يستطع استكراههم على البيعة ، وهو بعد لم يؤامر الأمة بأى صورة من الصور فيمن اختار لخلافتها ، وإنما شاور قوما من خاصته ، فكلهم أغراه به وحببه إليه لحاجة عنده أو لمطمع فيه . ولم يستطع أحد من خاصة الناس ولا من عامتهم أن ينكر على معاوية مما أراد شيئا . وهكذا استقر فى الإسلام لأول مرة هذا الملك الذى يقوم على القوة والخوف ، والذى يرثه الأبناء عن الآباء ، وأصبحت الأمة كأنها ملك لصاحب السلطان ينقله إلى من أحب من أبنائه ، وقد استحدث معاوية هذه البدعة التى طالما أنكرها المسلمون من قبل . ومنذ ذلك اليوم ضاع نظام الشورى وتحولت الأمة إلى نظام التوريث ، وكان عاقبة ذلك وبالا على المسلمين أى وبال ، فكثيراً ما استحل أصحاب السلطان من المحارم وسفكوا من الدماء وأهدروا من الحقوق وضحوا بمصالح الأمة فى سبيل ولاية العهد(٢) ، وقد ذهب

(١) انظر : ابن قتيبة : ١/١٨٢ — ١٩٠ . الطبرى : ٥/٣٠٣ — ٣٠٤ . ابن الأثير : ٣/٢٥١ — ٢٥٢ :

(٢) طه حسين : ٢/٢٤٧ — ٢٤٨ :

معاوية بكبر هذه الفعلة فيما ذهب به من كبائر ، حتى قال الحسن البصرى : « أربع خصال كن فى معاوية ، لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة : انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة . واستخلافه ابنه بعده ، سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنانير . وادعاؤه زياداً ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الولد للفراش ، وللعاهر الحجر » . وقتله حُجراً ، ويلاله من حجر »[1] .

كان معاوية يرى أنه بهذه السياسة التى اتخذها وعماله فى الأقاليم ، وبهذه البيعة التى أخذها لابنه يزيد فى حياته ، قد وطأ الأمور ، وذلل الأعداء ، وأخضع أعناق العرب ، وجمع لابنه يزيد بذلك من بعده ما لم يجمعه أحد[2] . ولكن الحوادث ما لبث أن أثبتت أن معاوية لم يحسن التقدير ، فقد بدأ الاضطراب بعد موت معاوية مباشرة ، وبدأ الانتقاض على يزيد منذ تولى الخلافة ، واشتبك يزيد فى صراع مع خصومه اتسم بالقسوة واستبيحت فيه كثير من الحرمات والدماء ، وذهب فى خلاله من يد بنى أبى سفيان الملك الذى ظن معاوية أنه وطده لبيته .

لم يكن معاوية يتخوف أن ينازع يزيد الأمر غير ثلاثة نفر من قريش : حسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وقد أوصاه عند موته فى شأن كل منهم : فأما ابن عمر ، فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسا شيئا ، وإن لم يبق غيره بايع ، وأما الحسين بن على فإن أهل العراق لن يدعوه حتى يخرجوه ، وأوصاه بأن يعفو عنه إن قدر عليه ، فإن له رحما ماسة وحقا عظيما ، وقرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأما ابن الزبير فإنه هو الذى يجثم له جثوم الأسد ويراوغ مراوغة الثعلب . فإذا أمكنته فرصة وثب ، ويوصيه بأن يستعد له ، فإن صالحه قبل منه ، كما أوصاه أن يحقن دماء قومه ما استطاع[3] .

---

(١) الطبرى : ٥/٢٧٩ .

(٢) انظر وصية معاوية عند وفاته لابنه يزيد ، الطبرى : ٥/٣٢٢ . ابن الأثير : ٣/٢٥٩ .

(٣) الطبرى : ٥/٣٢٢ — ٣٢٣ . ابن كثير : ٨/١١٥ .

ولذلك كان وكد يزيد حين استخلف هؤلاء الثلاثة ، فقد كتب إلى الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أمير المدينة يخبره بموت معاوية ويأمره بأن يأخذ الحسين بن علي ، وعبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليس فيه رخصة ، حتى يبايعوا . واستشار الوليد حين وصله الكتاب مروان بن الحكم ، على الرغم مما كان بينهما من مباعدة ، فأشار مروان بالمبادرة إلى دعوة هؤلاء النفر ، وبخاصة الحسين وابن الزبير ، وأخذهم بالبيعة ، فإن فعلوا قبل منهم ، وإن أبوا ضرب أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية ، فإنهم إن علموا بموت معاوية وثب كل امرئ منهم في جانب ، وأظهر الخلاف والمنابذة ، ودعا لنفسه. أما عبد الله بن عمر فلم يعتبره مروان مصدر خطر ، فإنه لا يميل إلى القتال ولا يحب أن يولى على الناس إلا أن يدفع إليه الأمر عفوا ، ولكن الوليد كان رجلا يحب العافية فلم ير أن يأخذ الأمر بالشدة ، فدعا الحسين ثم من بعده عبد الله بن الزبير ، وقد استطاع الرجلان أن يراوغاه ، ويستمهلاه ، حتى فرا منه بليل لاجئين إلى مكة وأما ابن عمر فإنه لم يكن يحب أن يفارق الجماعة فبايع مع عامة أهل المدينة ، وكذلك بايع ابن عباس[1] .

ولم تلبث الأمور بعد وصول عبد الله بن الزبير والحسين بن علي إلى مكة أن تطورت تطوراً خطيراً ، فإن ابن الزبير حين دخل مكة أعلن أنه عائذ بالبيت ، والتفت حوله جماعة من قريش وأهل مكة ، فاعتزل بهم ، وكان لا يصلي بالمسجد مع الجماعة ، وإنما يصلي بأصحابه ، ويقف بهم ناحية ، وقد أحس يزيد بخطر الموقف في الحجاز ، فعزل الوليد ابن عتبة عن المدينة وولى عمراً بن سعيد بن العاص الذي جعل على شرطته عمراً بن الزبير لما كان يعلم ما بينه وبين أخيه عبد الله بن البغضاء ، وقد اشتد عمرو بن الزبير على كل من كان له هوى مع أخيه ، فضربهم بالسياط ما بين الأربعين والستين . وعلم يزيد بامتناع ابن الزبير بالحرم ، والتفاف بعض الناس حوله ، وأنه منع الحارث بن خالد المخزومي نائب عمرو بن سعيد على مكة من أن يصلي بأهل مكة ، فأمر يزيد عمراً بن

---

(١) انظر الطبري : ٥/٣٣٨ ـ ٣٤٣ .

سعيد بأن يطلب ابن الزبير بمكة ، ولا يقبل منه وإن بايع حتى يؤتى به إليه فى جامعة ، وقد أراد يزيد بذلك أن يذل ابن الزبير ، ويضرب بذلك الحركة القرشية التى تجمعت حوله ، وقد أنفذ الوالى أمر يزيد ، فأرسل قوة إلى مكة بقيادة عمرو بن الزبير ، لإجبار عبد الله بن الزبير على الاستسلام ليزيد ، وأرسل معه جامعة من فضة يحملها فى رقبته ، ثم يخفيها تحت ثيابه براً بقسم يزيد ، ويبدو أن مروان بن الحكم لم يكن راضيا عن استئثار بيت أبى سفيان بالخلافة ، فكان يخذل عن إرسال جيش لقتال ابن الزبير فى مكة بدعوى أنه لا يجوز إحلال حرمة البيت ، وأن ابن الزبير قد تقدمت سنه ويوشك لو ترك أنه يموت ، فلما لم يؤخذ بقوله تمثل بأبيات من الشعر من شأنها أن تحرض ابن الزبير ، ويقول بعض الرواة إن بعضهم أبلغها لابن الزبير فتشدد فى موقفه ، وعزم على المقاومة(١) ، وانضم إليه رجل من سادات قريش بمكة هو عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحى الذى استطاع أن يجمع حوله عدداً كبيراً من أهل مكة وغيرهم ، وتصدى للقوات التى أرسلها والى المدينة فهزمها ، وأوقع بعدد كبير منها ، ووقع عمرو بن الزبير أسيراً ، فاقتص منه عبد الله بن الزبير عن كان قد ضربهم فى المدينة حتى مات تحت السياط(٢) . وبهذا قوى مركز ابن الزبير فى مكة ولم يكن يضعف من شأنه إلا وجود الحسين بن على فيها .

وفى الوقت الذى كانت فيه الأمور فى الحجاز تجرى على هذا النحو ، كان الشيعة فى الكوفة يتخذون موقفا مماثلا ، فهم قد بلغهم موت معاوية واستخلاف يزيد ، وأن الحسين قد امتنع عن البيعة ، واستقر بمكة ، فتدارسوا الأمر ورأوا أنها فرصة للتخلص من الحكم الأموى كله ، وإعادة الدولة إلى مدينتهم تحت زعامة الحسين بن على ، فتوالت كتبهم عليه يطلبون منه أن يأتى إلى الكوفة ليكون إمامهم فيما أزمعوا من خلع يزيد ، وإخراج عامله النعمان بن بشير ، وقد بلغت هذه الكتب حداً كبيراً من الكثرة تحوى أسماء كثير من الذين أمضوها من أشراف الناس ، ورؤوس القبائل ، وقراء المصر ، حتى اهتم الحسين

---

(١) الطبرى : ٥/٤٧٥ — ٤٧٦ .

(٢) نفس المصدر : ٥/٣٤٣ — ٣٤٧ .

للأمر ورأى أن يستقصى حال هؤلاء الناس ، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليلقى أهلها ، ويعلم حالهم ، فإن أنس منهم عزما ونية صادقة على الخروج ، وإخلاصا فى النصح لآل على أخذ منهم البيعة سراً ، حتى إذا ما وجد أن قد بايعه منهم من يستطيع أن ينهض بهم الحسين إلى ما يريد من خلع يزيد كتب إليه بذلك ليرحل إلى الكوفة

وأتى مسلم الكوفة فاستخفى عند بعض أهلها ، وجعل يلقى وجوه الناس ورؤساءهم فيستوثق منهم ، ويأخذ البيعة عليهم للحسين ، فبايعه من أهل الكوفة اثنا عشر ألفا ، فكتب للحسين يخبره بذلك ، ويطلب إليه القدوم . وكان النعمان بن بشير يعرف بعض ما يجرى ، فلم يحاول أن يصل إلى مسلم . ولا أن يعنف بالناس ، وإنما كان يرفق بهم ، ويحذرهم الفتنة ، ويأبى على من يأمره من خاصته بالحزم . حتى ضاق به بعض صنائع بنى أمية فكتب إلى يزيد بالأمر كله ، واهتم يزيد للأمر واستشار سرجون مولى أبيه ، وكان هذا من الدهاة الذين يأخذ برأيهم ، فأشار عليه بأن يضم الكوفة مع البصرة إلى عبيد الله ابن زياد ، وأن يأمره بالشخوص إليها من فوره ، وأن يفتش عن ابن عقيل حتى يظفر به ، فيوثقه أو يقتله أو ينفيه .

وقدم عبيد الله إلى الكوفة فدخلها ، وقد اضطرب أمرها اضطرابا شديداً ؛ فنهض بالأمر فى حزم ، لا يعرف أناة ولا بقية ولا تردداً . واضطر مسلم إلى اللجوء إلى دار سيد قبيلة مذحج هانىء بن عروة ، وقد جد عبيد الله فى طلبه حتى دُل على مكانه ، فلم يزل بهانىء ابن عروة حتى أحضر بين يديه ، ولم يزل به حتى اعترف بوجود مسلم فى بيته ، فحبسه ، وهاج قومه لحبسه ، فلم يصنعوا شيئا ، وأخرج إلى السوق فضربت عنقه ، وأعجل مسلم قبل أن يستحكم أمره إلى قتال عبيد الله ، فاجتمع له أربعة آلاف ، فقصد بهم إلى قصر الإمارة الذى كان عبيد الله قد تحصن فيه ، وجمع معه أشراف الكوفة ، وقد خذل هؤلاء عشائرهم عن الثبات مع مسلم فأخذ الناس يتسللون من حوله ، حتى إذا ما جاء الليل وجد نفسه وحيداً ، فهام فى سكك المدينة يلتمس داراً ينفق فيها بقية ليلته ، حتى آوته امرأة كان ابنها مولى لمحمد بن الأشعث ، فلما عرف أمر مسلم ، انطلق إلى ابن الأشعث فأبلغه ، وأبلغ

هذا بدوره عبيد الله ، فبعث شرطته فجاءوا بمسلم بعد أن دافع عن نفسه دفاع المستيئس حتى أعطى الأمان ، ولكن عبيد الله أخفر القوم ، وأمر بمسلم فقتل فى أعلى القصر وألقى برأسه ثم ألقى جسمه إلى الناس ، وصلب مع هانىء بن عروة ليكونا نكالا لغيرهما(١) .

أما الحسين فقد وصله كتاب مسلم بمكة ، فجعل يتأهب للسير إلى الكوفة ، وجعل الناس يلحون عليه فى ألا يفعل ، يخوفونه بأس يزيد ، وبطش عبيد الله بن زياد ، وغدر أهل الكوفة الذين قتلوا أباه ، وطعنوا أخاه ، ونصح له عبد الله بن عباس أن يقيم بمكة فإنه سيد أهل الحجاز ، وألا يأمن غدر أهل العراق ، فإنهم لو كانوا صادقين لنفوا أميرهم وضبطوا بلادهم ، ودعوه بعد أن وطدوا له الأمر ، ولكنهم لم يفعلوا . فليست دعوتهم له إلا الحرب مع عدم الأمان من غدرهم وخذلانهم . فإن أبى إلا الخروج فليخرج إلى اليمن فإن بها حصونا وشعابا ، وهى أرض عريضة طويلة ، ولأبيه فيها شيعة ، فيستطيع أن يقيم بها بعيداً عن السلطان ، وقريبا من شيعته هناك . ولكن الحسين صمم على الخروج إلى العراق . ولم يخرج وحده ، وإنما احتمل معه أهل بيته وفيهم النساء والصبيان ، ولم يسمع لمشورة ابن عباس الذى أشار عليه أن يترك أهل بيته إن كان قد أزمع السير . ولكنه أبى وصمم . فهل كان الحسين يستطيع البقاء فى الحجاز ؟ أو هل كان يستطيع أن يذهب إلى اليمن كما أشار عليه ابن عباس فيجد الأمن والحماية ؟ . إنه كان يستطيع أن يبقى فى الحجاز أو فى أى مكان آخر لو بايع ليزيد واستسلم له . ولكنه كان لا يرى يزيد أهلا لأن يتولى إمامة المسلمين ، من ناحية ، وكان لا يقر الطريقة التى أوصلته إلى الخلافة من ناحية أخرى . وكان يعلم أنه لو بقى فى الحجاز لأخذه يزيد بالبيعة أخذاً عنيفا ، فإن بايع غش نفسه وخان ضميره وخالف دينه ، وإن لم يبايع صنع به يزيد ما يشاء دون أن يجد قوة تدافع عنه ، فقد ظهر عجز الحجاز من قبل عن الدفاع عن نفسه ضد أية قوة تأتيه من الخارج ، فضلا عن أن أهل مكة وفيهم القرشيون ليسوا من أنصاره وليس هواهم مع بنى هاشم ، وأهل المدينة وإن كانوا يجلونه وفيهم الأنصار الذى جاهدوا

---

(١) انظر : الدينورى : ٢٣١ — ٢٤٢ . الطبرى ٣٤٧/٥ — ٣٨٠ ، ابن الأثير ٢٦٧/٣ — ٢٧٥ .

فى صفوف أبيه ، فإن فى المدينة عدداً كبيراً من قريش بعامة وبنى أمية بخاصة ، وليس فى المدينة قوة تحزم أمرها خلفه . وأما اليمن فقد ظهر عجزها وعجز شيعة على فيها حين قدمت إليها قوات معاوية بقيادة بسر بن أبى أرطأة . فالحسين لم يكن مخطئا فيما قدر من أن يزيد لن يتركه ، فهو قد عرف ما كان من غضب يزيد على ابن الزبير حين امتنع عن بيعته حتى لقد أقسم ألا يرضى حتى يحمل إليه فى غل يقاد به كالأسير . ولم يكن الحسين مخطئا حين أبى أن يترك أهل بيته بالحجاز فيعرضهم ليزيد يأخذهم به ويجبره بذلك على الاستسلام أو يفعل بهم يزيد ما يريد . ولقد عبر الحسين عن كل ذلك حين قال للفرزدق حين سأله عما أعجله عن الحج : « لو لم أعجل لأخذت »(١) وحين قال للناس بمكة ممن طلب إليه البقاء : « والله لو كنت فى جحر هامة من هذه الهوام ، لاستخرجونى حتى يقضوا فى حاجتهم ، ووالله ليعتدن على كما اعتدت اليهود فى السبت »(٢) .

ومضى الحسين فى نفر من بنى أبيه وبنى أخيه الحسن ، واثنين من بنى عبد الله بن جعفر ، ونفر من بنى عقيل بن أبى طالب ، ورجال آخرين حرصوا على أن ينصروه . وفى الطريق لحق به كثير من الأعراب طمعوا فى صحبته وأملوا منها خيراً حين علموا أنه خارج إلى العراق منابذا ليزيد . وحين دنا الحسين من العراق كان ابن زياد قد أرصد له الأرصاد ، وأرسل ألفا من الجند عليهم رجل من أشراف الكوفة هو الحُر بن يزيد ، وأمره أن يلقى الحسين فيأخذ عليه طريقه ، ويحول بينه وبين الذهاب فى أى وجه من الأرض حتى يأتيه أمره . وحين أحس الأعراب أنها الحرب تفرقوا عن الحسين فلم يبق معه إلا من خرج بهم من مكة .

ولقى حسين الحر بن يزيد ورجاله ، فلما علم أمرهم أراد أن يعظهم ويذكرهم ، فسمعوا له ورضوا

---

(١) انظر : الطبرى : ٥/٣٨٦ .

(٢) نفس المصدر : ٥/٣٨٥ .

قوله ، ولكنهم منعوه أن يسير إلى الكوفة أو يعود إلى الحجاز ، وسايروه على طريق لا يأخذ إلى هذه ولا إلى تلك ، وكتب الحر بالخبر إلى ابن زياد ، وإن لم يمنع أربعة من الخاصين جاءوا إلى الحسين من الانضمام إليه ، وقد أجمل له هؤلاء الموقف فى الكوفة فقالوا : « أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم ، يستمال ودهم ، ويستخلص به نصيحتهم ، فهم إلب واحد عليك . وأما سائر الناس فإن أفئدتهم تهوى إليك ، وسيوفهم غداً مشهودة عليك »(١) . ثم ورد إلى الحر كتاب من عبيد الله أن يحبس الحسين عن السير ، ولا ينزله إلا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء . وفعل الحر ما أمر به ، فمنع الحسين من النزول فى أى من إحدى القرى القريبة منه ، وأنزله فى سهل كربلاء بعيداً عن شريعة الماء من الفرات . ثم ندب ابن زياد لقتال الحسين رجلا من أقرب الناس إليه هو عمر بن سعد بن أبى وقاص فى أربعة آلاف ، وقد حاول عمر أن يستعفى ابن زياد ، فلم يعفه ، فتقدم على كره ، حتى إذا ما لقى الحسين سأله عما أقدمه ، فقال الحسين : إن أهل المصر كتبوا إليه يستقدمونه ويبذلون له نصرهم ، فإن كانوا كرهوا مقدمه رجع . وعرض الكتب التى جاءته على عمر بن سعد ، وكان معه جماعة ممن أمضوها ، فلما عرضت عليهم كلهم جحدها وأنكر أن يكون عرف من أمرها شيئاً ، وعلم حسين أنه الغدر . فعرض على عمر بن سعد ثلاث خصال يختار أيها شاء : إما أن يخلوا بينه وبين الطريق فيرجع إلى المكان الذى أقبل منه ، وإما أن يسير إلى يزيد بن معاوية فيكون بينه وبينه ما يكون ، وإما أن يسيروه إلى أى ثغر من الثغور شاءوا ، فيكون رجلا من أهله له مالهم وعليه ما عليهم(٢) . ورضى عمر بن سعد وقد رأى فى عروض الحسين فرجا له من هذه المحنة التى هو فيها بقتاله الحسين وتحمل أثم قتله ، فكتب لابن زياد بعروض الحسين ، ولكن ابن زياد أبى إلا أن ينزل الحسين على حكمه ، وكتب بذلك إلى عمر بن

---

(١) الطبرى : ٥/٤٠٥ .

(٢) نفس المصدر : ٥/٣٨٩ ، ٤١٣ .

سعد وأرسل الكتاب مع شمر بن ذى الجوشن — وهو عربى جلف جافى الطابع متقلب الهوى يدور مع المنفعة ، فقد قاتل من قبل فى صفوف على فى يوم صفين[1] ، ثم ها هو فى صفوف بنى أمية راه ابن زياد ثقة له فى قتال الحسين — وأمره أن راقبه فينظر مايصنع ، فإن نهض لقتال الحسين فبها وإلا تولى هو قيادة الجيش . ورأى عمر نفسه مضطراً للقتال ، فنهض بالجيش إلى الحسين وطلب اليه أن ينزل على حكم ابن زياد ، ورأى الحسين أن ذلك لا يليق به فى شرفه ومنزلته فأبى ، فزحف عمر بجيشه على الحسين وأصحابه وكانوا اثنين وسبعين رجلا صمدوا لهذه الكثرة الطاغية فى بسالة فقاتلوهم أكثر من نصف النهار ، وأبلى الحسين وخاصة أهله ومن كانوا معه من أنصاره أعظم البلاء فلم يقتلوا حتى قتلوا أكثر منهم ، ورأى الحر بن يزيد تعسف ابن زياد وطغيانه حين رفض عروض الحسين ، فثار ضميره ولم ير كفارة لما فعل من حصر الحسين إلا أن ينضم إليه فيقاسمه مصيره ، وفعل مثله نفر يسير من جيش عمر فقتلوا بين يدى الحسين مع من قتل . وتجرع الحسين المحنة القاسية حتى آخرها ، فقد رأى بنيه وبنى أبيه وبنى عمه يقتلون أمامه حتى كان هو آخر من قتل . وكان قتل الحسين ومن معه أقسى محنة للطالبيين بعامة وأبناء فاطمة بخاصة ، ثم كانت محنة للاسلام نفسه خولف فيها كل ما أمر به من الرفق والنصح وحقن الدماء إلا بحقها ، وانتهك فيها أحق الحرمات بالرعاية وهى حرمة النبى التى كانت تفرض على المسلمين أن يتحرجوا أشد الحرج قبل أن يمسوا أحدا من أهل بيته . ولقد عبر عن الإحساس بهذه المحنة قبل وقوعها عبد الله بن مطيع العدوى حيث يقول للحسين : « أنشدك الله فى حرمة العرب ! فوالله لئن طلبت ما فى أيدى بنى أمية ليقتلنك ، ولئن قتلوك لا يهابون بعدك أحداً أبداً . والله إنها لحرمة الإسلام تنتهك وحرمة قريش وحرمة العرب »[2] .

---

(١) الطبرى : ٥/٢٨ .

(٢) نفس المصدر : ٥/٣٩٥ — ٣٩٦ .

وحملت رأس الحسين ورؤوس القتلى إلى ابن زياد ، كما حمل إليه نساء الحسين وصبي للحسين كان مريضا فنجا من القتل ، فحملهم جميعا إلى يزيد بالشام ، وأغلظ لهم يزيد أول الأمر ، ثم ما لبث أن رفق بهم وبرهم وأدخلهم على أهله ، ثم جهزهم بعد ذلك إلى المدينة . ويقول الرواة إن يزيد تبرأ من قتل الحسين وألقى عبء الاثم على عبيد الله بن زياد ولكنه لم يفعل شيئا أكثر مما فعل أبوه من قبله حين ألقى لوم قتل حجر على زياد[١] . ولكن إذا كان ابن زياد قد تولى تنفيذ هذا الجرم ، فإن المجرم الأكبر في هذه المأساة هو يزيد ، لأنه هو الذي بعث عبيد الله للقيام بهذه الإجراءات القاسية ، وقد كانت النتيجة مرضية جداً له وقد اغتبط بها أيما اغتباط ، أما الغضب الذي تظاهر به على ابن زياد فما كان إلا تطبيقاً لامتياز الحاكم الأعلى الذي يحول الكراهية عنه إلى الأدوات التي اصطنعها لنفسه في جريمته ، وما كانت المودة التي أبداها نحو من بقي من آل الحسين إلا دهاء ولم تكن تنطوي على إخلاص[٢] .

لقد كان خروج الحسين ثورة على النظام الذي وضعه معاوية بتخليف ابنه يزيد وأهدر به قاعدة الشورى ، فقام الحسين يريد أن يرد الأمور إلى نصابها وأن يعيد الشورى كما كانت ، ولم يكن يطالب لنفسه بالإمامة على أساس الوراثة وعلى أحقيـــة آل البيت بالخلافة دون غيرهم ، فإن فكرة الوراثة عند الشيعة لم تصبح عقيدة إلا بعد وفاة الحسين ، فلما بلغت مبلغ العقيدة ، وآمن الناس أنهم ضلوا الطريق حين عدلوا عن آل البيت إلى غيرهم ، قرروا أن الخلافة كان يجب أن تئول إلى آل البيت فهم كانوا أصدق نظراً من غيرهم ، وهم كانوا أجدر أن يعبروا عن رأي الشعب وأن يقودوه إلى طريق السلامة . ففكرة الوراثة من الناحية التاريخية فكرة متأخرة ، انسحبت عن طريق الإيمان والعقيدة إلى

---

(١) انظر عن خروج الحسين وقتله الدينوري : ٢٣٤ — ٢٦٢ . الطبري : ٥/٣٨٢ — ٤٧٠ .

(٢) فلهوزن : الخوارج والشيعة : ١٨٦ .

نقطة الابتداء · إلى يوم السقيفة واختيار الخليفة الأول · فالحسين حين عارض استخلاف يزيد كان يطالب بما يطالب به الناس جميعا ، وهو إجراء اختيار الإمام على سنة الشورى الصحيحة. وهو حين عزم على القتال كان يعلم أنه فى عـدد قليل وأنه منهزم لا محالة ، وأنه يسير إلى القتل ، ولـكنه لم يجد بداً من أن يقاتل · ولم يجد خيراً من الاستشهاد ، احتجاجا على من يغيرون السنن ، ويصطنعون وسائل الغشم ويجرون فى طريق الظلم من بنى أميـة . وكان من الممكن أن يترك الحسين وشأنه على ألا يتصل بأنصاره من أهل العراق ، وكان من الممكن ألا يقتل هو وأهل بيته وهم من بيت خدم الأمة العربية خدمة جليلة ، إلا أن الملك عقيم لا يعرف رحمة ولا قربى ولا يعترف بجميل · وفظاعة عمل الأمويين فى موقعة كربلاء هى التى أنشأت العقيدة الشيعية إنشاء قويا ، وهى التى أنبتت الإيمان فى نفوس الناس أن آل البيت أسمى من يراءوا فى الدين ، أو أن ينحرفوا عن السنن الرشيدة الأولى ، فـكان هذا الاستشهاد سبيلا إلى التفاف الشعب كله تقريباً حول الشيعة ، وإلى جعل الشيعة زعماء شعبيين ، وإلى تولى الشيعة زعامة المعارضة قروناً طويلة . ومنذ ذلك التاريخ بدأ الحزب الشيعى يتخذ له مذهباً فى إمامة المسلمين · وقد انقسم الشيعة إلى فرق اختلفت فى اتجاهاتها ولـكن خلاصة مذهبهم فى الإمامة — وهو الذى يهمنا من الناحية السياسية ولا خلاف بينهم عليه — أن الإمامة كانت واجبة الإسناد لعلى ، إلا أنه حدث ، إما خطأ وإما لظروف اقتضت ذلك ، أن عدل الناس عن على إلى غيره ، إلى أن جاء دور على فولى الخلافة ، فهو الإمام المتفق عليه ، الذى ورث علم النبوة والذى ينقل هذا العلم إلى بنيه ، ثم تنساق الإمامة فى أولاده : فى الحسن ثم فى أخيه الحسين . والإمامة لا يجب من حيث المبدأ أن تنتقل من الأخ إلى الأخ ؛ بل يجب أن تنتقل من الأب إلى الابن ، إلا أن انتقالهـا فى هذه المرة من الأخ إلى الأخ استثناء لم يحـاول أحد من الشيعة فى القرون الأولى السير على سنته ، ثم انتقلت الإمامة من الحسين إلى ابنه الوحيد الذى نجا من موقعة كربلاء وهو على زين العابدين · ولما كان على زين العابدين صغيراً بعد قتل أبيه فإن رياسة البيت العلوى آلت

مؤقتاً إلى محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، وقد تبعت جماعة من أنصاره ابنه أبا هاشم ومولاه كيسان ونشأت عن ذلك فرقة عرفت بالكيسانية ، ولكن أبا هاشم مات دون عقب ، ويقال إنه عند موته أوصى أن تؤول الإمامة من بعده إلى محمد بن على ابن عبد الله بن عباس ، وقد اتخذ العباسيون ذلك حجة لهم لتولى الخلافة فيما بعد . إلا أن فرق الشيعة الرئيسية يعتبرون رئاسة محمد بن الحنفية شيئاً عارضاً ، حتى إذا ما كبر على زين العابدين تولى الإمامة ، ثم انتقلت منه إلى بنيه : إلى زيد بن على أو إلى محمد الباقر فانقسم الشيعة إلى قسمين : قسم قال بإمامة محمد الباقر وقسم قال بإمامة زيد ، وقد عرفت الفرقة الأولى بالإمامية وعنها تفرعت الإسماعيلية التى كان منها الفاطميون ، وعرفت الفرقة الأخرى بالزيدية . وكان السبب الذى دعى إلى أن يتبع فريق من الناس زيداً ويتبع الآخرون محمداً الباقر أن الشيعة أحسوا بتضييق الدولة عليهم وأرادوا أن يحددوا موقفهم منها ، وقد كبروا وكثروا ونسوا المحنة أو اندملت الجراح التى أحدثتها وقعة كربلاء فيهم . ففريق قال نلجأ إلى العلم وإلى هداية الناس وجمعهم حولنا عن طريق القلب والعقيدة ، وأرادوا بذلك أن يستنوا بسنة على زين العابدين السجاد ، فإنه صرف حياته فى جمع العلوم والعبادة ، وقال الفريق الآخر بل الواجب هو أن يكون موقفنا كموقف جدنا الحسين فندفع الضلال والظلم والاغتصاب بكل ما نستطيع من قوة ، وقد رأس الفريق الأول محمد الباقر ورأس الفريق الثانى زيد[1] .

ولقد كان حزب الشيعة شوكة فى جنب الدولة الأموية ظلت تقلقها وتقض مضجعها حتى استطاعت آخر الأمر القضاء عليها ، ولقد بدأت مقاومة الشيعة للبيت الأموى منذ عهد الحسين بن على الذى أبى أن يبايع ليزيد ولم يقبل أن تنتقل الخلافة من نظام الشورى إلى نظام التوريث . ولقد قتل الحسين كما بينا من قبل ، فكان

(١) انظر عن مذاهب الشيعة فى حكم الأمة ، ابن خلدون : المقدمة : ٢١٨ — ٢٢٤ . الشهرستانى : ١/١٤٦ — ١٩٧ . الفرق بين الفرق : ٢٩ — ٧١ .

موته على الصورة التى حدث بها فاجعة كبيرة أثارت فى العالم الإسلامى بعامة وفى العراق بخاصة دويا شديداً ، فنهض جماعة من أنصاره يريدون أن يتداركوا ما فاتهم من نصرة الحسين ، ويريدون كذلك أن يرفعوا عن أنفسهم عار خذلانه والنكوص عنه ، وأن يكفروا عما بدر منهم من القعود عن النصرة ، ولهذا سموا أنفسهم بالتوابين الذين يستغفرون الله مما وقعوا فيه من الاثم حين لم يخرجوا للقاء الحسين ونصرته على عدوه ، وخلع هؤلاء طاعة بنى أمية ، وانضم إليه رجل طموح هو المختار بن أبى عبيد الثقفى ، وتضامن المختار هو ومن تبعه — الذين سموا بالمختارية — مع التوابين وسار الجميع صفا واحداً فى حرب بنى أمية ؛ فزعزعوا كل ما كان لهم من سلطان فى العراق ، وعلى هذا النحو استطاع دم الحسين بعد موته أن ينتزع العراق كله من بنى أمية ، وأن ينشىء فيه مركزاً هاما لمقاومة الأمويين ، وظل العراق حربا على البيت الأموى من عام ٦١هـ وهو عام كربلاء إلى عام ٧٢هـ حيث اجتمعت الأمصار على بيعة عبد الملك بن مروان ، فانتقل العراق من المقاومة العلنية إلى المقاومة السرية التى أتت آخر الأمر على الملك الأموى كله فى عام ١٣٢ هـ .

* * *

انتهت محنة الحسين إلى أهل الحجاز فصدموا بها وفظعوا لها ، ورأوا أن يزيد أمعن فى التجبر والخلاف عن أمر الله ، فلم تصبح طاعته لازمة ، بل أصبح الخروج عليه واجبا حين يمكن الخروج . وقد استفاد عبد الله ابن الزبير من حادث الحسين ، واستغله لصالحه . فقد كان الحسين أعظم منه قدراً عند أهل الحجاز ، وكان ابن الزبير لا يستطيع أن يفعل شيئا لنفسه والحسين معه فى مكة ؛ فكان يشجعه على الذهاب إلى الكوفة ويقول : «أما لو كان لى بها مثل شيعتك ما عدلت بها » . ولم يكن غرضه خافيا على الحسين ولا على أهله . فقد قال الحسين : « إن هذا ليس شىء يؤتاه من الدنيا أحب إليه من أن أخرج من الحجاز إلى العراق ، وقد علم أنه ليس له من الأمر شىء معى ، وأن الناس لم يعدلوه بى ،

فود أني خرجت منها لتخلو له » وحين خرج الحسين قال ابن عباس لابن الزبير « قرت عينك يا ابن الزبير ! هذا حسين يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز »[1] .

وقد خلا الجو لابن الزبير بخروج الحسين من الحجاز ، فعلت منزلته بين الناس وكثر أشياعه وأتباعه ، وبخاصة بعد أن استطاع أن يهزم القوة التي أرسلها له عمرو بن سعيد ، فلما جاءت الأنباء بمقتل الحسين ، استغل ابن الزبير سخط الناس فجعل يعظم من مقتله ويعيب أهل الكوفة ويلوم أهل العراق ، ويرفع من قدر الحسين ويعرض بيزيد ويلهج به أشد اللهج ، ويضيف إليه من الشر والموبقات ما يشاء ، فملأ أمره بمكة ، وكاتبه أهل المدينة ، وقال الناس : أما إذ هلك الحسين فليس أحد ينازع ابن الزبير . وطلبوا إليه أن يظهر بيعته ، وقد كان يبايع الناس سراً ويظهر أنه عائذ بالبيت ، ولكنه طلب إليهم ألا يعجلوا ، فإن عمراً بن سعيد كان أشد الناس عليه وعلى أصحابه مع المداراة لهم[2] . وقد كفاه بنو أمية أمر عمرو بن سعيد ، فقد دسوا له عند يزيد يتهمونه بالتراخي مع ابن الزبير وإنه لو شاء لأخذه وبعث به إلى دمشق ، فعزله عن المدينة وولى الوليد ابن عتبة . وأقام هذا يريد ابن الزبير فلا يجده إلا متحذراً متمنعا ، ثم زادت الأمور اضطرابا فقد ثار نجدة بن عامر باليمامة حين بلغه مقتل الحسين ، وجاء إلى مكة في موسم الحج مخالفا على يزيد . فاجتمعت بها ثلاث قوى ، فكان كل واحد يقف بأصحابه على عرفات ويفيض بهم ، غير أن نجدة كان يقارب ابن الزبير ويكثر من لقائه حتى ظن الناس أنه سيبايعه ، واستطاع ابن الزبير أن يكيد للوليد بن عتبة فكتب إلى يزيد بن معاوية يتهم الوليد بالخرق وأنه لو بعث رجلا سهل الخلق لينا لرجا أن يسهل من الأمور ما استوعر منها ، وأن يجتمع ما تفرق ، وطلب إليه أن ينظر في ذلك فإن فيه صلاح الخاصة والعامة ، وانخدع يزيد بمكر ابن الزبير فعزل الوليد وبعث عثمان بن محمد بن أبي سفيان ، وكان فتى غرا لم يجرب الأمور ولم تحنكه التجارب ، فأهمل النظر في شيء من سلطانه وعمله ، فالتوت

---

(١) الطبري : ٥/٣٨٤ — ٣٨٥ .

(٢) نفس المصدر . ٥/٤٧٤ — ٤٧٥ .

الأمور عليه فى المدينة وعم السخط ، ولم تكن أهواء أهل المدينة مع ابن الزبير بصفة حاسمة ، ولكنها لم تكن مع بنى أمية على كل حال ، ولذلك رجا الوالى الجديد أنه يستطيع أن يضمهم إلى جانب يزيد باستعمال المال كوسيلة للاقناع ، فبعث وفداً من أشراف أهل المدينة من المهاجرين والأنصار إلى يزيد ، وحين وفدوا على يزيد أكرمهم ، وأحسن إليهم ، وأعظم جوائزهم ، ولكنهم بعد انصرافهم عنه ، وقدومهم المدينة ، أذاعوا عنه كل سوء ، فقالوا : « إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ، ويضرب عنده القيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الخراب والفتيان » ثم أعلنوا خلعه فتابعهم الناس ، وعمت الثورة المدينة ، واجتمع الناس على عبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصارى ، فبايعوه وولوه عليهم ، ليحارب يزيد ويقاوم الحكم الأموى . ولم يشأ يزيد أن يأخذ أهل المدينة بالشدة حتى لا يثير عليه عواطف المسلمين ، لما للمدينة من حرمة وقدسية ، ولأن فيها عدداً كبيراً من بنى أمية ، وهو يخشى أن تشملهم الفتنة ، فيهلك منهم من يهلك ، لذلك أرسل النعمان بن بشير الأنصارى إلى المدينة ليرد قومه من الأنصار عما أخذوا فيه . وقدم النعمان المدينة فحذر قومه الفتنة ، وخوفهم بطش أهل الشام ، ودعا الناس إلى الطاعة ولزوم الجماعة . ولكنه لم يفلح فيما قدم فيه فعاد إلى الشام(١) .

وكانت أول خطوة قام بها أهل المدينة أنهم وثبوا على عثمان بن محمد ومن بالمدينة من بنى أمية ومواليهم ، ومن رأى رأيهم من قريش ، وكانوا نحوا من ألف رجل فحاصروهم فى دار مروان بن الحكم ، وكان مروان أكبرهم وأشهرهم ، فتولى أمرهم وكتب إلى يزيد ينبئه بخبرهم ويطلب غوثه ، ولم ير يزيد بداً من أن يرسل جيشا للقضاء على ثورة المدينة ، والقضاء على حركة ابن الزبير ، وأراد أن يرسل على الجيش عمراً بن سعيد ، لكن هذا أبى - وقد كان ضبط الأمور فى الحجاز ثم عزله يزيد وسمع فيه الوشاية — أن يقوم على

---

(١) انظر الطبرى ٥/٤٧٨ — ٤٨١ .

رأس الجيش فيهريق دماء قريش ، ولكنه نصح ليزيد أن يرسل رجلا بعيد القرابة منهم ، فولى على الجيش مسلم بن عقبة المرى وسيره فى اثنى عشر ألفا من أهل الشام وأعطاهم أعطياتهم كاملة ، وأعطى كل رجل مائة دينار نقداً ، وكان عقبة قائداً حربيا من قبيلة غطفان فيه فظاظة وغلظة لم يهذب الإسلام شيئا من طباعه ؛ فلم يفكر بعاطفة دينية ، وإنما كان خادما من خدام الدولة يفكر بعقلها ، ولا يعرف غير ذلك . وهو بهذا شبيه بالحجاج وزياد وأولئك القواد الذين خدموا الدولة الأموية ، وأخلصوا لها لأنها أتاحت لهم من نباهة الذكر ما عوضهم عن ضعف منبتهم وخمول شأنهم ، فهم يحافظون عليها محافظة على مكانتهم . وبهذه العقلية سار مسلم إلى الحجاز ، وقد أوصاه يزيد بأن يدعو القوم ثلاثا فإن أجابوا وإلا قاتلهم ، فإن ظهر عليهم ، استباح المدينة للجند ثلاثة أيام ، وإن حدث به حدث استخلف على الجيش حصين بن نمير السكونى .

وبلغت الأخبار أهل المدينة فرأوا أن يتخلصوا من بنى أمية بها حتى لا يكونوا عونا للجيش عند القتال ، فهددوهم بالقتل ، أو يعطوا عهدا ألا يبغوهم غائلة وألا يدلوا على عورة ، وألا يظاهروا عليهم عدوا على أن يخرجوهم من المدينة ، فأعطاهم بنو أمية العهد على ذلك ، وخرجوا من المدينة ، حيث التقوا بمسلم بن عقبة بوادى القرى . ولم يقبل أحد من كبار بنى أمية أن ينقض العهد رغم تهديد عقبة غير عبد الملك بن مروان الذى أطلعه على عورة المدينة ، ونصحه بأن يأتيها من قبل الحرة الشرقية عند الصباح ، فتكون الشمس فى ظهر جيشه ، وفى وجوه أعدائه . ووصل مسلم إلى المدينة ، وعسكر عند الحرة الشرقية ثم دعا أهل المدينة إلى الدخول فى طاعة يزيد ، وأعلمهم أنه يؤجلهم ثلاثا ، فإن أجابوا تركهم ، وسار إلى مكة لقتال ابن الزبير « الملحد الذى جمع إليه المراق والفساق من كل أوب » لكن أهل المدينة صمموا على القتال ، وعلى ألا يسمحوا له بالتوجه إلى مكة ، وقالوا : « يا أعداء الله ، والله لو أردتم أن تجوزوا إليهم ، ما تركناكم حتى نقاتلكم ، نحن ندعكم أن تأتوا بيت الله الحرام وتخيفوا أهله ، وتلحدوا فيه وتستحلوا حرمته ! . » وهكذا كان الفارق

بين عقليتين ونظرتين ، وأصبح ألا بد من القتال . وكان أهل المدينة قد حصنوا ركنها الشمالي المكشوف بأسوار وخنادق ، وكان جيشهم مؤلفا من أربعة أقسام على رأسها رجلان من قريش ، هما عبد الرحمن بن زهير بن عبد عوف وهو ابن عم عبد الرحمن بن عوف الزهري ، وعبد الله بن مطيع العدوي ، ورجل من أشجع هو معقل بن سنان الأشجعي على مهاجرة القبائل ، وعبد الله بن حنظلة الغسيل الأنصاري على الأنصار وله الإمرة العامة على الجيش . واشتبك الجيشان في القتال ، وأوشك جند المدينة أن يحققوا نصراً على جند الشام لولا أن بني حارثة مالئوا أهل الشام وفتحوا لهم الطريق ، فداروا خلف جند المدينة ، وأوقعوا بهم الهزيمة ؛ فدخل مسلم المدينة واستباحها للجند ثلاثة أيام ، ثم دعا الناس للبيعة على أنهم خَوَل ليزيد بن معاوية يحكم في دمائهم وأموالهم ما شاء . وارتكب من الحماقة والجبر حداً كبيراً ، فكان يقتل كل من يرفض هذه البيعة لا يستثنى من ذلك قرشيا ولا غير قرشي ، وحاول مروان أن يستشفع لبعض الناس وأن يرده عن هذا الجور فوطئه مسلم وهدده بالقتل . ولقد تجاوز مسلم بذلك كل حد وغلا في الإثم ، وقد كانت السياسة تسمح له بأن يقاتل الخارجين على يزيد حتى يفيئوا إلى الطاعة ، أما المثلة وانتهاك الحرمات ، فأمر لا ينكره الدين وحده وإنما تنكره السياسة أيضا وتنكره السنة العربية المعروفة ، وهي بعد تحفظ القلوب وتملأ الصدور ضغينة وحقداً . وقد أحفظت أعمال قواد يزيد عليه الجماعة الإسلامية كلها ، وكان عاقبة ذلك أن خرج الملك من بيت أبي سفيان وشيكا ، وظل يزيد مثلا للفجور وسوء السيرة عند المسلمين . حتى لقد قيل إن رجلا قال في مجلس عمر بن عبد العزيز عن يزيد : هذا أمير المؤمنين فقال له عمر : « تقول أمير المؤمنين ! ! » ثم أمر به فضرب عشرين سوطا تعزيراً له[1] . وقد تركت معركة الحرة أثرا كبيرا على المدينة ، فقد قتل من وجوه الناس بها من المهاجرين والأنصار سبعمائة ، ومن الموالي وغيرهم عشرة آلاف[2] . وكانت هذه خسارة فادحة أضعفت من قوة المدينة

---

(١) النجوم الزاهرة ١/١٦٣ .

(٢) ابن قتيبة : ١/٢١٦ . ابن كثير : ٨/٢٢١ . ابن الأثير : ٣/٣١٠ ح ٢ .

بخاصة ، وقوة الحجاز بوجه عام ، فلم تستطع المدينة بعد ذلك أن تنهض بحركة أخرى أو أن تعين على إنجاح أى حركة تقوم بها وقد أضعف ذلك أيضاً قوة الحجاز ، التى كان يستند إليه ابن الزبير ؛ فإنه حين خرجت من يده الأقاليم الخارجية لم يستطع أن يصمد لقوة صغيرة قدم بها الحجاج بن يوسف فيما بعد لقتاله .

ومما يلاحظ فى هذا الموقف أن أهل المدينة لم ينسقوا مع ابن الزبير حركتهم على الرغم من أن الطرفين كانا عدوين لأهل الشام ، وكانا غرضا لجيش مسلم ، فلم يتحرك ابن الزبير لمعاونة أهل المدينة ، وأتاح لجيش مسلم أن يضربهم هذه الضربة ثم يتفرغ له بعدها ، ويمكن أن يعزى الموقف فى المدينة إلى أنه كان مجرد سخط وهياج عاطفى لم يكن له خطة محددة[1] .

وبعد فراغ الجيش من أمر المدينة أخذ طريقه إلى مكة ، وفى الطريق مات مسلم بن عقبة ، وتولى أمر الجيش حصين بن نمير السكونى بعد أن أوصاه مسلم أن يناجز ابن الزبير حال وصوله ، وألا يرد أهل الشام عن شىء يريدونه بعدوهم ، وألا يجعل أذنه وعاء لقريش فيخدعوه[2] . ووصل الجيش إلى مشارف مكة فتحصن منه ابن الزبير ، وكان قد اجتمع إليه عدد من أهل المدينة خرجوا إليه بعد الحرة ، وكذلك قدم عليه نجدة بن عامر الحنفى فى أناس من الخوارج يمنعون البيت ، ووردات بين الطرفين اشتباكات لم تصل إلى نتيجة ، ثم حاصر جيش الشام مكة ، وفى أثناء الحصار وقع حريق أحرق الكعبة ، فتصدعت بعض أركانها .

وجاءت الأخبار بموت يزيد بن معاوية فاضطرب أمر جند الشام ، وبخاصة بعد ما بلغتهم

---

(١) انظر عن ثورة أهل المدينة وموقعة الحرة : ابن قتيبة ١/٢٠٥ — ٢١٢ . الدينورى ٢٦٤ — ٢٦٧ . الطبرى ٥/٤٧٨ — ٤٩٥ . ابن كثير ٨/٢١٧ — ٢٢٢ . ابن الأثير ٣/٣١٠ — ٣١٥ . فلهوزن ١٥٠ — ١٦١ .

(٢) الدينورى : ٢٦٧ .

أخبار تفرق الأمر فى الشام ، فشرع الحصين فى مفاوضة ابن الزبير على أن يبايع له بالخلافة إذا قبل ابن الزبير أن يهدر الدماء التى أريقت فى المدينة ومكة ، وأن يخرج معه إلى الشام ، وقبل ابن الزبير الشرط الأول ولكنه رفض الشرط الثانى ، وطلب إلى الحصين أن يبايعه ومن معه فى مكة ، فرفض الحصين[1] . ومعنى ذلك أن الحصين كان يريد أن تبقى عاصمة الخلافة فى دمشق ، وهو بذلك يعبر عن رأى أهل الشام ورغبتهم ، وكان ابن الزبير يريد أن تنتقل العاصمة إلى الحجاز ، وهو بذلك يعبر عن رأى أهل الحجاز ورغبتهم . ولم يكن ابن الزبير يستطيع أن يوافق الحصين لأن الحصين لم يبايعه ، وإنما هو يخرجه معه على غير بيعة له عنده ، وإنما هو مجرد وعد بأن يأخذ له البيعة فى الشام ، ولم يكن الحصين يمثل قوة أهل الشام كلها ، ولا قوة القبائل الكبيرة فيها ، فلو أطاعه ابن الزبير ولم يستطع الحصين أن يحقق له البيعة ، لكان قد أسلم بيده وألقى بنفسه فى يد بنى أمية وأهل الشام . ثم إنه لا يثق بأهل الشام وكان يدرك أنهم لا يدينون بالولاء لغير بنى أمية ، كما أنه لم تكن له حتى ذلك الوقت عصبية فى الشام يعتمد عليهم . كما أن أهل الحجاز هم الذين يؤيدونه ويرون فيه المعارض الوحيد للحكم الأموى الذى عانوا منه الكثير ، وهم لذلك يلتفون حوله ويناصرونه ، فكانت حركته فى الحقيقة هى حركة الحجاز التى تهدف إلى عودة الخلافة إليه كما كانت الحال فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، فماذا يكون موقف أهل الحجاز لو رأوه يرحل مع أهل الشام إلى دمشق ؟ لا شك أنهم كانوا سيتخلون عنه ، وعند ذلك يفقد أنصاره وجنده . لذلك كان ابن الزبير حريصا على مشاعر الحجازيين ، وهذا ما جعله يخاطب الحصين جهرا فى حين كان الحصين يخاطبه سرا ، فقد كان أنصاره قريبين منه ، فلم يشأ أن يثير شكوكهم ، بل حرص على أن يسمعهم ما يرضيهم حين قال للحصين إنه لا يرضيه إلا أن يقتل بكل واحد منهم عشرة من أهل الشام[2] .

---

(١) انظر الطبرى : ٥/٤٩٦ — ٥٠٢ .

(٢) الطبرى : ٥/٥٠٢ .

وهكذا تعارضت وجهات النظر بين الرجلين ورحل الحصين بجيشه عائدا إلى الشام. وارتفع شأن ابن الزبير فأعلن نفسه خليفة وبايعه أهل الحجاز والجزيرة العربية كلها ، ثم ساعدته الظروف فبايعه العراق ومصر ومعظم أقاليم الشام . وكان معاويه بن يزيد قد بويع له فى دمشق ، فأصبح فى العالم الإسلامى خلافتان انقسمت بينهما الأمة الإسلامية ووقع الصراع بينهما نحو عشر سنوات .

فى الوقت الذى علا فيه شأن ابن الزبير فى الحجاز ، اضطربت الأمور فى الشام اضطرابا شديدا أوشك أن يقضى فيه على الحكم الأموى قضاء نهائيا ، فقد كانت الشام تضم عصبيتين : العصبية اليمانية وتمثلها قبيلة كلب ، والعصبية المضرية وتمثلها قبائل قيس ، وقد انضم الكلبيون والقيسيون على السواء إلى معاوية بفضل سياسته الحكيمة وفطنته التى مكنته من إيجاد التوازن بينهما ، واكتساب ودهما معا . ومع أن القيسيين كانوا يعتبرون يزيد كلبيا أكثر منه أمويا لأن أمه كانت كلبية ، فهى ميسون ابنة مالك بن بحدل زعيم قبيلة كلب وقد رجعت إلى قومها فتربى يزيد بينهم[1] ، إلا أنهم ظلوا أوفياء له طول مدة حكمه التى لم تدم إلا أقل من أربع سنوات[2] . وقد وجدت الدولة نفسها بعد موته فجأة من غير مدبر يسوس أمورها . وليس مرجع ذلك إلى أنه لم يكن له ولد يخلفه ، فقد كان له منهم عدة[3] ، وإنما لأن الخلافة لم تكن وراثية ، بل كانت انتخابية ، وعلى الرغم من أن معاوية كان قد استخلف يزيد ، فإنه حرص على أن يأخذ له البيعة من بعده ، فجرى مجرى الشورى من الناحية الشكلية ، ومع ذلك فقد سخط ذلك جماعة المسلمين ، ولم يسكتوا عليه إلا أمام قوة معاوية ونفوذه ، ولم تفسح الأيام ليزيد أن يأخذ البيعة لابنه بعد موته كما فعل أبوه من قبل ، ومن ثم لم تكن خلافة معاوية الثانى

---

(١) ديوان الحماسة : ٣١٩ .

(٢) مكث يزيد فى الحكم ثلاث سنوات وستة أشهر فى قول ، وثلاث سنوات وثمانية أشهر فى قول آخر . انظر الطبرى ٥/٤٩٩ .

(٣) أنظر الطبرى : ٥/٥٠٠ .

تستند إلى حق شرعى ، ومع ذلك فقد كان من الممكن أن ينجح فى الاعتراف بخلافته لو أيده أهل الشام كلهم ، ولكنهم لم يساندوه ، ويقال إنه هو بذاته كان راغبا عن الخلافة ، ومهما يكن فإن الحياة لم تمتد به طويلا ، فقد مات بعد أربعين يوما فى قول أو ثلاثة أشهر فى قول آخر[1] ، وقد كره القيسيون أن يخضعوا لنفوذ حسان بن مالك ابن بحدل والى فلسطين وإقليم الأردن فى خلافة معاوية ثم ظل يدير الأمر باسم ابن أخته يزيد طوال مدة خلافته . فأجمعوا أمرهم فى كل مكان على مناصبة الكلبيين العداء ، فانتقضوا على حكم بنى أمية ، وقاموا يبايعون لابن الزبير ، فقد ثار زفر بن الحارث بقنسرين وبايع لابن الزبير ، وكذلك بايع النعمان بن بشير بحمص ، ثار ناقل بن قيس واستولى على فلسطين وبايع لابن الزبير . وكان الضحاك بن قيس الفهرى على دمشق يهوى هوى عبد الله بن الزبير ، ولكنه لم يقطع برأى لأنه كان من قبل أحد ثقاة معاوية فلم يكن يرغب فى إخراج الخلافة عن الشام ، وكذلك لم يكن راغبا فى تأييد زعيم الكلبيين . ولم يكن يؤيد الحكم الأموى تأييداً حقيقيا فى الشام غير حسان بن بحدل ، وكانت الولايات فى الدولة كلها قد انتقضت على الحكم الأموى وانضم أكثرها إلى ابن الزبير . فلم يكن ابن بحدل يستطيع الاعتماد على غير إقليم واحد هو الأردن أصغر أقاليم الشام ، ولما كان ابن بحدل راغبا فى أن يسوق الخلافة إلى خالد بن يزيد ، فإن أهل الأردن اشترطوا عليه لكى يؤيدوه ألا يولى الخلافة أحداً من أبناء يزيد ؛ فإنهم حديثو السن وقد كرهوا أن يأتيهم الناس بشيخ ويأتوهم بصبى[2] . وكان على ابن بحدل أن يحسم موقف الضحاك بن قيس وبسبر ميول أهل دمشق ، فكتب إلى الضحاك كتابا يعظم فيه حق بنى أمية وحسن بلائهم عنده وصنيعهم إليه ، ويدعوه لطاعتهم ، ويذكر ابن الزبير ويقع فيه ويشتمه . وأمره أن يقرأ كتابه على الناس . ثم احتاط للأمر فزود الرسول بنسخة ثانية من الكتاب ، وأمره أن يقرأه إن لم يقرأ الضحاك الكتاب ، وكتب فى الوقت نفسه إلى بنى

---

(١) ابن الأثير : ٣/٣١٩ .

(٢) انظر الطبرى : ٥/٥٣١ — ٥٣٢ .

أمية أن يحضروا الجمعة في المسجد هناك . وقد حدث ما توقعه ابن بحدل ، فقد خطب الضحاك ولم يشر إلى رسالته بشيء ، فقام مبعوث ابن بحدل فقرأ الكتاب على الناس ، فتعالت الأصوات بعضها يصدق ابن بحدل ويشتم ابن الزبير وبعضها يشتم ابن بحدل ويثني على ابن الزبير ، وسفر الخلاف بين القيسيين والكلبيين وكادت تقع بينهم الفتنة(١) .

في الوقت الذي كانت هذه الأحداث تجرى في الشام ، كان ابن الزبير قد استحكم له الأمر في الحجاز وجاءه وفد من مصر فبايعه ، فولى على المدينة أخاه عبيدة ، وعلى مصر عبد الرحمن بن جحدم الفهري ، وأخرج بني أمية ومروان بن الحكم إلى الشام . وحين تقدم مروان إلى دمشق ووجد الأمور فيها مضطربة على ما ذكرنا ، عزم على الذهاب إلى مكة ومبايعة ابن الزبير ، ولكن الحصين بن نمير الذي كان قد عاد بجيشه من الحجاز رده عن عزمه ووعده بتأييده والوقوف إلى جانبه إن كن يجد من نفسه الشجاعة الكافية لحمل الراية الأموية من جديد ، وقدم عبيد الله بن زياد من العراق بعد أن اضطرب أمرها عليه ، فحرض مروان وشد من أزره ، فقبل مروان ما دعاه الرجلان إليه ، وعزم القوم على عقد مؤتمر في الجابية للتشاور في اختيار الخليفة ، وكتبوا إلى ابن بحدل وإلى الضحاك . أما ابن بحدل فلم يتأخر عن تلبية الدعوة ، وأما الضحاك فاستعد للذهاب ، ولكن بعض من معه لاموه على الاشتراك في المؤتمر لأن الكلبيين يريدون استخلاف ابن أختهم خالد بن يزيد ، وطلبوا إليه أن يعلن طاعته لابن الزبير ويقاتل عليها ، فمال الضحاك بمن معه الى مرج راهط فنزلها . وفي الجابية استطاع المؤتمرون أن يتفقوا على مبايعة مروان على أن تكون الخلافة من بعده لخالد بن يزيد ثم من بعده لعمرو بن سعيد بن العاص(٢) .

وحين تمت البيعة لمروان خرج بمن اجتمع له من قوات اليمانيين إلى لقاء الضحاك ابن قيس الذي اجتمع عليه القيسيون ، فالتقى الطرفان في مرج راهط حيث دارت بينهما

---

(١) الطبري : ٥/٥٣٢ — ٥٣٣ .

(٢) انظر الطبري : ٥/٥٣٠ — ٥٣٧ . ابن الأثير : ٣/٣٢٦ — ٣٢٨ . دوزى : ٨٦ — ٨٨ .

معركة شديدة انهزم فيها الضحاك وقتل ، وقتل من القيسيين مقتلة عظيمة . ونجا من المعركة زفر بن الحارث الذى استطاع أن يصل إلى قرقيسيا حيث تحصن بها واجتمعت عليه قيس (١) .

وقد كان لهذه الموقعة نتائجها الخطيرة ؛ فإنها هى التى فتحت باب العصبية بين القبائل العربية بعد الإسلام ، وخطت أول خطوط الصراع بين فروع العرب . وقد أتاحت هذه المعركة للبيت المروانى أن يقيم الخلافة فيه ، ولكنها من ناحية أخرى أقامت ذلك الصراع الذى قضى آخر الأمر على بنى أمية وعلى ملكهم . وأما نتائجها القريبة فإن الشام كلها عادت إلى حوزة بنى أمية ، ثم استطاع مروان بعد ذلك أن يضم إليه مصر وأن يطرد عنها عامل ابن الزبير (٢) .

وهكذا بقيت الخلافة فى بيت بنى أمية ، ولكن المروانيين أزاحوا السفيانيين عنها ، وقد تزوج مروان من فاختة أرملة يزيد أم خالد بن يزيد ، حتى يصغر من شأنه فلا يطلب الخلافة ، فآلم بذلك نفس خالد ، وكان مروان لا يبنى عن إسقاط خالد من أعين الناس ، ثم حرمه مما كان قد وعده به من جعل الخلافة له من بعده ، فأخذ البيعة لابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز من بعده ، وقد سكت عن ذلك حسان بن بحدل الذى كان من قبل متشددا فى تخليف خالد ، وذلك نكاية فى عمرو بن سعيد الذى كان يتحدث بأن الخلافة له بعد مروان . وقد انتقمت فاختة لابنها من غدر مروان وتعمده إسقاطه فى أعين الناس ، فانتهزت ليلة نام عندها فغطته بالوسادة حتى قتلته (٣) . وتولى الخلافة بعده ابنه عبدالملك .

انقسم العالم الإسلامى إلى قسمين كما كان الحال من قبل بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان ، ولكنه فى هذه المرة كان بين خليفتين : خليفة فى المشرق وله

---

(١) انظر الطبرى : ٥/٥٣٥ — ٥٤١ .
(٢) انظر النجوم الزاهرة : ١/١٦٥ — ١٦٢ .
(٣) انظر الطبرى : ٥/٦١٠ — ٦١١ .

الجزيرة العربية والعراق وما وراءه ومقره فى مكة ، وخليفة فى المغرب وله الشام ومصر ومقره دمشق . وشب الصراع بينهما كما كان الحال من قبل . وفى الوقت الذى كان فيه الخليفة الأموى فى المغرب يحكم أقاليم يسودها الهدوء إلى حد كبير ، وإن لم يكن على الصورة التى كانت عليها الحال فى أيام معاوية ، لظهور العصبية القبلية التى كلفت الخليفة بعضا من الجهد للتغلب على نزواتها ، كان عبد الله بن الزبير فى المشرق يواجه ظروفا عصيبة ، فقد اتخذ الحجاز مقرا لخلافته ، وكان الحجاز أقل الأمصار الإسلامية صلاحية لأن يكون قاعدة للدولة فى ذلك الوقت لقلة موارده الاقتصادية والبشرية ، فقد كانت موارده المالية تأتيه من الأقاليم الخارجية ، كما كانت العناصر السياسية النشيطة قد خرجت منه إلى الأمصار الإسلامية وبخاصة بلاد الشام والعراق ، وأصبح الحجاز مأوى للطبقة الأرستقراطية التى أبعدت عن شئون الحكم ، فاعتزلت السياسة ومالت إلى حياة الترف والنعيم لما تدفق عليها من مال وما ترك لها آباؤها من الثروة ، وقد فطن على بن أبى طالب إلى عجز الحجاز ، فانتقل إلى العراق حيث المال والرجال والكراع واتخذ الكوفة عاصمة لدولته ، ثم نقل الحاضرة معاوية بعد ذلك إلى دمشق ، ومن ثم أخذ أهل العراق يجاهدون لعودة حاضرة الخلافة إلى بلدهم ، بينما يجاهد أهل الشام للاحتفاظ بها . هذا إلى أن الحجاز كان مقر أبناء الصحابة وكان بعضهم لا يوافق على البيعة لعبد الله بن الزبير ، وبخاصة بنى هاشم الذين كانوا يرون أحقيتهم بالخلافة وكانوا لا ينسون لابن الزبير أنه خرج على على وقاتله فى موقعة الجمل بالبصرة ، ثم هم كانوا يعرفون تشجيعه للحسين على الخروج إلى العراق ليصفو له الحجاز ، ولذلك لم يبايع زعماء الهاشميين لابن الزبير وعلى رأسهم عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية وعلى زين العابدين بن الحسين وبايعوا ليزيد ، وكان لهذا أثره على ابن الزبير فى الحجاز ، كما كان له أثره بين الشيعة فى العراق .

وكذلك كان ابن الزبير يواجه ظروفا قاسية فى العراق . فإن أهل العراق كانوا

يهتمون فى المقام الأول بأن يجعلوا من بلادهم مركزا للدولة ، وقد حقق لهم على ابن أبى طالب هذه الرغبة حين نقل العاصمة إلى الكوفة ، ولكن الصراع بين على ومعاوية انتهى بفوز معاوية بالخلافة بعد مقتل على وتنازل الحسن ، وبهذا انتقلت الخلافة إلى الشام ، وكان لهذا وقع أليم فى نفوس أهل العراق ، فقد كانت الدولة لهم ، ثم نزل شأن بلادهم فصارت مصرا من الأمصار ، وأحسوا بالمهانة ورأوا فى سيادة الشام عليهم نيرا قاسيا يتوقون لطرحه عنهم إذا ما بدت لهم فرصة موانية . وقد واتتهم هذه الفرصة حين رأوا اختلال الأمور فى الشام بعد موت يزيد ، وقيام ابن الزبير بإعلان خلافته فى الحجاز .

وقد رأى أهل العراق أن العالم الإسلامى أصبح بين خليفتين ، أحدهما فى الحجاز وهو ابن الزبير ، والآخر بالشام وهو مروان بن الحكم ، وكان عليهم أن يختاروا طاعة واحد منهما . ولكنهم فى الحقيقة يكرهون البيعة لهما على السواء ، فبيعتهم لابن الزبير تعنى اعترافهم ببقاء العاصمة فى الحجاز ، وتعنى عودة السياسة التى جرى عليها عثمان[1] ، وفى بيعتهم لمروان استمرار للحكم الأموى فى العراق وهو الذى عانوا منه ما عانوا على يد زياد وابنه ، والذى كانوا يبغضونه ويتوقون للتخلص منه . فاختاروا أخف الضررين وبايعوا لابن الزبير ، ومع ذلك فإن البيعة كانت شكلية أكثر مما كانت صادرة عن نية مخلصة وبخاصة فى الكوفة التى كانت مركزا للشيعة ، ولم تكن بيعة الشيعة لابن الزبير إلا لأنه يعادى الأمويين الذين كان الشيعة يتوقون للانتقام منهم ، وبخاصة بعد مقتل الحسين ، ولذلك كانوا مستعدين للانضمام تحت لواء أى زعيم يحقق لهم هذه الرغبة ، هذا إلى أن

---

(١) قدم عبد الله بن مطيع الكوفة عاملا من قبل عبد الله بن الزبير فخطب الناس فقال : « إن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثنى على مصركم وثغركم ، وأمرنى بجباية فيئكم ، وألا أحمل فضل فيئكم عنكم إلا برضا منكم ، ووصية عمر بن الخطاب التى أوصى بها عند وفاته ، وبسيرة عثمان بن عفان التى سار بها فى المسلمين . . » فقام إليه بعضهم فقال « ألا يسار فينا إلا بسيرة على بن أبى طالب التى سار بها فى بلادنا حتى هلك رحمة الله عليه ، ولا حاجة لنا فى سيرة عثمان فينا ولا فى أنفسنا فإنها إنما كانت أثرة وهوى » الطبرى : ٦/١٠ — ١١ .

الكوفة كانت تضم عناصر مختلفة الهوى ، فيها الشيعة المخلصون لآل على ، والذين أحسوا بالإثم لأنهم خذلوا الحسين وعرضوه لما أصابه ، وفيها أولئك الذين اشتركوا فى دعوة الحسين إلى بلدهم ثم أمام مال بنى أمية وتهديدهم شاركوا فى قتال الحسين وقتله ، وبين هؤلاء وهؤلاء توجد العناصر الخوارجية الساخطة على أنواع الحكم القائم كله ، والتى تعادى فى الوقت نفسه الشيعة كما تعادى الأمويين . وتحقيق التوازن بين هذه الطوائف أمر بالغ الصعوبة ، وقد تأبى على ابن الزبير ، كما تأبى على المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى وجد فى الكوفة مجالا لتحقيق طموحه .

أما البصرة فقد أصبحت مسرحاً للعصبية القبلية من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت تشارك الكوفة ما فيها من تمزق بين الفرق ، ففيها شيعة ، وفيها عثمانية وكانت أكثر من الكوفة تعرضا للخوارج وهجماتهم عليها . وهكذا نرى الأقاليم التى كان يشملها حكم ابن الزبير إما ضعيفة عاجزة ، وإما ممزقة مضطربة ، هذا إلى تعارض رغبات أهل الحجاز وأهل العراق فى مركز الخلافة ، الحجازيون يريدون أن تكون الحاضرة فى بلادهم ، وأهل العراق يتوقون إلى إعادتها إليهم ، ولم يجمع هذه الأطراف المتعارضة إلا كراهيتهم جميعا لبنى أمية ، ومن ثم لم يقاتلوا بنى أمية بجهود منسقة ، بل إنهم لم يلبثوا أن تصارعوا فيما بينهم فى العراق ، فلم يشتتوا جهودهم فحسب ، وإنما حطموا قوتهم بأيديهم ، ولم يتركوا لخصومهم إلا الضربة الأخيرة للاتيان عليهم .

كان على العراق عند موت يزيد بن معاوية عبيد الله بن زياد ، فلما وصلت أنباء موت يزيد إلى العراق اضطرب الأمر فيه على عبيد الله ، ورأى أهل العراق أن الفرصة قد واتتهم للتخلص من الحكم الأموى ، وبخاصة بعد أن علموا باختلاف الناس فى الشام . وقد حاول عبيد الله بن زياد أن يثبت مركزه فى العراق فلم يستطيع ، فقد تمرد عليه أهل البصرة وخالفوا على أمره بعد أن كانوا قد بايعوه على أن يكون عليهم حتى يستقر الناس على خليفة ، ورد أهل الكوفة رسوله وأعلنوا خروجهم على الحكم الأموى كله ، واضطر إلى الاستجارة

بالأزد الذين كانوا من قبل قد أجاروا أباه زيادا حين فسد الأمر عليه فى عهد على بن أبى طالب، واستطاع أن يفلت سالما إلى الشام [١] . فأما أهل البصرة فقد اصطلحت قبائلهم المتنازعة على أن يولوا عليهم عبد الله بن الحارث من بنى عبد المطلب حتى يستقر أمر الخلافة ، ولـكن البصرة كانت إلى جانب العصبية القبلية المحتدمة فيها مهددة بالخوارج ، الذين أخذوا يتجمعون للهجوم عليها حين بلغتهم أخبار هروب ابن زياد ، وقد استطاعوا أن يهزموا قوات البصرة التى خرجت لقتالهم بقيادة مسلم بن عبيس القرشى عند مكان يسمى الدولاب بالقرب من الرى ، وأن يهزموا جيشاً ثانياً بقيادة عثمان بن معمر القرشى ، فخاف أهل البصرة أن يقتحم الخوارج المصر عليهم ؛ فـكتبوا إلى عبد الله بن الزبير يعلمونه أنه لا إمام لهم ويسألونه أن يوجه إليهم رجلا من قبله يتولى الأمر ، فوجه إليهم الحارث بن عبد الله ابن أبى ربيعة المخزومى الذى لم يجد من يصلح لحرب الخوارج غير المهلب بن أبى صفرة الذى كان على خراسان ، فـكتب إلى ابن الزبير يطلب إليه أن يكتب إلى المهلب أن يخاف على خراسان رجلا ويتولى حرب الخوارج ، واستجاب المهلب إلى طلب ابن الزبير ، فقدم البصرة وتولى حرب الخوارج [٢] ، وفى خلال قتال المهلب للخوارج ظهر عجز الحارث بن عبدالله ابن أبى ربيعة المخزومى فوجه ابن الزبير أخاه مصعبا إلى البصرة ، وقد شُغل مصعب بحروب الخوارج فترة طويلة ، فلم يشارك فى الأحداث التى وقعت بالـكوفة ، ولا فى الصراع الذى احتدم بين المروانيين وابن الزبير حتى سنة ٦٧ هـ ، وبذلك لم يتعاون مصرا العراق فى مواجهة الأمويين ، وكان ذلك فى صالح عبد الملك بن مروان .

أما أهل الـكوفة فإنهم بعد أن ردوا رسول ابن زياد أرادوا أن يؤمروا عليهم رجلا إلى أن يجتمع الناس على خليفة ، فاتفقوا على عمر بن سعد بن أبى وقاص ، لـكن الشيعة وبخاصة قبيلة همدان سخطوا ولايته لأنه كان قائد الجيش الذى قتل الحسين ، فاعتزل

---

(١) انظر ابن الأثير ٣/٣٢٠ — ٣٢٥ ، الدينورى : ٢٨١ — ٢٨٥ .

(٢) انظر الدينورى : ٢٧٠ — ٢٧٢ .

عمر بن سعد ، واجتمعوا على عامر بن مسعود القرشى وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير ، فأقره عليهم[١] ، فظل على ولايتها حتى عزله ابن الزبير وولى مكانه عبد الله بن يزيد الأنصارى على صلاتها ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة على خراجها[٢] . لكن أمر الكوفة لم يكن مستقيما لابن الزبير ؛ فإن الشيعة كانو منذ مقتل الحسين يتلاومون ، ويظهرون الندم ، ويرون أنهم قد أخطأوا خطأ كبيراً بدعائهم الحسين ، وتركه إلى جانبهم لم ينصروه ؛ ورأوا أنه لا يغسل عارهم والاثم عنهم فى مقتله إلا بقتل من قتله ، أو الموت فى سبيل ذلك ، ففزعوا إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة يطلبون إليهم أن يجمعوا أمر الشيعة على الثأر بدم الحسين ، ثم اجتمع أمرهم على سليمان بن صرد الخزاعى ، وأخذوا فى جمع الأنصار والأموال وإعداد السلاح ، وأخذوا يكاتبون إخوانهم فى البصرة ، والمدائن وغيرها ، ولم يزالوا على ذلك يعملون سراً حتى كان موت يزيد بن معاوية ، فاستجاب لهم جمع كبير ، فولوا رياستهم سليمان بن صرد وطلبوا إليه الوثوب على المصر وإعلان الطلب بدم الحسين وتتبع قتلته فى الكوفة ، لكن سليمان رأى أن الذين شاركوا فى قتل الحسين هم أشراف أهل الكوفة ، وفرسان العرب بها ، ومتى علموا بما يريد الشيعة بهم انقلبوا عليهم ، وأهلكوهم قبل أن يستجمع أمرهم ، ورأى أن يستمر فى الدعوة حتى يستحكم له الأمر . وبينما كان الشيعة يحكمون أمرهم على هذا النحو قدم الكوفة رجل طموح هو المختار بن أبى عبيد الثقفى[٣] .

والمختار بن أبى عبيد رجل من بيوتات ثقيف ؛ فأبوه أبو عبيد بن مسعود الثقفى أحد قواد الفتح الإسلامى فى العراق فى عهد عمر ، وكان عمه سعد بن مسعود عاملا على المدائن فى خلافة على والحسن[٤] ، وكان له فى الكوفة دار وضَيْعَة ، وقد نزل فى داره مسلم

---

(١) الطبرى : ٥/٥٢٤ .
(٢) نفس المصدر ٥/٥٢٩ . ابن الأثير ٣/٣٠٦ .
(٣) انظر الطبرى : ٥/٥٥٢ — ٥٦٠ .
(٤) الطبرى : ٥/١٩٧ .

ابن عقيل عند قدومه الكوفة ، فبايعه المختار وناصحه ودعا إليه من أطاعه ، وحين خرج مسلم حاول المختار أن يقف إلى صفه ، ولكن حركة مسلم فشلت ، ونال المختار من وراء ذلك أذى من عبيد الله بن زياد ، فقد ضربه وحبسه ، حتى استشفع له ابن عمر فخلى سبيله فقدم الحجاز محنقاً ، واتصل بعبد الله بن الزبير ، وساومه على أن يبايعه ويناصره على ألا يقضى ابن الزبير فى الأمور دونه ، وعلى أن تكون له المنزلة الأولى عنده ، وعلى أن يوليه أفضل عمله إن ظهر . وقد قبل ابن الزبير شروطه ، ووقف المختار معه وأبلى فى قتال الحصين بن نمير عند حصاره لابن الزبير فى مكة بلاء عظيما ، ولكن حين مات يزيد وبايعت مصر ، وأمصار العراق لابن الزبير أخلف شروطه للمختار ، فلم يستعمله على شىء فضغن عليه المختار ، وفارقه إلى العراق حين علم باضطراب الأمور فى الكوفة ، واجتماع الشيعة على الطلب بدم الحسين إذ رأى فى ذلك فرصة لتحقيق طموحه(١) ، وقد وافى قدوم المختار الكوفة قدوم عبد الله بن يزيد الأنصارى ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة من قبل عبد الله بن الزبير ، وكان أمر الشيعة قد اجتمع لسليمان بن صرد ، فادعى المختار أنه إنما جاء من قبل محمد بن الحنفية الذى دعاه المختار بالمهدى ، وأنه أرسله ليكون أميناً ووزيراً لآل البيت . وقد حاول المختار أن يضم الشيعة إليه ليتولى زعامة حركتهم لأن سليمان بن صرد فى رأى المختار ليس له بصر بالحروب ولا علم له بها ، وإنما هو يقتلهم ويقتل نفسه إن خرج . وانشعبت إليه طائفة من الشيعة تعظمه وتجيبه وتنتظر أمره ، ولكن عظم الشيعة مع سليمان بن صرد ، فكان سليمان أثقل خلق الله على المختار (٢).

وعلم عبدالله بن يزيد بتحفز الشيعة للخروج ، فرأى ألا يتعرض للاشتباك معهم وفضل أن يستفيد منهم ، فيدفعهم لقتال الأمويين الذين كانوا قد أرسلوا جيشاً بقيادة عبيد الله ابن زياد إلى الجزيرة لقتال زفر بن الحارث فى قرقيسيا ، ثم التوجه لانتزاع العراق من

---

(١) الطبرى : ٥/٥٦٩ — ٥٧٨ .

(٢) نفس المصدر : ٥/٥٦١ .

عمال ابن الزبير . وقد استطاع عبد الله بن يزيد أن يقنع الشيعة بفكرة التوجه لقتال ابن زياد ، وعرض أن يتحد معهم بقوات الكوفة ، لكنهم اكتفوا منه بأن أتاح لهم الفرصة ليستعدوا علانية لحرب عدوهم ، ولم يرغبوا فى أن يشاركهم غيرهم ممن كانوا يرونهم قد شاركوا فى قتل الحسين . وهذا يكشف عن مقدار ما كان بين أهل الكوفة من تفرق وحزازات . وخرج سليمان بن صرد بنحو خمسة آلاف رجل ممن أجابوا دعوته ، ولم ينتظروا أن يقدم عليهم من كاتبوهم من أهل المدائن وأهل البصرة . وفى طريقهم مروا بكربلاء حيث قبر الحسين ، وهناك أطافوا به يترحمون عليه ، ويصيحون : « يارب ، إنا قد خذلنا ابن بنت نبينا ، فاغفر لنا ما مضى منا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم » . ومن هذه الاستتابة أخذوا الاسم الذى أطلق عليهم وهو « التوابون[1] » ثم انطلقوا فمروا فى طريقهم بقرقيسيا حيث يتحصن زفر بن الحارث ، فلما علم بأمرهم أكرمهم وزودهم ، وعرض عليهم أن يدخلوا معه مدينته أو أن يخرج فيعسكر بقواته معهم خارجها ، فيقاتلوا معا إن قدمت عليهم قوات الشام ، ولكنهم أصروا على أن يتقدموا لعدوهم وحدهم فنصحهم بأن يسبقوه إلى عين الوردة يحتمون بها ، فإنهم مقدمون على عدو أكثر منهم عدداً ، وأشار عليهم بخطة القتال ، ففعلوا ما أشار به . وفى عين الوردة التقت قواتهم بطلائع قوات ابن زياد ، وقد قاتل التوابون فى بسالة رائعة ، ولكن العدو كان متفوقا فقتل التوابون بعد أن قتل سليمان بن صرد وكثير من الرؤساء غيره ، ولم يتراجع منهم إلا عدد قليل ، عادوا إلى الكوفة حيث التقوا فى الطريق بالقوات التى قدمت من البصرة والمدائن بعد فوات الأوان[2].

وحين خرج سليمان بن صرد ومن معه خشى أشراف الكوفة أن يثب المختار بها ، وأشاروا على الوالى أن يقبض عليه ويسجنه ، حتى يستقيم أمر الناس ، وقد نفذ الوالى

---

(١) انظر الطبرى ، ٥/٥٨٩ .

(٢) انظر الطبرى ٥/٥٨٤ — ٦٠٥ ؛ ابن الأثير ٣/٣٤٠ — ٣٤٦ .

بما أشاروا به ، وأودع المختار السجن . وحين عادت فلول التوابين وجد المختار أن فرصته قد حانت ليتولى زعامة الشيعة بعد أن قتل سليمان بن صرد ، فأخذ يكاتبهم من سجنه ويتصل بهم ، ويزعم لهم أنه المبعوث لتولى زعامتهم ، وأنه قد نصح فلم يسمعوا نصحه من قبل فأصابهم ما أصابهم . ثم كتب لابن عمر فاستشفع له لدى الوالى نخلى سبيله بعد أن أخذ عليه العهود ألا يخرج على مادام واليا على الكوفة . فلما خرج المختار من السجن اجتمعت إليه الشيعة وعظم أمره لديهم(١) .

وساءت سيرة عبد الله بن يزيد ، ومحمد بن إبراهيم بن طلحة فى الكوفة فعزلهما ابن الزبير وولى عليها عبد الله بن مطيع العدوى ، فتخلص المختار من قسمه الذى قطعه لهما ، وأخذ جمعه يشتد ، واستجاب له عدد كبير ، وبخاصة من همدان ، كما انضم إليه عشرون ألف رجل من أبناء العجم وكانوا يسمون بالحمراء (٢) . ورأى المختار أن يضم إليه رجلا له مكانة عظيمة وعشيرة قوية فى الكوفة هو إبراهيم بن الأشتر ، فزور كتابا على لسان محمد بن الحنفية يدعو فيه إبراهيم إلى الانضمام للمختار ومؤازرته فى الطلب بدم الحسين . وقد استجاب ابن الأشتر بعد أن جاء له المختار بمن شهد بأنه رأى محمداً ابن الحنفية حين كتب ذلك الكتاب ، وبانضمام ابن الأشتر إلى المختار قوى أمره واستطاع أن يثب على عبد الله مطيع ، ويحاصره فى قصر الإمارة ويجبره على الخروج من الكوفة بعد أن أعطاه مائة ألف درهم من بيت المال . وبذلك غلب المختار على الكوفة ودانت له البلاد التابعة لها إلى حدود الجزيرة ، ووجه عماله فى الآفاق : على الموصل وأذربيجان وهمذان وأصبهان وقم وحلوان ، والرى وغيرها ، وقد خرجت هذه البلاد من سلطان ابن الزبير(٣) .

---

(١) انظر الطبرى : ٥/٥٨١ — ٥٨٢ ، ٦/٨ — ٩ .

(٢) الدينورى : ٢٨٨ .

(٣) نفس المصدر : ٢٨٨ — ٢٩٢ .

وهكذا لم يعرف ابن الزبير كيف يستفيد من مثل هذا الرجل الداهية القوى فجعله حربا عليه ، وأظهر بذلك عجزاً فى الرأى عن خصمه عبد الملك بن مروان الذى عرف كيف يستفيد من قدرات رجل ثقفى آخر هو الحجاج بن يوسف ، وعن معاوية الذى عرف كيف يستفيد من المغيرة بن شعبة الثقفى ، ومن زياد بن عبيد الثقفى أيضاً الذى استلحقه بنسبة ، وقد جنى ابن الزبير ثمار هذا العجز حربا عليه وإضعافا لقوته فى العراق ، ولم يعرف كيف يعالج هذا العجز عن طريق استمالة المختار بعد أن ظهر أمره ، فيوحد قوته فى البصرة مع قوة المختار فى الكوفة ، بل إن الأمر تطور إلى أن تصطدم القوتان ويكون الرابح آخر الأمر عبد الملك بن مروان .

ولكى يرضى المختار عواطف الشيعة ويجمعهم عليه تتبع كل من شاركوا فى حرب الحسين يهدم دورهم ويقتل من وصل إلى يده منهم . وإذا كانت هذه السياسة التى اتبعها المختار قد أفادته فى جمع الشيعة حوله ، فإنها نفرت منه زعماء الكوفة وكثيرا من عشائرهم ، كما أضاف المختار إلى هذا سببا آخر نفر القبائل العربية منه ، ذلك أنه قرب الموالى وفرض لهم ولأولادهم الأعطيات ، وباعد عنه العرب وأقصاهم وحرمهم ، وحين عاتبه أشراف الكوفة فى ذلك ، قال إن العجم أطوع له منهم وأوفى وأسرع إلى ما يريد . وبذلك خلق من القبائل العربية أعداء له فى الكوفة . ثم سير جيشا لقتال عبيـد الله بن زياد الذى كان فى ذلك الوقت مشغولا بقتال زفر بن الحارث ، لكن هذا الجيش هزم عند نصيبين ، فسير المختار جيشا آخر بقيادة إبراهيم بن الأشتر جله من أبناء الفرس ، فالتقى بجيش عبد الملك بن مروان الذى كان يقوده الحصين بن نمير وعبيد الله بن زياد عند نهر الخازر ، فانتصر عليهم ، وقتل عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير وكثير من زعماء جيش الشام . وأرسل رأس عبيد الله والحصين وغيرهما ممن شاركوا فى حرب الحسين إلى الحجاز حيث نصبت فى مكة وبذلك دانت بلاد الجزيرة للمختار ، وأقام عليها عماله(١) .

وقد أغضبت سياسة المختار نحو الموالى القبـائل العربية كما قلنا فأجمعت على حربه ،

---

(١) انظر الدينورى : ٢٩٢ — ٢٩٧ .

فاجتمعت كندة والأزد وبجيلة وخثعم وقيس وتيم الرباب وربيعة وتميم ، ولم يبق مع المختار غير همدان والأعاجم الذين التفوا حوله والذين بلغ عددهم أربعين ألف رجل . وقد حرضهم المختار بأن قال لهم : « إنهم لم يفعلوا ذلك إلا لتقديمي إياكم ، فكونوا أحرارا كراما » واستطاع المختار أن يهزم القبائل المتجمعة بعد أن أقنع قبائل ربيعة ، فاعتزلوا ولم يقاتلوا ، وهرب أشراف الكوفة إلى البصرة وانضموا إلى مصعب . وقد تتبع المختار الزعماء الذين كانوا قد فروا منه فأوقع بهم ؛ فقتل عمر بن سعد ، وشمر بن ذى الجوشن ، وقيس بن الأشعث وغيرهم ممن شاركوا فى قتل الحسين . وقد بلغ عدد الهراب من الكوفة نحو عشرة آلاف رجل انضموا إلى مصعب وحرضوه على قتال المختار ، فزحف إليه بقوات البصرة ، بعد أن استقدم إليه المهلب الذى هادن الخوارج وأقبل ، واستطاع مصعب أن يهزم قوات المختار وأن يدخل الكوفة ، ويحاصر المختار ويقتله . وقد ارتكب مصعب كثيراً من القسوة ؛ فقتل ستة آلاف ممن كانوا محاصرين مع المختار ، ولم يعف من قسوته حتى النساء ، فقد قتل امرأة المختار ، وهى بنت النعمان بن بشير الأنصارى لأنها رفضت أن تتبرأ من زوجها[1] . وهكذا ضربت قوات العراق بعضها بعضا ، وخسرت كثيراً من رجالها وأشرافها ، وترك ذلك حزازة شديدة فى النفوس ، فأضعف ذلك جبهة العراق كلها ، وأتاح هذا الصراع لعبد الملك فرصة لأن ينظم نفسه ، ويجمع قواته ويتخلص من المشاكل التى كانت تواجهه فى الداخل ، فقد تخلص من عمرو بن سعيد بن العاص الذى خرج عليه[2] ، كما هادن الروم الذين نقضوا السلام وحرضوا الجراجمة على العصيان[3] . وسير قواته لقتال مصعب الذى تقدم لقتاله وصفوفه مزعزعة على ما رأينا ، واستطاع عبد الملك أن يستميل إليه الزعماء فى جيش مصعب الذى أظهر عجزاً فى الرأى برغم شجاعته ، فقد أشار عليه إبراهيم بن الأشتر ، الذى كان قد انضم إليه بعد مقتل المختار ، أن يقبض على

(١) الدينورى : ٢٩٩ـ٣٠٩ .
(٢) ابن الأثير : ٤/٣٩٧ .
(٣) نفس المصدر : ٣/٤٠٠ .

هؤلاء الزعماء وأن يحبسهم ، فلم يقبل مصعب ؛ فعرض بذلك نفسه لخيانتهم وقت القتال ، فقد غدر هؤلاء الزعماء فلحقوا بعبد الملك ، كما اعتزلت قبائل ربيعة القتال فى أثناء المعركة وكانت فى ميمنة مصعب ، وبذلك هزم مصعب ، ولم يقبل الأمان الذى بذله له عبد الملك وفضل أن يموت فى ميدان القتال ، وكذلك قتل معه إبراهيم بن الأشتر . وبانتهاء هذه المعركة فى دير الجاثليق سنة ٧١ هـ سقط العراق كله فى يد عبد الملك وبايعه أهله ، ودخل عبد الملك الكوفة ، وفرق أعمال العراق والمصرين الكوفة والبصرة على عماله(١) .

وبضياع العراق من يد عبد الله بن الزبير لم يبق فى يده غير الحجاز ، وقد رأينا كيف أن الحجاز لم تعد به قوة تستطيع الصمود فى وجه أى غزو من الخارج ، كما لم يكن فى استطاعته أن يصمد على الحصار الطويل لأن موارده الاقتصادية كانت تأتيه من الخارج . وأصبح مصير ابن الزبير مقرراً . وقد وجه إليه عبد الملك قوة من ألفين بقيادة الحجاج ابن يوسف الثقفى ، فزحف إلى الحجاز سالكا طريق العراق ، متجنبا المرور بالمدينة ، لأنه لم يشأ أن يتعرض لها مرة أخرى بعد موقعة الحرة ، ووصل إلى الطائف فنزل بها وأخذ يبعث البعوث إلى عرفة ، فتقتتل مع قوات ابن الزبير التى لم تستطع الصمود لها فى كل اللقاءات . وبذلك أدرك الحجاج ضعف قوة ابن الزبير ، فكتب إلى عبد الملك يستأذنه فى حصار ابن الزبير ودخول الحرم ويستمده ، فأذن عبد الملك له وأمده بقوة من خمسة آلاف ، فحاصر الحجاج مكة فى ذى القعدة من سنة ٧٢ هـ ولم يشأ أن يهاجمها حتى ينقضى الحج(٢) ، فلما انقضى الحج ، أخذ يرمى مكة بالمنجنيق ، ولم يستطع أهل مكة الصمود للحصار فتفرقوا عن ابن الزبير ، وخذلوه وخرجوا إلى الحجاج يطلبون أمانه ، ولم يقبل ابن الزبير أن ينزل على الأمان وقاتل حتى قتل(٣) . وبذلك انتهت أكبر محاولة قام بها الحجاز لاسترداد الخلافة . ولا يذكر المؤرخون خلافة ابن الزبير مع أنه فى الواقع كان

---

(١) انظر الطبرى : ٦/١٥٦ — ١٦٠ .

(٢) انظر الطبرى : ٦/١٧٤ — ١٧٥ .

(٣) انظر الطبرى : ٦/١٨٧ — ١٩٢ .

خليفة على مذهب الشورى ، وكان ملكه أوسع بكثير من ملك معاوية الثانى وملك مروان وملك عبد الملك فى أول أمره ، فهم إذن لا يعترفون بخلافته ويكادون يعدونه عاصيا داعيا إلى الفتنة ، ومن هذا نستطيع أن ندرك أن كتب التاريخ حين تذكر تتابع الخلفاء تتأثر بمصير النصر الذى استقر للبيت الأموى أيام عبد الملك ، مع أن ابن الزبير بويع بمكة أيام يزيد بن معاوية بعد موقعة كربلاء ، وكان يستمر فى حمل لواء المبادىء التى نادى بها الحسين ، وهى المبادىء التى سار عليها الأولون ، وكان يستنكر التوريث المقنع الذى نقل الخلافة من معاوية إلى يزيد ، فبايعه لذلك كثير من الناس ، وأجمع على بيعته أهل الحجاز جميعا ، ثم بايعه أهل العراق ، وكذلك بايعته أقاليم الشام ما عدا الأردن . وبايعته كذلك مصر ، فكان عبد الله بن الزبير عقب وفاة يزيد بن معاوية يملك كل العالم الإسلامى ، ماعدا جند الأردن ، إلا أن جند الأردن بزعامة مروان بن الحكم الذى كان شيخ بنى أمية فى ذلك الوقت استطاع أن يقف أمام أنصار ابن الزبير فى موقعة مرج راهط ، وقد اعتمد مروان فى هذه الموقعة وفى جمع الأنصار على الدافع القبلى ، فكانت هذه الوقعة نقطة ابتداء لصراع العصبيات العربيـــة ، وهو صراع امتد إلى نهاية الدولة الأموية واستنفدت فيه قبائل العرب كل قوتها ، حتى أصبحت فى آخر أيام بنى أمية غير صالحة لتصدر أحوال العالم الإسلامى فحل محلها الفرس ، وبهذا الثمن الفادح استطاع مروان أن يحفظ الخلافة فى البيت الأموى .

وبموت عبد الله بن الزبير اختفى آخر أنصار الشورى وأصبح الجو مهيئا لأنصار الوراثة ، وبموته كذلك انتهى الدور الأساسى فى مشاركة الحجاز فى حياة العالم الإسلامى من الناحية السياسية مشاركة ذات أثر ، وإنما أصبح مطمحا لذوى الطموح ممن يرغبون فى تعزيز مركزهم الأدبى ، أو ملجأ لبعض المضطهدين من العلويين الذين نفسوا عن ضيقهم لما يقع عليهم من الظلم .

والحركات التى ظهرت فى الحجاز بعد ذلك إما كانت غزوا يأتيه من الخارج ، وإما ثورات قام بها العلويون ، ولم يكن فى الحقيقة اعتمادهم فيها على الحجاز فى ذاته ،

وإنما كان تضامنا مع العراق ، أو كانت ثورات دفع إليها الضيق والإحساس بالظلم ونتيجة للإخراج .

والغزو الخارجي الذي وجه إلى الحجاز كان في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين وقد قام به رجل من الخوارج هو أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي من الخوارج الإباضية ، وكان إباضية البصرة قد بذروا بذورا دعوتهم في جنوب الجزيرة العربية ، وكانوا يرسلون دعاتهم إلى مكة في موسم الحج لنشر مبادئهم منتهزين فرصة تجمع الناس في الموسم يثيرونهم على بني أمية ، فالتقى أبو حمزة مع رجل من حضرموت ، يدعى عبد الله بن يحيي من قبيلة كندة كان ثائراً على جور حكام بني أمية ، فانضم إليه أبو حمزة وخرج معه إلى حضرموت حيث بايعه الخوارج خليفة بها ولقب بطالب الحق ، ودعا إلى خلاف مروان وآل مروان[1] . وحين تم له الأمر بحضرموت زحف على اليمن فانتصر على واليها واحتل صنعاء ، واستطاع بما أظهره من لين الجانب أن يمتلك قلوب أهل اليمن حين أظهر لهم أنه لا اختلاف بين مذهب الخوارج ومذهب أهل السنة والجماعة من حيث الجوهر ، إلا أن الخوارج يشتدون على مرتكبي الذنوب التي نص عليها القرآن ، فعظم أمره وانضم إليه كثير من الخوارج جاؤوه من مختلف الأصقاع[2] فأرسل جيشا بقيادة أبي حمزة يتألف من نحو سبعمائة رجل فقدم مكة في موسم الحج عام ١٢٩ هـ ، وكان على الحج في ذلك العام عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك والي المدينة ، فلم يتعرض لأبي حمزة وعقدت هدنة بين الطرفين حتى ينتهي موسم الحج ، وما كاد الموسم ينتهي حتى ترك الوالي مكة إلى المدينة ، فاستولى أبو حمزة على مكة بغير قتال ، وسير عبد الواحد جيشا بقيادة عبد العزيز ابن عبد الله بن عمر بن عثمان الأموي فيه عدد كبير من رجال قريش ، فالتقى مع أبي حمزة بقديد فدارت الدائرة على قوات المدينة ، وقتل من رجالها سبعمائة جلهم من قريش ، ويصف المؤرخون رجال جيش المدينة بأنهم كانوا مترفين ليسوا بأصحاب حرب ، الأمر

---

(١) الطبري : ٧/٣٤٨ .

(٢) فلهوزن — الخوارج والشيعة : ١٣٨ ، ١٣٩ .

الذى يكشف عن أن أهل الحجاز كانوا قد فقدوا مميزاتهم الحربية ، وغرقوا فى النعيم بحيث لم تعد بهم قدرة على الصمود حتى لقوة صغيرة كقوة أبى حمزة ، فإن القوة التى واجهت هذا الجيش كانت لا تزيد على أربعمائة رجل . والواقع أن الحجاز وبخاصة مكة والمدينة كان يتلقى ثروات طائلة يفيضها خلفاء بنى أمية على أشراف المدينتين ، فإنهم حين أبعدوهم عن الحكم أغرقوهم بالمال فجرهم هذا إلى حياة البطولة والترف حتى أصبحت المدينة مقراً للطبقة المترفة ومتجها لكل من يريد حياة الدعة والنعيم . وتقدم أبو حمزة فاحتل المدينة فبقى بها ثلاثة أشهر ، ولم يكن بد لكى يخرج منها من الالتجاء إلى الاستعانة بقوة من خارج الحجاز ؛ فسير مروان بن محمد جيشا من أربعة آلاف زودهم بعدة قوية وأجزل لهم العطاء ، فالتقوا بالخوارج الذين خرجوا إليهم فى وادى القرى ، فهزم الخوارج وقتل معظمهم وفر أبو حمزة إلى مكة حيث داهمه جيش الشام وقضى على من معه وقتله ، ثم واصل الزحف إلى اليمن ، فاستولى على صنعاء بعد حصار لم يدم طويلا ، ثم استولى على حضرموت ، وبذلك قضى على دولة « طالب الحق »(١) . وهكذا نرى الحجاز يفقد فاعليته من الناحية العسكرية ، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه إلا بقوة خارجية ، ومن ثم تضعف قيمته السياسية ، ويصبح إقليما عاجزاً من أقاليم الدولة ، وكل ما بقى للحجاز من قيمة فى هذه الناحية هو مركزه الدينى الذى كان يجعل أنظار الحكام تتجه إليه على اعتبار أن امتلاكه يعطى للحاكم قوة أدبية باعتباره صاحب الحرمين .

وإذا كان الحجاز قد خضع للحكم الأموى بعد مقتل ابن الزبير ولم تقم به حركة مناهضة للحكم الأموى ، فإنه كان المقر الذى أقام به العلويون بعد مقتل الحسين ، وقد قلنا من قبل إن الطالبيين أصيبوا بنكبة خطيرة فى كربلاء ولم ينج من ولد الحسين بن على إلا ابنه على الذى عاد مع نساء آل البيت إلى المدينة ، وكان حدثا تركت معركة كربلاء فى نفسه أثراً كبيراً فلم يفكر فى المشاركة فى الأحداث السياسية وشغل نفسه بالعلم والعبادة حتى لقب بزين العابدين ولقب بالسجاد ، وعاش فى الحجاز لا يشارك فى الأحداث السياسية ، فاعتزل

---

(١) انظر الطبرى : ٣٤٨/٧ — ٤٠٠ .

ثورة المدينة ، ولم يخلع بيعة يزيد ، ولم يظاهر على بنى أمية . بل إنه ضم حرم مروان ابن الحكم إليه[1] . ووقف تجاه الدولة الأموية موقفا سلميا ، وإن لم يحل ذلك دون ملاحقتها له بالأذى ، ومحاولتها الحط من منزلته[2] . وكان يرى الأخذ بالتقية فكان يقول « التارك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كنابذ كتاب الله وراء ظهره إلا أن يتقى تقاة ، قيل وما تقاته ؟ قال : يخاف جبارا عنيدا أن يفرط عليه أو أن يطغى »[3] . وقد تبع أثر على زين العابدين ابنه محمد الباقر ، ويبدو أن أئمة الشيعة فى ذلك الوقت أدركوا بعد فشل ثورة التوابين والقضاء على المختار بن أبى عبيد فى العراق ، أن الثورات المحلية المسلحة لا تجدى نفعا ما دامت الدولة الأموية تعزز سلطانها بالجند والمال ، لذلك التزموا السكون وأشاعوا بين أتباعهم التزام الهدوء أمام الأحداث الجارية مهما بلغت من العنف والقسوة ، ومن أجل ذلك وقف الشيعة موقفا يكاد يكون سلبيا بالنسبة للأحداث السياسية فلم يشاركوا فيها مشاركة ظاهرة . لكن زيداً بن على زين العابدين خالف هذه السياسة ، ورأى أن يتبع المثل الذى ضرب به جده الحسين ، وهو مقاومة السلطان الظالم بالقوة ، وقد انقسم الشيعة فريقين ، فريق تبعه ، وفريق تبع أخاه محمدا الباقر وتكونت الشيعة الزيدية ، والشيعة الإمامية ، وقد سلك الإمامية مسلك على زين العابدين فى تحصيل العلم والدعوة السلمية ، وسلكت الزيدية مسلك الجهاد ، وكانت كل الثورات التى قامت ضد الحكم الأموى ثم العباسى ثورات زيدية . وكانت أولى هذه الثورات الثورة التى قام بها زيد بن على نفسه فى الكوفة على حكم هشام بن عبد الملك فى عام ١٢١ — ١٢٢هـ ، وقد فشلت هذه الثورة وقتل زيد بن على[4] وفر ابنه يحيى إلى خراسان ، حيث خرج بها فى عام ١٢٥هـ ، ولكنه قتل كذلك[5] .

---

(١) ابن قتيبة ٢/٢٠٨ .

(٢) الأغانى ١٤/٧٦ (طبعة ساسى) .

(٣) ابن سعد الطبقات ٥/١٥٨ (طبعة ليدن) .

(٤) انظر مقاتل الطالبيين : ١٢٧ — ١٤٤ . الطبرى : ٧/١٦٩ — ١٩٠ ناجى حسن ثورة زيد بن على : ٥٩ وما بعدها .

(٥) مقاتل الطالبيين : ١٥٣ — ١٥٨ . ابن الأثير ٤/٣٤٩ — ٢٦٠ .

وكان لثورة زيد وابنه يحيى آثار خطيرة على البيت العلوى نفسه وعلى الدولة الأموية كذلك ، فأما آثارها على البيت العلوى فقد أصيب هذا البيت بكارثة خطيرة بعد كارثة كربلاء ، فأضعف ذلك من قوته ، ومكن لفرع آخر من فروع البيت الهاشمى هو الفرع العباسى ، أن يظهر على مسرح الأحداث ويتولى رياسة آل البيت . وقد كان العباسيون ينضوون تحت اسم الشيعة باعتبارهم من آل البيت ، لكنهم لم يتعرضوا لما تعرض له آل أبى طالب من المحن ، بل إنهم وقفوا خلف العلويين وكانوا ينظرون إلى مجرى الأحداث فيستفيدون منها ، وقد رأينا من قبل كيف أن عبد الله بن عباس ترك عليا حين أحس بأفول نجمه ، وعاد إلى مكة بعد أن حمل ما فى بيت مال البصرة ، وكيف أن أخاه عبيد الله ابن عباس ترك قيادة الجيش بعد أن أعطاه معاوية ألف ألف درهم فتخلى عن الحسن ، ولم يظهر من العباسيين أى نشاط فى المجال السياسى ، ولم يبد لهم مطمح فى الخلافة منذ ظهورها إلى أن استقر الأمر لبنى أمية ، فلما ضعف البيت العلوى على هذا النحو وكان عبد الله بن عباس قد احتل مركزا كبيرا بين المسلمين بصفته عالما ومحدثا ، وكان العباسيون قد استفادوا من التجارب التى مر بها آل البيت ، فإنهم قد طمعوا فى الدعوة لأنفسهم ، ولكنهم اتخذوا طريق الدعوة السرية وأحكموا تنظيمها مستغلين عواطف الشيعة نحو آل البيت ، فاتخذوا من مقامهم فى الحميمة من أعمال البلقاء مركزا لتنظيم الدعوة السرية فى العراق وخراسان وبخاصة بين الموالى ، الذين كانوا قد مالوا إلى الحزب الشيعى منذ ثورة المختار . وقد رأينا كيف أن يحيى بن زيد قد فر إلى خراسان ، وأعلن الثورة فيها على الأمويين ، ومع أن يحيى فشل كما فشل أبوه من قبله ، إلا أن ثورتيهما مهدتا الطريق بصورة غير مباشرة للقضاء على الدولة الأموية وانتصار الدعوة العباسية ، فقد تحركت الشيعة بخراسان وكثر من يأتيهم ويميل إليهم ، وأخذوا يذكرون الناس أفعال بنى أمية وما نالوا من آل الرسول ، وبلغ من محبة الخراسانيين لزيد ويحيى أنه لم يولد لهم ولد فى ذلك الوقت إلا أسموه زيدا أو يحيى[1] وقد استغل العباسيون حب الخراسانيين فنشروا

(١) اليعقوبى : ٢/٣٩٢ (طبعة ليدن سنة ١٨٨٣) .

دعوتهم مطالبين بالحكم للرضا من آل محمد ، ولم يظهروا نياتهم حتى ينتفعوا بحب الشيعة ، وحتى لا يثيروا على أنفسهم معارضة العلويين وقد نجحت الدعوة العباسية فى خراسان بقيادة أبى مسلم الخراسانى ، وقضت على قوات الدولة الأموية ، ثم قامت الخلافة العباسية ، واستولى العباسيون على الحكم وأعلنوا أحقيتهم بالخلافة دون أبناء على ، وأدى ذلك إلى انشقاق آل البيت على أنفسهم ، فلم يجز العلويون منذ بدء الأمر هذا الاختيار لإمام من آل البيت يكون عباسيا ، واعتبروا أنفسهم أحق بالخلافة ، وأن العباسيين قد خدعوهم ، وانتفعوا بجهودهم ، ولذلك ظل العلويون فى مركز المعارضة للعباسيين ، كما كانوا فى عهد الأمويين ، وتتبع العباسيون العلويين يطاردونهم ويضطهدونهم بصورة أشد وأقسى مما كان فى عهد بنى أمية .

وكان أول من تتبع العلويين هو أبو جعفر المنصور ، وكان أخشى ما يخشاه منهم محمداً بن عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وأخاه إبراهيم ، وكان محمد من أفضل أهل بيته وأكبر أهل زمانه علما وفضلا ، حتى كان الناس يلقبونه بالمهدى ، ويقال إن بنى هاشم جميعا بايعوه بالإمامة حين اضطرب الأمر على مروان بن محمد ، واجتمع بنو هاشم للتشاور فى الأمر فلما نجحت الدعوة وتولى العباسيون الخلافة حرص السفاح والمنصور على الظفر بمحمد وإبراهيم لما فى أعناق العباسيين من البيعة لمحمد ، فاضطر وأخوه إلى التوارى ، والتنقل من مكان إلى آخر والمنصور يجد فى طلبهما ، ولما أعجزه القبض عليهما ، قبض على بنى الحسن جميعا ، وحبسهم[1] وأدى هذا إلى تصميم محمد وإبراهيم على الخروج على المنصور ، على أن يخرج محمد بالحجاز ، ويخرج إبراهيم بالكوفة . وفى الحجاز دعا محمد لنفسه ، وأخذ يكاتب الأقاليم سرا ، واستطاع المنصور أن يعرف مقر محمد فسير إليه فى الحجاز جيشا . وحين علم محمد بقدوم قوات المنصور استشار الناس فى الخروج عن المدينة أو البقاء بها ، فأشار عليه بعضهم بالخروج إلى مصر ، وقال له : أنت فى أقل بلاد الله

---

(١) ابن الأثير : ٤/٣٧٣ — ٣٧٥ .

فرسا وطعاما ، وأضعفه رجلا ، وأقله مالا ، وسلاحا ، تريد أن تقاتل أكثر الناس مالا ، وأشده رجلا ، وأكثره سلاحا وأقدره على الطعام ؟ الرأى أن تسير عن اتبعك إلى مصر فتقاتل بمثل سلاحه وكراعه وماله . لكن أهل المدينة استمسكوا به ، وطلبوا إليه البقاء بها ، فإنها كما قال النبي فى رأيهم درع حصينة[١] . ولم يقو محمد عن معه على الصمود لقوات المنصور ، فقتل وهزم أصحابه . وقد أكد هذا الموقف أن الحجاز أضعف من أن يكون مقراً لحركة ناجحة ، كما صوره من أشار على محمد بالخروج من المدينة . كما كشف عن رغبة الحجازيين فى إعادة السلطان للمدينة ، مما جعلهم يتمسكون ببقاء محمد النفس الزكية فيها[٢] . وكما فشلت حركة محمد فى الحجاز فشلت حركة إبراهيم فى الكوفة ، ولكن حركة إبراهيم كانت أشد وأقوى من حركة محمد لولا ما كان من طبيعة فى أهل العراق من النكوص بعد الإقدام والتفرق بعد الاجتماع[٣] .

وظل الحجاز بعد ذلك ساكنا تحت الحكم العباسى ، فلم تظهر فيه حركة مناوئة ، حتى كان عام ١٦٩ هـ . فاختلف بعض بنى الحسن مع والى المدينة من قبل المهدى العباسى فثار الحسين بن على بن الحسن الحسنى ، واقتتل وأنصاره مع الوالى ، ثم خرج من المدينة بعد أن لم يجد من أهلها رغبة فى نصره ، ورحل إلى مكة حيث اصطدم مع بعض قوات العباسيين فى وادى « فخ » خارج مكة ، فأوقع بهم هؤلاء مقتلة شبيهة بمقتلة كربلاء ، إذ قتل منهم أكثر من مائة ، وفر من هذه الموقعة يحيى بن عبد الله الحسنى وأخوه إدريس فأما يحيى فقد اتجه إلى المشرق، حيث دخل بلاد الديلم ، وأما إدريس فقد اتجه إلى المغرب حيث وصل إلى الشمال الأفريقى فاجتمع عليه البربر ، وأقام دولة عرفت بالدولة الإدريسية[٤] .

---

(١) مقاتل الطالبيين : ٢٦٨ .

(٢) انظر مقاتل الطالبيين : ٢٥٧ — ٢٧١ . الطبرى : ٥٥٢/٧ ومابعدها . ابن الأثير : ٥/٥ .

(٣) انظر ابن الأثير : ٥/٥ — ١٣ .

(٤) انظر مقاتل الطالبيين : ٤٣٥ — ٤٥٥ الطبرى : ١٩٢/٨ — ٢٠٣ ابن الأثير : ٧٤/٥ — ٧٦ .

وهكذا تضاءل شأن الحجاز فلم تعد له قدرة على المشاركة فى أية حركة سياسية . وكان تحول الخلافة عن الحجاز أمراً طبيعيا ، فقد اتسع نطاق الدولة بعد حركة الفتوح فانضافت إليها أقاليم خارج الجزيرة العربية أكثر غنى وأعظم من أقاليم الجزيرة العربية الفقيرة ، كما استتبعت حركة الفتح وتمصير الأمصار أن انتقلت قوة الجزيرة البشرية إلى هذه الأمصار لترابط فيها للدفاع عن الدولة وإقرار سلطانها ، ولتسد ثغورها وتمد فتوحها ونفوذها ، كما انتقلت إليها العناصر صاحبة الطموح المادى لما فى هذه الأقاليم المفتوحة من من فرص للاثراء والحياة الميسرة . وأدى ذلك إلى خلو أقاليم الجزيرة من قوتها البشرية من ناحية والى اعتمادها على الخارج سواء فى الدفاع عنها أو إنعاش حياتها المادية من ناحية أخرى وإذا كان الحجاز قد قام بدور الوسيط فى نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب فى الفترة التى سبقت ظهور الإسلام ، باعتباره المعبر الوحيد الذى بقى آمنا ومفتوحا بين قوى الفرس والروم المتصارعة ، وكان لذلك يحصل على ثروة لا بأس بها ، فإن هذا الدور قد انتهى بعد الفتوح العربية وتوحيد العراق والشام تحت الحكم العربى ، وبذلك انفتحت الطرق الأخرى واتصلت التجارة بعد أن زالت العقبات التى فرضها الصراع القديم . ومن هنا فقد الحجاز ما كان يصله من ثروة عن طريق التجارة المارة به ، بل انتقلت عنه عناصره النشيطة التى وجدت طموحها فى مكان آخـــر ، وإذا كان الحجاز قد أصبح أعظم ثروة مما كان عليه من قبل فإن ذلك يرجع إلى ما تدفق عليه من أمصار الدولة الأخرى ، وقد جعله ذلك تحت رحمة السلطة المهيمنة على هذه الأمصار ، فقلت بذلك فعاليته من الناحية السياسية ، وفقد قدرته على التأثير الفعال فى شئون الدولة بعد أن تحولت الخلافة عنه ، وأصبح مأوى تراجعت إليه العناصر التى أقصيت عن شئون الحكم من قريش والأنصار بعد أن استأثر بنو أمية ومن بعدهم العباسيون بالخلافة . وقد أغدق الخلفاء على هذه العناصر الأموال حتى يصرفوها عن التفكير فى شئون الخلافة(١) . وقد انضافت هذه الأموال إلى ما كانت تملكه من قبل من

(١) انظر الطبرى : ٥/١٦٠ ، ٤٨٠ ، ٤٩٥ ، الفخرى (طبعة رنبرغ) ص ١٤٥ . العقد الفريد (طبعة القاهرة ١٣٠٢هـ) ١/١٤٥ .

أموال طائلة مما خلف لها آباؤها نتيجة ماوصل إلى أيديهم من غنائم وعطاء وما ملكوا من ضياع وعقارات تدر أموالا طائلة . وما جلبوا من رقيق يقوم على إدارتها وعلى خدمة الدور والقصور التي بنوها في مدينتي الحجاز « مكة والمدينة » بالآجر والجص والساج وجعلوا في أعلاها الشرفات ، فكانت قصور عثمان بن عفان وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله وعبد الرحمن بن عوف بالمدينة تسترعى الأنظار(١) ، وكذلك بني معاوية في مكة دورا يقال لها « الرقط » لاختلاف ألوانها ، جلب لها البنائين من الفرس(٢) وتبعه سراة مكة يشيدون قصورا باذخة بها في عهده وبعد عهده ، فقد روى الأزرقي(٣) أن ابن عباس قال لعبد الله ابن صفوان الجمحي صاحب ابن الزبير « هيهات هيهات . تركت والله سنة عمر . قضى عمر أن أسفل الوادى وأعلاه مناخ للحجاج ، وأجياد وقعيقعان المريحين والذاهبين ، واتخذتها وصاحبك دورا وقصورا » وقد انغمست هذه العناصر في حياة الترف ، فطعموا في أواني الذهب والفضة(٤) ، ولبسوا الخز والديباج والحلل الموشاة(٥) ، وغالوا في ذلك حتى لقد كان العرجي الشاعر يلبس حلتين بخمسمائة دينار(٦) ، وكان مروان بن أبان ابن عثمان يلبس سبعة قمص كأنها درج بعضها أقصر من بعض ، وفوقها رداء عدني بألف درهم(٧) . أما النساء فكن يلبسن الثياب الرقيقة الشفافة(٨) ويبالغن في التحلي باللؤلؤ والياقوت والجواهر الكريمة(٩) . وقد قامت على خدمة هذه الطبقة الغنية طبقة كبيرة من الرقيق من مجلوبات الفتوح من الفرس والروم ، ويقول ابن خلدون(١٠) « هذا

---

(١) ابن سعد : الطبقات (طبعة ليدن) جـ ٣ . ق ١ . ص ٧٧، ١٥٨ .
السمهودي : ٢/٣٤٢ . ابن خلدون : المقدمة : ٢٢٧ .
(٢) الأغاني : ٣/٢٨١ .
(٣) أخبار مكة (طبعة ليبسك) ص ٣٩٢ .
(٤) العقد الفريد : ١/١١١ .
(٥) الأغاني : ١/٢٢١ ، ٣٧٨ ، ٣١٠ ، ٥/٦٥ ، ٦/١٣ .
(٦) الأغاني : ١/٣٩٥ .
(٧) الأغاني (طبعة بولاق) ١٧/٨٩ .
(٨) الأغاني : ١/٤٠٤ . ديوان عمر بن أبي ربيعة (طبعة ليبسك) ص ٣، ٢١، ٤٥ .
(٩) الأغاني : ٨/٢٧٣ ، ابن سعد : ٨/٣٤٣ . ديوان ابن أبي ربيعة : ص ٢٥ .
(١٠) المقدمة ص ١٩١ .

وقع للعرب لما كان الفتح وملكوا فارس والروم ، واستخدموا بناتهم وأبناءهم ... ، واستعملوهم في مهنتهم وحاجات منازلهم ، واختاروا منهم المهرة في أمثال ذلك والقومة عليه فأفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم من اتساع العيش والتفنن في أحواله ، فبلغوا الغاية في ذلك ، وتطوروا بطور الحضارة والترف في الأحوال ، واستجادة المطاعم والمشارب والملابس والمباني والأسلحة والفرش والآنية وسائر الماعون والخرثي ... فأتوا من ذلك وراء الغاية » .

وقد انصرف أهل الحجاز إلى هذا المتاع وشغلوا به عن شئون السياسة ، وفترت همتهم عن المشاركة في أحداث الدولة الكبيرة التي كانت تموج بها أقاليم المشرق والمغرب على السواء ، فقد تبوأ الأمويون الخلافة وحصروها فيهم ، بل حصروها في بيت من بيوتهم ، وضيقوا على من عداهم من بطون قريش ، وحجروا عليهم التفكير في الشئون السياسية . أما الشام فكان العنصر المؤيد لخلفاء بني أمية ، وكان العراق هو العنصر المعارض ، فانصرف فتيان الحجاز بما لهم من مال وفير وجاه عزيز عن الإمارة والخلافة والسياسة إلى اللهو ، فكان الظرف ، وكان الغناء ، وكان الشراب والمجون (١) . وإلى جانب هذه الحياة اللاهية كانت الحياة الزاهدة الناسكة لرجال اتخذوا من جوار البيت الحرام ومن مجاورة قبر النبي ملجأ يلوذون به ، ويجعلون من أنفسهم امتداداً لعصر التقاة الزاهدين من أصحاب النبي من أمثال معاذ بن جبل وأبي بكر وعلي وعمر وأبي ذر الغفاري وحذيفة بن اليمان وأبي الدرداء وعبدالله ابن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وخصص كثير منهم نفسه للدرس والمدارسة والتعليم ، فنشأت في المدينتين الحجازيتين مدرستان للتفسير والحديث والفقه والأدب والمغازي والسير ، وقد بدأت مدرسة المدينة تتكون منذ كانت داراً للهجرة النبوية وموطناً لصحابة رسول الله الذين أخذوا عنه وسمعوا منه ، وقد اشتهر فيها كثير من الصحابة والعلماء كعلي وعمر ، ولكن أشهر من امتاز بالعلم وتخصص للحياة العلمية وكثر بها

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام : ١٧٩

أصحابه وتلاميذه ، زيد بن ثابت وعبد الله بن عمر بن الخطاب : ومن مدرسة المدينة تخرج كثير من التابعين من أشهرهم سعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ، ثم ابن شهاب الزهرى وأخيراً أنجبت مدرسة المدينة مالك بن أنس إمام دار الهجرة . وبدأت مدرسة مكة بمعاذ ابن جبل حين أبقاه النبي بعد الفتح يعلم أهلها ويقرئهم القرآن ، ثم علم عبدالله بن عباس بمكة فى أخريات أيامه ، وإليه يرجع الفضل فيما كان لمدرسة مكة من شهرة عليمة ، وأشهر من تخرج فيها من التابعين مجاهد ابن جبر مولى بنى مخزوم ، وعطاء بن أبى رباح مولى بنى فهر وطاووس بن كيسان وهو من أبناء الفرس فى اليمن وقد أدرك كثيراً من الصحابة وأخذ عنهم ، ثم انقطع لابن عباس وكان من خاصة تلاميذه ثم كان من سادة التابعين . وفى مدرسة مكة نشأ الإمام الشافعى يأخذ الحديث والفقه عن علمائها حتى بلغ العشرين فتحول إلى المدينة يتم فيها دراسته . وهكذا كانت فى الحجاز حياة علم وزهد وورع إلى جانب حياة أخرى من الترف والشراب واللهو والغزل ، وقد انتجت الحياة الأولى علماً ، وانتجت الثانية فناً بديعا من غناء وتنادر وأدب(١) .

انصرف أبناء الحجاز إلى حياتهم بشقيها اللاهى منها والزاهد ، وهذا الانصراف هو الذى يفسر لنا قلة الحركات السياسية التى نشأت فى الحجاز وضعفها ، وقد رأينا من قبل أنه لم يحدث فى الحجاز بعد حركة ابن الزبير إلا ثورة محمد النفس الزكية ، وإلا الثورة الصغيرة التى قام بها الحسين بن على الحسنى فى عام ١٦٩ هـ ، ورأينا كيف فشل ابن الزبير حين خرجت من يده الأقاليم الأخرى خارج الجزيرة ، وكيف أن الحركتين الأخيرتين لم تستطيعا الصمود أمام القوة العباسية التى تصدت لها . وطوال العصر الأموى والفترة الأولى من العصر العباسى حتى سنة ١٧٠ هـ وهى الفترة التى ينتهى عندها هذا البحث ، لم تظهر للحجاز فعالية فى الحياة السياسية ، إلا ما ذكرنا من حركة ابن الزبير وحركة محمد ابن عبد الله النفس الزكية ، ولذلك لم يشتغل الخلفاء بأمره كثيراً ، وصرفت

---

(٢) انظر : أحمد أمين : فجر الإسلام : ١٧٠ — ١٧٦ .

الدولة اهتمامها إلى الأقاليم الأخرى التى كانت تواجه الثغور وعد الفتوح ، كما كانت تموج بالثورات والانتفاضات إما من جانب القبائل العربية التى اشتعلت بينها العصبية منذ موقعه مرج راهط حتى نهاية العصر الأموى ، أو من جانب أهل البلاد الأصليين الذين أسخطهم عسف عمال بنى أمية ، وأثارتهم أحزاب المعارضة من الخوارج أو من الشيعة ، ومن أجل هذا اختصت الدولة هذه الأقاليم بكل اهتمامها ووجهت إليها أعظم قوادها وأقدر ولاتها . ونلاحظ أن الدولة منذ عهد معاوية بن أبى سفيان قد أخذت تصطنع الرجال الأقوياء من العصبيات الأخرى من غير قريش ، فإن معاوية وقد تم له الأمر بمساندة قريش بعامة وبنى أمية بخاصة ، لم يشأ أن يظل تحت سلطان هذه العصبية من قومه تشاركه ملكه وتقاسمه سلطانه ، فاصطنع الرجال من غير هذه العصبية التى تشاركه فى نسبه وتدل عليه بأفعالها فى مساندته . ومع أن معاوية جعل الخلافة لبنى أمية دون قريش ، فإنه لم يكن يريد أن يجعلها لهم بعامة وإنما أراد أن يجعلها فى بيته بخاصة ، ولذلك لم ير أن يسند ولاية الأمصار الكبرى إلى واحد من بنى أمية أو واحد من قريش ، حتى يكون لديه من القوة فى المال والرجال ما يجعله يطمح فى منافسة البيت الحاكم . ولكى لا يظهر بمظهر من يريد إبعاد قومه عن كل أمر ، وكل إليهم الولاية الضعيفة المنعزلة « الحجاز » وعلى هذا جرى المروانيون ثم من بعدهم العباسيون . ولذلك فإنه يبدو واضحا من قائمة ولاة الحجاز أنهم فى الأغلب الأعم من بنى أمية فى العصر الأموى ومن العباسيين فى العصر العباسى ، وبعضهم من قريش ممن كانوا يمتون إلى البيت الحاكم بصلة الخؤولة ، أو من العرب الموالين للحكومة القائمة . وقد أبعد الأنصار عن الولاية فلم نر لهم ذكراً فيها فى الحجاز إلا فى عهد على بن أبى طالب الذى قرب الأنصار بصفة عامة واتخذ منهم ولاة فى الحجاز وفى البصرة ومصر . وإلا فى عهد سليمان بن عبد الملك حيث ولى أبا بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم على المدينة ٩٦ هـ[1] فظل واليا عليها حتى عزله يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ وولاها عبد الرحمن بن الضحاك[2] . ولم يل فى الحجاز أحد من العلويين طوال العصر

(١) الطبرى : ٦/٥٠٥ . ابن الأثير : ٤/١٣٨ .

(٢) الطبرى : ٦/٥٧٤ — ٥٧٥ . ابن الأثير : ٤/١٦٦ .

الأموى ، ثم لم يل أحد منهم فى الفترة التى نعرض لها من العصر العباسى إلا مرة واحدة حيث ولى المنصور على المدينة الحسن بن زيد بن على من سنة ١٥٠ — ١٥٥ هـ(١) .

وكان الحجاز مصرين : مكة والمدينة ، وكانت الطائف تضاف إلى مكة فى الولاية وأحيانا تنفرد عنها بوال يعين عليها . وفى الوقت الذى كانت المدينة فيه عاصمة الدولة كانت مكة مصرا منذ عهد النبى بعد الفتح سنة ٨ هـ حيث ولى عليها حين عاد إلى المدينة بعد غزوة حنين عتاب بن أسيد ، فظل عليها مدة حياة النبى وخلافة أبى بكر وخلافة عمر حتى سنة ٢٣ هـ وإن كان ابن الأثير ذكر فى أسد الغابة أنه توفى سنة ١٣ وكذلك ذكره ابن كثير فى وفيات هذا العام ، إلا أنهما ذكراه فى الولاية على مكة حتى سنة ٢٢ هـ وهذا ما أيده الطبرى وابن حجر فى الإصابة ، ولم يرد عند هؤلاء المؤرخين جميعا ذكر للولاة الذين أورد أسماؤهم زمباور فى قائمته(٢) . ثم تحولت المدينة إلى مصر من الأمصار منذ عام ٣٦ هـ حين خرج عنها على إلى الكوفة ولم تعد إليها الخلافة مرة أخرى . وكانت المدينة هى المصر الرئيسى فى الحجاز ، فكانت تضاف إلى واليها مكة والطائف أحيانا وبخاصة إذا كان على المدينة أمير من أمراء البيت الحاكم سواء كان ذلك فى العصر الأموى أو فى العصر العباسى ، أو كان عليها رجل من كبار قواد الدولة . كما أن والى المدينة كان هو الذى يتولى إمرة الحج إلا أن يكون الخليفة نفسه هو الذى يحج أو أمير من أهل بيته ، أو يكون على مكة أمير أكبر قدرا من والى المدينة(٣) .

ولا تبدو لولاة الحجاز سياسة خاصة ، وهذا أمر طبيعى فالحجاز لم يكن يواجه ثغرا مفتوحا ، وكان هو بذاته قد فقد العناصر النشيطة التى رأت مصلحتها فى الهجرة عنه إلى الأمصار الأخرى حيث باب التقدم مفتوح فى الحرب أو السياسة أو المال . وتكاد

---

(١) ابن الأثير : ٥/٢٩ ، ٣٩ .

(٢) انظر القائمة : ترجمة حسن زكى وآخرين .

(٣) راجع نهاية السنوات عند الطبرى وابن الأثير .

المصادر تسكت سكوتا تاما عن أعمال ولاة الحجاز ، اللهم إلا من إشارات بسيطة تلمع إليها في غموض لا نكاد نستبين منه شيئا ، كما يذكر الطبرى عن أعمال الحجاج بن يوسف من أنه حين ولى المدينة فى سنة ٧٤هـ مكث بها شهرا ثم خرج معتمرا فنقض بناء الكعبة الذى أقامه ابن الزبير وأعادها إلى وضعها الأول ، ثم انصرف إلى المدينة فى صفر « فأقام بها ثلاثة أشهر يتعبّث بأهل المدينة ويتعنتهم » وبنى بها مسجدا فى بنى سلمة فهو المسجد الذى ينسب إليه « واستخف فيها بأصحاب النبى فختم أعناقهم »[1] ويرجع ذلك إلى ما قام به أهل المدينة من ثورة على الحكم الأموى فى عهد يزيد مما أدى إلى موقعة الحرة ، ثم انضمامهم إلى عبد الله بن الزبير . والحقيقة أن أهل المدينة لم يرضوا عن بنى أمية ولا عمالهم منذ خلافة عثمان بن عفان ، وكانوا ضد عثمان فى الثورة عليه ثم كانوا مع على — كما رأينا من قبل — ولم يبايعوا ليزيد إلا مكرهين . وكان فقهاء المدينة لا يقرون تصرف بنى أميه فى الاستخلاف ، ويروى الطبرى[2] أن هشام بن إسماعيل المخزومى والى المدينة ضرب سعيداً بن المسيب وطاف به وحبسه لأنه لم يبايع للوليد وسليمان حين جعل لهما عبد الملك ولاية العهد ، فلما ولى الوليد بن عبد الملك ضرب البعث على أهل المدينة ألفين ، فخرج منهم ألف وخمسمائة فغزوا الصائفة مع مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد ففتحوا طوانة وشتوا بها[3] ، وكان ذلك فى ولاية عمر بن عبد العزيز على المدينة . وقد سار عمر ابن عبد العزيز فى المدينة سيرة عدل وإحسان بين أهلها . وجعل فقهاء المدينة مستشاريه فلم يصدر عن أمر إلا بمشورتهم ، كما قام بعدة إصلاحات فأنفذ أمر الوليد بتجديد مسجد النبى وتسهيل الطرق وحفر الآبار فى المدينة[4] . وكان للسياسة اللينة التى سلكها عمر بن عبد العزيز أثر فى أن التجأ إلى الحجاز كثير من أهل العراق ممن أرهقتهم قسوة الحجاج

---

(١) الطبرى : ٦/١٩٥ .
(٢) ٦/٤١٦ — ٤١٧ .
(٣) الطبرى : ٦/٤٣٤ .
(٤) نفس المصدر : ٦/٤٣٥ — ٤٣٧ .

وظلمه ، الأمر الذى جعل الحجاج يكتب إلى الخليفة الوليد يشكو عمر بن عبد العزيز ، وأنه يؤوى الفارين منه فى مكة والمدينة ، فعزل الوليد عمر عن الحجاز ، وولى على المدينة عثمان بن حيان المرى ، وعلى مكة خالد بن عبد الله القسرى ، فهدد خالد الناس بأنه من أتى له به يطعن على إمامه صلبه فى الحرم ، وهددهم بأن من وجده أنزل فى داره أحد زائغا عن الجماعة هدم داره[1] ، كما أخرج عثمان بن حيان من كان بالمدينة من العراقيين وهدد أهلها وعسفهم وجار فيهم[2] . وقد كان بعض الولاة فى الحجاز يعسف بالناس لا جريا مع سياسة الدولة فى التضييق على الخارجين عليها ، أو التنكيل بالمعادين لها ، ولكن لحاجاتهم هم ولطبيعة فى أنفسهم ، كما فعل عبد الرحمن بن الضحاك الفهرى (١٠١ — ١٠٣ هـ) فقد آذى الأنصار جميعا فى المدينة حتى هجاه الشعراء وذمه الصالحون ، وبلغ به الأمر أن خطب لنفسه فاطمة بنت الحسين بن على ، فلما تأبت عليه محتجة بأنها لا تريد النكاح وأنها قعدت على بنيها تربيهم هددها بأن يجلد أكبر بنيها (عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن على) فى الخمر واضطرت فاطمة أن تكتب مستجيرة من ظلم هذا الوالى إلى الخليفة يزيد بن عبدالملك الذى استشاط غضبا ، فكتب بعزل عبد الرحمن بن الضحاك وبتولية عبد الواحد بن عبد الله النضرى ، وأمره بتغريم ابن الضحاك أربعين ألف دينار وبتعذيبه « حتى أسمع صوته وأنا على فراشى » وأبى أن يقبل فيه شفاعة أخيه مسلمة ابن عبد الملك حين استشفع له[3] .

وفى العصر العباسى لم يظهر لولاة الحجاز أثر إلا فيما كان يتصل بسياسة الدولة العامة فى محاربة الخارجين عليها ، وقد حدث ذلك مرتين إحداهما فى عهد المنصور حين كان يخشى محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ،

---

(١) الطبرى : ٦/٤٦٤ — ٤٦٥ .

(٢) ابن الأثير : ٤/١٢٩ .

(٣) انظر الطبرى : ٧/١٢ — ١٤ . ابن الأثير : ٤/١٨٨ .

فاستعمل على المدينة رباح بن عثمان المرى ، وأمره بتتبع خبرهما والشدة على بنى الحسن حتى يأتوه بهما ، فجد رباح فى ذلك وحبس بنى الحسن ، ثم أشخصهم إلى المنصور بالربذة وهو عائد من الحج سنة ١٤٤ﻫ[1] وظل ينفذ سياسة المنصور حتى خرج محمد النفس الزكية سنة ١٤٥ﻫ فأسر رباحا هذا . ولما قتل محمد النفس الزكية وفشلت حركته أقام المنصور على المدينة عبد الله بن الربيع الحارثى ، فعبثت جنده بالتجار واستخفوا بالناس ، ولم ينصف الوالى الناس من جنده حين شكوا إليه ، فثار به وبجنده العبيد من السودان ، فضربوا جنده واضطروه إلى الهرب إلى بطن نخل على ليلتين من المدينه ، ونهبوا مخازن دار الإمارة ،ولكن زعماء المدينة هدأوا الثورة خوفا من غضب المنصو وما يجرى على المدينة التى لم تكن قد اندملت جراحها بعد ثورة محمد النفس الزكية[2] . والحادث الثانى هو ما وقع لبنى الحسن فى عام ١٦٩ﻫ فى المدينة فى ولاية عمر بن عبد العزيز بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب ، من إجحاف الوالى عليهم ومساءتهم حتى أحرجهم وأضطر الحسين ابن على بن الحسن بن الحسن إلى الخروج على سلطان بنى العباس ثم حدوث موقعة فخ على نحو ما أوضحنا من قبل[3] .

وفيما عدا هذه الأحداث التى ذكرناها وهى قليلة جدا إذا قيست بأحداث الأمصار الأخرى فى الدولة ، لم تظهر فى الحجاز حركات ذات أثر فى حياة الدولة ، ومن ثم لم يكن لولاته دور فى مجرى الحوادث العامة ، ونستطيع أو نقول إن الحجاز بدا سا كنا منصرفا إلى لهوه أو زهده ، وكأنه إقليم منعزل من أقاليم الدولة . ولم يعد له غير مركزه الدينى وغير دوره الحضارى الذى ظل به فى مركز الصدارة من هذه الناحية حتى نافسته فيه الأقاليم الأخرى .

* * *

---

(١) انظر ابن الأثير : ٤/٣٧٠ .

(٢) انظر ابن الأثير : ٥/١٣ — ١٤ .

(٣) انظر الطبرى : ٨/١٩٢ — ٢٠٣ . ابن الأثير : ٥/٧٤ — ٧٦ .

خـــاتمة

يتبين من كل ما عرضنا له فى هذه الدراسة كيف أن الحجاز قد كان قاعدة لحركة التجميع العربى ، وكيف كانت الحياة فى مدينتيه نواة للنهضة العربية ، التى بدت تباشيرها فى القرن السادس الميلادى ، ثم آتت ثمارها بظهور الإسلام ، وقيام الدولة الإسلامية فى يثرب فى عهد النبى ، على أسس جديدة من الروابط الدينية فجمعت العرب بعد تشتت ، وربطت بينهم بعد فرقة ، فكان توحد العرب على الإسلام معجزة تحققت على يد النبى صلى الله عليه وسلم ، بحيث سجلها القرآن الكريم حين يقول « لو انفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم » ثم جاءت الخلافة الإسلامية فأتمت هذه الوحدة ، ودعمتها على يد الخليفة الأول أبى بكر الصديق .

ثم اندفع العرب إلى المجال الخارجى ، فاصطدموا بالفرس والروم أكبر قوتين فى ذلك الزمان ، فغلبوهما وأقاموا دولة امتدت أطرافها من وسط آسيا حتى غرب أوروبا ، فشملت العالم المتحضر المعروف فى ذلك الوقت ، واستطاع العرب أن يؤلفوا بين شعوب هذه المنطقة المترامية الأطراف ، فى وحدة لم يكد التاريخ يعرف لها نظيرا . واستطاعوا أن ينظموا إدارتها واقتصادها ، وينشئوا فيها مراكز للدفاع عنها ومد سلطانها .

وقد دارت رحى هذه الأحداث كلها حول قبيلة عربية كانت محور الحركة العربية كلها ، فى جاهليتها وإسلامها ، هى قبيلة قريش التى نالت السيادة فى الجاهلية بفضل ما أتاح لها قيامها حول البيت الحرام ، ورعايتها له وتنظيمها لمناسك الحج إليه ، وبما أقامت للعرب من أسواق كانت منتدى العرب ومجتمعهم ، وبما نظمت من تجارة ربطت قبائل الحجاز بها فى وحدة اقتصادية . ثم بما نالها من شرف ظهور النبى منها فآلت إليها رياسة العرب فى الإسلام كما كانت لها فى الجاهلية . فقادت العرب فى هذا الدور الذى لعبوه على مسرح التاريخ العالمى .

لكن هذا الظهور العربي لم يكن ليمضي في الطريق دون عثرات ، فليس مما هو مألوف أن تمضي الأمور كلها على سواء في سيرة الحياة ، وإنما تعرض له من طموح النفوس ونوازع الهوى ، ما شكل من تاريخه وغاير من أحداثه ، فكان ما شهدنا من الثورة على سلطان قريش في الجزيرة العربية والردة عن النظام الذي أقامه الإسلام ، ثم كانت الثورة الثانية التي قامت على الاستئثار بالحكم والمال . ثم ما نشب بين بيوت قريش نفسها من صراع على السلطان ، انقسمت حوله قوى العرب ووقع البأس بينهم . وما استتبع ذلك من ظهور الفرق ، وتشعب المبادىء .

وإذا كان الحجاز قد أخذ دور التجميع ، ثم دور القيادة والتوجيه ، فإنه لم يكن من الطبيعي وقد امتدت الدولة إلى أقاليم أوفر منه حظا في أسباب الحياة ، أن يستمر على رأس هذا الملك العريض ، أو يكون مركزا للحكم فيه ، وبخاصة بعد أن انتقلت عنه عناصره البشرية القوية النشيطة ، وأقامت حيث مراكز الثروة ومواطن القوة في الدولة . وكان لابد أن يتخلى عن هذا الدور لما هو أقدر منه عليه . فانتقل مركز الدولة متبادلا بين العراق والشام ، ولم يستكن الحجاز ، بل دافع عن سلطانه . ولكن من غير قوة كافية لإنجاح هذا الدفاع . وحين أجبرته الظروف على الخضوع لما هو محتوم في أمور السياسة ، اتخذ لنفسه دورا قياديا في أمور الحضارة .

ثبت المصادر والمؤلفات

المصادر (١)

القرآن الكريم

التفسير : الخازن (علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى الصوفى) : لباب التأويل فى معانى التنزيل (مطبعة التقدم بمصر) ١٣٣١ هـ — الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) . تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل آى القرآن) . تحقيق محمد محمود شاكر (دار المعارف بمصر) — ابن كثير القرشى (عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن عمر) : تفسير القرآن العظيم (المطبعة التجارية بمصر) ١٣٥٦ هـ .

الحديث : البخارى (أبو عبدالله محمد بن إسماعيل بن المغيرة بن بردزبة الجعفى) : صحيح البخارى (مطبعة بولاق) ١٢١٤ هـ . مالك (أبو مالك بن أنس الأصبحى) : موطأ الإمام مالك (مطبوعات المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) .

الكتاب المقدس : (العهد القديم والعهد الجديد) .

المصادر (٢)

ابن الأثير (أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيبانى الجزرى الملقب بعز الدين) : الكامل فى التاريخ (المطبعة المنيرية) ١٣٤٨ هـ — أسد الغابة فى معرفة الصحابة (جمعية المعارف بمصر) ١٢٨٥ هـ .

الأزدى (أبو إسماعيل) : كتاب فتوح الشام ، (طبعة كلكتا ١٨٥٤ م) .

الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد الوليد بن عقبة بن الأزرق الغساني) :
أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار (المطبعة الماجدية بمكة) .

الاسفرائيني (عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي — التميمي) الفرق بين الفرق .
تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (مكتبة صبيح بمصر) .

الأصطخري : (أبو القاسم إبراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي) : مسالك الممالك
(طبعة القاهرة) .

الأعشى : ديوان الأعشى (مكتبة الآداب بالقاهرة) ١٩٥٠ .

البخاري : انظر الحديث في المصادر (١) .

البكري : (أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن مصعب) : معجم ما استعجم . تحقيق مصطفى
السقا . القاهرة ١٩٥٤ .

البلاذري : (أحمد بن يحيي بن جابر البغدادي) : فتوح البلدان (مطبعة الموسوعات بمصر
١٩٠١) — أنساب الأشراف . تحقيق محمد حميد الله (طبعة دار
المعارف) . والجزء الخامس من طبعة أورشليم ١٩٣٦ .

ابن تغرى بردى : (جمال الدين أبو المحاسن يوسف الاتابكي) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر
والقاهرة (طبعة دار الكتب المصرية) .

أبو تمام : (حبيب بن أوس الطائي) : ديوان الحماسة (المكتبة الأزهرية) ١٩٢٧ .

الجاحظ (عمرو بن بحر) : البيان والتبيين . تحقيق السندوبي القاهرة ١٩٢٦ — الحيوان .
القاهرة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ .

ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد بن سعيد) : جوامع السيرة . تحقيق إحسان عباس .
وناصر الدين الأسد (دار المعارف) — جمهرة أنساب العرب . تحقيق
ليفي بروفنسال (دار المعارف) — الفصل في الملل والأهواء والنحل .
القاهرة ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ .

الحيمى (الحسن بن أحمد) : سيرة الحبشة . تحقيق مراد كامل (المطبعة الأميرية ١٩٥٨ .

الخازن : انظر التفسير فى المصادر (١) .

الخزاعى (أبو الحسن على بن ذى الوزارتين محمد بن أحمد بن موسى) : الدلالات السمعية
على ما كان فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع
والعمالات الشرعية . مخطوط دار الكتب المصرية تاريخ تيمور ٦٣٨ .

ابن خلدون (عبد الرحمن — المغربى) : المقدمة (المطبعة الشرفية) ١٣٢٧ هـ —
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (مطبعة بولاق) ١٢٨٣ هـ .

الدردير : (أحمد بن محمد بن أحمد العدوى) الشرح الكبير (طبعة بولاق) ١٣١٩ هـ .

ابن دريد (أبو بكر محمد بن الحسن) : الاشتقاق (طبعة وستنفلد) .

الدينورى (أبو حنيفة) : الأخبار الطوال . تحقيق عبد المنعم عامر . القاهرة ١٩٦٠ .

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان) سير أعلام النبلاء تحقيق صلاح المنجد
(دار المعارف) — تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام (مكتبة
القدسى) ١٣٦٧ هـ .

السرخسى (شمس الدين محمد بن أحمد بن أبى سهل — الحنفى) : كتاب المبسوط.
القاهرة ١٣٢٤ هـ .

ابن سعد (أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع القرشى الهاشمى ولاء البصرى البغدادى) :
الطبقات الكبرى (لجنة نشر الثقافة الإسلامية) القاهرة ١٩٥٨ .
وطبعة ليدن .

السمهودى (نور الدين على بن جمال الدين أبو المحاسن عبد الله بن شهاب الدين) :
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى (مطبعة الآداب والمؤيد) القاهرة ١٣٢٦ هـ .

السهيلى (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن الخثعمى) : كتاب الروض الأنف (مطبعة الجمالية بمصر) ١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ ، بهامشه السيرة النبوية لابن هشام .

السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر جمال الدين) : حسن المحاضرة القاهرة ١٣٢٧ هـ .

الشهرستانى (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن بكر بن أحمد) : الملل والنحل . تحقيق محمد سيد كيلانى . القاهرة ١٣٨١ هـ / ١٩٦١ .

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك . القاهرة ١٩٦٠ — ١٩٦٧ — انظر التفسير فى المصادر (١) .

ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد) : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب . تحقيق على محمد البجاوى (مكتبة نهضة مصر) .

ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) : فتوح مصر والمغرب والأندلس تحقيق تورى . نيوهافن ١٦٢٠ .

ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسى) : العقد الفريد (لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١٩٤٠ .

أبو عبيد (القاسم بن سلام) : الأموال تصحيح محمد حامد الفقى ١٩٣٥ .

الفاسى (السيد عبد الحى بن عبد الكريم الحسنى الكتانى الإدريسى) : التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدينة الإسلامية فى المدينة المنورة (مطبعة الرباط) ١٣٤٦ هـ .

أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى (دار الكتب المصرية ١٩٢٩ — مطبعة التقدم بمصر) — مقاتل الطالبيين . تحقيق السيد أحمد صقر القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ .

ابن قتيبة الدينورى : الإمامة والسياسة . الطبعة الثالثة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٣ — المعارف . القاهرة ١٩٣٤ .

القلقشندى (أبو العباس أحمد) : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب . تحقيق إبراهيم الأبيارى . القاهرة ١٩٥٩ — صبح الأعشى القاهرة ١٩١٤ .

ابن كثير القرشى (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر) : البداية والنهاية فى التاريخ (مطبعة السعادة بمصر) ١٣٥١ هـ /١٩٣٢ — انظر التفسير فى المصادر (١) .

الكندى (أبو عمرو محمد بن يوسف) . كتاب الولاة وكتاب القضاة (مطبعة الآباء اليسوعيين) بيروت ١٩٠٨ .

ابن الكلبى (هشام بن محمد) : الأصنام تحقيق أحمد زكى (دار الكتب) ١٩٢٤ .

الماوردى (أبو الحسن على بن محمد بن حبيب) : الأحكام السلطانية والولايات الدينية . الطبعة الأولى ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ .

المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) : الكامل . تعليق محمد أبو الفضل إبراهيم (مطبعة نهضة مصر) .

المحب الطبرى (أبو جعفر أحمد) : الرياض النضرة فى مناقب العشرة . القاهرة ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٣ .

محمد بن حبيب (أبو جعفر) : المحبر (طبعة حيدر أباد) ١٩٤٢ .

المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين بن على) : مروج الذهب ومعادن الجوهر . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٣٦٧ هـ / ١٩٤٨ .

المصعب الزبيرى (أبو عبد الله المصعب بن عبد الله) : نسب قريش (دار المعارف) ١٩٥٣ .

المفضل الضبى : المفضليات . تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون (مطبعة المعارف) ١٣٦١ هـ .

المقريزى (تقى الدين أبو محمد أحمد بن على) : النزاع والتخاصم بين بنى أمية وبنى هاشم (طبعة ليدن) ١٨٨٨ — إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء

والأحوال والحفدة والمتاع . تحقيق محمود محمد شاكر . القاهرة ١٩٤١ —
المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار . القاهرة ١٣٢٦هـ .

نصر بن مزاحم المنقرى : وقعة صفين . تحقيق عبد السلام محمد هارون . الطبعة الثانية ١٣٨٢ هـ .

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب فى فنون الأدب (دار الكتب) ١٩٤٣ .

ابن هشام (أبو محمد عبد الملك الجمافرى الحميرى البصرى) : سيرة النبى صلى الله عليه وسلم راجع أصولها وعلق محمد محيي الدين عبد الحميد (مطبعة حجازى بالقاهرة) . انظر السهيلى .

الهمدانى (أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود المعروف بابن الحائك) : صفة جزيرة العرب . تصحيح محمد عبد الله النجدى (مطبعة السعادة ١٩٥٣) .

الواسعى (عبد الواسع بن يحيي اليمانى) تاريخ اليمن . القاهرة ١٣٤٦ هـ .

الواقدى (أبو عبد الله محمد بن عمر) : مغازى رسول الله (جماعة نشر الكتب القديمة) ١٩٤٨ — فتوح الشام (طبعة كلكتا ١٨٥٤ م) .

ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى) : معجم البلدان (مطبعة بيروت) ١٩٥٧ .

يحيي بن آدم (أبو زكرياء بن سليمان) : الخراج (المطبعة السلفية) ١٣٤٧ هـ

اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح) تاريخ اليعقوبى (مطبعة الغرى بالنجف) ١٣٥٨هـ — كتاب البلدان . ليدن ١٨٩١

أبو يوسف (يعقوب بن ابراهيم) : كتاب الخراج (المطبعة السلفية) ١٣٨٢ هـ .

المؤلفات

إبراهيم نصحى : تاريخ مصر فى عصر البطالمة . القاهرة ١٩٦٦ .

أحمد أمين : ضحى الإسلام (مكتبة النهضة المصرية) .

أحمد الشريف : مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول (دار الفكر العربى) ١٩٦٥ .

أرشيبلد . ر . لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط . ترجمة أحمد عيسى .

أرنولد (سير . ت و) : الدعوة إلى الإسلام . ترجمة حسن إبراهيم وعبد المجيد عابدين (مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة) .

الألوسى (السيد محمود شكرى البغدادى) بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب . الطبعة الثالثة (دار الكتاب العربى) .

أومان : الامبراطورية البيزنطية . تعريب مصطفى طه بدر . القاهرة ١٩٥٣ .

برنارد لويس : العرب فى التاريخ . تعريب نبيه فارس ومحمود يوسف زايد . بيروت ١٩٥٤ .

بودلى : الرسول (حياة محمد) ترجمة عبد الحميد جوده السحار القاهرة ١٩٤٧ .

جلوب (جون باجوت) الفتوحات العربية الكبرى . تعريب وتعليق خيرى حماد . القاهرة ١٩٦٣ .

جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام (مطبوعات المجمع العلمى العراقى) .

جورج فضلو حورانى : العرب والملاحة فى المحيط الهندى فى العصور القديمة وأوائل العصور الوسطى . ترجمة السيد يعقوب بكر (مطبعة الأنجلو بمصر) .

جورجى زيدان : العرب قبل الإسلام . تعليق حسين مؤنس (دار الهلال) .

جولد تسيهر (أجناس) : العقيدة والشريعة فى الإسلام . تعريب وتعليق محمد يوسف موسى وعلى حسن عبد القادر وعبد العزيز عبد الحق الطبعة الثانية . بغداد ١٩٥٩ .

حافظ وهبه : جزيرة العرب فى القرن العشرين القاهرة ١٩٤٦ .

حتى (فيليب خورى) : تاريخ العرب . ترجمة محمد مبروك نافع : الطبعة الثالثة ١٩٥٣ .

حسن إبراهيم : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى . القاهرة ١٩٤٨ .

دوزى (ر) : تاريخ مسلمى أسبانيا ترجمة حسن حبشى (طبعة دار المعارف) .

رنسيمان (ستيفن) : الحضارة البيزنطية . ترجمة عبد العزيز جاويد .

سديو (ل أ) : تاريخ العرب العام . ترجمة عادل زعيتر . القاهرة ١٩٤٨ .

شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول . رسالة دكتوراه . القاهرة ١٩٥٢ .

شوقى ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الأموى . القاهرة ١٩٥٩ — العصر الجاهلى . القاهرة ١٩٦٠ — العصر الإسلامى . القاهرة ١٩٦٣ .

طه حسين : الفتنة الكبرى . القاهرة ١٩٥٣ .

عباس العقاد : معاوية بن أبى سفيان فى الميزان (طبعة دار الهلال) .

عبد الحميد العبادى : صور من التاريخ الإسلامى (العصر العربى) . الإسكندرية ١٩٤٨ .

غمود فروا (م) : النظم الإسلامية . تعريب فيصل السامر وصالح الشماع (دار النشر للجامعيين) .

فلهوزن (يوليوس) : تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية . ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة (إدارة الثقافة) ١٩٥٨ — الخوارج والشيعة . ترجمة عبد الرحمن بدوى القاهرة ١٩٥٨ .

كرستينسون (آرثر) : إيران فى عهد الساسانيين . ترجمة يحي الخشاب . القاهرة ١٩٥٨ .

ماسينون (ل) : خطط الكوفة وشرح خريطتها . ترجمة المصعبي . الطبعة الأولى ١٣٥٨ هـ / ١٩٣٩ .

محمد أمين صالح : التنظيمات الاقتصادية في مصر والشام في العصر الأموي . رسالة ماجستير غير منشورة بجامعة عين شمس ١٩٦٧ .

محمد حسين هيكل : حياة محمد (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٥٤ هـ — في منزل الوحي (مطبعة دار الكتب المصرية) ١٣٥٦ هـ . — الصديق أبو بكر (مطبعة مصر) ١٣٦٢ هـ — الفاروق عمر . القاهرة ١٣٦٤ هـ .

محمد ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية . القاهرة ١٩٦١ — النظريات السياسيه الإسلامية . القاهرة ١٩٦٧ .

محمد عزة دروزه : عصر النبي عليه السلام مطبعة اليقظة العربية) دمشق ١٣٦٥ هـ .

محمد لبيب البتنوني : الرحلة الحجازية . الطبعة الثانية . القاهرة ١٣٢٩ هـ .

محمد مختار : التوفيقات الإلهامية (مطبعة بولاق) ١٣١١ هـ .

محمود أحمد : جامع عمرو بن العاص . القاهرة ١٩٣٨ .

ناجي حسن : ثورة زيد بن علي (مكتبة النهضة — بغداد) ١٩٦٦ .

نورمان بينز : الامبراطورية البيزنطية . تعريب حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد . القاهرة ١٩٥٧ .

ولفنسون (اسرائيل — أبو ذؤيب) : تاريخ اليهود في بلاد العرب (مطبعة الاعتماد بمصر) ١٩٢٧ .

Baynes, N. : The Byzantine Empire. New York 1926.

Caetani, Leone : Annali dell'Islam. **Milano** 1905—1913.

De Gaury, Gerald : Rulers of Mecca. London 1951.

Doughty. (ch. M.) : Travels in Arabia Deserta: 2 Vol. London 1921.

Gibbon : The Decline and Fall of the Roman Empire. London 1911.

Holmes, W. G. : The Age of Justinian and Theodora. London 1905—1907.

Huzzayyin, S. A. : Arabia and the Far East. Cairo 1942.

Johnson and West : Byzantine Egypt. Economic Studies. Princeton 1949.

Khadduri. (M) : War and Peace in the law of Islam

Khuda Bukhsh : The orient under the Caliphs (translatid from Von Kremer) Calcutta 1920.

Lammens : La Mecque à la veille de l'Hegire. Bayrouth 1924 La Republique Marchand de la Mecque — Less Ahabéch et l'organisation militaire de la Mecque au siècle de l'Hegire. 1916— Etude sur la regne de Calife Mo'awiya 1er (Mélanges de la Faculté Orientale de l'Université Saint Joseph). Bayrouth 1906.

Lane — Poole : A History of Egypt in the Midlle Age. London 1901.

Macdonald. (D. B.) : Development of Muslim Theology, Turisprudan and Constitutional Theory. London 1903.

Margaliouth. (D. S.) : The early Development of Mohammedanism. London. 1914.

Milne : A History of Egypt under Roman Ruler. London 1898.

Nelson. (A. Reynold) : A Literary History of Arabs. Combridge. 1903.

O'leary, De Lacy D. D. : Arabia befor Muhammad. London 1927.

Oxford Classical Dictionary. Oxford 1961.

Twitchell, K. S. : Saudi Arabia with an Account of Development of its Natural Resources. Princeton 1953.

Vasiliev, A. A. : History of the Byzantine Empire. Madison Wis. 1925.

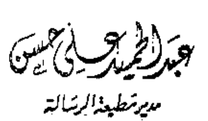
Watt, W. Montgomery : Muhammed at Mecca. Muhammad at Medina. Oxford 1956.

محتويات الكتاب

الباب الرابع

الحروب الأهلية وتضاؤل شأن الحجاز

[تم بحمد الله وتوفيقه طبع كتاب « دور الحجاز فى الحياة السياسية العامة » للدكتور أحمد ابراهيم الشريف بمطبعة الرسـالة وذلك فى محرم سنة ١٣٨٨ (الموافق أبريل سنة ١٩٦٨) والحمد لله أولاً وآخراً] .



مدير مطبعة الرسالة